

د. لطيفة محمد سالم

القوى الاجتماعية في الثورة العراقية

الجدور والأحداث



مكتبة مدبولي

القوى الاجتماعية

في

الثورة العراقية

الجزور والأحداث

الكتاب : القوى الاجتماعية في الثورة العراقية
الجزور والأحداث

تأليف : أ.د. لطيفة محمد سالم

الطبعة : الأولى ٢٠٠٤

الناشر : مكتبة مدبولي ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة

تليفون : ٥٧٥٦٤٢١ فاكس : ٥٧٥٢٨٥٤

الإخراج والتنفيذ : مكتب النصر للجمع التصويري والتجهيزات الفنية

مساكن المنصورية بالدراسة بلوك ٣ مدخل ١ شقة ٤

تليفون : ٧٨٦٣١٩٩

رقم الإيداع : ٢٠٠٣/٢١٠٥٢

الترقيم الدولي : ISBN: 977-208-460-0

القوى الاجتماعية في الثورة العراقية الجزور والأحداث

أ.د. لطيفة محمد سالم

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

ورئيس قسم التاريخ بكلية آداب بنها

مكتبة مدبولي

٢٠٠٤

المقدمة

... عرف المصريون الثورة منذ أن أيقنوا أنه لا بد من الإطاحة بالظروف التي تجعلهم يشنون تحتها ، ومن الممكن القول بأن الثورة تُعد سمة مميزة ، وعلامة واضحة ، وظاهرة مسجلة عبر التاريخ المصرى ، فهي تفرض نفسها على المصريين عندما يكونون فى حاجة ملحة إليها ، بهدف تغيير الأوضاع القائمة لما فيه مصلحتهم وتحقيق ذاتهم . ومن اللافت للنظر أن الثورات المصرية بصفة عامة لم تكن ثورات دموية ، وهو أمر يعزود إلى طبيعة المصريين التى لا تتفق مع العنف والبغض والانتقام، هذه الطبيعة اتسمت ببصمة مأبعت عليها ، نتيجة تأثرها بالدين السمح والنيل الخير والسماة الصافية . وسواء نجحت الثورة وحقت ما تصبو إليه أو فشلت ، فإنها تجربة دونها التاريخ لتكون نبزاً يهتدى به على طول الطريق .

والثورة المصرية المعروفة بالثورة العربية والتي أطلق عليها هوجة عربى - للتقليل من شأنها - هى ثورة متكاملة قامت على قواعد ثابتة ، جاءت فى وقت كانت مصر فى أشد الاشتياق لها ، لكنها لم تعط حقها ، نظراً للظروف التى أحاطت بها ، ففى ظل أسرة محمد على عُبنّت للموقف الذى وقفته منها وكان سبباً فى هزيمتها ، ولم تنل حظها مع ثورة ٢٢ يوليو ١٩٥٢ التى حرصت على أن تكون الشعلة التى أضاءت تاريخ مصر الحديث ، رغم وجود ملامح مشتركة بين الثورتين .

وفى الواقع ، فإن الثورة العربية تمثل أهمية بالغة فى سجل الحياة المصرية ، حقيقة أنها فى البداية قامت على أكتاف الجيش ، لكن ما لبثت أن تحول المصريون جميعهم إليها ، حيث شاركوا فيها على اختلاف مستوياتهم ، وكل نظر إليها بصفة خاصة ، فقد حملت المبادئ التى تسربت وتغلغلّت فى الأعماق فى فترة تطلّعت فيها مصر لإسقاط النظام القائم بأبعاده المتعددة ، المتمثل داخلياً فى حكم أوتقراطى ،

وتهاول اقتصادي ، وتخلخل اجتماعي . أما خارجياً ، فذلك التدخل الأوربي الذي أطبق بيده على مقدرات مصر ، ومن ثم كان لابد من إقامة نظام جديد ، يخضع لدستور وينهض بالاقتصاد ويحرر الفكر ويطبق العدالة الاجتماعية برفع المعاناة عن الكادحين ، وإقصاء الظروف المادية الصعبة وعلاقات الإنتاج القديمة . إذن فهي ثورة مصرية أصيلة ، اشتركت فيها قوى مصر الاجتماعية ، وتمكنت من أن تصل أصدائها للخارج ، وبذلك تعد أول ثورة تحررية في المنطقة العربية آنذاك .

وإذا كانت الثورة العربية قد درست ، فليس ثمة دراسة أو بحث تعرض لهذه الزاوية بتحليل صادق ووجهة نظر شاملة ، حيث انصبت معظم أعمال المؤرخين على تصوير الوقائع ، أما الأدوار التي لعبتها القوى الاجتماعية من أجل إخراج تلك الثورة إلى حيز الوجود ، وحملها لمبادئ وخطوات لا تقل عن ما جاءت به الثورة الفرنسية فلم تتناول بعد . وبذلك فإن هذه الدراسة - في حد ذاتها - تشكل ميداناً خصباً للدراسات التاريخية ، إذ تلقى أضواء جديدة على المحتوى الحقيقي للثورة العربية في محاولة لإعطاء بُعد سياسي ومضمون اجتماعي لكثير من الحقائق التاريخية .

ومما يزيد من أهمية الدراسة أنها جمعت المصادر من وثائق غير منشورة ومنشورة ودوريات ومراجع ، وتعد محاولة التوفيق لاستقاء المعلومات الصحيحة وتمحيصها من الأهداف المنشودة ، فالحذر واجب ، والمعيشة الكاملة للأحداث مع التحليل ضروري لمواجهة الصعوبات ، حتى تخرج إلى حيز الوجود دراسة لها الأهمية والأصالة بما يسهم في خدمة مصر والمصريين .

وهذه الدراسة تدور حول أطروحة رسالة دكتوراة للمؤلفة نوقشت عام ١٩٧٩ بكلية الآداب جامعة القاهرة ، وقد سبقت لها أن قامت الهيئة المصرية العامة للكتاب بنشرها عام ١٩٨١ بمناسبة مرور مائة عام على قيام الثورة العربية ، وسرعان ما نفذ الكتاب ، ولم يكن هناك البديل الذي يسد الفراغ في المكتبة التاريخية الاجتماعية ، لذا وبناء على أهمية الموضوع والرغبات المتعددة بشأن إعادة النشر مرة أخرى ليصبح بين أيدي الباحثين والقراء ، كان لابد من الاستجابة ، مع إجراء بعض التعديلات التي تخدم الدراسة حتى يتحقق الغرض المنشود ، وتخرج إلى النور مرة أخرى في ثوبها الجديد .

وتنقسم الدراسة إلى أربعة أبواب ، تضم أربعة عشر فصلاً ، تتقدمها تلك المقدمة وتمهيد ثم يعقبها المشهد الأخير والبيبلوجرافيا . وشمل التمهيد « مصر والتسلط الأجنبي ١٨٤٨ - ١٨٨١ » أشكال هذا التسلط ، حيث توطنت الرأسمالية الأوروبية ، وتبعها توطيد النفوذ عن طريق الامتيازات الأجنبية ، والمحاكم المختلطة ، والقروض التى أدت فى النهاية إلى الإشراف الأوروبى الذى واكبه التدخل السياسى الأوروبى ، وقد كان لحكام مصر الدور الإيجابى فى هذه الخطوات .

وتناول الباب الأول « القوى الاجتماعية فى مرحلة التكوين الثورى » ، وهو بالغ الأهمية ، حيث طرح على بساط البحث سؤالاً : لماذا اشتركت تلك القوى فى الثورة وأعطتها كل شئ ولم تبخل عليها ؟ واستغرقت الأسباب صفحات وصفحات ، وكان الإلمام بكل دقائق الظروف التى عاشتها القوى ضرورياً وملحاً ، وذلك لبيان الأسس والدعائم التى قامت عليها الثورة والتحمت فيها قوى الشعب . وقد انتقلت مع كل قوة فى ميدانها ، وصاحببتها فى فترة من أحلك الفترات التى مر بها المجتمع المصرى ، فالفلاحون قاسوا فى عصر الأسرة العلوية ، تلك القسوة التى بلغت القمة مع إسماعيل الذى عدهم عبده على أرض مصر ، فعمل مع معاونيه على تسخيرهم وفرض الضرائب التى دمرتهم ، واستخدم وسائل التعذيب معهم ، ومُلِّك الأجانب السلطة عليهم . وتبعه من خلفه فى سياسته ، مما جعلهم يعانون تحت أعباء الديون بعد أن سلبوا تماماً ، فكان لا بد لهم أن يثوروا . ولم يكن التجار والحرفيون بأحسن حالاً منهم ، فخضعوا للظروف نفسها من قسوة سلطة حاكمية وضرائب باهظة وتحكم لأجانب .

وتعرض المثقفون بجناحيهما المدنى والعسكرى لمساوئ المجتمع ، وإن كانت المؤسسات الثقافية قد أعطتهم الفرصة للتعبير عن فكرهم ، ذلك الفكر الذى أثار قوى مصر كلها عن طريق الصحافة والجمعيات العامة والسرية التى كانت بمثابة تنظيمات نمت الوعى القومى وبلورت رأى العام ، وأيضاً المسرح الذى دفع للصحة . وغُبن العسكريون فى ظل النظام القائم ، إذ وقع عليهم الجور والعسف ، مما خلق بينهم رغبة أكيدة فى التخلص منهما . وأخيراً تآتى قوة ملاك الأراضي لينضم كبارهم للسخط السائد ، وإن اختلفت الأسباب التى جعلتهم يعلنون عدم

الرضا والاستياء عن باقى القوى . وانضم لهم العمدة والمشايخ ومشايخ البدو الذين خضعوا لظروف المجتمع الصعبة ، وتفتت الأذهان ، ويشد نشاط الحركة الوطنية مع مجلس شورى النواب وتكوين الحزب الوطنى الذى استقطب مؤيدى الحرية .

وبين الباب الثانى « العسكريون والتضامن الثورى ومجابهة القوى المضادة » كيف مضى التخطيط بناء على الظروف السابقة ، إذ كان لابد أن تخضع مصر لأسلوب ثورى موحد يصب فى قالب هدفه العصف بالظلم والاستبداد . وقدر للعسكريين الحاملين للسلاح التعبير عن رفض قوى المجتمع للأوضاع القائمة ، وبدأ انطلاقهم ليكون بداية التحرك الثورى ، ونجحوا فى تحقيق مطالبهم ، ليعطيهم ذلك المزيد من المكانة والقوة والثقة ، ولتكتاف القوى وتسقط الحكومة المستبدة ، لتقوم حكومة ثورية وفقاً لرغبة الشعب ، لها مبادئها وبرامجها ، تلبى مطالب الثورة بإقامة دستور وحياة نيابية لتعيش مصر فى كنفهما بعد أن يسدل الستار على النفى والاعتقال والسجن . وعندما يقف من يحد من هذه الحريات التى أوجدتها الثورة يخلى مكانه على الفور ليحل محله من له القدرة على تسيير المسيرة الثورية ، تلك التى وقعت مسؤوليتها على العسكريين .

ولكن كانت هناك المجهودات المضادة التى قام بها أعداء مصر فى الميدانين الداخلى والخارجى ، فالأتراك والشراكسة الراضون للثورة يحاولون وأدها بمساعدة الخديو الذى رأى فيها خطراً يهدد عرشه ، وبعض ملاك الأراضى الذين أسهموا منذ البداية فى الثورة ، يتراجعون ويؤيدون المعارضة نظراً لأهواء ومصالح خاصة ، وبريطانيا وفرنسا تسعيان جاهدتين لإحباطها بغرض المزيد من التدخل فى شئون مصر ، الأمر الذى رفضه القائلون على الثورة . ومن ثم تتحدى قوى الثورة وتشتعل النفوس ضد المعسكر المضاد ، وتتصير ليتربع عرابى زعيم الثورة على قمة السلطة باختيار ورغبة قوى مصر جميعها وإصرارها ، لتمضى فى طريقها ، ويتأجج الموقف الذى بدأ بالاحتكاك بين السكندريين والأجانب ، وكانت له نتائجه على طرفى النزاع ، وينتهى الأمر بالعدوان الإنجليزى على مصر ، ويصبح على قوى الشعب أن تحارب فى أكثر من ميدان بعد أن صممت على تنفيذ برنامجها وتحقيق أهدافها ، وتم التكتاف والتعانق بين القوى ضد الأخطار القائمة ، وكانت المواجهة الحربية للغزو التى أثبت فيها العسكريون كفاءة وشجاعة شهد بها الإنجليز أنفسهم ، لكن

الخيانة لعبت دورها ، والنفوس الضعيفة للبعض خدمت الأعداء ، والمآخذ التي أخذت على قادة الثورة ، كل ذلك كان له دوره فى إجهاض الثورة .

وشكّل الباب الثالث « القوى الخارجية والموقف من الأحداث الثورية » نموذجاً لتلك الأهمية التى أحدثتها الثورة المصرية فى الأرجاء الخارجية ، وكان لتحركات الدولة العثمانية الأثر الكبير فى حياة الثورة ، كما كان لقوى الثورة أسلوب تجاه الدولة صاحبة السلطة الشرعية على مصر ، ونظرة خاصة للحاكم الإسلامى ، وهذا خلق نوعية معينة للعلاقة التى نشأت بين الطرفين، وانتهت بأن أعلن السلطان عصيان عرابى . كذلك كانت هناك محاولات بذلها كل من حليم وإسماعيل من أجل عرش مصر ، واتخذت قوى مصر منها موقفاً ، فأحياناً تؤيد الأول ، ودائماً وأبداً ترفض الثانى . وأخيراً يأتى التأييد الخارجى للثورة المصرية ، إذ لقيت الموقف المشجع من المغرب العربى والسودان والشام والحجاز ، وعضدها العالم الإسلامى فى مقر الدولة العثمانية نفسها وغاليبولى وسالونيك ثم فى الهند التى مالت ناحيتها بدرجة كبيرة ، أما أوربا فقد تعاطف معها الأوربيون ، وشاركوا بمجهوداتهم ليس فقط على أرض مصر وإنما أيضاً خارجها ، فى إيطاليا وألمانيا والنمسا وروسيا وسويسرا وبلجيكا حتى فى فرنسا وبريطانيا ، وكثيراً ما أشادت الصحافة الأوربية بالثورة وقائدها .

وركّز الباب الرابع « القوى الاجتماعية وتناغم التلاحم الثورى » على ما قدمته كل قوة فى المجتمع ، وكيف أصبحت من الثورية التى جعلتها تشارك بكل كيائها فيها، الفلاحون الذين غدوا على درجة عالية من الوعى ، وقد كونوا ركيزة أساسية فى الثورة ، ولولا التضحيات التى قدمتها باقى قوى مصر من أجل الثورة ، لأمكن أن نطلق عليها « ثورة الفلاحين » نظراً لشغلهم المكانة الوطيدة فيها ، حيث ذاقوا حلاوة الحرية على يدها ، بعد أن سمعت لهم ، وفتحت أحضانها للقائهم . ومن هنا جاء التنفيذ الثورى لإجراءاتهم سواء تجاه كبار الملاك أو الأجانب ، كما أدوا أدوار التضحية فى الميدان الحربى عن طريق تقديم كل إمكاناتهم المادية ، وتطوعهم بنفس راضية وروح عالية .

كما أن ما قام به التجار والحرفيون من اندماج كلى داخل الثورة قد شكّل كياناً له وزنه فى الميدان الثورى ، إذ كانوا معها قلباً وقالباً بتلك المجهودات المادية والمعنوية التى لم يبخلوا بها . أما الجناح المدنى من المثقفين فله الثقل الكبير فى الإعداد الثورى لقوى مصر والتشجيع على المضى والاستمرار ، وأسهم التيار الدينى بنصيب وافر ، ولقادة الطليعة الثورية المثقفة الأثر الكبير فى الفكر الثورى ، وعلى رأسهم محمد عبده وعبد الله النديم ، وقد لعبت الصحافة دورها لحماية أهداف الثورة ، وشكّلت الجمعيات التى ألقىت فيها الخطب أهمية بالغة ، إذ عدت لقاءات سياسية بلورت الفكر الليبرالى . أيضاً عمل المبتعثون والموظفون على نصرة الثورة ، واستمر ملاك الأراضى - ما عدا قلة - فى تأييدهم للثورة ، وتفانوا من أجل المحافظة على المكاسب الثورية ، ووهبوا أنفسهم لخدمة العمل الثورى ، كذلك وضع الدور الإيجابى للعمد والمشايخ خلال تلك الفترة . ومن ثم أصبحت مصر لأول مرة فى تاريخها الحديث وحدة متماسكة ، جمعت كل مصرى من الفلاح البسيط والصانع الأجير حتى صاحب الرتب الرفيعة للعمل المشترك على أرض الكفاح ، ومن هنا كانت الثورة العربية ثورة شعبية طبيعية صادقة ، نطقت فيها كل قوة معبرة عن داخلها بطريقتها الخاصة .

وأخيراً يأتى المشهد الأخير للثورة ، ليتمثل فى تلك المحاكمات التى عمدت إلى اجتثاث جذور الشعور الثورى من الأعماق ، ولكن كان من الصعب أن ينال شئ من ذلك الشعور المتأصل فى وجدان المصريين ، فبقى متحفزاً إلى أن هيات له الظروف العمل الثورى مرة أخرى . وتنتهى صفحات الدراسة بتقويم للثورة العربية .

وعلى الله قصد السبيل ،،،

الإسكندرية

٦ مايو ٢٠٠٠

لهيئة محمد سالم



مصر والتسلط الأجنبي (١٨٤٨ - ١٨٨١)

لكن ... جاءت معاهدة لندن عام ١٨٤٠ وفرمان الباب العالي عام ١٨٤١ لى يقضيا على تلك الانتصارات التى حققها محمد على ولتعود مصر إلى حدودها بعد انتصار السياسة الأوروبية ، ولتبدأ فترة جديدة من تاريخها أصبحت فيها تحت الوصاية الدولية والرأسمالية والأوربية ، وساعد على تحقيق ذلك خلفاء محمد على وما هم إلا غرياء عن مصر اجتهدوا فى أن يحققوا مصالحهم الخاصة دون مصلحتها .

ومن المعروف أن المصالح الأوربية وجدت منذ القرن التاسع عشر على وجه الخصوص بسبب الثورة الصناعية ، فالدول الغربية تسعى للحصول على المواد الخام وعلى الأسواق وعلى توظيف رؤوس الأموال ، ومصر كانت المجال المناسب لذلك .

ووجدت المصالح الأوربية فى مصر منذ فترة مبكرة ، ومع محمد على بذل الرأسماليون الأجانب المساعى ، لكن محاولاتهم كانت محدودة ، ما لبث أن قضى عليها مع عباس الذى كان يكره النفوذ الأجنبى ، وبالرغم من ذلك تمكنت بريطانيا بدائها أن تعالج تلك الشخصية القاسية ، وأن تتوغل فى أعماقها فتظفر فى النهاية بالحصول على مشروع السكة الحديدية بين الإسكندرية والسويس وتفوز بالقرب منه ، ومن هنا وضعت الرأسمالية الإنجليزية بصماتها على مالية مصر واقتصادها ، وأصبحت تتفوق على بقية الدول الأوربية بفضل الامتيازات التى حصلت عليها .

ومع سعيد انقلب الميزان لمصالح الوجود الفرنسى خاصة والأوربى عامة ، وتوسع الرأسماليون الأجانب فى تصدير الأموال للسوق المصرية على شكل قروض لتنفيذ المشروعات ، واقتضى الأمر إقامة أول بنك على أرض مصر عام ١٨٥٦

واستتبع ذلك إنشاء الشركات ومنح امتيازاتها للأجانب ، وفازت فرنسا بامتياز قناة السويس ، وتدفقت رؤوس الأموال الأجنبية ، وتربعت على عرش الاقتصاد المصرى .

ووفد الأجانب على مصر على اختلاف جنسياتهم وتجمع أغلبهم صفات المغامرة والاحتياىل ، وفتحت مصر أبوابها على مصراعيها أمام سيلهم المتدفق ونشأ ما سمي بالمصالح الأجنبية ، وألقى على مصر حماية هذه المصالح فى إطار نظام الإمتيازات الأجنبية الذى عانت منه الأمرين ، وأعطى الأجانب بسخاء على حساب المصريين .

ونجم عن الإمتيازات وجود سلطات متعددة لعدد كبير من القناصل قدر بسبعة عشر قنصلاً كل منهم الحاكم الفعلى لجاليته ، طبقوا قوانين مختلفة دائماً وأبداً تنصر رعاياهم وترعى مصالحهم . وشاع الفساد وانتشر على أرض مصر بفضل المحاكم القنصلية وانقلبت الأوضاع ، فبعد أن كانت الإمتيازات تعتبر منحة لحماية التجار الأوربيين أصبحت سلاحاً قوياً فى أيدي هؤلاء يستخدمونه لإذلال المصريين والسيطرة عليهم حتى هدموا أركان السلطة .

وصاحب النشاط الاقتصادى الأجنبى فى مصر نشاط ثقافى ، ففتحت الجاليات الأجنبية المدارس ، وقام التعليم الأجنبى فى مصر مستظلاً بالإمتيازات الأجنبية غير حافل بالدولة ولا خاضع لسلطان ولا ملتفت إلى حاجة الشعب ولا معنى إلا بنشر ثقافة البلاد التى جاء منها .

وكان محظوراً على الأجانب أن يمتلكوا الأراضى ، لكن مؤسس الأسرة الحاكمة أنعم عليهم بالأبعديات ، وسمح سعيد لهم بشراء ما يريدونه من الأراضى ، ورخص لهم بإنشاء وابورات لحليج الأقطان فى هذه الأراضى . وهكذا امتلك الأجانب كل شئ وتمتعوا بتلك الأوضاع التى أعطتهم المزيد من السيطرة ، وقد كللت بالقروض ، ورحب بها حكام مصر وسعوا إليها .

وعقد سعيد أول قرض دولى فى تاريخ مصر ، فهو مبذر حتى فيما لا يمتلكه ، وأمام ذلك كان لابد من القروض وهى وسيلة حيوية للمال الأوربى فى الريح السريع . هذه القروض كان من ورائها أهداف سياسية ، إذ أن أصحاب البيوتات المالية بإيعاز من حكوماتهم كانوا يطلبون ويلحون فى السماح لهم بالإشراف على مالية البلاد

ضماناً لقروضهم . ومضى سعيد فى هذا الطريق مؤيداً ومشجعاً من فرنسا ، وارتفعت الفوائد وأعطيت الضمانات ودائماً كانت إيرادات أراضى المديريات .

ويستلم إسماعيل الأمر ، ومصر محاطة بالديون ليستمر هو الآخر على الدرب نفسه ، وكان من الأسس التى اعتمد عليها فى برنامجها اللجوء والاستعانة بل الاعتماد الكامل على الرأسمالية الأجنبية التى راحت تتسابق خاصة بعد افتتاح قناة السويس رأس المصالح الاقتصادية والسياسية ، وبعد ذلك التغفل لمظاهر الحياة الأوروبية فى مصر ، وشهد حكم إسماعيل قمة النفوذ الرأسمالى الذى ظهر واضحاً فى تلك الشركات الزراعية والتجارية من ناحية وفى القروض من ناحية أخرى .

وكانت مهمة البيوتات المالية فى مصر تزويد أوروبا بالخامات المصرية ، والتحكم فى زراعة المحاصيل وفقاً لحاجة أسواقها ، ووضح ذلك بالنسبة للقطن كمحصول نقدى ، وكثرت الشركات الإنجليزية ومنحت الإمتيازات الواسعة ، وتعاقدت المصالح الإنجليزية والفرنسية ، وكان للنجاح السريع الذى أحرزه بنك « دى إيجبت » مشجعاً للدول على إنشاء البنوك الأجنبية ، كما أقيمت بنوك فردية ذات صلات وثيقة ببنوك لندن وباريس ، وراح التسلط البريطانى يطفى على مصر ودخل معه النفوذ الفرنسى ليشركه بعد أن ثبت أقدامه بامتياز قناة السويس ، وبذلك المشروعات التجارية ، ولا ننسى أن إسماعيل نشأته بباريسية ويميل إلى كل ما هو فرنسى ، وهذا ما دعاه أن يجعل لفرنسا المكانة الأولى فلفتها هى المستعملة ، وقانونها هو المرعى الإجراء ، وبذلك أصبح الجزء الأكبر من مصر واقعاً بين الأيدى الإنجليزية والفرنسية ، أما باقى الأجزاء فكان لبقية الدول بعد أن سيطر الأجانب على المجتمع المصرى سواء فى المدن أو الريف .

وازداد التمتع بالإمتيازات الأجنبية مع إسماعيل ، ولم تكن للأوروبيين فقط فهناك شرقيون من شوام ويهود ، واستمر استغلال القناصل فى الحصول على المزيد من الطلبات ، وأغدق الخديو العطاء عليهم ، فمَنحهم الأراضى والهبات ، وامتلات صحافة الفترة بالإكراميات التى قدرت بآلاف الفدادين لهؤلاء الأجانب الذين لم يحمدا تلك النعم ، وتمت على أيدى معظمهم حوادث الشغب التى كان لها الأثر

السيئ على المجتمع بكل قواه ، فقد خالفوا شريعة مصر وقوانينها وهددوا أمنها . وأمام ذلك كانت السلطات المصرية تقف مكتوفة الأيدي أمام سلطات القناصل . كل هذا على مسمع من إسماعيل وهو لا يتحرك ، وعندما أراد التحرك كانت النتيجة المحاكم المختلطة التي كانت لها هي الأخرى المساوي .

وفقدت مصر كيانها بذلك النظام الدولي الذي أنشأه إسماعيل ، إذ حد من سيادة مصر في التشريع والقضاء ، وأعطى الحقوق للأجانب وأجبر المصريون على الخضوع لتشريع وقضاء أجنيين عنهم في حقيقتهم ومظهرهم ولغتهم . وهكذا راح التسلل إلى السلطة القضائية ، وفُرضت المحاكم المختلطة على مصر تلك التي كانت لها سلطة أقوى من سلطة الحكومة بل وعليها .

لقد أراد إسماعيل أن يصلح الحال ويقضى على جبروت المحاكم القنصلية ، فرأى إنشاء المحاكم المختلطة للفصل في الدعاوى المدنية والتجارية والجنائية ، وأعطى امتيازها لخمس عشرة دولة أوروبية ، وحصلت على حقوق لم تكن في معاهدات الإمتيازات نفسها ، وكان من أسوأ نتائج وجودها تشريع رهن الأراضى لضمان القروض ، ونزع ملكيتها في حالة عدم الدفع .

وبذلك خضعت العدالة في مصر لأوروبيين من مختلف الجنسيات ، وكانت أحكام المحاكم المختلطة من أشد الضربات ، فقد أسرفت فيها ، وحكمت لصالح الأجانب من المقاولين والموردين والأفاقين المختلفي الملل ممن كانوا يطالبون بما ليس لهم حق فيه أو بأضعاف ما يستحقون . وهذا بطبيعة الحال أدى إلى تضخم الديون التي زادت من المتاعب ، وبهذه المحاكم أصبح المصريون أجانب في بلدهم وعلى أرضهم ، والأجانب هم أصحاب المصالح الحقيقية فيها .

ومضى إسماعيل في مسألة القروض ، فكانت حياته سلسلة متصلة الحلقات في عقدها ، فهي تعطيه الراحة النفسية التي تتفق مع أهوائه ، وكان من أدوات عظمت تلك المظاهر وذلك الإسراف الذي سهل له طريق البنوك ، واغترفت يداه من الخزانة ، لا ليرضى نزعاته الشخصية فحسب بل ليشبع نهم الطامعين الملتفين حوله . فهو يعتقد أنه حاكم لبلد لم يعد جزءاً من أفريقيا بل هو قطعة من أوربا ، وبالإضافة إلى إسرافه الذي كشفته لجنة التحقيق عام ١٨٧٨ ، فهناك حبه للتوسع في أملاكه

الخاصة من الأراضي ، كما جاءت رغبته في الاستقلال عن الدولة العثمانية ليبدل الكثير والمزيد من الأموال ، فداخليته كانت تنفق إلى ذلك ، فأعطى الذهب حتى يشتري الفرمانات التي تهيئ له ما يريد ، وكان آخرها الفرمان الشامل لعام ١٨٧٢ الذى أطلق يده في شئون مصر . هذا وقد تأثرت السوق المصرية بالتغيير الفجائي لأسعار القطن ، فانخفضت أسعاره عقب نهاية الحرب الأمريكية . فكان كل ذلك فرصة لأصحاب رؤوس الأموال الأجنبية لتمويل الخزينة المصرية . وارتقى إسماعيل في أحضان القروض ، وكان على هذه البيوتات المالية التي صارت لها الكلمة الأولى في سياسات الحكومات أن تقدم القروض أمثال « أوبنهايم ، أرلانجر ، فرهلن ، جوشن » وتستحوذ على أعلى الفوائد ، وكانت جميع عملياتها وأرباحها التي يحصلون عليها مؤيدة من دولها ، وأصبح لبريطانيا النصيب الوافر من تلك القروض .

وهكذا نمت سياسة التوسع في القروض ، وازدهرت تبعاً لذلك سياسة الاستثمار المالى المصرفى في شكل الرهونات على الأراضي التي شكلت خطراً كبيراً على مصر ، وأصبحت الإسكندرية مأوى للمرابين الذين تنافسوا على أن يقدموا عروضاً سخية يحققون من وراءها الثروات الضخمة وازدادت الديون ، وأخذت البنوك الإنجليزية والفرنسية تزين لإسماعيل طريق الاستدانة ، واستمر هو يمد يده ويأخذ وبشروط عجيبة لم تحدث في تاريخ أية دولة ، واشتملت القروض على تسعة وكان أولها في نهاية ١٨٦٤ وآخرها في عام ١٨٧٨ وارتفعت أسعار فوائدها فمجزت مصر عن السداد حتى بعد أن باعت نصيبها في أسهم قناة السويس والذي التهمته بريطانيا بأزهد الأسعار .

وأمام ذلك ، فلا بد للمزيد من التدخل الأجنبى ، وهنا كان الإشراف الأوروبى ، وهو بداية الخطوات للزحف السياسى والتدخل السافر خاصة بعد الإرتباك المالى واهتزاز ثقة البيوتات المالية في مقدرة مصر على سداد الديون . ورغبة في بث الطمأنينة طلب إسماعيل من بريطانيا أن ترسل إليه موظفاً مالياً كفتاً لدراسة حالة مصر المالية وإصلاح ما بها من خلل ، وجاءت « لجنة كيف » الإنجليزية ، واقترحت الإصلاح بأن تخضع مصر للمشورة الأوربية ، هذا في الوقت الذى أرسلت فيه

فرنسا أحد موظفيها ليعاون إسماعيل في تنظيم ماليته ، هادفة ألا تتفرد بريطانيا بمصر .

واستمر إسماعيل في سياسة التهذئة ، فوحد الديون وقرر إنشاء إدارة خاصة للدين - صندوق الدين - عين فيها موظفين أجانب لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، كان لهم السلطة الكاملة في التصرف ، ولم تكن بريطانيا راضية عن هذا الوضع الذى أشرك غيرها معها فى مسائل تريد الانفراد بها ، فرغبتها ألا ترى سلطة إلا سلطتها ، فراحتم تمارس ضغطها الذى كان من نتيجته « لجنة جوشن وجويير » وذلك لإجراء دراسة دقيقة عن الحالة ، وفرضت المراقبة الإنجليزية الفرنسية على المالية المصرية ، وغدت مصر ، كأنها تحت الحكم الشائى الذى طرق باب الممارسة السياسية ، وأسست لجنة تحقيق أوربية لصالح حملة السندات ، وعلى يدها كان لابد من ممارسة الضغط الكامل على شعب مصر . وفيها سعى العضو الإنجليزي لإحلال نظام يكون بديلاً عن المراقبة ، ويحد من سلطة إسماعيل بل وينهيها ، ألا وهو تأليف وزارة مسئولة يكون لبريطانيا وفرنسا نصيب الإشتراك فيها ، وتم له كما أراد ، وخضعت مصر لنظارة أوربية رأسها نوبار الأرمنى وتحكم فيها ناظر المالية الإنجليزي وناظر الأشغال العمومية الفرنسى .

وبذلك أنزل الخديو من على عرشه فعلياً ولكنه بقى اسماً ، فلا بد له من أن ينقذ موقفه ويعيد السلطة التى سلبت منه خاصة وأن قوى الشعب كانت تعاني تحت حكم تلك النظارة ، وتم التعاون بينه وبين الحركة الوطنية وسقطت النظارة ، لكن تكونت غيرها بنفس الوضع بناء على إصرار بريطانيا وفرنسا ، وعارضت الجبهة الوطنية ، ومضى الزحف الثورى واشتعل مجلس شورى النواب وقدمت « اللائحة » تلك التى قبلها إسماعيل على الفور وأقصى النظارة ، وسقط الناظران الأجنيان ، وكلف شريف بتشكيل نظارة وطنية ، وراح يعد الدستور الجديد . وكان لابد من بريطانيا وفرنسا من الوقوف أمام ذلك الخطر الذى يهدد مصالحهما فتم الإتفاق مع الدول وتحققت رغبتهما بعزل إسماعيل وتعيين توفيق الممثل الشرعى لسياستهما ، والذى أدرك منذ اللحظة الأولى أنه مدين بعرشه إليهما .

واستقالت نظارة شريف بعد أن رفض توفير الدستور ، وتم إسناد النظارة إلى رياض ، وعادت سلطة المراقبين مرة أخرى ليكونا مع رياض ثلاثياً أوتقراطياً له النفوذ المطلق على أرض مصر جميعها ، فمضت إجراءاتهم غير المحدودة ، وملكوا السلطة فاستولوا على كل شيء حتى حصة مصر في الأرباح السنوية لشركة قناة السويس بيعت وانتهى ما كان يربط مصر بها ، وصدر قانون التصفية بناء على توصية لجنة التصفية التي تكونت من أعضاء أوربيون لإعادة تنظيم الديون ، وتبعاً لذلك القانون وضعت مصالح الدائنين في المرتبة الأولى ، وعانت مصر وزادت الأعباء المالية على الشعب الذي تحول إلى حطام والتف حول عنقه حبل الديون .

وبعد ذلك الانتصار المالى والسياسى الذى أحرزته بريطانيا وفرنسا مضى المزيد من استغلال الأجانب ، فازدادت الاستثمارات المالية ، وصدرت أوامر توفير المتلاحقة بالموافقة على تكوين شركات أجنبية ، وتابع النفوذ الأجنبى سيطرته فى شكل بنوك لم تعد قاصرة على القاهرة والإسكندرية بل زحفت إلى عواصم المديريات ، وانتشر المستوردون للعملات المزورة والمرابون والمستغلون من السماسرة الأجانب ، وصدرت أحكام المختلطة لصالحهم . وأمام كل ذلك كانت مصر ضعيفة فاقدة لكل شيء ، سلبت منها السلطات جميعها ليتولاها الأجانب بأنواعهم ، وما عليها إلا أن تتحمل المزيد من الأثقال لتتن قواها بهذه الأعباء ، وليزداد سخطها بتلك التبعات ليتجمع ذلك كله فى بوتقة واحدة هى الثورة .

اشتركت قوى مصر الاجتماعية فى الثورة ، ومن خلال ذلك كان الحكم على العمل الثورى من حيث تأثيره على القوى الأساسية فى المجتمع ، والذى أعطاها دفعة للمطالبة بالرغبة فى إيجاد حياة أفضل تسودها العدالة التى لا تتحقق إلا بتغيير جذرى يشمل الشكل السياسى والاقتصادى والاجتماعى .

ومن هنا كانت الثورة العربية بمثابة الضرورة الاجتماعية أو الأمر الطبيعى الذى فرضته الظروف التى مر بها المجتمع من الإنحراف والظلم واستغلال الأقلية المحدودة للأكثرية الساحقة وتداخل الأجانب تداخلاً شل معانى القومية ، وقضى

على القيم ، واحتكر الاقتصاد وتغلغل في السياسة ، فكان لابد من دفع هذا الجور الذي لا حدود لسلطانه ، ففرضت الثورة على مصر لتكون حركة شاملة تهدف تغييراً أساسياً في كيان وتركيب وأيديولوجية المجتمع ، فهي شاملة ، عميقة ، عامة ، لا تحفل بالأشياء السطحية بقدر ما ركزت جهودها على أساسيات المجتمع وركائزه .



القوى الاجتماعية
في مرحلة
التكوين الثوري

الفصل الأول

الضاحون .

الفصل الثاني

التجار والحرفيون .

الفصل الثالث

المثقفون :

(أ) الجناح المدني .

(ب) الجناح العسكري .

الفصل الرابع

ملاك الأراضي .

الفصل الأول

الفلاحون

لقد ... مصر تلك الأرض الطيبة التى عاش عليها أبناؤها منذ آلاف السنين ، جرى فيها النيل ليطبّعها بذلك الطابع الذى تميزت به فى التاريخ ، وليجعلها خضراء بفضل تلك الأيادى الطاهرة التى تعمل فى صمت من أجل مصر .

والفلاحون هم سكان مصر حيث إنهم إذا قيسوا بالقوى الأخرى كانت لهم الغلبة ، فعدد زراع مصر فى عام ١٨٨٢ كان ٤,١١٩,٦٧١ نفساً من عدد السكان البالغ ٦,٨١٢,٩١٩ نفساً(*) فمصر بلد زراعى إيرادها أرضها وهذه نتيجة طبيعية لما تتمتع به من خصب تربة واعتدال مناخ وليونة سطح ، من هنا نصل إلى إمكانية إطلاق لفظ الأهالى على هؤلاء الفلاحين .

والحياة المصرية تعتمد أساساً على الأرض والفلاح ، ذلك الفلاح الذى غرس نفسه فى تربة وطنه فزاد من خصوبتها حتى ليصح أن يقال إن مصر هبة الفلاح كما أنه هبة النيل . والفلاح رجل قوى البناء شديد الأواصر صلب العود ، يتحمل الصبر ويعمل ليلاً ونهاراً ، يقاسى لهيب حر الصيف تحت وهج الشمس وزمهرير البرد فى الشتاء ، وهو يمثل البيئة المصرية الحقيقية التى تشخص الأمة المصرية من حيث العادات والتقاليد والصفات الاجتماعية والعنصرية ، أليس أبناؤه هم الضباط والعلماء والقضاة ، هذه الفئات النابعة من الريف والتى شكلت عناصر الأمة .

(*) يوسف نحاس ، الفلاح حالته الاقتصادية والاجتماعية ، ص ٦٩ ، ١٠٤ .

الفلاحون وعميد الأسرة

بمجيء محمد على إلى مصر ، وتوليته الحكم (١٨٠٥-١٨٤٨) رأى أن يملك أرض مصر وما عليها ، فقد اعتبر أن الأراضي ملك للحكومة مدعياً التسلط عليها لأنه الحاكم النائب عن السلطان العثماني ، فقام بانتزاع الأراضي وتحولت مصر تقريباً إلى مزرعة حكومية كبيرة . ووزع منفعتها على الفلاحين كأطيان مؤجرة ، وخول كل قادر على العمل زراعة ثلاثة أو أربعة أو خمسة أفدنة ، وذلك بعد أن ألغى نظام الالتزام الذي كان سائداً قبله ، فألت حقوق الملتزمين وسلطتهم إلى الحكومة التي صارت علاقاتها مباشرة مع الفلاحين الذين أصبحوا ينتفعون بالأرض ماداموا يدفعون ضريبتها^(١) ، وأخضع الفلاحين لنظام أصبحوا بموجبه تحت رحمته ، وغدا هو سيدهم الأعلى ، هدفه الوحيد تنمية الثروة وتوسيعها على حسابهم ، وهنا تحول الفلاح إلى وضع شبيه بوضع القن ، وذلك في ظل نظام الاحتكار ، فقد كان يبذر ما يؤمر به في الوقت الذي يحدد له ، ثم يقدم ما يحصده إلى الحكومة ، ولم يكن في استطاعته أن يبيع محصوله ، ولكنه كان يجبر على تقديمه للدولة وبالأسعار التي تقرر وغالباً لا تغطي ما يفرض عليه من ضرائب^(٢) .

ولم يكن من الممكن بيع الأرض أو رهنها أو وراثتها شرعياً ، وكان للدولة الحق الذي كثيراً ما كانت تمارسه في نزع الأرض دون تعويض ، وبذلك ساءت حالة الفلاح ، فلم يكن له الحق في تلك الأرض التي يزرعها ، إنما هي ملك للحاكم والباشوات الأتراك .

أما عن الضرائب فقد وصلت إلى أقصى حد حتى أنه أصبح من العسير على الفلاحين أن يمدوا أنفسهم بضروريات الوجود ، وإذا تأخروا عن أداء الضريبة نزعَت الأرض من تحت أيديهم وأعطيت لفلاحين آخرين ، وإذا استطاع الفلاح عن طريق التحايل أو المهارة أو القوة الإنسانية الخارقة في الاقتصاد أو أى شيء آخر أن ينجح في تسليم كميات زائدة كانوا لا يدفعون له نقداً ، ولكن بالأجل مقابل الضرائب المستقبلية ، وقد طبق محمد على المسؤولية الجماعية في مسألة الضرائب وكانت هذه الطريقة منافية للمبادئ الاقتصادية ، وقد تحملت القرى أثقالاً باهظة ، وتعذر على أخصب الجهات تسديد الأموال المتراكمة عليها . وبالرغم من مشروعات

(١) أحمد زكى بدوى ، تاريخ مصر الاجتماعي ، ص ٢٢٣ .

(٢) لاندز ، دافيد ، بنوك وباشوات ، ترجمة عبد العظيم أنيس ، ص ٧١ .

محمد على الخاصة بالرى ، فإن استفادة الفلاح منها لم تعوض تلك الضرائب التى ارتفعت بسببها .

أضف إلى ذلك السياسة العسكرية التى انتهجها الحاكم ، فقد كان الفلاح يجبر على التجنيد ويترك أرضه ويرحل ، وأمام هذه الظروف القاسية التى تعانقت حول الفلاح كان عليه أن يترجم ذلك الضيق بطريقة عملية فقد ترك الأرض ورحل بعيداً فى هدوء ، وعندما كان يضيق به الأمر ، كانت النتيجة إحراق وتخريب المحاصيل ، وهذا مما أدى إلى صدور « لائحة الفلاحين » التى توقع أقصى العقوبة لذلك ، ثم تلك الانتفاضات التى قام بها الفلاحون وتمكن محمد على من إخمادها . وكثيراً ما كان يهمل الفلاحون زراعة الأرض إحساساً منهم بأن ما تغله ليس لهم ، إنما هو لغيرهم .

الفلاحون وحتى بداية حكم إسماعيل

رغم أن فترة حكم إبراهيم كانت أشهراً قليلة (١٨٤٨) ، فإنها تركت بصماتها السيئة على الفلاحين الذى أساء معاملتهم ونكل بهم . أما عباس (١٨٤٨-١٨٥٤) فقد استطاع أن يخفف العبء المالى عليهم ، وأن يعيد عشرات الألوف من الرجال إلى الأرض ، كما سمح لهم بالتصرف بالبيع فى منتجات الأرض - خاصة الأرز - كما يشاءون على شرط أن يتعهدوا بتسديد الأموال المطلوبة منهم نقداً ، وفى بعض الأحيان كانت الضرائب تسدد عيناً « بقبول القطن للميرى »^(١) .

وفى عهده استمرت السخرة ، وكثيراً ما كان الفلاحون يتركون أراضيهم وزراعتهم للعمل فى مناطق بعيدة عنها ، فتأخرت عليهم الضرائب ، لذا رأت الحكومة أن تجعلهم يستغلون الأرض ، بينما ترسل إلى تلك الأعمال من « لا يملكون أطيافاً »^(٢) ، ليقع العبء على المعدمين الفقراء كما هو المعتاد دائماً .

وجاء سعيد (١٨٥٤-١٨٦٣) ليكون له الفضل فى تحويل الزراعة من الشكل الحكومى إلى الزراعة الحرة نسبياً ، ومن نظام السوق المقفلة إلى نظام السوق المفتوحة للقطن ، حيث كان فى ذلك الوقت قد ازداد الطلب على القطن المصرى من أسواق أوروبا ، ومن ثم لابد من التوسع فى زراعته ، وفى الحقيقة فإن ولاية سعيد

(١) محافظ الأبحاث ، محفظة ٤٢ ، الفلاح ، دفتر ٤٦٦ ، ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٦٩ ،

رقم ٣٧٢ .

(٢) المصدر نفسه ، رقم ٢٠٩ .

تعتبر نقطة مهمة في تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي ، إذ أنها أعطت التكوين الكامل والموقف المحدد للفلاحين ، فقد كان نظامه الذي وضعه للأراضي ثورة اجتماعية .

كانت باكورة أعماله إلغاء الاحتكار نهائياً ، فأصبح الفلاح غير مرغم على زراعة الأصناف التي تعينها الحكومة ، وبالرغم مما قدمه في اللوائح التي أصدرها بشأن الملكية الزراعية ، فإنه صرح في عام ١٨٥٥ لمن يشاء من الفلاحين أن يترك أطيانه الخراجية ، إذا كان غير قادر على زراعتها ودفع أموالها ، فترك الكثيرون أراضيهم للحكومة ، وقد بلغ ما ترك في مديرتي الشرقية والدقهلية وحدهما ٤٦,٨٦٦ فداناً وهي الأطيان التي عرفت باسم « متروك » وكان نتيجة ذلك انتقال جزء كبير من أراضي الفلاحين إلى كبار الملاك^(١) .

وفي عام ١٨٥٦ رفع سعيد الضريبة على الأراضي الخراجية المتوسطة والقليلة الجودة من الربع إلى الثلث ، وهذا أيضاً دفع الفلاحين لترك أراضيهم^(٢) ، واستمرت السخرة مع سعيد .

أما عن العلاقة بين سعيد والضرائب ، فقد أصبحت تقضى نقداً لا عيناً ، ولكن أعطيت التسهيلات بأنه من الممكن في بعض الحالات وعند الضرورة إذا تعذر النقد تُقبل العينية وخاصة القطن ، كذلك رأى أن توزع الضرائب على الأفراد لا على القرى ، وأن يقوم بتحصيلها الصيارفة المخصصون لها لا مشايخ البلاد ، وتنازل عن جميع متأخرات الأموال المطلوبة من الفلاحين ، أيضاً عدلت أوقات جمع الضرائب ، فأصبحت تتناسب مع موسم حصاد المحاصيل ، كما حددت قيمة الضرائب نفسها وقيدت في سجلات خاصة^(٣) .

ويعتبر عهد سعيد هو فترة التعاطف مع الفلاح ، حيث إنه قد أغلظ مع كبار الملاك الذين فرض على أراضيهم ضريبة العشر بعد أن كانت معفاة من الضرائب ، كما حرم على مشايخ القرى إرغام الفلاحين على العمل دون أجر أو تمويل ، وفي عام ١٨٦١ أمر بشنق أحد المشايخ في منوف بسبب ممارسة الظلم والطغيان على الفلاحين^(٤) .

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١٢٠ ، تراجم عباس وسعيد وإسماعيل .

(٢) Bear , A History of Landownership in Modern Egypt 1880 - 1950 , P. 30 .

(٣) محافظ الأبحاث ، محفظة ٤٢ ، ترجمة الوثيقة التركية رقم ٦٦ ، رقم ١٤٧ .

(٤) بير ، ج ، دراسات في التاريخ الاجتماعي لمصر الحديثة ، ترجمة عبد الخالق لاشين وعبد الحميد فهمي الجمال ، ص ١٢٣ .

وكانت الخدمة العسكرية لا تتجاوز طبقة الفلاحين ، فجعلها سعيد إجبارية فى كل الطبقات ، وسن لها نظاماً للاقتراع يدعى بموجبه جميع المصريين بلا فارق بينهم إلى حمل السلاح .

ومنذ أن وجدت الملكية الفردية مع سعيد ، أصبح هناك فلاحون من متوسطى الملاك يعيشون من ريع أطيانهم ويزرعونها بأنفسهم ، وكانوا أصغر من صغار الملاك بالنسبة للمكانة الاجتماعية ، وقد استطاعوا أن يوسعوا فى بعض الأحيان من أملاكهم عن طريق مشتروات الأراضى من الميرى(*) ، أيضاً هناك أصحاب الملكيات الصغيرة - صغار الملاك - الذين يزرعون أراضيهـم وأحياناً لا تكتفيهم ، فيعملون لدى كبار الملاك ، وأخيراً نجد من لا يمتلكون شيئاً ، وكانوا السواد الأعظم ، وهما ثلاثة أنواع، يقومون على الدوام فى أراضى الملاك ليزرعوها ، ويكدون كدهم اليومي بأجور مختلفة .

النوع الأول يتمثل فى العمل لقاء الربع أو الخمس أو السدس من جميع حاصلات الأرض وفقاً لخصوبتها ، ومتوسط هذه الحصة يرجع إلى نحو ثمانية جنيهاً فيما عدا القطن الذى يستولى عليه صاحب الأرض ليبيعه بالأثمان التى يراها . ويكون الفلاح فى حالة سلف مستمرة من صاحب الأرض فيخصم نصيبه من ريع القطن ، وحتى ما يأخذه من أصناف عينية كان صاحب الأرض هو الذى يقدر ثمنها كما يشاء ، ويتحمل الفلاح ما ينفق على الأفراد الذين يستخدمون لمساعدته خصوصاً عند جنى القطن . ويشبه هذا النظام إلى حد كبير نظام الأفتان الذين هم مسخرون لصاحب الضبعة ، لا يملكون من أنفسهم شيئاً بل هم وأزواجهم وأولادهم خدم عنه صاحب الأرض .

والنوع الثانى يتمثل فى العمل باليومية ، فالمقيمون بأراضى كبار الملاك والذين تستأجر كل عائلة منهم عدداً من الأفدنة ، عليها أن تضع تحت تصرف صاحب الأرض عدداً معيناً من العمال الزراعيين يستخدمهم فى أرضه ، ولهم أجر يومي يتراوح بين قرشين أو ثلاثة قروش تخصم من الإيجار المطلوب للمالك ومن الديون التى تكون على العائلة ، وكثيراً ما كان الملاك يتحكمون فيهم ، وذلك عن طريق الخصم من يومياتهم ، وهذا يعطى إحساساً للمالك بذل العامل ، وأنه لا يشاركه فى محصولات أرضه فيصبح الأمر الناهى عليه .

(*) على بركات ، تطور الملكية الزراعية فى مصر ١٨١٣ - ١٩١٤ وأثره على الحركة السياسية ،

والنوع الثالث يتمثل في عمال التراحيل المعذبين في الأرض ، الذين يعانون الجوع والفقر ، وهم أتعس الفئات دائرون للبحث عن عمل ، أجورهم زهيدة جداً ، وفي الوقت نفسه ملزمون بإحضار طعامهم معهم ، ويكثر هذا النوع في الوجه القبلي ، حيث تقل زراعة القطن ، وأيضاً المساحات الزراعية ، وحالتهم هي أسوأ الحالات يتألمون طوال مدة العطلة ، وهذا يجلب عليهم المضار فتتخفض أجورهم ، كما كانوا يتعرضون للضرائب التي تبلغ قيمتها من « عشرة أيام إلى خمسة وعشرين يوماً كل عام »^(١) .

السياسة الضريبية ودمار الفلاحين إلى قيام الثورة

بدهى جداً أنه عندما يذكر اسم إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩) يقتترن فوراً بالأموال ، تلك التي كان على شعب مصر أن يقدمها بمختلف الطرق ، والتي تمثلت في الضرائب ، وقد اجتمع أكثر من سبب ليؤدي إلى هذا الوضع الضريبي الذي قاست منه مصر أثناء هذه الفترة ، وقد ارتبط بشخصية إسماعيل والمحيطين به والتغلغل الأوربي الذي نخر في مصر .

كان أساس الدخل في مصر هو الضريبة العقارية ، فالأراضي تنقسم إلى خراجية وهي التي يدفع عنها ضريبة الميري كاملة ، وأراضي عشورية ويدفع عنها ضريبة مخفضة إلى الثلث ، وفي خلال عهد إسماعيل ، كان هناك ٤,٨ ملايين من الأقدنة من الأراضي الخراجية ، ١,٢٥ مليون من الأراضي العشورية ، وقد زاد الميري المفروض على كلا النوعين من الأراضي في بداية عهد إسماعيل بنسبة ٢٥% ، وكان متوسط الضريبة في نهاية عهده يبلغ ١,٢ جنيهًا إنجليزيًا على الصنف الأول ، ٠,٣٧ من الجنيه الإنجليزي على الصنف الثاني ، والدخل الذي يدره الميري سنوياً يقدر بـ ٤,٥ ملايين من الجنيهات المصرية^(٢) . ولم يكن هذا كافياً لسد متطلبات الحاكم حتى بعد أن كان يجمع لمدة أعوام قادمة ، لذا فلا بد من زيادة الإيراد عن طريق رفع ضريبة الأرض ، واستعمال كافة الضغوط لتحصيلها ، بل وخلق ضرائب جديدة ، كل هذا من أجل مصلحة الحاكم لخدمة الديون وفوائدها ، وبذلك لم تكن هناك قاعدة معينة تسيّر عليها الضرائب .

(١) يوسف نحاس ، المرجع المذكور ، ص ١٠٨ ، ١١٤ ، ٢١١ ، فارمان ، مصر وكيف غدر بها ترجمة عبد الفتاح عنایت ، ص ٢٢ .

(٢) مارلو ، جون ، تاريخ النهب الاستعماري لمصر ١٧٩٨ - ١٨٨٢ ترجمة عبد العظيم رمضان ، ص ٢٣٩ .

وجاء المفتش الوزير المالى لإسماعيل لكى يساهم مساهمة فعالة فى تحطيم الفلاحين ، فهو صاحب تلك السياسة الضريبية الفادحة التى صنعها لتعذيب أهل مصر من أجل مصلحة سيده ومصالحته هو الآخر .

بدأ بواكير أعماله بزيادة الضرائب على الأراضى الخراجية والعشورية بنسبة السدس وتحصيلها لمدة أربع سنوات متوالية ، كما فرض ضريبة على الرى بلغت قيمتها ١٠% من الميرى المفروض ، ثم ضريبة دمغة مقابل الورد الذى تعطيه الحكومة كل سنة ، وضريبة دفاع على كل فدان ، ولم يكن هناك عدالة فى التوزيع بين الأراضى الخراجية والعشورية ، ومعروف أن الأولى خاصة بالكثير والثانية خاصة بالقليل ، وفى عام ١٨٧٧ بلغ مجموع الضرائب الخراجية ٣,١٤٣,٠٠٠ جنيه أى تسعة أضعاف المتحصلة من العشورية بالرغم من أن مساحة الخراجية لا تزيد على العشورية إلا ٢,٦ مرة ، ومضى الارتفاع حتى وصلت الضريبة الخراجية إلى ٢٠٠ قرش بينما كان متوسط العشورية ٣٠ قرشاً^(١) .

وُنُفذ قانون المقابلة على يديه ليكون شكل المظهر واقعى الفعل ، بل وأصبح إجبارياً ، فمالك الأرض إذا دفع الضريبة السنوية مضافاً إليها ستة أمثالها دفعة واحدة أو على ستة أقساط على الأكثر له فوائد ٨,٥% على المبالغ التى يدفعها مقدماً ، وبذلك يخفض له نصف الضريبة السنوية إلى الأبد ، وقد ثبّت ذلك حقوق الملكية الفردية ، وفيما بعد اعتبر قرضاً من الأهالى وصار توقيف خصم الامتياز^(٢) .

وكانت ضريبة الملح عبئاً جسيماً وعانت منها الأمة ، إذ احتسبت كمية الملح التى تستهلكها كل قرية على حسب تعداد سكانها وتحصل ضرائبها ، فأصبحت إلزامية ونتج عن ذلك « تسحب وتشئت الأهالى من بلاد إلى بلاد للتخلص من هذه الورطات التى منها تكاثرت البقايا عليهم واضمحلت أحوالهم »^(٣) .

وزاد على ذلك ضريبة الرأس ، تلك التى أجبر الفلاحون على دفعها ، وحتى من لا حرفة ولا مهنة له ، مرس الضغط عليه حتى دفعها ، كما فرضت الضريبة الشخصية عام ١٨٧٥ وهى من أشد الضرائب ظلماً وأقلها عدلاً ، وفرضت لمدة أربع سنوات مؤخراً ، ودافعها يدفع أيضاً ضريبة الويركو - الفردة - وهى لا يطالب بها

Cromer, The Earl of, Modern Egypt. Vo. I, pp. 144, 145.

(١)

(٢) دفتر قيد محاضر مجلس شورى النواب ، محضر ٢٦ محرم ١٢٩٦ (٢ فبراير ١٨٧٩) ، ص ٥٧ .

(٣) المصدر نفسه ، محضر ١١ صفر ١٢٩٦ (٢٣ فبراير ١٨٧٩) ، ص ص ٦٣-٦٦ .

فقط كل ذي حرفة من دافعي العوائد بل تلقى على كل من لا يستطيع أن يبرهن على دخل عقارى بأن يبدى حجة ملك ، وتراوحت بين ٥٠، ٧٥ قرشاً^(١) ، أما ضريبة الدخول فكانت تقام على حدود كل مدينة . وجميع ما يدخل في هذه الحدود ، تؤخذ عنه رسوم ، وبالرغم من دفعها ، فلم يكن يسلم الأمر من الاستمرار في الدفع لنفس السلعة » فإذا بيع الخروف في البندر بمائة قرش دارجة يؤخذ عليها أولاً خمسة قروش صاغ ، ثم عشرة رسم دخولية ، ثم خمسة عوايد ذبيح ، ثم قرش ونصف رسم قبالة ، وثمان علف ، جملة ذلك واحد وعشرون قرشاً ونصف قرش صاغ تساوى ثلاثة وأربعون دارجة وهي تقارب ثمن الخروف هذا فضلاً عما يدفعه صاحب الخروف لخدمة الملتزم بدعوى سمسرة^(٢) . كذلك أوجدت ضرائب من لا شيء لمجرد الظلم والعدوان ، وخضع النخيل للضريبة أيضاً ، فكل نخلة عليها عشرة قروش سنوياً وحتى ذلك النخيل الذي لا يطرح ، فمقررة عليه الرسوم كما تؤخذ ضرائب على السعف والأفرع والليف والخص ، أى أنه كان يفرض « ست ضرائب على النخلة خلاف التي تؤخذ على نتاجها »^(٣) . وفرضت على الفلاحين ضرائب الطرق ، كما اختلقت ضريبة الوطن وضرائب أخرى ليس لها اسم ولكن لمجرد الحاجة للمال ، وبإقرار الجميع من الذين أرخوا لتلك الفترة وخاصة من الإنجليز ، أنه لا يوجد شعب علي الأرض تحمل ما تحمله شعب مصر في ظل ذلك الإسراف من الظلم على يد إسماعيل .

ولم تكن يد إسماعيل فقط ، بل أيضاً المراقبة التي قامت بالتزاماتها خير قيام نحو دفع الكوبونات حتى كانت تدفع قبل أن تحل آجالها ، وفي فترة بسيطة تمكنت من تحصيل ضرائب قدرت حصيلتها بمبلغ ١٠,٦٠٠,٠٠٠ جنيه^(٤) . ورات الإدارة الأوربية أن تقرب ميعاد استحقاق فوائد الدين الموحد من فوائد الدين الممتاز ، فبدلاً من تأخيرها إلى ما بعد مواسم الحصاد ، جعلتها في أول مايو وأول نوفمبر ، وبذلك أصبحت أوقات دفع الكوبون لا تتفق مع أوقات الحصاد ، وكان لهذا أبلغ الآثار السيئة . وجاءت النظارة الأوربية الأولى لتمضي رحلة العذاب الطويلة للفلاحين ، وعلى كل محطة القسوة والبؤس والفقر والظلم ، تجمع ذلك كله في إطار موحد كانت منه الضرائب ، فقد فرضت ضرائب جديدة وزادت من الضرائب القديمة ، وأصبح هناك إدراك عام حيث ظهر الاستياء على الجميع ، بعد ذلك

(١) الوقت ، عدد ٧٧٩ في ٢١ يناير ١٨٨٠ . (٢) التجارة ، عدد ١٢٩ في ٣٠ نوفمبر ١٨٧٨ .

(٣) الوطن ، عدد ٨٩ في ٢٦ يوليو ١٨٧٩ .

(٤) Hansard's Parliamentary Debates , Commons, Vol. CCLIII, August 4, 1882, p. 1691.

الإحساس الذى سيطر عليهم من أن مصر مدارة بالأجانب ، وهذه المعاناة التى عاشها فلاحو مصر كانت لها الأصداء خارج أرض مصر ، فترى صحيفة السلام التركية تقول « إن العرب من فلاحى مصر المنكود حظهم قد سلب منهم كل شيء حتى لم يبق عليهم سوى جلودهم »^(١) .

وعندما ذهب النظاراة الأوربية وجاءت نظارة شريف ، استمر الأمر ولم ينقطع ، فشاهين باشا وعمر لطفى باشا من أصحاب السمعة فى ابتزاز أموال الفلاحين ، ومشهوران بتلك القسوة الزائدة ، فذهب الأول إلى البحيرة والثانى تنقل بين المديرىات ، وذلك لتعجيل تحصيل الضرائب لأجل استحقاق مايو ، وكان المبلغ المطلوب مليوناً ونصف مليون جنيه ، ففرضوا على كل بقعة بأن تؤدى فى الحال المبلغ المطلوب منها^(٢) .

القائمون على الضرائب والفلاحون

كان الجهاز الإدارى الذى أخذ على عاتقه تكثيف قواه من أجل المزيد من الأموال جهازاً فاسداً يعمل ليفيد ويستفيد ، يفيد الحاكم ومن حوله ومدينه ، ويستفيد لصالحه على حساب ذلك ، والذى يدفع ويتحمل ذلك الفلاح المطحون والمحاط بأسوأ الظروف .

وبيعت الوظائف فى ذلك الجهاز على أساس أن من يتولاها سوف يعوض ويرتفع إلى أعلى درجات الثراء ، فمدير المديرية يدفع ألف جنيه ، ووكيلها من أربعمئة إلى خمسمئة جنيه ، ومحصل الضرائب الرئيسى أربعمئة جنيه ، وناظر القسم من مائة جنيه إلى مائة وخمسين جنيهاً ومحصل الحى مائة جنيه^(٣) .

وأصبح يكفى أن يحتاج الخديو أو الحكومة إلى مبلغ معين ، فتصدر الأوامر ، وهنا تتحرك السلسلة المعهودة لتصل إلى الفريسة فى النهاية لتبدأ المأساة مع الفلاحين « فالمأمور دائر فى البلاد بالعدة ورجال السوء المستعدة لضرب النساء والرجال والخدم والعيال لا يعرف من العربى إلا إرم الأرض ، فالضرب عندهم هو الغرض ، والرحيم هو من يقول اضرب على رأسه واكتم على أنفاسه ولا تسمع من كل متعوس إلا هات الفلوس »^(٤) . وكان هؤلاء يطبقون أبشع طرق الاستغلال ، وجاء

(١) السلام عدد ١ فى ٢٤ يوليو ١٨٧٩ .

(٢) صدى الأهرام ، العددان ٦٠٤ ، ٦٠٥ فى ١٢ ، ١٥ أبريل ١٨٧٩ .

(٣) Blue Books , Egypt, No. 1, (1880), Inclosure I, No. 31, April 1879. p. 22.

(٤) عبد الله النديم ، مذكرات جمعها محمد خلف الله أحمد تحت عنوان عبداً الله النديم ومذكراته السياسية ، ص ١٥ .

في التقرير التمهيدى الذى وضعه بارنج وكرامر فى ٦ أغسطس ١٨٧٨ ما يفيد : «ينفذ الشيخ أوامر المدير ، والمدير أوامر المفتش العام ، والمفتش العام أمر من له السلطة العليا وأمره هو القانون ، يمثل له رجال الحكومة ولو كان شفوياً ولا يخطر على بال ممول أن ينازع من وجوده أو يحتج على مضمونه ، وأما من جهة الضرائب فالفلاح لا يجرؤ أن يشكو لعلمه أن الأمر صادر من فوق ، وإذا كان الطالب هو ولى الأمر فإلى من يذهب المشتكى ؟» (١) .

وقد لعب المأمورون دورهم فى مضاعفة الضرائب المقررة ، وانحاز المديرون إلى جانب السلطة القوية لكبار الملاك على حساب الفلاحين ، فعندما كان يلجأ إلى أحدهم فى تداعيات « فيستبيح العدول عن نهج الحق فى التحقيق رعاية وميلاً لجانب البك وتكون النتيجة إضاعة حقوق الأهالى » (٢) .

وكان المدير يؤدى إلى ناظر المالية المبلغ المطلوب منه ، فلا يصل كله إلى الخزينة بل يقتطع الخديو جزءاً منه سرياً ثم يليه الناظر ، والمدير لا يفوته قبل ذلك أن يستقبض لنفسه نصيباً مما جباه ، ومأمورو المراكز يسبقون المدير إلى هذه الوسيلة « وقد تجبى الحكومة أكثر مما هو مطلوب إذ أنها لا تعطى إيصالات » (٣) ، وكثيراً ما لجأ الفلاحون للقروض حتى ترفع عنهم أعباء القسوة ليدفعوا الرشوة ويؤجل المطلوب منهم ، وقد وُضع لذلك قائمة بالأسعار . أما الصيارفة - مأمورو التحصيل - فدائماً ما كان الفلاحون يتعرضون لنياتهم الخبيثة فى المغالطة فى الحساب (٤) ، فلم يكن لهم أجور ثابتة بل يتقاضون نسبة معينة من جملة الأموال التى يحصلون عليها . ومن هنا لعب الطمع والجشع دوراً كبيراً ، هذا بالإضافة إلى احتياجات الحياة التى جعلتهم يمدون أيديهم ، بل وتفننوا فى أساليب الاختلاس حتى لقد وصل الأمر أن بعضهم « قد ألزموا الفلاحين على بيع أطيانهم بغياً وطفياً » (٥) . وكان لمشايخ البلد دورهم ، فكل شيخ سعى فى أن يعين ابنه فى جهاز التحصيل ، ليتمتع بذلك النفوذ والثراء ؛ وضغطوا على الفلاحين ، ففى شكوى من فلاحى واهايا بناحية سندبسط مركز زفتى غربية من شيخ بلدهم يصفونه بأنه

(١) يوسف نحاس ، المرجع المذكور ، ص ٤ .

(٢) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٧ ، دفتر رقم ١٩٠ ، أوامر عربى ، صورة الأمر الكريم رقم ٥ فى ١٢ جمادى الآخرة ١٢٨٠ (٣٠ نوفمبر ١٨٦٣) .

(٣) Bemlan , Van , L'Egypte et L'Europe, p. 60.

(٤) الوقائع المصرية ، عدد ٨٢٨ فى ٧ ديسمبر ١٨٧٩ .

(٥) الوطن عدد ٦٠ فى ٤ يناير ١٨٧٩ .

« رجل جبار ويسلب أموال الناس بالباطل ويتداخل فى الحقوق الميرية بقصد خراب الفلاحين »^(١).

وسائل التعذيب ونتائجها

اختلف التحصيل وطرقه من قرية إلى أخرى ، ومن مسئول إلى آخر ، فكل على شاكلته ، وكل وله طريقته ، لكن الإطار العام كان الاستمرار فى التحصيل الجبرى وفقاً لقانون محمد على « القانون المنتخب لعام ١٢٦١ » (١٨٤٥) القائم على العقاب بالضرب ، والكرباج الذى سرى على الفلاحين وتآلم به ظهورهم .

فكان المدير له السلطة المطلقة ، يقول النديم : « يمر فى البلاد ومعه الجزار والخازوق والسياف والمشنقة ، فلا يمر عليه صباح إلا بقبض الأرواح وربما لف الرجل بالقماش والزيت الحار وأحرقه بالنار ، أو يلبس رأسه طاسة محمأة أو يدفنه بالحياة ، حجته عند الوالى أنه متأخر فى المال أو عاصى عن الأشغال »^(٢).

ومن أجل دفع الكوبونات ، ومع السيطرة الأوربية من مراقبة وغيرها ، كان لابد من المزيد من الأموال وبالتالي المزيد من التعذيب ، فازداد استعمال الكرباج على أجسام الفلاحين ، ومع النظارة الأوربية الأولى أصدر ولسون منشوراً للمديرين والمأمورين ، مفاده أن يحصل من الفلاحين الأموال المتأخرة عليهم لسنوات ٧٦ ، ٧٧ ، ١٨٧٨ ، وإذا كان هناك تمنع فيكون الإلزام « بيع الأرزاق والمحصولات ، ثم بيع المواشى والأطيان بل زاد على ذلك بأن أمر بالاستعانة بالقساوة القديمة » ، كما أنه استدعى مأمورى التحصيل وقدر لكل منهم قدرًا من المال وحتمية إحضاره^(٣) ، وكثيراً ما كان الفلاحون يعذبون من أجل ضرائب لم يؤمر بها فقد ذكر « أن ناظر المساحة وصل فجأة إلى قرية فوجد العدة أى الفلقة والكراييج ملطخة بالدماء وعرف بأن السبب ضرب ستة رجال لدفع ضرائب لم يأمر بها ناظر المالية ، بل كان المقصود من جمعها أغراض غير جائزة »^(٤) . وكلما شدد الدائنون الأوربيون فى المطالبة ، كلما ازداد الكرباج من أجل تحصيل الضرائب مضاعفة ، وكما قال أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى « إن صوت الكرباج يسمع على ظهر الفلاحين المرهقين المثقلين بالضرائب والأعباء ، من أجل الحصول على الذهب لإمداد البيوتات المالية لجوشن

(١) محافظ الداخلية ، محفظة ٤٥ ، غاية جمادى الأولى إلى ٢٩ شوال ١٢٩٦ (١٨٧٩) .

(٢) عبد الله النديم ، المصدر المذكور ، ص ١٥ ، ١٦ .

(٣) التجارة ، عدد ١٦٦ فى ١٤ يناير ١٨٧٩ .

(٤) الوطن ، عدد ٣٧ فى ٥ أبريل ١٨٧٩ .

ومماثلين»^(١)، وكان ذلك هو الصدق بعينه . أما عن السجون فقد كانت دائماً مرحلة بروادها ، فقد زج بالفلاحين فيها مكبلين بالحديد ليلاً ونهاراً متحملين أشد أنواع العذاب والقسوة ، يتركون ثلاثة أيام بدون طعام ويعملون بالأعمال المضنية الشاقة ، بل ويضربون أثناء القيام بها وتصف صحيفة التجارة حالة الفلاحين في السجون فتقول : « فمن صارخ من ضيق القيد الحديد ، ومن متوجع من أحكام التخشيب ، ومن متضجر من ثقل الخشبة »^(٢) .

كذلك كانت هناك طرق أخرى لتعذيب الفلاحين التعساء ، فالمدير يأتي بقطعة من القماش بعد أن يغمسها في الكحول ويشعلها بالنار ويقربها من فم الفلاح في الوقت الذي يلکم في صدره وبهذه الطريقة يستنشق اللهب المشتعل ، كما يحضر قطعة من ناب فرس البحر لها جزء مدبب ويؤخذ بها جسم الفلاح ، وأحياناً كان العاجزون عن الدفع يؤخذون إلى مراكز المديریات للعمل كخدم ويسمون « طوافة السائرة بكل مركز سبعون وهم من مستضعفی الفلاحين عليهم للميرى أموال ، وهم ذوو عيال وبعضهم يجوب البلاد بالجوابات ساترا الآتات ، وبعضهم في خدمة عمال المراكز كل الأوقات ، وبعضهم في خدمة الكتاب ، وبعضهم في خدمة الأصحاب ، فما كان هؤلاء المساكين الضعفاء المظلومين إلا غنيمة لهؤلاء »^(٣) .

أما عن القواسين وهم من أدوات العذاب ، فكم قاسى الفلاحون منهم فقد كانوا لا يرحمون أبداً ، وتشير صحيفة الطائف إلى ذلك القواس الذي اعترض إحدى الجنازات ، وأمر بإنزال النعش من فوق أكتاف المشيعين حتى تدفع الضريبة التي كانت مستحقة على الميت^(٤) .

وبذلك مارس القواسين سلطتهم إلى أبعد الحدود وعدوا من بين البلاء الذي حل بالفلاحين ، وكان بجوارهم عساكر « الباشبوزق » وهم خليط من الأجناس يوجدون في سناجق المديریات يعيشون في الأرض فساداً ويحصلون أيضاً الضرائب بطريقتهم الخاصة ، وكان سعيد قد أعطاهم الكثير من السلطات بعد أن حلهم محل عساكر الضبطية ، فمارسوا جميع الوسائل المتناهية في القسوة مع الفلاحين .

وقد بلغ الأمر أنه عندما يكون هناك أحد المراكز عليه ضرائب ، كان مأمور الضبطية يصاحبه مأمور التحصيلات مصطحبين بيكباشى ومعهم بلك جهادية ، لاستخدام الطرق الموصلة للحصول عليها .

Commons, Vol CCXXIII, August 12, 1882, P. 1898 .

(١)

(٢) التجارة ، عدد ٩١ في ٢١ سبتمبر ١٨٧٨ .

(٣) الوطن ، عدد ٦٢ في ١٨ يناير ١٨٧٩ ،

Cromer , op. cit., Vol II, PP. 389, 397 .

(٤) الطائف ، عدد ٦ مايو ١٨٨٢ .

وساءت حالة الفلاحين إلى أقصى درجة ، فتقول التيمز : « دعتهم الضرورة أن يستعملوا الأطعمة الخشنة والملابس الغليظة الرثة ، وذلك لما يعانونه من أثقال الضرائب التى أدت بهم إلى بيع زراعتهم قبل نموها أو بيع محصولاتهم مقدماً قبل أوانها بأبخس الأثمان »^(١) ، وازداد الأمر قسوة حينما طُلبوا بالضرائب مقدماً وضغط عليهم فى ذلك ، فكان التحصيل إما لتسعة أشهر مقدماً أو لسنة لدفع الكوبونات ، وساعد هذا فى دمارهم ، بالإضافة إلى أن الضرائب كانت تطلب فى غير زمن الحصاد ، وقد نوقش الأمر فى مجلس شورى النواب « فالتحصيل جار فى هذا الوقت الذى لم يكن فيه محصولات أقطان بالجهة البحرية ولا محصولات شتوية بالجهة القبلية ، فمن أين يكون التحصيل إلا أن يبيع مواشى بأثمان دون القيمة ، وقل أن يوجد مشتر ، وإما بيع المحصول أخضر بما لا يوازي قيمة النصف فى زمن المحصول »^(٢) .

وبناء على هذا انخفضت قيمة العملة لكثرة ما بيع من « فضة أو نحاس » ، وسرى هذا الانخفاض على الأسعار جميعها ، وكان له أثره على الاقتصاد المصرى الذى أصبح فى قمة الانهيار ، وفى إطار ذلك وصل الفلاحون لأقصى درجة من الفقر وكفاف العيش ، هؤلاء البؤساء الذين عملوا من أجل ملء جيوب المغامرين ، الذين شجعوا على صرف الأموال فى التبذير ، وعرضوها فى كل وقت فى ظل الفوائد التى كانت ترتفع تدريجياً . ووقع العبء على أكتاف من تحملوا الظلم والغبن والعذاب ، إذ قدموا كل ما يمكن لهم أن يقدموه ، وكثيراً ما تركوا الأراضى دون زراعة ، فليس لديهم ما يمكنهم من زراعتها ، باعوا كل شيء حتى الحلى الغالية على الفلاحات ضحين بها ، فقد كان جانب من الضرائب المدفوعة عبارة عن قطع مربوطة معاً على شكل قلائد وعقود وفى ذلك الدليل المؤلم على مقدار الضغط والشدة اللذين استعملا فى تحصيل الضرائب ، ويشاء القدر بأن يلقى عليهم مزيداً من الأعباء والصعوبات والآلام ، حيث إنه فى وسط تلك الأجواء يتضاعف الظلم باضطهاد الطبيعة لهم ، هذا الاضطهاد الذى قضى على البقية من كيانهم .

كوارث الطبيعة

كان مرض الطاعون البقرى أحد تلك الكوارث ، فقد انتشر أكثر من سنتين ، وعم مصر كلها حتى النوبة وقدرت الخسارة بخمسة ملايين من الجنيهات بعد أن

(١) الكوكب المصرى ، عدد ٥ فى ١٢ يونيو ١٨٧٩ .

(٢) دفتر قيد محاضر مجلس شورى النواب ، محضر ١٤ صفر ١٢٩٦ (٢ مارس ١٨٧٩) ، ص ص

فقد الفلاحون مواشيهم وساءت حالتهم ، « إذ بلغت نسبة الوفاة ١٠٠ ٪ وامتلات فروع النيل البطيئة الجريان بآلاف الرمم المتعفنة ، وتوقفت آلاف السواقي التي تديرها تاركة فدادين من الأرض الخصبة للصحراء (١) » .

بعد ذلك تأتي كوارث النيل سواء بنقصانه أو بزيادته ، وكل منهما نتيجته المجاعة التي كان لها أبلغ الأثر السيئ على الفلاحين . وازدادت المعاناة عندما انخفض منسوب المياه ، فقل الإنتاج ، ووفقاً لقوانين الاقتصاد ، أنه إذا قل العرض كثر الطلب ، وبالتالي ارتفعت الأسعار ، ولكن جاءت الضرائب الإجبارية الملحة لتقضى على ذلك ، وقد بلغ عدد الأفدنة التي لم ترو ثمانمائة ألف فدان ، والنتيجة رداءة محصول القطن « وكان النساء والأطفال يتنقلون من قرية إلى أخرى يأكلون بقايا الفضلات من الشوارع ، ومات حوالى عشرة آلاف نفس من الجوع وتبع ذلك ظهور الأمراض » (٢) .

أما عن الفيضان فقد كان أكثر سوءاً ، إذ ثار النيل وخرجت ثورته قبل ثورة المصريين ليعبر عن السخط والآلام ، ولكنه فى الحقيقة أساء من الوضع إلى أقصى درجة ، فقد غمرت الأراضي بالمياه عام ١٨٧٨ ، وعمت المجاعة وعانى الكثيرون ، وكان الوجه القبلى فى هذه المرة فى غمرة الفيضان ، فأثر ذلك على الزراعة فقلت المحاصيل ، وبالتالي قل الإنتاج ، وأعطت لنا صحافة تلك الفترة وصفاً شاملاً لمأساة الفلاحين فتقول صحيفة التجارة « رأيت أهل البلاد المبتلعة يسيرون فى الطرق زرافات حفاة عراة رفعت عنهم ستور الصيانة وزالت عن وجوههم آثار الحياة ، فحسب أن يومنا يوم النشور » وتمضى « إن بعض أهل القرى التى ابتلعها الماء هاجروا إلى المحلة ، وهم على أسوأ حال لا يملكون ما يقيهم من التضرر جوعاً فلقىهم فيها السجاعى وأعوانه وطلبوا العوائد مع العلم أنهم لا يملكون شروى نقير ، وترتب على ذلك تعذيبهم وإهانتهم » (٣) ، من هنا يتضح تلك الفظاظة والقسوة لمعاونى الحكومة والحاكم ، وافترى ملتزمو الدخولية أمام الحشود المهاجرة .

لكن ماذا عن دور الحكومة وما قامت به ؟ أصدرت الأوامر بزيادة الضرائب وتحصيلها فوراً دون اعتبار بما حل بالبلاد الذى كان السبب فيه إهمال الحكومة حيث إن نظام الرى لم يتم على أسس علمية سليمة ، هذا بالإضافة إلى إهمال بعض

(١) لاندز ، المرجع المذكور ، ص ١٢٢ ،

(٢) Sammarco, No. 241, 1817 - 1886, Chap. VI .

(٣) التجارة ، عدد ١١٢ فى ٢٣ أكتوبر ١٨٧٨ .

المأمورين وعدم يقظتهم وانتباههم ، إذ كانت همتهم الأنانية والجشع وما على الحكومة إلا التهام الأموال وجمعها بمختلف الطرق دون النظر إلى تقديم الخدمات لهؤلاء الذين أفنوا في سبيلها . كذلك فإن الحكومة لم تتخذ أية إجراءات وقائية أمام الكارثة .

وتجمعت هذه الظروف أمام الفلاحين لتسجل أسوأ صفحات المعاناة ، فقد أدلى أحد السائحين الإنجليز بمشاهداته في مصر لصحيفة الدالى فرى برس فكان وصفه أدق تعبير لهذه القوة المعذبة يقول « رأيت الناس يموتون فعلاً من الجوع ، غير أن حالة الأولاد كانت تفتت الأكباد ، وفي محل رأينا ولداً يلتقم قشر القصب ، وكنا نسمع أنين الأهالي في كل قرية مررنا عليها ، إن الناس الذين يتجمعون حولنا كل يوم عندما نأكل في الطريق فإنهم كانوا يتخاطفون فتات خبزنا وزيت الساردين الذي كان معنا ، وفي حالة مرورنا إلى قنا رأينا وابور الخديو تأثرنا من حسن منظره وحالته المبينة لحالة الأهالي وقيل لنا بأن بداخله اثنين من الإنجليز وبلغنا أن حضرة الخديو اتخذ مأدبة فاخرة للأوروبيين في القاهرة »(*) . وفقد الفلاحون كل شيء ، وأصبح من المتعذر أن يجدوا العدالة أو حتى الأمان سواء على شخصهم أو ممتلكاتهم .

العدالة والضرائب

وأمام كل ذلك هل كانت هناك عدالة في توزيع الضرائب ؟

كان معظم الأغنياء - إن لم يكن جميعهم - يعاملون في هذه المسألة بكل رفق ووفقاً لأهوائهم ، ولم تستعمل معهم أية وسائل القسوة أو الشدة التي اتبعت مع الفلاحين ، وحتى تلك الضرائب غير العادية ما كانت تفرض إلا على صغار الملاك ، وأحياناً قليلة كان بعض من هؤلاء الأغنياء يدفعون الثلث أو النصف من الضرائب التي كان من المفروض أن يدفعوها ، وهذا بسبب التحايل والتهرب من جهة ، ولأنهم يملكون الأراضي العشورية التي تتمتع بالإميازات الكثيرة من ناحية أخرى ، أما الضرائب الأخرى التي كان عليهم أن يدفعوها أيضاً مع الفقراء تمنعوا عن أدائها ، ومن ثم وقعت الأثقال جميعها على الفلاحين ، بينما الذوات فرشت الأرض أمامهم بالزهور ، يكتسزون الأموال ، ويوسعون الأملاك ولا يدفعون .

كما تمتع بالإعفاءات الأجانب وذلك على حساب المصريين ، فعدم المساواة أصبح واضحاً ، مما جعل لورد دوفرين يذكر ويعبر عن شعور المصري « يرى عدداً

(*) الوطن ، عدد ٧٢ في ٢٩ مارس ١٨٧٩ .

من المسيحيين يتقاطرون إلى بلاده لينتفعوا من منافع تربتها وهوائها ، ويشاهد نفسه مثقلاً في تحصيل معاشه بسبب دفعة عوائد عُفى منها مناقضوه الأوربيون «^(١)» ، فبينما نرى الفلاح يسدد عن كوخه المبنى من اللبن الضرائب ، ينعم الأجنبي من أية أعباء مالية ، هذا في الوقت الذي أثقل فيه الفلاحون بها ، وحتى أنه عندما تقرر إعادة المقابلة وضرورة التحصيل على أراضى مصر جميعها ، كان الأجانب يمتنعون عن الدفع ، وقد أقر بذلك نائب القنصل الإنجليزي إذ يقول « تأكدت من عدة مصادر أن الأوربيين ملاك الأراضى لا يدفعون المقابلة » وفي موضع آخر يقر بأن ذلك « ليس من العدالة بشيء »^(٢) . ومع هذا فإنه لم تتخذ أية خطوة من جانب السلطات المصرية حتى مع القناصل وذلك بسبب رفض رعاياهم لدفع الضرائب .

هذا ويجب أن نذكر بطبيعة الحال تلك الإعفاءات التى تمتع بها الحاكم وأسرته بالرغم من تلك الأملاك الشاسعة ، لكن لم يكن من المعقول أن يدفعوا شيئاً فكل ما يمتلكونه العمل على امتصاص دم الفلاحين . كما أن أخطاء المساحة كانت دائماً ضد الفلاحين ، فقد أظهرت جميع التحقيقات ذلك الإخلال فى جميع الأعمال التأريعية ، فنظام الأرض المعمول عليه بالأوراد غير مضبوط ، لأنه مبنى على مساحة تمت فى عام ١٨١٣ ، ولأمر جلى فإن الموظفين راعوا خواطر الأغنياء الذين رشوهم ، هذا بالإضافة إلى أن النيل قد ابتلع أقساماً من الأراضى ، وبعضها أخذ لأجل الترع والجسور والسكك الحديدية دون دفع تعويض لأصحابها ولا إسقاط أصل زمامها . وكانت هذه هى العدالة التى قدمها إسماعيل والأوربيون لشعب مصر .

وباعتلاء توفيق عرش الخديوية (١٨٧٩-١٨٩٢) لم تتغير حالة الفلاحين واستمر الوضع على ما هو عليه بل ازداد ، وقد أوضح لاسلز بأن السبب كالعادة أنه أصبح يطلب من الفلاح أن يدفع تلك المبالغ الإضافية زيادة على ما ربط عليه^(٣) ، وجاء رياض بمساوئه ، وفوضه توفيق الأمر للتصرف فى كل شيء حتى مع الفلاحين . فوصل النظام التعسفى إلى أقصاه ، لدرجة أن شيوخ بعض القرى ساقوا الفلاحين للسوق مع قطعانهم من أجل بيعها ، وتشدد فى جمع الضرائب والمقابلة ، وأصبح الجميع فى أسوأ حالات الفقر .

(١) دوفرين ، تقرير ، ص ٤٧ .

Egypt, No. I (1880), Inclosure I in No 31. P. 79 .

(٢)

Ibid P. 67 .

(٣)

ومضى نظام التحصيل سواء من ناحية المقدار أو الطريقة على نفس المسيرة حتى لقد اعترفت لجنة التحقيق منذ البداية أن كثيراً من المظالم وقعت بسبب هذا النظام ، وأمام ذلك من ناحية ، وأصداء ما وصل إليه حال الفلاحين خارجياً من ناحية أخرى ، كان لابد لرياض والمراقبة من التحرك لتهدئة الموقف ولو تهدئة وقتية وعلى الورق فقط ، فأعد رياض مشروعاً أخذ الموافقة عليه بإلغاء بعض الضرائب . أعقب ذلك التجاوز عن جميع متأخرات الميرى عام ١٨٧٥ ما عدا دين الفلاحين الذى توزع دفعه على سنين عديدة ، لكن إلى أى مدى نفذ ذلك ؟

منذ البداية كانت انعكاسات هذا الأمر على الفلاحين لا شىء ، فلم تبد عليهم علامات الارتياح ولا الرضا والسرور ، فإن تلك الإجراءات ما هى إلا تضليل أكثر منها حقيقة ، مجرد ذر الرماد فى العيون حتى لا ترى الحقيقة الواقعة ، فقد كثرت الاستثناءات ، فمثلاً لم تلغ الدخولية من كل البنادر ، إنما اختصت بمناطق دون أخرى ، فنرى أن مدينة دسوق تطلب رفع الدخولية عنها « إن البلدة صغيرة وغالبية أهاليها فقهاء وعلماء ومجاورين بجامع سيدى إبراهيم الدسوقي ، والباقون فلاحون وأن الإيراد الجارى تحصيله مأخوذ على الحطب والبرسيم والتبن الوارد من غيطان لوازم مواشيهم »^(١) ، وارتفعت بعض الضرائب كتعويض ، فتقرر على فدان الدخان ستة جنيهات بخلاف المقرر على الأرض ، وذلك بدلاً من الدخولية وحرمت زراعته إلا بإذن الحكومة ، وأعطت الأوامر لكل مأمور بأن يطوف بالجهة ويفتش الأرض بكل دقة واعتناء^(٢) .

وألغى الأمر العالى الصادر فى ٦ يناير ١٨٨٠ العامل بقانون المقابلة ، وجاء قانون التصفية فى ١٧ يوليو من العام نفسه ليقضى بأن ما دفع منها يخصم منه ما كان مطلوباً للحكومة ويرد الباقي إلى أصحابه موزعاً على خمسين عاماً ، وخصص لهذه الأقساط مبلغ مائة وخمسين ألف جنيه سنوياً . وكل ما يهمنا هنا أن هذا الإلغاء قد أثر أيضاً على الفلاحين الذين جُمع بينهم وبين كبار الملاك تحت هذا البند ، إذ قدرت خسارة الفلاحين على حسب ما ذكره نينيه بعشرين مليون جنيه استرليني ، كانت النسبة الكبرى فيها قد تمت بالقروض من المرابين ، وهذا أشعرهم

(١) الوقت ، عدد ٧٧٩ فى ٢١ يناير ١٨٨٠ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ٨٤٦ فى ٢٣ يناير ١٨٨٠ .

بالغبين والحرمان من العدالة ، وانتشر هذا الشعور في كل قرية^(١) . وكان من المفروض أن ترد الحكومة ما أخذته ظلماً وجبراً وعدواناً لأصحابه بحيث إنها لا تلغى قانوناً إلا بعد أن يسترد أصحاب الحق حقوقهم .

واستمر أيضاً المحصلون يتحايلون على الفلاحين فيستولون على سندات ملكياتهم بدون القيمة ، وأيضاً تقرر تحصيل الضرائب نقداً وعدم فتح الشون بالمديريات وخاصة في الوجه القبلى . وكانت الأوامر قد صدرت في ٢٥ فبراير ١٨٨٠ بالتحصيل على تقاسي ، وفي ميعاد الحصاد بأوقات محددة في السنة . وتكونت لجنة مخصوصة واقترح وضع لائحة توضع فيها شهرياً مقادير الأموال المقتضى تحصيلها من كل مديرية ، إلا أن المديريات المخصصة لخدمة الدين وهى البحيرة والمنوفية والغربية وأسيوط زيدت فيها المقررات عن باقى المديريات قيراطين^(٢) . واستتبع ذلك وقوع الحجوزات على من لا يدفع في المواعيد المقررة ، وكان توقيعها على الثمار والمحصولات والموجودات والمواشى ، وفى حالة عدم الكفاية يكون الحجز على العقار ويشرع فى بيعه بمزاد بمعرفة العمدة والمساحين بعد مضى شهر واحد . ورغم ما قرره رياض من تحسين وسائل التحصيل وإبطال الكرياج ، لكن أوامره فى ذلك لم تنفذ تنفيذاً تاماً ، فبقى الكرياج حيث كان الاعتقاد بأن الفلاحين لا يدفعون إلا به .

الفلاحون والديون

كانت الديون هى إحدى نتائج السياسة الضريبية ، لجأ إليها الفلاحون اعتقاداً منهم أنها ستخفف من أحمالهم لكن العكس هو الصحيح ، إذ أنها أصبحت عبئاً ثقيلاً ، أدانتهم أمام المحاكم ، وأخرجتهم من أراضيهم . ولم يكونوا مخيرين فى بداية الأمر ، فكثيراً ما كان يتم ارتهان أراضيهم بإكراههم تحت الكرياج ، وكان سائداً أمر الاقتراض على المحاصيل قبل حصدها بأعلى الفوائد .

لكن من سيقدم لهم تلك القروض ، وبذلك الربا الفاحش ؟ ومن سيدخل رهن الأراضي فى حيازته ؟ إنهم الأجانب بجميع نوعياتهم وأشكالهم ، منهم الأوروبيون وساكنو البحر المتوسط والمشمولون بالحمايات ، وترجع اليونانيون على عرش الربا ،

Ninet.J. Origin of the National Party in Egypt, P. 132 .

(١)

(٢) محافظ الداخلية ، تركى ، محفظة ٦٧ ، تقرير رياض باشا فى ٢٤ فبراير ١٨٨٠ .

وتبعهم الأرمن والمطاليون ثم السوريون واليهود ، وأصبحت مصر مسرحاً لعمليات ربوية على أوسع نطاق ، وغدا عهد إسماعيل هو العهد الذهبي للمرابين بعد أن تخصصوا في المناطق باقتسامها بينهم من أجل استنزاف الفلاحين .

وقد رأينا كيف كان الفلاحون مجبرين على الدفع ، ومن هنا التجأوا إلى المرابين ، وهم كما يصفهم محمد عبده : « تجار وأرباب بنوكه ، هم أعظم أعوان الظلم وأشد أنصاره ، فإذا رأوا حاجة الأهالي إليهم تدللوا وتمنعوا لعلمهم أن الكرياح وراءهم فلا قدرة لهم على الصبر ولا سبيل إلى التخلص من ألم العذاب ولو مؤقتاً ، إلا بالرضا بكل ما يرسمون عليهم من الفائدة ، فكان التاجر لا يؤدي نقوده سلفاً ولو قبل الحصاد بعشرين يوماً إلا ستين فيما يساوى مائة وقت الحصاد فتكون الغاية أربعين أو يزيد في الشهر الواحد ، وصاحب البنك لا يعطى بفائدة في المائة عشرة بل أزيد في كل شهر ، ومن الناس من يأخذ المائة بمائتين في أربعة أشهر ، وكان سعداً وريباً للتجار وأرباب البنوك الغرباء الدخلاء الذين انتشروا بين أبناء البلاد انتشار الذئب بين الأغنام ، فأثقلت كواهل الفلاحين بالديون الهائلة واضطروهم العجز لبيع أملاكهم ورهن عقاراتهم وأراضيهم أو الانسلاخ عنها بالكلية فأحاط بهم الفقر وصاروا في أسوأ الأحوال » (*) ، وكان هذا الوصف أصدق تعبير على هذا السيل المتدفق من الأجانب المستغلين الذين وجدوا من حسن رعاية الحكومة لهم الشيء الكثير ، واعتمدوا على الامتيازات واحتموا في القناصل ، وهؤلاء بدورهم شركاء معهم في هذه العمليات .

أما عن طريقة التسليف ، فقد كانت تتم عن طريق مشتري المحاصيل بواسطة المرابين ، وهم دائماً يفضلون القطن ، ويكتبون سندات على الفلاحين قبل نضج المحصول ، وعندما يقترب الجنى ، يرسل المرابي وكيله ليقيم في الأرض المرهون محصولها ، ويشرف على الجمع ، ويعين المقدار الذي يراه سداداً لما دفعه المرابي ، وكثيراً ما يُترك الفلاح غارقاً في الديون بعد أن يدفع مبلغاً من المال لتجديد الدين أكثر مما يكفى لسداد الدين الأصلي ، وغالباً كان المرابي يكتب سندات بمبالغ كبيرة تعلق المبلغ المسلم على أنها قروض في مقابل فائدة باهظة للغاية ، حيث إنها تتضاعف في نفس الوقت الذي يتضاعف فيه الدين المستحق ، وإن لم يسدد الفلاح يحجر عليه سند آخر بمبلغ يزيد على السابق ، ويستحق الدفع في نفس الميعاد ليصل ٢٥٦٪ عن المبلغ الذي اقترضه ، وقد يصل إلى ٤٠٠٪ مما يتسبب في النهاية إلى بيع

(*) الوقائع المصرية ، عدد ٩٦٩ في ٢٥ نوفمبر ١٨٨٠ .

أرضه بسعر منخفض أو وضعها تحت تصرف هؤلاء المستغلين ودائماً يجعل المرابى ميعاد استحقاق جميع السندات شهر أكتوبر أى الشهر الذى يبيع فيه الفلاح قطنه ، والفائدة تحسب على السنة كاملة أيا كان الوقت الذى تقع القروض فيه ، وكم من خيبة وكم من منهبة يخبئها للفلاح المسكين شهر أكتوبر الذى يسميه الفلاحون شهر المرابين ، فإذا حل أجل السلفة ، وقد لا يشعر الفلاح بحلول هذا الشهر لجهله السنة الميلادية ، ولأنه غير متعود على الدفع فى المواعيد ، وبالنظر إلى أن الفلاح لم يستعد للدفع ، فإنه يبيع على المرابى قطنه بثمان بخس سببه الاضطراب من جهة ، وجهله الأسعار من جهة أخرى . ومعلوم أن للقطن تقلبات فى الأسعار ، فقد يرتفع دون أن يعلم الفلاح ، ويكره على بيع قطنه بأدنى سعر ، ويسرق فى الوزن بلا استحياء^(١) . وقد كان للفوائد التى وصلت إلى ٢٠٠٪ من المعدل أثرها على النقود السائلة من ملايين الجنيهات الإسترلينية التى ظهرت فى الإسكندرية والقاهرة ، مما مكن هؤلاء المرابون من التوسع فى البيوتات التجارية وإنشاء البنوك بالإسكندرية .

وإذا رجعنا لأصول هؤلاء المرابين ، نجد أن اليونانى منهم يحضر إلى الإسكندرية ، وهو غالباً ما يكون خادماً ، وقد ازدحمت المدينة بأمثالهم ممن سبقوه إلى هذا الحقل ، ويتبعه لخطواتهم يبدأ من التجوال لبيع للفلاح حاملاً حقيبة على كتفه متنقلاً من بلد إلى آخر ، مكللاً بالنجاح مستعملاً اللغة العربية باليونانية ، وأخيراً يستقر به المقام فى إحدى القرى ليفتح حانوتاً يبيع فيه الأصناف المغشوشة ، ويجمع بين أن يكون بقالاً وصيدلياً وصاحب مقهى ، ويبيع البضاعة بعشرة أمثال أثمانها ، وفى الوقت نفسه يرابى المراباء الجزئية فيعطى العشرة قروش ليأخذ خمسة عشر فى نهاية الأسبوع أى فى يوم السوق ، فإذا حال الحول يكون قد ربح ما يمكنه من توسيع تجارته ، ومنها القروض ويلقب « بالصيرفى » وتدرجياً يصبح هذا اليونانى من أكبر المالىين والتجارين بسوق القطن بالإسكندرية ، حتى وصل الأمر إلى أنه بعد أن كان يسلف الفلاح الفقير أصبح يسلف الخديو إسماعيل ، وصل إلى ذلك بعد أن حطم القرية ومن عليها فقد قال طلعت حرب : « كم أثرى كثيرون بما أفقرؤا من أهل البلاد »^(٢) .

(١) Bémran , op. cit., pp. 131, 135, 136 ، يوسف نحاس ، المرجع المذكور ، ص ٩٢ - ٩٥ .

(٢) Wallace, D. M. , Egypte and the Egyptian Question, p. 288. ، هنرى عيروط ،

الفلاحون ، ترجمة محيى الدين الليان ووليم داوود مرقص ، ص ٢٠٩ .

وأصبح منظراً مألوفاً أن يُشاهد مأمورو التحصيل - ومعظمهم أتراك - مصحوبين بالقواسين وهم حاملون الفلقة والكراييج ومعهم المرابون أثناء أدائهم لأعمالهم المعهودة ، وهنا يهرول الفلاحون وراء المرابين وهم بأئسون راجين طالبين الأموال موافقين على الفوائد مهما كانت للتخلص من العذاب ، وبحسب عليهم الجنيه الإسترليني بـ ١٥٠ قرشاً رغم أنه كان أقل من الجنيه المصرى ، ويصبح علي الفور قنطار القطن بسعر جنيهين فى حين أن ثمنه ثلاثة ونصف^(١) ، ولم يكن الربا من أجل الضرائب فقط بل أيضاً من أجل الرشوة التى فرضت على ذلك الفلاح المسكين من سلسلة الموظفين الذين يتعامل معهم ، فيحاول أن ينشل نفسه من عذاب السوط المعرض له ، فى الوقت الذى يضطر فيه إلى إطفاء لهب ذلك الطمع والجشع المطلوب سده ، فيضطر للالتجاء للربا الفاحش ، كما أنه كانت هناك علاقة مؤكدة بين المرابين وهؤلاء الموظفين ، فمأمور التحصيل كان يرافق المرابى الذى يدفع له جزءاً من أرباحه الدنسة ، وإذا فشل الكرياج مع الفلاح يقول له المدير « كل هذا الضرب ولا تقرب بما عندك من نقود ، يجيبه بالنفى فيقول له اقترض ، فيرد من يقرضنى فيقول المدير ، الأمر يتدبر ، وبعد فترة وجيزة يظهر المرابى اليونانى المدعو ديمترى الذى كان منتظراً فى خلفية المكان ، وقبل حضوره يكون قد درس حالة الفلاح وما عنده فيقرضه دون سؤال ، ويقبل الفلاح الأمر الواقع ، وديمترى هذا يعطى الحصة المقررة للمدير ، حيث أن تلك عملية مرتبة بينهما^(٢) .

وكان للمرابين طرقاً كثيرة للاحتيال على الفلاح الساذج ذلك الذى وقع فريسة لهم ، فعلى سبيل المثال فقد « قصد أحد الفلاحين تاجراً يهودياً من تجار البلدة بشبين القناطر ليستدين منه مبلغ عشرين جنيهاً ، وبعد أن اتفقا علي الفائدة وعيناها وكتب السند بقيمة تسعة وعشرين جنيهاً ، أخذ التاجر السند من الفلاح مختوماً وقال له انتظرنى لأجيئك بالنقود ، وذهب ولم يعد ، وطال على الفلاح الانتظار واشتد به القلق وحار فى أمره إلى أن مضت بضع ساعات ، فرأى التاجر خارجاً من منزله فأدركه وطلب منه النقود ، فأجابه التاجر أنا لى عند رفاقك مقدار هذا المبلغ فاستخلصه منهم ، فاضطرب الفلاح وقصد بعض الناس يطلب إنصافه فلم يجد من يعينه^(٣) .

وبجوار الضرائب والرشوة التى أجبرت الفلاحين علي الالتجاء للربا كان هناك مضار الاعتماد على محصول نقدى كالقطن ، فبعد أن صار الفلاح حراً فى اختيار

(١) Egypt, No. 1 (1880), Inclosure 2 in No 31, p. 23. (٢) Wallace, op, cit., p. 284.

(٣) التجارة ، عدد ١٢٨ فى ١٤ نوفمبر ١٨٧٨ .

زراعته وبيع محصولاته ، وبعد أن أصبح مجبراً على دفع الضرائب نقداً ، وبعد أن أنقصت الدولة ضريبة الجمرك علي الصادرات من القطن ، ذلك جميعه جعل إنتاجه يعطى ربحاً وأصبح السلعة الأساسية لإنتاج الفلاحين .

وجاءت الحرب الأهلية الأمريكية ليكون من نتيجتها مجاعة قطنية في أسواق أوروبا ، فبرهن القطن المصرى على وجوده لطول شعرته وقوة تيلته وجمال لونه ورقة ملمسه ، وراح إسماعيل يشجع زراعة القطن فى أراضيه وقلده كبار الملاك ومن ثم الفلاحون ، وأصبح الذهب الأبيض وبعد أن كان يصدر منه ٧٢٣,٠٠٠ قنطار وصل إلى ٢,٠٠٠,٠٠٠ قنطار في السنة^(١) ، وارتفعت الأسعار لدرجة أنها كانت فى الإسكندرية أعلى منها فى ليفربول ، وبعد أن كان ثمن القنطار ١٢ ريالاً فى عام ١٨٦١ أصبح ٤٥ ريالاً عام ١٨٦٥^(٢) ، وعم الرخاء حتى على الفلاحين البؤساء ، لتلك الحالة الفجائية التى رفعتهم فجأة مرة واحدة من الفقر إلى الغنى والثروة ، ولكن كالعادة لم يتعود هؤلاء على الادخار ولم يعملوا حساباً لأية طوارئ مع أيام الازدهار ، وبالرغم من ذلك فقد لجأوا للمرابين للتوسع فى زراعة القطن ، لمزيد من المكاسب ولبنى اليونانيون الطلبات ، وعرضوا البذور وكل الأموال المطلوبة ، فارتفعت أسعار الأراضى وارتفع الإيجار بالتالى ، نتيجة لهذه الظروف ، وكان ذلك علي حساب المحاصيل الأخرى .

وانتهت الحرب الأمريكية ، وعاد القطن الأمريكى إلى أسواق أوروبا ليؤثر علي القطن المصرى ، فتنخفض الأسعار وتكون الصدمة القاسية ليتحول الفلاح إلى الاستمرار فيما بدأ فيه ، بأن يلجأ إلى القروض التى كانت سبباً فى بيعه كل شيء حتى أصبح معدماً ومتسولاً يمد يده ، وانخفضت أسعار الأراضى وبيعت بأثمان بخسة حيث إن القروض الأخيرة لم تكن كالسابقة على المحصول وإنما على الأراضى ، وبأمر الحكومة بيعت الأملاك والأطيان لسداد الميرى المطلوب ، وتقسيم الباقي على الدائنين الذين سبق أن أقرضوا الفلاحين بالربا وتعذر سدادهم ، وعندما استفحل الأمر فى عام ١٨٦٥ تدخلت وتحملت ديون الفلاحين وأصبحت أراضيهم البالغ مساحتها ٤٠٠ ألف فدان مرهونة للدولة ، وتسلم الدائنون ما عرف باسم سندات القرى وفائدتها ٧٪ ، وتولت الخزانة تحصيل هذه المبالغ من الفلاحين خلال سبع سنوات^(٣) .

Wallace, op. cit., pp. 316 - 320.

(١)

(٢) أحمد أحمد الحنة ، تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ، ص ١٦٢ .

(٣) محافظ الأبحاث ، محفظة ١٠٢ ، دفتر رقم ١٩١٥ ، صرة الأمر الكريم رقم ٤٩ فى ٢٢ جمادى

الآخرة ١٢٨٢ (١٨٦٥) ، Bear, op. cit., p. 35.

وهكذا كان من الأخطاء وضع الثقل الاقتصادى فى سلعة واحدة لأن أسعار الأسواق غير مضمونة وعادة تكون الخسارة بانخفاض الأثمان ، كذلك كان لبعض من كبار ملاك الأراضي نشاط فى مسألة القروض وإغراق الفلاحين بها ، فهم يحصلون على قروض كبيرة من البنك العقارى بفائدة ٩٪ ثم يجزئون تلك القروض إلى مبالغ صغيرة يقدموها للفلاحين من مزارعيهم ومستأجرى أراضيهم لقاء فائدة كانت تتراوح فى معظم الحالات بين ٢٥٪ ، ٤٠٪^(١) ، وبناء على ذلك ارتفعت ديون الفلاحين ، فبعد أن كانت ١,٤٠٠,٠٠٠ جنيه ، وصلت فى نهاية عام ١٨٨٢ إلى ١٥ مليوناً من الجنيهات ، ساهم فيها البنك العقارى بثلاثة ملايين ، والاثنى عشر مليوناً كانوا من المرابين الأجانب المحليين^(٢) ، هؤلاء المرابون الذين لعبوا دوراً كبيراً فى عملية الإنهيار التام للفلاحين .

الفلاحون والمحاكم

أنشئت المحاكم المختلطة فى عام ١٨٧٦ لى تزداد الأمر قسوة ومرارة ولتشارك فى عملية الربا ، ولتمارس الرهونات ، وكان ضررها كبيراً على مصر وخاصة على الفلاحين ، حيث لم يكن حكمها فوق الاعتبارات السياسية والشخصية مما زاد من بلواها ، وقبل إنشائها كان الأجانب السلابون يستطيعون عن طريق امتيازاتهم وقناصلهم أن يبسطوا إراداتهم ورغباتهم على الفلاحين ، الذين لا يستطيعون أن يقاضوهم ، وإذا تصادف وتم فقد كان الانتصار للقناصل ورعاياهم . وبعد إنشائها كانت هيئة هذه المحاكم تستدعى أى فلاح أمضى أية ورقة بقرض أمام قضاة أجانب ، وبعد إجراءات أجنبية لم يتعودها ، بلغة أجنبية لا يفهمها ، وبغير أن تسمح له فرصة الدفاع عن نفسه إن كان فقيراً وإقامة الحجة على أن الأرقام قد غيرت أو أن الورقة كلها مزورة ، تحكم عليه بما قد لا يقل عن تجريده من كل ما يمتلكه قبل أن يتسع له الوقت ليعرف بأى شئ ، أنه فى الحقيقة مطالب^(٣) ، ووفقاً للشريعة الإسلامية لم يكن هناك حق بيع أملاك المديون بالحكم الفياى ، لكن جاء القانون المختلط لى يعطى حق رهن الأرضى وحق المرتنين فى بيعها ، وليطبق نظام الرهونات ، فقد سمح بالبيع الوفاى ، وللدائن حق الاستيلاء على أرض المدين وتجريده منها إذا عجز المدين عن الدفع ، ويوضح دوفرين ذلك فىقول : « بناء على السجلات التى حفظتها المجالس المختلطة منذ إنشائها فى عام ١٨٧٦ أى فى مدة

(١) رؤوف عباس ، النظام الاجتماعى فى ظل الملكيات الزراعية الكبيرة ١٨٢٧ - ١٩١٤ ، ص ١٤٥ .

(٢) Malortie, B. D., Egypt, Native Rulers and Foreign Interference, p. 269 .

(٣) Blunt, W. S. , Secret History of the English Occupation of Egypt, p. 46 .

سنة سنين ، قد ارتفع المبلغ المسجل في قلم الرهونات من ٥٠٠ ألف جنية إلى سبعة ملايين جنية ، والمبالغ المرهونة باسم الفلاحين قدرها خمسة ملايين جنية ، على أن المجالس المختلطة تراعى بغير حق مصالح المرتهنين الذين يقدرون في الغالب أن يجبروا الفلاحين على بيع الأراضى ليأخذوها بنصف قيمتها ، وبلغت الأطنان المرهونة ٤٠٠,٠٠٠ فدان^(١) وقد مثل جميع الفلاحين أمام هذه المحاكم حتى أولئك الذين تعرضوا للفيضان وساءت حالتهم ، وكان إحساس الفلاح نفسه أنه يحاكم أمام محكمة غير عادلة لا تحقق له دستور الإسلام جعله محطماً ، وبالرغم من ذلك فإنه عندما يمثل أمامها ومعها المرابى اليونانى ، فإنه يقول الحقيقة حتى أن الأمر لم يعد يحتاج إلى استدعاء شهود إثبات فهو واقف وحيد فى وسط أجانب من القاضى إلى كاتب الجلسة ، وحتى الحكم الذى يصدر عليه باللغة الأجنبية ، اللهم إلا ملخصاً بسيطاً باللغة العربية يرفق مع الصورة الأصلية^(٢) .

وأصبحت لتلك المحاكم السلطة القوية المجحفة بالأهالى والمتحيزة للأجانب ، وقد كان لها التأثير السياسى ، فهى أسست من أجل استغلال مصر وأدت إلى الدمار ، وشجعت المرابين وباع قضائهم ضمائرهم ، وأصدروا أحكامهم التى لم يكن من نتائجها بيع الأراضى فحسب بل وامتلاك المرابين لها والزج بالفلاحين فى السجون .

وصرحت الحكومة بممارسة المحاماة للدفاع عن الفلاحين فزادت من الظلم الواقع عليهم ، فقد كان المحامون أيضاً أجانب « وهيهات إذا وقفوا على المعنى المراد وإذا عرفوا المراد ، وهيهات إذا سلخوا فى طرق الرشاد ، فإنهم لا يعتنون بالفلاح بسبب فقره ولا يرثون لعجزه وكسره »^(٣) .

ومن بين ما اشتهرت به من الأحكام غير العادلة أنها توقع مبايعة العقارات بدون حجج شرعية ، ولربما تكرر بيع العقار ثلاث مرات ، وذلك لتجديد القضايا وكثرة الإيرادات ، ولا غرو فى ذلك فإن مرتبات مستخدميها باهظة ، هذا فضلاً عما يظهرونه نحو المصريين من الاحتقار والازدراء .

وإذا انتقلنا إلى دور المحضرين ، فكم قاسى الفلاحون من هذه الطائفة ، يتكلمون الفرنسية أو الإيطالية ويطوفون فى القرى ليعتوا الفلاحين « ويقفان الاثنان - المحضر والفلاح - بإزاء بعضهما وقوفاً مضحكاً إذ يرطن كل منهما للآخر بكلام أعجمى ، وينفصلان غير قاهمين بعضهما »^(٤) .

(١) دوفرين ، المصدر المذكور ، ص ٢٧ . (٢) Bmlan , op. cit. , pp. 56, 63 .

(٣) الوطن ، عدد ٥١ فى ٢ نوفمبر ١٨٧٨ . (٤) مصر ، عدد ١٣ فى ١٩ سبتمبر ١٨٧٩ .

وانتحل كثيرون من الأجانب صفة المحضرين ويحتالون على الفلاحين ، ومعهم إعلانات كاذبة تتضمن الإلزام بدفع المبالغ والحجز على الموجودات « وأصابوا الضرر بهذه التصرفات »^(١) .

ومما زاد الأمر سوءاً أنه كان على الفلاح أن يترك قريته ليذهب لمقر المحكمة ، وهو القروى الساذج فكثيراً ما يتعرض لعمليات من السرقة والنصب التى تخصص فيها حثالة الأجانب « حضر إلى الثغر أحد فلاحى مديرية البحيرة لكونه مطلوباً فى المجلس المختلط بناء على طلب رجل يهودى له دين عليه ، فسطا عليه شخصان من الأروام وسلباه »^(٢) .

وكان هناك شكل آخر للاحتيال ، وهو إفهام الفلاح بإمكانية تخفيف الحكم عليه عن طريق العلاقة والمداخلة بين هؤلاء الأجانب المحتالين وبين أعضاء المحكمة ، وتكون النتيجة اختلاس ما مع الفلاح والهروب .

هكذا قست المحاكم المختلطة على الفلاحين ولم تكن بمفردها بل شاركتها المحاكم المحلية التى أخضعته هى الأخرى للظلم إذا احتاج إليها ، فلم يكن يمكنه عن طريقها أن يأخذ حقه أياً كان ، فهو لا يستطيع أن يشكو لأن الشكوى ستجر عليه العذاب ، وكيف يجد العدل والقائمون عليه أتراك ظالمون ، فضاعت الحقوق بسبب الرشوة ، وتأخرت القضايا لأنه غالباً ما يكون المطالبون بالعدل هم الفقراء والمطلوب منهم الأغنياء « فبعد أن يفرغ صبر الفقير مما يتكبده من التذلل للكتابة والرؤساء ، ويصرف ما هو فى جهده من النقود والدموع ، وتتعطل أشغاله التى يحصل منها على قوته ، يرجع بخفى حنين لا يحصل من حقه على شيء ، وربما لا يعود إلا وهو محكوم عليه بجزاء »^(٣) .

أما القضاة فمنهم ضباط أتراك متقاعدون يجهلون اللغة العربية ، ويعينون قضاة لضرورة إيجاد مناصب لهم فى الحكومة بدون فقه القانون . وكثيراً ما كانت تقوم المنازعات وينتصر القوى ويستحوذ على أرض الضعيف مستنداً على عامل الزمن وطوله ، فحتى لو رفع الضعيف القضية فالحكم يأتى بعد وقت طويل ، ويكون القوى قد استولى على محصولات الأراضى ، هذا إن كان الحكم سيكون فى صالح الضعيف ، ولم يحدث ذلك إلا نادراً .

وبلغت الفوضى إلى أقصى درجة لعدم الفصل بين السلطة التنفيذية والسلطة

(١) الكوكب المصرى ، عدد ٤٥ فى ١٩ مارس ١٨٨٠ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٠٤٤ فى ٢٢ فبراير ١٨٨١ .

(٣) الكوكب المصرى ، عدد ٢٣ فى ١٧ أكتوبر ١٨٧٩ .

القضائية ، فالمدير له حق تعديل الأحكام ، وحتى فى القضايا الجنائية يسيطر عليها الخلل ، وتتم فى كثير من الأحيان فى مكاتب البوليس ، ويتولى إيضاحها أحد الكتبة ، والأمـر موكول إلى الشاكى والمـشكو فى حقـه ، وهنا توجه القضية وفقاً للمصلحة الشخصية لرجال البوليس ، ويصبح البوليس بل ومعه المحاكم فى أيدي الأغنياء لسلب الفقراء^(١) ، ويجد القاتل والسارق وقاطع الطرق طريق الخلاص من القانون على يد القائمين عليه عن طريق الرشوة ، وفى وسط ذلك ضاعت الحقوق .

واقـتـصـرت مسألة بيع الأراضى على محاكم المديريات ، فإذا « أراد فلاح أن يبيع فداناً واحداً وهو ببلده بجوار رشيد عليه أن يذهب إلى محكمة طنطا ، وقد تلجئه الفاقة إلى ذلك السفر راجلاً ، ويصلى نار العذاب ويصرف الكثير من أجل هذا الفدان »^(٢) .

وبناء على ذلك نرى أن الكثيرين قد تجنبوا هذا القضاء خوفاً من ضياع حقوقهم باختلال القوانين ، أو بخداع خصومهم ، أو بقوة سطوتهم ، ويفضلون التراضى حتى ولو فقدوا جانباً من حقوقهم ، وربما فضلوا فقدها برمتها ، لكن كانت هناك أمور ألحت فى ضرورة اللجوء إلى تلك المحاكم ، وبذلك تضاعفت الأعباء ، ولجأ الكثير إلى الريا ، للصرف على القضايا والانتقال والرشوة وطول التحقيقات .

وكان الأثر الكبير الذى أوجدته المحاكم المختلطة هو « نظام الرهونات » ولم تختص بالأراضى فقط وإنما خضع لها كل ما له قيمة ، وإذا انتهى أجل السداد ، يتم الاستيلاء على ما هو مرهون . وتأسست الشركات لذلك ، منها « شركة لاند أند مورنكيج كومبانى ، والبنك العقارى » ولجأ إليها الفلاحون لوضع رهوناتهم ، ولو أن البنك العقارى قد حد من الإقبال عليه لفرضه شروطاً كثيراً ما كانت لا تنطبق على الفلاحين عامة ، الذين التجأوا إلى المرابين ليقرضوهم بفوائد عالية ، وانتشرت البنوك التى زعموا أنها جاءت لإنقاذ الفلاح ، لكن فى الحقيقة كان غرضها الحصول على العظام التى سبق لليونانيين أن أكلوا لحومها ، ولهذا استمر الوضع السيئ للفلاح ولم يتحسن أبداً . وهكذا وصل الفلاحون إلى درجة الغليان ، لكنهم كانوا متحملين لكل هذه الأثقال حتى تتجمع فى النهاية .

(١) جمعية اتحاد مصر الفتاة ، لائحة إصلاح مرفوعة إلى الأمير توفيق الأول خديو مصر ، ص ١٠ .

(٢) الكوكب المصرى ، عدد ٢٤ فى ٢٤ أكتوبر ١٨٧٩ .

السخرة

كانت السخرة الضريبة الجسمانية التى يؤديها الفلاحون بالإكراه ، وطبقت على الفقراء دون غيرهم ، فأصبحت منبعاً لعدم العدالة ، وهى أنواع منها ما هو خاص بالأعمال العامة من حفر قنوات ومد طرق وإقامة قناطر ، فعند الفيضان وقت أن تنذر الحالة بالخطر ، يجمع لها مئات الألوف من الفلاحين ، يعملون ليل نهار لتقوية الجسور وإصلاحها والمحافظة على السدود ، ومنها ما كان بسبب حشرات تهدد الثروة العامة مثل دودة القطن ، فيساق الرجال والنساء وحتى الأطفال لتتقية الدودة ، أو غزو جراد فيخرج الأنفار لمقاومته ، أما سخرة الأعمال الخاصة فهى تخص الفلاحين بالعمل لدى الحاكم وأراضيه وكبار الملاك والعمد ومشايخ البلد وأيضاً الأجانب الذين يمتلكون الأراضى .

وخضع المصريون دون غيرهم للقيام بهذا العمل ، وقد استثنى قانون يناير ١٨٨٠ بعض الفئات من السخرة مثل العلماء والفقهاء وطلبة العلم والمأذونين وخدمة المساجد والقسس والرهبان والحاخامات وأرباب الصنائع والحرفيين^(١) ، فمن غير هؤلاء ؟ طبيعى أنهم الفلاحون يخرجون من ديارهم وقراهم ليعملوا فى جهات نائية تحت أحلك الظروف تاركين أرضهم وماشيتهم وأهلهم .

وتمتد السخرة من ثلاثة إلى أربعة أشهر بدون أجر أو طعام ، وحتى إذا قدم ، كان من أردأ الأنواع ودون الكفاف ، فهذا مع العمل المضنى أودى الفلاح إلى التهلكة وسبب له سوء التغذية ، لدرجة أن البعض منهم كان يموت من شدة الجوع .

ويصف أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى ، وكان قد زار مصر ويدلى بما رآه « يجمع مئات الرجال من زراعاتهم فى أخرج الفصول ويساقون كالماشية ويعاملون بقسوة بالعصا والكرباج للعمل لدى الباشوات والرؤساء الرسميين أو للدولة ، وفى الأخيرة فإن طعامهم يقوم على فتات الخبز ، ومن الجوع وسوء المعاملة كان المساكين يتساقطون كالذباب »^(٢) .

وكانت الحكومة تعين العدد الواجب تقديمه على كل مديرية ، وشيخ البلد هو الذى يجمع العمال تبعاً لهواه ، فيعفى الذين يرشوه ، فإذا طُلب منه أربعون نفرأ « فينادى بطلب خمسين ، وينشر الأمر فيشرع فى انتخاب خمسين نفرأ من الأغنياء ، فيتعهدون له بإحضار البدلية ، فيأخذ العشرة الزيادة غير العطايا التى يأخذها من الأربعين نفرأ » ، بالإضافة إلى ذلك فقد استبدل شيوخ البلد أبناءهم وأقاربهم

(١) الوقائع المصرية ، عدد ٨٤٥ فى ١٩ يناير ١٨٨٠ .

Commons, Vol. CCXXIII, August 16, 1882, p. 1953 .

(٢)

وأصدقاءهم ومحاسبيهم بالفقراء ، وسلوكوا هذا المسلك ، حيث كان عليهم هم الآخرون أن يدفعوا لرؤسائهم^(١) .

ومنح المسخرون حق تقديم بدل عنهم ، وبالرغم من أن الكثير قد دفع البدل للتخلص من السخرة ، لكنهم أكرهوا عليها ، حيث إنه لم تبح الحكومة أداء البدل النقدي لغير العاملين بالأطيان والأباعد العشورية والتفاتيش ، ولم يعمم على جميع الفلاحين^(٢) .

وكان العاملون بالسخرة سواء لدى الحكومة أو كبار الملاك يخضعون لألوان من العذاب ، وكأن الفلاح ليس له وجود في تلك الحياة التي قست عليه ، وكثيراً ما يتم ذلك لمجرد اللذة في عذاب الفلاحين ، وبتعدد الأعمال العامة ازدادت السخرة .

ويصف ديسى كشاهد عيان حفر أحد الطرق « كانت الحرارة مرتفعة والعمال في غاية الإرهاق والسوط فوق الظهور للاستمرار في العمل بدون توقف ، هذا الفصل من تلك المسرحية لم يكن يسر أي متفرج عليه ، ولكنه كان يبين كيف تحكم مصر ، هذا في الوقت الذي رأينا فيه العظمة والإسراف للحاكم ، وتلك الموائد المدودة والتي لا تنقطع أبداً »^(٣) .

وكانت السخرة في أراضي إسماعيل غاية في القسوة وخاصة في مزارع قصب السكر ، فقد أنشأ لها خصيصاً خطاً حديدياً امتد من القاهرة إلى أسبوط ، واستعمل مائة ألف فلاح في شق قناة لها هي ترعة الإبراهيمية التي استخدم فيها حتى الأطفال ، فكانه اشترى هؤلاء الفلاحين وأصبحوا عبيداً عنده ، وحرص كل الحرص على ألا يتوقف العمل أبداً ، لذا خضعوا لنظام صارم للمراقبة والملاحظة أثناء العمل وصفه النديم « يخرج القواس على حصانه يعلن المديرين والمأمورين بأن المفتش سيمر ، فلا تسل عن أتباع المديرين فيقطعون الأغصان الفليضة من الأشجار وينزلون بها على أجسام الفلاحين العرايا فلا تسمع إلا بكاء أو نحيباً وصراخاً »^(٤) .

وأجبر المسخرون على العمل بأيديهم ليمالؤا تلك المقاطف الصغيرة التي ينقلون بها الأتربة ، ومعهم ماشيتهم التي يرغمون على إحضارها ، ويعملون من الشروق إلى الغروب دون انقطاع في ظل ذلك التعذيب ، وأثناء الحفريات التي قام بها الأثرى كارتر عثر على من خضع لذلك النظام وعليه الآثار « رقبته منحرفة

(١) Egypt, No. I (1880), Inclosure I in No 31, p. 22, Inclosure 7, p. 29 .

(٢) Ibid, No. 3 (1880) Inclosure 3, p. 3 .

(٣) Dicey, E. , The Story of the Khedivate, p. 78 .

(٤) الطائف ، عدد ٦ مايو ١٨٨٢ .

إلى الجنب وذقنه على كتفه وأرجله قرفصاء مفتوحة إلى الخلف ويدها منطبقتا على معصميه على قطع خشنة من الخشب فوق بعضهما بمسمارين من حديد نافذين من المعصمين ومربوطين في الرقبة ، مع وجود آثار تسلخات في الظهر ، وكان واضحاً تورم اليدين من شدة ضرب العصي»^(١) .

بالإضافة إلى ذلك ، فقد كانوا مطالبين بفلاحة أطيانهم وأداء ما عليها . لذا نرى أنه كثيراً ما لجأ الفلاحون للعمل عند كبار الملاك من الذوات والأجانب متنازلين عن ملكياتهم في مقابل خلاصهم ، وهنا عمل كبار الملاك على استفاد كل إمكاناتهم ، فسخروهم في أراضيهم ، وأخضعوهم لقسوة الظروف في تطهير وتعميق المصارف لمصلحتهم ، وفي تقرير لأحد المسؤولين البريطانيين في الزقازيق يذكر أنه رأى بعينه ثمانية آلاف رجل جمعوا لحفر قناة الزقازيق ينقلون الأحجار والطين لأرض أمين بك الشمسي ليحولوا مستنقع إلى مبانى تفيد زراعاته ، وأقاموا قمينة كبيرة كان يحرق فيها ٣٠ ألف طوبة ، ولم يجرؤ أحد على سؤاله^(٢) .

وسرت السخرة على الدواب ، فهي مطلوبة وتوزع على القرى أيضاً بنسب معينة ، وهى الأخرى لا يعطونها حقاً في العلف ، فتأخذ في الضعف تدريجياً حتى إذا تم العمل قضيت آجالها ، وكان أخذها ضريبة باهظة على الفلاحين « يحسبونها من مصائب الحكومة وبلاياها ، ويتضجرون منها كما يتضجرون من نفس السخرة »^(٣) .

وقد طبق مبدأ التضمين في المسؤولية بالنسبة للسخرة ، وذلك بسبب عمليات الهروب التي كانت تتم ، بمعنى أنه إذا هرب أحدهم فيلزم شيخه بإحضاره أو بدلاً منه لأداء العمل المخصص عليه ، بحيث إن البديل يكون من عائلة الهارب ، وإذا كان التسحب عائلة فيكون البديل على باقى الأنفار ، وعندما تسلم رياض مقاليد الحكم كتب أوامره بإبطال السخرة وما يصحبها من استعمار الكرياج ، لكن الأوامر والقرارات شئ والتفويض شئ آخر ، فمضت السخرة واستمرت بما يصاحبها من آلام وعذاب .

وارتبط نظام السخرة بنظام الجهادية الذى لم يقل ضغطاً بل ازداد عنفاً في كثير من الأحيان ، ذلك النظام الذى أخضع الفلاحين لأسوأ ظروف أحاطت بهم ، فقد استمر قانون الخدمة العسكرية يطبق بغير عدالة حيث تحكم شيوخ البلد في تلك المسألة ، فكان يُحدد لهم عدد معين ، فمن دفع له رشوة أو دفع لطبيب

(٢) Egypt, op. cit., May 19, 1880 .

(١) Cromer , op. cit., Vol I, P. 50 .

(٣) الطائف ، العدد نفسه .

الجيش يصبح غير لائق ، أما من لا يدفع فيساق ، وغالباً كان المساقون هم الضعفاء المساكين « كابن يعول أمه وأخواته البنات فيترك الأرض والزرع مصدر رزقهم ويذهب للجندية »^(١) ، كما كان المديرون المكلفون بأمر الخدمة العسكرية يجرون التجنيد بكيفيات وحشية لا سيما في الصعيد ، وكثيراً ما يأخذون من المطلوبين نقود البدلية التي كان قد صرح بها ثم يجندونهم بالرغم من ذلك ، واستمرت مسألة الهروب وكانت تقام الحملات للبحث عن الهاربين ، ومضت عملية إتلاف الأعضاء لوضع حائل بينهم وبين الجندية « فشيخ ناحية كفر هلال بمركز الجعفرية وضع أجزاء سمية في أعين سبعة أنفار ، وحث أغلب الأهالي على فعل ذلك »^(٢) . كل ذلك من أجل التخلص من أعباء التجنيد ، بعد أن قاسى الفلاحون الأهوال في تلك الحروب التي خاضتها مصر .

الفلاحون والمياه

تحتاج أعمال الفلاحة للمياه خصوصاً إذا كانت الأراضي تبعد عن الترع والقنوات ، لذا كانت أعمال الري من أساسيات نظام الزراعة في مصر . وقد تعودنا أن تكون جميع الخدمات لصالح الخديو وأسرته أولاً ثم كبار ملاك الأراضي من أتراك ومصريين وأجانب ، أما الفلاحون فكان آخر شيء ممكن أن ينظر إلى مصالحهم ، وفي إطار العذاب دخلت مسألة الري ، فحرموا من المياه لتروى بها أراضي الأسياء .

ومسألة توزيع المياه هي مسألة حيوية وجوهرية حيث إن غالبية المحاصيل تتوقف على ري الأراضي في وقتها اللازم ، وكانت جميع أشغال الري قد وجدت من أجل أراضي الخديو وجفالك الأسرة ، وإذا ابتسم الحظ للفلاحين أحياناً وزادت المياه ، رويت أراضيهم ، أما إذا كان الري قليلاً فيستخدم جميعه لأراضي السيد ويحرم الباقي ، وأصبح من المألوف أن تنقطع المياه عن أراضي الفلاحين ، مما كان يلجئهم إلى بيع أراضيهم دون السعر الحقيقي ، هؤلاء الذين وقعت عليهم كل تلك الأعباء ، فكان أقل ما يجب أن يعطوا حقهم في المياه ، لكن كانوا مهندسو الري الذين يتولون أعمال السدود والبرابخ ووابورات الري يفرضون المزيد من الطلبات عليهم ليسمح لهم برى أراضيهم في النهاية ، تلك المياه التي تزيد عن حاجة الأغنياء الذين كان منهم مهندسو ومفتشو الري ، فأراضيهم تروى في المرتبة الأولى لدرجة

Egypt, op. cit., pp. 24, 79 .

(١)

(٢) الزقائع المصرية ، عدد ٩٦١ في ١٠ نوفمبر ١٨٨٠ .

أن مشروعات الري كانت أيضاً تنفذ وفقاً لأهوائهم ومصالحهم بالرغم من أن الفلاحين هم المنفذين لتلك الأعمال ، فكان ما يحدث أنه بعد أن تُخدم الأراضي المعهودة ، يوقف المهندسون العمل « فكانت أراضي الأغنياء تفيض بالمياه بينما تبقى أراضي الفقراء متعطشة إلى قطرة واحدة »^(١) .

وكانت مسألة رفع المياه لرى الأراضي تخضع لضرائب ثقيلة ، وقعت أيضاً على عاتق الفلاحين إذا أرادوا مياهها وحتى الترع المشتركة بين الجفالك والأبعاد وبين أراضي الفلاحين ، كان مفتشو الجفالك ونظار الأبعاد يضعون أيديهم على هذه الترع ، فيديرون الواورات ويمنعون الفلاحين من أخذ المياه بدعوى أنها غير كافية لمزروعاتهم مع أنها واردة من النيل الذي لم يخصص فئة معينة ليعطيها ماء ، فيضطر الفلاحون لدفع الثمن « فيروون الفدان الواحد ببنتو أو جنيه دفعة واحدة ، وهيات أن سمحوا لهم بذلك قبل تلف مزروعاتهم ، فترعة سنديس تنتفع بها ست جهات غير أن التربة مشغولة بوابور التفيتش ، فيحجر على المياه الواردة إليها فلا يسع الأهالي إلا مواساة الخولى ومن فوقه طلباً لأخذ المياه بالثمن ، وقل أن يتحصلوا عليه »^(٢) . وبذلك اشترع الإختصاص الذى اعتمد على النفوذ والقوة واحتقار الفقير والأنفة من مشاركة الفلاح للأمراء فى نعم الله الذى خلق الاثنين بلا امتياز بينهما .

وأكثر من ذلك فإن القائمين على التفاتيش أقاموا السدود لمنع المياه منعاً باتاً من الوصول إلى أراضي الفلاحين ، وكثرت المطالبة ببعض المياه من الفلاحين ومشايخهم ولكن من يسمع ومن ينصف ؟ وتحكم الباشوات تمام التحكم ، فقد حدث أن أقام عمر لطفى باشا مصرفاً بأراضي الفلاحين بكفر سقانة - مركز فرسكور دقهلية - لصرف المياه من أراضيهم وبذلك أتلّف جميع المزروعات ، وهاجر الفلاحون بعد أن أصبحوا عاجزين عن دفع الضرائب على المحصول التالف وبعد أن فقدوا كل شيء^(٣) .

وأخذت الرشوة مكانها مع المياه ، فمن يأخذ يدفع ومن امتنع خرم ، فأين للفقير من أموال لدفعها إلى جميع تلك المجالات ؟ كما تمكنت العلاقات أن يكون لها أثرها ، فإذا تضاغن مهندسو الري مع مدير المديرية ، عاقبه بقطع المياه عن المديرية كلها خلال وقت الري ، وبهذا العمل أضّر بالفلاحين جميعهم .

Egypt, op. cit., pp. 20, 24 .

(١)

(٢) المحروسة ، عدد ٢٥ فى ١٤ فبراير ١٨٨٠ .

(٣) محفوظات الداخلية ، محفظة رقم ٣٩ ، محرم - صفر ١٢٩٩ (١٨٨١) .

وخضع الري لتحكمات الأجانب بعد أن سمح لهم بممارسة كل شيء على الأرض المصرية ، كان على رأس المتحكمين في الريف المصري « باولينو باشا » إذ كانت له أراضى كثيرة في البحيرة فاستغل ترعة (السعرائية) لمنفعته الخاصة ، ومنع الاستقاء منها مدعياً بأنها أنشئت خصيصاً له مع أنها قديمة الإنشاء ، وتظلم الفلاحون ولكن دون جدوى ، واستطاع أحدهم أن يقيم بريخاً لتوصيل المياه إلى أراضيه « فما كان من الخواجة إلا أن أرسل ثلاثة خواجهات لمنع إقامته ، بل أن ما أقيم منه قد هدم أمام الباشا والعساكر التي أحضرها »^(١) . كذلك امتلك هؤلاء الأجانب ومن دخلوا تحت حمايات وابورات الري ، وكان من بين شروط عقود الامتلاك أن ينتفع الأهالى لكن إلى أى حد طبق ذلك ؟

« الخواجة بشارة صليبة مالك الأراضى بدمنهوور أذن له بوضع وابور على التربة لرى أراضيه على شرط أن يكون له الخمس فى الانتفاع ، فىكون استعماله لها يوماً وللاًهالى أربعة أيام ، فلما تمكن من وضع الوابور منع الأهالى بالمرّة من الرى واستأثر بالتربة ، ولما ارتفعت مياه النيل وطلب الأهالى إجراها إلى أراضيه ، سد عليهم مجراها وأقام على ذلك السد محافظين من تبعته أجروا فيهم الضرب ورفعوا عليهم الطبنجات وهددوهم بالقتل إذا تقدم أحد منهم لقطع السد »^(٢) . وأصبحت آلات الري تجارة رابحة على أيدي الأجانب ، فكم استفادوا من بيع الماء للفلاحين ، حتى فى زمن الفيضان الذى يكون الماء فيه وفيراً وبغير ثمن ، وذلك بعد أن منعوا الفلاحين من الاستحواذ على قطرة الماء ، والنتيجة المعاناة التى تؤثر على الإنتاج ، فقد كان واضحاً أن ما تغله أراضى الفلاحين أقل مما تغله أراضى كبار الملاك الذين وجدوا كل شيء ممهداً لهم وبدون أدنى مجهود بينما وقعت الأعباء كلها على فلاحى مصر .

الفلاحون ودوائر الظلم

مورس الظلم بكافة أنواعه على أيدي كبار الملاك وخاصة الأتراك الذين كرههم الفلاحون وثاروا بسببهم ، فقد كان قدوم الباشا التركى إلى أراضيه ، يوماً ترتعد له

(١) المحروسة ، عدد ٦١ فى ٩ أبريل ١٨٨٠ ، عدد ٦٧ فى ١٧ أبريل ١٨٨٠ .

(٢) التجارة ، عدد ٥٥ فى ٢ أغسطس ١٨٧٩ .

أبدان الفلاحين ، فكان وحش كاسر قد حل بالأرض ، فهو مصاحب بمجموعة مسلحة من جيشه ، وهنا يرتعد حتى العمد والمشايع ويقدموا له فروض الطاعة والولاء ، ويمارس سلطته وجبروته فيحضر من الفلاحين من أصاب أرضه بشيء أو تمرد عن العمل المكلف به ليشنقه في أعلى مكان بالبلد كتعذير لبقاى الفلاحين(*) . ووقع الفلاحون لظلم التجار الذين سلبوهم كل شيء ، فعندما يريد الفلاح أن يبيع قطنه ، فإنه يوزنه عند ملتزمى القبان فى بلدته ، ويتكرر الميزان فى كل بلدة يمر عليها ولا يعلم أيهما أصح ، وفى كل مرة ينقص الوزن بدعوى البلل ، فهو لا يعرف القراءة ولا الكتابة ولا صفة الموازين وحساب القناطير ، وأصبحت حلقة الأوزان هى مقر اغتيال فقراء الفلاحين من السماسرة ورؤسائهم وشيخ القبانية وناظر الحلقة .

وقد برهن العمد والمشايع على ممارسة الظلم فى أوسع مجالاته ، فإدارة القرية منوطة بالعمدة ، وله الحق فى أن يصدر فى الشئون المدنية أحكاماً وله مساعد أو أكثر من رجال الشرطة « الخفراء » ، والحياة فى القرية تعتمد على العمدة الذى يستخدم الفلاحين فى زراعة أرضه الخاصة باعتباره من أصحاب الأراضى ، وبذلك يصبح ذا سلطتين سلطة الامتلاك وسلطة الحكم ، وكم تكاتف العمد مع مديرى المديرىات على حقوق الفلاحين الضعفاء ، وفرض العمد على الفلاحين مبالغ على كل فدان كانوا يقومون بتحصيلها لأنفسهم ، كما امتلكوا الكثير من الأموال عن طريق إعفاءات السخرة ، وبلغ بهم الأمر أن استولوا على الأراضى جبراً ، وتدخلوا فى الاستيلاء على الملح والتحكم فيه بصرفه بزيادة عن المقرر وأخذ الأموال من صراف الناحية عن طريق السلفة وإعطاء أقل مما فى حوزتهم ، ووصل بهم الجبروت إلى ضرب الفلاحين حتى الموت لذا لا نعجب عندما نرى كثيراً منهم يتركون أملاكهم ويرحلون بعيداً ليخلصوا من هذا العذاب .

أما عن مشايخ القرى ، فقد كانوا أسوأ حالاً وأعظم وبالاً على الفلاحين ، فسلطتهم إخراج الفلاحين للسخرة ، وتحصيل أموال الضرائب ، وتجميع عساكر الجهادية ، وترتيب الخفر ، وملاحظة الضبط والربط . ومن هنا مارسوا الجور

Wallace, op. cit., pp. 260, 261 .

(*)

وحادوا عن الحق واستنفدوا كل طاقات الفلاحين وسلبوا الكثير ، وكتب نائب القنصل الإنجليزي يقول « سلطة المشايخ غير محدودة ، فقد زج أحدهم أربعة فلاحين بالبحيرة في السجن بدلاً من أربعة أشخاص آخرين »^(١) . والسبب واضح ، فإما أن يكون قد ارتشى ، أو على علاقة بهم .

وتعددت طرق احتيالهم ، فبعد انسحاب الفلاحين من أراضيهم كانوا يستولون على هذه الأراضي ويسجلونها بأسماء لأقاربهم ويستخرجون الحجج بعد إحضار من ينتحل الأسماء ، ومنهم من يتحد مع المرابين الأجانب من أجل الاستحواذ على الأراضي الخاصة بالفلاحين « وأربابها ينظرون إليه ولا يقدرون على خلاصها »^(٢) .

وكان من نتيجة ذلك أيضاً أن ترك الفلاحون أراضيهم ليعملوا لدى كبار الملاك ، وكما فعل الهاربون من السخرة فعل هؤلاء أملاً في حمايتهم من ظلم المشايخ ، ومن ثم جنى الفلاح البؤس والهوان وحرّم من مقومات الحياة وأصبح فقيراً مذلولاً ، وقعت عليه الأعباء جميعها ، فهو الممول لأرباب الديون وفوائد السلف التي لم يكن له صوت في اقتراضها ، ولم تعد عليه بفائدة بل هو خاضع لشرذمة من الأتراك وضعته تحت أرجلها عدة قرون ، ووقع عليه جبروت الأجانب من روبيين ومالكين ، ثم ذلك النظام الإداري الفاسد الذي خضع له ، وبذلك عاش الفلاح سنين طويلة تحت أثقال المصائب ، وتحمل كل أصناف العذاب والآلام ، ومات غير آسف على ما فات ، فقد أصبح مجرداً من كل شيء « فكان من الأمور النادرة في تلك الأيام أن يرى الإنسان شخصاً في الحقول وعلى رأسه عمامة أو على ظهره شيء من قميص »^(٣) .

الأملاك الشاسع على حساب الفلاحين

عندما تولى إسماعيل الحكم كان يمتلك ٣٠,٠٠٠ فدان وانتهى به الأمر أن أصبح مالكاً لخمس أرض مصر ، وكلما ازداد شراهة في اقتناء الأراضي كلما كان ذلك على حساب الملكيات الصغيرة للفلاحين ، فقد اعتبر الخديو نفسه القوة المطلقة على مصر والمصريين ، وأنه المالك الوحيد لتلك الأرض وله الحق في استغلال ممتلكاته كيفما يشاء ، وكانت طريقته في الاستحواذ على الأراضي تتم

(١) Egypt, op. cit., p. 118 . (٢) الوطن ، عدد ٦٢ في ١٨ يناير ١٨٧٩ .

(٣) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt, P. 11 .

جبراً واغتصاباً ، فيتيخر له أعوانه خير البقاع وأخصبها ، ويلزم الفلاحون بالبيع وهم مكرهون عليه وتتم المبايعة بالشهادة الزور ، ويسجل في المحكمة على أنهم قبضوا الثمن ، وحوّل الأراضى إلى زراعة القطن وجعل أصحابها عبيداً فيها . وبذلك آل إليه أكثر من مليون فدان من أجود الأراضى وأخصبها^(١) .

وجاءت الحرب الأمريكية لتزيد شغفة في حب الأراضى ، فكانت أراضيه على قمة الأراضى التى استفادت من ارتفاع الأسعار ، وبنهاية الحرب اتجه إلى السكر فأنشأ ١٧ معملأ على أحدث طراز ، وبالتالي استولى على تلك الأراضى للسكك الحديدية والقنوات التى تخدم هذه المصانع ، مستعملأ أعنف الوسائل لذلك ، ليتمكن فى النهاية من امتلاك ٥٠٥,٠٠٠ من الأفدنة لنفسه ، ٤٢٥,٧٢٩ لعائلته^(٢) ، فكانت تلك الأراضى عبارة عن مؤسسة للزراعة قائمة بذاتها . أما عن اغتصاب الباشوات ، فقد ساروا فى طريقه ، لتكتمل الدائرة التى يخرج منها الفلاحون معدمين يعملون فى مزارع السادة كعبيد الأرض .

فعندما أراد حسين باشا ضم خمسمائة فدان من أراضى أعالى « صفت الملوك » إلى أراضيه ، تم له ذلك لا لغرض إلا لتكون أراضيه وحدة واحدة لها طابعها المتكامل ، واستولى حليم باشا على ثلاثمائة فدان من فلاحي « الرويسية » ، واستحوذ داوود باشا على أراضى بعض فلاحي مديرتى المنوفية والقليوبية ، وقد اتضح أن هذه الأراضى تبلغ ١٠١٧٧ فداناً منها ١٧٦٢ بالقليوبية ، ٨٤١٥ بالمنوفية « وقد أجبر الأهالى عن التنازل عنها » . واستولى إبراهيم باشا الألفى على أراضى فلاحي ناحية بشلة بالدقهلية^(٣) .

وقد خضع الفلاحون لأعنف إجراءات الاغتصاب ، فمثلاً أحد فلاحي « أبيا الحمرة بحيرة » اشترى نحو العشرين فداناً بحجة وتقسيط ، وصرف على إصلاحها وبنى بها ساقية ، وكان بجوارها أرض لسفرجى باشا الخديو إسماعيل مشتراه من أرض على بك الميهى ، وضم إليها من الأرض الميرية بطريق التدليس حتى بلغ مقدار

(١) الوطن ، عدد ٧٢ فى ٢٩ مارس ١٨٧٩ .

(٢) Affaires Etrangères, Egypte, LXXX, p. 128 .

(٣) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٧ ، دفتر رقم ١٩١١ ، أمر رقم ١٠٣ فى ٦ رمضان ١٢٨١ (١٨٦٥) ، محفوظات مجلس الوزراء ، محاضر جلسات مجلس النظار ، دوسيه ١٠ ، محضر ٦ مارس ١٨٨٢ ، محافظ الداخلية ، محفظة ٥٤ ، ٢٢ شوال ١٢٩٦ (١٨٧٩) .

ما يمتلكه ثلاثمائة فدان ، واستخدم الأنفار بالسخرة فيها ، وتراعى ببصره ناحية العشرين فداناً المملوكة لهذا الفلاح ، فكتب إلى مديرية البحيرة بأن زمامه عاجز ولا يكمل إلا بإضافة العشرين فداناً ، وعلى الفور عينت له المديرية مندوبين ومساحين ، وبتداخل بين الباشا ومدير البحيرة ، أحضر الفلاح ووضع في السجن ، وأحيلت المسألة على مجلس دمنهور ، وأدخلت في حيازة سفرجى باشا أربعون فداناً لا العشرون الخاصة بالفلاح الذى أخرج من السجن وخير بين « قبول الحكم أو الضرب بالتيلة »^(١) ، فكان ذلك أبشع صور الاستغلال .

وبالنسبة لاستيلاء الأجانب على الأراضى عنوة فإنها استمرت أيضاً ، فقد كان « للخواجة يعقوب منشة قطعة أرض فداناً ونصف خراجى بناحية طلخا ، وبحسب لزومها أخذت منه على ذمة الدائرة على أن يعوض عنها ، فاشتريت له الدائرة قطعة خراجى بالمنصورة ، ولكن الخواجة اشترط أن تعطى له أيضاً الأرض المرفقة ، وكانت ملكاً للأهالى وعليها ثلاث سواقى ، وتم له ما أراد »^(٢) .

وكثيراً ما كانوا يفتصبون الأراضى الجيدة الخصوبة بما عليها من سواقى وفلاحين ، ويعطونهم بدلاً منها أراضى قاحلة لا تصلح للزراعة لكثرة ما بها من خلجان وعلوها عن المياه ، ويحولون تلك الأراضى التى استولوا عليها إلى عشورية .

أما عن الجفالك وما قدمته لفلاحيتها ، فقد ذاقوا الأمرين منها ، زادت إيجاراتها فتشتت أهلها فى أرجاء البلاد ، وقسى مفتشوها فكانوا « ينكبون على الفلاحين ويطوقوهم بالإيجار طاقتين ، وعمدوا إلى المواشى فسلبوها ، وأضافوا إليهم عجز محصولات الجفالك عن السنين الماضية ، وكذا إضافات لم تقرر إلا على أصحاب الأراضى منها زيادة العشور ، فأضافوها على أصل مربوط الإيجار ، ومنها فرق الفرز وحفظ النيل ومصاريف الري وعوايد الحرب ومعامل الدجاج ، مع العلم بأنهم مؤاجرون عليهم دفع الإيجار الأسمى فقط ، وبذلك كان يصل الفدان إلى أضعاف مضاعفة عن الإيجار الأسمى »^(٣) .

(١) الكوكب المصرى ، عدد ٩ فى ١١ يوليو ١٨٧٩ .

(٢) محافظ الأبحاث ، المصدر نفسه ، دفتر رقم ٩٠٨ ، أمر ١٦٨ فى ٢ ذو الحجة ١٢٨٠ (١٨٦٤) .

(٣) الإسكندرية ، عدد ٣٤ فى ٢٧ فبراير ١٨٧٩ .

كما كان هناك اغتصاب لأراضى الفلاحين باسم المنافع العامة دون أن يعوضوا عنها ، ولم تكن تلك المشروعات المقامة على هذه الأراضى إلا لخدمة الطبقة العليا دون سواها . وهكذا تفتت ملكيات الفلاحين وكثيراً ما تحملوا تلك الأثقال حتى انهكوا وخارت قواهم ، لكنهم استطاعوا أن يصمدوا إلى أن قامت الثورة من أجلهم فلبوا نداءها .

الحركات الإيجابية للفلاحين أمام قوى القهر

كان طبيعياً أن تثور هذه الجموع وأن تتطلق وتعارض ، فقد فاضت نفسياتها بذلك الكبت ، وأصبح عليها أن تتخذ أى أسلوب يعبر عن ضيقها وتبرمها وتشعر أنه سيكون ضربة موجبة لمستغليها .

سجلت أولى الخطوات ومنذ البداية الهروب ، حقيقة أن ذلك أسلوب سلبي ، لكنه كان ناجحاً حيث عانى أصحاب الأراضى جميعهم من هذا الأمر ، وأولى أسباب هروب الفلاحين عجزهم عن سداد الضرائب ، وعندما مكنت قوانين سعيد من أن تخرج الأرض كلية من أيديهم عن طرق الإرتهان كان التسحب واضحاً ، وقد كثر فى الوجه القبلى أكثر منه فى الوجه البحرى ، فيصف نائب القنصل البريطانى حالتهم يقول : « استمرت هجرة الفلاحين ، وعدد كبير من سكان أرمنت تركوا منازلهم بسبب ذلك الضغط المتزايد عليهم وعلى وجوههم مساحات الغم والفقر والعذاب »(*) . وقد سمى هؤلاء بالمتسحبين ، وكثر عددهم بدجة أقلقت بال الحكومة ومجلس شورى النواب ، خرجوا من أراضيتهم بعد أن تركوا كل شئ منازلهم القديمة ، أهلهم ، أراضيتهم التى ورثوها أملاً أن يجدوا حياة أخرى تكون أحسن مما هم عليه ، وتكونت فرقاً خاصة للبحث عن الفارين وإرجاعهم وكان ذلك ضرورياً ، فمن الذى سيدفع كوابات الديون ؟

إذن لابد من ترك تلك الأعباء جانباً والهروب منها ، وبالرغم من أن طبيعة الفلاح المصرى هى الاستقرار وحب لآرضه والصعوبة البالغة إذا طلب منه أن يتركها ، لكنه أمام هذه الظروف تركها ليبرهن على أنه رافض ، وانضم الرافضون ليكونوا ثورة صامتة ضد الظلم والطغيان وانسحبوا من الميدان .

Egypt , op. cit., p. 40 .

(*)

أما عن باقى الخطوات التى اتخذها الفلاحون ، فقدت ترجمة عملية وصادقة لما يلاقونه ، كانوا يتحركون تجاه الثورة ضد الحكام الطغاة وضد الأتراك المغتصبين الظالمين بل وضد الأجانب الغريباء . وبدأت التحركات لتعبر عن الإرادة لضرب السلطة الموجودة وإيدائها .

شهدت السنوات الأولى من حكم إسماعيل قدراً كبيراً من الشغب والاضطرابات بين فلاحى مصر العليا بوجه عام ، وكانت أسباب ذلك ترجع إلى السخرة ، وقاد التمرد رجل يدعى « أحمد » إدعى أنه من أحفاد الرسول ﷺ واعتبره الفلاحون ولياً ، ونادى بأنه سيكون حاكم مصر ، وما لبث الأمر أن تحول إلى ثورة فى الصعيد ، وأرسل الخديو الجنود المسلحة ، وذهب بنفسه وقتل الثائر ، ودمرت القرى لتكون أراضى زراعية ، ووزعت أهاليها^(١) .

وازدادت أعمال الشغب والاضطرابات ضد السلطة الحاكمة بين سنتى ١٨٧٧ - ١٨٧٩ بين سوهاج وجرجا ، وكان ذلك بسبب قلة مياه الرى والضغط فى تحصيل الضرائب ، فتعصب الفلاحون فى مديرية جرجا على مأمورى التحصيلات^(٢) .

وفى عام ١٨٨٠ انتقلت الاضطرابات إلى المنطقة التى تزرع الأرز بشمال الدلتا ، والسبب أن أصحاب هذه الزراعة قد جرت العادة على إعفائهم من السخرة ، علاوة على إرسال مساعدين لهم ، ولكن طلبات الحكومة كانت فوق كل اعتبار « فعصوا الأمر ورضخت لهم الحكومة »^(٣) ، فالامتناع عن تنفيذ الأوامر انتصار فى حد ذاته .

وحدث فى كفر الشيخ أن « هجم جماعة من الفلاحين على معاون إدارة المركز وكان معه أربعة خفراء لرغبتهم فى تعداد الأغنام التى كانت معهم ، فضربوهم بالنابيت وشجوا رؤوس الخفراء ، وأصيب معاون بضربتين فى رأسه ، وعند علم أهالى القرية حضروا جميعهم بنابيتهم للاشتراك فى المعركة »^(٤) .

(١) بير ، المرجع المذكور ، ص ٢٢٢ ، قلينى فهمى ، مذكرات قلينى فهمى باشا ، ص ٢٢ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ٨٠٢ فى ١٦ مارس ١٨٧٩ .

(٣) بير ، المرجع المذكور ، ص ٢٣٥ .

(٤) الوقت ، عدد ٩٦٧ فى ٢ نوفمبر ١٨٨٠ .

وأصبح الفلاحون الذين يعملون في أراضي كبار الملاك - خاصة الأتراك - يسعون بكل الطرق لعدم نجاح تلك الزراعات ، وبعضهم كان يذهب ليلاً سرّاً إلى حقول القطن وقت بذر البذور لينزعوا تلك البذور التي بذورها في النهار ، ليضروا أصحاب الأراضي ، وكان يكتشف أمرهم وتنزل عليهم العقوبات القاسية^(١) .

واستتبع ذلك الهجوم على العزب للانتقام من أصحابها ، ففي ٢ يولية ١٨٧٩ تم السطو على عزية في كفر بالقليوبية ليلاً ، واستحوذ المهاجمون الفلاحون على عدة آلات وملابس وأواني نحاسية ، وفي ٢٠ يوليو تكرر ذلك في عزية محمود أبو صبيح بالسليمانية ثم في عزية محمود الشواربي ، وفي ٢٤ يوليو هوجمت أيضاً عزية محمود الشرقاوى ، وضربه الفلاحون حتى أنه مات في اليوم التالي ، وفي ٢٦ يوليو اعتدى على عزية عبد الرحمن أحمد وأخذ منها كردان ذهب وزوج أساور فضة وأواني نحاسية ، وقد استعمل البوليس القسوة الشدة ولكنها كانت تأتي بنتيجة عكسية^(٢) .

هذا في الوقت الذي بدأ فيه الوعي العام ينمو ، فتلك الظروف الصعبة التي مر بها الفلاحون خلقت منهم أشخاصاً يفهمون ويتدبرون ويحيدون عن الطاعة التي اتصفوا بها ، وقد لازم الوعي تلك المساوئ التي ازدادت مع حكم إسماعيل حتى أن مصر في نهاية عهده أصبحت أمه تعاني ، فقد أخرج بتصرفاته الفلاحين الصامتين عن صمتهم وأفاقهم من غفلتهم .

وكان الرأي قد تبلور فعلاً والتحرك قد بدأ ، فيكتب مراسل صحيفة التيمز في ٢٣ يناير ١٨٧٩ يقول : « لست مبالغاً إذا قلت أن في القاهرة الآن مئات المشايخ يمثل كل منهم قرية من القرى ، لقد جاءوا بمعروضات يسألون فيها تخفيف الضرائب ، وكلهم يعلن أنه لا يمكن بقاؤها على ما هي عليه ، جموع محتشدة أمام النظارات حيث يعترضون النظار في غدوهم ورواحهم ومعروضاتهم تملأ أقدام المصالح^(٣) . معنى هذا أن الفلاحين قد تنفسوا وختموا على المرائض وجأهروا علناً بالشكوى غير راضين على أوضاع أوجدتها الحكومة وبالتالي فهم غير راغبين فيها .

Egypt , op. cit., p. 49 .

(٢)

Wallace , op. cit., p. 264 .

(١)

The Times, January 23, 1879 .

(٣)

وتابع ذلك أنهم لم يعودوا يكتفون بإرسال من ينوب عنهم بل جاءوا بأنفسهم ، فتقول صحيفة التجارة : « وفد من أهالي الفيوم وفدوا بالأمس على حضرة ناظر المالية حفاة عراة يثنون مما لا قوه من ضرب وسجن وتغدير من المأمورين المنطوين بتحصيل الأموال وحالهم يشهد بصدق مقالهم »^(١) . وأرادت الحكومة بكل الطرق أن تجتث على هذا الوعي الذي ظهر وذلك التزمز الذي انتشر ، فمضت في سياسة القمع لا الإصلاح لتزيد من الأوضاع سوءاً ، فكانت تقضى على حركات المعارضة إما بالنفي خارج مصر أو بالوضع في السجن ، وقد طبقت مسألة السجن على الفلاحين أكثر من النفي . وأبان لنا وكيل القنصل الإنجليزي ذلك « إن الفلاحين الأربعة الذين اشتكوا مازالوا موجودين بسجن قنا ، هؤلاء الأشخاص الذين وضعوا في السجن لا من أجل جريمة اقترفوها ولكن لأنهم التمسوا العدل والإنصاف »^(٢) . ومما لا شك فيه أنه كان لمجلس شورى النواب الأثر أيضاً في تحريك الرأي العام الفلاحي ، فالنواب هم من طينة الفلاحين ، تلك الطينة التي تكره الباشوات الأتراك . أليس هم العمدة ملوك القرى ؟ أليس هم الذين يعارضون في مناقشاتهم الضرائب ؟ إذن فقد كانوا عاملاً مشجعاً على أن ينطق الفلاحون .

وتأتى الثورة ليكون الفلاحون هم الدعامة الأساسية فيها ، فهي ثورة صادقة عبرت عما يجيش بصدور هؤلاء المعذبين . لقد استغرق ما سَطُرَتْ فيه الظروف التي مر بها الفلاحون صفحات كثيرة ، وحصل على مجهود كبير كي لا يُفَرَطَ في شيء ، خصوصاً تلك الأعباء التي وقعت على كاهلهم وكانت الأساس المتين الذي شكلهم ، وجعلت منهم عنصراً أساسياً في الثورة العربية التي اشتركوا فيها بكل طاقاتهم ومادياتهم ومعنوياتهم وإيمانهم الصادق ورغبتهم الأكيدة في التخلص مما حاق بهم لفترات طويلة ، لذا فإنه من الواجب أن تدعم تلك الخلفية لفلاحي مصر حتى يفهم الدور الذي لعبوه في الثورة .



(١) التجارة ، عدد ١٧٩ في ١ فبراير ١٨٧٩ .

Egypt, op. cit., October 16, 1879 .

(٢)

الفصل الثاني

التجار والحرفيون

لقد ... ارتكزت الرأسمالية في مصر على أصول زراعية ، وذلك بتطور الملكية من عامة إلى خاصة ، وبانفتاح الاقتصاد المصرى على الغرب عن طريق المحاصيل النقدية وخاصة القطن ، فأصبح هناك مجال واسع للتجارة ، صحبه ورود التجار الأوربيين إلى مصر وتحكمهم في هذا الميدان بعد أن انسحب منه المصريون ، وفقاً لنظام الاحتكار الذى أوجده محمد على مما كان له الأثر السيئ في القضاء على طبقة التجار المحليين .

وبنهاية هذا النظام بناء على توقيع الإتفاق الإنجليزى العثمانى فى عام ١٨٣٨ الذى سمح لرعايا بريطانيا بالإتجار فى المنتجات الزراعية والصناعية فى جميع أنحاء الدولة العثمانية بما فى ذلك مصر دون قيد ولا شرط ، والذى ألغى الحظر المفروض على تصدير بعض السلع ، تحررت التجارة من الاحتكار وبدأت سياسة الباب المفتوح .

ومع سعيه انتقلت التجارة إلى أيدي الوطنيين لفترة قصيرة ، استطاعوا أن يحلوا فيها محل التجار الأجانب الذين كانوا قد بدأوا التوغل فى داخلية البلاد ، كما أنه أصلح من شأن الجمارك فجعلها مصلحة أميرية مستقلة ، وأصبح التجار أحراراً فى اختيار الوسائل التى ينقلون بها محاصيلاتهم .

وازدادت الحركة التجارية على يد إسماعيل ، فاعتمد مصر على الزراعة أعطى الفرصة الكبيرة لرواج التجارة الأجنبية ، فالحاجة أصبحت ملحة فى استيراد الوقود والآلات حتى المواد الغذائية جلبت إلى مصر بمقادير وافرة ، وكان لزيادة عدد السكان ، وتدفق الهجرة الأوروبية مع سعيه طمعاً فى الثراء حيث جاءت من أجل

المشروعات وفقاً لسياسة الانفتاح ، وتعلق المصريين بالمدينة الأوروبية ، والتوسع في زراعة القطن على حساب المحصولات الأخرى إذ ارتفع الصادر منه في المدة من ١٨٥٠ - ١٨٨٠ إلى ما يقرب من عشرة أضعاف^(١) ، وقناة السويس التي جعلت لمصر مركزاً تجارياً بين الشرق والعرب ، وتقدم وسائل العمران والمواصلات والاهتمام بالموانئ والملاحة ، كل هذا أدى إلى انتعاش التجارة التي أنشئت لها نظارة خاصة بها ، وازدادت أهميتها وأصبح الميزان التجاري دائماً في صالح مصر ، فقد وصلت صادراتها عام ١٨٧٤ إلى ١٢,٧٣٠,٠٠٠ جنيه مصري ، بينما كانت الواردات ٥,٦٩٤,٠٠٠ جنيه مصري ، لكن كانت هناك العوائق التي حدت من استفادة مصر ، فالالتزامات الملحة والرقابة الأجنبية التي جندت ما تملكه مصر من أجل تسديد الديون ومضاعفتها منذ عام ١٨٧٧ الرسوم الجمركية ، ومظاهر إسماعيل ، وتلك الحروب التي خاضتها مصر ، واضطراب النيل في بعض الأحيان ، وأخيراً تحكم الدولة العثمانية في التجارة المصرية وخاصة أنها تصدر منتجاتها إلى مصر أكثر مما تستورد منها ، وتستخلص الرسوم قبل التصدير .

أما النهضة الصناعية التي أقامها محمد علي بتلك الأعداد من الورش والمصانع الحربية ومصانع الغزل والنسيج والسكر والنيلة ، ثم إنشائه لترسانة الإسكندرية ، لم تكن وفقاً لأسس وقواعد تنظيمية ، كما أن أخذ الدولة بنظام الاحتكار قضى على أي تقدم ، وأيضاً على طبقة الحرفيين ، تلك الطبقة التي في إمكانها في ظروف نمو طبيعي أن تتحول إلى بورجوازية تجارية وصناعية كما حدث في أوروبا^(٢) .

وكان عمر تجربة محمد علي عشر سنوات ، ولم تترك أثراً ذا بال على الحياة الاقتصادية أو على شكل الإنتاج ، لأن هذه المصانع أقيمت لخدمة الأهداف التي رمى إليها الباشا ، وهي توفير العتاد والعدة للجيش ، وجاء عباس ليبطل في يوم وليلة على ما تبقى من معامل القطن والكتان والأقمشة والأجواخ والحريز والمقصبات التي أنشأها محمد علي ، وشرد من كان بها من الصناع والعمال ، ولم يحدث في

(١) أحمد أحمد الحنة ، المرجع المذكور ، ص ٣٢٧ .

(٢) محمد أنيس ، السيد رجب حراز ، التطور السياسي للمجتمع المصري الحديث ، ص ١١٢ .

فترة حكمه أى تطور إلا عندما قامت حرب القرم ، فانتعشت قليلاً الصناعات المتصلة بالجيش والأسطول ، كما أن السياسة الإنجليزية وتقدم صناعة المنسوجات السريعة استدعى أن يعمل الإنجليز على تهيئة الظروف لإيجاد سوق لتصريف المنسوجات واستيراد القطن المصرى .

أما سعيد فقد صب اهتمامه على الزراعة ولم يبذل جهداً فى الصناعة ، وقد شهد عهده التدفق الأجنبى للسيطرة على الاقتصاد المصرى ، وتوافدت الواردات الأجنبية لتقف أمام أى إنتاج صناعى محلى يمكن له أن يقوم .

وكان من جراء تهاون سعيد أن ارتبط الإنتاج المصرى بسياسة أوروبا نحو مصر ، وصارت مصر سوقاً للمصنوعات ورؤوس الأموال الأجنبية ومصدراً للمواد الأولية ، وتركزت العناية بمطالب الطبقات العليا وإهمال ما عداها ، وهكذا لم تجد الرأسمالية الأجنبية وهى تتسرب إلى مصر قوة فى مواجهتها من البورجوازية أو طبقة الحرفيين بل وجدت السوق المصرى خالياً تماماً لها .

وحاول إسماعيل العمل على إيجاد صناعة وخصوصاً بعد تلك الفرمانات التى حصل عليها ، وكان من نتائجها السماح بزيادة الجيش وبناء السفن ، ولكن محاولته هذه ذهبت لصالح الأجانب ، كما أن اتجاهه كان أيضاً للصناعات المرتبطة بالاقتصاد الزراعى ، كصناعة السكر وحلج القطن وعصر الزيوت والجلود وطحن الحبوب والورق وبعض الأنواع من الأقمشة القطنية والطرايش ، وازدهرت صناعة حلج القطن تبعاً لاتساع زراعته أثناء الحرب الأمريكية ، فزاد عدد المحالج من ٢٤ محلجاً فى يونية ١٨٦٢ إلى نحو ٥٠ محلجاً فى نوفمبر من نفس السنة(*) . لكن تلك الصناعة انتكست عقب نهاية الحرب ، فزاد إسماعيل من صناعة السكر حتى بلغ عدد المصانع ١٧ مصنعاً ، لكن لم يكن انعمال يعنون بأمر تلك الصناعة إذ سخروا فيها ، والنتيجة استمرار هروبهم فساء الإنتاج تبعاً لذلك ، هذا وقد تدهورت تلك المصانع بناء على الظروف المالية ، فاستولت عليها شركة فرنسية فى إطار التسلط الأجنبى الذى قبض فيه الأوروبيون على الحياة الاقتصادية فى مصر ، بعد أن مهد إسماعيل وسهل طرق السيطرة لهم .

(*) محمد فهمى لهيطة ، تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة ، ص ١٩٦ .

وأصبح الاعتماد على أوروبا في كثير من لوازم المعيشة والترفيه وتغيرت الأذواق ، وتطورت حياة الطبقتين العليا والوسطى ، بينما بقيت حياة الطبقة العامة على حالها ، فكانت النتيجة أن قل الطلب على المصنوعات المحلية ، تلك المصنوعات التي لم تستطع أن تواجه ذلك المستوى والاتقان الوارد من الخارج . وهكذا قضت الصناعات الأجنبية على الصناعات الوطنية ، وقتلت الابتكار والتفنن لدى الصناع الذين لم يستمروا في أعمالهم نتيجة بوار مصنوعاتهم ، أضف إلى ذلك جمود نظام الطوائف الذي كان عاملاً في تدهور الصناعة الوطنية ، فكل صناعة أو حرفة كان يقال لها طائفة ، ولكل منها شيخ ينتخب ، وتصدق الحكومة على تعيينه مقابل رسم ، وهو يحدد أثمان العمل ويرتب درجات الأجور ويستقبل الأعضاء الجدد ، كما أنه المسئول عن دفع أعضاء الحرفة للضرائب ، ولذلك اعتبر نظام الطوائف الوسيط بين فئات الشعب من ناحية والحكومة من ناحية أخرى .

وكافحت طبقة العمال من الصناع والحرفيين من أجل البقاء ، ففي القرية كان النساجون والصباغون وصانعو الحصير أحسن حالاً إذا قيسوا بالفلاحين ، أما في المدينة فقد زاولوا نشاطهم في إطار محدود ، فكان منهم صانع الأسلحة ، الحداد ، صانع الطوب ، النجار ، الحصري ، صانع الملابس ، الصائغ ، المطرز ، الحفار ، صانع الأحذية ، الخياط ، الجوهرجي ، حارق الجير ، البناء ، الحجار ، الدباغ ، القصديري ، السمكري ، المنجد ، المطبعجي ، النساج ، صائد السمك ، النوتي ، صانع الورق ، صانع الزجاج ، القلفاطي ، مركب المرازيب ، القمراتي ، السروجي ، المفريل ، المرخماتي ، الفحام ، النقاش ، عامل الشباك ، الخيال ، الطوابي ، الفخرائي ، وقد وصلت أعدادهم إلى ٩٧٢٧٧ في عام ١٨٧٧ (*) .

وعلى الرغم من امتلاكهم لوسائل بسيطة للإنتاج ، وممارستهم نوع من الإنتاج الحر ، فإنهم كثيراً ما اضطروا إلى بيع جزء من قوة عملهم ، وشعروا دائماً بوطأة الفقر ، وخطر البطالة ، وقد تحول كثير منهم إلى عمال أجراء في تلك المشروعات التي أقيمت في عهد إسماعيل و لكنهم أيضاً وجدوا فيها المنافسين من الأجانب ، فقراء البحر المتوسط .

(*) المرجع نفسه ، ص ٣٣٤ .

وكانت الحكومة متراخية فى ميدان الصناعة المحلية ، فهى لم تقدم المساعدات المالية ، ولم تعف الآلات والأدوات اللازمة لها من ضريبة الوارد ، وتحصيلها أجور غير منخفضة على النقل للمصنوعات الأهلية ، وعدم تشجيعها صرف أية مكافآت ، وتصعيبها التسليف من المصارف المالية ، وعدم افتتاحها مدارس صناعية ، وأخيراً أنها لم تفكر فى إنشاء نقابات للعمال تمنحها امتيازات تكفل الوقاية لهذه الطبقة بل زادت من أعبائها بتلك الضرائب التى فرضتها عليها .

الصعوبات التى واجهت التجار والحرفيين :

(أ) الضرائب

عرقلت الحكومة التجارة الوطنية عن طريق الضرائب التى فرضتها عليها ، فالدخلية حصلت على البضائع والسلع فى جميع مديريات مصر ، وكان ذلك عائقاً للتجارة الداخلية وسبباً فى ارتفاع الأسعار ، وفرضت ضريبة على الوزن ، فتقول صحيفة المحروسة « إذا اشترى التاجر البضاعة ويأتى بها موزونة وعليها رسم المقدار ، فيلزم بإعادة وزنها لدفع العوائد ، فإذا أراد بيع طرد بوزنه ألزم بإعادة الوزن ثالثة ، وهكذا كلما تكرر البيع تكرر الوزن حتى يدفع الطرد قيمة ثمنه ، فتعطلت بذلك تجارة الوطنيين وراجت تجارة الأجانب لكونها معفاة من ذلك » (*) . أيضاً كانت هناك عوائد الحملة على كل ما يباع فى الأسواق وهى تحصل بطريقة الالتزام ، وأخذت من التجار ضريبة « الويركو » ويختلف مقدارها بنسبة ما يكسبه التاجر ، وفرضت الضرائب الشخصية على بيع المواشى والدلالة وبيع المجوهرات والسمسرة ومقالى الحمص واختصت بالتجارة الوطنية دون الأجنبية ، كذلك دفعت الرسوم على المراكب الشراعية والتجارية التى تنقل البضائع ، وأصبحت تجارة السلعة تخضع لأكثر من ضريبة وخاصة إذا كانت مستوردة .

وسادت الضرائب على جميع أرباب التجارة حتى أفقرتهم ، فلم يعف متجر وإن قل من إتاوة يؤديها ، وزاد الأمر سوءاً تصرفات مشايخ الطوائف مع صغار التجار ،

(*) المحروسة ، عدد ٨ فى ١٩ يناير ١٨٨٠ .

وقد عرضت هذه المسألة على مجلس الشورى النواب حيث كان بعضهم « يكون معيناً في الوريكو على طائفته فيتهافت على طائفة الآخر فيرميها بمصائب طائفته ، فترى عطاراً مثلاً يتناول مطالبة ثلاثة أو أربعة من مختارة الطوائف ، كل يطلب منه ويركو لطائفته ، هذا كونه عطاراً وذاك على كونه خضرياً لبيعه الأرز والآخر على كونه سكرياً لأنه يبيع السكر وخلافه على كونه بنائاً لأنه يبيع بنأ حال كون ما في دكانه لا تبلغ قيمته عشر ليرات ، فاضطرت هذه الأحوال التاجر إلى الإفلاس والعامل إلى السؤال ^(١) ، وزيادة على ذلك ، فقد أثقل ذلك التاجر بتلك الرشوة التي كانت مقررة عليه لتلك الطائفة .

هذا وقد عانى التجار من تداول العملة بزيادة عن قيمتها الميرية ، بالإضافة إلى الرسوم الجمركية سواء على الوارد أو الصادر وعلى جميع السلع حتى الملح إذ قررت الحكومة « أخذ عشرة قروش على كل تونيلاطة يصير تصديرها » ^(٢) ، أما الوارد فذاق التجار فيه العذاب « فإن تخليص رزمة واحدة من البضاعة يكلف التاجر أن يصرف في الجمرك نهائاً كاملاً أو نهارين يدور فيها على نحو عشرين مأموراً ، وما يتبع ذلك من مثنين ومراجعين وكشافين وباشكتبة ونيشانجية ، ويتكلف نفقات الترجمة حيث أن هؤلاء جميعاً أجانب » ^(٣) ، وشكلت مسألة تهريب الدخان مشكلة أساسية للتجار ، وكانت قد تكونت جمعية من التجار لإنقاذ تجارته من الإنهيار ، ورفعت العرائض إلى الحكومة لتعديل نظام الدخان البلدي بحيث تأخذ رسومه على حسب مساحة أرضه في كل مديرية وطالبت بمنع تهريبه ، لكن الرشوة والمحسوبية سادتا ، فازدادت الأعباء على التجار في الوقت الذي انخفض فيه البيع .

وبالإضافة إلى هذا ، تلك الظروف الطبيعية التي تعرض لها التجار على أثر حالة النيل وما تبع ذلك من كساد السوق ، كما كانت الظروف المالية القاسية على الجميع قد أثرت عليهم ، ولدرجة أن مطلوباتهم على المالية قد أغفلت ، فساءت حالتهم إلى أقصى درجة .

(١) دفتر قيد محاضر مجلس شورى النواب ، محضر ١١ صفر ١٢٩٦ (٢٣ فبراير ١٨٧٩) .

(٢) محفوظات مجلس الوزراء ، محاضر جلسات مجلس النظار ، محفظة ٥/د ، محضر ٥ يونيو

١٨٨٠ .

(٣) التجارة ، عدد ١٧٦ في ٢٨ يناير ١٨٧٩ .

وبالنسبة للضرائب التى فرضت على الحرفيين ، فقد ظلت العلاقة بين الحكومة ومشايخ الطوائف قائمة ، فهى التى تعينهم وتطلب منهم المعلومات عن أفراد الطائفة ، فيسترشد بهم فى فرض ضرائب الحرف التى كانت تجبى بوسائل الإكراه .

وفرضت الضرائب على أقل المهن وزناً ، وحتى الذى ليس له مهنة ، فعندما سئل أحد كبار الموظفين أمام لجنة الدين عن سبب ذلك أبدى دهشته وقال « هل هى غلطة الحكومة أن ذلك الرجل لا يمارس أى مهنة ، أنه يستطيع أن يشغل نفسه بأى مهنة يختارها ، وأن الحكومة لا تمنعه من أن يفعل ذلك ، ولكن إذا لم يختار مهنة فيجب على الأقل أن يدفع الضريبة ، وإلا فيقع الظلم على المشتغلين بالمهن والحرف المختلفة »^(١) . تلك كانت القاعدة التى فرضت الحكومة على أساسها الضرائب فلم تترك أحداً إلا وألزمته بالدفع ، ولم تفلت من يدها أية ثغرة ممكن من أن يأتى منها بالمال .

وتعددت الضرائب : التمفة المضروبة على الأصناف المصنوعة ، ومعاصر الزيت ، وضرائب القبانية والصيارفة والطبالين والزمارية والشياطين والحمارين والفخارين ، كما خضعت مصنوعات المنسوجات والمحيك والقماش الخام للضرائب ، هذا بالإضافة إلى ضريبتى الدخولية والويركو التى خضع الجميع لدفعهما مهما كانت حالتهم المالية ، وقد أبان نائب القنصل الإنجليزى كم كانت الضريبة الأخيرة مجحفة بطائفة الفحامين^(٢) .

هكذا كانت القاعدة الضريبية مبنية على غير أسس ولم تكن الحكومة فقط لتفرض وتزيد ، بل أن القائمين على الأمر كان لهم مجهودهم الوفير فى المزيد لصالحهم ، « فقرازية الحرير كان المربوط عليهم كل ألف درهم عوائد مقدارها ٢٠ قرشاً ثم تزايدت بطرق غير رسمية ، وقد اتفق المتزعمون مع شيخ الطائفة على أن يفيض النظر عن ذلك ، وهم يدفعون له أقمشته بدون أجره أو رسم »^(٣) .

إذن فشيوخ الطوائف وفقوا حاجزاً دون النهوض بالحرف ، فقد بالغوا فى الإساءة للطوائف بملزومهم وزيادة أعبائهم بالضرائب ، وكثيراً ما غبنوا الفقراء ،

(٢) Egypt, No. 3 (1880), Inclosure 13, p. 11 .

(١) Cromer , op. cit. VOLI, p. 49 .

(٣) التجارة ، عدد ١٢٩ فى ٣٠ نوفمبر ١٨٧٨ .

وبذلك فقد ضاعف الشيوخ الأعباء وحملوا الحرفيين أثقالاً فوق طاقتهم من أجل مصالحهم الخاصة ، وأصبح وجودهم مقترناً بالضرائب وساءت الحالة ، وبالرغم من أن حكومة رياض قد ألغت بعضاً من الضرائب لكن الواقع أنه عند التنفيذ كانت هناك الاستثناءات التي أصبحت قاعدة في المسألة الضريبية .

(ب) الأجانب

مع سياسة الانفتاح والترحيب بالأجانب خضعت مصر ومن عليها لسلطانهم ، ولم يكن الأجانب بأوروبيين فقط ولكن وجدت عناصر أخرى من شعوب البحر المتوسط ، وكون الجميع مزيجاً من الاستغلال والاستبعاد للمصريين وسيطروا على الموارد الاقتصادية ، فالأرمن برعوا في التجارة واحتكروا الدخان ، والسوريون عملوا أيضاً بالتجارة سواء في الأقطان أو في الأموال فكانت لهم البنوك الخاصة بهم التي مارسوا الربا فيها ، كذلك التجار المغاربة زاحموا المصريين في أرزاقهم ولكن الأوروبيين حدوا من نشاطهم الكبير ، واليهود الذين اشتهروا بالسمسرة وتجارة الأموال والربا وأنشأوا المحال التجارية للبضائع الأوروبية ، أما اليونانيون ، فاحتكروا تجارة التجزئة وخاصة البقالة ، والمشروبات الروحية كانت من نصيبهم ، وبدأ اليوناني بسيطاً جداً في حانوت حقير ينام ليلاً فيه وعن طريق رفعه للأسعار والربا يصل إلى أعلى المراكز ويصبح رأسمالياً كبيراً يعمل بتجارة القطن ، أما الإنجليز فقد سيطروا على فروع كثيرة في التجارة ، فاحتكروا المنسوجات الصوفية والبياضات والفحم الإنجليزي ، وكان للفرنسيين مركز منفرد لدى إسماعيل في المشروعات التجارية ، وخاصة إذا كان مدير الجمارك فرنسياً ، ومن هنا أصبحت البضائع الفرنسية تفيض بها الأسواق وخاصة المنسوجات الحريرية والدانتيلات .

وأصبحت الإسكندرية الأساس التجاري لنشاط الأجانب حيث كان عددهم مرتفعاً ، ففيها سوق القطن المصري والبيوتات التجارية والمالية ، فتسلطوا على التصدير والاستيراد لدرجة أنه عندما كانت الحكومة تريد شراء غلال أهالي مكة والمدينة ، كان الشراء يتم من « الخواجات »(*) ، الذين تحكموا في الأسواق .

(*) معية سنية عربي ، دفتر القيد غير الرسمي ، رقم ٣٤ ، سجل ١٢ ، ٩ رمضان ١٢٦٩ (١٨٧٩) .

وقد شجع الموظفون الأجانب العاملون بالدولة على تصريف تجارة بلادهم رغم وجود ما يحتاجون إليه فى مصر ، فإنهم عملوا على إحضاره من الخارج « فالجنرال ماريوت المسيطر على السكة الحديدية يشتري جميع الأشياء اللازمة لها من بلاده لترويج الذى كان لا يشتري ولا يبيع ، وإن كان يوجد منها فى هذه البلاد بأبخس الأثمان ، وهذا من جهة رترويج تجارة أبناء جنسهم »^(١) ، ووقعت الجمارك تحت تصرفهم فأساءوا للتجارة الوطنية كما تغيرت سياسة الجمارك بتغير الموظفين الأجانب .

ومن ثم كان وضع التجار المصريين ومآلهم نتيجة التحكم الأجنبى سواء بالسيطرة على التجارة عن طريق عملهم فيها أو على الجمارك ، وبالإضافة إلى ذلك فقد خضعت مصر لعمليات تهريب كبيرة أضرت بالتجارة ضرراً بليغاً ، وكان القائمون عليها الأجانب ، فلا يمكن إقامة مراقبة أو خفر فعال على مراكز تجارية تحت علم أجنبى ، ولا يمكن الصعود إلى السفن المشتبه فيها والراسية فى الميناء لأجل تفتيشها ، فأصبحت « واجهة مصر البحرية ميداناً تجرى فيه جماعة المهربين السلب والنهب بكل وقاحة »^(٢) .

وتزعم عمليات التهريب اليونانيون الذين عاثوا فى مصر فساداً ، وعندما يضيق عليهم الحراس الخناق ، يجردون خناجرهم ويطلقون عليهم الرصاص ، وأثناء عمليات التهريب ، كان المواطنون أيضاً يتعرضون إلى الإصابات وليس الحراس فقط « فالخوافة أنطونيو ينى أشاء مروره بطريق المطرية وهو محملاً أطلق الرصاص وأصاب خمسة أنفار من الأهالى »^(٣) . وأمام تحقيق اليونانيين لأهدافهم سلكوا مسلك القتل لمعارضيتهم وترتب على ذلك اضطرابات كانت تذهب بضحايا كثيرة من المصريين ، وسرى أمر التهريب على السلع الداخلية ، فحينما حظرت الحكومة من التعامل بالملاح الذى كان حكرًا عليها كان البقالون اليونانيون يقومون بتهريبه على أوسع نطاق .

(١) الوطن ، عدد ٤٨ فى ١٢ أكتوبر ١٨٧٨ .

(٢) دوفرين ، المصدر المذكور ، ص ٤٦ .

(٣) التجارة ، عدد ٥ فى ٢٠ مايو ١٨٧٨ .

تم ذلك في ظل نظام الامتيازات الأجنبية ، فبالرغم من أن الأجانب كانت لهم الأعمال التجارية والمالية الواسعة ، فإنهم بالإضافة لأعمالهم التي أضرت بالتجارة المصرية قد أعفوا من الضرائب ، بينما ألقى عبؤها على التجار المصريين الذين كانوا يجدون فوق ذلك منافسة الأوربيين لهم ، فترى الحكومة على سبيل المثال ترفع عن الأجانب الرسوم والعوائد الخاصة بسفنهم ، بينما لا ترفع عن الأهالي ، ومن هنا باعوا بضاعتهم أقل سعراً من الوطنيين ، فراجت تجارتهم بالتالي وزادت ثروتهم ، أما المصريون « فاضمحلت أحوالهم واختلفت أشغالهم وضاق بهم الضيق والعسر والظنك والضرفالترزم كثير منهم على قفل دكاكينهم »^(١) ، وبذلك خلقت روح الكراهية بين الأجانب المستغلين وأصحاب البلاد الأصليين ، فإن عدم المساواة وجدت عند المصري ، فهو يصادفها في كل لحظة إذ يرى الوافدين يتقاطرون إلى بلاده لينتفعوا من منافع تربتها وهوائها ولا يستطيع أن يزاحمهم في الميدان ، وبذلك كانوا يعودون إلى بلادهم وهم أصحاب ثروة عظيمة ، بعد أن كانوا لا يجدون لقمة عيش عندما حضروا لمصر ، وفوق ذلك فقد مارسوا الأعباء التجارية ، وكان منهم من يسىء إلى التجار المصريين الذين تعرضوا لشغبهم ، فكثيراً ما فقدوا ما في خزائنتهم عن طريق سرقات الأجانب لها ، وفي بعض الأحيان يحدث اتفاق بين التجار الأجانب وهؤلاء اللصوص ضد التجار المصريين . فتذكر صحيفة الوطن « حضر صباحاً الحاج محمد سليمان الدخاخي من أعيان تجار المدينة وفتح دكانه الكائنة بشارع الميدان ، فوجد ما بها من البضائع على غير ما تعهده قبل أيام ، فتأمل في خزانة النقود فإذا بها فارغة »^(٢) ، وقد اتضح أن السارق أجنبي ودخل بمعاونة جاره التاجر الأجنبي .

أما عن الصناع والحرفيين ، فقد تعرضوا لمزاحمة الأجانب ، إذ عمل الإيطاليون في المهن الفنية والحرف كبنائين ونجارين ، ومنهم من كان « سائق عربات » وكثيراً ما ارتكبوا الحوادث ووقع تحت العربات التي يقودها أجساد الأهالي ويمضون بدون عقاب^(٣) ، وبينما فرضت الضرائب على المصريين ، فتحمل عبأها

(١) الوطن ، عدد ٦٢ في ١٨ يناير ١٨٧٩ .

(٢) المصدر المذكور ، عدد ٧ في ٢٩ ديسمبر ١٨٧٧ .

(٣) التجارة ، عدد ١٨ في ٨ يونيو ١٨٧٨ .

السقا وماسح الأحذية والعريجي ، تمتع الأجانب بالإعفاء الضريبي ، بالإضافة إلى تحمل هؤلاء الحرفيين لظلم الأجانب والإساءة على أيديهم « حدثت مجادلة شديدة بين أحد التليانيين والعريجية ، فالأول ضرب الثاني بموس جملة ضربات ، فكانت جروحات العريجي خطيرة جداً »^(١) . وكان العاملون من المصريين لدى الأجانب يتعرضون للامتهان والذل ، فنرى أحد الخواجات يصلب شيئاً يعمل في مكبسه ، وذلك بعد أن جرده من الملابس وتركه على هذه الحالة من الغروب إلى صحوه النهار بلا ستر ولا غطاء والبرد يلعب به والأمطار تحلله بملابسها الثلجية ، فضج الشيالون إلى شيخهم في استنقاذ أخيه لكن الخواجة أقسم لا ينزله إلا بعد ثمانية أيام^(٢) ، وتصف صحيفة الوطن حالة الحرفي وما وصل إليه من يؤس وشقاء في صورة « عريجي الحجر » الذي « يدأب نهاره عملاً يقطع الصخر ويحملة فيفلى نافوخه كالمرجل ليبنى القصور ، وأجرته ثلاثة قروش ونصف ، وأسبوعه خمسة أيام لتعطيل يوم الجمعة ويوم آخر في مقابلة لبعثه عن عمل فيرجع يومه إلى قرشين ونصف ، فلو أكل النخال واثتمد الملح وشرب البحر وستر سوءته بالخيش وسكن الفقر ، ما أقامت تلك الأجرة أوده وهو ذو عيال عاجزين ، هذا وإن لم يسجن على الفردة والتذكرة الشخصية يوماً أو يومين في الأسبوع »^(٣) .

وفقاً لتلك الأوضاع ، امتلأت الشوارع بالشحاذين ، وداقت الأرزاق وكثرت المظالم على الحرفيين وأصبح الغذاء الحيواني هو غذاؤهم والكساء المتبطن بالأقدار هو ملابسهم ، بل وفي بعض الأحيان كان عليهم لزاماً أن يقبضوا عملهم « سندات » أعطاهم لهم الأهالي نظير خدماتهم كطائفة الساقين^(٤) .

وعلى هذا كانت حالة التجار والحرفيين ، فقد وصلوا إلى درجة من الضنك والإذلال ، وانعكس ذلك على المجتمع بعد الكساد الذي رزح تحته التجار المصريون والإعسار الذي مر بالحرفيين ، فالتجار أفلس معظمهم وأعلنت تفاليسيهم بالصحف بعد أن فشلوا في التصدي لتلك التيارات الجارفة التي أطاحت بهم ، فأصبحوا

(١) الكوكب المصري ، عدد ٢٠ في ٢٦ سبتمبر ١٨٧٩ .

(٢) المحروسة ، عدد ٨ في ١٩ يناير ١٨٨٠ .

(٣) الوطن ، عدد ٦٤ في أول فبراير ١٨٧٩ .

(٤) الوقت ، عدد ٩١٣ في ١ أغسطس ١٨٨٠ .

مثقلين بالديون الفاحشة التي ضاعف منها خضوعها للربا الذي فرضه الأجانب عليهم ، والحرفيون حطموا وأغلقت الأبواب أمام أرزاقهم وياتوا في أسوأ حال ، وأصبحوا على أهبة الاستعداد للتمرد بكل الطرق على تلك الأوضاع .

وكان للصحافة دورها في إذكاء هذه الروح ، فساندت التجار وبينت لهم أدوات الظلم الواقع عليهم ، فشنت الحرب على التجارة الأجنبية والقائمين عليها وامتيازاتهم ، كما راح مثقفو مصر يسجلون تلك المقالات عن الاهتمام بالصناعة ، وكان محمد عبده على رأسهم منذ أن كتب في صحيفة مصر ، فكثرت مقالاته عن الحدادة والتجارة والارتفاع بالصناعة الوطنية ، وتمضى الصحافة لتعملي الوصف الدقيق لصالة « الحمار والجمال والبويجى والبواب والإسكافى والزبال والعرجى والعقال ، إنها لا تكسب صاحبها ما يسد به الرمق ، أما الحدادة والتجارة والنحت والبنابة والخياطة والصبغ والنقش فكاسبها حقيرة ، ولا يخلو واحد من أربابها عن دين ثقيل لا يمكنه سداده (١) ، وعرضت تقدم أوروبا واستيلاءها على القطن المصرى واستغلالها له ، وأن مستلزمات الحياة جميعها وارد الخارج مع إمكانية صنعها في مصر وصلاحية صناع مصر لذلك ، وطالبت الصحف الحكومة بتخفيف الضرائب حيث إنها العائق في رواج التجارة وإحياء الصناعة .

وقد كانت لتلك الكتابات صداها وأثرها العميق في نفوس المصريين ، ففي الخمس السنوات الأخيرة من حكم إسماعيل أصبح من الصعب أن يكرن هناك حمار في القاهرة أو مدن المديرية المختلفة لم يسمع عن يعقوب بن صنوع ويقرأ له وحتى الذى لم يكن يعرف القراءة من الحرفيين فإنه ينصت إلى من يقرأون ، فهو قريب منهم ومن مشاكلهم يصورها ويدعوهم للثورة على الأوضاع فيقول عقب حركة الضباط في فبراير ١٨٧٩ « يا رب العالمين إحفظنا وإخواننا وبلادنا من شر شيخ الحارة اللعين ومن شر وكلاء المفسدين وأنصر اللهم إخواننا الجهادية وأولادنا تلامذة الحرية والصناعية والورشجية وكل من كان محب للحرية » (٢) ، ويمضى ليبين لهم الظلم الواقع عليهم وضربات القواصة ، وأنه من الضروري أن يجدوا حلاً لذلك لرفع الظلم عنهم .

(١) التركيب المصرى ، عدد ٢٠ في ١٢ يونيو ١٨٧٩

وبناء على ذلك أصبح الوعي قوياً والرأى العام واضحاً وصريحاً لتأتى الثورة العربية وتضم بين جناحيها هذه القوى التى طحنت وسحقت لتطالب بحقوقها وتشارك بكل طاقاتها مع الثورة .

وأخيراً ، هل حاول التجار الرأسماليون المصريون علاج ذلك الموقف والتخفيف من هذه الظروف الصعبة ؟

كانت الرأسمالية فى أيديهم تتحول إلى امتلاك الأراضى خاصة بعد أن استغلوها فى المحصول النقدى - القطن - فوارا شغلهم تجاه ذلك ، وبالرغم من صيحات الصحافة ومحاولات إثارة الحمية لإنقاذ مصر بانسدادها فى إنشاء المصانع وإحضار الآلات وتشغيل المصانع ، فإن النتيجة لم تكن مشجعة ، وتلهمت فكرة إنشاء بنك وطنى لتمويل المشروعات ، لكن المخاطرة فى مجال السرق صعبة للغاية وعليه قلت المشاريع التجارية ، فقد ساد الاعتقاد أن هذه المشاريع ترتبط بالربا وخصوصاً إذا كان المكسب هو رائدها ، لكن هذا لم يمنع أن هناك بعضاً من هؤلاء قد امتلكوا الأراضى ومارسوا التجارة ، مثل حسن موسى العقاد كان يملك ١٢٤٩ فدناً ، فى الوقت الذى كان يستثمر فيه الأموال فى الأسواق سواء فى تجارة الجملة أو التجزئة(*) . حقيقة لقد أثرت الأوضاع القائمة فى نفسياتهم ، وأصبح من الصعب أن يسكتوا وهم يرون الشوارع التى كانت مكتظة بدكاكين أرباب الصناعات والحرف من غزاليين وخياطيين وصانعى أحذية وصناعة تختفى وتتوهم على أطلالها دكاكين مملوءة بالبضائع الأجنبية، لكنهم لم يبذلوا المال من أجل الإصلاح .

ونشط بعض التجار داخل مجلس شورى النواب ، وعن طريقه أمكنهم عرض الموقف التى تعرضت له تلك الفئات ، فترى عبد السلام المويلحى ومحمود العطار يطالبان بإبطال الويركو عن المدن التى بها عوائد دخولية ، وأن تنظم مسألة التذكرة الشخصية ، وأن يشترك الأجانب فى دفع الضرائب . كما كان من بين هؤلاء التجار من كان على اتصالات وثيقة بالمتقنين ، ومنهم من تزعم لواء المعارضة كالعقاد الذى جهر بفساد الحكومة فى مسألة الضرائب ، وندد بذلك ورأى ضرورة مساواة

(*) على بركات ، المرجع المذكور ، ص ٢١٩ ، محمود متولى ، الأصول التاريخية للرأسمالية

المصريين بالأجانب في هذه المسألة ، ولمعارضته نفاه رياض إلى السودان الذي امتدت سلطته على المعارضين لسياسته ، فنراه يضطهد أمين الشمسى ويعزله من منصبه ، حيث كان مناوئاً لنظامه ، وسيكون لذلك أكبر الأثر في اشتراكهما بعد ذلك في الثورة(*) .

وهكذا وصلت الحالة إلى ذروتها من الضياع ، وكان لابد من قارعة لتنظيم الصفوف وتوحيدها لتقف أمام الأوتقراطية الحاكمة والوصاية الدولية المفروضة وتطالب بحقها في الحياة .



(*) محافظ الداخلية ، محفظة ٥٤ ، ٩ سبتمبر ١٨٧٩ .

الفصل الثالث

الثقافة

١... (أ) الجناح المدني :

إن الثقافة ليست غريزية ولا فطرية ، ولكنها تتكون بتفاعل عدة عوامل ، والطبقة المثقفة هي التي استحوذت على تلك العوامل الخاصة بالبناء العقلي للأفكار والمعايير والقيم سواء المادية أو الروحية ، والتي انعكست على مظاهر سلوكها من تلك السمات الثقافية المتكاملة ، وقد اكتسب المثقفون ثقافتهم من خلال البعثات العلمية للخارج ، وتقدم حركة التعليم الداخلى والترجمة ، ثم عن طريق الإحتكاك مع الخبرات الأجنبية المستوردة . والمثقفون طبقة جديدة على المجتمع المصرى ، فلم يكن لهذه الطبقة جذور تاريخية أو تراث قديم فقد تشكلت منذ مطلع القرن التاسع عشر .

جاء بونابرت إلى مصر ، ذلك الفرنسى رمز الثورة البورجوازية والمتشبع بمبادئ الثورة الفرنسية ليستولى عليها ، وأراد أن يتقرب للمصريين بتلك المبادئ ، فكان ذلك سلاحاً ذا حدين ما لبث أن قضى عليه وعلى أطماعه .

وعندما تسلم محمد على مقاليد الأمور فى مصر ، وجد البذور الصالحة التى مكنته من خلق طبقة مثقفة وذلك بنشاطه فى مجال التعليم ، فقد أرسل البعثات إلى أوروبا وخاصة فرنسا ، ومنها أنهل المبتعثون من الثقافة الأوروبية وعرفوا حرية الفكر واقتبسوا من التقدم الأوربى ، وتشربت نفوسهم بالآراء العصرية الجديدة ، ثم عادوا متشبعين بالفكر الليبرالى ليصنعوا نهضة فكرية ، ولينشروا تعاليم أوروبا وأنماطها ومناهجها ونظمها ، وظهر اتجاه جديد يرتبط بانفتاح مصر على الثقافة الغربية ، بحيث لا تتعارض مع الشريعة الإسلامية ، فقد رأى أن الإسلام يؤيد الاتجاهات السياسية الحديثة .

وكان أعظم نتاج قدمته لنا تلك البعثات هو رفاعة الطهطاوى . ذلك المفكر الليبرالى ، الذى شاهد الثورة الفرنسية لعام ١٨٣٠ وتأثر بمبادئ الفكر الفرنسى بعد

استيعابه لكتابات فولتير ، وكوندياك ، وروسو ، ومونتسكيو ، وانبهر بآثار حركة الاستتارة التي قدر لها أن ينقل تراثها إلى الفكر المصري الحديث ، ولم يكن الطهطاوي إلا مدرسة وتياراً جرف الأفكار القديمة ليضع مكانها الحديثة ، وكان لتلاميذه دور في نشر دعوته ، كما أن لمؤلفاته ثقلها ، تلك التي التمس فيها لمصر أسلوباً من أساليب الحكم الفرنسي ونادى بالدستور ، ذلك القانون المكتوب الذي يوضح حق الحاكم والمحكوم ومجلسيه ، وشرح الليبرالية والراديكالية والعدالة السياسية ، وبين أن حقوق الإنسان ليست مجرد أشكال سياسية فارغة ، بل نظم لها مضمون اجتماعي واقتصادي المعالم ، وتناول أنواع الحكم الملكي والجمهوري ومعاني الوطن والوطنية ، ودعا إلى حرية الفكر والرأي ، كما ساهم في وضع أسس القانون المصري على أساس القانون الفرنسي ، ولعب دوراً بارزاً في الصحافة المصرية ، ووضع بصماته القوية على الحياة الفكرية ، وكان له مجهوده في عرض قضايا المجتمع وتركيزه أيضاً على تعليم المرأة وثقيفها ودورها ومميزاتها .

كذلك كان من طلائع المفكرين الذي أثروا في الفكر المصري حسين المرصفي ، فقد طرح على بساط البحث أفاضل الوطن والحرية والأمة والعدالة والظلم والسياسة والحكومة والتربية . وقد ساعد على ذلك النظام التعليمي الذي أوجده محمد على حيث أسس مدارس الطب والمهندسخانة والألسن ، كما اهتم بإنشاء المدارس والكتاتيب فاستتبع ذلك نهضة علمية .

و تحدد النشاط الثقافي في فترة عباس حتى أنه قام بنفي طائفة من كبار العلماء كالطهطاوي ، لكنه لم يقطع نشاط التعليم الخارجي ، فأرسل البعثات بالرغم من أنه ألغى كثيراً من المدارس .

ويأتي سعيد ليطبق سياسته المتقلبة على التعليم أيضاً بين فتح وغلق المدارس وتحويلها ، لكن مما يذكر له أنه أعاد الطهطاوي من منفاه وولاه مقاليد المدارس ، وحرّم المصريين من البعثات حيث جعلها وقفاً على غيرهم بعد أن كان محمد على قد منح هذا الحق لأبناء الفلاحين للاستزادة بعلوم أوروبا والعودة بأعلى الدرجات العلمية .

وباستحواذ إسماعيل على الحكم ونزعتة لفتح مصر على مصراعيها للمؤثرات الغربية ورغبته في أن تكون القاهرة باريس الثانية ، انتعشت الثقافة وبالتالي الطبقة المثقفة وتقدم التعليم وما صاحبه من آثار ظهرت في نهايات حكمه ، وازدادت البعثات معه في وقت كانت أوروبا فيه قد فاضت بالحيوية ، كما أن اتجاه الأفراد

ورغبتهم لتعليم أبنائهم فى أوروبا زاد إلى درجة أن عدد الطلبة الذين كانوا يتلقون العلم هناك على نفقتهم الخاصة أخذ يتزايد على عدد طلبة البعثات الحكومية ، واعتنى بالمدارس فأعيد فتحها وأرجع ديوان المدارس ، فتقدم على يد مبارك الذى كانت له اهتمامات زائدة فى الثقافة ، فإليه يرجع الفضل فى إنشاء دار الكتب على نسق المكتبة الأهلية بباريس ، وأصبحت المدارس على النمط الأوروبى ، وارتفعت من ١٨٥ مدرسة عام ١٨٦٢ إلى ٤٨١٧ فى عام ١٨٧٥ ، وبمعاونة الخبراء الأوربيين وضعت وتأسست دار العلوم عام ١٨٧٢ فكانت أول مدرسة لإعداد المعلم فى مصر ، وعمل خريجوها فى المدارس وكتبوا فى الصحف وخطبوا على المنابر ، وأصبح التنوع فى معاهد التعليم تنوعاً يحول دون أن تصب ثقافة الأمة كلها فى قالب واحد .

وانصب الاهتمام أيضاً على مدارس الإرساليات ، وازدهر التعليم الأهلى على أيدى الجمعيات والأفراد ، فتأسست المدارس الأهلية على نظام مدارس الحكومة ، وافتتحت المدارس الليلية ، وكان المثقفون أمثال محمد عبده يلقون فيها الدروس تبرعاً .

وأصبح لوعى الشعب أثره الكبير فى الإقبال على تعليم أولادهم ، فارتفع مؤشر التعليم فى المدارس الابتدائية من ٨٢,٢٦٠ عام ١٨٧٢ إلى ١٣٧,٥٤٥ عام ١٨٧٨ وتعليقاً على ذلك يقول القاضى الهولندى المعاصر « إنه من الخطأ اعتبار المصريين أميين ، فإنه بحسب ما قدم لهم من المدارس بحسب ما ارتفعت نسبة المثقفين » (*) . وكان معظم المصريين أصحاب رغبة أكيدة فى الاستحواذ على الثقافة ، وقد أثرت نداءات الطهطاوى بالنسبة لرقى المرأة ، فأنشئت أول مدرسة للبنات عام ١٨٧٣ ، وأخرى عام ١٨٧٨ وكان التعليم فيهما مجاًناً ، وبذلك حصلت المرأة على بعض حقوقها ، وأقبل الناس على تعليم بناتهم وخاصة الطبقة العليا والطبقة الوسطى ، وظهرت إلى حيز الوجود المساواة بين الرجل والمرأة فى مسألة التعليم .

ودعت الصحافة إلى حركة التعليم وحث الشعب عليها ، وطالبت الحكومة والأهالى سويًا بالقضاء على الأمية ، وذلك بالإكثار من إنشاء المدارس الابتدائية على الأسلوب الأوروبى ، وإن كان الوضع المالى قد أثر على سياسة التعليم ، إلا أنه استمر بفضل مجهود المثقفين .

وأدى محمد عبده دوراً فى مسألة التعليم من خلال صحيفة الوقائع المصرية مع نخبة مثقفة ، وأبرز أهمية التعليم وضرورة أن يكون التدريس بلسان البلد لا على

يد الأجنبي الذي لا يفهم طبيعة المصريين ، كما أن حركة الترجمة ودور مدرسة الألسن فيها قد اكتسبت أهمية كبرى ، فنقلت المادة المترجمة إلى قراء المصريين وأصبح لديهم معلومات كافية عن المجتمع الغربى وأفكاره ، وترجم محمد عثمان جلال روائع الأدب الفرنسى ، وساهم أيضاً يعقوب بن صنوع فى ذلك ، فانتشر فى السوق المصرية مجازات لافونتان ومسرحيات راسين وموليير وكورنى وأصبحت فى أيدي القراء ، وأثرت حركة الهجرة الشامية فى النهوض بما ترجم من مؤلفات أخرى فرنسية قام بها أديب إسحق وسليم النقاش .

ومما لا شك فيه أنه كان لتلك النهضة العلمية فضل لا ينكر على مصر ، فقد ساعدت على الصحوة ، وشكل المثقفون طبقة مثقفة من المدرسين والموظفين فى الحكومة ، ورجال الفكر من الصحفيين والكتاب والأدباء ، وإلى هؤلاء يرجع الفضل فى نقد المجتمع وازدياد السخط وتوجيه الأنظار للتطلع إلى الحريات المفقودة .

مثقفو الأزهر والتيار الإسلامى ودوره السياسى

لم يكن الأزهر بعيداً عن العلوم الحديثة التى نشأت من عملية الاحتكاك الأوروبى ، والتى أنتجت تلك الحركة الثقافية ، فقد كان من بين طلاب البعثات عدد من الأزهريين ، لكنه كان يحمل أيضاً بين طياته العزلة عن الإتجاهات الفكرية الحديثة متبعاً أساليبه القديمة ، وإليه يرجع الفضل فى حفظ التراث الإسلامى وصيانة الآداب العربية ، كما كان له التأثير الدينى فى محيط التثقيف الشعبى ، فعلى مر العصور لم يكن المسجد مكاناً للعبادة فحسب ، وإنما أيضاً حلقة للتدريس وتفقيه المسلمين بشئون الدين والدنيا . والتاريخ لا ينسى أبداً دور الأزهر فى حركة الكفاح الوطنى .

ويعتبر الأزهر الجامعة الرئيسية وهو أقدم جامعة إسلامية فى الشرق جمع بين جدرانها أبناء الفلاحين الذين نزحوا من كتاتيب القرى ليلتحقوا به ، ومنه تخرج معظم وطنى مصر ومفكرها وقادتها ، فقد كانت له القوة والأثر الكبير فى المجتمع ، حتى أن الحكام كانوا يعملون له ألف حساب لمعرفة بهمى خطورته ، إذ أنه بطلابه وشيوخه يمثل السواد الأعظم من الشعب ، حيث ساد الاعتقاد أن الدراسة فى الأزهر هى أحسن الدراسات وأنفعها ، ف فيها تطلق الحرية فى المذاهب والكتب والأساتذة ، وتلك أمثل الطريق لتكوين الإنسان وتنمية عقله وتوسيع ثقافته ، وقد اتضح أنها هى طريقة أكبر جامعات أوربا ، وأنها الوسيلة لتكوين الحقيقى والتربية الاستقلالية .

وتعد فترة حكم إسماعيل فترة بدأ الأزهر يتغير فيها شيئاً فشيئاً ليصبح أكثر مرونة ، وذلك عقب تكوين الرأي العام المثقف ، فقد نظمت فيه قواعد التدريس للحصول على شهادة العالمية ، وتحديد درجات العلماء والعلوم التي يدرسها الطلبة ، وبذلك رفعت المكانة الاجتماعية للأساتذة والطلاب ، وأيضاً تحسنت الأحوال بالرواتب الثابتة للمدرسين ، وإدخال العلوم العصرية ، وقد كان تأثير الأفغانى واضحاً عليه فهو الذى غير من كل شيء بتلك السنوات البسيطة التى قضاهما للتعليم فيه ، وبث تعاليمه عن الحرية الفكرية فى حلقاته ، وشرح علوم الكلام والفقه والفلسفة والمنطق بطريقة عصرية مبتكرة ، والتف حوله العديد ، وكانت هذه الحلقات حدثاً فكرياً واجتماعياً وعاملاً فى تغذية اليقظة الجديدة التى سرت إلى الحركة الفكرية الإسلامية .

ولم يكن الأمر قاصراً على ذلك بل تطرق إلى بيان مساوئ المجتمع ، وعن طريق تلاميذه كتبت المنشورات وعلقت فى سواد الليل على أعمدة الأزهر ، وبها موضع الخل ووسائل العلاج ، وبذلك نفخ الأفغانى فى الأزهر روح النهضة وغرس مبادئ التقدم الفكرى . ومن هنا رأى بعض شيوخ الأزهر فيه خطراً عليهم ، إذ أصبح بتسليم الجميع القائد الروحى والفكرى للأزهر ، خاصة بعد أن انتشرت مبادئه الثورية .

وغدا الأزهر إحدى المؤسسات الثقافية - رغم حملات الرافضين للإصلاح - التى خلقت طبقة مثقفة أسهمت بنصيب وافر فى إعداد الدارسين خاصة ، والشعب عامة للاشتراك فى الثورة هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان مثقفو الأزهر لهم الدور الفعال فى الثورة ، وبرز منهم الشيخ محمد عبده الذى كان يحاضر طلبته فى علم السياسة ، وبهذا شعر الأزهر بنهضة جديدة تدب فيه ، وبذلك تمكنت مدرسة الإصلاح الجديدة من أن تنتزع القيادة الفكرية من رجال الدين - المتزمتين - وأن تتولى هى الأمر وساهمت بالنصيب الأكبر فى قضايا التغيير الاجتماعى ، وخاصة أن لهؤلاء العلماء مركزاً لدى الشعب ، إذ كان يرى فيهم نوابه والمتحدثين بلسانه والزائدين عن حقوقه ، وأن لهم الكلمة والسلطة فى أن يعزلوا الحاكم الذى يسئ إلى الشعب .

وتعرض علماء الأزهر للظروف الصعبة التى مر بها شعب مصر أثناء حكم إسماعيل ، فقد أجبروا على دفع الضرائب وسبوا وأهينوا ومن امتنع كان جزاؤه الفلقة والكرباج ، لدرجة أن أحدهم لم يتمكن من العودة لمنزله على قدميه بعد أن انهال عليه القواسون بالضرب ، حتى أن العلماء تضرروا من ذلك ، فتكون وفد منهم

وقصد سراى عابدين وشكا من معاملة العلماء بالكرياح كسائر الفلاحين^(١)، لكن إسماعيل كان يؤيد ذلك ما دامت هناك أموال .

وشارك الأزهريون بقية القوى في عدم الرضا عن الأوضاع الموجودة ، وعطفوا على الثائرين وأيدوهم حتى ولو اختلفت العقيدة ، فترى الشيخ البكرى يحنو على يعقوب بن صنوع لدرجة أن قبل أن يغادر مصر للمنفى ذهب إليه ليودعه فقال له : « كل إنسان طيرة مربوط على عنقه ، عليك يا بنى أن تسير في الطريق الذى رسم لك ولا تخف شيئاً إن الله رب العدالة والخير الذى دافعت به عن المؤمنين معرضاً نفسك للقتل سوف يحمى خطواتك أينما ذهبت »^(٢) . وعندما قامت حركة الضباط الأولى في فبراير ١٨٧٩ ، كان يؤيدها الأزهر ، فقد عثر على إعلانات على جدرانها « مهيجة للأفكار » فلما بلغ أمرها لشيخ الجامع - وكان محمد العباس وهو من الرفضين - أمر بتمزيقها وأوصى الخدمة بأنهم إذا عثروا على فاعليها أن يقبضوا عليهم ويسجنوهم^(٣) ، وكان للأزهريين دور في مسألة اللائحة الوطنية الأولى ، ومعارضة مشروع ولسون ، حيث أساءهم التدخل الأوربي في شئون دولة إسلامية والذى بلغ مداه .

وكثر اجتماع العلماء وكبار المشايخ بالجامع الأزهر بعد إدراكهم أن مصر في طريق الدمار بسبب ما قدمه الأجانب إليها ، وكان البكرى زعيماً لتلك الاجتماعات ، وتناقش مع إسماعيل بشأن ذلك أكثر من مرة ، بل وذهب إلى فيفيان القنصل الإنجليزي ليرفض ويعترض على التدخل الأجنبي ومن أقواله له « إن أمتنا قد علمت حق العلم ماذا يجب عليها أن تسلكه في وطنها ، فأقامت به حكومة شورية ، وأخذت على نفسها حماية الشورى والقيام بواجباتها والمحافظة على حقوقها ، وأنها تبذل في ذلك دمائها ونفيس أموالها ، فكيف بها بعد ذلك أن تجيب طلب الدولتين وترضى بأن يتحكم فيها أجنبي ، وإننا باستقراء تواريخ الأمم لا نجد أمة عرفت حقوقها وسنت لنفسها قانوناً شورياً ، ثم كلفتها حكومة أخرى بأن تناقض شريعتها وتعديل عن طريقها في ذلك ، إننا لا نستطيع تحويل رأى أمة عظيمة كهذه اتفقت كلمتها على رفع نير العبودية عن أعناقها وأعلنت المحافظة على تمام استقلالها الممنوح لها ، فقال فيفيان : « أنعمد هذا آخر الكلام ، فأجاب السيد البكرى نعم

(١) قليني فهمي ، المصدر المذكور ، ص ٢٧ . (٢) إبراهيم عبده ، أبو نظارة ، ص ٦٠ .

(٣) مصر ، عدد ٣٥ في ٢٨ فبراير ١٨٧٩ .

وخابر دولتك بذلك»^(١). وقد تم هذا فى إطار الوحدة والالتحام بين بقية قوى مصر الاجتماعية ، وكانت أولى خطوات التعاون التى أثرت فى قيام الثورة .

وانتشر عدم الرضا والسخط على تصرفات إسماعيل بين العلماء ، ولذا فقبل عزله بواسطة أوروبا ، كانت هناك حركة على قدم وساق داخل الأزهرين تطالب بعزله ، وطعنوا عليه بأنه سلك سلوكاً مخالفاً للشريعة من حيث استبداده بالناس ، واعتدائه على القانون ، وظلمه الفادح ، وعدم رضا الشعب عنه ، ومن ثم يحق لهم سحب بيعتهم له ، ويذكر بلنت أنهم كثيراً ما تباحثوا سرّاً فى ربيع ١٨٧٩ عن كيفية عزله ، والوسائل التى تمكن من ذلك أو حتى من التخلص منه بالاغتيال^(٢) ، وكانوا راضين عن توفيق ولى العهد كبقية القوى التى رأت فيه أنه ممكن للإصلاح أن يتم على يديه ، فقد كان هو نفسه - قبل اعتلائه العرش - خاضعاً تحت تأثير المدرسة الدستورية الأزهرية ، لكن كان الواقع شيئاً آخر ، فبعد أن وصل توفيق إلى ما يريده أنكر كل شيء ، ومضى رئيس نظاره يمارس أوتوقراطيته على المصريين جميعهم ، وبالرغم من ذلك فقد كانت المساجد يخرج منها يومياً الاحتجاجات والتهديدات ضد رياض وعلى مبارك ، ووجدت أوراق معلقة على منازلهم تنذرهما بأنه إن لم يستغفيا ويخرجا من هذه الأقطار المقدسة فستسفك دماؤهما ، وعندما صدر قانون التصفية ، اعترض عليه الأزهريون وشاركوا بإمضاءاتهم فى حركة الرفض التى حمل لواءها العقاد^(٣) .

الأفغانى والمثقفون

احتضنت مصر الأفغانى بناء على تطبيق قاعدة إسماعيل فى جعل مصر مركزاً للإشعاع الثقافى ، وكان من حظ مصر والأفغانى أن يلتقى كل منهما بالآخر ، فمصر تعانى الآلام التى تسبب لها فيها إسماعيل لذا كان هبوط الأفغانى على أرضها فى وقت هى فى أشد الحاجة إلى مصلح يأخذ بيدها سبباً فى إخلاصه لها وبعثها عن طريق تعاليمه التى لاقت بالفعل استجابة واعية من المصريين ، ويقول محمد عبده عن الأفغانى « إنه باعث النهضة الوطنية فى مصر وأن هجرته إليها وإقامته فيها

(١) مرآة الشرق ، عدد ٢٤ فى ١٧ مايو ١٨٧٩ .

(٢) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 125 .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ٩٧٠ فى ٢٧ نوفمبر ١٨٨٠ .

من ١٨٧١ إلى ١٨٧٩ كان بعثاً وطنياً وسياسياً لها وحداً فاصلاً بين ماضى مظلّم وحاضر مضى ومستقبل مبشر بالكرامة والحرية^(١).

تزعّم الأفغانى لواء الجامعة الإسلامية ، فقد نشأ وسط النزاع الإنجليزي الروسى ، فخبّر السياسة الدولية والأطماع الأوربية وهنا ألقى فى عقول الناس « أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وكان يرغب فى أن تتحد جميع الأقطار الإسلامية مع استقلال كل منها عن الآخر ، وسعى إلى هدف واحد هو التحرير السياسى ، وجهاده يرمى إلى إيقاظ الشرق ، وأن هذا لن يتم إلا عن طريق العلم والثقافة مع تنقية العقائد من الخرافات ومقاومة النفوذ الأجنبى . وبالإضافة لدوره مع الأزهر أقام الحلقات فى بيته بحارة اليهود ، فى تلك البيئة الشعبية التى ضمت التجار ، وأصبحت منتدى العلماء والأدباء ، وكانت أيضاً قهوة البوستان بالعتبة ملتقى آخر يضم « اللغوى والشاعر والمنطقى والطبيب والكيمائى والتاريخى والجغرافى والمهندس والطبيعى ، فيتسابقون إلى إلقاء أدق المسائل عليه^(٢) ، كما كانت له لقاءات للحوار فى بيوت العظماء حين يرد زياراتهم . وطريقته فى تلك الاجتماعات العامة التبسيط ، بينما له طرقه الخاصة فى الدروس العلمية والمحافل الماسونية والصحافة ، وامتد تأثيره على كل الطبقات المتعلمة ليس فى القاهرة فقط بل أيضاً فى المديرىات ، وكان يوغل فى صدور سامعيه فلسفته التى تعتمد على التعليم ، الذى يجعلهم أقوياء ، والمعرفة التى تقودهم إلى الحرية ، هذا فى وقت كانت فيه يد إسماعيل الأوتوقراطية مهيمنة على المصرى الذى كان يعمل وبدون مقابل من أجل سيده .

وبذر بذوره فنمت مع نمو الرأى العام المصرى ، فلم يترك باباً إلا طرقه ، أثار الأفكار فوجد رواده الشئ الجديد ، فهو شخصية قوية تجزم فى الحكم ولا تتردد تحكم فى صحة ما يصح وبطلان ما يبطل .

وكان يربط جزئيات الحياة العملية والعلمية برباط واحد يفتح النوافذ كلها بعضها على بعض حتى تتألف وحدة كاملة ، فخطه الأفغانى من البساطة بمكان ، فإنه يرى أن إصلاح الحكومة لا يتأتى إلا بإصلاح الشعب ، فالحكومة إذا لم يكن وراؤها رأى عام يوجهها لابد وأن يستبد حكامها ، ويؤثر عنه قوله بأن « القوة النيابية لأى أمة لا يكون لها قيمة إلا إذا نبعت من نفس الأمة ، وأن مجلس نيابى

(١) محمد عبده ، مذكرات جمعها وقدمها طاهر الطناحى تحت عنوان مذكرات الإمام محمد

عبده ، ص ١٥ .

(٢) السيد محمد رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، ج ١ ، ص ٤٤ .

بأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية محرقة فهو مجلس موهوم موقوف على إرادة من استحدثه»^(١). وكان يقصد من وراء ذلك مجلس شورى النواب الذى أوجده إسماعيل ، وحدد أن سلطة الحاكم واجب خضوعها للقانون ، ذلك القانون الذى يستند على إرادة الشعب ، فهو يؤمن بالحكم الدستورى ، وقد فرق بين السلطات بحيث لا تطفئ إحداها على الأخرى ، ونادى بمبادئ الثورة الفرنسية من حرية وإخاء ومساواة ، فكان واضح أساس الديمقراطية المدعومة بالإسلام .

ومال إلى المبادئ الاشتراكية التى كان الغرب يحتدم بها ، فأعجب بها أشد الإعجاب ، ومن هنا رأى أن السياسة ليست حكراً على فئة من الناس دون الفئات الأخرى ، وفضل النظام الجمهورى المبني على أساس الشورى التى لها الأهمية الخاصة فى حياة الشعوب ، فأنبت الأفكار الحرة فى النفوس ، وبقوته تمكن من إعداد تلك العقول لهذه الأفكار لتداوى كل ما يقاسيه المصريون ، وأكد أن السبيل الوحيد للإصلاح الاجتماعى والسياسى هو الثورات ، فكان يخاطب الأمة بثورية قوية ويدفعها لأن تسلك طريق الثورة « أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستتب به ما تسد به الرمق وتقوم بأود العيال ، فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك ؟ » ويمضى ليبين كيف استعبد المصريون « إنكم يا معشر المصريين قد نشأتم فى الاستبعاد وربيتم بحجر الاستبعاد وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين تسومكم حكوماتكم الحيف والجور »^(٢) ، وبذلك أصل الروح الوطنية المصرية ، وبهذه الجرأة والدهشة كان يثير ويتحدث ومن هنا طارت الشرارة الأولى من شرارات الثورة العربية ، بل كانت الثورة مشبعة بتلك النفحات التى نشرها الأفغانى ، « فقد كان طلبة العلم ينقلون ما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام الإجازة ، وكان الزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم ينشرونه فى الناس ، فاستيقظت مشاعر وانتبهت عقول وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد وخصوصاً القاهرة »^(٣) .

وكان من حواريه الباشوات والأعيان أمثال البارودى وأحمد خيرى ومصطفى وهبى وعبد السلام المويلحى وأخيه إبراهيم ولطيف سليم وسعيد نصر ، أما الشباب المثقف فكان على رأسهم محمد عبده وسعد زغلول وأخوه فتحى وإبراهيم اللقانى

(١) عبد اللطيف حمزة ، أدب المقالة الصحفية فى مصر ، ج ١ ، ص ٤٥ .

(٢) أحمد شفيق ، مذكراتى فى نصف قرن ، ج ١ ص ١٠٩ .

(٣) محمد عبده ، المصدر المذكور ، ص ٥٧ .

وعلى مظهر والزرقاني وأبو الوفا القونى وسليم النقاش وأديب إسحق وعبد الله النديم ويعقوب بن صنوع وعبد الكريم سلمان وحفنى ناصف وعبد الله فكرى وعلى أبو النصر ومحمود صفوت الساعاتى ، كما أخذ يقرب منه العامة حيث أيقن أنهم أكثر الفئات معاناة وأصبحت مدرسته تمثل المدرسة الدستورية صاحبة المبادئ الحرة.

وقد كانت للإسكندرية - صحفها وجمعياتها وحماسة أهلها - عند الأفغانى حظوة فكرياً ما تواجد فيها ، فيحضر إليه شبابها المثقف الذى كان على أيديهم وبمساعده بلورة رأى العام السكندرى ، عن طريق الخطابة التى لها الأهمية الكبرى فى تنوير العقول وتفتيح الأبصار لما هو سائد فى المجتمع ، وشكلوا لجنة للاهتمام بشئون مدينتهم ، وكان الحاضرون لتلك المحافل الخطابية المقتر مناهم يدفع ثمن دخوله ، ودائماً تكون الإيرادات لفقراء الإسكندرية ، وتناولت كلمات الأفغانى الموزعة على الحاضرين فى خطبة الاهتمام بالعلم والحرية والتذكرة بمجد المصريين الذى علموا اليونان الحكمة والفلسفة ، وعن سوء الحال وما وصل إليه من الإنحطاط والذل والهوان ، وسلطة الأجانب التى اقتسمت الديار والاستعباد والاستبداد وقيد الأمة بسلسلة رأى واحد لا تتحرك إلا بإرادته ، وأن الحكومة كسائر الأجسام الطبيعية والاجتماعية لابد لها من استمرار الغذاء الجديد ، وإلا أنها تزول كغيرها من الأجسام بما يطرأ عليها من التحلل ، ويشيد بأهمية الخطابة « فما الخطباء إلا من طبقات الأمة التى ألم الضعف بروحها الكلى ، فسرى إلى طبقاتها وأعضائها ، أنهم ينطقون عن الغيرة والحمية بما يبين لنا الحقوق وتعين الواجبات »^(١) .

وعندما خشى الأفغانى على دعوته ومريديه من يد إسماعيل والأجانب ، عمل على تأليف المحفل الماسونى بالإسكندرية ، فكان له ذلك مزيداً من الحرية والبره الثورى ، وأصبح ملتقى المثقفين السابق ذكرهم وانضم إليه الباشوات أمثال شريف وأباطة وبيطرس ، وضباط الجيش الذين لهم نشاطهم هم الآخرين وحتى علماء الأزهر ، وأعضاء مجلس شورى النواب ، وكان توفيق وقت ولاية عهده مشتركاً هو الآخر ، وقد ساعد هذا المحفل على تبادل الأفكار بين رجال كانوا على بينة ببواطن الأمور السياسية وأسرار الحكومة ، وأوجد بينهم رابطة من التضامن ، ويرجع البعض أن تلك اللقاءات هى التى أينعت وأزهرت الحزب الوطنى^(٢) .

(١) الإسكندرية ، عدد ٤٦ فى ٢٢ مايو ١٨٧٩ .

(٢) Sabry , M. 8 , La Genèse d. L'Esprit National, 1763 - 1882 , pp. 142, 143 .

وفى وصف إحدى هذه الحفلات الماسونية تقول صحيفة التجارة « انتظم على مائدتها نيف ومائة قائل بالحرية والإخاء والمساواة معظمهم من وجوه الوطن ونبهائه، وفيهم فئة كبيرة من ذوى المقامات والعلماء من المسلمين وغير المسلمين ، فقام فيهم الرئيس المحترم خطيباً (الأفغانى) يبين ماهية ذلك الاجتماع ومقاصد الماسونية ، وصفق الحاضرون ونادوا بأعلى الصوت فلتحى الحرية والمساواة والإخاء ثم توالى الخطب للسعى فيما يوجب سعادة النوع الإنسانى وينقذه من ريقه الذل والعبودية ، وتحالفت القلوب على الانتصار للحق والإنسانية ، وألا يخافوا فيها أحداً » (١) .

وأصبحت الحركة الماسونية مقرونة بالحركة الوطنية ، التى انتشرت بين المسلمين والمسيحيين واليهود ، وذلك بفضل الأفغانى الذى وحد عناصر الأمة ، فمحمد عبده مسلماً وأديب إسحق مسيحياً ويعقوب بن صنوع يهودياً التقوا من أجل هدف واحد .

أما عن رؤية الأفغانى لحتمية وجود حزب وطنى ، فقد رأى ضرورته لحماية الحكومة الثورية ، فالحياة الثيائية لا يضمن لها البقاء بدونه ، وكان يعمل فى جميع الاتجاهات مع مؤيديه ، فهناك الجمعية السرية « مصر الفتاة » بالإسكندرية التى أنشأها الشباب المثقف ، فأشرف عليها الأفغانى ، وكونت الجمعية بمساعدته حزباً أطلق عليه « حزب مصر الفتاة » وصف نفسه « أنه يروم المدافعة عن الوطن من محتال يداجى ومغتال يفاجئ ودخيل يستعلى ونزيل يستولى ، وأنه يبت آراء الحرية ويجمع كلمة الوطن ويؤيد شأن بنيه ويقوم بأمر ذويه » (٢) .

واتجه إلى الصحافة التى ربط بينها وبين حرية الشعوب وسأهم فى نشأتها ، واحتضن الصحفيين ، وسعى لهم عند الحكومة لتمنحهم تراخيص الصدور ، وحماهم من إرهاب أولى الأمر ، فتصدوا للدفاع عن رأى الحر والأفكار الناضجة ، وقلمه كان واضحاً فيها بإمضاء « مظهر بن وضاح » أو بدون إمضاء ، فكتب عن الحرية والاستبداد وتقدم الغرب واستتارة الأفكار ، والشجاعة والقوة والعلم والصناعة والوطن والوطنية ، وكان تأثيره مباشراً وعميقاً يننذ سريعا إلى العقول والقلوب .

واهتم بالمرأة المصرية « إننا لا يمكن لنا الخروج من خطة الخسف والجهل ومن محبس الذل والفاقة ومن ورطة الضعف والخممول مادامت النساء محرومات من الحقوق » (٣) ، وقد وصل به الأمر أنه راح يخطب أمامهن فى « قاعة زيزينيا بالإسكندرية » ليغرس فيهن تلك المبادئ .

(١) التجارة ، عدد ١٧ فى ٢١ يناير ١٨٧٩ . (٢) الوطن ، عدد ١٠٠ فى ١١ أكتوبر ١٨٧٩ .

(٣) مصر ، عدد ٤٧ فى ٢٤ مايو ١٨٧٩ .

أما تنفيذ الخطوات العملية والاشتراك في الإصلاح السياسي ، فقد عجل بنهاية حياة الأفغاني على أرض مصر . كان توفيق كما أوضحت منذ ولايته للعهد على علاقة به حتى أنه أشاء الاجتماع الذي أثيرت فيه مسألة خلع إسماعيل كان من رأى توفيق القضاء عليه ، لكن الأفغاني عارض وقال « تدمنا أوربا لو قتلنا إسماعيل إنما نخبره بواسطة الأمر والرأى العام بأن ينخلع على كرسى جلوسه »^(١) ، وكان توفيق يردد الوعود بالإصلاحات إذا تولى أمر الحكم ويأنه لن يحيد عن الحكم الدستوري ، واعتقد الأفغاني ورجاله بصدق ذلك ، ولجأوا إلى قنصل فرنسا لعله يساعدهم على تولى توفيق العرش .

هذا فى الوقت الذى كانت فيه الإتصالات تجرى بين الأفغاني وشريف بشأن سعى الأخير لإقناع الخديو بالتنازل ، وعزل إسماعيل وتولى توفيق حكم مصر ، وكان الأمل كبيراً فيه ، واعتبر المصريون أن عصرأ جديداً قد بدأ ، فطلب منه الأفغاني مجلس نواب ونظارة مسئولة ، هذا فى الوقت الذى كان شريف يعد إصلاحه الدستوري ، وهنا ظهر توفيق على حقيقته وانضم كلية إلى بريطانيا وفرنسا وتخلى عن كل ارتباط كان قد ارتبط به قبل تولية العرش ، كما كان لرجال حاشيته دور فى مساعدته ، وبالرغم من أن رياضاً هو الذى ساعد فى إحضار الأفغاني إلى مصر ، فإن نشاطه وصراحته حتى مع رياض ، غيرت الموقف ، ففى جلسة بينهما أشاء النظارة الأوربية أبان الأفغاني له سيادة الأجانب واستعبادهم للمصريين وسلطتهم ومرتباتهم واعترض على تصرفاتهم ، فكان كره رياض له ، كما كانت مصلحة توفيق تدعوه بأن يعمل ألف حساب لتكاثر تلاميذ وأتباع الأفغاني ، أضف إلى ذلك أن بريطانيا وفرنسا وجدتا فيه مصدر خطر كبير على مصالحهما وسياستهما . وقرر الجميع إسقاط الأفغاني بنفيه خارج مصر ، وألزمت الصحافة بإنزال ذلك الخبر ، وعطلت الصحف التى اعترضت ، وكان من حيثيات النفي « إنه من دواعى الأمن والأمان والراحة والاطمئنان وقطع دابر المفسدين » ، وفى ظرف ساعات قلائل كان قد رحل عن مصر^(٢) .

وجاء خروج الأفغاني من مصر متأخراً وبعد فوات الأوان ، بعد أن امتدت روح الثورة فى مصر كلها بفضلها ، وبالرغم من أنه أبعد ، فإن مبادئه وأفكاره وتعاليمه

(١) أبو نظارة زرقاء ، عدد ١٢ فى ١٨ ديسمبر ١٨٧٩ .

(٢) مصر ، عدد ٩ فى ٢٩ أغسطس ١٨٧٩ .

غذت الثورة ، فكثير من أقطابها هم من تلاميذه ومريديه ، ويعد من الوجهة الروحية والفكرية أبا الثورة العربية .

ومضت عقب خروجه حركة واسعة من التجسس على عناصره ومؤيديه ، واستمرت الحركة الوطنية فى طريقها رغم كل ذلك ، فانتشرت المنشورات ضد سياسة توفيق ومحيطيه ، واحتارت الحكومة فى واضعيها وموزعيها ، فأصدرت الداخلية الأوامر بالتشديد « لم يزل يرى بالبلدة طبع بعض رسائل تتعلق بمسائل بوليتيكية وبعض كتب مضادة لأفكار الحكومة »^(١) ، وفرضت العقوبات ، لكن كل هذا لم يوقف ما قد مضى فى المصريون .

المثقفون والصحافة

شهد عصر إسماعيل ميلاد الصحافة الأهلية ، فصدرت صحف وادى النيل ، نزهة الأفكار ، النحلة ، كوكب الشرق ، روضة الأخبار ، الأهرام ، صدى الأهرام ، حقيقة الأخبار ، مصر ، أبو نضارة زرقا ، الوطن ، الإسكندرية ، التجارة ، بستان الأخبار ، مرآة الشرق ، الكوكب المصرى علاوة على الصحافة الرسمية ، كما لمعت فى ميدان الصحافة أسماء المنشئين والمحريين مثل رفاعة الطهطاوى ، على مبارك ، عبد الله أبو السعود ، إبراهيم المويلحى ، محمد عثمان جلال ، عبد الله فكرى ، الشيخ المرصفى ، محمود الفلكى ، محمد أنسى ، ميخائيل عبد السيد ، بجانب الصحفيين السوريين .

ومما لا شك فيه أن إسماعيل كان يدرك أهمية الصحافة ومدى تأثيرها إدراكاً واعياً ، فقد بذل الأموال للصحف سواء فى الآستانة أو العواصم الأوربية لتعينه على تحقيق أهدافه ، فرأى أن يخدم تلك الأهداف داخلياً بتشجيع الصحافة ، هذا بالإضافة إلى أنها مظهر من مظاهر رقى الأمم . لكنه بخلقه للصحافة ، ما لبث الأمر أن تعرضت له وأصبحت ذات حدين أمكنه بأحدهما أن يحارب أعداءه من الأوربيين وغير الأوربيين ، أما الثانى فكان متسلماً على رقبته مصوباً إلى مقتله^(٢) .

ولا ينكر أحد مجهودات الأفغانى فى الصحافة التى ألبسها ثوب الحركة الوطنية فخلقت رأى العام ، كما كان للتقدم فى شئون المواصلات أثر فى وجود تلك الصحف بين الأيادى .

(١) الوقائع المصرية ، عدد ٤٨١ فى ٢٨ ديسمبر ١٨٧٩ .

(٢) عبد اللطيف حمزة ، العقدة الشركسية عند مدرسة محمد عبده ، ص ٢ .

أصبحت مصر ملجأ للمهاجرين الشوام الذين تلقوا دراساتهم على يد البعثات التبشيرية الأوربية والأمريكية ، والذين جاءوا إلى مصر ورحب بهم إسماعيل وسهل لهم سبل العيش ، وعمل منهم الكثير بالصحافة والتمثيل أمثال سليم وبشارة تقلا وأديب إسحق وسليم عنحورى وسليم حموى وسليم النقاش ، ولكن ليس معنى ذلك أن الصحافة المصرية ما كان لها أن تظهر وتستوى لولا وفود هؤلاء ، فمن قبلهم والصحافة موجودة في مصر ، وهى وحدها التى هيات لهم فرصة العمل والنجاح ، فالبيئة المصرية ، والطبيعة المصرية ، والتفكير المصرى سمح بوجود صحافة تقرأ لأن النهضة المصرية كانت أوسع مدى مما هى عليه فى بلاد الشرق ، كذلك فإن الحركة الوطنية قد أمدت هؤلاء بالعمول لإصدار الصحف لتعبر عما يجيش بصدور المصريين ، فأديب إسحق عندما أقبل على إصدار صحيفته « مصر » لم يكن يمانع ما يسمح به تنفيذ ذلك ، والمرجح أن الأفغانى قد حصل له على إعانة مالية ليصدر تلك الصحيفة ، وتبعها « التجارة » على نفس الطريقة ، وقد تمكنا من النجاح فى الحصول على السبق الصحفى .

وكان للحروب الروسية التركية الأثر الكبير على نمو الوعى المصرى من خلال الصحافة ، حتى للرجل المصرى العادى ، وظهرت الاتجاهات وتعددت فى الصحافة إزاء موقف الدولة العثمانية « وتبتهت الخواطر فى مصر بما مر من حوادث الأيام وما أظهرته الجرائد من أحوال الأمم من خلال الحرب العثمانية وبعد انقضائه »(*) ، فقد كانت أول مسألة خارجية اهتم بها المصريون ، وحدث بين الناس نوع من الجدل لم يكن معروفاً فى تلك السياسة الخارجية التى انصبت الصحافة على ذكرها ، لدرجة أن الأحداث الداخلية قد تركت جانباً ، وأيضاً راح التفكير فى مصير الدولة العثمانية وهذا الارتباط بين مصر وبينها والشغف على معرفة الوقائع ، وتبع ذلك أن أصبحت الصحافة تنقل أخبار سائر الأمم ، وكانت صحيفة مصر أول صحيفة تسجل شعار « مصر للمصريين » ، بينما كانت صحيفة مصر الفتاة أولى الصحف الوطنية التى تدعو للحرية .

ولمع اسم أديب إسحق فى صحيفته مصر التى لقيت نجاحاً كبيراً ، والذى عمد مع الأفغانى إلى نقلها للإسكندرية العاصمة التجارية والصحافية مع صحيفة التجارة التى اشترك فى تحريرها سليم النقاش ومحمد عبده وإبراهيم اللقانى ، وكللت بكتابات شخصية لعبت دورها فى المؤسسات المصرية هى شخصية عبد الله النديم .

(*) مصر ، عدد ٦ فبراير ١٨٨٠ .

و ساعدت عوامل عدة فى تكوين هذه الشخصية ، فقد نشأ النديم فقيراً وخالط جميع الأوساط ، و خلقت كثرة اتصالاته فكره الذى تميز به ، فهو لم يتخرج من الأزهر ولم يبعث إلى أوروبا ولم ينل مركزاً حكومياً ، لكنه دخل مدرسة الحياة التى شكلت ثوريته ، فهو ينتقل من بيوت الأثرياء إلى حوانيت التجار والمتاهى والموالد والأفراح سائحاً فى بلاد مصر كلها لامساً ما تعانيه الطبقات الفقيرة ، فكان دائرة معارف ، وعن طريق إتقانه للأدب كانت صلاته بمجالس الأدباء والعظماء ، فأعجبوا به وبمواهبه المتعددة ، وعرف كذلك بين عامة الناس معرفة لم يحظ بها قائد من قادة الإصلاح .

وكان للأفغانى أثر عليه سواء فى الخطابة أو الكتابة ، وقد انضم إلى جمعية مصر الفتاة ، ولكنه لم يستمر معها لرغبته فى العمل المباشر مع الشعب ، فوجد أن ذلك لن يتأتى إلا عن طريق الصحافة ، وكانت الفرصة أمامه للكتابة فى صحيفتى مصر والتجارة فيقول : « عندما انتقل أديب إلى الإسكندرية اجتمع بى فى جلسة أدبية وطلب منى أن يكون لى عبارة فى مصر والتجارة ، فالترمت تحرير أغلبهما لكونى مشربى من مشربهما »^(١) ، وعندما عصفت رياض بهما وأنشأ سليم النقاش صحيفتى المحروسة والعصر الجديد تناولهما قلم النديم ، وكانت موضوعاته الصحفية تلفت إليها الأنظار ، لأنها جاءت تعبيراً عما فى نفوس الناس من ثورة مكبوتة ، وأيضاً اتسمت بذلك الأسلوب السلس ، وهو الأسلوب الذى امتازت به ودعت إليه مدرسة الأفغانى .

أما عن صحف يعقوب بن صنوع والذى اهتزت لها مصر فكان لها أثرها العميق والبالغ لدى المصريين ، وبإيحاء من الأفغانى أنشأ صنوع صحيفته « أبو نظارة » فكانت صحيفة هزلية باللغة العامية اتقن صنوع فنه فيها وطبق السخرية السياسية ، فهو خارق الذكاء متعدد المواهب ، لجأ لطلب الحماية الإيطالية ليستمر فى التمتع فى إصداره لصحيفته ، وغاص بها فى أعماق الحياة المصرية ، ويقول النديم عنها « كانت تحرر بأقلام أفاضل الرجال من تلامذة الشيخ جمال »^(٢) ، وكان صنوع معروفاً على مدى واسع بين المصريين وحتى عند طلبة الأزهر بالرغم من أصله اليهودى ، فقد أصبح الكاتب الشعبى المصرى وعلا صيته بنقده السافر للأوضاع التى كانت عليها مصر .

(١) عبد الله النديم ، المصدر المذكور ، ص ٥٤ . (٢) المصدر نفسه .

أما عن تيار الإصلاح الذى تزعمته صحيفة الوقائع المصرية بالرغم من كونها الصحيفة الرسمية ، فإنه بوصول محمد عبده إلى تحرير فقرات منها ثم إلى رئاسة التحرير ، انتقلت إلى عهد من النشاط والفاعلية ، ولم يكن ذلك أول عمل لمحمد عبده بالصحافة ، فقد كتب فى الأهرام عندما كان طالباً فى الأزهر مشيراً إلى عظمة مصر وتمدنها « فكان التمدن فيها كهلاً حين كان عند غيرها طفلاً »^(١) ، كما كتب عن الظلم والعدالة وتاريخ تمدين الممالك ، واسترعت مقالات الشيخ محمد عبده أنظار الناس إليه .

كانت دعوته ترمى إلى تحرير الفكر من قيد التقاليد ، وفهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفة إلى ينباعها الأولى ، وإصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير ، ثم التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة .

ولقد حاول التوفيق بين الدين والعلم الحديث ، وبين الحضارة الأوربية والقيم الإسلامية ، فمن رأيه أن الإسلام يهتم إهتماماً كبيراً بالعقل باعتباره وسيلة لكشف الحقيقة ، وكان يرى أن السبب فيما أصاب المسلمين من إنحلال يرجع إلى خطأ ربط الدين بالسياسة ، وأن النهضة السياسية إذا لم تترن بنضج اجتماعى وعلمى وثقافى لن تؤتى ما يراد منها من ثمرات^(٢) .

ويمكن القول بأن فكر محمد عبده كان منقسماً إلى ثلاث شعب ، شعبة دينية وراءها الإصلاح الدينى ، وشعبة تعنى الإصلاح اللغوى والأدبى ، وشعبة سياسية ، وفى البداية كانت الأخيرة فى آخر مراتب فكره ، لكنه عدل وحولها إلى أولى المراتب . ويمضى ليبث أفكاره السياسية والاجتماعية للتلاميذ عندما كان مدرساً ، وللناس جميعاً عندما كتب فى الصحافة ، فأيقظ حمية الرأى العام ، وعندما أمسك بصحيفة الوقائع المصرية اختار لها من المحررين المهرة أمثال عبد الكريم سلمان والشيخ سعد زغلول والشيخ إبراهيم الهلباوى والشيخ سيد وفا ، وهم ممن كانوا قد برعوا فى الكتابة معه على يد الأفغانى .

وعن طريق هذه الصحيفة ألم بالسياسة ، وكلف المقربين بأن يكتبوا أعمالهم فيها ، وكثرت مقالاته التى تحمل الإصلاح فى القسم غير الرسمى ، فدعا

(١) الأهرام ، عدد ٥ فى ٢٥ سبتمبر ١٨٧٦ .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، تطور الفكر السياسى فى مصر الحديثة ، ص ٣٥ ، ٣٦ .

إلى التعاون ونادى بالحرية ورفع المظالم وأيد التربية والتعليم وحمل على الرشوة وأهلها ، وبين أن الحق للقانون لا للقوة ، وكان للشورى والقانون أهمية لديه ، وهدف من كل مقالة إلى رفع مستوى الأمة في تدرج وتؤده ، وسار على هذا المنوال إلى أن قامت الثورة .

ومضى الإصلاح مع صحف أخرى غير صحيفة الوقائع المصرية ، فعملت على تنبيه الرأي وإيقاظ الوعي وتعليم السياسة ، فكثر المقالات عن الوطنية وحب الوطن والتفانى فى خدمته ومحاربة التدخل الأجنبى ، وكتب النديم فى صحيفتى مصر والتجارة عن الإصلاح السياسى الذى كان يرى أن يصحبه إصلاح اجتماعى ، فعبر عما فى صدور الناس ، وكان هذا طبيعياً فهو أقرب الصحفيين إلى شعبه الفقير الذى ينتمى إليه ، أليس هو المعبر عن ضيقهم وفرحهم ؟ أليس هو أكثر الصحفيين حناناً عليهم ؟ وبالتالي يدرك تماماً ما يقاسونه ، لذا فعندما كتب فى الإصلاح كان صادقاً ومعبراً .

وأيضاً فإن حسن الشمسى أحد مثقفى الثورة - وكان مدرساً للعلوم العربية فى المدارس الأهلية - دوام على الكتابة فى الصحافة ، فتناولت مقالاته العدل وضرورة النهوض بالتعليم والأخلاق .

أما عن الاتجاه النيابى والصحافة ، فقد سيطر على عقول المثقفين ، فقاموا بتلك الحملات التى ملأوا بها صحفهم عن الحياة النيابية فى أوروبا محط التعليق ، وشرح أميل شميل أسس النظام النيابى والتزاماته ، وتكلم عن حرية الفكر ، وحرية العقل ، وحرية القول^(١) .

وذهبت صحيفة الإسكندرية إلى ضرورة إطلاع الشعب على أعمال المجلس الذى يجب أن يكون له الحق فى النظر فى المصاريف وفى تعيين الأموال والضرائب^(٢) ، ذلك الحق الذى أعطته الثورة العرابية لمجلسها ، وكان الهدف من ذلك تنبيه الشعب إلى وظائف المجلس واختصاصاته .

وتشرح صحيفة الأهرام القوة الوزارية والأخرى المجلسية ، فالأولى مسئولة أمام الثانية، والثانية مسئولة أمام الأولى^(٣) . وأصبحت كلمة الشورى لا تخلو أية صحيفة من شرحها وتحليلها وتطبيقها ، ونرى بعضها يطالب بمجلسين مجلس نواب ومجلس أعيان ، فالأول بمثابة الحواس الباطنة والثانى الحواس الظاهرة ، والاثنان

(١) الوطن ، العددان ٢٩ ديسمبر ١٨٧٧ ، ٢٠ يوليو ١٨٧٨ ، التجارة عدد ١٠ يوليو ١٨٧٩ ، مصر ، عدد ٩ مايو ١٨٧٩ .

(٢) الإسكندرية ، عدد ١٥٧ فى ١٥ يناير ١٨٨١ . (٣) الأهرام ، عدد ١٢ مارس ١٨٧٩ .

لصالح البلاد ، وتشرح مهمات مجلس الشيوخ في فرنسا ، واللوردات في إنجلترا ، وأنه لا شرط لنوع الحكم حتى تكون هناك شورى ، بل وتحذر الصحف الحكومة بأنه إذا لم يعمل بالشورى فستكون الثورة هي النتيجة^(١) .

وتهاجم الصحافة مجلس شورى النواب الذى أوجده إسماعيل وتطالب « بمجلس نواب عن أبناء الوطن للذب عن الفلاح فى فلاحته ، والمستخدم فى خدمته والتاجر فى رواج تجارته والعسكرى فى تحديد مدة خدمته ، وللنظر فى تصرف الحاكم وليس مقصودنا ترتيب مجلس شورى كالسابق الذى كان عدمه خيراً من وجوده »^(٢) .

ومضى الأمر فى محاولة الصحافة إرشاد المجلس الموجود فتطالب الحكومة بعلانية الجلسات والسماح للصحفيين بالحضور فيها . وعند افتتاح المجلس فى ٢ يناير ١٨٧٩ طالبت صحيفة التجارة « بأن يحذو هذه المرة حذو مجالس أوروبا فى استعمال حرية الأفكار فى مناظراته ومدالاته »^(٣) .

ولم يقتصر الأمر على مسألة المجلس النيابى ، إنما كانت مسألة الدستور جميعها الشغل الشاغل للصحافة ، ذلك العقد الذى يحد السلطة الأوتوقراطية ويجعلها عادلة ، والقانون الذى يحدد الحقوق والواجبات وهو مما طالب به أديب إسحق الخديو إسماعيل ، ورأت الصحافة أن « الحكومة الدستورية هي الحكومة الفضلى »^(٤) ، وجاء دور الصحافة فى المعارضة والهجوم نتيجة لما طرأ على مصر من أحداث ، فانتهزت الصراع بين النفوذ الأوروبى وإسماعيل ، وألقت ثقلها الهجومي على الطرفين ، فالنظارة الأوربية تسمح بالاعتراض على تصرفات إسماعيل ، والأخير يسمح بمهاجمة التدخل الأوروبى .

كما كان للصحافة دورها فى الهجوم على الأجانب « إن الأجير يعد نفسه أميراً والمستعير مالكاً والدخيل أصيلاً ، وهذه حال الأجانب بالنسبة إلينا ، ضاقت عليهم سبل العيش فى بلادهم ، فأتونا يطلبون رزقاً ويحاولون نشر سلطة سياسية ، إنهم لم يأتوا بلادنا إلا لإحدى ثلاث غايات وهى الدين والسياسة والتجارة »^(٥) ، وتعدد الصحافة الإمتيازات التى يتمتع بها الأجانب رغم ثروتهم وغناهم وفقر الفلاح

(١) العصر الجديد ، عدد ١٢ فى ٢٥ مارس ١٨٨٠ ، التجارة ، عدد ٤٣ فى ١٦ يوليو ١٨٧٩ .

(٢) الوطن ، عدد ٤٨ فى ١٢ أكتوبر ١٨٧٨ . (٣) التجارة ، عدد ٢ يناير ١٨٧٩ .

(٤) صدى الأهرام ، عدد ٦٠١ فى ٨ أبريل ١٨٧٩ . (٥) التجارة ، عدد ١٦٣ فى ١٠ يناير ١٨٧٩ .

وتحملة عنهم جميع الأعباء لدفع ديون الحكومة ، وتذهب إلى تشبيه الحالة التي عليها مصر بتلك التي كانت عليها فرنسا قبل عام ١٨٧٩ ، معنى ذلك أنها كانت تعد الأمة لثورة تجرف كل هذه المظالم ، وبذلك علّمت المصريين أن ينطقوا بما ينقدون ، وفتحت أبوابها لمن يريد ذلك ، ومضى كل من كانت له القدرة في النقد غير مبال بما يتم من حركات القمع .

أما صحف يعقوب بن صنوع ففاضت بالمعارضة ، فقد قاد حملة صحفية سافرة الوجه وصلت إلى أعماق الريف وتناولها رجل الشارع ومن في القصور كما كان لها صداها خارج مصر ، فهو واقى حبيب الناس في الصحافة ومطالعتها إذ جعلها على شكل محاورات عامية متناهية في النقد والسخرية للأحوال العامة والتدديد بالحكومة والحكام ، وعلى أثر ذلك أغلقت صحيفته بأمر إسماعيل وغادر القاهرة في ٢٢ يونيو ١٨٧٨ إلى باريس « وسافر جيمس إلى باريس وساعده المصريون بالأنفس والنفيس »^(١) . ومضى في نفس الطريق وهو في باريس ، وأتت صحفه إلى مصر بمختلف الطرق وكثيراً ما أوقفت ، لكنه كان يدخلها تحت اسم آخر ، وراحت توزع سرّاً وتقل من يد إلى أخرى وتنتشر بسرعة فائقة ، ومما ميزها الصور التي تحتويها حيث صورت الواقع إذ شدت انتباه الجميع ، وامتلات بنداات الثورة للقضاء على ذلك الفساد « الله يخيبه توفيق ويخيبنا إحنا اللي ساكتين له »^(٢) . وتلك كانت رسالة يعقوب بن صنوع الدفاع عن الشعب والحملة الواسعة على إسماعيل وتوفيق والهجوم العنيف على السياسة الإنجليزية .

وتابعت الصحافة مسيرتها فهاجمت الموقف الإستعماري للدول الأوربية وخاصة مؤتمر برلين ، وتبلور الرأي العام ، ولم يمنع الخوف عامة المصريين من التحدث عن الفساد ، ووصل بالبعض إلى قراءة الصحف الأجنبية واستقاء الأخبار السياسية والاقتصادية من الأجانب المقيمين والوافدين . وانتهى الأمر بأن دخلت إلى البيوت وتداولت في المقاهى والدكاكين .

ومما لا شك فيه أن كل ذلك قد هيا للثورة تربة صالحة من أجل أبنائها ، فتلك الحملات المكثفة وهذه الجرأة الصحفية التي عبرت عن الأمانى والطموح بل على السخط الذى أحس به المصريون جميعاً قد ظهر جميعه مع الثورة ، وبالرغم من

(١) عبد الله النديم ، المصدر نفسه ، ص ٥٤ .

(٢) أبو نظارة رزقا ، عدد ٢٤ فى ٢٦ أغسطس ١٨٧٩ .

مجهودات الحكومة بشأن إجهاض تلك الثورة الصحفية ، فإنها استمرت في الطريق الذي رسمته لنفسها ، لتبين وتوضح معالم العدالة في الحكم وأشكاله وخاصة الجمهورى الذى وجدته مناسباً ، فأفردت له الصفحات موضحة فوائده ، ففى تعليق لصحيفة التجارة على حفل أقامه الفرنسيون لانتصار الجمهوريين فى انتخابات المجلس قالت « فإذا كانت فرنسا والشعب الفرنساوى فى احتياج إلى الإصلاح ، فماذا نقول نحن المصريون ؟ »^(١) .

وعلى صفحات نفس الصحيفة نرى إعلانها لذكرى إعدام الملك لويس السادس عشر « الذى حكم عليه الشعب عندما ازداد حنقاً وغيظاً » ، كما يشرح « شبلى شميل » أبعاد الثورة الفرنسية وأسبابها وقيام الجمهورية الأولى فى فرنسا^(٢) . إذن لم تكن فكرة الجمهورية التى راودت الثوار إلا امتداداً لتلك الأفكار التى كانت ترى جعل مصر جمهورية وطنية شورية ، ولم تكن قاصرة على القاهرة والإسكندرية وإنما وصلت إلى الأقاليم .

وكان كثيراً من المثقفين الذين برزوا فى الميدان الصحفى قد تناولوا نشر المبادئ الاشتراكية وتحمسوا لها ، فقد دافع أديب إسحق عن « الفعلة » فيمضى ليعبر عن وجودهم بأنهم « حصون البلاد وسور الدولة وروح الأمة »^(٣) . وبعد حركة السوساليست فى ألمانيا امتداد للثورة الفرنسية وأولاهها اهتماماً خاصاً ، وكان مدافعاً عن الطبقة الفقيرة ، فتناول الظلم والاستبداد اللذان تعاني منهما ، وبين أن المساواة والحرية هما الدعامتان الطبيعيتان لكل مجتمع ، ومن هنا سيطر عليه الفكر اليوتوبى الذى يرمى إلى إيجاد مجتمع أمثل تختفى فيه مظاهر الفقر والتحكم ، وقد تأثر بمونتسكيو وروسو وخصوصاً فى العقد الاجتماعى ، فأكد على سيادة الشعب . ومضى الصحفيون على ذلك المنوال أيضاً ، وفى النهاية دائماً المطالبة بالمساواة^(٤) .

وتولت نظارة شريف فى أواخر عهد إسماعيل ، ورغم أنه كان يرى أن حرية الصحافة أصل من أصول الديمقراطية ويجب أن تتاح لها الفرصة فلا يحجر

(١) التجارة ، عدد ١٧١ فى ٢١ يناير ١٨٧٩ . (٢) مصر ، عدد ٤٥ فى ٩ مايو ١٨٧٩ .

(٣) المصدر نفسه ، عدد ٣ أكتوبر ١٨٧٨ . (٤) التجارة ، عدد ١٠٧ فى ١٥ أكتوبر ١٨٧٨ .

على أقلام كتابها ولا تقوم عليها رقابة من الحكومة بل تكون هي الرقيب، فإن نظارته لم تطلق صبراً على ما سطرته الصحافة ، فكانت تعطل البعض وتندر الآخر ، بناء على قانون مطبوعات وهو غاية في القسوة ، وكثيراً ما اشتكت منه الصحف وطالبت بتغييره ، ووصفته بأنه « جلاداً وقف على رؤوس الجرائد بسيف الإلغاء والتعطيل ، وأن حكمه مشبه للحكم الموسوى فى مقابلة الهفوة الطفيفة بالعقاب العظيم »(*) .

وجاءت أيدي رياض لتقصي قلم الصحافة ، وكم كان متشدداً فى تصرفاته ، فعطلت مرآة الشرق أكثر من مرة ، وأنذرت التجارة لأنها خرجت عن حدود وظائفها، وما لبث الأمر أن أقفلت مصر والتجارة وخرج أديب إسحق من مصر إلى باريس ، وأنذرت مصر الفتاة ثم عطلت نهائياً ، ومنعت صحف النحلة وأبو نظارة وأبو صفارة والقاهرة والشرق ، وعطلت المحروسة والإسكندرية . وأيضاً عطلت الصحافة الأجنبية La Reforme, La Phare d'Alexandrie, Missagro Egyptiano ، وكما جاء فى الحيثيات « لاحتوائها على المقالات المثيرة للأفكار » .

هكذا أقام رياض المذابح وعلق المشانق للحرية وللصحافة وللمعارضين ، حكم بالبوليس والسجون وبالنفى إلى النيل الأبيض ، ولكنه لم يستطيع أن يصل إلى مراده، فتدخل الصحافة الممنوعة لتؤجج الصدور ، فكانت ترد إلى مصر من باريس منبع الحرية ومدينة الثورة الفرنسية ، فترى على صفحاتها ما يصل إلى القلب ويغذى الروح مباشرة ، مبادئ الثورة الفرنسية ، الكلمات التى اهتزت لها مشاعر المصريين، الوطن والوطنية والأمة والحرية والمساواة والدين والدولة والاستبداد والظلم . وبذلك وعن طريق الثورة الفرنسية تسربت إلى النفوس معان جديدة لأصول الحكم العادل ، وأصبح المجتمع يموج بتلك التيارات والمفاهيم ، وازداد الوعي ، بحيث إنه عند قيام الثورة كانت قوى مصر جميعها منغمسة فيها بدون تفكير أو وعى بعد أن تشبعت بتلك المبادئ وبعد أن سرى ذلك الشعور بالتبرم من الأوضاع ، وصار قاموس الحرية بين الأيادى ، فهمه الجميع وأدركه وأرادوا أن يطبق ويخرج إلى حيز التنفيذ .

(*) المصدر نفسه ، عدد ١٢٥ فى ١١ نوفمبر ١٨٧٨ .

الجمعيات والرأى العام

استطاعت الحركة الوطنية عن طريق الجمعيات سواء كانت علمية أو خيرية أو سياسية أن تنفذ وتنتشر داخل المجتمع المصرى فى فترة كان الظلم والاستبداد وتكميم الأفواه سائداً ، وعن طريقها تبلور الرأى العام بتوسيع تلك النشاطات التى مارسها .

وكانت أولى تلك الجمعيات جمعية علمية ثقافية تعتبر كمنظمة لنشر الثقافة بواسطة التأليف والطباعة والنشر ، أسست عام ١٨٦٨ على يد محمد عارف باشا ، وكان الغرض منها نشر العلوم والمعارف بطبع الكتب العلمية وتأليفها وتهذيبها ، ولقيت إقبالاً عظيماً وتعضيداً من أفراد الطبقة العليا فى المجتمع كإبراهيم جمعى وإبراهيم المولىحى ، وحسن بك الشريعة ، وبدرأوى عاشور ، وحسن موسى العقاد^(١) .

وأنشئت الجمعية الجغرافية الخديوية ، بهدف العناية بالأبحاث الجغرافية والعلمية ، وتبع ذلك أن كون يعقوب بن صنوع جمعيتين أدبيتين « محفل التقدم » ، « محفل محبى التقدم » وذلك بعد أن أغلق إسماعيل مسرحه ، وكانت المحاضرات فيهما عن تقدم العلوم والآداب فى أوربا والدعوة للإخاء دون تمييز عنصري أو دينى ، وقد أقبل عليها طلبة الأزهر وكبار ضباط الجيش ليفتروا من منهلها مبادئ الحرية الأوربية عامة والفرنسية خاصة ويقول فى صحيفته عن تلك الاجتماعات « وكان يحضرها ناس عظام ومشايخ الأزهر الكرام ونور العلم الأستاذ الفاضل والفيلسوف الكامل السيد جمال الدين الأفغانى » معنى هذا أنها على درجة عالية من الثقافة ، ويبين يعقوب بن صنوع كيف امتدت يد إسماعيل للقضاء على ذلك النشاط أن الإنجليز أفهموه « أن هاتين الجمعيتين إنما هما مركز للثورة ، فما كان منه إلا أن منع التلاميذ والطلبة والعلماء من حضور اجتماعاتنا ، واضطرت الجمعيتان إلى إغلاق أبوابهما عام ١٨٧٤ »^(٢) .

أما جمعية مصر الفتاة ، تلك التى ضمت الشبان المثقفين فقد تأسست بالإسكندرية عام ١٨٧٩ وكان هدفها القضاء على ديكتاتورية إسماعيل والعمل على خلع أو قتله ، ووضعت برنامجها الذى تضمن الإصلاح العام ، ونادت بحكم

(١) عبد الرحمن الرافعى ، عصر إسماعيل ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .

(٢) أبو نظارة زرقا ، عدد ١٥ فى أول يوليو ١٨٧٩ .

الشورى، وأصبحت منشوراتها متداولة ، ورفعت مطالبها إلى مجلس شورى النواب عارضة ما حاق بمصر من تغفل أجنبى حتى فى استعمال اللغة الأجنبية فى الجهات الرسمية « إن مجلس النظار على جلاله قدره لم تصدر عنه إلى الآن مراسلة بلغة الوطن ، فكان ذلك داعياً للعجب »^(١) ، وقدمت لائحة بها من الأفكار ما يجعلنا نقر بأن واضعيها أصحاب عقلية مستنيرة ، كما نددت بالأوتقراطية المستبدة التى تعيشها مصر .

وكانت هناك جمعية أطلقت على نفسها « اتحاد الشبيبة المصرية » وهى ذات طابع اقتصادى واجتماعى ، دعت إلى إنشاء بنك قومى وطنى لإنقاذ مصر من الاستبداد الأجنبى ، وطالبت بالإهتمام بالتعليم وتشجيعه وجعله مجانياً .

ويأتى النديم ليجعل الجمعيات ومنابرها الشعلة المتقدة التى أنارت الطريق للثورة ، والتى جمعت كل الفئات تحت شعار موحد من أجلها ، ونراه يعلن رسمياً بأن تلك الجمعيات « تسعى فيما يعود على الوطن وأهله بالمنفعة الحقيقية »^(٢) ، كما أبان أنها بعيدة عن السياسة وسيقتصر نشاطها على المحيط الثقافى والاجتماعى ، وذلك حتى يبعد عنها الشبهات التى تلتصق بالعاملين بالسياسة .

وتكونت أولى هذه الجمعيات بالإسكندرية وهى « الجمعية الخيرية الإسلامية » وتقرر أن يكون النديم نائب رئيسها ، فالرئيس عباس حلمى ولى العهد ، وكان الهدف الحقيقى الذى يرمى إليه النديم ، هو بث الروح القومية فى البلاد للتحرر من نير الظلم والاستعباد ومقاومة استئثار الأجانب . وفى الإسكندرية خاصة كان منبع نشاط النديم ، فقد وضع فيها الرأى العام وأصبح الناس يتكلمون عن صندوق الدين والشورى والاستقلال والحرية ، وتحولت الحفلات المدرسية التى يقيمها إلى ندوات تناولت جميع شئون مصر وتكلم فيها كل قادر وتهافت عليها الناس جميعهم ، وكان ذكاء النديم فائقاً للحد فرأى أن يتقرب ولو بصورة ظاهرية للحكومة والقائمين عليها ويموه عن مساعيها ، وراحت الصحافة تشجع ذلك وتبين فوائد الجمعيات فى رفع الفقر والفاقة، وإنشاء المدارس والمستشفيات والمكاتب^(٣) .

وبمساعى النديم واتفاقه مع فريق من أقباط مصر ، أقيمت « الجمعية الخيرية القبطية » وتأسست لها مدرسة على نمط نظام النديم ، وترددت أصداء الخطابة

(١) التجارة ، عدد ١٧٥ فى ٢٧ يناير ١٨٧٩ .

(٢) عبد الفتاح نديم ، سلافة النديم ، ج ١ ، ص ٧٠ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ٩٤٢ فى ١٩ أكتوبر ١٨٨٠ .

ففيها منذ افتتاحها على لسان النديم وأديب إسحق والتي انصبت على التعاون والاتحاد والبعد عن التعصب .

وأراد النديم أن يأخذ طابعاً عاماً لدعوته ، وكانت ضررته العلنية بتعظيم محافل خطابية في ساحة مدرسته ليلة الجمعة من كل أسبوع ، وأصبح ذلك الطابع منتظماً في اللقاءات والموضوعات ، وتحقق ما كان يرجوه الأفغانى في الدعوة لإتخاذ الخطابة وسيلة عملية للنزول إلى ميدان الكفاح والتطرق لكل ما يعانى منه شعب مصر .

واهتمزت الإسكندرية لخطب النديم ، وهرع الناس إلى محافله ، ومضى في استعمال الرمزية حتى يبعد عنه يد الأذى ، وعبر عن فكره السياسى بتلك الطريقة ، ونوعى الناس أدركوه ، ونشرت الصحافة خطبه ووقفت بجواره فهو أحد جنودها ، وعند بدء أية خطبة له « كان ديوان الخطابة يمثل بما يزيد عن سبعمائة رجل ليسمعوا النديم في حب الوطن » (١) .

وما لبث الأمر أن جاء دور رياض مع محافل النديم ، فأراد أن يضع له ما يسىء إليه عن طريق أعوان له في الجمعية ، وعندما أحس النديم قدم استقالته ، ونجح رياض ظاهرياً في إبعاده عن الجمعية توطئة لإبعاده عن الرأى العام ، لتخمد تلك الحماسة التي غرسها في قلوب المصريين ، ولكن أتت النتيجة عكسية فقد ازدادت قيمته ومحبة الناس له .

أما عن جمعية القاهرة « جمعية المقاصد الخيرية » فقد صدر قرار إنشائها إلى أحمد السيوفى وكانت أهدافها كسابقاتها ، وجاء في قانونها أنه لن تتعرض للسياسة والدين ، وأعطيت رئاستها في بداية الأمر لولى العهد عباس حلمى ، لكنه عين عنه نائباً هو البارودى وكان ناضراً للأوقاف (٢) . وبرزت فيها شخصية محمد عبده فأكثر في محافله عن التقدم للعلوم والآداب ، وبين الحقوق والواجبات وفوائد التربية والتعليم والرقى باللغة العربية . وحث الأغنياء على إنشاء الكتاتيب والمدارس ، ومع قيام الثورة ساهمت تلك الجمعية بكل طاقتها من أجل خدمة مصر .

المسرح والوعى القومى

تمشياً مع السياسة الإسماعيلية في جعل مصر قطعة من أوروبا ، كان لابد من الإهتمام بالتمثيل ، ولكى تظهر مسرح بمظهرها الحضارى والمدنى أمام ملوك أوروبا

(١) الحروسه ، عدد ١٦٣ في ١٥ سبتمبر ١٨٨٠ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ٩٤٢ في ١٩ أكتوبر ١٨٨٠ .

وعظماؤها عند افتتاح قناة السويس ، أنشأ الخديو الأوبرا واستدعى بعض الفوق الأجنبية للتمثيل فيها .

أما عن ظهور المسرح العربى فى مصر ، فقد بدأ على يد يعقوب بن صنوع الذى فهم دور المسرح فهماً جيداً من حيث قوة تأثيره ، وعظمة رسالته التوجيهية فى قيادة الجماهير بجانب رسالته النقدية ، ولذلك أراد أن ينشئ مسرحاً خاصاً للشعب يعرض لهم فيه مشاكلهم الاجتماعية والسياسية ، ولقد لقبه إسماعيل بموليير مصر ، فحاول يعقوب بن صنوع أن يرضيه فى البداية ، فهاجم فى مسرحه الأتراك وسلاطينهم فى وقت كان الشعب فيه متبرماً من تلك الطبقة ، فلاقت هذه النغمة الاستحسان عند الخديو .

ونجح يعقوب بن صنوع فى توجيه المثقفين إلى مسرحه ، وأصبح الجميع يتحدثون عن مسرحياته ، وبدأ ينقد إسماعيل وأسرته ، فإزداد إقبال الناس على مسرحه وكان منهم من طلبه الأزهر^(١) ، بعد أن تحرروا من قيودهم وباتوا يذهبون للمسرح ، واستمر فى الهجوم والنقد ، فضاق الخديو بالأمر ومن ورائه الأوروبيون ، فأمر بإغلاق مسرحه .

وعندما نزلت الهجرات الشامية مصر ، وكان بها المفكرون والأدباء والمثليون ، رحب بهم إسماعيل فاتجه البعض منهم إلى التمثيل ، فكون سليم النقاش فرقة يساعده أديب إسحق وذلك قبل عملهما بالصحافة ، وعلى أيديهم عربت أندروماك لراسين وشارلمان ومثلا فى الإسكندرية ، وجاءت فرقة يوسف خياط لتمثل على مسرح زيزينيا ثم الأوبرا روايات ذات مغزى اجتماعى وإصلاحى ، وكان لموليير النصيب الكبير فى ذلك ، فقد ذُكر الظلم والتعريض بالظالمين ، فظن إسماعيل أنه المقصود فأمر بإخراج الخياط وجوقه من مصر ، وهذه هى طبيعته فهو يسمح بكل ما يطلب منه وعندما يتجاوز المسموح له حدوده ينتهى أمره ، ولكن يكون ذلك بعد فوات الأوان ، بعد أن تشبعت قوى المجتمع بروح النقد ، وقد أسهمت تلك المسرحيات فى نمو الوعي الذى ترجم فى الإقبال عليها جماعات « فكان تلاميذ المهندسخانة يرغبون أحياناً التوجه جماعات »^(٢) .

وينزل النديم إلى هذا الميدان ، أليس التمثيل هو نوع من أنواع الدعاية للأفكار ؟ وأفكار النديم يسيطر عليها الإصلاح بأنواعه الاجتماعى والأخلاقى والسياسى ، إذن لابد أن يشارك فى ذلك ، فاختر الإسكندرية ليمثل فيها سواء على

(٢) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ٥٨ .

(١) Ninet , Arabi pacha, p. 128 .

مسرح مدرسته أو على مسرح زيزينيا بالإسكندرية الذي طالما اعتلي منبره الأفغانى ، وكان ذلك الوقت هو بداية حكم توفيق ، ووصول الضيق والتبرم إلى مداه ، فأراد النديم أن يفكر توفيق بأنه قبل اعتلائه العرش كان مع الحركة الوطنية ، ويذكره بما جرى لأبيه ، لهذا مثل روايتين مشهورتين حضرها توفيق والنظار ورجال الدولة ، والأولى « الوطن وطالع التوفيق » تبين حالة الوطن وما عليه من الخسونة والجهالة ، وورود المبشرين بعصر الإصلاح ومذاكرة أهله فى تقدم المعارف وعودة شباب الوطن وحوله من المعامل والصنائع والمكاتب ما يتم به العمران واختتم الرواية بإسداء النصح إلى توفيق ، وقد لقيت إقبالاً شديداً حتى أن إحدى الصحف تقول « لم يبق منها تذكرة فإن الناس أسرع عليها إسراع الظمان إلى المورد العذب ، أيد الله هذه الجمعية الخيرية وكلل مساعيها بالنجاح »(*) .

وصب النديم أفكاره فى الروايات التى كان يقوم بالتمثيل فيها مع مدرسى المدرسة وتلاميذه ، وقد تناولت موضوعات شتى دلت على ما أدخله فى قلوب محبيه ، فكثرت محاوراته بين الفنى والفقير وطالب المساواة بل وهاجم الأغنياء وما أصابهم من جهل وفقدانهم لفضيلة العلم . ومن هنا نتبين أن للمسرح دوراً فى إيقاظ الوعى وتكوين وبلورة رأى العام ، كل ذلك ساعد على أن القوى الاجتماعية أصبحت على أهبة الاستعداد عندما أنذرت الثورة وألقت الزهر .

الموظفون

استخدم محد على المثقفين المصريين فى الدواوين الحكومية ، وتبعه سعيد الذى كان يكره الأتراك ، فأحل المصريين محلهم فى الوظائف الإدارية العليا ، وعندما توسع إسماعيل فى سياسته ، تعقدت إدارته الحكومية فزاد من محيط دائرة استخدام المصريين ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان يهدف إلى ركيزة تدين له ولأسرته بالولاء ، لذا نجده يفسح المجال أمامهم فى شغل مناصب الدولة ، لكن لم يصل منهم إلى مناصب رئيسية إلا القليل ، حيث استحوذ عليها الأتراك .

وكان من نتائج الإحتكاك بين الحضارة الشرقية والمدنية الغربية ، وذلك الانفتاح الذى شهده حكم إسماعيل ، أن غدت طبقة الأفندية من موظفى الدولة فى مقدمة طبقات المجتمع انفعالاً بالمؤثرات المختلفة من داخلية وخارجية ، وكانت أكثر

(*) المحروسة ، العددان ٥٨ ، ٦٠ فى ٥ ، ٧ أبريل ١٨٨٠ .

تقبلاً للجديد ، فهي تمثل الوسط بين طبقة الأتراك وبين سواد الشعب ، وحرصت على الارتباط بالأصول الريفية سواء عن طريق رباط الأصل أو طريق الأرض ، إذ سنحت لهم قوانينها وخاصة في عهد سعيد على أن يكون لهم ملكيات متوسطة « فقد حصل صغار الموظفين على مساحات من الحجم المتوسط في حدود ٥٠ فدناً »^(١) . وتأثرت هذه الطبقة ، وعانت من تلك الظروف التي أحاطت بها من كل جانب وتعددت وأوصلتها في النهاية للمشاركة بكل قوتها وثقلها في الثورة العربية .

وكان الوجود التركي أول هذه والمنغصات ، إذ أوجد محمد على طبقة أرستقراطية اعتمدت على الأتراك ، وجعل اللغة التركية لغة الحكام والدواوين والإدارة ، واستمر ذلك الأمر مع أسرته ، وبذلك أصبحت القيادة الإدارية والاجتماعية في أيديهم ، وأضحى المصري محتقراً مستهزأ به ، وأطلقوا على المصريين « كور فلاح أى الفلاحين الأجلاف » وسيطروا على دوائر البلاد ، وكان الانتماء إليهم مبرراً كافياً للترقية ، هذا بالإضافة إلى علو مرتباتهم إذا قورنت بالمصريين الذين في نفس الدرجة وذلك إن تصادف ، وعلى هذا الأساس أصبحوا باشوات من كبار ملاك الأراضي وكونوا طبقة مميزة خاصة بهم بلغت حوالى العشرة آلاف حتى عام ١٨٧٩ حملت لواء الكراهية للمصريين^(٢) ، وبالتالي فقد مقتهم المصريون وتكونت العقدة الشركسية بنشأة ذلك الخضوع الذى تعرضوا له ، فحكاهم ليسوا بمصريين بل هم من نفس العجينة التركية ، وإحساسهم أنهم عبيد - بالرغم من أنهم كانوا عصب مشروعات النهضة الخاصة بالتعليم والجيش والصناعة والتجارة والصحافة - بالقياس إلى السادة من الأتراك والشراكسة هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ذلك الشعور الذى انتاب مسلمو مصر بأنهم أعلى من الأتراك وأعظم حيث إن أصحاب الخلافة ليسوا بعرب ، وأنهم حديثون بالإسلام بينما أبناء مصر هم البكر له ولا ينسون أن الأتراك هم الذين سلبوا الخلافة من القاهرة ، ومن هنا اعتبروهم دخلاء على الدين وعلى السياسة أيضاً بإخضاعهم مصر فهم الغزاة المحتلون والأرستقراطيون أصحاب الكبرياء . أما الأتراك فقد غمرهم إحساس بالغيرة من مصر التى أشرقت عليها شمس الحضارة العربية ، وأن القاهرة لازالت تحتفظ بالمركز الدينى الرئيسى رغم وجود العاصمة التركية .

والنتيجة أن تأصلت الصورة القائمة بين الفريقين . واستمر طغيان الأتراك ،

Bemlan , op. cit., p. 28.

(١) على بركات ، المرجع المذكور ، ص ١٤٤ . (٢)

فما هي الحكومة المصرية إلا حكومتهم فتحكموا في المصريين ، فقد كان حاكم مصر وحاشيته ورجاله في قصورهم ومساكنهم في جانب ، والمصريون في الجانب الآخر يزدادون في العدد والذكاء والطموح وأيضاً في الكراهية .

وخضع الموظفون المصريون للأتراك ، وبالرغم من تمتعهم بتلك الثقافة الواسعة وخاصة العائدون من البعثات والحاصلون على درجات علمية ، فإنهم فلاحون في نظرهم ، قدموا لهم المناصب البسيطة ، حيث خافوا أن يمنحهم الفرصة وهم الأذكياء فيكتسحهم من الطريق ، لذا عملوا على إبعاد ذلك الشباب المثقف من أصحاب الأفكار المستنيرة عن العاصمة ، ونقلوا معظمه إلى المديرات ، لكي يعمل في وظائف الكتبة والمترجمين ، تلك الوظائف التي كانت تختلف كل الاختلاف عما تعلموه وتدريبوا عليه .

كانت هذه إحدى المحن التي منى بها الموظفون ، وتبع ذلك انتشار مساوئ الإدارة التي يتحكم فيها الأتراك « فلم يكن هناك قانون يبين وظائف المأمورين ومسئوليتهم حتى أن رؤساء المأمورين بل النظار أنفسهم لا يعرفون حقيقة وظيفتهم ، ولقد كانوا بمنزلة الآلة لإدارة واحدة لا يستطيعون التظاهر بأدنى استقلال فكري ولا قوة لهم إلا على من دونهم ، واتسعت دائرة المخادعة والتجسس والإفتراء وحل الدهاء مكان الأهلية ، واستولى الانقياد على الشهامة وأصبح « لا يوجد إلا سلطة واحدة وهي سلطة القوة الحاكمة ، وأن هذه القوة تعم جميع أقسام القطر بحيث إن أصغر مأموري الإدارة له في وظيفته الصغيرة سلطة غير محدودة »^(١) .

وساس الأتراك مصر بمحض إرادتهم ووفقاً لأهوائهم لا قانون يهديهم ولا أحد ينتهون إليه ، فقد كانت وظائف الحكومة التي ينعم بها على من استحق المكافأة والإحسان لا لأنه جدير بالعمل وذو دراية في تولى مصالح الناس ، ولكن لأنه محسوب على زيد من الناس أو لأنه من الطبقة الأولى التي التفت حول لواء الحكومة أو من أتباعهم أو أتباع أتباعهم ، وكان المديرون هم أصحاب اليد العليا وذوى الكلمة النافذة في جميع الشئون ، يعتبرون أن مصر كما يقولون « جفلك لنا ولآبائنا من قبلنا فلننزود منه ما اشتيننا لأن الله خلق المصريين خداماً لنا وليس لهم حق قبلنا »^(٢) ، وتضاعف الفساد أثناء حكم إسماعيل سواء منه أو من أتباعه الذين خطوا خطواته ، فانتشرت الرشوة في كل المصالح ، فالمصلحة الخاصة كانت مسيطرة وتجرى على أساسها كل المفاهيم ، ولم يكن من الممكن أن تتم أية عملية

(١) جمعية اتحاد مصر الفتاة ، المصدر المذكور . ص ١٣ ، ١٥ .

(٢) أحمد فتحي زغلول ، المحاماة ، ص ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ .

دون أن تكون هناك الرشوة وتدرجت وكثرت لدى المسئولين ، فالقاضي ورجل البوليس والمدير يتمتعون بها .

ومع انهيار المالية المصرية ساءت حالة الموظفين بعد أن توقفت الحكومة عن الدفع الذى استبدلته بأذونات على الخزينة ، فكانوا يعطونها لدائنيهم . وبالتالي يجتمع على أبواب نظارة المالية دائنو الموظفين من الخبازين والجزارين ومن إليهم ، ليطالبوا بقيمة الأذونات التى فى أيديهم ، وقد بلغ مجموعها حوالى أربعة ملايين من الجنيهات^(١) .

وبتقلد النظارة الأوربية الحكم وحتى قيام الثورة ، وصل الموظفون إلى حافة الهاوية ، وعم الغضب الواسع الأرجاء فى الدولة كلها ، فلأجل الكوبونات والدفع للخارج سحب كل شئ من الداخل ، وأصبح الموظفون يتضررون جوعاً فلم تصرف مرتباتهم لمدة عشرة شهور ، والبعض مدة ستة عشر شهراً والبعض مدة سنتين ، فأقبل بعضهم على « بيع حلى نسائهم ليبردوا بثمنها حر الشعب وإطفاء نيران اللهب، بل وصل بهم الأمر إلى بيع أمتعتهم وأثاث منازلهم »^(٢) ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، إذ راح ولسون ناظر المالية يتبع طريقة الفصل من الوظائف ، وبناء على أوامره نرى مصلحة السكة الحديد تستغنى عن موظفيها المصريين ، ومصلحة واپورات البوستة تفصل الباشكبة وخدمة المخازن القبودانية المصريين ، وتستبعد نظارة المالية الكثير من « المستخدمين الشاكين الذين يرثى لحالهم بسبب فقرهم وعسرهم »^(٣) . وكان هؤلاء الموظفون مشهورين بالخدمات الصادقة والخبرة الطويلة ، وحتى مرتباتهم المتأخرة لم يتحصلوا عليها ، حيث تصل إلى الموظف التذكرة التى تفيده الشكر على مساعيه الماضية ، والاستغناء عن خدماته دون أن يدفع له حقه فى المتأخر من مرتبه .

وأمام هذا السيل فى إقصاء الموظفين من وظائفهم ، كان تعيين الأجانب وخاصة الأوربيين فى أماكنهم ، « فمن كان راتبه ٢١٨ قرشاً عين بدلاً منه إنجليزى براتب قدره أربعين جنيهاً ومعه ترجمان راتبه ٨ جنيهاً ، والتقصّد من ذلك الاقتصاد فلا حول ولا قوة إلا بالله »^(٤) . ولم يكن الاقتصاد إلا فى الأسماء المصرية التى هى أهل لأسمى الوظائف وأدرى بأحوال البلاد ، وتساءل الناس هل من العدل والإنصاف إرهاب الأمة وهؤلاء الموظفون المصريون أولادها ، واغتصاب آخر قرش معها ، وآخر قرش قد يكون لديها فى السنوات التالية بدون أن ينال أبناؤها من أموالها شيئاً ، مع أن اليسير المرتب لهم إنما هو حق عرقهم ، وبالرغم من ذلك فقد

(١) محمد فهدى لبيب ، المرجع المذكور، ص ٢٤٠ . (٢) الوطن، عدد ٤٥ فى ٢١ سبتمبر ١٨٧٨ .

(٣) المصدر نفسه ، عدد ٨٩ فى ٢٦ يوليو ١٨٧٩ . (٤) التجارة ، عدد ١٨٤ فى ٧ فبراير ١٨٧٩ .

حرموا منه ومن وظائفهم ، فى الوقت الذى رأوا فيه الأجانب يتمتعون بتلك المرتبات الضخمة . وشنت الصحافة حملة واسعة على ذلك ، وهاجمت الأجانب ، الذين لم يتمتعوا بالوظائف الكبيرة فقط ، بل وتغلغلوا فى أعماق الإدارة المصرية واستحوذوا أيضاً على المناصب الصغيرة ، فقد كانت هناك منافسة بين بريطانيا وفرنسا فى مسألة الموظفين هذه ، وحتم الإتفاق الذى عقد بينهما فى برلين على تعيين موظف فرنسى نظير كل موظف إنجليزى ، أضاف إلى ذلك أن كلاً من المراقبين كانا يسارعان فى تعيين بنى جنسهما لتوطيد نفوذ دولته ، وكان للبريطانيين نصيب فى الوظائف الرئيسية الإدارية ، وفى ذلك إثارة كافية لشعور الموظفين المصريين وخلق الاستياء والسخط بينهم بعد أن أدركوا أن هؤلاء الأجانب ينتزعون من أفواههم لقمة العيش ، وساعد نوبار ورياض على ازدياد سوء الأوضاع ، فهما أجنبيان مشرباً ومقصداً ، فلا فرق بعد ذلك بين القبة والطربوش .

وأساء هؤلاء الأجانب إلى مصر بالفساد الذى تفشى معهم فكونوا مجموعات لصوصية ، ووضح ذلك من الخلل الذى طرأ على الجمارك ، وكانوا قمة فى عملية الإرتشاء ، وليس للحكومة طائل عليهم ونرى ولسون يدافع عنهم فيقول « إنهم أطول باعاً فى الإدارة وأوفر دراية »(*) . والعكس هو الصحيح ، فكثيراً ما أثبتوا جهلهم فى الأمور التى تولوها ، وأضروا مصر ، فكانوا يقفون ويعارضون فيما يكون صائحاً لها .

وأضيف إلى الأوروبيون تلك الجالية الشامية التى شغلت قطاعاً فى وظائف الدولة وزاحمت المصريين واستولت على ما لهم نظراً لاتقانها اللغات الأجنبية ، لذلك كان الارتباط بينها وبين الأوروبيين قائماً ، ومضى نشاطها إلى ما كان له الأثر على المجتمع سواء فى تزيف النقود أو الاشتغال بالريا ، بالإضافة إلى الصفات التى جعلت المصريين يكرهون فيها ذلك الاستغلال ونكران الجميل .

وأيضاً كان للأرمن حظوة فى مصر ، فمنهم من شغل وظائف رئيسية فى الحكومة أمثال بوغوص ونوبار وتيجران ، ومنهم من احتل الوظائف العادية ، وكانوا من الطبقة الوسطى التى قدمت فروض الطاعة والولاء للباشوات أصحاب النفوذ ، ففضلوهم على المصريين الذين ازدادوا عليهم حقداً ، وقد أغدق المسؤولون فى مصر الإمتيازات على الأجانب جميعهم بدون استثناء ، بينما حرم أهل مصر الذين خضعوا لأسوأ الظروف ، وأصبح المصريون يتألمون لوضعهم الوظيفى فنشأ وتواصل ذلك الشعور المعادى للأجانب عامة ، الذى وصل إلى درجة الغليان مع الثورة العربية .

(*) التجارة ، عدد ١٤٣ فى ٩ ديسمبر ١٨٧٨ .

... (ب) الجناح العسكري :

مر على مصر وقت لم تملك فيه جيشاً من أبنائها ، وذلك بسبب خضوعها لأجانب عن أرضها ، كونوا بمعرفتهم الجيش الذى يدافعون به عن أنفسهم ، سواء من الغزو الخارجى أو من أية حركة داخلية يمكنها تقويض حكمهم .

وبتولى محمد على شئون مصر ، دخلت فى عهد جديد اتسم بالخصوصية المصرية، التى كان من أهم وجودها إشراك المصريين فى جيش مصر وخروجهم للحرب بعيداً عن أرض الوطن . فقد أراد محمد على أن يكون جيشاً عصريةً ، وفى بداية الأمر رأى أن يجند السودانين لكنه فشل ، فلجأ إلى فلاحى مصر .

واستعمل حاكم مصر العنف فى تجميع جيشه ، مما أدى فى النهاية إلى اقتران الجندي بالسخرة ، وخصوصاً بعد أن أيقن الفلاح أنه يذهب ليحارب ليس دفاعاً عن وطنه إنما لأطماع شخصية ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كانت الظروف التى يحارب فيها غاية فى القسوة سواء أكانت حربه فى الفيافى والصحارى أو المعاناة من نقص المؤونة ، وقد أثبت الفلاحون كفاءة فى ميادين الحرب ، لكنه لم يثق فيهم كقادة ولا ضباط ، حيث خشى على سلطته منهم ، كما كان من سياسته القضاء على أية قوة وطنية يستشف منها أنها ممكن أن تناوئه ، لذا جعل القادة والضباط من مماليكه .

ولم يذكر الجيش شيئاً لإبراهيم ، إلا أنه قام بتخفيض عدده ، وجاء عباس ليكون مغرمًا بالحرية لدرجة أنه عندما أغلق المدارس ترك ما يختص بها ، وبالرغم من أنه أنقص عدد الجيش ، فإنه أدمج فيه نحو ستة آلاف من الأرناؤوط فجعلهم خاصة بجنده ، وكانت لهم السطوة « وعاثوا فى الأرض فساداً بما اشتهر عنهم من الظلم والعسف والإرهاق »^(١) .

واستطاع سعيد أن يقدم على خطوة تعد من أهم الخطوات التى جعلت الجيش المصرى يتصدر الحركة الوطنية ، ألا وهى إدخال البورجوازية الصغيرة ، بانتظام أولاد العمد والمشايخ فى المجال العسكرى ، فيقول أحمد عرابى : « ولما تولى المرحوم محمد سعيد باشا ولاية مصر فى ٢٤ شوال سنة ١٢٧٠ أصدر أمره بانتظام أولاد عمد البلاد ومشايخها فى سلك العسكرية »^(٢) ، وكانوا قبل ذلك يعفون من الخدمة العسكرية وعندما إحتج المشايخ وأبنائهم على هذا القرار ، نجده يحذرهم من أنه

(١) عبد الرحمن الرافعى ، عصر إسماعيل ، ج ١ ، ص ١٧ ، ١٨ .

(٢) أحمد عرابى ، مذكرات مخطوطة ، كشف استتار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية

المشهورة بالثورة العرابية ، ج ١ ، ص ٤ .

سيجند ألبانين محل أبناء الشيوخ ، وبعدئذ ستدبر مساكن الألبانيين في القرى على نفقة المقيمين بالقرية .

وقدم سعيد في البداية ما يجب إلى العسكرية ، فأنقص مدة التجنيد وجعلها سنة واحدة ، وسمح للفلاحين بالترقي كضباط ، ولم تكن العناية بالترقية فقط ، وإنما أيضاً بالغذاء والسكن والملبس وحسن المعاملة ، وشجع شعراء عصره على التغنى بالجندية ، فبدأت تظهر لأول مرة في تاريخ مصر الحديث كلمة الوطن والوطنية . وبذلك دخل العنصر المصرى الصميم الذى شمل معظم فلاحى الميدان العسكرى وأصبح منتعماً إليه ، وتكوّن الجناح العسكرى المثقف بعد أن وضعت النواة الأولى لخلق طبقة الضباط المصريين الذى سيتولون قيادة الثورة ، وبعد أن كان الجيش قاصراً على الطبقة الفقيرة دخل فى زمرته طبقات أخرى فارتفع مستواه ، وربط الحب بين سعيد وطبقة الفلاحين العسكرية ، فلم يبخل عليهم بشئ ، فحصلوا على المراكز المرموقة فى الجيش التى كانت قاصرة قبل ذلك على الأتراك والشراسة .

وبناء على أمر سعيد بتجنيد أبناء العمد والمشايخ ، طُلب عرابى للجندية، وهو أحد أبناء شيوخ قرية هرية رزنة بالشرقية ، كان والده قد أقطع فى فترة محمد على ستة أفدنة لاستغلال محصولاتها ، ويبدو أن له بعض المؤهلات حتى أنه كان يعلم أبناء القرية مبادئ القراءة والكتابة والدين بمسجدها بعد العصر والعشاء، وكان منهم ابنه الذى عهد به بعد ذلك إلى صراف الناحية ، فلازمه خمس سنوات ، ثم أمضى أربع سنوات بالأزهر كبقية أبناء قريته ، وعاد إليها لينخرط تحت لواء العسكرية وهو فى الرابعة عشرة من عمره .

وساعده الحظ فى عملية الترقى التى أضفاها سعيد على الفلاحين إذ يقول « دخلت العسكرية نقرأ بسيطاً فى ١٥ ربيع أول سنة ١٢٧١ وترقيت فى درجات العلا بسرعة غريبة وهمة عالية لا تعرف الملل حتى نلت رتبة قائمقام الآلاى فى ٢٤ صفر الخير سنة ١٢٧٧ ، وهى الرتبة التى لم يصل إليها أحد قبلى من العنصر المصرى »(*) .

وقد كان ذلك راجعاً أيضاً إلى ذكائه الطبيعى ونباهته الغريزية ومعرفته القراءة والكتابة والحساب وما خصه الله من تلك المواهب العقلية والطبيعية التى صعدت به إلى أوج التقدم ، لذلك فقد حظى عرابى برضا سعيد « كنت عزيزاً مقرباً من حضرة المرحوم سعيد باشا وكثيراً ما كان يشركنى معه فى ترتيب المناورات الحربية ،

(*) المصدر نفسه ، ص ٤ ، ٧ .

ينيبني عنه فى تلقينها إلى أكابر الضباط بمعرفته وعلى مسمع منه رحمه الله تعالى، ولشدة إعجابه بى أهدانى تاريخ نابليون بونابرت ^(١) . ووصل الأمر إلى أن اتخذ سعيد عرابى أركان حربه ، وراح يرافقه فى رحلاته .

هكذا نرى الأصول الفلاحية تتبلور فى الجيش ليس فقط عرابى ، وإنما جميع رجال الثورة الذين خرجوا من تحت السلاح مع قرارات سعيد ، فعلى الروبى هو ابن أحد مزارعى قرية دفنو بمديرية الفيوم ، وعلى فهمى وعبد العال حلمى هما من أبناء الفلاحين ، وأيضاً طلبة عصمت ابن أحد فلاحى كفر حرزة بمديرية الجيزة .

وبالتدريج أصبح الضباط الفلاحون يشعرون بالقوة داخلهم ، ويؤمنون أن من حقهم المضى فى ذلك الطريق الذى فتحه لهم سعيد للوصول بمصر إلى أعلى درجات الكمال ، ومن هنا بدأ يدب الحقد بينهم وبين الضباط الأتراك والشراكسة الذين كانوا مسيطرين كلية على الجيش قبل سعيد ، فامتلا كل منهما غيرة وحقدًا على الآخر .

وكان لسعيد أمام تلك السياسة التى اتبعها اتجاهاته الخاصة ، فمنذ البداية أراد خلق قوة تقف بجواره ويستند إليها إذا دخل فى صراع مع الدولة العثمانية ، وإذا رغب أن يناوئ العنصر التركى الشركسى فى الجيش الذى كان يكرهه ، ولذلك نراه بكل همة ونشاط يمضى فى تلك السياسة ، ويطبق أقصى العقوبات على الفارين من الجندية ، تلك التى امتدت إلى « عيال وأقارب من يفر هاربًا من العسكرية بضبط أطيانهم ونخيلهم ومزارعهم ، وهدم أماكنهم ، ومبيع ذلك مع سائر موجوداتهم وورود الثمن للميرى ، وكان حصول هذا الأمر باعثًا على الخراب وعدم عمارة الأهالى وتشتيتهم بعد سلب ما كانوا عليه من التوطن وأساسيات المعاش » ^(٢) ، وكشوف المديرية مثبت فيها ما صودر وما بيع من أطيان ومحصولات ونخيل وأشجار وثمرات وعقارات ومواشى وآلات زراعة . كذلك أصدر قراراته القاسية على من يفسدون الأعضاء لعدم التحاقهم فى الجندية .

وكعادة سعيد لم يستمر على وتيرة واحدة ، فهو ضعيف الإدارة متردد فى الرأى ، وقد طبق ذلك على الجيش فكان كل يوم فى تغيير وتبديل وإنشاء ونقض وإبرام وإلغاء ، وساعده على هذا الوضع المالى الذى وصل إليه وديونه التى تراكت عليه ، فخفض عدد الجيش إلى ٦٠٠٠ ثم إلى ٢٥٠٠ وسرح الباقي ، وباع بالمزاد

(١) المصدر نفسه .

(٢) محافظ الأبحاث ، محفلة ١١٧ ، دفتر ١٩٠٢ ، صورة الأمر الكريم رقم ٢٦ ، ٩ شوال ١٢٧٩

(١٨٦٢) .

أكواماً من مهمات الجيش ، وتخلص من مئات الخيول والجمال والهجن ، وألغى المدارس الحربية ومارس أوتقراطيته التي أوصلته إلى أنه منع الضباط المترقيين من تحت السلاح ، « بعدم تمكينهم من نسائهم حتى ولا بالنظر إليهن »(*) .

وجاء إسماعيل ولم يكن نصيراً للضباط الفلاحين ، فلم يترق أحد منهم طيلة سنوات ، فقد ظل عرابي قائماً تسعة عشر سنة ، ولم يكتف بالوقوف أمام ترقى الضباط المصريين ولكن شُنت الحرب ضدهم ، فكان يكفي أن تصلق بأى منهم تهمة ، ولو لم تكن صحيحة ليكون جزاؤه أن تقتزع منه درجته ، أو يقصى عن منصبه ، أو ينفى إلى أقاصى السودان وتصبح حياته عرضة للخطر لأوهن الأسباب .

وأراد الخديو أن يخضعهم لنفوذه بتزويجهم شركسيات من حريم قصره ليسهل التأثير عليهم ، ولكنه لم ينجح فى ذلك ، إذ كان يكره من كل قلبه المصريين ويحب كل الحب المنتمين لجنسه من الأتراك والشراكسة الذين حظوا بحنانه وأمواله ، ومن هنا تأصل الصراع العنيف بين الطرفين ، والذي دخلت فيه الثورة حرباً من أجله قبل حربها على التدخل الأجنبى .

وأصبح الجيش معسكرين ، معسكر القيادة يمثل الأتراك والشركس والألبان والأرناؤوط والأناضوليون والجورجيون منذ أن احتضنهم محد على ، ومعسكر الفلاحين من الجنود إلى صف الضباط إلى الضباط حتى رتبة القائ مقام ، الأول : كانت معيشتة رغداً وملذة وفساداً وثراء وله من الكبرياء والعظمة على الفلاحين ، والثانى متشعباً بالروح الدينية ، متقشفاً وبعيداً عن الترف ، صلب فى التكوين وله أخلاق القرية المصرية .

وتمشياً مع سياسة إسماعيل فى التوسع أولاً ثم فى الاستقلال ثانياً ، كان عليه أن يزيد عدد الجيش ، ويخوض تلك الحروب والمعارك إما لإرضاء للسلطان وذلك للحصول على المزيد من الامتيازات ، أو لإرضاء ضروره ، فوقع عبء ذلك كله على المصريين ، وتعددت الحروب من أجل الآستانة ، بدأت بحرب إخماد ثورة عسير (١٨٦٣ - ١٨٦٥) وحارب فيها المصريون لمدة عامين وحققوا ما ذهبوا من أجله ، وحرب الجبل الأسود (١٨٦٢) وحرب كريت (١٨٦٦ ، ١٨٦٧) ، كما اشتركوا فى حرب الصرب (١٨٧٦) وفيها أظهروا بسالة نادرة فى القتال ، وجاءت الحرب التركية الروسية (١٨٧٧ ، ١٨٧٨) ليواصلوا مجهودهم الحربى . وأما عن الحروب التى خاضوها من أجل رغبة إسماعيل ومصالحته واستجابة لنزواته ، فقد كانت

(*) أحمد عرابى ، مذكرات ، ج ١ ، ص ٣٣ .

حملات السودان ودارفور والتوسع في السودان الشرقي ، وأخيراً حرب الحبشة (١٨٧٥ ، ١٨٧٦) .

من هذا المنطلق ، كان العمل على تكوين الجيش بتلك الأعداد التي اعتمد فيها على الفلاحين الذين كانوا معظمهم يذهبون ولا يعودون ، فإنهم دائماً وأبداً كارهون للجندية يعملون كل ما في وسعهم من أجل التخلص منها .

ودعم الخديو الحقد الذي نشأ بين عنصرى الجيش أصحاب البلاد الأصليين والوافدين عليها من الأتراك والشراكسة الذين مارسوا أساليب الاضطهاد على المصريين ، وتذكر لنا المصادر على سبيل المثال ما حدث بين خسرو وعرابى ، يقول النديم « فاشتعلت في السيد عرابى نار الحمية وغضب لسب الأبناء والجنسية وقال له : إن الفلاح اسم قبيح عندك ولولاه لما رأيت سعدك فإنه سيدك الذى رباك بنعمته ومولاك الذى أعتقك بمنحته ، فهو الحر وأنت الرقيق وهو السيد وأنت العتيق »^(١) .

فكانت النتيجة أن أوقف خسرو تسليم الأراضى المنعم بها على عرابى ، وحاصمه أمام مجلس عسكري من الشراكسة ، ويحلل عرابى ذلك بأن السبب هو رغبة خسرو في ترقية أحد بمباشة الآلاى لكونه من أبناء الشراكسة ، وتم حبس عرابى بعد تلفيق تهمة له مدة واحد وعشرين يوماً ، فاتهم المجلس الذى حاكمه بمروقة عن العدل ولم يقبل الحكم ، فأمر إسماعيل بإبعاده عن الخدمة العسكرية^(٢) ، وقد كان هناك من يطالب بنفيه لكن اكتفى برفته ، ثم رجع بفضل الساعين بعد أن أدخل في خدمة دائرة الأمير إلهامى باشا وتزوج من ابنة مرضعة الأمير وهى أخت زوجة توفيق بالرضاعة ، وعاد للخدمة العسكرية ليبدأ من جديد .

وجاءت حملة الحبشة لتضع حتمية الثورة للعسكريين ، بعد وضحت لهم المفساد التى تعيشها مصر ، فعادوا من تلك الحرب ليبدأوا نشاطاً ملحوظاً كانت نتيجته الثورة التى حمل لواءها العسكريون ، وانضمت إليها باقى القوى الاجتماعية .

تكونت تلك الحملة فى أحلك الفترات للأزمة المالية التى عرّض إسماعيل مصر لها ، للدرجة التى أفقدتها نصيبها فى أسهم قناة السويس لتغطية نفقات الحملة ، والهدف لا شىء سوى إرضاء حاكم يميل للظهور والعناد . وكان القائد العام هو راتب باشا سردار العساكر المصرية ، وتولى عرابى مأمورية مهمات للذخيرة والميرة

(١) عبد الله النديم ، المصدر المذكور ، ص ٣٣ .

(٢) ميخائيل شاروبيم ، الكاشى في تاريخ مصر القديم والحديث ، ج ٤ ، ص ٢٢٨ .

في الحملة ، فيقول « وكان في عهدي عشرة آلاف حيوان من الجمال والخيول والبغال ، وأغلبها أخذ من المصريين قسراً من غير ثمن ، وكذلك العلف من الشعير والذرة والتبن »^(١) . وقادة الحملة جميعهم شركاسة ومنهم عثمان رفقي ، ومارسوا القسوة والجبروت على الضباط المصريين « يؤاخذونهم بالعنف والشدة ويلقونهم في أضيق الحبوس عند أقل حادثة ، فكانوا يشكون الجوع لعدم إعطائهم القوت الكافي ، وتفشت الأمراض في الجيش ، وكانت قنابل المدافع تكس الأجسام من العسكريين ، وقد امتلأ الوادي بالجثث والجرحى وجرى فيه الدم جريان الماء في خوره ، كما وقع في الأسر كثيراً فقتلوا منهم وخصوا وأذاقوهم مر العذاب »^(٢) . وخسرت مصر الكثير بآبادة هؤلاء وهم من خيرة شبابها .

أما عن العقدة الشركسية فقد ازدادت تعقيداً في تلك الحروب ، حيث فاض الكيل بالعسكريين من تصرفات السادة الشركاسة ، كما أن هذه الحرب أثبتت جهلهم بأصول وفنون القتال ، فكانوا من أسباب الهزيمة ، وبالرغم من ذلك فلم يعاقبوا بل كرموا ، ومن الأوراق التي ضبطت بمنزل عرابي عقب الثورة ما يثبت هذا الكرم « كانت حرباً مشؤومة عادت بالخيبة والعار لسوء تدبير الممالك وعدم معرفتهم بمكايد الحرب ، ومع ذلك كافأهم الخديو المطرود بوضع نياشين الافتخار بيده الخائنة على صدورهم الفارغة »^(٣) .

وكانت نتيجة هذا كله المزيد من الكبت والانهيال والسخط الذي انتاب العسكريين وجمعهم في إطار تعاون مشترك ، بالإضافة إلى الوضع العام الذي وصلت إليه مصر ، والتدهور المالي الذي جعل دفع المرتبات أمراً عسيراً ، وتلك الأعباء التي أثقلتهم مادياً ومعنوياً ، فقرروا اتخاذ الخطوات العملية للوقوف أمام هذا الظلم ، وخاصة تلك التفرقة والقسوة التي كانت تتم على أيدي هؤلاء الشركاسة .

وأراد العسكريون أن يكون لهم التعاون الذي يمكنهم من توحيد أفكارهم ، ووضع برنامج لعملهم للوقوف أمام طغيان حاكمهم الذي لا يصلح لحكم مصر بعد ذلك الوضع الذي أوصل مصر إليه ، فقد علمهم نظام العسكرية وحمل السلاح الذي كانوا يشهرونه في الحرب أمام الأعداء خارجياً ، أنه ممكن أن يشهروه أمام الأعداء داخلياً ، ضد الظلم والطغيان ، وأن ينالوا حقوقهم ، وأيضاً يعطوا مصر حقوقها ،

(١) أحمد عرابي ، مذكرات ، ج ١ ، ص ٢١ .

(٢) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٣) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٢ / د / ٥ .

هناك قوى فاعلة، وثبتت فيهم، وبخصوصاً أن مصدر كلها كانت تنظر إليهم برؤية إمكانية أن يخلصوها مما هي فيه من فساد ودمار.

نتج عن ذلك أن نشأت تلك الجمعية السرية التي تعد كت تنظيم لعمل موحد جمعهم، أسسها على الروبي عام ١٨٧٦، وما لبثت أن ضمت جميع الضباط المصريين وعلى رأسهم عرابي فكان له نشاطه الهجومي الملحوظ، حيث أثقل اللغات على إسماعيل وجنسه، وأصبح عضواً بارزاً في تلك الجمعية يعاونه ويشاركه بحرارة على فهمي وعبد العال حلي، ولم تكن قاصرة على العسكريين المتريقين من تحت السلاح، ولكنها ضمت أيضاً خريجي الدراسة الحربية^(١).

وتدريجياً أصبح عرابي رئيساً لها، وتولى عملية الخطابة فيها التي اتسمت بالروح الحماسية الوطنية وأصبح لها أهمية كبيرة في طرح الأفكار وجذب السامعين، ومن خلال رئاسته أراد أن يضم عناصر أخرى غير العسكريين لهذا التنظيم، فكان يتوجه إلى الأزهر ويلقي على مسامع الطلبة والأساتذة «الخطب الدينية المؤثرة مما يروج منهم المواطن ويحمله بينهم مسيطراً محبوباً»^(٢)، كانت تلك الخطب صورة حشوية تشريح الأوضاع التي ترزخ محسرة تحتها، فتجده يطرق حانة الموظفين السيئة، ويهاجم الأديب وتقدمهم في مصالح الحكمة، وانتفاعهم من جانبها بالنافع الجملة والمرتبات الجزيلة التي يتقاضونها.

وبذلك لم تعد الجمعية خاصة بالعسكريين بل زاد روادها من بقية الفئات وخاصة المثقفين، وكانت تجتمع مرة أسبوعياً وترسل بيان اجتماعاتها ليعقوب ابن صديق في باريس، ولم لا وأثره كان واضحاً في ثورية هؤلاء الضباط الشبان، فقد مروا من بين أصابعه وقت أن كان بالقاهرة وقبل نفيه، فإليه يرجع الفضل أيضاً في جعل العسكريين يتشبهون ويعتقون مبادئ الحرية من خلال صبه للأفكار في عقولهم بحذر شديد في وقت كان الذكلم فيه بالسياسة يشكل أمراً خطيراً، وكثيراً ما نطقت صغيفته الثورية باسمهم وأظهرت حالتهم وشرحت أوضاعهم وما يقاسون منه، فقد كانت تدخل محسرة وتتسرب بين صفوف الجيش رغم القيود التي فرضت عليها.

Dacey, op. cit., p. 254.

(١)

(٢) إليانور زاخورة، امرأة العصر في تاريخ وزمزم أكابر الزمزم بمصر، ص. ١٠٣، ١٠٤.

وبعد أن علمت الجمعية بأن هناك جمعية أخرى مماثلة لها في الأهداف ، رأت أن تتوحد الجهود بينها وبين جمعية حلوان للوصول إلى إصلاح مصر ، ومن هنا خرج الحزب الوطنى إلى حيز الوجود كتنظيم سياسى كان له أكبر الأثر فى تاريخ الحركة الوطنية ، وازداد النشاط لجميع القوى وأصبح للعسكريين مكان أيضاً فى محفل الأفغانى .

علم إسماعيل عن طريق على مبارك الذى كان فى بداية الأمر فى نظر العسكريين فلاحاً من طينتهم ، وصاحب ثقافة عالية ، ويمكن أن يقدم لهم المساعدة والمساندة ، لكن جاء موقفه غير ما كان متوقعاً منه ، إذ أحاط الخديو بتلك الاتجاهات الوطنية السائدة فى جيشه والتى تريد التخلص من حكمه ، فما كان من إسماعيل إلا أن استدعى ثلاثة من الضباط أصحاب النشاطات ، وهم عرابى وعلى الروبى وطلبة عصمت « ووبخهم توبيخاً لطيفاً مقبولاً ، فأظهروا ضياع حقوقهم الوطنية بعدم ترقية لهم إلى المناصب العليا ، فأنعم على سبعين ضابطاً وطنياً يرتبه قائمقام وفى مقدمتهم عرابى »^(١) .

فعل الخديو ذلك من ناحية ومضى فى سياسة الاضطهاد من ناحية أخرى لبقية العسكريين الذين قاسوا من السخرة فى حفر الترع ومد السكك الحديدية ، وكان وقت الفيضان بالنسبة لهم هو الحرب التى يخرجون إليها لعمل الاحتياطات اللازمة لوقاية المديريات من الغرق ، أو لبناء القناطر كقنطرة فم الإسماعيلية والقنطرة البولاكية وقنطرة فم رياح ترعة الإسماعيلية ، وتشهيل قطع الأحجار بجهات العباسية والبساتين وطرة والمعصرة وبناء الكبارى ، ولم يقتصر الأمر على الجنود فقط بل تعداه إلى ضباط الجهادية الذين وكل إليهم حفظ هذه الجسور .

ومع التغافل الأجنبى ، بدأ التدخل فى شئون الجيش ، فقد رأت لجنة التحقيق ضرورة تخفيض عدده إلى ٣٦٢٤٧ ضابط صف وجندياً ، ٩٣٣ ضابطاً ، وأن يستمر تدريجياً فى إنقاص هذا العدد حتى لا يكون فى مصر سوى نصفه ، وترتب على ذلك إلغاء مدارس المدفعية والمشاة والخيالة وأركان الحرب والطب البيطرى^(٢) .

(١) المرجع نفسه ، ص ١٠٤ .

(٢) محافظ الأبحاث ، محفظة رقم ٤٢ ، ممية تركى ، ص ١٥ ، ٢٠ .

وبناء على ترتيبات المالىين الأجانب وحتمية دفع الكوبونات بعد أن رهنّت مصر حملة السندات ساءت حالة العسكريين ، فنقصت ميزانية الجيش ، فإذا نظرنا لعام ١٨٧٧ الذى بلغ إيراده ٩,٤٣٠,٠٠٠ جك دفع منه ٧,٤٧٣,٩٠٩ فوائد لحملة السندات ، وحوالى مليون من الجنيهات لبريطانيا فائدة على نصيبها من أسهم قناة السويس ، بالإضافة إلى سداد الجزية ، لم يتبق إلا مبلغ محدود لكل المصروفات الخاصة بالحكومة بما فى ذلك الجيش وكبار الموظفين الأجانب ، ونفس القول ينطبق على عام ١٨٧٨^(١) . وبناء على ذلك حرم الجيش من مرتباته وضاق الحال بأفراده ، فساءت أحوالهم ، وانعكس الأمر على حياتهم حتى أنهم لم يجدوا ضروريات المعيشة .

وتدهورت الحياة بعد أن امتنعت الحكومة عن الدفع ، بينما فرضت على العسكريين الدفع ، وكانوا قد تدربوا على الخدمة العسكرية دون غيرها . فلم يمتلكوا أى دراية بأية وسيلة أخرى من وسائل العيش ، فأصبحوا هم وعائلاتهم فى حالة من الفقر يرثى لها لدرجة أن بعض الضباط اضطروا إلى تأجير أراضى كفلاحين ، بل أن بعضهم قد اقتات بالشعير « ذلك الغذاء الذى يقدم للخيول »^(٢) . وحتى من كان منهم يعرف اللغة الفرنسية والتمس التعيين فى المصالح الحكومية لم ينظر إليه حيث كان المسيطر على تلك المصالح الموظفون الأجانب .

وبدأت الخطوات العملية للتعبير عما يجيش بهم من سوء الحالة . وفى ٣٠ يناير ١٨٧٩ ، وفى رشيد حيث عرابى قومنداناً لآلاتها ، اجتمع العسكريون وتوجهوا متقلدي سيوفهم إلى قائدهم عرابى عارضين حالتهم مطالبين رسمياً « بالعدل والمساواة وصرف المستحقات لأربابها فى مواعييدها المقررة خصوصاً أرزاق الجند الذين لا يتعاطون شيئاً من أنواع الكسب إلا أرزاقهم المقررة . وأنه ليس من العدل أن يستولى الأورباويون مقدماً مع ما فيهم من الثروة والرفاهية زواتبهم . ونحن معشر العسكرية نتكبد المشاق ليلاً ونهاراً فى سبيل حفظ الوطن يتأخر صرف استحقاقاتنا مدة ثمانية عشر شهراً فضلاً عن قطع مرتباتنا التى لا تستقيم معيشة الإنسان إلا بها ، فأجبرنا على تحمل الديون بالفوائد الفاحشة ، وأخيراً لما انتهت

(١) هارمان ، المرجع المذكور ، ص ٢٢٧ .

Bréhier L. l'Egypt 1798 - 1900, p. 199 .

(٢)

مواعيد الاستقراض وما أمكن لنا السداد انعدمت معاملتنا مع التجار لعدم الأمان ، فأكبرها هنا على بيع أثاث بيوتنا بأقل قيمة حتى نفذ جميعها وصار أولادنا يتضورون جوعاً على مرأى منا ، وقد عيل صبرنا وصبرنا محقرين بين الجميع « وأخيراً طالبوا « صرف مستحققاتنا وكامل مرتباتنا اتباعاً للعدل والمساواة »(*) ، وعلى الفور بلغ قدمندان آليات رشيد المطالب لناظر الجهادية .

وجاءت الخطوة التالية لتكون ترجمة صادقة لثورة حقيقية على هذه الأوضاع القائمة التي كالت بمجهودات النظارة الأوربية سواء عن طريق سيطرة الأجانب على السياسة العليا لمصر أو من ناحية الإجراءات التي اتخذتها بتسريح تلك الأعداد التي وصلت إلى ٢٥٠٠ ضابط ، وتسليم أسلحتهم وذلك بعد أن أمضوا عامين بدون مرتبات ، وعُِّل ذلك بسبب إجراءات الحكومة الاقتصادية من أجل ديون مصر .

لكن في واقع الأمر فقد كان أمر تحديد الجيش بل وتصفيته مهماً بالنسبة لبريطانيا وفرنسا حتى لا تزداد قوته وسلطته ، فبالعدد الصغير يمكن حصر تلك القوة والقضاء على أية سلطة ، وشمل قرار التخفيض جميع وحدات الجيش ، لكن لم يكن هناك ما يمس أى شركسى في إطار ما تم . وشنت الصحافة حملة واسعة على ذلك ، فهي تهاجم تصرف النظارة الأوربية ، وتعرض تفرقة المعاملة بين المصريين والأجانب ، وتستلوب حماسة أعضاء المجلس للذب على حقوق مصر .

وبلغ التآزم أشده وكانت النتيجة ذلك الائتلاف والالتحام بين المثقفين بجناحيهما المدني والعسكري وكبار ملاك الأراضي من أجل العمل المشترك لوضع حد لما وصلت إليه مصر .

كان الحل والربط بيد كل من ولسون ناظر المالية ودى بلنيير ناظر الأشغال العمومية ، يبعدان من يريدان ويدخلان الأحياء والأقارب والأصحاب - وهم أجانب بطبيعة الحال - في خدمات الحكومة ، واشتكى العسكريون واعترضوا على ما وصلت إليه حالتهم ، لكن ما من شكوى قد أتت بأكلها ، فقرروا العمل .

وفي يوم ١٨ فبراير ١٨٧٩ توجه الضباط إلى مجلس شورى النواب الذي اعتبروه الهيئة النيابية ومن أعضائه ما هم أعضاء في الحزب الوطني وفي حفل

(*) التجارة ، عدد ١٧٩ في أول فبراير ١٨٧٩ .

الأفغانى ، واختاروا منهم خمسة ، لطيف سليم وكان مديراً لمدرسة الحربية ومشهوراً بخطبة الحماسية التى تحمل بين طياتها التعاون والشجاعة والمطالبة بالحقوق ، وسعيد نصر مدرس الحربية ، وثلاثة آخرين ، وذلك للتكلم باسمهم والجهر بشكواهم لدى المجلس والتى كانت تتضمن الرغبة فى صرف استحقاقاتهم المتأخرة ، وتشرح ما يقاسونه من أعباء الدين مع الرفق الذى تم والفقر الذى وصلوا إليه ، وبتلك التضحيات التى قدموها سواء فى كريت أو الحبشة ، وأن الكثيرين منهم استشهدوا وتيمت أولادهم ، وأن غيرهم من الأجانب فى رغد من العيش فى حين أن بالجهادية من هم أكفأ منهم لتولى الوظائف ، إذا ما تم الاستغناء العسكرى ، وأن الحكومة من الضرورى أن تطبق عليهم قانون معاش الجهادية ، ووقف الضباط بباب مجلس شورى النواب ودخل الخمسة المختارون بعد أن استأذنوا ، وتكلم لطيف سليم وبين لأعضاء المجلس بأنهم نواب الأمة ووكلاؤها ، وأن عليهم أن ينظروا فى شئون الجهادية ، وهم أولى الناس بالنظر بعد أن شرح الحالة التى وصلوا إليها .

وقد أراد الضباط عقد المجلس فى الحال للنظر فى أمرهم ولكن اللائحة كانت لا تجيز ذلك ، فاستصحبوا معهم بعض الأعضاء الذين بلغ عددهم اثنى عشر عضواً لعرض الأمر على رئيس النظار الذى التقوا به فى الطريق « فأرادوا أن يستوقفوه لسمعهم فأبى ولم يلتفت إليهم ، فهاجوا وماجوا وتعلقوا بالعربة التى كانت تقله ، فأغلظ لهم فى القول ومددهم ، وضربهم سائقة بسوطه فأصابه بعضهم بقرباب سيف فى جبينه فشجّه ، وأراد البعض أن يقصد نوبار بمكروه » وصاحوا فى وجهه « لا يحل لك يا ظالم أن تعيش رغداً متمتعاً ونحن نموت جوعاً » ، كما جهرُوا بالقول بأن نوبار وولسُون يعملان سويًا من أجل تسليم مصر لبريطانيا ، ولم يكن الهجوم منصّباً على نوبار وإنما أيضاً على ولسُون الذى كان بعريته وراء نوبار ، وكان عدد الضباط المساحين ٤٠٠ منهم طلبة بالمدارس الحربية ومعهم ألفان من الجنود ، ودخلوا مقر نظارة المالية وحاصروها ومنع الخارج من الداخل من الدخول وسجنوا النظار ، وذلك حتى يقطع الضباط فيهم أمراً ثم قامت فى الحال مظاهرات شعبية (*) .

(*) F.O., 78 - 2998, political, No. 60, February 19, 1879, مصر، العددان ٣٤، ٣٥ فى ٢٠، ٢٨ فبراير ١٨٧٩، الإسكندرية عدد ٣٤ فى ٢٧ فبراير ١٨٧٩، الوطن، عدد ٦٥ فى ٨ مارس ١٨٧٩ .

وعلى الفور حضر إسماعيل إلى مقر النظارة ومعه قناصل الدول والحراس وبطانته ورجال ديوانه وعبد القادر باشا محافظ القاهرة ، وحاول تهدئة الموقف فلم ينصرفوا فتقدم إليهم عدد من الحراس ليفرقوهم فمانعوا ، « ثم اجتهد الخديو بعد ساعتين بالذهاب فقاوموه حتى أمر العساكر بأن يطلقوا عدة طلقات نارية ، فكثر عند ذلك الضجيج وعلا الصياح والتحم الجمع واشتدت الضوضاء ، حتى خيف من انقلاب الأمر إلى ثورة صحيحة وخشى الأوربيون على أنفسهم من ذلك الجمع الغفير »^(١) ، وقد حاول بعض المتظاهرين أن يقضى في هذه اللحظة على إسماعيل ويحقق رغبة ثورة الجياع ، لكن الحظ لم يساعده فتقول صحيفة الإسكندرية « الذين خسروا عقولهم أن يضرب الحضرة الخديوية فلم يصبه غرضه ، وذلك أن سعادة أفندم عبد القادر باشا تعرض لذلك الباغي »^(٢) ، فكانت النتيجة أن أصيب في يده وتعرض لبندقية أحد الجنود ، وتصف صحيفة مصر هذا العمل بأنه جراءة من ذلك الضابط بل وشجاعة أنه اخترق التحصينات التي كان محاطاً بها الخديو ، ولا ريب في أن حياة إسماعيل في هذا الوقت كانت في خطر عظيم ، إذ سيطرت الرغبة في الانتقام منه هو الآخر ، وانتهى الأمر بإصابة عدد من الأشخاص من كلا الجانبين ، جانب الضباط الثوريين وجانب حرس الخديوى ، أعقب ذلك أن أمر عبد القادر باشا بإحضار مجموعة من الجنود السودانيين الكائنة بقصر النيل لحماية سراى عابدين ، وبعد حضورها وزع عليها خرطوش ، فلم تقبله قائلة « لا يليق لنا مقاتلة إخواننا »^(٣) . وكان هذا دليلاً على أن الحركة كانت موجهة ضد إسماعيل وليس ضد النظارة الأوربية فقط .

وتم القبض على كثير من الضباط الموجودين بالحركة ، وأرسلت الضبطية بعض معاونيها مع ثلاثين من الجند لإحضار لطيف سليم ومعه اثنان من مشاهير الضباط وسجنوا ، وبلغ معاونى الأثمان بالتنبيه على جميع الضباط الكائنين بأثمانهم أن ييكرروا فى مراكزهم بالعباسية ، وقبض على الكثيرين من المارين فى تلك الليلة ، وقد تولى ناظر الداخلية وناظر الخارجية مساءلة كل من المسجونين على

(١) مصر ، عدد ٢٤ فى ٢٠ فبراير ١٨٧٩ .

(٢) الإسكندرية ، عدد ٢٤ فى ٢٠ فبراير ١٨٧٩ .

(٣) المصدر نفسه .

حدة ، ونقلوا من سجن الضبطية إلى سجن الطوبخانة ، وكان من بين المستدعين إلى الضابطية عبد السلام المويلحي هو ومن شاركه من النواب في تأييد الضباط^(١) .

وكان من بين المتهمين عرابي على اعتبار أن له يداً في تدبير ذلك ، وبالرغم من أنه كان في رشيد فإن نشاطه واضح في بث بذور الثورة على الأوضاع ، وجمع بعض الضباط ومعهم عرابي ومثلوا أمام مأمور الضبطية لكي يلحقوا بمن سبقوهم وينالوا العقاب ، ومن حظ الثوار أن يكون المأمور هو محمود سامي البارودي ، فيقول عرابي عن تلك اللحظة « وأنست فيه تأفقاً من الظلم والاستعباد وميلاً إلى العدل والدستور »^(٢) ، ومن هنا نشأت تلك العلاقة التي بدأت سرية وانتهت علنية .

وانعقد مجلس عسكري فوق العادة برئاسة إستون ، وحكم على عرابي وعلى الروبي ومحمد النادى بالتوبيخ وفصل كل منهم عن آلايه ، فأبعد الروبي إلى المنصورة ، وعرابي والنادى إلى الإسكندرية ، وفيها مضى عرابي في طريقه حيث كانت هناك الأرض خصبة للثورة .

وينفى عرابي عن نفسه الاشتراك فيما حدث ويعود ويقول أمام المجلس العسكري أنه لو فرض وكان موجوداً فيها ضباط آلايه فهو غير ملوم لأن « نساء الضباط وأولادهم بلا مأوى في العباسية ولا دراهم بأيديهم ينفقون منها على عائلاتهم ، ولا خبز ولا تعيين يصرف لهم » ويمضى ليذكر « إنه بعد أن انصرف المتجهرون ورجعوا إلى محلاتهم وكلهم متأفقون ، هاج الضباط إلى جميع الآليات وتشاوروا فيما بينهم ، وصرحوا بوجوب عزل الخديو واعتلاء ولى عهده توفيق باشا فوق مسند الخديوية المصرية ، فلما علم الخديو بذلك ، ذهب إلى مركز كل آلاي على حدة وطيب خواطر الضباط ووعدهم بصرف استحقاقاتهم المتأخرة وعزل النظارة المذكورة »^(٣) . فواضح أنه كان يؤيد كل خطوة ، ويذكر بلنت أن عرابي اشترك في مشروع لم ينجح كان مؤداه خلع الخديو ، والراجح أن هذا الخلع كاد يتم لو لم تتدخل أوروبا^(٤) ، وهذا هو هدف جمعية الضباط التي كان عرابي رئيساً لها ، إذن فلا يستبعد إطلاقاً أن عرابي من المحركين الأساسيين لهذه الحركة .

(١) مصر ، عدد ٢٥ في ٢٨ فبراير ١٨٧٩ .

(٢) أحمد عرابي ، مذكرات ، ج ١ ، ص ٣١ .

(٣) المصدر نفسه .

Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt, p. 133.

(٤)

اتفق الكثيرون من كتاب معاصرين لتلك الفترة ومحدثين من أن إسماعيل كان وراء حركة العسكريين هذه لكي يتخلص من السيطرة لتلك النظارة الأوربية التي أفقدته كل السلطة ، حيث أن لطيف سليم صهر شاهين باشا أحد موظفي البلاط ومن أحب المقربين لدى إسماعيل^(١) .

لكن معروف أن لطيف سليم قد أودع في السجن ، وأخرج منه بتدخل نائب القنصل الإنجليزي بناء على طلب جماعة الماسون التي كان يديرها الأفغانى وكان شغواً فيها وليس بناء على أمر الخديو ، كما أن إسماعيل قد تعرض للهجوم فى تلك الحركة .

ويكتب القنصل الإنجليزي لحكومته ليبين بأن هذه الحركة ليست فقط للضباط بل هى نتيجة لاستياء عام وعدم رضا ساد بين الأهالى الذين بدأوا يرفضون دفع الضرائب ، وازدادت شكواهم لتعيين وزيادة عدد الأوربيين فى الوظائف واستحواذهم على أعلى الدرجات والمرتبات ، وقد شاركهم العسكريون فى ذلك ، وأكد فيفيان بأن ما فعله الضباط هو أيضاً ضد الخديو الذى اعتبروه سبباً للحالة التى وصلت إليها مصر ، وأنهم أرادوا عزله^(٢) .

كذلك نرى أن لاسلز بعد شهرين يكتب للندن ، ليوضح لها بأن هناك شعوراً عدائياً من الضباط فى الجيش ضد الخديو ، ووصل هذا الشعور إلى حرسه الخاص ، وإنهم يمثلون ذلك الشعب المعذب ، وينظرون إليه على أنه المسئول عن التدخل الأوربى ، وعن تلك المصائب التى أحلت بالبلد^(٣) .

إذن فمن المستبعد أن يكون إسماعيل وراء الحركة ، ومن المحتمل أنه اتهم بذلك لدى الدوائر الأوربية بواسطة أعضاء من النظارة الأوربية نفسها ، اكن مهما كان الأمر ، فما حدث قد اتفق مع هوى إسماعيل فى نقطة واحدة فقط وهى أنه يمكنه الوصول على أكتاف تلك الحركة للتخلص مما كان يشل يده فى مصر ، فدعا القناصل وأخبرهم أن وضعه الحالى كمسئول دون سلطة يجب أن يتغير . وأن فريقاً

(١) محمود فهمى ، البحر الزاخر ، تاريخ "عالم وأخبار الأوائل والأواخر" ، ج ١ ، ص ٣٨ .

(٢) F.O. 78-2998, political No. 65, February 22, 1879, political No. 273, May 10, 1879 .

(٣) Cromer , op. cit., Vol. 11, pp. 133 , 134 .

ملوم لما حدث ، وطالب بإعادة السلطة إليه ، وتألفت النظارة الأوربية الثانية وفرضت الشروط القاسية على الخديو ، وأعطت حق الاعتراض للناظرين الأوربيين . أما بالنسبة للعسكريين ، فإن هذه الحركة قد هزت وبغف تلك الطاعة التي ورثها المصريون ، وأيقنوا للمرة الأولى أنهم أقوياء بل وأصبحوا سادة الموقف ، وكانت البشيرة النذيرة للثورة العربية .

فقد كانت أول حركة بعث من نوعها في حياة الجيش في مصر الحديثة ، وأول تأزر بين العسكريين والوطنيين المدنيين ، وأثبتت أن مصر لم تعد صامتة وإنما يعمها تيار وطني جارف ، وأطلقت العنان فقد حدث أن هدد الضباط الذين لم يشتركوا في الحركة الوطنية عثمان رفقي ، وذلك لإطلاق سراح إخوانهم الذين سجنوا بسببها « وإلا فإننا نقوم ، فقد شاهدنا المعارك وسفكنا الدماء ، وصادفنا الكل والرصاص وعائنا الموت ، فلا ريب أننا نجعل لتراب وطننا من كؤوس دماءنا إن لم نطلقوا لنا إخواننا »^(١) .

وأعلن علماء الدين تأييدهم للحركة وأفتوا بشرعيتها « إنهم لم يتعدوا الحقوق بما فعلوا ، وإن تخفيض العسكر وقفل المكاتب الحربية داعيان إلى الإخلال بالجندية » ، وكان الأعيان من المؤيدين لدرجة أن أحدهم « قدم من أطيانة ألف فدان ليعين ناتجها لخدمة العسكر »^(٢) .

ومضت الشكاوى تأتي من كل مكان لتشرح الظروف القاسية للعسكريين ، حتى من العريش نرى تأزمهم من الحالة « عساكر جهادية هجانة وطوبجية العريش يتظلمون فيها من قلة قيمة تعييناتهم وماهياتهم في هذه الجهة البعيدة والغالية في أثمانها والصعبة في ظروفها من جذب شديد وعدم نزول المطر »^(٣) ، إذن فكل أرض مصر ومن عليها تآثر وغير راض .

وخضع ضباط البحرية لنفس الظروف التي تعرض لها ضباط الجيش ، ولم تفرج الحالة بعد استقالة النظارة واستمر تأخير الرواتب ، ففي الإسكندرية توجه

(١) مصر ، عدد ٣٥ في ٢٨ فبراير ١٨٧٩ .

(٢) صدى الأهرام ، عدد ٥٩١ في ٢٥ مارس ١٨٧٩ .

(٣) محافظ الداخلية ، محفظة ٥٤ ، من غاية جمادى الأولى إلى ٢٩ شوال ١٢٩٦ (١٨٧٩) .

ثلاثون ضابطاً من البحرية نيابة عن زملائهم ، وبعثوا ببرقية إلى النظارة يطلبون رواتبهم المستحقة ، ويصرحون بأنهم مستعدون لترك وظائفهم إذا لم يرد الجواب إيجابياً^(١) . وبما أن العسكريين البحريين كان معظمهم بالإسكندرية التي كان يسيطر عليها العنصر الأجنبى من أصحاب البنوك، فحملوا للأجانب كل البغض والكراهية . ويأتى دور ضباط البوليس - المستحفظين - ليطالبوا بحقوقهم ، « فقد بعث ضباط محافظة الإسكندرية إلى الجهادية ببرقية يطلبون رفع رواتبهم المستحقة عاجلاً »^(٢) .

واستمر العسكريون فى كفاحهم ، بعد أن خلقوا حالة من الرعب للحكومة « فتجمعوا فى العباسية وأرسلوا برقية لناظر الجهادية يطلبون صرف متأخر استحقاقاتهم ومراعاة حقوقهم ، فصدرت لهم أوامر إقامة فى وظائفهم ، وأرسلت إليهم رواتبهم من أكل وخلافة لأنه خشى من حصول حركة كالمسابقة ، وأشيع جملة إشاعات ، فقيل أن الضباط تجمعوا مع العرب وقصدوا حصر المالية ، فاستولى الجزع على قلوب البعض »^(٣) . كذلك أرسلوا إلى الحكومة بتلك الاقتراحات التي تمكنهم من الالتحاق بالوظائف الحكومية بمرتباتهم الأصلية ، وأن يفصل الأجانب ويعوضوا بالوطنيين ، وخاصة أولئك الذين يعملون فى العسكرية كأطباء وصيادلة وأصبحوا بدون عمل^(٤) .

وجاء توفيق إلى الحكم ، والأمل فيه كبير أنه سيصلح من الأمور وكان البارودى أول من واجه توفيق بجرأة متزعماً التيار الوطنى الموجود ، مطالباً إياه بسياسة الحزم والإنصاف والعدل حيث جعل تهنئته له بولاية العرش ضرورة إقامة الحكم على أساس الشورى وتقوية الجيش فيقول :

أمران ما اجتماعاً لقائد أمة إلا جنى بهما ثمار السؤدد
جمع يكون الأمر فيما بينهم شورى وجند للعدو بمرصده

(١) صدى الأهرام ، العدد نفسه .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ٨٠٤ فى ٣٠ مارس ١٨٧٩ .

(٣) الوطن ، عدد ٧١ فى ٢٢ مارس ١٨٧٩ .

(٤) الوقائع المصرية ، عدد ٨٢١ فى ٢٧ يونيو ١٨٧٩ .

ولكن توفيقاً مع نظاره ومراقبيه أساءوا إلى قوى مصر جميعها ، وبالنسبة للعسكريين ، فقد أنزل الجيش إلى أقل مما حدده الفرمان ، واستتبع هذا النقص إحالة كثير من الضباط إلى الاستيداع ، واستمرار خضوعهم للضيق المالى مما كان له أسوأ الأثر .

وكان عدد المُسْرَحِينَ حوالى عشرة آلاف ، واستمرت الشكوى ، فرفع الضباط عريضة إلى الخديو فى يوليو ١٨٧٩ ، ولكنها هذه المرة تطلب إسقاط ناظر الجهادية واستبداله بغيره ، وذلك بعد أن خفض الجيش وأمر ببيع كمية وافرة من المهمات الحربية^(١) . هذا عن الأسباب العامة أما عن الأسباب الخاصة فتتلخص فى عدم صرف المعينات اليومية نقوداً ، حيث إن ما يعطى لهم من الأقوات ناقصاً عن المقدار المعين وفاسداً لا يصلح للطعام ، وعدم النظر فى أمور المستودعين الذين قطعت عنهم المعينات فسأت حالتهم وضاعت أبواب رزقهم . وسقطت النظارة ، ووعدوا بالإصلاح فى الوقت الذى تدهورت فيه حياتهم وازدادت عليهم الأعباء ، وخاصة تلك الضرائب التى قاسى منها شعب مصر عامة ، فبسبب ضريبة الدخولية كان مفتشها لا يتورع عن ضرب الرجل السكرى لحملة « مقطفين من الحمص أتى بها من السيد البدوى إلى دمنهور »^(٢) .

وبالنظر إلى ميزانية الجيش لعام ١٨٨٠ نرى أنها أنقصت من مليون جنيه إلى ٤٣٠,٠٠٠ جنيه بعد أن اعتبر المراقبان أن هذا المبلغ يكفى ، فانهارت حالة العسكريين حتى أن يعقوب بن صنوع يصور فى صحيفته جهادى ومعه ابنه الطفل يمد يده « من عدم دفع الماهيات صبح الجهادى المسكين بيقول إحسان يا مسلمين ، حق رغيف عيش يا أسيادى أعيش به عيال الجهادى اللى شاف الهلاك فى بلاد الحبش والأتراك »^(٣) .

وبتقلد عثمان رفقى أمر العسكريين طفت سطوة الشراكسة ، وقد اقترنت شخصية رفقى برياض الذى اقترن هو الآخر بلجنة التصفية ، تلك التى وقفت

(١) الوطن ، عدد ٨٩ فى ٢٦ يوليو ١٨٧٩ .

(٢) التجارة ، عدد ٥٥ فى ٢ أغسطس ١٨٧٩ .

(٣) أبو نظارة رزقا ، عدد ٢٧ فى ١١ نوفمبر ١٨٧٩ .

موقفاً عدائياً من أهل مصر باتحادها مع رياض ونظارته ، وكان لما قامت به إزاء المعارضين مثل حسن موسى العقاد أثر عميق ليحمل تلك الكراهية لها ، حيث ربطت العلاقة بين المعارضين والعسكريين ، خاصة عرابي والعقاد .

ومضت الحركات التهديدية من العسكريين لمن لا يرغبون فيه إذا كان على غير إرادتهم أو أساء إليهم ، فوقعوا على مذكرة وقدموها للداخلية بالطعن في باشكاتب الجهادية « عياد بك » وكتبوا أنه إذا لم يتم مرغوبهم بعزله من وظيفته تعرضوا لسفك دمه ، وكان هذا الباشكاتب شركسى بطبيعة الحال ، وتكونت لجنة لتحقيق ذلك وضايقتها « التجارؤ على النظارة السنية بما يهيج الأفكار ويثير الاضطراب »^(١) . ووضح أن ما قدم لم يكن تهديداً فقط بإهدار دم هذا الشركسى ، أيضاً فيه هجوم على النظارة .

ويمضى العسكريون في اتجاه تقديم العرائض التي تعتبر في حد ذاتها تعبيراً عن السخط وعدم الرضا بالأمر الواقع ، ولم تكن هذه المرة تهديداً للمطالبة بالإصلاح ، ففي ٢٠ مايو ٨٠ يتقدمون بمذكرة لناظرهم الشركسى تضم مطالب عادلة ، وكان عرابي أحد المقررين عايتها ، وهى لا تختلف عما سبقها في الإحتجاج على حبس المرتبات وتسخير الجنود والغبن والمحسوبية والأخيران كانا يشتمل عليهما نظام الترقية ، وقد اتضح أن هناك علاقة أيضاً بين العسكريين وبين قنصل فرنسا « دى رنج » إذ وجدوا منه التأييد والتعاضيد إلى الحد أنه عند تشكيل لجنة لتحقيق في تلك المطالب نشأ بينه وبين رياض خلاف بشأن ذلك^(٢) .

وكان رفقى قاسياً ويريد أن يقضى على أى قوة أو سلطة للعسكريين ويذيقهم الذل ، ولم يكن هناك أقصى من تسليم السلاح للعمل بالسخرة في حفر الرياح التوفيقى ، وهنا رفض عرابي وعارض العسكريون واحتجوا ، وكانت هذه أول معارضة صريحة لتنفيذ أوامر رفقى .

وأخذت اجتماعات القوى المعارضة للنظام القائم تتوالى ، وكان للعسكريين دورهم الواضح أمام تصرفات رياض ورفقى ، فتوفيق كان مشلول الحركة والأمر كله

(١) الكوكب المصرى ، عدد ٤٩ في ١٦ أبريل ١٨٨٠ .

Sabry , op. cit., p. 186 .

(٢)

لرئيس النظار والمراقبين حيث راحوا يجهضون كل حركة مناوئة بالسجن والنفي ، كما أقاموا مذبحاً للصحافة ، وكان رفقى أغلظ قلباً منهم على من تحت يده من العسكريين ، لذا كثرت اجتماعاتهم ، وتم بعضها في دار « محمد أفندى فنى » رئيس المترجمين بديوان المالية ، وفيها يتشاورون في أمرهم ، ويبحثون أحوالهم التي وصلت إلى أقصى درجات الشدة والفاقة ، وتطرقت موضوعاتهم إلى الوضع السياسى واستئثار رياض بالسلطة ، وظلمه وحكمه الحديدي ، وكثرة المعتقلات والسجون وتكدسها بالوطنيين ، وفي أثناء أحد تلك الاجتماعات ، حرر محمد أفندى فنى عريضة تضمنت الطعن والتتديد بالحكومة والإدارة المالية ، ولم يكن رياض بغافل عما يفعلون ، فله جواسيسه في كل مكان ، وتم القبض على أعضاء هذا الاجتماع وشكل مجلس عسكري لمحاكمتهم ، « فأصدر حكمه على محمد أفندى فنى بالطرد من الخدمات الميرية والسجن بالطوبخانة سنتين ، وأيضاً الحكم بحبس سعيد بك ناظر قلم الترجمة المستخدم بسواحل البحر الأحمر لسماحة تلاوة العريضة على الضباط ، وحبس محمد أفندى اليوزباشى لحضوره وقت تلاوتها ، وخفض رتبة عبد الحميد اليوزباشى الذى كان من المشتركين في كتابتها إلى ملازم أول ، وتزيل إسماعيل نظيم اليوزباشى عن رتبته إلى ملازم أول ، لأنه أخذ الصورة من محررها لإعادة نسخها ، وعلى حسن صفوت ملازم ثانى الذى نقل تلك الصورة وأعطائها إلى أحمد أمين المهندس بالأوقاف بتنزيله إلى رتبة صولقول أغاس ، وعامر رشدى ملازم أول الذى نقلها إلى ملازم ثانى ، وكذا عبد السلام زكى ملازم ثانى بتنزيله إلى رتبة صولقول أغاس ، وذلك خلاف المدة التى يلبثها أغلبهم فى السجن » (*) .

وبالرغم من تلك الأحكام وهذا التشدد فإن رياضاً لم يستطع أو أحد من نظاره أن يقضى على التحام قوى الأمة والتصاقها ، ولم يقدر على إسكات أصوات المعارضة . وأصبح العسكريون الخطر الذى يهدد السلطة الدكتاتورية لرياض وأتباعه ، حتى أن كرومر وهو فى طريقه إلى الهند فى ديسمبر ١٨٨٠ حذر رياض

(*) الوقائع المصرية ، عدد ٩٥٩ فى ٨ نوفمبر ١٨٨٠ .

من الجيش فيقول « وألححت عليه لكي يعالج أية مظالم يكون الجيش محققاً في شكواه منها ، وألا يتردد في معاملته بأقصى الشدة عند أية بادرة من بوادر العصيان »(*) .

ولكن مضت إجراءات انقمع وبكل قسوة دون النظر إلى أية حقوق ممكن أن تراعى لصالح العسكريين ، وبولغ في التضيق عليهم بإصدار قانون العسكرية الجديد الذي خرج من تحت يد رفقي ليكون فاتحة ثورة سافرة اشتركت فيها قوى مصر جميعها بزعماء العسكريين الذين نظر إليهم كممثلين للأمة جمعتهم العسكرية وربطت بينهم ، ويتم التآلف بين القوى الاجتماعية من أجل إنقاذ مصر من ذلك الانهيار الذي كانت تهوى إليه .



Cromer , op. cit., Vol I, p. 174 .

(*)

الفصل الرابع

ملاك الأراضي

لكن ... عندما تسلم محمد على مقاليد الأمور في مصر ألغى نظام الالتزام حيث أيقن أن الملتزمين يمثلون سلطة داخل سلطته ، كما أراد ألا تفقد الدولة جزءاً من دخلها الزراعي الذي يؤول إلى هؤلاء الوسطاء نصف الإقطاعيين . وأصبحت ملكية الأراضي الزراعية من حق الحكومة ، ولم يكن هناك حد فاصل بين ملكية الحكومة وملكية الحاكم الذي أنعم على المقربين من رجاله وكبار موظفيه وبعض زعماء قبائل البدو وهؤلاء الأجانب الذين كانوا محيطين به ، بمنح من الأراضي عرفت باسم « الأبعاديات » وهي تشمل الأراضي الزائدة عن زمام القرى والأراضي البور التي كانت في حاجة إلى إصلاح ، وعرف قسم من تلك الأراضي « بالجفالك » ، وهي التي استولى عليها الباشا لنفسه ولأفراد أسرته ، وكانت معفاة من الضرائب ، وقد توسع عباس وسمح بها للذوات وأعطى حق توريثها .

وفي الواقع أنه منذ عام ١٨٤٢ وعقب انهيار نظام الاحتكار ، وتشجيعاً لحركة استصلاح الأراضي واستثمارها ، منح أصحاب الأبعاديات والجفالك من أصحاب الثروة والوجاهة بموجب تقاسيط من الروزنامة حق ملكيتها المطلقة والتصرف فيها كيفما شاءوا بعد أن كانت تقتصر على حق الانتفاع فقط .

وبمجيء سعيد ، وفي عام ١٨٥٤ فرض ضريبة العشر على الجميع ، فقد ألزم بتوريد عشر المحصولات صنفاً ، وضمت بجوار الجفالك والأبعاديات أطيان المتروك وأطيان الانتفاع الدائم ، وهذه كانت خاصة بالأتراك والشراكسة والأجانب ، وحصل المصريون تدريجياً على الحق فيها عندما سمح لأصحاب المعاشات بالحصول على أراضي الأبعاديات ، ومنح موظفو الحكومة المفسولون من الخدمة مساحات من الأطيان المتروكة للانتفاع بها بصفة دائمة . من هنا تكونت الملكيات الكبيرة ، التي

كان من حق الحاكم استردادها ، لذا فقد أصبحت تلك الطبقة الأستقراطية دائماً على وفاق وخضوع لهؤلاء الحكام .

أما أراضى الأوسية ، فهي التى منحت للمتزمين السابقين تعويضاً لهم عن إلغاء الالتزام للانتفاع بها طوال حياتهم ، وخضعت لضريبة العشور ، وأصدر سعيد أمراً بتوريثها .

وكانت هناك أراضى المشايخ والتى أطلق عليها « مسموح المشايخ والمصاطب » : نحت للمشايخ بواقع ٤٪ من مساحة زمام كل قرية فى مقابل الخدمات التى يقومون بها للحكومة ، وكانت معفاة من الضرائب ، وبالإلحاح السعيدية أصبح لهم فيها حق المنفعة ، وصارت فى حكم الأطيان الخراجية ، وأضحت نواة لقيام ملكيات شيوخ القرى والأعيان الذين استمدوا مراكزهم فى المجتمع من أملاكهم الزراعية . ووجدت أيضاً أطيان الرزقة وهى الأراضى المعفاة من الضرائب ومنحت للمعلمين والمهندسين لإنشاء الحدائق .

أما بالنسبة للأراضى التى وزعت على الفلاحين ، فكانت تتراوح بين ٣ - ٥ فداناً ، واعتبرت أراضى خراجية (أثرية) وهى ملك للدولة كأراضى أميرية مثبتة باسم أشخاص ما ، ولهم فيها أثر وهو حق منفعة الزراعة ، ولم يكن لأصحابها حق الرقبة ، بل حق الانتفاع يزرعونها مقابل دفع الضرائب عنها .

وفى عامى ١٨٥٤ ، ١٨٥٥ أصدر سعيد أوامر عالية قضت بأن على من يرغب من الفلاحين العاجزين عن زراعة الأراضى الخراجية وأداء ميرها أن يتركها ، فترك الفلاحون مساحات عرفت باسم « المتروك » فاستولى عليها وقيدها باسمه وأنعم منها على بعض أفراد الأسرة وكبار الموظفين ، ثم بعد ذلك حولت إلى أراضى عشورية .

وأخيراً كانت هناك أطيان العهدة ، فبعض القرى لم تتمكن من دفع جميع ضرائب أطيانها فيتبقى جزء منها يضاف إلى ضرائب السنة التالية وهكذا ، مما اضطر محمد على لإنشاء نظام العهدة ، وذلك بأن يلتزم المتعهد للحكومة بدفع ما على القرية من ضرائب ، ويزرع هو الأطيان لحسابه الخاص بواسطة الفلاحين ، وكان المتعهدون هم محمد على وأفراد أسرته والوجهاء وكبار الموظفين والأعيان ومشايخ القرى وبعض الأجانب والبدو . هؤلاء كزنوا ملكياتهم وتوسعوا فيها منتهزين تلك الظروف للمزيد من الضغط على الفلاحين ، وقد تحولت تلك الأراضى إلى ملكية خاصة بعد صدور اللائحة السعيدية ، وساهم نظام العهد فى خلق قطاع من

الملكيات الكبيرة أن معظم المتعهدين كانوا من العناصر التي حصلت على الأبعاديات والجفالك ، وقد أبطل ذلك النظام بناء على طلب مجلس شورى النواب ولكن بعد أن دعم الملكية الفردية .

وكانت اللائحة التي صدرت في نوفمبر ١٨٤٧ قد أعطت حق رهن الأرض أو التنازل عنها للغير بموجب حجة شرعية أو أمام الشهود ، كما نصت على أنه لا يمكن انتزاع الأرض من واضع اليد عليها إلا إذا كان قادراً على زراعتها وأداء خراجها ، وأباح له استرداد الأرض متى دفع ما عليه من متأخر ، وأضافت لائحة ١٨٥٤ أحقية الورثة في وضع اليد على الأرض التي تركها مورثهم ، وأن يكون التصرف في هذه الأرض بحجة تكتب في المديرية ، وتكون المدة القانونية للقضايا المختصة بالحقوق العقارية ١٥ سنة . وجاءت اللائحة السعيدية عام ١٨٥٨ لتتيح الملكية العقارية للأراضي الزراعية وأن يستقر أمرها ، وقررت أن لمستغل الأرض الحق في تأجيرها لمدة لا تزيد على ثلاث سنوات وأن يرهنها أو يبيع حقه في استغلالها للغير ، وأكدت حق توريث الانتفاع بالأرض وفقاً للشرعية الإسلامية وحق التعويض لمن انتزعت منه أرضه .

ومضت سياسة الإنعام من الحكام بالأبعاديات ، فتوسعت طبقة الملاك الزراعيين واستطاعت أن تجعل لنفسها وضعاً متميزاً ، وكان إسماعيل معطاء للمحيطين به ، فقد منح آلاف الأفدنة لأسرته ولأتباعه وكبار موظفيه ، وكل هذا الإغداق على حساب الانهيار للملكية الفلاحين ، وقد كان الانتزاع يتم لأجود الأراضي، كما أن عملية استبدال أراضي الأبعاديات التي بدأت منذ عهد إسماعيل كان لها أثر في قيام ملكيات كبيرة لأراضي موحدة وخصبة^(١) .

تلا الأسرة الحاكمة في امتلاك الأراضي كبار رجال الدولة من الأتراك ، إذ اعتبروا أكبر ملاك للأراضي في القرن التاسع عشر في مصر وذلك بناء على تلك المنح التي منحت للنظار والمحافظين وسكرتاري الخديو ومديري الجفالك والعاملين في الدوائر ومديري المديرية وكبار الضباط ، وهؤلاء كونوا أرستقراطية خاصة بهم كانت خليطاً من نوعيات الأتراك والشراكسة والأكراد وعناصر آسيا الصغرى وجزر الأرخبيل والجزائر وتونس جمعتهم العادات والتقاليد واللغة التركية كدليل على رقيهم ومركزهم المرموق^(٢) ، واحتفظوا باحتكارهم للمناصب القيادية ، وبذلك جمعوا

(١) محافظ الأبحاث ، معنظة ١١٧ ، دفتر ١٢ ، صورة الأمر الكريم رقم ٨ ، ٥ شوال ١٢٨٢

(١٨٦٥) .

Milner, S. A., England in Egypt, p. 319 .

(٢)

بين السيطرة الإدارية والسيطرة الاقتصادية على المصريين ، فيقول كرومر « إنه عندما احتل الإنجليز مصر وجدوا مجموعة من الأتراك المصريين يحتلون المراكز الأساسية في الحكومة وهم كبار ملاك الأراضي ^(١) ، وترفعوا على المصريين ومارسوا سلطاتهم وسلطانهم عليهم ، وآمنوا بأن حقهم الطبيعي هو شغلهم لتلك المناصب وامتلاك الأراضي الشاسعة ، ولكن مقدرتهم لم تكن مساوية لطموحهم ، وقد استفادوا من وضعهم حتى أنهم أصبحوا يمتلكون مصادر الثورة من أرض ورأسمال وفلاحين .

هذا وقد قامت أملاك الكثيرين وتوسعت بناء على عمليات الاغتصاب الدائم لأراضي الفلاحين ، وكان شاهين باشا يمثل هذا الاتجاه ، تأكد ذلك بتلك الشكوى المقدمة من ورثة محمد أبو حمزة تقول « إن شاهين باشا منذ أن كان مفتشاً لجهة بحرى داخله الطمع وأخذ أطيانهم وهي ١٠٠ فدان عشورية من أطيان كفر الدوار بحيرة مقامة على زمام ناحية البرنجات من أعظم أطيان تلك الجهة بمهماتهما ومفروشة بكافة دوايرها أشجاراً من سنط وجميز وساقبتين وآلات وعزبة قائمة بنفسها بطاحونة » ، كما أنه اغتصب من فلاحى ناحية بتوفر - غربية - مائتى فدان ^(٢) .

وسرت روح الاغتصاب فى هذه العناصر ، وخصوصاً الذين كان لهم مراكز إدارية رئيسية حتى مديرى المديریات كانوا مبتزين للأموال حاصلين على الرشاوى ، سلكو تلك الطرق وأصبحوا من كبار ملاك الأراضي .

أما عن كبار ملاك الأراضي من المصريين ، فقد وصلوا بتلك الإنعامات التى استحوذوا عليها إلى مكانة مرموقة فى المجتمع ، فرفاعة الطهطاوى وهو من عائلة فقيرة جمع ممتلكاته من منح ومنحها له محمد على وسعيد وإسماعيل ، وتوسع هو أيضاً فى الشراء حتى وصلت أراضيه إلى ٢٥٠٠ فدان عام ١٨٨٠ ، وعلى البدرأوى وهو تاجر منح عهده فى عهد محمد على ومنحه سعيد أطياناً وأضاف هو بشرائه فوصلت أملاكه إلى ٤٠٠٠ فدان ، وحميد أبو ستيت وهو فلاح عادى تمكن من أن يصل إلى أن يكون حاكم جرجا وكانت ممتلكاته تربو على ٥٠٠٠ فدان ^(٣) ، أما محمد

Cromer , op. cit., Vol. 11, p. 171 .

(١)

(٢) محفوظات الداخلية ، تركى ، محفظة ٦٤ ، ٨ ذو الحجة ١٢٩٧ (١٨٧٩) ، الوقت ، عدد ٨٩٣

فى ١٢ يوليو ١٨٨٠ .

(٣) محفوظات الداخلية ، محفظة ٣٩ ، ١٢ محرم ١٢٩٩ (١٨٨١) .

سلطان وعلى مبارك وأبازة والشريمى وسليمان عبد العال والمنشاوى والهجين والعقاد فقد جمعوا أيضاً ملكيات كبيرة من الأراضي وأصبحوا من كبار الملاك^(١) .

وازدادت تلك الملكيات وتثبتت فى أيدي أصحابها بما أصدره إسماعيل من قرارات ، وفى عام ١٨٦٥ تقرر بيع أطيان الأبعادية القابلة للزراعة ، وكذلك الذتجة من زيادة المساحة بصفة أطيان خراجية وبيع أطيان الأبعادية التالفة التى لم تحرث بعد بصفة أطيان عشورية . وصدرت أحكام تنظيم كيفية التصرف فى أطيان المتسحين وإعطاء الأراضى البور لمن يرغب فى استصلاحها ، فقدم عليها الأثرياء ، وأيضاً أبيعحت الوصية فى الأراضى الخراجية .

وجاءت لائحة المقابلة فى ٣٠ أغسطس ١٨٧١ تلك التى خفضت الضرائب إلى النصف مقابل الدفع مقدماً ست سنوات ، وأعطت حق الملكية لتوعين من الأراضى الأولى أطيان الأواشى التى هى فى أيدي الملتزمين من عصر محمد على ، وكانت معفاة من الضرائب ، ثم أصبح يدفع عنها عشر محصولاتها بناء على أمر سعيد ، وبذلك دخلت فى عداد الأراضى العشورية ، والثانية الأراضى العشورية التى أعطيت لبعض موظفى الحكومة ليتعيشوا منها ، ولم يعط لهم تقاسيـط ديوانية ولا رخصة بالتصرف فيها ، فهذه الأراضى متى رغب واضع اليد عليها دفع المقابلة عنها يجابون إلى ذلك ، وبعد دفع ما يستحق عليها من المقابلة بالكامل يتحرر بها التقاسيـط الديوانية لتصير ملكاً لهم ويتصرفوا فيها بكامل الأنواع - البيع ، الهبة ، التوارث ، الوصاية ، الوقف - المصرح بها لأرباب الأبعاديات^(٢) .

وأصبحت المقابلة إجبارية ومنحت تلك الأراضى التى دفعتهـا كلية أو جزئية حقوق الملكية ، ووافقت الحكومة على إعطاء حجج لها مجاناً تثبت الملكية بسبب دواعى الرهن فى البنك العقارى الذى كان يقدم القروض بشرط هذه الحجج^(٣) .

وصدر قانون فى ١٤ سبتمبر ١٨٨٠ بتسجيل الأراضى البور للأفراد الذين يدفعون عنها ضريبة الخراج ، وبذلك دعمت الرأسمالية الزراعية ، وساعدها على صب نشاطها فى المجال الزراعى مسألة الرى واهتمام الدولة به من أجل مصلحة

(١) على بركات ، المرجع المذكور ، ص ١٨٢ .

(٢) محمد كامل مرسى ، الملكية العقارية فى مصر وتطورها التاريخى من عهد الفراعنة حتى الآن ، ص ص ٨٠ ، ٩٠ .

(٣) محفوظات مجلس الوزراء ، محاضر جلسات مجلس النظار ، محفظة ٥/ج ، محضر ٢٥ مايو

الأسرة الحاكمة ، وقد استفاد كبار الملاك من وراء ذلك مما ترتب عليه زيادة مساحة الأراضي ، وكانت الحرية الاقتصادية وسمة التخصص وتلك المحاصيل النقدية والسلع الرأسمالية وربط ذلك بالسوق الأجنبية أهمية لزيادة الأراضي ، وخصوصاً مع قدوم الحرب الأمريكية وارتفاع أسعار القطن المصري ، فقد ازداد الإقبال على طلب شراء الأراضي للمكاسب التي اصطحبت رواج القطن ، فوصل تصديره من ٢ إلى ٣,٥ مليون قنطاراً سنوياً وارتفع سعر القنطار عام ١٨٦٧ إلى ٥٢ ريالاً بعد أن كان متوسط السعر ١٠ - ١٢ ريالاً ، فازداد كبار الملاك ثراء ، وساعدهم على ذلك التربة والمناخ والرى ووسائل النقل والآلات الحديثة ، وحتى بعد انتهاء الحرب ورغم تأثر السوق القطنية ، فإن بريطانيا كانت تسعى في الحد من كل زراعة أخرى بجواره لتكفي حاجة مصانعها منه^(١) ، هذا في الوقت الذي تغفلت فيه الرأسمالية الأوروبية بمشروعاتها الاقتصادية والمالية داخل مصر والتي اعتمد عليها ملاك الأراضي للحصول على القروض ومولوا بها زراعاتهم الواسعة ومضارباتهم بالأرض ، وكان نتيجة ذلك الاهتمام بالأرض دون سواها وتركيز الرأسمالية عليها .

أما عن حياة أصحاب تلك الأراضي ، فقد كان معظمهم غائبين عن أراضيهم يعيشون في القاهرة والمدن الكبرى والبنادر وهم لا يتحملون تجاه فلاحيههم أية مسئوليات اقتصادية أو اجتماعية ، يستمدون دخلهم من تأجير أراضيهم والأرباح التي يحصلون عليها من بيع وشراء الأراضي ، وماروسوا ضغطهم على الفلاحين الذين تحملوا كل شيء وحتى ولو تصادف وجرى تحقيقات بناء على تظلمات هؤلاء الفلاحين ، نرى مديري المديرية يصبحون في صف الملاك ضدهم ليساهموا في الظلم الواقع عليهم وإضاعة حقوقهم^(٢) .

مجلس شورى النواب والقيادة البورجوازية

يعود العامل الرئيسي لظهور مجلس شورى النواب إلى شخصية إسماعيل ، الذي كان يميل لتقليد الحكام الغربيين - ظاهرياً - في أساليب الحكم ، فهداه تفكيره إلى إنشاء هذا المجلس لكي يزيد من أبهة حكمه ويظهر أمام الدول بأنه حاكم

(١) راشد البراوي ، محمد حمزة عيش ، التطور الاقتصادي في مصر في العصر الحديث ، ص ٦٩ .

(٢) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٧ ، دفتر ١٩١٠ ، صورة الأمر الكريم رقم ٥ في ١٢ جمادى الآخرة ١٢٨٠ (١٨٦٤) .

دستورى ، ويرد الاتهامات التى وصفته بالاستبداد . كما كان فى حاجة إلى ذلك المجلس لكى يتستر وراءه إما للاقتراض بما يشاء ، وذلك بكسب ثقة البيوت المالية ، أو ليتمكن من فرض الضرائب عن طريقه ، وليستطيع أيضاً أن يقف بنواب الأمة أمام أى سلطة أجنبية يمكن أن تحد من سلطته .

ورأى إسماعيل فى طبقة الملاك المعين له ، فأراد أن يقربها ويشعرها بحاجته إليها ، ووقع نظرة على زعماء الريف دون غيرهم ، وحرص على أن يكونوا مصريين ، وأبعد الطبقة التركية الأرستقراطية ، فقد رغب فى أن يخلق طبقة من المصريين تسانده ويعتمد عليها حتى إذا اقتضى الأمر أمام المصريين أنفسهم . فأعلن أن المصريين محكومين بشئ من الضغط وأن التباعد بينهم وبين الحكومة ظاهر الأثر ، ورأى أن يجنى ثمار هذا التقرب بين حكومته والملاك .

ولم يكن المجلس ليمثل المصريين عامة بل طبقة منهم هم كبار ملاك الأراضي، وكان منهم عدد كبير من العمدة والمشايخ ، إذ تدخلت نظارة شريف لترشيح العناصر الثرية من العائلات ذوات النفوذ فى مناطقهم ، ومثل المدن فى المجلس التجار والأعيان ، وكان عدد الأعضاء ٧٥ عضواً منتخبين لمدة ثلاث سنوات ، يتولى انتخابهم عمدة البلاد ومشايخها والأعيان فى المحافظات ، ومدة اجتماعه شهراً فى السنة ، وجلساته غير علنية ، وللحاكم الحق فى جمع المجلس أو تأخيرها أو مد مدته أو تبديل أعضائه(*) .

وبذلك ظهرت طبقة الملاك المصريين على المسرح السياسى ، لتثبت وجودها ، ولتحقق مساعيها تدريجياً للحد من نفوذ طبقة الأتراك ، ومن أوتوقراطية إسماعيل ، مما جعلهم يكونون ركناً أساسياً فى الثورة العربية .

وفى البداية رأى إسماعيل جعل المجلس ذا سلطة استشارية فقط فى المسائل التى ترى الحكومة أن تعرضها عليه على أن تكون قراراته بمثابة رغبات ترفع له ، وكان يرسل عند المداولة من يخبر الأعضاء بإرادته ، فيقررون ما يريد بعد مداولة صورية ، وتؤكد صحيفة الوطن أنه عند افتتاح المجلس حضر عضو من أعضاء مجلس « بارلمنتو إنجلترا لكى يعرف شيئاً عما يجريه مجلس مصر ، فتحصل على مترجم ودخل على أحد العمدة وسأله عن نوع العمل الذى يشتغل به المجلس ، فأسر العمدة للترجمان بأن عنده صاحب فى المحل الآخر ويجب عليه أن يراه واختفى فى

(*) محمد خليل صبحى ، تاريخ الحياة النيابية فى مصر ، ج ٤ ، ص ١٦ ، عبد العزيز رفاعى .

فجر الحياة النيابية فى مصر ، ص ١٨ ، ٢٢ .

الحال»^(١) . أما مسألة المعارضة ومقاعد اليمين التي انحاز لها الأعضاء جميعهم فيذكرها جميع المؤرخين ، لكن مهما يكن من أمر فقد كانت البداية صعبة ومفتلة ، لكن مع الأيام والأحداث وتبلور الرأي العام في مصر أصبح هناك نضج في المجلس ، وأن ما تم كان خطوة أولى ، وما لبث أن مارس السلطة التي راحت تتسع لتفرض نفسها على الحاكم نفسه .

كان للانهييار المالى أثره على مصر جميعها ، وأحس الملاك بفساد الحكم وبتغلغل الأجانب ، وبدأت الروح النيابية تسرى في المجلس وخصوصاً بعد أن تعرضوا لبعض الأزمات مثل انخفاض أسعار القطن ، وذلك بعد أن جنحوا إلى الإسراف كعادة المصريين عموماً ، وكان نتيجة ذلك أن التجأوا إلى المرابين فزهنوا الأرضى التي انخفضت أسعارها .

وقد أدرك المجلس هذه المعاناة التي يعاني منها المصريون فأصبحت أهم المسائل المعروضة عليه ، وتمكن الأعضاء من إلغاء ضريبة المواشى والفردة وطالبوا التخفيف من السخرة بشراء الآلات كالكرافات ، واتسع النطاق لأكثر من ذلك بمساءلة نظارة المالية عن مبالغ منصرفه بدون بيان ، وزيادة مصروفات الميزانية عن العام السابق ، والسؤال عن أصول المعاشات وطلب بيانات من الحكومة . ونجح المجلس في إلغاء العهد التي كان أثرها بالغ السوء على الفلاحين ، وكثرت مناقشاته حول قانون المقابلة وضرورة استمراره ، لذا عملوا بكل طاقاتهم من أجل ذلك^(٢) ، وتممقت الكراهية للمراقبة الثائية صاحبة رأى الإلغاء . هذا في الوقت الذي ازداد فيه تفتح الأذهان من خلال وجود الأفغانى وازدهار الصحافة وفاعلية الجمعيات ، إذ كان الكثير من الأعضاء من رواد المحفل الماسونى الأفغانى .

وغدا لذلك نتيجته ، فقد طالب المجلس بحقه في أن ينظر في الميزانية ليقف على الإيرادات والمصروفات ، ويعلم حجم الديون ومدى استهلاكها ، وشكلت لجنة من ثلاثة أعضاء توجهت إلى نظار المالية للإطلاع على الميزانية والحصول على البيانات المطلوبة .

ومثلما حدث بالنسبة للصحافة حدث للمجلس ، فمما لا شك فيه أنه كان يلقي تشجيعاً من إسماعيل بعد أن طبقت على روحه السيطرة الأجنبية ، فأراد متفهماً عن طريق المجلس ، لكن لم يكن ذلك أكثر من عامل مساعد فقط إذ أن المجلس قد

(١) الوطن ، عدد ٦٣ في ٢٥ يناير ١٨٧٩ .

(٢) دفتر قيد محاضر مجلس شورى النواب ، محضر ١٧ رجب ١٢٩٣ (١٨٧٩) .

سيطرت عليه الروح الوطنية ، وراحت خيوط المعارضة تنتشر بفضل تلك الظروف التي أحاطت بمصر .

ووقفت الصحافة بجوار المجلس معضده وتأييده وتوجهه وتقويه وتلهبه ، فأنتهى الأمر إلى تكوين طليعة ثورية داخل المجلس حاولت العمل على إنقاذ مصر ، فيقول روشتين « قد يكون النواب بحكم الظروف مستعدين لانقياد لإسماعيل ومساعدته في رفع النير الأوربي عن بلادهم ، ولكن مع ذلك كانوا يمتقونونه لأنه علة علل شقايمهم وبلاتهم ، وقد بلغ بهم الأمر بعد الانقلاب السياسى أن فكروا في عزله »^(١) .

وقد كانت مصر تموج بالسخط جميعها ، وشارك النواب شعب مصر في ذلك ، ومثل إسماعيل صورة لهذا السخط ، كما مثلته النظارة الأوربية بسياستها الضريبية سواء في الفرض أو التحصيل ، فكان لابد من التحرك والمعارضة التي تصدى لها مثقفو الأعضاء من تلامذة الأفغانى .

وعندما دعى المجلس في دورة يناير ١٨٧٩ ، كان اجتماعه ثورة على مسألة الضرائب ومدى ما أحدثته من شلل في التجارة وطائب الأعضاء بإنفعال رفع ضرائب الويركو والدخولية وعوائد الذبيح والسدس والرى والتخفيف من ضرائب النخيل والملح ، وراحوا يبينون الحالة السيئة التي وصل إليها الفلاحون ، وطرقوا باب الهجوم على الأجانب ، فتددوا بمزاحمة البضائع الأجنبية كالزيوت التي أوقفت معاصر الزيوت المصرية في أسوان وجرجا وإسنا وقنا ، وبدأت المعارك بين المجلس والإدارة الأوربية ، فقد أرسل ناظر المالية إلى المجلس يلتمس من أعضائه أن تتفضل عليه جماعة منهم بالحضور لديه ليسترشد منهم عن بعض مسائل تتعلق بميزانية المالية « فاستنكر المجلس هذا الالتماس من رجل أورباوى يعلم يقيناً ما هو البرلمانوتو ويقدره حق قدره ولا يجهل مقامه ولا ينكر حقوقه »^(٢) .

واستمرت مناقشات المجلس فيما أصاب مصر وأدى لانهييار أوضاعها ، وعرضت رغبات النواب على صفحات الصحافة في المطالبة بمنح مجلسهم الحقوق المقررة للمجالس النيابية في الحكومات الشورية أو أن يفض مجلسهم فترفع عنهم التبعة ، وهكذا أصبح هذا التصميم القوى للتحدى واضعاً .

وتسارعت الأحداث لتسقط النظارة الأوربية الأولى وليتفجر السخط في كل

(١) روشتين ، ت ، تاريخ المسألة المصرية ١٨٧٥ - ١٩١٠ ترجمة عبد الحميد العبادى ومحمد

بدران ، ص ٨١ .

(٢) التجارة ، عدد ١٦٤ في ١١ يناير ١٨٧٩ .

مكان ، وهنا رأى رياض ومساعدوه الحد من تيارات المعارضة ، فهداهم التفكير إلى فض مجلس شورى النواب لإسكات تلك الأصوات .

وتظهر الحرية على أحسن وجه في ذلك الموقف بعد أن سيطرت روح الوطنية ، وبعد أن أراد المجلس أن يثبت وجوده ويظهر أمام الجميع ذلك الوعي التام للحياة البرلمانية ، فقد رفض الأعضاء إنفضاض المجلس ، وجرت مشادة بين بعضهم وبين رياض ، واستخدم طريقته التي ركزت على التحقير بالمصريين والاستهزاء بهم ، وجاء عبد السلام المويلحي على رأس من صفعوه حتى لقد أجمع الكتاب الأوربيون على تسميته « بميرابو مصر » ، فقد كان تحديه لرياض سافراً فأنزل من مكانته ووبخه بكلامه واتهمه بالجهل وضيق الأفق والخضوع للأجانب ، وبين له أنهم نواب عن الأمة ، ولن يبرحوا أماكنهم إلا بعد أداء واجباتهم ، وتبعه ثان وثالث ورابع على نفس المنوال ، جميعهم رافضون مصرحون بالامتناع عن فض المجلس ، وعلى الفور قاموا بتحرير مذكرة برفضهم قرار رياض وختموها بإقامة الحجة على منح حرية المطبوعات ، وبأنهم ليسوا أقل من إمارة البلفار التي أصلح مجلسها من أمورها ، « وأن مصر أوفر منها ثروة وأعظم منها شأنًا وأكثرها سكانًا وأحسنها نظاماً وأحكاماً وأكثرها في العلوم والمعارف »^(١) .

ولم ينفذ المجلس وواصل اجتماعاته ، وكثرت مطالبه في شأن مسئولية النظارة أمام المجلس ، وإبعاد أمور الدين والضرائب من أيدي الأجانب ووضعها في أيدي النواب ، وتكليفهم ببحثها واتخاذ ما يروونه بشأنها من قرارات تتفق مع مصلحة البلاد وبدأت عملية الالتحام بين القوى ، فنرى الشيخ البكرى « نقيب الأشراف وزعيم سبعين ألفاً من الدراويش » يحضر إلى مجلس شورى النواب ويشئ على الأعضاء لما قاموا به في سعيهم لخدمة الوطن ، ويسألهم أن يثبتوا أقدامهم ، بل لقد ذهب به الأمر إلى أن يجمع الأعضاء في منزله ، وفي تلك الاجتماعات كان المويلحي يقوم خطيباً ليبين فوائد مجالس الشورى ، فأسهب وأظهر التأسف في تشبث النظارة بمعارضة المجلس وإهمال شئونه ، ثم انتقل إلى الاستدلال على ارتباط المجلس بها ، وبيان ثمار ذلك الارتباط ، كذلك حضر البكرى رسمياً بالأصالة عن نفسه وبالنياحة عن بطريارك الأقباط وعلماء الإسلام كافة اجتماعات المجلس وأبلغ أعضاءه بأنهم معضدون ومؤيدون ، كما طلب أن يكتب كل منهم لأهل ناحيته « لتسكين خاطرهم وإخماد جأشهم عند بلوغهم مسألة طلب انفضاض المجلس »^(٢) .

(١) مصر ، عدد ٤٠ في ٤ أبريل ١٨٧٩ .

(٢) الوطن ، عدد ٧٢ في ٥ أبريل ١٨٧٩ .

وبذلك أصبحت مصر قوة ، فالإرادة تفرض نفسها ، والمطالبة بالحقوق تبلغ مداها وتثيق عرسا الطاعة ، ويسود المد الثورى فى ظل الشعور الوطنى الذى وصل إلى ذروته للإعداد للثورة .

اللائحة الوطنية وتلاحم القوى

عقد ولسون عزمه على إلغاء المقابلة وكان سهلاً عليه أن يسمح بجرة قلم ما دفعه ملاك الأراضي ، وأظهر ذلك فى تلك اللائحة التى أعدها ورأى فيها أن يزيد الضرائب العشورية ، وأنزل من فوائد الديون القريبة الآجال ٢٪ وأطال مواعييدها وأوصل الموحد والديون المتفرقة إلى ٥٪ ، هذا بالإضافة إلى إعلانه عدم قدرة مصر على دفع التزاماتها وتأجيل كوبون أبريل عقب إعلان الإفلاس الذى تضمنه تقرير لجنة التحقيق . وراح يتخذ الإجراءات التى أثارت عليه سخط ملاك الأراضي ، فوضع مشروعاً فرض فيه السخرة على أراضيهم ، والتى كانت معفاة منها كضريبة عينية لا يعفى منها أحد إلا مقابل جعل مالى يدفع .

وأمام ذلك بدأت الخطرات الفعلية للرفض ، ففى أول يناير ١٨٧٩ عقدت جمعية وطنية بمنزل راغب باشا حضرها الذوات والعلماء واستدعى إليها المولى بصفته نائباً واثنان آخران من النواب ، وكان من الذوات شريف باشا وشاهين باشا وحسن راسم باشا وخيرى باشا ، ومن العلماء الشيخ البكرى والشيخ الخلفاوى والشيخ المعداوى ، وبطريارك الأقباط وحاخام الإسرائيليين وبعض الضباط والتجار والموظفين ، ودارت بينهم المفاوضات لما وصلت إليه حالة مصر ، وقد كان المصريون جميعهم تموج بهم الرغبة فى التخلص من الكابوس الأوربى ، وهذا ما يتفق فيه الأتراك الدستوريون مع شعب مصر ، وانتهى الأمر إلى وضع لائحة وطنية للرد على لائحة ولسون تتلخص فى أن يكون مجلس النظار وطنياً وأن يختار الخديو رئيسه الذى بدوره يختار باقى النظار ، وتكون الحكومة دستورية على النمط الأوربى ، ويحكم الاقتصاد فينقص على الموازنة نحو نصف مليون جنيه ، ويعطى مجلس النواب حقوقه مع الحرية التامة ، وإعطاء الأهالى حقاً فى انتخابه ، وتكون النظارة مسئولة أمامه وهو مسئول أمام الأمة ، وجعل مفتشين من الأوربيين لتأمين الدائنين على ديونهم أحدهم على الإيرادات والثانى على المصروفات ، والتعهد بالقيام بتسديد الديون بتمامها وقت استحقاقها بضمان أموال وأملك المجتمعين ، مع تأدية ٥٪ فائدة واستهلاك ١٪ من الأصل ، وتسديد الناقص عن المستحق وقدره مليون جنيه ، ويحفظ دين الروزنامة ، بناء على القانون المختص به ويدفع عندما تسمح إيرادات الحكومة ، وأن تبقى المقابلة مع امتيازاتها على حالها ، ورفض أية ضرائب جديدة .

ووقع على تلك اللائحة ستون من الباشوات وستون من البكوات وأربعون من الأعيان وسبعون من الموظفين وعدد كبير من ضباط الجيش قنر بما لا يقل عن تسعين ، بالإضافة إلى العلماء والتجار والموظفين ، عرضت على إسماعيل فاستصوبها ، وأمر بترجمتها وأرسلت إلى قناصل الدول ^(١) . وبعث المجتمعون بصورة إلى السلطان العثماني لتدعيم موقفهم وإمكانية حصولهم على صفة الشرعية لمطالبهم بضم صوته إليهم .

وأرسل لاسلز تقريراً إلى حكومته ينسب ما تم إلى الإثارة الدينية ضد النظارة الأوربية ، وأنه أعلن في المساجد أن رياض باشا صديق للمسيحيين ، وأنه حذر من البوليس بأن حياته مهددة ، وكان من أثر ذلك سفر رياض لأوروبا وتركه لمصر ، ويصور غيفيان العداء الظاهر للأوربيين فيقول لوزير خارجيته « إن الصلوات تقام في كل مساجد مصر وتدعو بالتخلص من الأوربيين الطغاة » ^(٢) .

ومما لا شك فيه أن إسماعيل كان راضياً كل الرضا عن هذا الوضع الجديد ، فقد صرح في ٧ أبريل ١٨٧٩ باجتماع له ضم القناصل والأتراك الدستوريين والمويلحي وبعض أعضاء آخرين للمجلس والشيخ البكرى بأن للأمة حقاً في تولية وعزل حكامها وأن الواجب هو قبول اللائحة الوطنية التي أجمع عليها ، وأعلن عزمه على تأليف نظارة وطنية وسن قانون مالى جديد . واستقالت النظارة الأوربية الثانية وتشكلت نظارة شريف الوطنية ، وأيقنت الأمة أن لديها القوة التي لم تمارسها من قبل .

ولم يكن ما تم وقتاً على طبقة معينة دون الأخرى بل هي متطلبات الأمة جميعها ، فالالتحام كان واضحاً ، وقد صرح القنصل الإنجليزي عقب مقابلة له مع شريف أن الاستياء وعدم الرضا ليس قاصراً على فئة معينة بل أنه يعم جميع الطبقات التي ربط بينها ذلك القسم على التعاون للوقوف أمام التدخل الأوربي ^(٣) .

وكان ذلك نقطة انطلاق وانتصاراً للحركة الوطنية للوقوف أمام القوى المضادة ، وتناسب الاختلافات من أجل الدستور ، وأقرت نظارة شريف استمرار مجلس شورى النواب ، وفي ١٠ أبريل ١٨٧٩ اجتمع المجلس ليناقد مواد الدستور الجديد ، وذلك

(١) Affaires Etrangères, LXXX, 5 Mai, 1879, pp. 170 - 172 . الوقائع المصرية ، عدد ٨٠٦

في ١٣ أبريل ١٨٧٩ .

F.o., 78 - 3000, Political, No. 176, 273, May 10, 1879 .

(٢)

Commons, Vol. CCLXXII, p. 1704 .

(٣)

بعد أن قدم شريف للمجلس نصوص الدستور ولائحة الانتخابات للمناقشة فيها وتعديلها أو إقرارها ، وجاءت التشريعات مماثلة لما هو جار لدى الدول الراقية ، وبناء على ذلك أُحق للمجلس الإقرار التشريعي ، فصار مناصفة بينه وبين الخديو ، وأصبح له الاقتراع على الثقة بالنظارة ، ورفع عدد النواب إلى ١٢٠ نائباً وجعل الانتخاب على درجتين ، فوسعت دائرته ومنح النواب حق الحصانة البرلمانية ، وكان ذلك نتيجة لأول وثبة لحركة وطنية عميقة ، وأصبح المجلس على أساس أكثر ديمقراطية ، فله الإشراف على المصروفات وفرض الضرائب وتقرير الميزانية ، كما أن فصل السلطات بدا واضحاً فلا تجتمع وظيفة النظارة والنيابة في شخص واحد ، وعدم قبول موظفي الحكومة ضمن أعضاء المجلس .

أفقد هذا بريطانيا رشدها ، وراح قنصلها يطالب بضرورة وجود الناظرين الأوروبيين ، ويرفض الخديو ويبين « أن هذا أمر نزعته إليه الأمة بجملتها ورأت فيه صلاحها » ويرد عليه البكرى بإصرار وثقة بل وتحد في أحقية مصر بالشورى « وأن ليس لأى أجنبى أن يتحكم فيها » (١) .

ومضت التعبئة للشعور العام ، فعقدت الاجتماعات تلك التي ترددت فيها الخطب عن الحرية والديمقراطية . وبذلك سيطر الوعي والإدراك والأبعاد السياسية على تلك العقول ، وقد ساعدت الصحافة على هذا الإيقاظ « فجميع الذوات والأعيان علموا ما لهذه الجرائد من الأهمية وأدركوا أن المطالعة أفيد الأشياء ، فتنزعوا إلى الاشتراك فيها واهتموا بمطالعتها وينتظرون ورودها بفروغ الصبر ، ويجتهدون في رواج سوقها غير آسفين على أربعة أو خمسة جنيهات قيمة الاشتراك فيها » (٢) .

لكن لم يكتمل الانتصار ، وكان واضحاً أنه لابد وأن تقف بريطانيا وفرنسا أمامه ، وانتصرا ، وخُلع إسماعيل وتولى توفيق ، لتكون النتيجة الطبيعية رفض الدستور الوطنى ، واستقالت النظارة الوطنية عقب الرفض ، وتعطلت الحياة النيابية واضطهدت الصحافة ليستمر الكفاح .

الحزب الوطنى والعمل السياسى

تبلور الرأى العام ونضج الوعي السياسى فى عهد إسماعيل وأسفر عن تعدد النشاطات وكان من بينها الجمعيات بأنواعها التي استطاعت فى النهاية أن تتحصب فى قالب واحد عرف باسم الحزب الوطنى ، ولم يكن حزباً سياسياً بالمعنى المفهوم ،

(١) مرآة الشرق ، عدد ٢٤ فى ١٧ مايو ١٨٧٩ .

(٢) صدی الأهرام ، عدد ٦٠١ فى ٨ أبريل ١٨٧٩ .

لأنه الحزب الوحيد بينما الأحزاب السياسية تعنى الاشتراك على طرق الحكم ووسائله وأشكاله في الدولة الواحدة ، إنما هنا في مصر في ذلك الوقت كان هيئة شملت متنوع الاتجاهات والمصالح المختلفة ، لكنها في النهاية حافظت على شكل الوحدة الوطنية ، وتعددت قوى ذلك الحزب .

شملت قوة الأتراك الدستوريين أعداء المصريين ، لكنهم انضموا إليهم في حركتهم الوطنية للوقوف أمام عدو مشترك هو الأوروبيون . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد تنبأوا بالثورة للحصول على مزيد من السلطات حرروا منها بسيطرة إسماعيل عليها ، أضف إلى ذلك نفسيته التي امتلأت حقداً على الأسرة المالكة ، حينما نظروا إلى أملاكها الشاسعة من الجفالك التي هي من أجود أنواع الأراضي بينما تتمثل أراضيهم في الأبعاديات .

وعبرت هذه القوة عن نفسها في شكل جمعية سرية في حلوان ضمت شريف باشا وهو من أصل تركي ، ولكنه تمصر ويتميز بذلك الطابع الفرنسي الذي تدعم بزواجه من فرنسية ، وشخصيته محبوبة وسياسته وكفاءته خلقت له تلك الشعبية التي غمر بها ، فأثناء نظارته للحقائبة والخارجية كان الوحيد الذي قاطع لجنة التحقيق الأوروبية ورفض الحضور أمامها ، بل ورفض أيضاً الاشتراك في النظارة حينما عرضها عليه نوبار ، ومن هنا اعتبر ممثلاً للوطنية المصرية أمام المصريين^(١) ، هذا بالإضافة إلى أفكاره الحرة ونشاطه واتصالاته مع الوطنيين .

وكان شاهين باشا من ضمن أعضاء الجمعية ومن رجال إسماعيل ، وله دور الوساطة بينه وبين الحركة الوطنية ، ويكره النفوذ الأوربي ، وتربطه الصلات مع العسكريين ، واحتضن كل ما هو يناوئ الأجانب^(٢) . وضمت الجمعية عمر لطفي باشا محافظ الإسكندرية وراغب باشا الذي فتح منزله للزعماء الوطنيين حيث اجتمعوا ووضعوا اللائحة الوطنية .

أما من زعماء الريف فكانوا غير راضين على التدخل الأجنبي والسلطة المطلقة لإسماعيل ، ورأينا كيف مثلهم مجلس شورى النواب أصدق تمثيل ، وقد حرروا من العدالة خصوصاً بعد ذلك التمتع الذي تمتع به ملاك الأراضي من الأجانب ، الذين لا يدفعون ضرائب ، معتمدين على الامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلفة التي كانت في جانبهم ، وهم المالكون لوابورات خليج القطن ، وتررس أسرارهم تتخفى على

Brevés, A., Français et Anglais en Egypt 1881-1882, 29

(١)

(٢) الكوكب الشرقى ، ٢٠ ٢١ في ١٦ يوليو ١٨٨٠ .

الريف المصرى للاستثمار فى الزراعة على حساب مصالح كبار الملاك المصريين مما جعل الأخيرين يسعون إلى التغيير لهذه الأوضاع .

وكانوا ينظرون أيضاً إلى أملاك الأسرة والأتراك التى تتوسع أكثر من ممتلكاتهم وليس فقط فى المساحات ولكن أيضاً نوعية الأرضى وخصوبتها ، وما أصابهم من جنون إسماعيل فى امتلاكه للأراضى التى راح ينتزعها من أصحابها ، وكان ولسون قاسياً عليهم فزاد من الضريبة على الأرضى بأنواعها ، كما أن عملية حصر الزمام لتوزيع الضرائب قد ضايقتهم ، حيث كانت هناك أراض غير مدرجة ولا يدفع عنها ضرائب ، وبالحصر أصبح لزاماً عليها الدفع ، ذلك فى الوقت الذى فقدت فيه الأرض كثيراً من قيمتها ، فقد وصل سعر الفدان ٢٨ جنيهاً بعد أن كان سعره ٦٠ جنيهاً^(١) .

وكان على رأس تلك القوة سلطان باشا ، وهو أول طبقة الملاك صعوداً إلى أسنى مراتب الإدارة ، وكانت نفسه تمزقها شهوة الجاه والعظمة ، فزاد من أملاكه حتى أوصلها ١٢ ألف فدان تارة بالإنعامات وأخرى بالشراء^(٢) ، وهو من أصل بدوى وصل إلى وظيفة عمدة زاوية الأموات وعين ناظراً لقسم قلوصلنا ، ووكيلاً لمديرية بنى سويف ، ومديراً للغربية ومديراً لأسىوط ، ثم مفتشاً على جفالك المنيا وتوابعها .

وصل سلطان إلى تلك المراكز لكفايته الإدارية ولولائه للسلطة ، ولمكانته بين الفلاحين التى خلقت له سمعة طيبة ، فكان أثناء مروره على المنتفاتيش يشتكى له أهاليها مما أصابهم من الظلم فيعد بالإصلاح ويريح من خواطرهم ، ويكفى الراحة النفسية بأن يجد الشاكى من يستمع إليه ، وأحياناً كان يقوم ببعض إجراءات المعاونة ولو أنها بسيطة ، إلا أنها أعطته ذلك الحب من الفلاحين ، وزاع صيته وغدا يلقب بملك الصعيد ، وأساء الطغيان الإسماعيلى والسيطرة التركية والتسلط الأوربى وأشفق على فلاحى مصر ، وحمل له الأتراك الكراهية وهذا أمر طبيعى فهو مصرى راح يزحف على المناصب التى يحتلونها ، وانتقلت تلك العدوى إلى إسماعيل الذى كان يستاء من أى نفوذ لغيره ، فأصدر أمراً بنفيه إلى السودان ، ولكن تدخل توفيق فى الوقت المناسب ، فعاد سلطان ليتنقل فى الوظائف بعد أن حنق على الخديو وازدادت رغبته فى المزيد من السلطة ومن هنا راح يعمل .

Malet, S.E., Egypt 1879 - 1882, p. 301 .

(١)

Bear , op. cit., p. 24 .

(٢)

والتقى الجناحان الممثلان لكبار ملاك الأراضي ، الأتراك والمصريين الأول
يمثله شريف والثاني يمثله سلطان ، فكان لهما تأثيرهما في حركة المعارضة القوية
التي سرت في مجلس شورى النواب ، وانضم العسكريون بجمعيتهم السرية
وسلاحهم ، والمتقنون بفكرهم لينتسوا جميعاً على صعيد العمل السياسي ،
ويتطابق الشكلاان المدني والعسكري في الحزب الوطني ، وأصبحت الصحافة
وخاصة « مصر والتجارة » لسان حاله .

وتوجه نشاط العنصر المصري ، كل يعمل في منطقته ، فهناك سلطان وسليمان
أباطة وحسن الشريعى وعبد الله فكرى وعرابى الذى أصبح له اسماً وشعبية سواء
في الجيش أو في الشرقية وزاع صيته كوطنى حر ، وكثرت اللقاءات وتكثفت
الاتصالات في السنوات الأخيرة من حكم إسماعيل في وقت لم تكن أوروبا تحلم فيه
بوجود تلك الحركة الوطنية في مصر .

وأمام تلك القوة ، رأى إسماعيل كعادته الاستفادة منها ضد توسيع السلطة
الأوربية فيقول نينه « إنه دخل معهم سراً في مفاوضات بأن يعترف بهم كحزب وأن
يضع نفسه على رأس الحركة على أن توجه ضد التدخل الأجنبى وأن يتم الاتحاد
على تصفية الديون »^(١) .

كان إسماعيل في نفس الوقت يخشى الحزب وخصوصاً بعد أن اتسع مده
وضم جميع القوى النائرة على الأوضاع وأصبح له ذلك التأثير القوى والعنيف في
المجتمع ، وكان يكفى وضع شعاره « مصر للمصريين » ليدخل تحت لوائه شعب مصر
أجمعه ، لذا رأى الخديو أن يحاييه ويدخل في حلف معه ، وقد أكد القنصل
الإنجليزى لحكومته أن لإسماعيل نصيباً في تلك الحركة الوطنية^(٢) . لكن يجب أن
يؤخذ ذلك الرأي بشكل من الحذر وخصوصاً أن الحزب لم يكن يميل للخديو
إطلاقاً ، وإنما كان من أساسيات وجوده إسقاط سلطته ، وعندما عزل على أيدي
أوروبا سعد الحزب بذلك العمل حيث وافق شواه . ومن ثم يتضح أن الاتجاه الوطنى
الذى تزعمه الحزب الوطنى كان يرمى إلى خلع إسماعيل ، لكن الخارج سبق الداخل
وأتمت أوروبا الأمر على يدها ، وهذا مما استاء منه الحزب الذى كان يريد أن يقوم
هو بتلك المهمة منفرداً .

واستقبل الحزب الوطنى تولية توفيق بشيء من الأمل في أن يتم الإصلاح على
يديه ومعروف موقفه أثناء ولاية العهد ، وحاول الحزب أن يكسبه بجواره ببيان

Ninet , Origin of the National Party in Egypt p. 128 .

(١)

F.O. 78 - 3011, political, No. 273, May 10, 1879 .

(٢)

مقاصده « إن الحزب الوطنى لم يقيم إلا بالحق ولم يصدر إلا عن الحزم ولم يأخذ إلا بالحكمة ولم يقصد إلا إخراج هذا الوطن من مهاوى الذل والفاقة والعناء » ويشير الحزب إلى مجهوداته واتجاهاته لإبعاد إسماعيل « فاجتمع رؤساؤه فى العاصمة وتفاوضوا فى أمرهم ثم تحالفوا على السعى والاستماتة فى تأييد مبدأ الحق ، فبثوا رسلهم فى أنحاء القطر يستطلعون الأخبار ويستجلبون الأفكار ويحلفون القلوب لرأيهم غير مبايئين بالأخطار المحدقة بهم ، وكانت جرائدهم وهى مصر والمرأة والتجارة تمهد بين أيديهم السبل وتبث فى الأنفس أنوار مبادئهم ليعلم أهل الوطن ألا سبيل إلى انتعاش وطنهم من عثرة الشقاء ونجاته من ريقة العناء ووصوله إلى غاية الراحة والهناء إلا بتنازل الخديو وتولييه ولى العهد «(*) . إذن ففى هذا أيضاً دليل على موقف الحزب من إسماعيل .

لقد كان نشاط الحزب متعددًا وضاعف أعضاؤه من مجهوداتهم وخصوصاً الذى كانوا على صلة مباشرة بالشعب ، وسرى فيهم تيار الأفغانى الذى تأصل فى كياناتهم وأصبح الجميع وحدة متكاملة الأهداف ، وكان من المنتظر أن يتعاون توفيق معهم ، لكنه تراجع عن جميع مواقفه السابقة وخضع للمراقبين تماماً ، وأصبح رياض موكلاً من الدولتين لتنفيذ سياستهما فى مصر وضرب الحركة الوطنية ، وراح يطبق تلك السياسة .

وهنا بدأ عمل الحزب فى الخفاء ، وكل يسعى ويجد من أجل أغراضه ، وأصبحت الرابطة قوية بين أعضائه ، وكثيراً ما كانت الاجتماعات تتم فى منزل سلطان ، وأوغز شريف وراغب وسلطان إلى أديب إسحق - الذى نضاه رياض - أن يصدر صحيفة « مصر القاهرة » لتكون لسان الحزب الذى تعارض به رياض ، وقد كان يتم توزيعها بفضل مجهودات الحزب وبالرغم من سلطة رياض وأعوانه .

وفى ٤ نوفمبر ١٨٧٩ صدر أول منشور عن الحزب الوطنى طبع منه عشرون ألف نسخة ولم يعثر على ناشره أو كاتبه لكنه موقع بكلمة Aali والواقع أنه كان باتحاد بعض العسكريين كالبارودى وبعض الملاك كشريف وسلطان ، وهو أول بيان سياسى يصدر من حزب مصرى .

وفى هذا البيان تتحدد طلبات الحزب ، فهو يندد بالحكم القائم ويهدد بأن الشعب لم يعد يقبل الاستبداد ، ويرفض أى تدخل أجنبى أو وجود نظار يمثلون نفوذاً أجنبياً ، ويرى إنقاذ مصر من أيديهم حيث إن أكثر من ٦٠ مليون جنيه من

(*) مصر ، عدد ٥٢ فى ٢٧ يونيو ١٨٧٩ .

ديون مصر ضاعت مع الوسطاء ، وأن تشرف مصر على ماليتها وتتعهد بسداد الديون التي تحول إلى دين موحد بفائدة ٤٪ ، وأن تكون هناك رقابة دولية مؤقتة للإشراف على أرباح الدين ولا يكون لها سلطة التدخل ، ورد أملاك الخديو إلى الدولة ، والنهوض بالشعب عن طريق التعليم ، ومعرفة حقوقه وواجباته^(١) .

وقد طمأن ذلك البيان الأمة التي كانت تموج بالاستياء ، وأشعر أن بمصر قوة ستعيد نفسها بنفسها وستحررها من كل القيود التي فرضت عليها ، وراح رياض يبحث ويهدد لدرجة أن البعض من أعضاء الحزب احتفى بالحماية الأجنبية .

كان هذا الشكل السياسي الذي اتخذته البورجوازية المصرية ، أما الشكل الاقتصادي فلم يتعد أكثر من غيره وطنية لاسترداد المصالح الاقتصادية من أيدي الدائنين الأجانب . فعقب تقديم اللائحة الوطنية تحمست النفوس لاستقلال الرأس مال الوطني في تخليص ديون مصر وذلك بمساهمة أعيان الأمة بالاككتاب بمبالغ وافرة ، وفتح المجال لمن يريد من المواطنين أثناء تلك الاجتماعات التي كانت تقام في منزل راغب باشا^(٢) .

وكان أمين شميل قد حث أغنياء مصر وقدم مشروعاً خاصاً بإنشاء بنك أهلى رأسماله ١٤ مليون جنيه تدفع من البلاد دون إكراه في مدة ثلاث سنوات على ستة تقاسييط ، ويكون أحكامه أن يشتري بنصف رأسماله وأرباحه قراطيس حكومة ، أما النصف الثاني فيستخدم للأشغال التي تستلزمها البنوك ، وتكون فوائد المشروع جعل الدين وطنياً وانتظام تجارة البلاد وتعديل الفوائد وإنهاء دين مصر في ٢٨ سنة^(٣) ، وقد نوقش ذلك حيث كان التفكير منصرفاً إلى التخلص من الديون بأية وسيلة ، وشجعت الصحافة هذا الاتجاه ، وفي تلك الأثناء حدثت محاولات من الرأسمالية الزراعية بزعامة سلطان وعمر لطفي شققت الاجتماعات لدراسة فكرة إنشاء بنك وطني ودعى الوجهاء والأعيان للاشتراك فيه ، ونشر بيان « إنماء المال » بصحيفة التجارة أوضح فيه أن المصريين يخافون من استثمار أموالهم معتمدين على التراث القديم بنماذجه ، وبين فضل الشركات في الغرب وخاصة المالية وهي البنوك « ففيها تستثمر الأموال المدخرة ، وبها يقتضى صاحب الحاجة لأن المال أساس

(١) Ninet , Origin of the National Party in Egypt, p. 131 . سليم النقاش ،

مصر للمصريين ، ج ٤ ، ص ٧٩ .

(٢) الوقت ، عدد ٦١٩ في ١٧ مايو ١٨٧٩ .

(٣) صدى الأهرام ، عدد ٦٠٠ في ٧ أبريل ١٨٧٩ .

الأعمال « وهاجم الأجانب وتحكمهم فى الاقتصاد المصرى ونادى بضرورة العمل على إنقاذ الأراضي المرهونة من أيديهم^(١) .

إذن فقد كان هناك إدراك لضرورة تحرير مصر من السيطرة الاقتصادية الأجنبية وبناء الاقتصاد المصرى على أيدي المصريين ، حقيقة لم يتم ذلك فى هذا الوقت لكن كاتجاه وإحساس بما تعاني منه مصر كان خطوة وطنية .

مواصلت سياسة الضغط على ملاك الأراضي

كانت أكبر ضربة قاسمة استطاع رياض أن يوجهها لملاك الأراضي والتي أكدها قانون التصفية فى ١٧ يوليو ١٨٨٠ هى إلغاء المقابلة ، وقد ظهر طوال جلسات مجلس شورى النواب ذلك العزم القوى وتلك المعارضة لهذا الإلغاء حتى لا تضيع تلك الانتصارات التى حققها ملاك الأراضي عن طريقه ، وكانوا جميعاً قد دفعوها عن أراضيهم منذ عام ١٨٧١ سواء بالاختيار أم الإجبـار ، وذهبت كما ذهب غيرها من الأموال فى مهاوى المصارف ولعبت بها أيدي الإسراف .

وفى ٦ يناير ١٨٨٠ صدر الأمر العالى بإلغاء لائحة المقابلة ، وإعادة أموال الأطيان الخراجية والعشورية إلى قيمتها التى كانت عليها قبل الخصم الناشئ من دفع المقابلة ، فعمل ذلك على اشتعال ملاك الأراضي ، وجاء قانون التصفية ليظهر التحيز لأصحاب حملة السندات على حساب المصريين ، وبمقتضى المادة ٨٩ قرر دفع مبلغ ١٥٠,٠٠٠ جنيه سنوياً لتوزيعه بين الملاك على نسبة ما لكل منهم ، وقرر قيده فى الأوراد ليخصم من الضريبة العقارية وذلك فى مدة خمسين عاماً^(٢) .

أثار ذلك ثائرة الملاك ليس فقط ضد رياض ولكن أيضاً ضد المراقبة الأوربية التى تسعى منذ وقت لتحقيق ذلك ، وأخيراً كانت لها اليد الطولى فى الإلغاء ، هذا فى الوقت الذى رأت فيه خدمة مصالحها على حساب المصريين ، فقد عينت الموظفين الأجانب بأعلى المرتبات وهى تعلم أن ذلك سيكون له نتائج وخيمة ، وقد وضع ولسون « بأن ما دفعه الملاك الذين هم دائنون للحكومة سيسبب حركة تسيطر عليها الكراهية ضد التصفية وأن هذا سيجعل عليه ارتباك »^(٣) ، وانهاالت الشكاوى تعترض على الإلغاء ، وتزعم لواء المعارضة العقاد وهو من كبار ملاك الأراضي وتقدم بتقرير إلى لجنة التصفية معترضاً فيه على سحب ذلك الامتياز مستنداً إلى

(١) التجارة ، عدد ٢١٩ فى ١٥ أبريل ١٨٧٩ .

(٢) جرجس حنين ، الأطيان والضرائب فى القطر المصرى ، ص ١٠١ ، ٥٣١ .

Egypt, No. I, (1881) . p. 9 .

(٣)

تلك الحجج التي أعطيت لأصحاب الأراضي والتي تعتبر بمثابة عقد لا يجوز فسخه إلا برضا المتعاقدين معاً ، وأن الأهالي في سبيل دفع المقابلة قد تحملوا بالديون الثقيلة وباعوا من أملاكهم ومعصوبات نسائهم أملاً في الحصول على الامتياز ، وكيف يسوغ للحكومة ارتكاب مثل هذا الخطأ ، ثم طلب من اللجنة أن تحصر ما على الأهالي من الديون ، وما ذهب من أملاكهم في تلك السنين الأخيرة ، حتى تعلم أنهم وصلوا إلى حالة سيئة جداً ولا سبب لها سوى كثرة الضرائب وثقل المقابلة ، وأن عليها أن تقيم حداً فاصلاً بين الحكومة والأهالي يمنعها عن استعمال الاستبداد فيهم حفظاً لأموال الدائنين ، وإن لم يبق الامتياز فيجب أن ترد الحكومة جميع المدفوع إلى أربابه بحيث لا يسرى قانون الإلغاء إلا بعد أن تصل الأموال إليهم .

ونشرت نسخة من هذا التقرير في جريدة « لافورم » ورفضت لجنة التصفية قبوله وبعثت به إلى نظارة الداخلية ولم يكتف العقاد بذلك ، بل عدد مثل ذلك التقرير ووقع الكثير عليه وشاع الموضوع واشتهر ، وبعث برسائله إلى جميع الجهات لدعوتهم إلى هذا الأمر بكل حرارة « وكان منزله يقص بالمعارضين ، جاءوا جميعهم لكي يدلوا بأصواتهم ضد تصرفات رياض ومراقبيه » ، وتشهد عليه جماعة بأن الذين ختموا في بيته كانوا من المجاورين بالأزهر وأبناء البلد وعمد النواحي والفلاحين ، وأنه رغب من ليس لهم أطيان بأنه سيعطيهم من ملكه في المستقبل . إذن حركته هذه لم تكن من أجل مسألة المقابلة فقط ، وإنما كانت لها أبعادها الاجتماعية الأخرى ، وبذلك أمكن له أن يوحد الجهود ويضم القوى ويعمل ضد الحكومة والمسيطرين عليها . وحكم عليه مجلس ابتدائي مصر بسنتين ولكنه استأنف الدعوى وقال « كون الحكومة مستبدة فهذا أمر ليس خفياً يوجب المعاقبة ، فإن حقيقة الاستبداد أن تكون الأحكام بدون استشارة النواب وهذا محقق ، فتقرر نفيه إلى فيزوغلى » (*) .

كان تقرير العقاد أول بيان ثوري أمضته فئات الشعب ، وجاء في مناقشات مجلس النظار بأنه متداول بين الناس جميعها ، وعثرت عليه عيون الحكومة بين أيدي العسكريين ، ولم يكن بياناً مفرداً ، فقد اعترف دي بلنيير أن هناك غيرهم وعمائل له قدم للتصفية بل لقد وصل الأمر إلى التهديد باستعمال السلاح ، وأعلن بارنج أن العقاد ليس المذنب بمفرده فهناك كثيرون مماثلون له في الذنب ، وجملة ذوات متداخلين في هذه الحركة ، وكان شريف قد قدم للجنة التصفية تقريراً يطلب

(*) الوقائع المصرية ، عدد ٩٧٠ في ٢٧ نوفمبر ١٨٨٠ .

فيه تأميمات دستورية^(١)، وواضح أيضاً أن المعارضين هم الأعضاء البارزين في الحزب الوطني .

وصدر المزيد من الأوامر لمأموري التصبعية ومفتشى البوليس « لملاحظة أرباب الحركات مع التيقظ » وكثرت الاعتقالات وامتلأت السجون ، وتركزت سياسة رياض على المركزية الإقليمية المطلقة ، تلك التي أعطاها للمديرين الأتراك .

لم يغبن ملاك الأراضي في المقابلة وحدها ، ولكن أيضاً في دين الروزنامة والذي دفعوا فيه ما يقرب من أربعة ملايين من الجنيهات على شكل سندات بفائدة ٩٪ وأجبروا على دفعها مثلما حدث مع المقابلة ، وقد أهمل قانون التصفية تلك الأموال وأصبحت لا قيمة لها « فلا غرو أن قبول صدور قانون التصفية بالسخط والاستياء وكان من أهم أسباب قيام الثورة العربية »^(٢) .

وصاحب تلك السياسة ضغوط مالية أخرى ، حيث مضت السياسة الضريبية للرغبة في المزيد من الأموال ، فأجبر الباشوات على دفع الضرائب بعد أن كانوا يسوفون إذ أن أراضيهم عشورية لم تفرض عليها الضرائب العالية رغم خصوبتها ، لكن كانت الامتيازات التي حصلوا عليها أن يدفع البعض ضريبة رمزية والبعض ضريبة ضئيلة . وعندما فرضت عليها حكومة رياض والمراقبة الضرائب كانت النتيجة الغضب الذي سرى بين الملاك .

وشكلت لجان مخصوصة تتألف بتحقيق وجود المقاربات الكائنة بكل جهة ، ومعرفة الأطنان المنزرعة والتي بدون زراعة والمؤجر منها وغير المؤجر ومقدار إيجاره، وجمع كافة الأوامر واللوائح المتعلقة بتقدير ضرائب الأطنان ، وذلك من أجل ضبطها وحتى لا يتهرب أحد من أدائها .

وبعد إلغاء المقابلة زيد مبلغ ١٥٠.٠٠٠ جنيه ضريبة على الأراضي العشورية ووزعت على جميع تلك الأراضي ، وانبث أصحاب الجباية يعيشون في البلاد لجمعها . وكانت الأراضي العشورية وحتى عام ١٨٨٠ غير مدرجة في حسابات الصيارف، ويدفع أصحابها العشور - إن دفعوا - لخزانة المديرية أو المالية ، ولكن رياض قرر « إلحاق حسابات الضرائب العشورية بأعمال صيارف البلاد ودرجها بحساباتهم

(١) محفوظات مجلس الوزراء . محاضر جلسات مجلس النظار ، محفظة ٥ / ج ، محضر ٢٢

مايو ١٨٨٠ .

(٢) عبد الرحمن الراضى ، الثورة العربية والإنحلال الإنجليزي ، ص ٥٤ .

وبأوزاد الممولين والزام إعلان الذوات وأرباب الأبعاد وما يماثلهم بذلك»^(١)، ومثل ذلك تحدياً من رياض لملك الأراضي .

وكانت قد صدرت أوامر المالية لتحصيل المتأخرات من الأموال المطلوبة من جميع أصحاب الأطيان عن سنوات ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٨٧٩ ، وفرضت العقوبات على من يتوانى في ذلك « ومن يتأخر يعامل بحجز وتحصيل إيجار أطيانه إن كانت مؤجرة أو حجز وبيع محصولاتها إن كانت منزرعة ويجرى بيعها بالمزاد »^(٢) . وتم فعلاً تنفيذ ذلك ، فقد استحوذ على أراضي بعض كبار الملاك نظير متأخرات عليها ، وجرى بيعها لمن يسدد عليها ديون الميرى ، وشدد على زراعة الدخان التي كان يميل إليها الملاك للمكاسب التي يتحصلون عليها منها ، فحُرمت إلا بإذن من الحكومة ، وجعلت ضريبة الفدان ٦٠٠ قرش بخلاف المقرر على الأرض وصدرت الأوامر بتفتيش الأراضي^(٣) . وأصبح الباشوات يتحسرون وبحرارة على وقت هنائهم الذي مضى ، وكونوا فيه تلك الثروات وقت أن كانوا متمتعين بالامتيازات ومحامين من العقوبات .

وجاء إبطال رياض للسخرة - وإن كان ظاهرياً - ليزيد ملاك الأراضي إثارة عليه ، فقد كانوا يطبقون هذا النظام بكل قوة وجبروت على الفلاحين في الوقت الذي لا يدفعون فيه البدلية للعمال الذين يعملون في أراضيهم .

ونج عن ذلك جميعه تأزم الأوضاع لملاك الأراضي وسوء حالتهم المالية ، فالتجأوا لرهن أراضيهم وتصف صحيفة الوقائع المصرية ذلك بقولها « بعض أعيان بلادنا رهن أرضه الزراعية الخصبة على ٢٥ ألف جنيه يدفعها في خمسين سنة مائة ألف جنيه وكسور ، وهذا ذل الدين وأثقاله إذ رسم على الذوات أن تكون في قبضة الدين »^(٤) . وغدت الأراضي الزراعية مثقلة بالديون والرهونات ، ومن هنا أصبح كثير من الملاك يثنون تحت هذه الظروف بعد أن وجدوا أنفسهم مثقلين بالديون التي ألجأتهم للبيع ، وفي أحد التقارير يبين طلبة عصمت بأن « سلاك

(١) الوقائع المصرية ، عدد ٨٥٧ في ٢٤ فبراير ١٨٨٠ .

(٢) المصدر نفسه ، عدد ٨٣٢ في ١٩ أكتوبر ١٨٧٩ .

(٣) المصدر نفسه ، عدد ٨٤٦ في ٢٣ يناير ١٨٨٠ .

(٤) المصدر نفسه ، عدد ٩٦٩ في ٢٥ نوفمبر ١٨٨٠ .

الأراضي المصريين قد باعوا أراضيهم « ويؤكد فيه على فهمي بأن » الفقر ساد حتى على المالكين ، ولم يبق شيء في يد مصر^(١) .

ومن أجل ذلك كله اشترك ملاك الأراضي في الثورة بعد أن وصلت حالتهم إلى أقصى درجة من التبرم والاستياء ، ورغم ضعف رياض التي لمسناها فإن النشاطات مضت في ممارسة العمل السياسي الذي وضع مفهومًا اجتماعيًا على ما كان يقوم به ، فقد انضم الملاك إلى الجمعيات القائمة ، كما شكلت لجنة من سلطان باشا وأحمد بك حمدي ومحمد بك مقبل والسيد أحمد افتدى بسيوني والشيخ على الليثي وإبراهيم اللقاني والشيخ على نايل وعبد الفتاح بك رحمي ومحمد أمين بك ومحمد بك الشواربي ويعقوب بك ، ووصل أعضاؤها من كبار الملاك إلى أربعين عضواً ، وانضم إليها البارودي ناظر الأوقاف وعلى الروبي رئيس مجلس المنصورة وأيضاً معاونين وعمد ، وكان الهدف العلني أمام الجميع منها هو النهوض بالتعليم ورعاية الحقوق الإنسانية^(٢) وواضح من الأسماء أنهم المشتركون في الثورة .

العمد والمشايخ

يمثل مشايخ القرى حلقة اتصال بين الحكومة والفلاحين لما لهم من مركز اجتماعي تكون على مر الأيام في القرى ، وقد تمتعوا بمكانة إدارية منذ عصر محمد علي وخصوصاً بعد منحهم أراضي « مسموح المشايخ والمصاطب » ، وامتدت سلطاتهم على الفلاحين ، فاثروا على حسابهم ، وكانوا كلما ضغطت الدولة عليهم ضغطوا بدورهم على الفلاحين ، وقد ألقى عباس عليهم مسئولية جمع الضرائب وإعادة الفلاحين الهاربين وإعداد المطلوب للسخرة والجهادية ، وأشرفوا على الزراعة ، وكان عليهم دفع التعويض لما يتلف للميرى « فقد ألزموا بدفع أموال وتقاوى البرسيم من أجل المواشي الأميرية أكله الدود »^(٣) ، وكان سعيد قاسياً على المشايخ فحد من سلطاتهم وجعلها تحت سيطرة الحكومة ، وفرض عليهم تقديم أبنائهم للجهادية بعد أن كانت قاصرة على الفلاحين ، ووجد بين المسلمين والأقباط

(١) مجلس الوزراء ، محفظة ٢٨ ، مجموعة ٤٧ حربية ، تقرير .

(٢) الوقت ، عدد ٩٤٣ في ٢٦ سبتمبر ١٨٨٠ ، عدد ٩٤٩ في ٨ أكتوبر ١٨٨٠ .

(٣) محافظ الأبحاث ، محفظة ٤٢ ، دفتر وارد معية تركي ، ترجمة الوثيقة رقة ٧٦٨ في ٢٠

ربيع الأول ١٢٦٥ . (١٨٤٩) .

في هذه المسألة ، كما منع عنهم تحصيل الضرائب ووكلها للسيارفة ، وأصدر القوانين التي حددت من ثروتهم ، وفرض الضرائب على أراضيهم .

وجعل سعيد بجانب المشايخ فئة أخرى من كبار الملاك وهم العمدة ، ولم يكونوا متميزين عنهم إلا في انتخابهم وتخيرهم لأقوى العناصر الريفية نفوذاً وثراء مع قصر وظيفة الشياخة على من يلى هؤلاء في المركز الاجتماعي ، وأصبح أغنى من في القرية هو شيخها ، وأغنى الشيوخ يكون عمدتها الذي كان يعرف القراءة والكتابة .

وأعطى إسماعيل العمدة كافة السلطات التي أوصلتهم إلى أعلى قمة النفوذ في الريف ، فأنيط بهم تصنيف الأرض وتقييمها ، وبناء على رأيهم يتقرر نزاع الأراضي للمنافع العامة ، ويقدرن الضرائب على أطيان الميرى المباعة للأفراد ، وعليهم تقديم الفلاحين للتجنيد والسخرة^(١) .

وبذلك أصبح العمدة الحكام الطغاة للقرى ولكن طغيانهم كان أقل درجة من طغيان الباشوات ، وبحكم ذلك ازدادت أملاكهم على حساب الفلاحين ، فامتدت أطماعهم إلى الأراضي التي ليس لها ورثة ، والتي كان القانون يجعلها للدولة ، وإلى أراضي المستحبين وذلك بعد الضغط عليهم الذي يجعلهم في النهاية يتركرون أراضيهم ، وقد مارس العمدة مسألة إقراض الفلاحين ، وعند العجز يكون الاستيلاء على الأراضي ، هذا بالإضافة إلى شرائهم أطيان الميرى ، وكان منهم من نال حظوة الإنعام عليه بالأطيان ، كما نمت ثروة البعض عن طريق الاشتغال بتوريد البضائع لجهات الحكومة ، وعندما جاءت الحرب الأمريكية وكانت لها انعكاسات على الاقتصاد المصري أكثر من اقتناء الأراضي ، وأعطتهم اللوائح والقوانين الخاصة بتثبيت الملكية الفرصة للمداومة على ذلك .

وكان للعمدة امتيازاته ، فهو يعنى من ضريبة خمسة أفدنة من ممتلكاته والسخرة والجهادية عن نفسه وأبنائه ، وأمام الفلاح فقد كان العمدة قاموس القانون والسياسة ، فيمد مأمور المركز بالمعلومات ، ومعه من ٢٠ إلى ٢٥ من الخفراء والحراس وذلك لحفظ أمن القرية ، وسلطته القضائية غير محدودة ويقول كرومر « عندما يعتلون الأرائك في غرفة الديوان لإصدار الحكم كان الفلاحون يطيعون أوامرهم على الفور »^(٢) ، فحكمهم لا مرد فيه ، وفوق ذلك فهم يتمتعون بنفوذ ديني كبير ، ويتحكمون في كل مظاهر الحياة في الريف المصري .

Cromer , op. cit., Vol II , p. 190 , Bear , op. cit., p. 52 .

(١)

Cromer , op. cit., Vol II , p. 178 .

(٢)

أما عن خضوع العمدة والمشايخ للسلطات العليا ، فقد كان يتلخص فى الانقياد التام والطاعة لأوامر المديرين فى كافة المسائل ، فكانوا يعاقبونهم بالغرامة والسجن إذا تأخروا فى تنفيذ الأوامر ، وإذا تكررت مخالفاتهم أوقفوا من وظائفهم ، ووصل الأمر أيضاً إلى فصلهم نهائياً ، وكان ذلك يتم دائماً بسبب عدم استكمال الأنفار المقررة للجهادية وعدم موافقة التعداد .

وكان أول مرة يظهر فيها النفوذ السياسى لهذه الفئة داخل مجلس شورى النواب ، إذ يتم اختيار هذا المجلس بمعرفة عمدة ومشايخ القرى بالدرجة الأولى ، ومن بين أعضاء المجالس البالغ عددهم ٧٥ عضواً كان هناك من ٥٨ - ٦٤ من العمدة ، وذلك نتيجة لللائحة المجلس التى قصرت حق الانتخاب والترشيح عليهم .

فقد أدرك إسماعيل أن مشاركة هؤلاء الريفيين فى حصة من الحكم وسيلة لا غنى عنها لتوطيد سلطانه ، وزاد من أهميتهم سماح الخديو لهم بتوليهم « منصب مدير » فبلغها البعض بالإضافة إلى عدد من الوظائف الإدارية الأخرى^(١) ، وكان منهم من يجمع بين وظيفته الأساسية وبين « أمير جفالك وناظر زراعة » ، ومنهم من يجرى وراء مصالحه التجارية ويترك القرية وفلاحيتها من أجل أن يحقق المكاسب .

أما عن التعيين فى مناصب العمدة والمشايخ ، فأحياناً يستمر فى عائلة واحدة بالتعاقب الإرثى ، وفى القرية الواحدة كثيراً ما يكون هناك أكثر من عائلة تتنازع ذلك المنصب ، وكانت بداية التعيين ترشيحاً من الحكومة ونهايته انتخاباً يجرى تحت إشراف مأمورى الأقسام والمراكز ، وفى أبريل ١٨٨٠ صدرت الأوامر بانتخاب مشايخ القرى والبلدان بمعرفة الأهالى ، وأن يكون الانتخاب بأكثرية الأصوات مع مراعاة أمرين ، الأول أن يكون الناخب عارفاً بالقراءة والكتابة ، والثانى أن يكون مطلعاً على القوانين والنظام^(٢) .

ومن خلال السلطات الممنوحة لهم مارسوا الظلم على أوسع نطاق على الفلاحين ، مما جعل الأخيرين يلجأون للعمل لدى الذوات والأوربيين أملاً فى حمايتهم من شيوخ البلد ، فهم مصائب الفلاح الضعيف ولهم القوة والسلطة عليه وقد وصفتهم لائحة مصر الفتاة بأنهم « ظلّموا الفلاح بما لم تسمع بمثله أذن ولم تره عين حتى ألف أكثرهم الظلم والجور وخلوا من الذمة والرحمة والأدب »^(٣) .

(١) بير ، المرجع المذكور ، ص ١٢٥ . (٢) المحروسة ، عدد ٦١ فى ٩ أبريل ١٨٨٠ .

(٣) جمعية اتحاد مصر الفتاة ، المصدر المذكور ، ص ٧ .

وألقي عليهم تعداد السكان لتعيين الضرائب التي ضغطوا في تحصيلها مما اضطر الفلاحين لبيع أراضيهم وماشيئهم لهم للتخلص من عبء الضرائب ، وأصبح يحق للعمدة أن يسرق ويضطهد ويظلم بدون أن يحاسب ، بل أن المصاريف المتطلبة من القرية كانت تقع على عاتق الفلاحين ، ويعفى منها تلك الفئة التي وقفت بجوار الباشوات وساعدتهم ضد زارعي أراضيهم .

وبالنسبة لمسألة السخرة ، فقد كان العمدة مسئولين عن تقديم العدد المطلوب من الفلاحين ، واستغلوا ذلك أسوأ استغلال ، حيث فرضوا سخرة أخرى على الفلاحين للعمل في أراضيهم في الوقت الذي استحوذوا فيه على الرشوة لمن يرغب التخلص من السخرة العامة .

وكان العمدة والمشايخ ينجحون دائماً في استبعاد أهاليهم وأصدقائهم من سلك الجهادية ، وكثيراً ما كانوا يخفون أنفار سن القرعة وعدم درجهم بالكشوف المطلوبة وذلك في نظير مصالحهم الخاصة .

أما عن دخول تلك الفئة في فلك الحركة الوطنية ومساهمتها بكل ما تملك وتخليها عن طبيعتها السابقة ، وانخراطها في تيار الثورة ، فقد أرجح ذلك إلى ما عانتته كشريحة من شرائح المجتمع الذي تعرض لقوى الظلم والاضطهاد هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كانت الآمال والتطلعات التي سيطرت عليهم للمزيد من السلطة مع هذا التغير الجديد .

وبدأ التذمر مع التحكم الأجنبي بنوعيه التركي والأوربي ، فكثيراً ما كان يُستولى على أراضٍ يمتلكونها بسبب وقوفهم أي موقف معاكس للسلطة ، وفي الحال يحكم عليهم « إنهم مرتكبون للأغلاط وتنتزع أراضيهم »^(١) وكانت سلطة المديرين ووكلائهم - أترك - تفوق سلطة الناظر على أعيان الريف من العمدة والمشايخ ، فعندما شرع وكيل مديرية الغربية في تحصيل متأخرات ضرائب عام ١٨٧٨ ، أرسل في طلب المشايخ والعمدة لدفع المال ، فجاءوا وشكوا سوء الحال وضيق اليد فاتخذ بعض الوسائل القاسية ، فضرب بعضهم وسجن الآخر ، ووصل الأمر إلى أن راح بعض العمدة - تحت حراسة رجال البوليس - يشتغلون بتنظيف الشوارع^(٢) . وشرع أيضاً نظار الأقسام ومأمورو المالية في استعمال الضرب والإهانة للعمدة والمشايخ .

(١) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤١ ، جمادى الأولى ١٢٩٩ (١٨٨٢)

(٢) التجارة ، عدد ١١٩ في ٣ نوفمبر ١٨٧٨ .

وارتفعت أصواتهم بالمعارضة عن طريق الشكاوى وخصوصاً أمام تلك الظروف والأعباء المالية الصعبة ، فبدأت الترجمة الفعلية للكبت تظهر تباعاً ، فترى أنه عندما علم عمد ومشايخ مديرية الغربية بقدوم ولسون ذهبوا إليه على المحطة وتجمعوا فاضطر لتهدئتهم « وخطب فيهم على لسان الترجمان ما مفاده أنه سيبذل جهده بتعديل الرسوم ورفع المظالم ، ثم قال ومن وقعت عليه ظلامة فليرفعها إلى بعرض ، فرفع إليه على الفور ٢٠٠ عرض تظلم » ، وتبعهم فى ذلك عمد ومشايخ من مديرية المنيا وبنى مزار ، وتقول صحيفة التجارة « قدموا إلى نظارة الأشغال عرضاً يدل على اتجاه أفكار الفلاحين إلى الحرية ، وأنهم قد اشتد أزهرهم وتقوى عضدهم »^(١) .

وانصبت المعارضة فى التمرد على الأوضاع وعدم الرضا عن السياسة المالية وخاصة الضرائب ، إذ تعرضوا للضغط والإجبار على دفع المقابلة مع تجمع الظروف من رداءة المحصول ونفوق الماشية وتكدس الديون ، وقد رفعوا أصواتهم بأنهم لن يدفعوا ، حيث إن المال المعين فوق الاحتمال . وأصبح لمجلس شورى النواب من الأهمية بالنسبة للأمة ، فأبلغوا أعضاء بضرورة تخفيف الظلم الواقع عليهم ، وبذلك نرى المطالبة بالعدالة والنفور من عدمها والإحساس بوجود مندوبين يدافعون وأن كلامهم يجب أن يسمع .

ويستاء عمد ومشايخ مديرية أسيوط من إعفاء الأوربيين وذوى الحميات والذوات من الضرائب وخاصة المقابلة ويهددون بأنهم « إذا فرض عليهم ولم يفرض على المتمتعين بالامتيازات ، وإذا صدرت الأوامر التى تقضى ببيع أطيانهم ومواشيهم إذا تقاعدوا عن الأداء ، فإنهم لن ينقادوا لها ولا يسلمون فى بيع شيء من ذلك »^(٢) .

فبعد أن كان العمد والمشايخ يسировون فى ركب التعاون مع الحكومة فى سياسة الضغط لتحصيل الضرائب ، ما لبث الأمر أن فرضت عليهم وتزعموا المعارضة وهددوا بعدم تنفيذ أوامر الحكومة من ناحية ، وبالضغط على أعضاء المجلس النيابى وطلبهم منهم عدم تقرير شيء يكون خارجاً عن حد المساواة من ناحية أخرى .

(١) المصدر نفسه ، عدد ١٥٣ فى ٢٣ ديسمبر ١٨٧٨ ، عدد ١٥٩ فى ٢ يناير ١٨٧٩ .

(٢) المصدر نفسه ، عدد ١٦١ فى ٧ يناير ١٨٧٩ .

وأضحى لتلك الفئة الإدراك الكامل والوعى التام فيقول عمد ومشايخ بنى سويف « من المعلوم أن الدول لا تقوم إلا برجالها ولا يستقيم شئون رجالها إلا بالعدل ، ولقد علمنا من مطالعة الجرائد أحوال البلاد البعيدة ، فلم نر في أحوال الأمم أسوأ مما نحن فيه من حيث كثرة الضرائب التي لا تعرف لها أول ولا آخر ، مع اضمحلال حالنا وتعطل أرضنا واحتمالنا ما لا يطاق من العسف والجور »^(١) ، ويعنى القول الإفصاح عن عدم المقدرة لتنفيذ أوامر الحكومة .

وتبع ذلك أنهم لم يكتفوا بهذا السلاح بل زحفوا إلى القاهرة ، وجاءوا من الوجه القبلى ليعلموا رفضهم لما وقع عليهم ، وللاحتجاج على استعمال الضغط في تحصيل الضرائب ، وقد وصف ذلك مراسل التيمز في ٢٢ يناير ١٨٧٩ « لست مبالغاً إذا قلت إن في القاهرة الآن مئات المشايخ يمثلون كل منهم قرية من القرى ، لقد جاءوا بمعروضات يسألون فيها تخفيف الضرائب ، وكلهم يعلن أنه لا يمكن بقاؤها على ما هي عليه ، جموع محتشدة أمام أبواب النظارات ، حيث يعترضون النظر في غدوهم ورواحهم ومعروضاتهم تملأ أقلام المصالح »^(٢) .

ويسؤال وفد عمد ومشايخ ناحية دفتو بالفيوم والذي حضر لنظارة الداخلية عن سبب حضوره كان الجواب للشكوى من مأمور تحصيلات المديرية « الذي أرسل حملة من الخفر نحو الخمسين نفرًا ، وأذن لهم بالهجوم على المنازل وجمع مواشيها والحريمات »^(٣) . هذا بالرغم من أنهم جميعاً مؤدون للضرائب ، لكنه كان يريد المزيد . وعن سوء تلك المعاملة أرسلوا العديد من التراجى لرياض لكى يوقفها .

لكن ماذا قدمت حكومة رياض أمام ذلك كله ؟ لم تقدم شيئاً بل زادت الأمر وبالأ ، فامتلأت النفوس التي كانت على استعداد للانضمام لركب مسيرة الثورة لو تفجرت في ذلك الوقت ، وكانت أحياناً تقوم بعض الحركات التي تتم عن تفريج بعض الكبت الذي بلغ مداه ، فبينما كان مأمور التحصيلات في مديرية جرجا يمر بجهات المديرية ، امتنع المشايخ عن دفع الضرائب له ، ، فقبض عليهم وأرسلهم مع عساكر المديرية لينالوا جزاءهم على يد أحد القواسين « وأوقف الأهالى المسيرة قسراً وخلصوا المشايخ وحبسوا من معهم »^(٤) ، لكن ذلك لم يكن أكثر من إجراءات

(١) المصدر نفسه ، عدد ١٧٠ في ٢٠ يناير ١٨٧٩ .

(٢) روثستن ، المرجع المذكور ، ص ٨ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ٨٣٠ في ٤ أكتوبر ١٨٧٩ .

(٤) الوقت ، عدد ٧٥٢ في ٦ ديسمبر ١٨٧٩ .

وقتية سرعان ما تنتهى أمام جيروت المسئولين ، كذلك ضاق العمد بضغط نظام الأقسام عليهم » عبد اللطيف أفندى ناظر قسم برديس بمديرية جرجا يمتلك نحو ألف فدان وله وابور ثابت يزرع عليه قصباً وسواه ، وأن ما يستلزمه من أنفار ومواشى لتحضير الأطيان ووقود للوابور ورأسمال للقصب طالب به العمد ، فضاق صدرهم وضجروا ولم يجدوا سبيلاً للتخلص » واستمرت مسألة الإهانة والضرب مع رياض ، وأصبح كل شيخ يعاقب بالنيابة عن أهالى مشيخته « فالشيخ عطية رئيس مشيخة برج مفيزل ليس عليه شيء للحكومة بل على الأهلى فى مشيخته بواق قدرها ٤٠ جنيهاً ، فطلب منه أن يدفع هذا المبلغ دون توقف ، ولم يكن فى استطاعته ذلك ، وألقى على الأرض وأخذوا يجلدونه حتى أغمى عليه ، فرفعوا الضرب ، ورثما أفاق أعاده وجلدوه ووقع هذا بين محل المحافظة وخفر السواحل ولقاء المحكمة ، وشهد بذلك كثيرون من أهل رشيد « (١) .

وكان مأمورو المراكز يجبرون المشايخ على أعباء مالية إضافية لم تقرها الحكومة ، « فمأمور مركز منوف أجبر المشايخ على دفع ثمن أخشاب لزوم شبابيك للمحلات المقيم بها هو وخدمة المركز بدرك البحر ودفع أجرة النجار » (٢) .

كذلك أجبروا على استخراج أنفار فوق العدد المطلوب ، فقد اشتكى المشايخ لنائب القنصل البريطانى فى الزقازيق بأنهم أرسلوا ست شكاوى بشأن ذلك حيث إن مأمورى المراكز يستغلون الأعداد الزائدة لصالحهم (٣) .

وتعرض العمد والمشايخ للاضطهاد على أيدي الباشوات الأتراك من كبار ملاك الأراضي ، الذين أذاقوهم الذل ، فتأصلت فى نفوسهم تلك الكراهية لذلك العنصر ، فالباشا يعزل من يشاء منهم وخصوصاً عندما يكتشف أن العمدة يعمل لمصلحته على حسابه ، فتصدر إليه الأوامر بمغادرة القرية وعدم العودة إليها . وعند حضور هذا الباشا إلى القرية كان المشايخ يرتعدون من وجوده ، فكم كان الأتراك يقسون عليهم ويستغلونهم لصالحهم ، وتعددت مسائل الفتن عليهم « أخذ مراد باشا حلمى ٨٠٠ فدان وكسور متروك الميرى لم يسبق لها زراعة ، ولما وجدها بهذه الصفة أحضر

(١) المصدر نفسه ، عدد ٩٤٩ فى ٨ أكتوبر ١٨٨٠ ، عدد ٩٣٣ فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٠ .

(٢) محفوفات الداخلية ، محفوظة ٣٨ ، ٢٥ ذو القعدة ١٢٩٨ (١٨٨١) .

(٣) Egypt. No. 3 (1880), Inclosure 6, April 16, 1880 .

(٣)

شيخ الناحية (الكوم الأحمر بمركز سبك منوفية) وألزمه بإيجار الأطيان مدة ثلاث سنوات عن كل سنة ٨٠٠ قرش للفدان وذلك بنوع الجبورية ولما أعرض عنها سجن ولده « (١) .

وأضاف إلى المشكلات وعقدها أن فرض عليهم بعد أن يسددوا الضرائب ، أن يساهموا في دفع ما هو مقرر على أطيان الذوات ، واضطهدوا من أجل ذلك بل وهددوا بالانتقام من أبنائهم . وجاء قانون المقابلة وزيادة الضرائب العشورية ، ليضيف المزيد من الكراهية للحكومة والقائمين عليها ويسود السخط على التصفية ، وقد ساهم بعض العمدة في تقارير الرفض الموجهة ضد قانونها .

وازداد الحنق على رياض ، حتى أنه عندما ارتفع فيضان ١٨٨٠ وأخذ العمدة يعملون على تقوية الجسور ، يذكر لنا الهلباوى في مذكراته « ولما جاء المهندسون وعمال الإدارة لحماية أرض رياض باشا أشار العمدة عبد اللطيف بك بترك الجسر القديم وعمل جسر جديد ، وبهذا العمل الذي قام على سوء النية غرقت ثلاثون فداناً من أرض رياض باشا وابتلعها ماء النيل » ويتابع عما أصاب العمدة « فانتهى الأمر بحبسه بناء على شكاوى كاذبة لفقها ضده » (٢) .

وعانت أيضاً هذه الفئة مثلما عانت بقية فئات الشعب من الأجانب وتسلطهم ، وكثرت بينهما المشاحنات والمنازعات التي دائماً ينتصر فيها جبروت الأجانب وخاصة ملاك الأراضي الذين دائماً هم المعتدون ، فعلى لسان أحد المشايخ أنه كان جالساً أمام منزله لتحصيل أموال الميرى في ١٣ ذو الحجة ١٢٩٧ (ديسمبر ١٨٨٠) إلا ووجد أمامه الخواجة بنى كقدورى ومعه اثنان أحدهم يحمل بلطة والآخر بندقية « ولحد وصوله عندنا وهو راكب حصانه وبيده الكرياج وأمر خدامينه أنهم يحضروني ويوصلوني إليه ضربيني بالكف على وجهي بعد أن مسكني من دقتي وصار يشتم ، وعندما قلت له يا خواجة نزل على ضرب بالكرياج » (٣) . ولم يفعل هذا الشيخ شئ يستحق ذلك سوى أن ذلك اليوناني كان مالكا لأراضى في نفس المنطقة ومستحوذاً على مياه الري لها ، وأراد أيضاً أن يمتلك الأراضي ومن عليها ، فمضى في جبروته وتسلطه دون أن يجد رادعاً لأفعاله .

(١) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٠ ، ٧ صفر ١٢٩٩ (١٨٨٢) .

(٢) إبراهيم الهلباوى ، مذكرات ، ص ٩ ، ١٠ .

(٣) محفوظات الداخلية ، محفظة ٣٧ ، ١٢ يونيو ١٨٨١ .

ومارس الأجانب الإقراض بالربا الفاحش ليس فقط على الفلاحين وإنما أيضاً على العمد والمشايخ ، وكم من الأطياف المرتهنة فقدت عن هذا الطريق ، وكان السبب فى ذلك الأجانب الذين أوجدوا الفساد فى الريف المصرى كفتح الحانات التى جذبوا إليها تلك الفئة وأخضعوها لعملية استنزاف كاملة مادياً ومعنوياً .

وهكذا أحيط العمد والمشايخ بجميع الظروف الصعبة التى خلقت منهم فئة مضطهدة تعاني من كل ما يحيط بها ، وتنتظر بفارغ الصبر الوثبة التى تقفز إليها لترتمى فى أحضان « مصر للمصريين » .

البدو

رأى محمد على فى البدو قوة يمكنه أن يستغلها لتحقيق البرنامج الذى وضعه ، فأراد لهم الاستقرار ، فمنحهم الأراضي وحولهم إلى حالة الفلاحة وهذا ضمن له اتقاء شر هجماتهم المستمرة ، واستخدمهم كحصن واق لحذود مصر ، فبرز الكثيرون منهم وأصبحوا من أصحاب الأبعاديات ، هذا فى الوقت الذى كانوا فيه يتمتعون بالإعفاء من الخدمة العسكرية وأعمال السخرة ، لذلك فقد اعتبروا أنفسهم على مستوى أعلى من الفلاحين الذين كانوا فى نظرهم مخلوقات أدنى منهم فلهم وحدهم تحمل تلك الأعباء .

وقد تمتع شيوخهم بنفوذ قوى فى تلك المناطق التى أصبحت لهم فيها ملكيات ، حيث كانت الأراضي التى تمنح لهم بأسمائهم وحدهم فى حين يبقى أفراد القبيلة مستأجرين أو أجراء عندهم ، واستطاع بعضهم أن يحصل على وظائف كمفتشين ومدبرين مكنتهم من أن يزدادوا نفوذاً ، وكان محمد على صاحب فكرة إدماج البدو مع الفلاحين وكسر ترابط البدو لتدعيم أهدافه ، وقد سار بعض خلفائه على سياسته ، فإبراهيم يعطينهم وعباس يكرمهم . أما سعيد فقد قرب الفلاحين إليه ، وكره البدو حتى لقد استثناهم من كل ما منحه لغيرهم ، وأراد إدخالهم فى الخدمة العسكرية .

كانت نتيجة ذلك قيامهم بالثورة فى الفيوم ، فما كان من سعيد إلا أن أصدر أوامره بإبادتهم ، وقضى على تلك الثورة « بعد أن قتل من العرب ناس كثيرون بالمدافع والبنادق وأخضعهم وجلب كثيراً من رؤسائهم فى ليغان القلعة السعيدية » (*) .

(*) محميد فهنى ، المصدر المذكور ، ص ١٩٨ .

وكثيراً ما كان البدو يثيرون الاضطرابات ، فقد شهد حكم إسماعيل بعضها في جهات بالصعيد إذ اعتدوا على الفلاحين مما اضطر الحكومة إلى « انتزاع ما كان بحوزة شيوخ قبيلة الحوازي من أطيان المنيا »^(١) .

وتعرضوا كما تعرضت باقى القوى الاجتماعية لأسوأ الظروف التى مرت بها مصر مع إسماعيل وكانوا ناقلين على سياسة الدولة وغير راضين على التغفل الأجنبى ، هذا وقد حملتهم الدولة بعض الأعباء ، فكان عليهم أن يقدموا لحرب الحبيشة الخيل والبغال ، ولم تصرف لهم استحقاقاتهم ، هذا فى الوقت الذى كانت مصر فيه تحت نيران النظارة الأوربية التى أرادت أن تصرف البدو المطالبين بحقوقهم « فأبى بعضهم وحاول إثارة الشغب فألقى القبض عليهم وسلموا للضابطة »^(٢) . وكانوا مشهورين بالشغب والقتال ، وقد خُشى من غضبهم الذى أصبح واضحاً ، ويأتى إلغاء قانون المقابلة الذى استفاد منه ملاك الأراضى منهم لارتباطه بحجج الملكية ليثيرهم إلى أقصى درجة ، وخاصة شيوخهم أصحاب الملكيات الواسعة ، فيزداد حقهم على الحكومة ، وبذلك تتجمع لديهم الأسباب للاشتراك فى الثورة العربية .



(١) رؤوف عباس ، المرجع المذكور ، ص ٩٥ .

(٢) مدى الأهرام ، عدد ٥٩١ فى ٢٥ مارس ١٨٧٩ .

العسكريون
والتضامن الثوري
ومجاهدة القوى
المضادة

الفصل الخامس

انطلاق العسكريين والوحدة
مع كبار ملاك الأراضي.

الفصل السادس

انتصار الثورة وممارسة
العسكريين للسلطة.

الفصل السابع

القوى المضادة.

انطلاق العسكريين والوحدة مع كبار ملاك الأراضي

✍ ... العسكريون والزعامات الثورية

كان الجيش هو القلعة الحصينة في نظر المصريين جميعاً ، فهو القوة التي تحمل السلاح في وقت كتب عليهم فيه الذل والمسكنة ، فأعطوه الثقة وأعطوه النيابة وأعطوه العمل وأعطوه الوعود بالوقوف بجواره ومشاركته في كفاحه ، ولم لا وهو يمثل وبحق الإحساس الكامل لهم جميعاً ، فالارتباط قوى ومتين ، فتقول صحيفة الثورة « أن عساكرنا المصرية هم من أهل البلاد ، وعلى الأقل موجود فيهم من كل بلدة ثلاثة أنفار ، الواحد منه لا يخلو من أن يكون بينه وبين سكان بلده صلة الأبوة والبنوة والعمومة والأخوة ونحو ذلك من روابط القرابة أو المجاورة ، فأية علاقة أقوى من هذه »(*) .

أضف إلى ذلك طبيعة تكوين هذا الجيش كانت تعتمد على عنصر الفلاحين ، فالقوات المصرية لم تكن إلا فلاحين تحولوا إلى جنود ، قاسوا قبل أن يجندوا وأيضاً أثناء تجنيدهم من أجل أهلهم وضغط الحكومة عليهم وضرائبها ومحصلاتها ، ومن الأجانب ورباهم وسيادتهم التي تربعت على عرش مصر .

وقدر لمصر أن يتولى زعامتها عسكريون لم يتخرجوا من المدارس الحربية ، بل رفقوا من تحت السلاح لكي يتقدموا الصفوف ويصبحوا قادة الطليعة الثورية أمثال عرابي وعلى فهمي وعبد العال حلمي الذين كانوا يتبعون أسماءهم بلفظ مصرى ، بل ودائماً كل منهم يردد ويؤكد مصريته ، ولم يكن هؤلاء بمفردهم في هذا الميدان ، فقد وجد غيرهم من المنتمين إلى فلاحى مصر أمثال طلبة عصمت ومحمود فهمي وعلى الروبى وغيرهم .

(*) المفيد ، عدد ٥٣ فى ٤ مايو ١٨٨٢ .

ومع بداية حكم توفيق يتولى النظارة رياض ليكون فيها عثمان رفقي ناظرًا للجهادية ، وهو رسول الشراكسة وإمامهم ، وكان الله قد أوجده على أرض مصر من أجل الانتقام والغدر بالعسكريين المصريين ، فهو عدوهم الأكبر ، ومن هنا راح يطبق تعليماته غير العادية عليهم .

كان بطبيعته ميالاً إلى جنسه ومتعصباً إلى أقصى حد ، هذا الجنس الذي قاست منه مصر مراراً ، فأثر الشراكسة على المصريين في كل شيء ، ولم يكن الحرمان هو فقط الذي تعرض له العسكريون المصريون ، إنما أيضاً الاحتكار والزراية والحقن الذي صوب اتجاههم ، بالرغم من أنه كان جاهلاً قليل الإدراك والذكاء عديم المواهب قليل النظر في المواقف ، إذ حرص كل الحرص على أن يبقى المصريين مقيدين مدى العمر وأبد الدهر بسلاسل السلطة الشركسية .

وأرادت نظارة رياض أن تقتلع جذور النضال بطرقها المتعددة وكأنها كانت تدرك وتحس بما يمكن له أن يكون على يد العسكريين الفلاحين فوجهت أولى ضرباتها لهم ، فأعطى رفقي سلطة التصرف ، فما كان منه إلا أن أوقف حركة الترقية لمن هم من تحت السلاح ، وتقرر «أن تبقى الخدمة العسكرية مدة أربع سنوات، وهي غير كافية للحصول على الترقى ، ثم يذهب الجندي إلى بلده ويستمر مدة خمس سنوات مع ترده على مركز المديرية شهرين في كل سنة لمباشرة التعليمات العسكرية، وبعد مضي السنوات الخمس يقيم في بلده بغير عمل ويسمى حينئذ احتياطياً تحت الطلب مدة ست سنوات ثم يسمح اسمه من دفاتر الجهادية» (*) .

كان معنى ذلك هو حرمان العسكريين المصريين من الوصول إلى أى رتبة وجعلهم أنصاراً تحت التسلسل الشركسى ، وبدأ رفقي في تنفيذ خطته وهى فصل الضباط المصريين بدون تحقيق قانونى ، وشرع فى تصنيفهم على حساب الشراكسة ، فأمر بإحالة عبد العال حلمى إلى ديوان الجهادية معاوناً ، وكان يبلغ من العمر أربعين سنة ، وعين مكانه خورشيد بك نعمان وهو من أصل شركسى ويبلغ من العمر خمساً وستين سنة ، وليست لديه القدرة على تحمل الأعباء العسكرية ، وفصل أحمد

(*) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، ج ٤ ، ص ٨٣ ، ٨٤ .

عبد الغفار قائم مقام السوارى ، وكان فى الأربعين من عمره وأقام بدلاً منه ضابطاً شركسياً « شاكرك بك طبوذاده » ، والسبب فى اختيارهما أن رفيق كان يملأ قلبه الكراهية منهما فقد كانا « ينبذان أوامره ولا يعملان بها »^(١) .

فى ذلك الوقت كانت الخلية العسكرية كاملة التكوين ، وانخرطها فى التدخل بالأمور السياسية أصبح متوافراً فى تلك الاجتماعات التى أحياناً سيطرت عليها صفة السرية ، كما كان للعسكريين دور فى المساهمة فى الاجتماعات التى تعقدتها القوى الأخرى غير العسكرية ، حتى أثناء مقابلات المجاملات والتهنئة جرت المناقشات فى الحالة التى وصلت إليها مصر .

كان عرابى يكره من كل قلبه العنصر التركى ، وينظر إلى رؤسائه من الشراكسة « نظرة العدو إلى عدوه ويحتقرهم فى نفسه لاعتقاده أنهم دونه فى المعرفة ، ويرى أنه أحق منهم بالرتب العالية التى يتمتعون برواتبها ونفاذ الكلمة فيها ، وكان أجراً إخوانه على القول وأقدرهم على إقامة الحجج »^(٢) . ويمثل هذه الروح التى يصبها عرابى فى أعماق الضباط أمكنه أن يكون جبهة متعاونة ، ويقول عرابى عن ذلك « بينما أنا أتجرع غصص الظلم وأنقم على الاستبداد ، وأفكر فى أهل بلادى وأرجو الوصول إلى إنقاذهم من حب الاستعباد واستخراجهم منه إلى متسع الحرية وأطيل النظر فى أعمال الحكام واستبدادهم ، اجتمعت مع إخوتى وهم حضرات على بك فهمى وعبد العال بك حلمى أمراء الآلايات وأحمد بك عبد الغفار قائم مقام السوارى ومحمد أفندى عبيد وخضر أفندى خضر البكباشية ، وتشاورنا فيما بيننا وتعاهدنا على جمع الكلمة واتحدنا على المطالبة بحقوق الأمة وسن القوانين العادلة »^(٣) .

وفى هذه الاجتماعات كثيراً ما كانت تعرض وتبسط سياسة رياض المستبدة وما جرى للعقاد على يديه ، ومنذ البداية كان بيت عرابى له من الصدارة فى اللقاءات ، وسيصبح أول بيت للأمة حيث توافدت عليه وتواكبت للرد على تصرفات رفيق وعدم إخراجها إلى حيز الوجود . وسيطر الفضب وعم السخط ، فمن سمات الإنسانية كره الظلم والقائمين عليه ، وقد ألهم الموقف إيقاظ عرابى وتشجيعه لهم ، وتمضى القوة لتصبح علاجاً لبتير الظلم والجور .

(١) محمود فهمى ، المصدر المذكور ، ص ٢٠٦ .

(٢) محمد عبده ، المصدر المذكور ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٣) محافظ الثورة المرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٥ .

رأى العسكريون أن يطالب رؤساء الآليات الثلاثة « عرابى وفهمى وحلمى » بإسقاط رفقى والمدافعة عن حقوقهم ، وخاصة أولئك الذين لم يتخرجوا من المدارس الحربية . وأقسموا جميعاً على تنفيذ ما يأمر به عرابى بعد أن اختاروه قائداً لهم « فقالوا له أنت الرئيس علينا ، فقال لهم أنظروا غيرى وأنا أسمع وأطيع وأنصح له جهدى فقالوا ليس نبغى غيرك ولا نثق إلا بك ونحن نفديك ونفدى الوطن العزيز بأرواحنا »^(١) . ومنذ البداية كان واضحاً أن عرابى سيكون القائد ليس فقط للعسكريين وإنما لجميع قوى مصر لما تمثل فيه من الأصالة والذكاء وقوة الشخصية .

وبدأ طريق الثورة بعد ذلك الميثاق الذى أخذه العسكريون على أنفسهم بأن يكونوا يداً واحدة وقلباً واحداً ، أمامهم أهداف يجب أن يحققوها ، جمعت الضباط الذين تعهدوا بالمحافظة على ما أقسموا عليه ، وأعد التقرير الذى قدمه الضباط الثلاثة إلى رئاسة مجلس النظار فى ١٥ يناير ١٨٨١ ، وجاء صريح العبارة ، له قوة يخشى منها على الحكومة ، ممزوجاً بالجرأة المتناهية والكبرياء الشامخ لحاملى السلاح الذين إذا أتحت لهم الفرصة هددوا به . وقد ختم على ذلك التقرير حوالى الخمسين يوزباشياً بالإضافة إلى الضباط الثلاثة ، وفيه يتضح الهجوم القوى على الشراكسة ، ومعارضة النظام القائم المستبد ، وبيان أنهم مازلوا هادئين ، وهذا يعنى أنهم على استعداد للثورة إذا ما استمر الظلم^(٢) .

وبوصول هذا التقرير إلى أيدي المسئولين استهزأوا بأقوال هؤلاء الضالحين ، وبناء على ذلك أجل النظر فى الأمر ، وبيّن رياض أن ما طُلب خارجاً على حدود القانون فازدادوا حنقاً عليه ، وحاول إقناعهم بسحب التقرير ، لكنه لم يفلح أمام إصرارهم ، فأنشأ حديث رياض مع عرابى أراد أن يعرف منه من يريده العسكريون ليدير الحكومة ، فأجابه هل مصر امرأة لم تتجب إلا ثمانية أبناء ثم ابتليت بالعقم ، وكان يعنيه مع نظارة^(٣) . وفى ذلك تحد سافر من ضابط تحت السلاح إلى رئيس نظار شمل عهده التكيل بالوطنيين ، فأدار الدفه على العسكريين « فتجرد إلى

(١) أحمد عرابى ، مذكرات ، ج ١ ، ص ١٠٢ .

(٢) Broadly , The Trial and Pardon of Arabi Pasha, Vol. II .

(٣) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 136 .

المقاومة وعمد إلى التهديد ، فبث العيون وشدد في النكير والضباط لا ينفكون عن التحزب والتألب وضم كل بعيد عنهم ممن مسه الضر بفعل الرئيس»^(١) .

لقد كان هناك تصميم وقسم فلا بد من مقابلة القوة بالقوة ، هذا في الوقت الذي رأى رياض إجراء حركة تنقلات بين ضباط الجيش الناقمين ، بينما رأى النضار جميعهم - حيث سرت فيهم الروح الشركسية - ضرورة محاكمة هؤلاء الثوار أمام مجلس عسكري ، وتعهد رفقى بتحمل المسؤولية ودبر الحيلة لتحقيق الرغبة ، وقرر المجلس تشكيل محكمة وذلك « لمحاكمة من انضم إليهم من الأهلين »^(٢) . معنى هذا أنه كانت هناك عناصر أخرى مؤيدة لإتجاهات العسكريين ، وعلى يد الضباط الشراكسة تكونت المحكمة ، وصدر الحكم على أحمد عرابي وعلى فهمى وعبد العال حلمى بتجريدهم من رتبهم ووظائفهم العسكرية وإبعادهم عن مصر وتسليم مناصبهم لضباط شراكسة^(٣) . وتم اعتقالهم بقصر النيل في أول فبراير ١٨٨١ ، وكان الضباط قد أتموا للأمر عدته عندما شعروا بسوء النية التى كانت دائماً سمة العلاقة بين الحكومة والرعية . وبُدىء فى تنفيذ الخطة وجاءت الإنطلاقة العسكرية التى انتهت بالانتصار ، وحضر البكباش محمد عبيد وتحت إمرته القوة اللازمة ، جميعهم من تحت السلاح ، مستعدون للحرب والإطاحة بالظلم ، وأحاطوا بالشراكسة وسجنوا بعضهم وكانوا من أعلى الرتب ، ولم يستطع أحد أن ينطق أمام هذا الزحف من الجنود الثائرين ، واختفى المجلس العسكري فى الحال وراح كل منهم يبحث عن نجاته^(٤) . وخرج القائمون بالحركة من السجن معهم هذا الانتصار مصحوبين بالآلايات إلى سراى عابدين وكلهم اعتزاز ونشوة بما تم على أيديهم وعبر عن نفسياتهم بعد هذا الكبت الذى عانوا منه سنوات وسنوات .

لم يكن العسكريون فقط هم الزاحفين إلى عابدين بل تبعهم العامة فى ضجة عميقة ، فرحين مستبشرين بذلك الانتصار الذى أحرزه المصريون على الذين سلبوهم كل شئ ، وازدحمت عابدين عن آخرها وأصبحت منذ ذلك الوقت ساحة

(١) ميخائيل شاروويم ، المرجع المذكور ، ص ٢٣٠ .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) محافظ الثورة المرابية ، محفظة ٢٢ ، دوسيه ٢٣ .

(٤) Haus Hol - u - Staat, Sarchiv wien, Polit. Arch, No. 15, 3 . Fevrier, 1881, p. I .

للنضال الوطنى ، فقد أتى الناس جميعهم من كل فج عميق . ويقول أحد شهود العيان عن هذا اللقاء « كانت ساحة عابدين إذ ذاك مزدحمة بالجماهير ازدحاماً عظيماً كأنه كان يوماً معدوداً ، وكان ذلك فى القاهرة يوماً منشوداً »^(١) .

إذن لم تكن المسألة خاصة بالعسكريين وإنما هى بشعب مصر جميعه الذى جاء ليدلى بصوته ويسلم أمره إلى هذا الجيش المنتصر ، وفى وسط هذا الزحام قام عرابى ليمارس منذ اللحظة الأولى قيادته الشعبية وتكلم بأعلى صوته وشكر وأثنى على ذلك الموقف البطولى الذى قام به العسكريون ، فزادهم هذا اطمئناناً ، وساعدهم الانتصار على المضى للمزيد من القوة ، وتقدم عرابى ليخاطب حاكم مصر توفيق ويملى عليه إرادة العسكريين ويتحداه مهدداً بضرورة « خلع رفقى واستبداله بغيره ، فإنهم لا يبرحون إلا بنول بغيتهم »^(٢) ، وإن كان قد طلب منه العفو عما حدث ، فإنه تمويهاً للموقف ، وتغطيته بإطار خفيف من الدبلوماسية .

كانت مظاهرة حقيقية فرضت نفسها بقوة السلاح وبقوة الإرادة وبقوة العزيمة وفوق ذلك كلة السيف والمصحف ، وهنا ظهر عرابى على حقيقته ، وفجر كبته ومشاعره ، وتقدم الصفوف وعرض المطالب ، وبدأ يصول ويجول ولا يخاف أحداً ، ويعد فبراير هذا هو بداية ميلاد عرابى وميلاد الثورة .

وغدا من الصعب الوقوف فى وجه طلبات العسكريين ، بعد أن أصبحت الحكومة غير قادرة على حماية نظارها أمام قوتهم وأيضاً عاجزة عن الحد من أوامرهم النائرة ، وذهب الأمر إلى أن فوض العسكريون فى شأن من يريدونه ناظرًا عليهم يقول عرابى : « فقال خيرى باشا إن الخديوى فوض لكم اختيار الناظر حتى لا تشكون منه فيما بعد ، فقلنا له إنا نرضى بتعيين محمد سامى باشا ناظرًا للجهادية »^(٣) . وانحنى الجميع أمام ذلك العرض العسكرى ورضخوا للأمر ، وسقط رفقى ليتولى البارودى زمام العسكريين ، وقد جاء بحد السيف لتهدأ الأحوال ويعم النظام وتعود القوات إلى معسكراتها آمنة مطمئنة .

(١) إلياس زاخورة ، المرجع المذكور ، ص ص ، ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٢) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، ج ٤ ، ص ٨٦ .

(٣) أحمد عرابى ، مذكرات ، ج ١ ، ص ١٠٧ .

كان البارودى هو الذى أفشى للعسكريين سر اعتقالهم فى قصر النيل ونقل لهم تلك المؤامرة التى تحاك ضدهم حيث كان ناظرًا للأوقاف مجتمعًا مع بقية النظار أثناء التخطيط للقضاء على المعارضة العسكرية^(١).

لم يكن مصريًا وإنما حفيد عبد الله الجركسى أحد الكشاف فى عصر محمد على ، فهو بدمائه بعيد عن دماء الفلاحين لكنه بروحه معهم ، فنشاطه ملحوظ مع الحزب الوطنى ، وهواه مع الأحرار واضح ، فقد آمن بعدالة مطالبهم ، لذا انضم إليهم ، وبالرغم من أصله فإنه ضاق بهؤلاء الشراكسة وطباعهم المستعلية على المصريين ، وحكمه صادق عليهم ، فهو فى مكانة رسمية أمكنه منها أن يعيش الواقع الذى يجرى فى ميدان الحكم ، وكان نزعًا للديمقراطية ، ويؤمن بأهمية دور المثقفين الذين هو منهم ، إذ تشبع بأفكار الطهطاوى والمرصى والأفغانى ، وقدم الكثير من ثروته ولم ييخل على الثورة .

انزعجت السياسة البريطانية أمام ذلك ، وأرسل ماليت إلى وزير خارجيته ليترجم الخوف مما تم ، وأنه يمكن بمثل هذه الإجراءات ، وعن طريق القوة العسكرية إقالة النظارة جميعها بل والمراقبة أيضًا ، ومن ثم يتمكن العسكريون من السيطرة على شئون مصر جميعها^(٢) ، وقد كانت مخاوفه كما تصورها إذ تم ذلك بعد حين .

لكن ماذا عن دور قنصل فرنسا فى ذلك ؟ منذ البداية رأى العسكريون ضرورة إضفاء الشرعية على مطالبهم ، فى الوقت الذى كانوا يلتمسون فيه مساعدة قوة خارجية يمكن لها أن تقف بجوارهم لتحقيق تلك المطالب . لذا نرى أنه عقب كتابة تقريرهم وتقديمه للحكومة يرسلون نسخة منه إلى البارون دى رنج قنصل فرنسا فى مصر ، وذلك لإبلاغه للوكلاء السياسيين وبيان أن مطالبهم تنحصر فى العدالة والخلاص من سلطة الشراكسة الاستبدادية الظالمة . وجاء الرد من دى رنج لعرابى بمدحه على ثبات عزيمته ويشجعه على سلوك هذا المنهج مع عدم المبالاة بالحكومة^(٣) .

(١) محافظ الثورة المرابية ، المصدر نفسه ، محفظة ١٦ ، دوسيه ١/٢٨١ .

(٢) Malet , op. cit., p. 101 .

(٣) Broadly , The Trial and Pardon of Arabi Pasha , Vol II .

كان ذلك ثورة متناهية من القنصل ، وشعر العسكريون بها قبل انطلاقهم ، فوضعوا الأمل فيه لإسقاط رفقى وتعيين آخر ، فقد أحس دى رنج بما فى قلب الأمة المصرية من جراح ، وأيقن أن عرابى هو رأس هذه الأمة ، واعتبر توفيق نكرة ولا وزن له ، بينما مثل رياض أمامه المصالح الإنجليزية ، وكان كذلك فالارتباط قوى بين الطرفين ، وهنا اجتمع الصديقان على العدو المشترك ، وأجمع المؤرخون على تلك الصلة الوثيقة التى تأصلت بين الثوار وذلك الفرنسى بعد أن لمسوا أنه سيكون حامياً لهم أمام أعدائهم ، وكان دى رنج يعمل على توطيد النفوذ الفرنسى ، فرأى أن يدعم الجبهة التحررية من أجل الوصول إلى ما ترضاه ، فكتب لحكومته ، لكنه طمس بعض الحقائق ، حيث قال إن العسكريين طلبوا منه أن يتقدم باحتجاج بالطريقة الدبلوماسية للتخلص من رفقى وأتباعه ، وأنه رفض وإن كل ما فعله باتحاده مع ماليت أن قدم النصح لتوفيق بإقالة رفقى ، كما أضاف أن هذه الحركة موجهة ضد الأوربيين ، وزعزت مركز رياض الذى أصبح مهدداً بالانحياز^(١) . ولكن كانت جميع الأحداث تشير بموقفه المؤيد للثوار ، وقد أرسل توفيق أحد مندوبيه لوزارة الخارجية الفرنسية ، فأدهشه ما سمعه من الموظفين عن أسباب مساعدة دى رنج للحركة ، إذ اعتقدوا أن عرابيا وزملاءه يسعون فى تحرير مصر وإيجاد حكومة أساسها الحرية والإخاء والمساواة ، كذلك لم يخف مسيو جبريل شارم المحرر بصحيفة الديبا اتصال دى رنج بالزعماء قبل وبعد قيامهم ضد الحكومة « فكان يستقبلهم أحسن استقبال وكانوا يستشيرونه فيما يجب أن يكون عليه نظام الحكومة المصرية فى المستقبل ، ولم يرضن عليهم بآرائه لأنه كان يعتبرهم من الوطنيين الحقيقيين »^(٢) .

من هذا يتبين أن المسألة لم تكن ثورة عسكرية فحسب وإنما هى بداية للتعبير عن شكل الحكم الجديد ، وفرنسا أمام الجميع هى قبلة الحرية ومنها خرجت الثورة الفرنسية التى وصلت إشعاعاتها إلى الغرب والشرق ، وتتبع النظام الجمهورى الذى كانت تتوق إليه مصر .

Documents Diplomatique Francaise, Tom III, No. 35, 1 Fev. 1881 .

(١)

(٢) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ١١٥ ، ١١٦ .

ومضى دى رنج يستقبل المترددين عليه من الثوار ، وكان البارودى على وفاق معه ينقل إليه جميع تحركاتهم وأخبارهم ، وعندما طلب من القنصل الفرنسى الإدلاء بمعلومات عن تلك الاجتماعات رفض حتى ذكر الأسماء ، واستمر فى مساعدة وتأييد الثوار بكل قواه ، فشكل ذلك خطورة كبيرة على الهيئة الحاكمة وكان لابد من وقفة ، وخصوصاً أن رياضاً يهمه القضاء نهائياً على تلك الصلات ، فسعى فى الأمر ، وكانت له اليد الطولى فى جعل توفيق يكتب إلى رئيس جمهورية فرنسا فى ١٤ فبراير ١٨٨١ يشكو دى رنج ويتهمه بأنه يخلق الصعوبات أمام حكمه لمصر وضرورة وجوب سحبه منها(*) .

ولما كانت فرنسا حريصة على استمرار العلاقات الفرنسية الإنجليزية ، وصلت تعليماتها إلى قنصلها فى مصر تطالب بالمساواة التامة فى المصالح الخاصة بالدولتين وضرورة تأكيد الوحدة بينهما من أجل العمل المشترك ، ولما كان موقف دى رنج قد ساء لندن لذا رأت فرنسا إتماماً لسياسة التعاون استدعاءه على أول باخرة ، هذا فى الوقت الذى مالت فيه مع بريطانيا على ضرورة المحافظة على عرش توفيق الذى كان طوع بنانها ، وهى تعلم كيف يمكن أن تصل ثورات الشعوب للقضاء على مصالح الدول المستغلة ، وفرنسا لها سياستها الاستعمارية التى وضحت فى الجزائر وتونس .

ورحل دى رنج عن مصر لكى توقف الثورة ، ولكنها ازدادت ، بعد أن بلغ عربى من الشهرة والصيت المدى ليس فقط بين العسكريين أو فى الشرقية بل أصبح على لسان مصر كلها ، فكانت الوفود تأتى إليه لتطلعه على شكايها ، وساعده على ذلك تلك الشخصية القوية التى أثرت فى الجميع .

وهكذا انفتح طريق الثورة بسلام وبتحقيق الرغبات وبدون إراقة دماء كعادة جميع الثورات ، لكن كان من الضرورى المزيد من المجهودات حتى يتم الحصول على ما تريده مصر جميعها لا أن يكون البارودى ناظرًا فحسب ، لذا كانت الفترة ما بين قصر النيل وعابدين متعددة النشاطات والاتجاهات التى تركزت فى النهاية على إعطاء العسكريين القيادة فى فرض مطالب الأمة وتحقيقها .

ويتولى البارودي أمر العسكرية ، أعد برنامجاً شاملاً ومتكاملاً لإصلاح حال العسكريين ، فهو المثقف صاحب العقلية المستتيرة والنشاط والطموح ، ولم يكن يقل ثورية عن باقي العسكريين ، وكانت أولى خطواته الحد من سلطة رياض وتوفيق على العسكريين ، وضمن لهم الترقية بدون تفرقة بين الذين تخرجوا من المدارس الحربية أو من تحت السلاح .

وتم تشكيل لجنة في ٢٠ أبريل ١٨٨١ للبحث في الأنظمة والقوانين العسكرية ، وإجراء ما يلزم من التعديلات ، وترتيب المدارس الحربية ، والقبول في سلك الضباط وترقيتهم واستيداعهم وفصلهم ، وأن تكون قرارات تلك اللجنة بأغلبية الأصوات ، وكان البارودي رئيسها وعرابي عضواً فيها . وفي نفس ذلك التاريخ رفعت مراتب العسكريين بناء على عرائض كتب صورها عرابي ، وأرسلها إلى جميع الآليات ليقعوا عليها .

وضعت سلطة المراقبين أمام إصرار البارودي على تنفيذ قوانينه العسكرية ، فقد اعتبر دى بلنيير أن السبب في ذلك الإصرار هو « أن يتحصلوا على رضاهم » ، أى رضا العسكريين ، بينما رأى كولفن « أن الحكومة قد سلمت لغاية الآن بزيادة عن اللزوم في طلبات الضباط ، ولا يمكن كذا التسليم في كل طلب بدون التأمل » ، ولكن البارودي أخافهما وأفهمهما أن « الهيجان موجود في الأفكار بين الضباط » (*) .

وبذلك أنصفت النظارة وناظرها العسكريين الذين كانوا موفقين في اختيارهم للبارودي إذ أعطاهم كل ما كانوا يتوقون إليه من قبل ذلك ، وهذا جعلهم مدفوعين بالعمل من أجل مصر ، بعد أن شعروا بلذة الانتصار ونوال الحقوق ، وأصبح هناك شبه جهاز سرى بينهم لنقل المراسلات السرية التي كانوا يتبادلونها ، وكثرت الاجتماعات بينهم وكان أغلبها في بيت عرابي .

وبدأت الأمور تتقدم وبسرعة ، وراح البارودي يحادث رياض في مسألة زيادة أعداد الجيش وإبطال الأشغال العامة التي أثقلت كاهله ، وبدأت سحب الحياة النيابية تتكثف فوق سماء العسكريين التي تناولوها في اجتماعاتهم بعد أن أصبحوا وحدة متكاملة .

(*) محفوضات مجلس الوزراء ، محاضر جلسات مجلس النظار ، محفظة ٥ / و ، محضر ١٢ ، ١٣ أبريل ١٨٨١ .

وكان لمعاهدة الحماية التي وقعت بين فرنسا وتونس أكبر الأثر السيئ في الشعور المصري ، وزادت الصحافة من نيران ذلك الموقف لكي تجنى سخط الشعب وثورته ضد السيادة الأوروبية ، وساد الاعتقاد أنه لا محال من سقوط مصر في أيدي بريطانيا لكي يصبح الميزان عادلاً .

ورأى العسكريون دفعاً لذلك ضرورة الاستعداد للدفاع عن طريق زيادة الجيش إلى ١٨ ألفاً وفقاً لأمران تولى توفيق ، وبناء الحصون الجديدة على حدود مصر ، وتحصين المدن ، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ضرورة تغيير سياسة الحكومة بإيجاد مجلس نواب تكون النظارة مسئولة أمامه ، وله الحق في التصويب على الميزانية . ولم يكن ذلك اتجاه العسكريين فقط بل أقرتهم فيه عناصر الأمة ، ويؤكد ذلك القنصل الفرنسي لوزير خارجيته بقوله « إن هذه الأفكار بدأت تكبر حتى بين العناصر المدنية وتشكل خطورة كبيرة »^(١) .

وضاق توفيق بنشاط العسكريين ، ويأتى التعاون بينه وبين رياض من أجل إسقاط السلطة العسكرية ، وذلك عن طريق خلق مناوئين من الرتب الصغرى للثورة على القادة ، وقد أحصى عرابي تلك الدسائس فأوصلها إلى ثلاث عشرة دسياسة ، لكنها فشلت جميعها وتم اكتشافها والقضاء على مسببها^(٢) .

ومضت السياسة المعاكسة للعسكريين ، فيتم الرفض للعمل في الأشغال العامة ، ويهدد عرابي بتنفيذ بقية القوانين العسكرية التي لم تصدر بعد ، ويبلغ بالجنود الجراءة في مواجهتهم لتوفيق عقب حادثة مقتل أحدهم تحت عجلات عربة يقودها سائق أجنبي ، وتجمعت سحب التبرم لدى الخديو فأصدر حكمه على الذين تجرءوا وحملوا جثة زميلهم إلى قصره ، فاعترض قائدهم وكان عبد العال حلمي ، وانتقد الحكم وطلب إعادة النظر فيه ورفع البارودي طلبه إلى توفيق^(٣) .

وأراد رياض أن يرغم البارودي على إبعاد عرابي وعبد العال حلمي وفرقتيهما من القاهرة ، الأول إلى الإسكندرية والثاني إلى دمياط حتى يضع حداً لهذا التكتل ، وكان ذلك بموافقة توفيق الذي امتلأ غيرة من شهرة عرابي وشعبيته التي نمت

(١) Doc. Dip. F. Tom IV, No. 28, 30 Mai, 1881 .

(٢) Archives de maison, de cour, et d'état, Vienne, Inclosure 2 in no. 2, Sept. 9, 1881 .

(٣) Doc. Dip. F. Tom IV, No. 94, Aout, 1881 .

سريعاً وانتشرت ، ورفض البارودي وأصر على امتلاك السلطات وعدم السماح لرياض أو لغيره بالتدخل فيها ، وألح في زيادة عدد الجيش^(١) ، وبذلك تجمعت العوامل التي أدت إسقاط توفيق للبارودي وخصوصاً بعد أن أيقن الجميع ذلك النشاط الواسع للعسكريين في مسألة الدستور ، وقرر رياض في شهادة له بأنه « لما ضاق الحال بالحضرة الخديوية وصمم على عزله ، وقال علناً أمامنا جميعاً ما بقى عندي أدنى أمنية فيه ولا صبر على بقائه في النظارة ، فقلت لسعادة الخديوي الأعظم هذا هو الحق »^(٢) .

وأحيل منصب البارودي على داود يكن الشرکسى ، وهو صهر توفيق وعزل أحمد الدره ملى من ضبطية القاهرة وكان من الثوريين ، وعين بدلاً منه عبد القادر باشا ليكونا شائياً من أجل عرقلة العسكريين وشل حركتهم ، وأمر البارودي بالآل يبرح قريته بعد أن حددت إقامته فيها بهدف إبعاده عن العناصر الثورية ، وقطع الصلة بينهما ، ولكن ذلك أدى إلى نتيجة عكسية .

وانتشرت الجاسوسية وأطلقت شباكها على العسكريين ، فتعقبتهم ، وصدرت القرارات والنشرات التي تنهى عن الاجتماعات وعدم ترك الآليات ليلاً أو نهاراً ، وطبق قانون التجمهر وأعلنت الأحكام العرفية ، وحذر تناول السياسة ، ومن تجرأ واقترب ما يخالف كان مصيره السجن ، وقد وصل الأمر أن داود يكن كان يذهب بنفسه ليلاً إلى مراكز الآليات ليتحقق من تنفيذ أوامره .

وكره العسكريون الناظر الجديد ، وقد كان ذلك أمراً طبيعياً فهو شرکسى أصيل ، ومنذ البداية والحرب قائمة ضد هذا العنصر ، ثم إنه كان يتمتع بجهل كبير خصوصاً لمجيئه بعد ذلك المثقف المستتير ، هذا بالإضافة إلى كبريائه وكرهه للمصريين .

ومضى الناظر الجديد في التخطيط والتنفيذ لتفريق الفرق الموالية المتادة العسكريين من العاصمة واستبدالها بفرق أخرى موالية للخديو ، فأصدر أمره بنقل الآلاى الثالث من المشاة ، آلاى القلعة الذى كان يرأسه إبراهيم حيدر إلى الإسكندرية

The Times, August 12, 1881 .

(١)

(٢) محافظ الثورة العراقية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ٢٠٦ .

بدلاً من آلاى الإسكندرية الآلاى الخامس الذى يحل محله ، ورفض الضباط الثوريون تنفيذ الأمر^(١) ، فكان هذا تحدياً صارخاً .

وعلى الفور جمع عربى ضباط الجند بالقاهرة وطره والعباسية فى معسكر الحرس الخديوى ، وقام فيهم خطيباً وأراد أن يعبئ الشعور القومى فشكا من أعمال الناظر وركز على الاتحاد والتعاون ، واستحلفهم على السيف والمصحف بأن تكون أرواحهم موقوفة على حفظ الوطن من شر الأعداء^(٢) .

وعقب ذلك تأكدت الأمور بأنه لابد من الإطاحة بالنظام القائم جميعه المتمثل فى حكومة رياض الجائرة ، واستقاط رئيسها والمتحكمين معه فى مصائر الأمة ، وأيضاً ضمناً لسلامتهم حيث رأوا إنهم إذا أبعادوا عن مصر وتفرقوا ، سهل على رياض أن يضربهم فرادى كعادته فى البطش بالوطنيين بعد إلصاق تهمة العصيان بهم ، لذا رأوا ألا يتفرقوا وليس هذا فقط بل أن يقضوا على من يريد ذلك ، ويؤسسوا لمصر حياة جديدة قائمة على العدل والحرية والمساواة ، ولن يتحقق المطلوب إلا بالحكم النيابى ، وهذا ما سوف يسعى إليه فى الخطوة التالية .

الالتحام بين كبار ملاك الأراضي والعسكريين وأصداءه

اعتبر كبار ملاك الأراضي الممثلون للأرستقراطية الزراعية فى تلك الوثبة التى قام بها العسكريون بداية لتحريكهم ضد النظام القائم ، وخصوصاً بعد أن لمسوا ذلك النجاح الذى حققه هؤلاء ، فرأوا أن يماثلوهم فى الحصول على السلطان بعد أن فقدوه . وما كانوا يعانونه من التسلط الاستبدادى لسياسة رياض التى أطاحت بالمكاسب التى أحرزوها على مرور الأوقات ، ومن هنا كانت حتمية اللقاء الذى أوجدته الظروف التى تمر بها مصر ، ضعف حاكم وظلم حكومة ونفوذ أجنبي ، فلا مفر من التعانق ولا بد من السير فى اتجاه تيار واحد حتى الوصول إلى الأهداف المرجوة لكل قوة اشتركت فى ذلك الاتحاد ، بالرغم من اختلاف الأهداف ، لكن

(١) البرقيات الواردة من استانبول والصادرة إليها أثناء الثورة العربية ، دفتر ٢٨٧ عابدين ، من خديوى مصر إلى الباب العالى فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ .

(٢) ميخائيل شاربيم ، المرجع المذكور ، ص ٢٤٣ .

مادام الطريق ينتهى إلى تحقيق الأغراض المشتركة والخاصة فلا بد من مواصلة المسيرة .

كانت هناك تلك الطبقة المثقفة التركية وهى من كبار الملاك والتي مثلها الباشوات أمثال شريف وراغب وعمر لطفى وإسماعيل سرى ، وجميعهم أعضاء بالحزب الوطنى ، ذلك الحزب الذى ازداد سطوة ونفوذاً . ولشريف مواقف يعتز بها قبل الثورة ، ونستطيع أن ندرك تمام الإدراك ذلك الاختلاف الكلى والجزئى بين شريف ورياض ، فقد وصل الأمر إلى أن رياضاً أصبحت تصرفاته غير قابلة للمناقشة ، وهو دائماً يجاب إلى كل ما يطلبه ، وكان هؤلاء الملاك يعلمون تمام العلم أن جميع الأمور المهمة يناقشها رياض ويقررها ، فلم يكن لتوفيق الحق فى البت فى أى أمر دون استشارته وهو المنفذ لرغبات المراقبين ، وبذلك كانت سلطة الخديوى معدومة ، لذا أراد ملاك الأراضى الإطاحة برياض لتعود لهم مكانتهم المفقودة ، خاصة بعد أن لمسوا أنه لن تكون هناك معارضة من توفيق الذى سلبه رياض كل شئ .

انحصرت الفكرة الدستورية فى عقول هؤلاء فى تخليص السلطة من المسيطرين عليها ووضعها فى أيدي الأوليغاركية التركية الشركسية ، إذ أنهم اعتبروا هذه الطبقة هى الوحيدة القادرة على حكم مصر ، وقد انضم إليهم فى التمرد على الأوضاع ، الموظفون الذين تربوا فى نفس المدرسة الفكرية ، فأصبحوا ثائرين يريدون تغيير النظام القائم . ورأى هذا الاتجاه ضرورة وجود قوة تسانده فى مطالبه وتساعده لتحقيق آماله ، ومن هنا كان السعى لضم العسكريين ، بالرغم من التناقض بين الطرفين . فيقول بلنت عن شريف : « إنه كان تركياً أوربياً على أخلاق عالية ولكنه لم يخل من الغطرسة واحتقار الفلاحين اللذين كانا من مميزات طبقته فى مصر » (*) .

لكنه أمام الرغبة فى الوصول إلى ما يتمناه فى أن يصبح رئيساً للنظار ويمتلك السلطة ، راح يعطى الوعود بأنه إذا استلم أمر الحكومة ، فأول شئ سيقوم به على الفور تنفيذ برنامج الحزب الوطنى . وكان لابد من العمل بمختلف الطرق لاستقطاب

تلك القوة النابضة بالنشاط والتي في مقدرتها أن تنتهى حكم رياض وخاصة أن العسكريين أصبحوا على لسان أهل مصر وعلى رأسهم عرابى الذى التجأ إليه المضطهدون ولقبه الجميع بزعيم الأمة .

وهكذا عندما شعر الملاك الأرستقراطيون بهذه الحركة الوطنية المتدفقة ، رأوا الاندماج فيها لا تعاوناً من أجل مصر ، وإنما لمصلحتهم ، فهؤلاء الباشوات لم يكونوا يهتمون بحقوق الفلاحين المصريين الذين كان عرابى منهم ، فقد أذلّوهم واستعبدوهم زمناً طويلاً ، لكنهم وجدوا فيهم المطية التى توصلهم إلى ما يريدونه .

وبدأ التنظيم من أجل التنفيذ بعد أن صرح شريف بأن الوقت قد حان للحصول على الحريات ، وكان لابد من الاتصال بعرابى ، وجاء سلطان ليكون الواسطة والصلة بين الطرفين .

وسلطان من كبار ملاك الأراضي ، وأحد الأعضاء البارزين فى الحزب الوطنى ، وقد صب اهتمامه على الثروة ، وساء مع شاكلته من المصريين تصرفات رياض واسترضائه للأجانب على حساب العناصر المصرية ، وتحمله لطبقة الملاك تلك الالتزامات المالية ، فأخذ سلطان ممثلاً فى اتجاه طبقته يتطلع إلى التغيير بالقضاء على رياض ، وكانت له سمعة طيبة ترددت فى أرجاء مصر ، فهو دائماً يعمل على نشر صيحة « مصر للمصريين » وله من السلطان والقوة والشهرة والصيت والمكانة والأصالة ترجعه لأصوله المصرية البدوية ما يجعله يختلف عن شريف صاحب الأصول التركية ، فمن أجل ذلك تأصل الحب بينه وبين القادة العسكريين الذين كانوا يريدون من يدعم موقفهم ويساندتهم فى مطالب الأمة ، ولكن يجب أن نشير إلى أنه فى ذلك الوقت المبكر كان لسلطان طموح وأمل يصبو إليه ، فالمطامع الذاتية والمآرب الشخصية والتطلع للمعالى والبحث عن السلطة سيطرت عليه للاستحواذ على منصب فى حكومة جديدة يزيد عظمة على عظمتها ، حيث لم تكن تغنيه أمواله وثروته وأملاكه ، وكان ذلك هو الدافع الذى أخرجه من الثورة فيما بعد ليرتضى فى أحضان أعدائها .

لهذا كان السعى لضم قوة العسكريين الذين رأوا أنه لا خلاص لمصر إلا بمجلس نيابي « يكون الواسطة العظمى بين الأمة والحكومة ، فتحفظ الأرواح الطاهرة والأعراض الكريمة والأموال العزيزة من العبث بها »^(١) .

وفى منزل سلطان دارت الاجتماعات التى كان يحضرها القادة العسكريون ، عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى والبارودى ومحمود فهمى كذلك ضمت سليمان أباطة مدير الشرقية وحسن الشريعى مدير المنيا ، وغيرهم من الوطنيين ، جميعهم متحالفون من أجل عمل موحد لمصر .

ونظر عرابى إلى سلطان نظرة خاصة ، فقد كانت مكانته لديه عالية لما له من سلطة وأصالة تميزه ، فرأى فيه أن يمدّه بالمعونة قولاً وعملاً فى ضم عناصر الأمة لمطالب الثوار ، ومن هنا تقرب عرابى إليه ، هذا فى الوقت الذى تقرب فيه سلطان من العسكريين بعد أن أيقن أن مطالبهم لم تعد مطالب عسكرية بل هى خاصة بالأمة كلها ، وأنه من الممكن أن تتحقق عن طريق القوة والسلاح ، لذا فكان لا بد من التفاهم معهم للحصول على ما كان يرنو إليه من مكاسب ، ومد سلطان يده ليصافح ويوقع عقد الاتفاق الخاص بطلب مجلس نواب . وقد كان ذلك نفس طلب العسكريين الذى انتشر بين الأعيان والعلماء على صعيد مصر . وعليه أصبح التعاون وثيقاً بين كبار ملاك الأراضي بفرعيهما الأتراك والمصريين وبين العسكريين واتفقوا فيما بينهم على أنه متى حانت الفرصة الملائمة ، يلقي عرابى نفوذ الجيش وثقله وتأثيره لحمل الخديو على الموافقة على طلب الدستور .

وفى خطاب من عرابى إلى برودلى عن ذلك الالتحام الذى تم بين البورجوازيين والعسكريين يقول « أما سلطان باشا فهو الذى كان يجتمع عنده الضباط سرّاً قبل حادثة عابدين لتدبير طريقه فى عزل رياض ، وكان يتكلم فى المجالس بأفكارهم ويردد بلسان طلق أن مصر يمكنها أن تعد ثلاثمائة ألف عسكري تحت السلاح وقت الحاجة ، ويجادل فى ذلك مع نظار رياض ، وكان يساعد أفكار الضباط بكل قوته ، وهو الذى دعا بعض الأمراء ليتحدوا معه فى طلب تشكيل مجلس نواب من الخديو وفقاً لرغبة الضباط »^(٢) .

(١) أحمد عرابى ، مذكرات ، ج. ١ ، ص ١٠٢ .

Broadly , The Trial and Pardon of Arabi Pasha , Vol. II .

(٢)

وواضح أن سلطان أصبح يهدد بقوة الجيش ، وكانت اتصالاته على أعلى المستويات لنشر أفكار الثورة وهذا هو ما يسمى إليه العسكريون ، فعمل بكل قواه وثقله في المجتمع لخدمة هذا الميدان وأضحى كل شيء مجتهداً من أجل تحقيق الغرض الأساسي الذي قامت به الثورة .

ولم يكن سلطان وحده على أرض تلك الحركة ، فهناك سليمان أباطة وله دوره في عملية اللقاء بين الجناحين ، وشارك الأعيان بنفس الأفكار في الثورة ، حيث أرادوا أن ما يخلصهم من الذل الواقع عليهم في نظرهم هو الاعتماد على العسكريين.

وكان لكبار الملاك تلك الصلات مع أعيان البلاد وعمد ومشايخ القرى ، ودارت المنشورات الثورية السرية ووزعت ، وذلك بعد أن أيقنوا أن الأمل البعيد الذي كانوا يعلمون به قد تحقق بإقامة حكومة دستورية ، وبالتالي على احتكار رياض واستبداده . ولم يمض إلا القليل حتى أصبحت قوى مصر كلها وراء برنامج موحد جندت له كل الإمكانيات .

عرايى نائباً عن الأمة

كان التيار الذي تزعمه كل من شريف وسلطان يختلف كل الاختلاف عن التيار العسكري ، وذلك في طبيعة التكوين ، وفي الفكر ، وفي طريقة التنفيذ ، وفي الأبعاد ، وفي المصالح ، وهذا ما كان له أثره بعد أن نالت طبقة كبار الملاك مآربها ، فالعسكريون وعلى رأسهم عرايى مؤمنون بالدستور والنظام النيابي ، لهذا فقد رأوا ضرورة تشكيل مجلس نواب من الأمة لعرض جميع اللوائح والقوانين عليه لتحفظ حقوق المصريين ، وأن يعطى لأعضاء المجلس الحرية التامة في المداولة ، وأن يكون انتخابهم حراً (*) .

وأيقن عرايى أن الثورة هي الطريق الوحيد للحصول على الدستور كما يشتهي المصريون ، وأن ذلك سيتبعه خطوة أخرى هي التخلص من الحكم التركي الذي أساء لهم وأذرى بهم واستهان بحقوقهم ووضعهم في منزلة تشبه منزلة العبيد .

وبما أنه لم يكن هناك من يفرض حكم القانون ضد الاستبداد والأهواء إلا قوة الجيش ، لذا أراد عرابي النزول به إلى الميدان لتحقيق الآمال ، بعد أن تأكد من تأييد كبار الملاك و ثقلهم الاقتصادي والأدبي ، ولم يكن هذا التأييد نابعاً من الطبقة العليا فقط بل دونها أيضاً ، حيث سيطر القلق والظلم والطغيان الذي كان من نتائج سياسة رياض ، هذا وقد كانت للصحافة دورها منذ فترة ، إذ أدخلت في أذهان المصريين تلك المعانى للدستور ، وفصل السلطات ، وأنظمة الحكم وأنواعها ، فلم يكن غريباً في ذلك الوقت أن تدور على الألسنة وتتداول ، وأن يلقي عرابي ذلك التأييد والتشجيع لقيادة الثورة ، واستمرت صحافة النقد والهجوم التي كانت في أيدي الناس - رغم تشددات رياض - تعطى دفعة القيادة للعسكريين ، وهنا وضع عرابي ومن معه من الضباط موضع الآلة المنفذة لرغبة الأمة . ولم يعد الأمر سراً بعد أن جهر به عرابي علناً ، فعقد الاجتماعات « وقام فيها بخطب لو وجهت للحديد لذاب ووعظ لو طرق أذن إبليس لتاب ، وجعل يده اليمنى محمد سامى الأمين ، ويده اليسرى على فهمى الكرار »^(١) هاجم فيها نفوذ الأجانب وسلطتهم وطالب بإقامة العدل على أساس الحرية والإخاء والمساواة .

وبدأت عملية المد الثورى بتوزيع العرائض على العسكريين لإسقاط نظارة رياض ، وتأليف مجلس للأمة ، وزيادة عدد الجيش ، والتصديق على باقى القوانين العسكرية الجديدة . وصرح عرابي لهم « بأن القوة فى يدنا والعلماء والأعيان ومشايخ العريان يعضدوننا ولا مندوحة للخديو عن إجابة طلبنا ، فإن لم يفعل خلعناه وأقمنا حكومة جمهورية مستقلة »^(٢) ، وبذلك يتضح أن البرلمان لم يكن بمفرده فى الصورة ، ولكن هناك أبعاد أخرى وفكر ثورى جرى يُعلن للعسكريين ، لينفذوه بقوة السلاح .

وتكثفت الاجتماعات ، وتتابع المنشورات الثورية ضد النظام القائم لتحث على إسقاطه ، وخاصة ذلك المنشور الذى دار فى البلاد كلها لإنابة عرابي عن الأمة وكتبه بنفسه ليفهم الجميع الأوضاع التى آلت إليها مصر ، وليبين أن هناك من يساند المطالب من الأعيان والعلماء والعمد والمشايخ والتجار ومشايخ العريان .

(١) عبد الله النديم ، المصدر المذكور ، ص ٥٨ .

(٢) محمد عبده ، المصدر المذكور ، ص ١٤٤ .

ووكل إلى النديم مهمة توزيع منشورات النيابة في مصر كلها ، وجمع التوقيعات من المصريين المؤيدين لذلك ، وكان خير ما اختير ، فقد جاب البلاد طولها وعرضها واستعمل فصاحته وموهبته في الإقناع ، وكان الناس على أتم استعداد لتقبل ذلك بعد أن طفق بهم الكيل ، وعاد النديم إلى القاهرة يحمل العرائض الموقعة بالتأييد الكامل لمطالب عرابي التي أصبحت مطالب للأمة .

ومضت أجهزة الدعاية لنشر تلك المبادئ الجديدة « وأكثر الرسل في التطواف على بيوت الأعيان والدخول في مجالس أصحاب الكلمة المسموعة وهم يرجفون ويقبحون فعال الرئيس »(*) . وراح عرابي يستقبل تلك الوفود من جميع أنحاء القطر من أسوان إلى الإسكندرية بعرائض التفويض إليه في النيابة عنهم ، وفي التضامن لجميع الإجراءات التي ستتخذ والنتائج المترتبة عليها .

أما عن دور توفيق في الحيز الثوري ، فقد كان في بداية الأمر من المشجعين لقيام ثورة تنهى سلطة الحكومة القائمة ، لكنه سرعان ما تخلّى عنها إذ أن الضعف والتردد كانا من سماته ، وبالرغم من أنه مع بداية حكمه صرح برغبته في تحقيق آمال الأمة « بجعل الحكومة شورى ونظارها مسئولين » ، فإنه لم ينفذ ذلك ، وخضع للنفوذ الأجنبي الذي بفضل تولى عرشه فأصبح أسيراً له ، ولكن يزداد الأمر سوءاً بالتسلط الكامل لرياض ، فحقد عليه بعد أن طغى وأصبح الرجل الأول في مصر بفضل ما له من علاقات كانت تفوق العادة مع القناصل وخاصة القنصل الإنجليزي ، وبعد أن أصبح الحكم نظارياً يعتمد على المراقبة الشائبة التي تحكم في رياض كما أرادت ، لا خديوياً يمارس فيه الخديو سلطانه . لهذا نجد توفيق دائم الشكوى من رئيس النظر ، فكان لابد من إنقاذ ذلك الانهيار الذي تهاوت إليه سلطته .

وقبل أن يتولى توفيق العرش كان على صلة بأعضاء الحركة الوطنية ، لذا كان من السهل عليه بعد أن أصبح حاكماً أن يعيد اتصالاته بهم لا لحبه للوطنية ، ولكن للاستعانة بهم في القضاء على مناوئيه ، وفكر جيداً فوجد أن القوة ستكون بجواره عند اقترابه منهم ، وأن العسكريين لب هذه القوة في الوقت الذي راح يجذب فكر المثقفين ، وذلك عن طريق تشجيع الجمعيات التي كان النديم وقودها ، فقام الخديو بزيارات لها ومدارسها محاولاً استمالة تلك الطبقة لمحاربة رياض .

(*) ميخائيل شاروويم ، المرجع المذكور ، ص ٢٣٦ .

وبدأ يفتش على من تناولتهم يد رياض من العسكريين بالرغم من أنه لم يكن مرتاحاً للنفوذ الذي حصلوا عليه عقب قصر النيل ، وخاصة عرابي الذي كثيراً ما كان ينتابه من ناحيته ذلك الحقد العميق وتلك الفيرة الكبيرة كمصرى أصيل له من الشهرة ، والصيت ، والتأييد الشعبي ، والوطنية الجارفة ، إذن فلم يكن مطمئناً للعسكريين ، وكان يكره سلطتهم مثل كرهه لسلطة رياض ، ولكن ذكاءه أوصله إلى أنه يمكن له أن يضرب واحدة بالأخرى ، ثم يتفرغ للباقية فيقضى عليها ، وبذلك يصبح الأمر سهلاً ويمتلك السلطة ويتربع على عرش مصر فعلياً .

وكان التخطيط لذلك ، فنراه عقب قصر النيل ، وفي ١٢ فبراير ١٨٨١ يجتمع بالعسكريين من رتبة بكباشى فما فوق بحضور البارودى ليقريهم منه « وخطب فيهم فغفا عنهم وأظهر لهم المحبة ووعدهم بإصلاح حالهم »^(١) ، فى الوقت الذى ظهر فيه ارتياحه من سطوتهم . وراح يدعم علاقته بعلى فهمى القائد الأول لحرسه ، والذي كان مرتبطاً بالسرائى عن طريق زواجه من إحدى شركسياته ، وهو ذو حماس متقد ووطنية صادقة وصلة قوية مع القادة الثوار ، ولعب دور الوسيط بين توفيق وبينهم .

ومضى الخديو فى الدس ضد رياض وتحذير العسكريين من نظارته وما تكنه لهم ، وذلك ليتمكن من ضم قوتهم إليه والوقوف بجانبه ضد رياض عدوه من ناحية وعدوهم من ناحية أخرى ، وقد أدرك أنه بتلك العلاقة الوطيدة التى تربط بين على فهمى وعرابي ، وبهذه القوة يمكن له أن يصبح « ملكاً دستورياً شعبياً »^(٢) .

وفى إحدى المرات التى كان يتوجه توفيق فيها إلى الإسكندرية ، كان معه آلاى حرسه برئاسة على فهمى ، وهنا بدأ يفاتحه فى إمكانية العمل الموحد للقضاء على العدو المشترك . كان هذا أول تصريح مكشوف لتوفيق للمشاركة فى الحركة الوطنية بأن يكون رابع القادة الثوريين ، إذن لم يكن توفيق يعارض فى الدستور إذا كان سيؤدى للإطاحة بحكم رياض وسلطته ، وأصبح طرفاً فى معارضة النظام القائم ، وهنا كان لقاء المصلحة ، وقد رأى العسكريون أنه لا مانع من إتمام الصفقة ، حيث كانت سياسة رياض فى الاعتقالات ماثلة أمام أعينهم ، ومن ثم فلا بد من التحالف .

(١) الكوكب المصرى ، عدد ٩٣ فى ١٨ فبراير ١٨٨١ .

(٢) Ninet , Origin of the National Party in Egypt , p. 133 .

(٢)

٩ سبتمبر ١٨٨١

أصدر داود يكن أوامره بتفريق آليات الجيش وقواده ، لكنها لم تنفذ بناء على الرفض الذي قوبلت به ، ورأى العسكريون في ذلك الوقت أنه لا يكفى إسقاط ناظر الجهادية فحسب بل النظارة كلها ، فقد أبلغ عرابى توفيق طلب الأمة عزل رياض ووضع دستور لمصر ، بعد أن أيقن أن الوقت قد حان لإنقاذها من العبودية التي كانت ترزح تحت أغلالها ، وكان واثقاً من انتصاره ، وأخبره عن ميعاد ٩ سبتمبر في العاشرة صباحاً من أجل اللقاء لعرض الطلبات ، وأن ذلك سيكون بمظاهرة وطنية شاملة العسكريين والأهالى ، وكتب إلى قناصل الدول بذلك وأعلمهم أنه لا خوف من هذا التجمع الوطنى على أبناء تابعيهم ، حيث إن الأمر متصل بأحوال البلاد الداخلية ، ووقع على تلك الخطابات بأنه ممثل الجيش المصرى^(١) .

وعندئذ ارتاب توفيق من الأمر رغم ما ذكر ، وسيطر عليه ضعفه وخاف من الضياع ، واستدعى كولفن المراقب المالى الإنجليزى والذي كانت له الخبرة الطويلة فى الإدارة الهندية ، وأيضاً رياض واستون وعرض الأمر ، وأبدى كولفن رأيه بأن يرسل الخديو قوة من البوليس للقبض على عرابى عند وصوله إلى عابدين ، لكن توفيق عارض ، حيث كان يعلم تمام العلم أنه لن يطاع أمره فى ذلك .

ومحاولة لإيقاف الزحف ومنع الحشد اصططحب توفيق معه رياض إلى مراكز الآليات لكنه لم يتمكن من ذلك ، ولربما قام بهذا العمل حتى يبعد عنه أية شبهات يمكن أن تلصق به لإسقاط نظام رياض ، وكان كل شيء معداً الإعداد الكامل . وفى ساحة عابدين رابطت القوات العسكرية ، وقد اختلفت المصادر فى أعدادها وكل ما يهمنا أنه كانت هناك أعداد كبيرة مسلحة تسليحاً كاملاً حتى المدافع نصبت ، ووقف معها آلاى الحرس الخديوى بعد أن قام على فهمى بحيلة فى البداية بدعوى حراسته للسراى ، لكن قواته كانت ثائرة للغاية ، لدرجة أنه أشاء زحفهم راحوا يرددون « نحن عاصين ، نحن عاصين ، نحن عاصين »^(٢) ، أيضاً كان هناك عساكر المستحفظين يقودهم إبراهيم فوزى .

Broadly , How we Defended Arabi And His Friends , p. 11 .

(١)

(٢) محافظ، الثورة المرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٨١ .

وامتلاً ميدان عابدين بجماهير الشعب بما لا يحصر عدده ، يصاحبهم شعورهم الذى وصل إلى قمة الاشتعال ، جاءوا لأول مرة ليشهدوا هذا المشهد الذى لم يألوه من قبل ، ويشاركوا القائد فى طلباته ويشجعوه ويشدوا أزره فى هذا الموقف الذى لم يقفه مصرى من قبل ، ولم يكن الجمهور هو جمهور القاهرة فقط ، بل زحفت الوفود من الأقاليم على رأسها حوالى ألفين من الأعيان والعمد ، بالإضافة إلى وجود أعضاء مجلس شورى النواب فى ذلك الجمع . وعليه أصبح جلياً أمام الجميع أن طلبات العسكريين هى مؤيدة ومصدقة من كافة الأمة ، وكما أقر قنصل النمسا بأن « الثورة ليست عسكرية وإنما ثورة شعبية »^(١) .

وفى الموعد الذى حدده عرابى حضر توفيق ومعه كوكسن قنصل بريطانيا بالإسكندرية ، والجنرال جولد سميث مراقب إدارة الدائرة السنية ، وباقى القناصل ، وطالب عرابى بإسقاط النظارة المستبدة ، وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوروبى ، وزيادة عدد الجيش إلى القدر المعين فى فرمان السلطان ، والتصديق على جميع القوانين العسكرية السابق وضعها ، وهنا صاح جميع الضباط وراء عرابى « نريد الناظر محمد شريف » ، فبيّن توفيق أن هذه الطلبات ليست من شأن الجند أن يطلبها ، وأشار كوكسن على توفيق بالعودة ، وبدأ هو وكولفن وممثل القنصلية النمساوية فى التفاوض مع عرابى بالنيابة عن توفيق ، حتى فى مواجهة الثورة بلغت السلطة الأجنبية مداها على المصريين ، وأفهم كوكسن وكولفن عرابى أن هذه المسألة فيها مخاطرة كبيرة ، وأنه من الممكن من جراء ذلك وأمام إصرارهم على المشاركة فى الحكم ، فإن عليهم أن يستعدوا لملاقاة قوات مشتركة من الباب العالى وأوروبا وكلاهما له رغبة فى ذلك ، فأجاب عرابى بأن الجيش يريد الحرية للأمة وأن تؤمن تلك الحرية ، وذلك بتشكيل مجلس نواب^(٢) .

ولم تسفر المفاوضات عن نتيجة غير التحدى العنيف من العسكريين ، وانقطعت فترة احتار فيها من فى داخل السراى ، فاقترح كولفن على ممثل القنصلية النمساوية أن يخبر العسكريين بأن الخديو على صلة بالباب العالى بخصوص

Politisches Archiv, Fasz XXXVIII / 195, No. 106 pol., 16 Sep., 1881 .

(١)

Ibid, Fasz XXXI . 24, 9 Sept, 1881 .

(٢)

مطالبهم ، ويطلب منهم الإنصراف حتى يصل رد الأستانة ، وقبل الخديو الاقتراح ، لكن أجاب عرابى ومن معه بأنهم سيبقون فى حالة تأهب تحت السلاح لحين وصول الرد ، وإذا كان غير مرض ، فإنهم لن يعترفوا بالخديو .

وعرض على العسكريين اسمين لرئاسة النظارة ، حيدر باشا يكن وإسماعيل باشا أيوب فرفضوهما ، فالأول شقيق داود يكن وهم يعارضون أن يتولى النظارة أى عضو من العائلة الخديوية ، والثانى ليست له خبرة إلا فى الشئون المالية ، وطالبوا بشريف وأصروا عليه ، فما كان إلا أن تمت الموافقة على ترشيحه لرئاسة النظارة ، وصمموا على أن يكون البارودى ناظرًا للجهادية وأحمد الدره ملى محافظًا للقاهرة . وقرأ عرابى كتب تكليف شريف بالنظارة بصوت عال ، فاستقبل ذلك بهتافات عالية وداوية من جميع المحتشدين .

وهكذا انتصرت الثورة فى خطواتها ، وأمر رياض بمغادرة مصر ، فغادرها منهزمًا محطماً بعد أن سقطت سلطته وصولجانه وبعد أن أذاق الناس الذل والظلم، وسقط نظام حكم قوى وأوتقراطى مثله رياض أصدق تمثيل ، ليقوم نظام آخر اختاره المصريون ، وتم كل ذلك بدون إراقة نقطة دم واحدة ، إذ انسحبت الحشود فى هدوء تام ، وأصبح عرابى البطل والممثل الصادق لأمة بعناصرها يؤيده الجميع فى كل مكان ، وغدا التاسع من سبتمبر هو الشرارة الوطنية التى انقذت فى قلوب الشعب .

وبعد ذلك النجاح الذى كللت به جهود الأمة ، وهذا الانتصار الذى حققته الثورة ، كانت مصر تدوى فيها الفرحة فى كل مكان ، فلم يحدث من قرون عدة على شاطئ النيل أن فاض هذا الشعور ، ففى القاهرة كان الرجال فى الشوارع يوقفون بعضهم البعض بدون سابق معرفة ويتعانقون حتى الغرباء ، لتلك الحرية الجديدة التى بدأ عهدها ، وأصبحت الكلمات المعبرة عن الحرية والمساواة والتقدم والوحدة تتداول بين الناس وتسيطر على أفكارهم(*) ، وسرت الطمأنينة إلى النفوس بذلك الإشراق الجديد ، وأحسست مصر بأنه قد صار لها كيان ورجال وأيضًا حكام تختارهم بنفسها بعد أن انتهى حكم الظلم والجهالة الذى طال عليه الزمن ،

Sabry , op. cit., p . 195 .

(*)

وخصوصاً بعد أن تأكد المصريون أن الحكم النيابي في الطريق إليهم ، فآن لهم أن يرتاحوا بعد طول العناء ، وقد عبر بلنت عما حدث بقوله « إن نصر الحرية المدهش الذي بدا لهم فجأة وهبط عليهم بعد ليل طويل ومخيف ، قد حرر الصحافة من رقابة رياض الصارمة ، فكان محمد عبده ينشر الأخبار على أقصى سرعة ، وأصبح الرجال يجتمعون ليتكلموا بلا خوف من البوليس أو الجواسيس ، وغمرت روح السعادة جميع الطبقات من مسلمين ومسيحيين ويهود وشاطرهم السرور الأوروبيون المرتبطون بالحياة الوطنية حتى القناصل اعتبروا أن النظام الجديد أحسن من البائد »(*) .

وعمت احتفالات النصر كل مكان ، وشارك الجميع فيها تعبيراً عن ذلك الشعور الفياض الذي غمرهم ، وبذلك يعتبر ذلك اليوم من الناحية العملية بلورة لكل التطورات التي كان يجيش بها المجتمع المصري .

لكن ماذا عن موقف الخديو من هذه الأحداث ؟ وضعنا الدور الذي لعبه توفيق لتشجيع الانطلاقة الثورية ، لكنه داخلياً وفي قرارة نفسه ساء ما حدث إلى أقصى درجة ، إذ وجد أن عرشه الذي يسعى لتثبيتته قد اهتز ليس بقوة العسكريين فحسب بل من الأمة جميعها التي وقفت بجانبهم ، وبعد أن أصبح عرابي وكأنه الحاكم الحقيقي لمصر لا ينقصه إلا التاج ، واحتار في الأمر بعد أن نجح في إبعاد رياض ، لكنه وجد أن النار تقرب منه ، وقد انعكست نفسيته في تلك المراسلات التي بدأها في نفس يوم التاسع من سبتمبر إلى الباب العالي ليبين « إن الفساد وروح الثورة قد انتشرا بين العساكر الشاهانية » ونعت عرابي بأنه « رئيس المشاغبين » وسرد أحداث ذلك اليوم والطلبات التي قدمها العسكريون .

وأعقب ذلك طلبه من الباب العالي المعونة العسكرية لمقاومة العسكريين « وبما أن أوان إصلاح هؤلاء الثوار والمشاغبين قد مضت ، ولم يكن هناك مجال أو أمل في استصلاحهم ، فأرجو إرسال قوة عسكرية يبلغ مقدارها عشرين طابوراً على جناح السرعة على أن تكون قيادتها العامة منوطة بى خاصة » إلى هذه الدرجة اهتز توفيق وأراد أن يقف أمام العسكريين ، ووفقاً لسياسة التردد التي تمتع بها ، نجده

Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 153 .

(*)

يتراجع عن طلبه لعلمه بأنه على عكس إرادة بريطانيا وفرنسا اللتان تحاولان بكل الطرق أن تبعدا أى تدخل عثمانى فى مصر ، فتراه يعود ليلبغ السلطان عن اختيار شريف ، وأن ذلك كافياً لحل المسألة ، لكنه فى نفس الوقت أراد أن يعلم السلطان أبعاد العسكريين ومبادئ ثورتهم * لماذا يحكم مصر العنصر التركى وغيره من العناصر الأجنبية العديدة ؟ ولماذا لا يكون زمام الأمر بمصر فى أيدي مصر ؟ ولم تتسرب ملايين الجنيهات إلى الخارج تسديداً لديون الأجانب ؟ (*) .

من هنا أراد توفيق أن يبين أن الثورة ضد العنصر التركى ليثير السلطان التركى على الثوار ، وقد مضى على هذه الوتيرة طوال الثورة فهو يردد أن الثورة قومية ، وهدفها فصل مصر عن الدولة العثمانية ، ونصرة العنصر العربى .

أما عن انعكاسات ٩ سبتمبر على بريطانيا وفرنسا ، فقد كانت الأولى ترى ضرورة بقاء مصر تحت السيادة العثمانية منذ معاهدة لندن ، وعقب افتتاح قناة السويس أرادت أن تهيمن عليها ، وباحتلال قبرص زادت اهتماماتها بها ، فى الوقت الذى كانت تشرف فيه على ماليتها فى إطار الوحدة مع فرنسا التى مكنتها من عزل إسماعيل ، وعقب إعلان الحماية الفرنسية على تونس بدأت بريطانيا تفكر جدياً فى إحتلال مصر . إذن كيف تسمح بهذه الحياة الوطنية الجديدة التى نشأت على أرضها ؟ إذن فلا بد من الوقوف أمامها ، وفى البداية رأت على الأقل أن تشترك معها فرنسا والدولة العثمانية ، ومن أجل ذلك تردد ماليت كثيراً على الآستانة ، لكنها فى نفس الوقت ترفض بشدة أى تدخل تركى مسلح فى مصر ، فرغم إنها أحاطت السلطان علماً بثورة ٩ سبتمبر فقد بينت له رفضها فى إرسال أية قوات إليها ، واشتركت معها فرنسا فى ذلك رأى ، وقد عدت بريطانيا أن سقوط النظرة بناء على الإرادة الشعبية التى جعلت الجيش لسان حالها أمراً خطيراً . وأن طلب دستور « لا تؤيده حكومة جلالة الملك » ليس من السهل إعطاؤه ، وتحركت بسرعة ، وأصدرت أوامرها إلى ماليت بالعودة من الآستانة إلى القاهرة ، وأصبح واضحاً تمام الوضع أنها ستقف عائقاً أمام الحياة النيابية التى تريدها مصر ، حيث رأت أن ما شيدته خلال الفترة السابقة وتلك المجهودات التى بذلتها ، قد انهارت بهذه الثورة

(*) محافظ الأبحاث ، محظنة ١١٦ ، دشر ٢٨٧ ، صادر رقم ٢ ، ٤ ، ٥ .

التي اهتزت لهل هيبة الخديو وأسقطت سلطة المراقبين ، وخصوصاً بعد أن أيقنت أنها ليست عسكرية إذ كتب كولفن يقول « إنها حركة مصرية وطنية جاءت نتيجة للتطور الفكري للعقلية المصرية »^(١) .

أما فرنسا فلم ترتجح أبداً لما حدث ، فكيف يحصل شعب عربي إسلامي على حريته وحقوقه ، فهي تخاف كل الخوف أن تنتشر عدوى ذلك إلى الجزائر وتونس ، فالأخيرة لم تمض غير فترة قصيرة على إعلان حمايتها عليها ، لذا نراها تصرح بأن سلطة الخديو قد اهتزت ، وأن الفوضى تعم مصر ، وأنه لا بد من حتمية احتلال أوربي لها ليعيد الأمور إلى نصابها ، في الوقت الذي رأت فيه إقامة إتحاد حربي إنجليزي فرنسي للرقابة عليها ، حتى لقد وصل الأمر أن طلب القنصل الفرنسي بمصر من وزير خارجيته تجهيز قطع من الأسطول في ميناء بيريه^(٢) .

وواضح أن النية قد عقدت منذ أن تفتحت الثورة للقضاء عليها بعد أن أزعج الدولتان أن تحصل مصر على ما فقدته منذ زمن طويل .



Sabry , op. cit., p. 200 .

(١)

Affairs Etrangères, LXXXII, No. 27, p. 29, Egypt, No. 3 (1882) , No. 6, Doc. Dip. F. (٢)

Tom IV , No. 119 .

الفصل السادس

انتصار الثورة وممارسة العسكريين للسلطة

١... نظرة الثورة الأولى

نجح شريف في الاستيلاء على النظارة ، وقد كانت له من المؤهلات التي ساعدته على ذلك ، فهو خير من مثل العقلية المستنيرة المثقفة ، وله قبل الثورة مواقف لا يمكن أن نغفلها إزاء حركات الرفض المتكررة تجاه التدخل الأجنبي ، وتزعمه للحركة الدستورية في نهاية عهد إسماعيل حينما ظهر كبطل للوطنية ، كما أنه يتمتع برضا الوصاية الأوربية وخاصة بريطانيا وفرنسا ، ورأى الخديو فيه الأمين الذي سيرد إليه سلطته المسلوبة سواء التي استولى عليها رياض أو التي بدأت تؤول لعرابي .

ومنذ البداية ، وعقب أن ردد الثوار اسمه وطلبوه رئيساً للحكومة زاد ذلك من سعادته ، لكنه في داخله كان يخشى السطوة العسكرية بعد تلك المكانة التي استحوذ عليها العسكريون ، وخاصة عرابي وشهرته التي لم تعد تقتصر على مصر فقط ، وإنما خارجها حينما رددت اسمه الدوائر السياسية والصحافة الأجنبية ، هذا بالإضافة إلى أن فكره قد انصب على أن الحكومة الشورية التي جاء من أجلها يجب أن تكون بعيدة عن القوة والتسلط العسكري ، حيث إن ذلك هو من سمات الحكومة الديمقراطية .

وهنا يجب ألا ننسى أن شريف كان يريد عودة السلطة التي تسود في ظلها الطبقة التركية التي يمثلها أصدق تمثيل ، وبالرغم من ذلك فقد اعتبره العسكريون من أظهر الشخصيات وفضلوه على من سواه ، فيرفضون تلك الخدمات التي عرضها نوبار عليهم ليقود الحركة الوطنية إذا سلموه زمام الحكم .

تمنع شريف في البداية حتى لا يقال عنه أنه جاء على أسنة الرماح ، وأنه شارك في الأحداث الثورية ، وفي نفس الوقت ليكسر شوكة العسكريين كي

لا يتحكمون فيه ، إذ أراد أن يدعم موقفه جيداً ، فقدمت إليه التراجى ، فكان هناك نحو الألفين من العمد يلحون عليه فى قبول رئاسة الحكومة^(١) ، كما قدمت إليه عرائض مزيلة بأكثر من أربعة آلاف ختم يرجوه أصحابها قبول النظارة وإنقاذ البلاد من رق العبودية وإصلاح أحوال الحكومة^(٢) ، أضف إلى ذلك ضغط كل من قنصلى بريطانيا وفرنسا عليه للقبول ، حيث رأيا فيه المعتدل المرضى عنه والذى يمكن له أن ينقذ الموقف ، وذلك لقدرته على فهم نفسية الشعب المصرى ، وإمكاناته التى تؤهله لاستغلال الموقف جيداً « والوقوف أمام أية كوارث ممكن أن تتعرض لها مصر »^(٣) ، والكوارث فى نظرهما هي امتداد الثورة .

وكان العلماء والأعيان والعمد قد تعهدوا لشريف بأن يطيع الجيش جميع الأوامر التى تصدرها الحكومة بكل انقياد وامتثال ، وأخذ شريف من عموم المجتمعين الضمانات والوعود القوية ، فقدم كل من سلطان باشا ، وسليمان باشا أباطلة ، والشريعى باشا ، والمنشاوى بك ، وأمين بك الشمس ، والشيخ على الليثى ، وعبد السلام بك المويلحى ، والشيخ الصباحى ، والشيخ أحمد محمود ، وإبراهيم أفندى الوكيل ما يقضى بالانقياد التام لأوامره ، وخطب سلطان فى ذلك الجمع عن نشر الحرية والعدل والمساواة فى البلاد ، كذلك رفع العسكريون عريضة إلى شريف موقعة بأختامهم يتعهدون فيها بالامتثال لأوامر الحكومة ، وأشاروا فيها بثقتهم فى شريف ، وأن الجيش هو القوة المنفذة لما يصدر من الأوامر لخير الوطن ، وركزوا على حقوق المصريين التى يمنحها لهم القانون^(٤) .

وقبل شريف النظارة على هذا الأساس ، ولكن كانت نشوة الانتصار مازالت مسيطرة على العسكريين بعد أن وضعتهم الظروف فى المقدمة ، وقد انعكس الأمر على نفسياتهم ، فأحسوا بتلك العظمة وبضرورة ممارسة السلطة ، وفى ١٦ سبتمبر ١٨٨١ ذهب عرابى على رأس وفد من العسكريين ليهنئوا شريف بالمنصب الجديد ، كان ذلك ظاهرياً لكن فى الباطن كان الهدف إشعاره بأنه فى ذلك المكان بفضلهم ، ورد شريف على التهنئة التى فهم مغزاها بقوله « فى علمكم ما قال الأقدمون آفة الرياسة ضعف السياسة ، ولا حكومة إلا بقوة ولا قوة إلا بانقياد

(١) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣ / ١ .

(٢) أحمد عرابى ، تقرير ، ص ص ٧ ، ٨ .

(٣) Affaires Etrangères LXXXII , No. 57 .

(٤) محمد خليل صبحى ، المرجع المذكور ، ص ١٠١ .

الجنود انقياداً تاماً وامتثالهم امتثالاً مطلقاً»^(١) ، ومع هذا طلب منه عرابى تشكيل النظارة من الذين يوافقونه على سرعة تشكيل مجلس النواب ، وأن يكونوا من أصحاب الحريات بل وصل الأمر بأن فرض عرابى من يريده إذ طلب « أن يكون محمود باشا سامى ناظرًا للجهادية ومصطفى باشا فهمى ناظرًا للخارجية لأنهما يميلان إلى العدل والحرية ، وأن العسكرية لا تثق إلا بمحمود باشا سامى » وهنا أراد شريف أن يلعب الأعباء ويتولى هو الجهادية حتى يسيطر على العسكريين فقال لعرابى « أفلا ترضون أن أكون ناظرًا للجهادية فأنى تربيت مثلكم فى العسكرية » ، لكن عرابى قطع عليه خط الرجعة «إننا اخترناك لوثقنا بك أن تكون رئيساً للنظارة».

وعندما تباطأ شريف فى التشكيل ذهب إليه عرابى وهدده بأنه إن لم تشكل النظارة فوراً « طلبنا تعيين غيرك ، فلا تظن أنه ليس فى البلاد غيرك ، فإن فيها والحمد لله العلماء والحكماء والمهندسين »^(٢) . وشكلت النظارة واستلم القادة العسكريون زمام مواقعهم خارج القاهرة ، لكن عيونهم كانت ترقب الأمور بكل دقة .

شريف والحياة النيابية

كان على شريف أن يواجه مسئولية الموقف ، وأن يحقق رغبات الأمة فى تشكيل مجلس نيابى ، ذلك المجلس الذى كان أحد طلبات يوم التاسع من سبتمبر ، وأكد تقرير ألف وستمئة من وجوه البلاد وأعيانها وعلمائها قدم لشريف ، وهو يعد من أهم وثائق مصر فى حياتها الدستورية لما ضم من معان متقدمة دلت على عقلية ناضجة ومدركة .

ووقع هذا التقرير من أرض مصر كلها من القاهرة والإسكندرية وطنطا والمنصورة والمنيا وبنى سويف وأسيوط ، وقدم فى ١٠ سبتمبر ومن الواضح أنه أعد قبل التاسع من سبتمبر بفترة حيث إنه من غير المعقول أن يجمع توقيع ألف وستمئة فى ظرف أربع وعشرين ساعة .

وواضح منه مدى الوعى التام والفهم الكامل لأبعاد النظام النيابى الحر السائد فى أوروبا والمطالبة بتطبيقه فى مصر ، وبناء على ذلك أصدر الخديو أمراً بإجراء انتخابات لمجلس نواب فى ٤ أكتوبر ١٨٨١ ، ومن الملاحظ أن حركة انتقال العسكريين من القاهرة لم تتم إلا بعد صدور هذا الأمر بالرغم من أن شريف أعلن أن دورهم

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٢١١ فى ١٧ سبتمبر ١٨٨١ .

(٢) أحمد عرابى ، مذكرات ، ج ١ ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

قد انتهى ولم يعد هناك سبب لتدخلهم في الشؤون السياسية التي رأى أنها تترك لمحترفيها .

أراد شريف أن يحقق المسألة النيابية ، وذلك حتى يظهر للأمة حسن نواياه هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى رأى احتواء العناصر التي ستمثل في هذا المجلس ويمكن لها إذا لم يلب طلبها أن ترتدى في أحضان القوة العسكرية ، وبشكل هذا خطراً على سلطة شريف التي يمكن انهيارها أمام هذا التعاون ، وأنه بهذا الاحتواء يسهل إسقاط أية مؤثرات من جانب العسكريين عن طريق المجلس .

من ذلك يتضح أن خطة شريف كانت واضحة من فصل الحزب الوطني عن الحزب العسكري ، وقد صرح لماليت « بأنه ينوى دعوة المجلس النيابي للاجتماع ، ويأمل أن يصبح تدريجياً هو الممثل الشرعى لحاجات البلاد الداخلية ، وبذلك يجرّد الجيش من تلك السلطة التي انتحلها لنفسه في الحركة الأخيرة »^(١) .

ورثى تشكيل المجلس وفقاً لللائحة مجلس شورى النواب ، وذلك بأن يتم الانتخاب بواسطة عمد البلاد ومشايخها لمدة ثلاث سنوات ، ويجتمع شهرين في السنة ، وتكون جلساته سرية ، ولم تتفق هذه الطريقة مع رغبات المصريين الذين كانوا يريدون تغيير قانون الانتخاب القديم وإحلال آخر محله ، لكن شريف رفض أى تغيير حتى ذلك الذى اقترحه عليه عرابى بأن ينفذ قانون انتخاب كان قد أعد فى أواخر عهد إسماعيل يعطى حقوقاً أوسع للمجلس ، وأيده كثير من الأعيان ، وأصر شريف على المعارضة وهدده بالاستقالة وتآزم الموقف ، وتمكن سلطان من تغيير اتجاه عرابى عن مشروعه ، وقد كان هذا دليلاً آخر على معاكسة شريف للعسكريين والحد من تدخلهم فى أمور السياسة ، وأصدر منشوراً إلى جميع المديريات والمحافظين ينبه المديرين والمحافظين على ترك الانتخابات حرة ، وهذا أول منشور انتخابى فى الحياة النيابية المصرية يقضى باحترام الانتخابات العامة ، ونجح فى ذلك فلم يتدخل المديرون كالمعتاد فى الانتخابات . وطالبت الصحافة بانتخابات حرة ، وترددت الدعاية الانتخابية بالألا ينتخبوا إلا من « عهد فيه الصدق وعرف فيما بين العموم بالفطنة والذكاء واشتهر بالمعرفة وحب المنافع للبلاد »^(٢) .

Cromer , op. cit., Vol. I, p. 206 .

(١)

(٢) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٢٥٩ .

وأسهم الأزهريون بنصيب وافر في الانتخابات وهم ثوريون ، فنجح مرشحوهم ، وكان هذا النجاح تأكيداً لانتصارات التاسع من سبتمبر ، حيث جاء الأعضاء يتسمون بروح التشيع لاتجاهات الثورة في إقرار قواعد العدل ، ومما يدل على زيادة الوعي الانتخابي ، أننا نرى لأول مرة في الصحافة أحد المرشحين يطعن في صحة انتخاب آخر « وانتخب محمد أفندي عوض نائباً عن مركز دمنهور بسعى أخيه وأقاربه عند عمد ومشايخ المراكز ، وتقدم في حقه للمديرية بأوجه تفيد عدم لياقته للنيابة ، وأنه أشيع منذ بضعة أشهر أنه قتل حسن عوض ومرجان العبد باتحاده مع أخيه الحاج خليفة »^(١) ، وفعلاً لم تمض أيام إلا وتقرر عدم قبول هذا الشخص في عضوية المجلس .

وجاءت نتائج الانتخابات الجديدة بالعناصر البورجوازية الثورية ، فضمت من كان متزعماً لحركة المعارضة في المجلس السابق ، وذوى العصبيات في المدن والأقاليم ، ومرة أخرى يضم المجلس بين جناحيه كبار ملاك الأراضي وزعماء الريف .
وصدر أمر توفيق بتعيين سلطان نائب المنيا رئيساً لمجلس النواب وهذا الأمر قد أعطى الراحة العامة للجميع ، وتحقق أمل سلطان الذي كان منذ البداية يسعى إليه وجعله يساهم في تحقيق مطالب العسكريين ، وعين سليمان أباطة وكيلاً للمجلس ، وعبد الله فكرى سكرتيراً عاماً وأديب إسحق كاتباً ثانياً لأعمال المجلس ، ويبدو أنه كان للعسكريين رأى في هذا الاختيار .

وكان يوم افتتاح المجلس من الأيام الخالدة في تاريخ الأمة ، إذ غمرت الفرحة كل قلب ولبست مصر ثوب الحياة النيابية الذي حيك على أيدي ثوارها ، وازدحمت الشوارع بالناس وغمرت الأمكنة القوات العسكرية بالقرب من مكان المجلس ، ووقف محمد عبيد على بابه ليثبت للجميع هذا الانتصار . ويصور لنا أحمد شفيق وكان شاهداً عياناً « كنت أرى النواب في حركة ناشطة وعلى وجوههم آيات السرور والاستبشار وسمعت بعضهم يقول إن الأمة قد استطاعت أن تحقق أمانيتها بفضل ما بذله عرابي وزملاؤه ، وكانوا يضطرمون حماسة في أقوالهم وحركاتهم »^(٢) .

ولم تكن الجلسات علنية ، لكن في جلسة الافتتاح لم يستطع الحراس منع الجمهور من الدخول فدخلوا ، وكان ذلك تعبيراً عن المشاركة الفعالة للشعب . وألفت لجان المجلس ، فكانت لجنة المدن برئاسة عبد السلام المويلحي ، ولجنة الشرقية برئاسة أمين الشمسي ولجنة الغربية برئاسة محمد المنشاوي ، ولجنة الأقاليم

(١) المفيد ، عدد ١٨ في ٢٣ ديسمبر ١٨٨١ .

(٢) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ١٣١ .

الوسطى برئاسة إسماعيل سليمان ، ولجنة قبلى برئاسة محمود سليمان ، واللجنة الدستورية برئاسة حسن الشريعى ، وقد لقى المجلس التأييد التام والتشجيع الكامل من الصحافة وجاءت خطبة الجمعة فى المساجد يوم افتتاح المجلس كلها عن الشورى مبينة محاسنها والاقتداء بالرسول الكريم ﷺ فى تطبيقها ، وعبرت الكنيسة الكبرى البطريركية عن فرحتها بإقامة حفل كبير تكريماً لذلك .

وقد وضع أن معظم المسيطرين على المجلس من أعضاء الحزب الوطنى ، فكان لابد من تطبيق برنامج الذى أذيع ونشر داخلياً وخارجياً لدفع الحياة النيابية إلى طريق العمل السليم ، وكان شريف قد أعد مشروع الدستور الجديد لعرضه على المجلس ، ووضع فيه القواعد الرئيسية للنظم البرلمانية ، كتقرير مبدأ المسؤولية الوزارية أمام المجلس ومراقبة أعمال السلطة التنفيذية ، وحقه فى إقرار القوانين والضرائب بحيث لم يعد من سلطة الحكومة استصدار أى قانون أو فرض أية ضريبة دون تصديق المجلس ، وعلى هذا الأساس تضمن هذا الدستور روح الحرية ، لكن كان هناك فى نفس الوقت تخطيط بوضع قيود وحدود له تجعله يحول دون تحقيق السيادة الكاملة للأمة ، فكان هناك شبه إتفاق بين شريف وتوفيق على تقييد سلطة المجلس ، ففى لقاء للأخير مع نظامى باشا بيّن له أنه واثق من شريف باشا المعين لرئاسة النظار ، وأن سلطة هذا المجلس لا تتعدى النظر فى المشروعات العامة^(١) .

ومما لا شك فيه أنه عند الإعداد لهذا الدستور كانت سلطة المراقبين مفروضة حيث تم أخذ ورد بينهما وبين شريف ، وفى ٢ يناير ١٨٨٢ قدم شريف المشروع إلى المجلس ، ووجه نظر النواب إلى تعهدات مصر الدولية ووجوب احترامها « حتى يأتى اليوم الذى تستطيعون فيه أن تعيدوا بناء حكومتهم وتحصلوا على ثقة الدول » ، ولهذا اعترض على « حق المجلس فى إقرار الميزانية وسن القوانين الخاصة بمالية البلاد أو مناقشة الخراج الذى يدفع للباب العالى »^(٢) ، كما أوضح لهم الحالة المالية التى عليها مصر مما أسفر عن عدم ثقة الحكومات الأجنبية بها ، وما نشأ عن ذلك من ترتيب مصالح ، وتعهداتها بالتزامات بعضها بعقود خصوصية والبعض الآخر بقانون التصفية ، لكن سمح للمجلس بحقه النظر فى مرتبات الموظفين الأجانب والإدارة الأوربية عند نظر الميزانية .

(١) البرقيات المتبادلة بين القاهرة والأستانة أثناء الثورة العراقية . دفتر ٢٨٨ ، ٧ أكتوبر ١٨٨١ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ٤ يناير ١٨٨٢ .

هكذا وضعت القيود أمام العمل البرلماني ، وفى لقاء لشريف مع بلنت صرح بأن المصريين « أطفال ويجب أن يعملوا معاملة الأطفال ، وقد قدمت لهم الدستور الملثم لهم ، وإن لم يرضوا فعليهم أن يعملوا بدونه ، فأنا الذى خلقت الحزب الوطنى ، وأنهم لم يستطيعوا العمل بدونى ، فهؤلاء الفلاحون فى حاجة إلى التوجيه »^(١) . كانت هذه نظرة شريف إلى الذين أعطوه الثقة وأوصلوه على أكتافهم لحكم مصر .

تصدع نظارة شريف

لم تمض إلا أيام قليلة - وأثناء اشتغال اللجنة الدستورية بالنظر فى اللائحة الأساسية - وتواجه الحركة الوطنية تسلطاً خارجياً تدخل معه فى صراع مرير وطويل لا ينتهى إلا بنهايتها وتحطيمها . لقد عز على بريطانيا وفرنسا أن تجدا نهضة نابعة من الكيان المصرى ولا تقضيا عليها ، فمئذ بداية الثورة كانت النية مبيتة على ذلك ، وازداد القلق مع التاسع من سبتمبر ، فأرسلتا قطعاً من أسطولييهما حتى لا تعطيا الفرصة للأستانة للتدخل فى المسألة المصرية عقب بعثتها الأولى ، وتتفردا بها والمصالح بينهما تجبرانهما على اتباع سياسة التعاون المشترك فى مصر .

وكان لوصول جمبتا للوزارة الفرنسية أثره الكبير على مصر ، هذا الاستعمارى الذى أراد « تقوية مركز فرنسا فى الخارج بتدعيم سياستها الاستعمارية فى شمال أفريقيا ، وتوثيق صلاتها بانجلترا فيما يتعلق بالقارة الأوربية وتسخيرها لخدمة اتجاهه الاستعمارى »^(٢) .

وارتاب جمبتا لأحداث مصر الأخيرة ، وكان يتوجس خيفة من ثورة إسلامية تهدد مصالح فرنسا فى الجزائر وتونس وانتشار الشعور القوى للحرية فى شمال أفريقيا ، وقد وصل تفكير فرنسا إلى أنه إذا ما حملت بريطانيا على التدخل فى شئون مصر ، يمكنها تحويل إثارة الرأى العام الإسلامى عنها إلى جهة أخرى .

أضف إلى ذلك أن جمبتا كان من أصل يهودى ، فارتبط بالمصالح المالية فى مصر عن طريق صلاته ببورصة باريس وبيت روتشلد وغيره من أصحاب الأموال الذين اشتروا بملايينهم سندات الدين المصرى ، هذا وكان لوجود نوبار وولسون فى باريس خير من يتخذ بأرائهما .

(١) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 196 .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصر والمسألة المصرية ، ص ١٧١ .

ومن هنا بدأت الاتصالات المكثفة بين الدولتين ، وأوضح جمبوتا في مراسلاته انه من الخطر السكوت على ما يجري في مصر ، وأن المصلحة تقضى بشل عناصر الاضطراب المتولدة من عقد مجلس النواب ، ورأى ضرورة مساندة توفيق لاقتلاع جذور الحركة الوطنية ، وقد أيدت بريطانيا هذا الاتجاه ورحبت به حيث جاء متفقاً مع هواها من ناحية ، ولاستمرارية سياسة الوفاق مع فرنسا من ناحية أخرى ، ووصلت تعليمات القنصل الإنجليزي من مصر بأنه لا بد من تشجيع الخديو بأعطائه الأمل بالتأييد والمساندة ، وذلك بعد تأكيد ماليت من ذلك النشاط والحماس المتقد الذي دب في المصريين وسيطر على مجلس النواب وجعله واضعاً نصب عينيه حقوقه الكاملة ، وهذا الشعور الفياض بالكراهية للأجانب وخاصة الموظفين منهم .

وأخيراً ، كانت النتيجة مذكرة ٨ يناير ١٨٨٢ المشتركة إلى الخديو لتعلن فيها الدولتان عن عزمهما تأييد سلطته « للتغلب على الصعوبات المختلفة التي قد تعترض انتظام الشؤون العامة في مصر ، وأنهما متفقتان تمام الاتفاق على بذل جهودهما المشتركة لمقاومة كل أسباب المشاكل الداخلية والخارجية التي قد تهدد النظام القائم في مصر ، وتعتقدان أن الخديو يجد في هذه التأكيدات الثقة والطمأنينة والقوة التي هو في حاجة إليها لإدارة شؤون البلاد » (*) .

وأصبح واضحاً من تلك المذكرة ذلك التعاون بين لندن وباريس والخديو ، والذي وصل بالدولتين إلى مرحلة التهديد وتكوين جبهة للقضاء على المشاكل الداخلية ، والمقصود بها قوة العسكريين وقوة النواب ، والخارجية وتعنى الوقوف أمام الدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر .

ساعدت هذه المذكرة على اشتعال المصريين ، وتآجج الموقف في مجلس النواب ، وزادت حدة المعارضة ، وخاصة بشأن مسألة الميزانية التي كانت مثاراً للخلاف بين الحكومة والمجلس ، وتنقسم ميزانية مصر إلى قسمين ، قسم خاص بإيرادات الدين العام ، وقسم آخر حر ، وأراد المجلس حق التصويت على القسم الأخير ، وكان ذلك معقولاً وليس مبالغاً فيه ، فمن حق مصر أن تمنح الشعور بالحكم الذاتي دون مساس بمصالح الدائنين .

ورفض المراقبان بشدة السماح بذلك ، حيث أرادا أن تكون الميزانية بكاملها تحت تصرفهما ، ولم يكن الرفض من المراقبة الشائبة فقط ، بل جاء أيضاً من

(*) الأرشيف النمساوي ، محفوظات ١٥ ، مجموعة ٢٨ / ٣١ ، ٢٠ أكتوبر ١٨٨٢ ، ص ١ .

الخارج ، فأبلغ جرانفيل وزير الخارجية الإنجليزية قنصله في مصر بالرفض النهائي لتدخل النواب في هذه المسألة^(١) .

ووضعت لجنة مجلس النواب لائحة أساسية تعطى للمجلس حق النظر في الميزانية ، وتشريع القوانين ، والتوسع في مبدأ مساءلة النظارة أمامه ، وبذلك ينتهي قانونا ١٨ نوفمبر ١٨٧٦ ، ١٥ نوفمبر ١٨٧٩ اللذان خولا للمراقبين حق تولى إعداد الميزانية مع مجلس النظار ، وذلك بعد أن وصل الأمر إلى الإصرار على أن يكون للمجلس السلطة التشريعية في الدولة ، وفي اجتماع ٢٢ يناير ١٨٨٢ صمم أعضاء المجلس على ألا يقبلوا مطلقاً تعديلاً في لائحتهم ، ورفضوا بالإجماع ما قدمه شريف من اقتراحات ، ورأوا أن هذا التدخل الأجنبي هو تحد بالغ لكرامة مصر وحقوقها ، واجتمع بعض النواب ومعهم سلطان بشريف للبحث في الخلاف ، لكن كان تصميم النواب مؤكداً ، وسعى شريف لدى وكيلى فرنسا وبريطانيا في أن يبقى إختصاص مجلس النواب استشارياً فيما يتعلق بالقسم الخاص بالديون وقطعياً فيما عدا ذلك ، وإذا نشأ خلاف بين مجلس النظار ومجلس النواب تشكل لجنة للتحكيم من سبعة نواب والنظار السبعة ويكون لرئيس النظار الصوت المرجح عند الاختلاف ، ورأى اللجنة قطعياً .

لكن جاء رد جرانفيل بالرفض ، وحاول شريف أن يرجئ ما هو متعلق بالميزانية في اجتماعات المجلس لكنه فشل ، وطلب ماليت وكولفن من بلنت إقناع النواب بأن مسألة التصويت هذه هي خارجة عن سلطاتهم ، فالتقى بهم بحضور محمد عبده وكانت المناقشة طويلة لم يصل فيها إلى المرجو ، ويقول بلنت « ولم أكف عن المناقشة إلا حين اقتنعت بأنهم لا يرغبون ، ولم يسعنى إلا الإعتراف بأنهم على حق في طلبهم السلطة على نصف الميزانية إذا كان الحكم النيابى سيكون حقيقة لا تمويهاً »^(٢) .

وهنا قدم قنصلا بريطانيا وفرنسا مذكرة بإيحاء من الرقبين تتضمن « أن الدولتين تريان أن الموائيق المتعلقة بالمالية لا تجيز للحكومة إعطاء مجلس النواب حق تقرير الميزانية قطعياً ، وأن القنصلين مستعدان المخابرة في الأمر على رجاء حصول الوفاق ، وأن فتح المخابرة بطلب الحكومة لا يكون إلا بعد تمام الإتفاق بينها وبين النواب على سائر بنود اللائحة »^(٣) .

(١) Egypt , No. 5 (1882), No . 56, F.O. January 11, 1882 .

(٢) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , pp. 193, 194 .

(٣) مصر ، عدد ٩ في ٦ فبراير ١٨٨٢ .

وتأزم الموقف ، وأجاب المجلس بأنه لا حق للقنصلين معارضة ما هو من شئون مصر الداخلية ، وكانت تلك صيحة قوية تأصلت في النفوس ، ولم تكن قاصرة على النواب فقط ، وإنما إتسعت الدائرة لتضم الناقمين على شريف ، وبرز سلطان على مسرح الأحداث ، وأعلن أن مشروع شريف الدستوري غير متكامل ، وراح يعقد الاجتماعات في بيته لدراسة الموقف ، وقد لمس من حدة الموقف اتجاهات الثوريين للإطاحة بشريف ، ولم تكن إلا فرصة سانحة أمامه ليقبضها ويدعو إلى تنفيذها بعد أن إشتت من سياسة رئيس النظار الأخيرة رائحة العهد البائد ، ورأى في التغيير تحقيق أمل كان يسعى إليه خصوصاً أنه حرم من التعيين في تلك النظارة ، وفي إحدى هذه الاجتماعات ، تقرر رفض شريف والسعى لإسقاط نظارته ، وتزعم ذلك الرأي عرابي « وتكلم في استعفاء النظارة ولزوم توجه النواب لطلب ذلك »^(١) .

وبالرغم من أن شريفًا كان على علم بما يدور ، فإنه تصلب في رأيه ، فهو يكره الثورة والثوار ، وكان مؤمناً بالتدرج في منح الحريات ، لذا فإن ميوله تتفق مع حرمان المجلس مما رغب فيه ، كما أن مصالحه أرغمته على ذلك ، وسانده في هذا الموقف بعض من كبار الملاك الذين بدءوا في عملية الانسحاب ، لكن الباقين لم يرق لهم هذا النهج من الاعتدال المشوب بالسيطرة الأجنبية ، إذ كان معناه الرجوع إلى ما كانت عليه الحال . إذن لابد من التمسك والتصميم ، وتألقت لجنة من النواب المشهورين بمواقفهم الراسخة للحصول على الجواب النهائي من شريف ، فأبى التصديق إلا إذا وافقت الدولتان فكان لهم الرد الثوري والاستجابة الفعالة التي أسقطت شريف في النهاية ، وتسجل صحيفة المفيد نهاية هذا اللقاء « قالوا له : إن التصديق على جميع بنود اللائحة مما تطالبك به الأمة ، ومن اللازم المبادرة إلى إجابتها ، وأما الدولتان المذكورتان فلا داعي إلى توقنهما في ذلك . لأن هذه المسألة لا تمس مصالحهما ، نحن نتأسف إذا أخرجتنا لأحد سواك يصدق عليها ، ونهضوا في الحال وكانت اللائحة على التبريزة أمام دواته فأخذوها ، فقال لهم دعوها لننظر في أمرها ، فقالوا لا لزوم لذلك وخرجوا قاصدين المعية ، فقال لهم الخديو إذا كانت النظارة متوقفة فما العمل ، فقالوا تستعفى وتشكل غيرها ، وهي تصدق على اللائحة »^(٢) .

(١) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٧٨ .

(٢) المفيد ، عدد ٢١ في ٥ فبراير ١٨٨٢ .

وكان تأثير العسكريين على النواب ملموساً ، ويتضح أنه بالرغم مما فعله شريف من محاولات لإبعاد قوة العسكريين ، فإنه لم يتمكن من ذلك واستمروا حاملين لواء الثورة شاهرين أسلحتهم أمام المعارضين ، ولم تكن فكرة إسقاط شريف مرتبطة بمسألة الميزانية فقط ، حيث كانت رغبة العسكريين أن يكون افتتاح المجلس نهاية للنظارة . وأكد شريف في شهادته عقب نهاية الثورة أن البارودي كان يستقبل كل ليلة المعارضين من النواب أمثال الشريمى وأمين الشمسى وإبراهيم الوكيل . ويشجعهم على التمسك بما طالبوا به ، وأضاف أنه عند افتتاح مجلس النواب ، حضر أمين الشمسى إلى سلطان برسالة من عرابى مؤداها أن يتوجه سلطان إلى البارودي للاتفاق معه على الطريقة لإسقاط النظارة حيث كانت العادة في أوروبا أن الوزارة تسقط عند افتتاح مجلس النواب^(١) ، لكن لم يتم ذلك .

وبهذا يتبين مدى سيطرة العسكريين وتوجيههم للأمور وسمو تفكيرهم لإتباع الأسلوب الأوربي المتحرر وتطبيقه على مصر ، لكن لم تكن سيطرتهم قهرية ، إذ أن التكاثر والتعاقب بينهم وبين النواب وأعضاء الحزب الوطنى كان متكاملأ . وانهارت الثقة بين الحكومة والأمة ، وكانت النتيجة هى إسقاط شريف ونظارته بناء على ذلك الالتحام بين العسكريين وكبار الملاك الذى أرادوا نظارة أخرى تنفذ رغبات المجلس المتمثلة فى رغبات الأمة .

ولم يكن أمام توفيق إلا الموافقة وتنازل عن حقه فى عملية اختيار النظارة الجديدة ، وتركها للجنة النواب التى طلبت منه استعفاء النظارة ، وإحلال أخرى « تنفذ لائحة النواب » ، وقد عبر الخديو عن هذا الاختيار لمندوبه بالأسطوانة بأنه « من الذوات الموافقين لأمزجتهم »^(٢) .

كان ضعف توفيق واضحاً فى إجابة طلبات النواب ، رغم ما استند عليه من تأييد خارجى بناء على مذكرة يناير ، فقد أحس أنه لا يستطيع أن يوقف هذا المد الثورى ، كما أنه خاف من ثورة عسكرية يمكن لها أن تطيح بعرشه ، وقد رضخ وسلم بالأمر بعد أن وضع موقف الباب العالى .

والواقع أنه مع بداية الأزمة ، أرسل توفيق للسلطان يعرض عليه طلب المجلس

(١) محافظ الثورة المرابية ، محفوظ ٢٠ ، دوسيه ١٧٨ .

(٢) محافظ الأبحاث ، محفوظ ١١٦ ، عابدين محفوظ ١٦٣ ، ملف ثابت باشا ، ٤ فبراير ١٨٨٢ .

وأبان له أن العسكريين في جانب النواب ، وجاء الرد بتأييد المجلس نظراً « لما تقتضيه الحالة والظروف ، ومنعاً لإيقاع النواب في اليأس والهيجان »^(١) ، وبذلك لم يكن من المعقول أن يخالف الخديو رأى الآستانة ، ونراه يحل موقف قبوله توجيهات الدولتين صاحبتا المصالح في مصر « أن معارضة المجلس في مطلبه لا بد وأن تؤدي إلى مظاهرات شعبية يؤيدها الجيش ، وأن المجلس قد هدد باتخاذ قرار إنزاله عن العرش ، وإنه لا يملك بين يديه وسيلة لحله »^(٢) .

ويظهر أن خوف توفيق لم يكن فقط من ثورة عسكرية ، بل من ثورة عامة ، إذن فلا بد من الموافقة على إسقاط النظارة ، وكما ارتفع شريف وعلا بفضل كبار الملاك والمتنفذين على أنه رمز للحكم الدستوري ، سقط يتهاوى على أيديهم ، وانفصل عنهم إلى نهاية عهده بهم ، حيث بدأ من جديد يمارس سلطته بعد نهاية الثورة .

إنجازات نظارة شريف

وإحقاقاً للحق وإنصافاً للعدل يجب أن نذكر أن شريفاً كان معتدلاً ولم يكن ثورياً ولا متطرفاً ، ولا ننكر أن نظارته أعادت الحرية ، وأعطت للرأى العام كثيراً من حقوقه التي كانت مسلوبة منه ، فعقب تولية الحكم دعا كل ذى ظلامة إلى التظلم مما أصابه ، فأحس المصريون بانتصار ثورتهم ، فتدفقت العرائض على شريف لإسقاط ظلم رياض « فكان منهم كثير حكم عليهم بالنفى والإبعاد ، فاقتضت العدالة توجيه النظر إلى هؤلاء المتظلمين وأسباب الحكم عليهم ، فطلب تحرير جدول بأسماء من أبعادوا عن أوطانهم ، فوجد أن الذين سافروا بمعرفة الجهادية بناء على أمر الداخلية ممن حبسوا في الطوبخانة يبلغ عددهم ٩١٢ ، وبالنظر في ذلك الجدول ، علم أن بعضهم اكتفى فيه بإفادة ترد من الجهات تفيد أنه من الأشقياء ويلزم إبعاده وما شابه ذلك من الأسباب التي لا يعتبرها قانون القوانين ، فإن أصول العدالة وشرائعها تقتضى بأنه لا يحكم على جان بجزاء إلا بعد تحقيق جنايته وثبوتها عليه بالطريقة الشرعية المثبتة في قوانين الحكومة »^(٣) ، ولم يكن الأمر قاصراً على سجناء الجهادية وإنما الطرد والحرمان والتبعيد والسجن كان على كافة الناس ، وفي الحال شكلت لجنة للتحقيق وقامت بعملية حصر شاملة لهؤلاء ، فتبين

(١) المصدر نفسه .

(٢) الأرشيف النمساوى ، المصدر المذكور ، ص ٦ .

(٣) المحروسة ، عدد ٢٩٤ في ٧ أكتوبر ١٨٨١ .

أن هناك « زهاء الأربعة آلاف من سائر المديريات القبلية والبحرية ، فأطلقوا من بقى منهم فعادوا إلى أوطانهم على نفقة الخزينة »^(١) .

كان أول المتمتعين بالعودة للوطن حسن موسى العقاد الذى أصبح من أقطاب الثورة ، وحميد أبو ستيت وولده أحمد والأول من كبار ملاك الأراضى بسوهاج ، وسيسجلان دوراً مهماً أثناء الثورة ، وقد وصل الأمر أنه حتى من كان عليه حكم بناء على قرار من المحكمة ، خرج من سجنه ، مثلما حدث مع مصطفى بك عنانى الذى صدر عليه حكم المحكمة المختلطة ، لكن سعى العسكريون للإفراج عنه ، فوافق شريف وتم لهم ما أرادوا^(٢) .

وبذلك استرد المصريون حريتهم مع التاسع من سبتمبر ليبدءوا إنطلاقة جديدة بعد أن قضى على مظالم ما قبل الثورة ، وليثبتوا أنهم شاركوا فى الثورة بكل إمكانياتهم ، ولكن كانت الظروف أقوى منهم .

اقتربت نظارة شريف بلاتحة تنظيم الخدمة المدنية ، والتي شملت قوانين للموظفين الملكيين تنظم العلاقات وشروط التعيين والترقية والتأديب والفصل . لقد أراد شريف أن يساوى العاملين فى الدولة ، فكما تمتع العسكريون بتلك القوانين التى صدرت والتي كانت فى طريق الصدور لتحسين أحوالهم ، رأى أن ينصف المدنيين « فترتيب الملكية وتحديد أعمالها عادل ، لأنه يمنع رؤساء الخدمات من ارتكاب الرذائل الباعثة عليها الرشوة أو الحامل عليها الخاطر »^(٣) .

وبدأت عملية تطهير سرية وواسعة من العناصر الفاسدة ورواسبها ، وتدور الدوائر على المديرين الذين مارسوا الظلم والجبروت ، فقد أقيىل مدير الشرقية ، وحقق مع مدير أسيوط، بناء على الشكاوى التى قدمت فى حقه ، كذلك خضع مأمورو البوليس لعملية تصفية ، وأحل محلهم من اتصف بالعدل ، وعلى سبيل المثال صدر أمر الداخلية برفت مأمور ضبطية بندر سوهاج لعدم لياقته لهذه الوظيفة ، وتطلب الداخلية من المديرية « إيفاد الأسماء الذين سبق لهم الاستخدام فى الميرى والحاصلين على صفات الاستقامة واللياقة ولا يكون من أهالى المديرية ولا له أطيان بها »^(٤) . وذلك ليمارس العدل ولا يعمل لمصلحته أو لمصلحة أقاربه أو يستغل أهالى المنطقة .

(١) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٢٥٢ .

(٢) محافظ انثورة المرابية ، محفظة ١٩ ، دوسيه ١٢٨ .

(٣) المفيد ، عدد ٢٩ فى ٣٠ يناير ١٨٨٢ .

(٤) محفظة الداخلية ، محفظة ٣٦ ، ١٦ سبتمبر ١٨٨١ ، محفظة ٣٨ ، ٢٣ أكتوبر ١٨٨١ .

ووضعت مسألة الرشوة نصب أعين النظارة ، فيصرح مأمور الضبطية بالقاهرة - أحمد الدرہ ملی - بأن فساد الأحكام ونقص القوانين لا يتأتى إلا من « البرطيل ومتى دخل البرطيل في حكومة أفسد قوانينها ، وضاعت حقوق أمتها وأصبحت كالبیت الذی لا باب له یدخله من یرید ویسرق منه ما یشاء »^(١) .

وأعد شریف نظام المحاکم الأهلیة ، كذلك شرع فی وضع قانون للأمن العام لحفظ النظام والحقوق ولیوقف الحاکم عند حده حیث إن الأحکام أغلبها اجتهادیة ، وازداد الاهتمام بالتعلیم ، فخصصت لمیزانیته قدر وتوسعت المدارس ، مما یدل علی الإدراک الكامل والوعی للتعلیم .

أما عن سیاسة النظارة تجاه الأجانب المقیمین فی مصر ، فقد تقوى المصریون بانتصاراتهم ویدعوا یرفعون رءوسهم أمام الأجانب الذین كانوا یعلمون جیداً أن تلك الثورة هادفة للقضاء علی سطوتهم وسلطانهم ، فكتب مالیت لوزیر خارجیتة عقب التاسع من سبتمبر یشرح له ذلك الألم الملحوظ الذی التهب بین جوانح الأجانب فی الإسكندریة والقاهرة لإحساسهم بأنه یمكن أن یتحول الأمر ضدهم^(٢) .

وأصبح علی نظارة شریف أن تتحمل تلك الأحکام التی أصدرتها المحاکم المختلطة نتیجة لطمع الأجانب وجبروتهم ، وتكثفت حملات الأمن لتقضى علی مشاغبی الأجانب ، ولم تكن الضبطیة قبل ذلك تستطیع أن تفتش بیوت الأجانب ، لكن الثوریة المطلقة التی تميز بها المتحكم فی أمن مصر جرأته علی فعل ذلك ، واستمر النشاط فی هذا المجال ، فقبض علی المحتالین من « الأفوكاتیة والمزورین للأختام ومن علی شاكلتهم من أسافل الأجانب وهم متلبسون »^(٣) .

وكان التحفز ضد الأجانب قد بلغ مداه ، والتطلع إلى الثأر منهم ووصل لأقصاه ، فقد وجد شرطی قتیلاً فی الطریق بالسویس ، وكان من بلغ عنه رجلاً إیطالیا یعمل بالإدارة الصحیة ، فاعتقد الجمیع أنه القاتل ، فما كان من رجال الشرطه إلا أن حملوا بنادقهم للانتقام وتبعهم الأهالی للمشاركة ، وذهبوا إلى المحافظ لطلب الحکم علیه ، فحازل تهدئة الموقف ، لكن علت الصیحات « لا یحل لك ذلك یا مسلم إحضر لنا النصرانی الساعة لنبطش به وإلا ذهبنا بالجثة إلى

(١) التکیة والتبکیة ، عدد ١٧ فی ١٩ أكتوبر ١٨٨١ .

Egypt, No. 3 (1882), No. 44, Sept 25, 1881, p. 30 .

(٢)

(٣) المفید ، عدد ١٠ فی ٢٤ نوفمبر ١٨٨١ .

القاهرة » ، وتآزم الموقف وانزوى الأجانب خوفاً من الأهالي ، وتدخل القنصل الإيطالي ، وأرسل شريف لجنة لتقصي الحقائق^(١) .

وصورت الوثائق النمساوية ما حدث بأنه ثورة عسكرية ضد الأجانب ، وأن الموقف أصبح في غاية الخطورة ، والواقع أن المسألة لم تكن خاصة بالعسكريين بل كان شعور عام انتاب المصريين ضد مستغليهم ، وأن الأمر لم يكن قتل الشرطي ، فكثيراً ما كانت عملية القتل هذه تتم ، ثم اتضح أن الإيطالي لم يكن القاتل ، لكن روح العداء ضد الأجانب كانت مسيطرة على المصريين ، ولم يكن ذلك خاصاً بمدينة دون أخرى ، فحدث في دمياط أن راح أهلها يهددون الأجانب ، فقد أهين وسب وكيل قنصل فرنسا ثلاث مرات في الطريق ، ولم يتخذ المحافظ أية إجراءات ضد هذه الإهانات ، كما لم يرد البوليس على شكاوى نائب القنصل المهان^(٢) ، وفي طنطا حدثت اضطرابات بين أهلها والأجانب فدمر الأهالي قهوة وحانوت ليوناني « ونصح القناصل الأوروبيين بعدم ترك منازلهم »^(٣) .

ومما لا شك فيه أن ذلك يرجع إلى التصرفات الشائنة والشغب الزائد اللذان تزعمهما الأجانب ، وخاصة اليونانيون الذين دائماً وأبداً يثيرون الأهالي ، بالإضافة إلى أن هذه الفترة تختلف عن سابقتها ، ففيها نبعت الحرية ، وتوطد في الأعماق شعار الثورة « مصر للمصريين » ليكون صيحة ضد الامتيازات الأجنبية ، ومن ثم كان الانطلاق السافر لتلك الكراهية ضد الأجانب ، ووصل الأمر إلى أن الحكومة نفسها بدأت في كسر تلك الامتيازات ، فترى في إحدى مناقشات مجلس النظائر تتعرض للأوروبيين ملاك الأراضي الذين لم يدفعوا البدلية على الأنفاق « لتعضدهم بالقونسلات » وبعد المداولة يتوصل إلى إعطاء الحكومة الحق في تفتيش أراضيهم والعزب الموجودة فيها^(٤) . وبذلك أصبحت للحكومة سلطة تمارسها على الأجانب الذين أذاقوا مصر الأمرين .

(١) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٢٦١ .

(٢) Egypt No. 5 (1882) , No. 92, January 17 , 1882, p. 70 .

(٣) The Times, Feb. I, 1882 .

(٤) محفوظات مجلس الوزراء ، محاضر جلسات مجلس النظائر ، محفظة ٥ / ز ، محضر ٢٢

العسكريون والسلطة

قدر للثورة أن تقوم على أكتاف العسكريين ، ففي أحيان كثيرة يكون للقوة ضرورة ، تلك التي كانت يمتلكونها ، فهم حاملو السلاح ، والفئة الأكثر تنظيمًا ، والأكثر تمرسًا ، والأكثر جرأة ، والأكثر غنًا ، ومن هنا كانت معظم الثورات يتزعمها المسلحون ، وانطبق ذلك على الثورة العربية ، وقد وضع كيف اجتاز العسكريون المجال منذ فبراير ١٨٨١ في قصر النيل ، ثم المجهودات التي قاموا بها لتعبئة قوى مصر جميعها ، يساندتهم في هذا المثقفون وملوك الأراضي لتكون النتيجة التاسع من سبتمبر الذي ألهب حماسة الأمة المصرية جميعها .

وكان المخطط يقضى أن يتراجع العسكريون إلى مواقعهم ، ليتولى أصحاب السياسة أعمال الدولة ، وتم ذلك في بداية الأمر ، فبعد أن اختار العسكريون النظار ، وبعد أن أيقنوا أن مطالبهم ومطالب الأمة قد شرع في تنفيذها ، وبعد أن أصر شريف على إبعاد قوتهم المؤثرة بتفريقهم خارج القاهرة وهذا ما كانوا يرفضونه دائمًا ، أصبح الوضع الجديد مقبولاً لديهم بعد تلك المكاسب التي استحوذوا عليها وانسحبوا إلى معسكراتهم .

لكن إلى أي مدى كانوا صادقين في البعد عن السلطة والسياسة ؟

أتهم العسكريون خاصة عرابي والبارودي بأنهما كانا يسعىان للسلطة والحصول على المركز المرموق ، ونحن هنا لا ننفي ذلك ، لكن نعبر عن رأى ربما كان يميل للصحة وهو بعيد عن التحيز . لقد شاءت الظروف أن يكون العسكريون هم محققو أمل الأمة ، ومن هنا ارتبط في ذهن الشعب عامة أن رمز الحرية والانتصار هو من صنع العسكريين وعلى رأسهم عرابي الذي تدفق الحب عليه هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان غالبية العسكريين فلاحين لم يتخرجوا من الحرية كأبناء الذوات ، ولكنهم ترقوا من تحت السلاح ، فهم ممثلون لتلك القوى الكادحة ومعبرون عن رأى مصر تمام التعبير ، وأخيراً فتد سعت المكانة المرموقة والشهرة لهم قبل أن يسعوا هم إليها ، ثم ما هو المانع من أن يسعى الإنسان إلى السلطة ، خصوصاً إذا كانت مبادؤه تخوله أن تكون تلك السلطة للصالح العام وليست لمصلحته ، والتاريخ يذكر لنا أنه حتى خلفاء الرسول الكريم ﷺ لم يكن أحد منهم يكره الرئاسة والجميع كان يتمناها من أجل صالح المسلمين .

رحل القادة بعيداً عن القاهرة كما أمروا ، وكان رحيلهم عن طيب خاطر وربما قصد به التمهيه أمام المسئولين بأن دورهم قد انتهى بنوال أغراضهم فيقول عرابي: « وافقنا على ذلك مبدئياً اطمئناناً للخواطر وتسكيناً للقلوب ، ولكن على شرط صدور أمر الخديو بانتخاب النواب قبل سفرنا »^(١) ، ويفهم من ذلك أن هناك موعداً آخر مع العمل الثوري ، وجاء وقت الرحيل وكأن هؤلاء القادة الرؤساء الحقيقيين للأمة في ترحالهم وحلهم ، وهذا مما عمق في النفسيات المضادة الأثر السيئ .

كان عبد الحال حلمي أول من نفذ الأوامر بالسفر إلى دمياط ، ولم يكن سفرأ عادياً ، فقد مر بالآية في شوارع القاهرة حتى وصل إلى محطتها التي احتشدت بالمدوعين ، وارتفعت الأصوات بالخطب التي كان فحواها الاتحاد وبيان أن الجيش فداء لأرواح الوطنيين ، وأن العسكريين هم الذين أحيوا روح العدالة والحرية والإخاء والمساواة .

أما عن توديع عرابي عند سفره إلى رأس الوادي ، فقد كان له سمة لقاء القائد الذي عاد من ميدان الحرب منتصراً ، فكانت الجموع المحتشدة غفيرة شملت قوى الأمة جميعها ، وكأنه الملك غير المتوج .

وعلى طول طريق القطار ، وعند كل محطة يقابل الشعب عرابي بنفس الحماس حتى وصل الزقازيق مهددة وموطنه الأصلي ، فيها أهله وناسه وأحباؤه ومؤيدوه الذين لم يتخلوا عنه وعن الثورة لحظة ، وكان على رأس مستقبلية أمين بك الشمسي كبير تجار الزقازيق ، ومعه حوالى الألف شخص ، جميعهم يتقد حماساً هاتفين داعين مستبشرين ، وكان العيد قد حل بالزقازيق ، وأقيمت الاحتفالات تشريفاً وتعظيماً ومهابة لعرابي الذي حدثهم عن الإصلاح ، وأبان سوء استخدام الأوربيين في مصر^(٢) .

وبرز دور الأعيان بروزاً واضحاً في تلك الاجتماعات التي كانت تتم تحت رعايتهم في الشرقية ، فأمين الشمسي وسليمان أباطة وأحمد أباطة وكثير من العمدة أمثال الشيخ أحمد محجوب عمدة العصلوجي ، أقاموا الولائم واللقاءات على شرف العسكريين وعلى رأسهم عرابي الذي كان فيها محفوفاً بأعظم مظاهر التكريم

(١) أحمد عرابي ، مذكرات ، ج ١ ، ص ١٦١ .

Cromer , op. cit., Vol.I, pp. 208 , 209 .

(٢)

والتمجيد . وبذلك فشل شريف منذ البداية أن يسلب عرابى مكانته التى فرضت نفسها وأصبحت موضوع الساعة لقوى مصر جميعها .

أراد العسكريون تأليف مجلس نواب يختلف عن سابقه ليس فى طريقة الانتخاب فحسب وإنما فى التكوين أيضاً ، وقد تناولنا معارضة عرابى لشريف فى قانون الانتخاب ، أما مسألة التكوين فقد رأوا ضرورة إشراكهم فى هذا المجلس ، فمن بين أوراق الثورة العربية خطاب يدل على أبعاد العسكريين مرسل من الزمر إلى أحد الأصدقاء يبدو أنه من القادة العسكريين لاسيما عرابى الذى يعتبر الممثل لهم، يبين فيه « أن المجلس عليه مدار العمل فى بث تمام الحرية وتنقيح القوانين الملائمة، والنظر فى مهام الأمور وفصل معضلات المشاكل . وهذا لا يتأتى إلا بحرية أعضاء المجلس وتدريبهم على سرعة السير ومناضلة الحكومة فى مستبداتها » أما من حيث التكوين « صار من الضرورى وجود من الثلاثة أعضاء إلى الخمسة من رجال الجيش ومن السدس إلى خمس العدد الأصلي من المتوظفين بحيث يكون هذا الخمس من علماء المهندسين والشريعة والكتاب الماهرين ليتيسر لهم ضبط وحساب واردات مصر ومصروفات الحكومة والسير على محور الانتظام » ثم يطلب الخطاب عقد « جلسة خصوصية تتفق أراؤكم فيها على من تستحسنوهم من رجالنا أعضاء فيه وتبذلوا الجهد فى تعيينهم »^(١)، وكان هذا إصراراً على مشاركة العسكريين فى السلطة ، لكن لم ينفذ ذلك إذ غيرت الظروف مجرى الكثير من مخططات الثورة .

ومارس عرابى ومن معه نشاطاً مكثفاً فى الشرقية « أخذ يتجول فى أنحاء المديرية مستصحباً معه بعض الضباط ، فكان يبت مبادئه وأفكاره فى نفوس عمد البلاد ومشايخ العريان »^(٢) .

وأصبح عرابى ملكاً فى الشرقية فآثره فيها واضح للغاية ، حقيقة أن المصريين عامة تأثروا به ، ففى محاوره جرت بين بلنت وأحد المصريين البارزين قال الأخير « إن جميع الأمة المصرية أشربت أفئدتها محبة لما رأوا فيه من الذب عن حقوق الوطن التى يعلمونها جميعاً ولا يريدون السكوت عليها ، ولذلك أنابوه عنهم فى

(١) محافظ الثورة العربية ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٥٤ .

(٢) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، ج ٤ ، ص ١٠٠ .

إظهار مقاصدهم التي يرغبونها للحكومة لما توسموا من حضرته من الخير ، إن أهل الوطن عموماً متحدون على محبته »^(١) ، كان هذا شعور المصريين عامة ، لكن الشرقية أعطته المزيد ، لذا كان لابد للحكومة من وقف هذا التأييد المتدفق .

وفى هذه الفترة كان عرابي كثيراً ما يتردد على القاهرة ليكون على مقربة من الأحداث ، وليراقب سير الأمور ، وليتتبع خطوات شريف ، وليرى ما تم إزاء مجلس النواب ، إذ كان من الصعب عليه أن يتخلص من التدخل في السياسة خصوصاً بعد أن أصبح على رأس الحزب الوطني ، ومرات أخرى نراه في القاهرة ، فقد راح يشتكى من أن النمل كثر في رأس الوادي وأصبح الأمر خطراً على قواته ، فيرسل شريف البعثات الطبية لإبادة النمل ويرى أن تنتقل القوات إلى رشيد^(٢) ، لكن عرابياً لم يذهب إليها ، وأبلغ أن العساكر الآلاي أصيبوا بحمى كادت أن تكون تيفوسية ، وأن الذين يمرضون منهم في الشهر ما بين سبعمائة إلى سبعمائة وخمسين ، « فسل هل يريد الانتقال إلى قم البحر ، فأجاب بأنه لا يرغب ذلك لأن هذا المحل رطوبية »^(٣) ، كما كان أحياناً يتناسى ميعاد القطار الذي ينقله من القاهرة إلى رأس الوادي حتى يبقى بالأولى .

ويتضح أن عرابياً بعد أن اطمأن بعمق أثره في منطقة الشرقية ، وأنها أصبحت تابعة لمبادئه وأفكاره ، رأى ضرورة أن يكون على مقربة من الأحداث ، لذا فهو يسوق الحجج السابقة علّه يظفر بما يريد ، هذا في الوقت الذي رأى فيه ماليت أن وجود عرابي خارج القاهرة يزيده قوة وسلطاناً ولذلك نتائجه ، وأنه إذا استخدم داخل القاهرة يكون أفضل مما هو خارجها ، حيث من الممكن الاستفادة من نفوذه^(٤) ، وشارك القنصل الفرنسي زميله في الرأي ، كما كان ذلك موافقاً للمراقبين^(٥) ، أيضاً كانت الحكومة تعلم ما لعرابي من مكانة في النفوس وتريد أن تدعم مركزها تجاه المصريين ، فتذكر صحيفة الفسطاط : « وقد جريت الدولتان وعموم المصريين أن

(١) المفيد ، عدد ١٥ في ١٢ ديسمبر ١٨٨١ .

Malet , op. cit., pp. 204 , 205 .

(٢)

(٣) المفيد ، عدد ١٨ في ١٥ ديسمبر ١٨٨١ .

Egypt , No. 5 (1882), Jan.5, 1882, p. 35 .

(٤)

Cromer, op. cit., Vol I, p. 212 .

(٥)

طول مكث سعادة أحمد باشا عرابي مدة إقامته في رأس الوادي أوجب أو كاد أن يوقع اضطراباً وخيم العاقبة في القاهرة وغيرها ، ولولا ذلك لما اضطرت الحكومة على غير رضاها إلى إقامته في القاهرة وجعله وكيلاً للجهادية ، فإن استدعاه في ذلك الوقت كان هو بعينه الراحة العمومية والأمن والطمأنينة «^(١) .

وكانت الوظيفة التي فُكر في إعطائها له بعد نقله للقاهرة هي وكالة نظارة الجهادية ، وهي وظيفة مهمة ، واعتقد أنه سيكون عند شغلها أقل خطورة على ما هو عليه ، وبها يمكن أن يتعرض لفقد شعبيته حيث يعمل من خلالها على الاهتمام بما تتطلبه مهامها وينظر إلى مصلحة الحكومة دون أية مصالح أخرى ، وبهذه الطريقة يبعد رويداً رويداً عن انغماسه فيما لا تحبه ولا ترضى عنه الحكومة ، وتفتقر العلاقة التي ربطت بينه وبين الشعب .

وأخيراً فقد كانت رغبة البارودي أكيدة في وجود عرابي بجواره ليستكملا معاً التخطيط المتفق عليه ، فسمى بحجة أو بأخرى لدى شريف لرجوع عرابي للقاهرة ، وعاد وغدت القاهرة وكأنها بين يديه ، وصار بيته مقراً للاجتماعات العلنية ، وأصبحت رحابه « شبيهة بمجموع دوائر الحكومة لكثرة من كان يفد عليها للزيارة والتظلم ، وكان كثير من الأوربيين ومراسلي الجرائد الأفرنجية يذهبون إلى بيته لاستطلاع سياسته والوقوف على مكنونات أفكاره »^(٢) .

ومضت الاجتماعات التي شكلها عرابي ولم تعد قاصرة على العسكريين إذ غدت تضم العلماء والأعيان والتجار يأتون من كل فج عميق ، ويذكر أحمد شفيق « وكنت كلما مررت به - بيت عرابي - أرى الجموع داخلة إليه وخارجة منه ، وكان ظاهراً أن الحركة تتسع يوماً بعد يوم »^(٣) .

وغدا وجوده بالقاهرة مع النواب من أكبر العوامل التي صعّدت الموقف إلى الدرجة التي لمسناها ، وفي تقرير للقنصل النمساوي يذكر « منذ أن عين عرابي وكيلاً للجهادية وهو يطالب بقوة بحق تصويت المجلس على الميزانية وهو يعتمد على شعبيته ليعارض شريف »^(٤) ، وبذلك أصبح عرابي قلب الحزب الوطني وروح مجلس النواب .

(١) القسطنطين ، عدد ٩ في ١٤ يونيو ١٨٨٢ .

(٢) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، ج ٤ ، ص ١٠٠ .

(٣) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ١١٨ .

Polit , Arch . No. 19, Pol, 15 January , 1882 .

(٤)

وساءت حالة العسكريين بوصول مذكرة يناير المشتركة ، وعندما علم شريف بها أرسل بلنت لعرابي ليعرف مدى تأثيرها على العسكريين والحزب الوطني . وكان وقعها سيئاً للغاية ، فقد اعتبر عرابي أنها اعتداء على حريات الشعوب . وسرت رُوح التحدي للنفوذ الأجنبي ، وذلك عن طريق المعارضة التي تزعمها النواب في المجلس . وأيضاً بواسطة الصحافة ، فلم تكن تلك المقالات التي نشرت إلا بياحاً من عرابي لهذا الغرض .

وازداد العسكريون قوة بصدور جميع القوانين العسكرية التي أصلحت من شأنهم ، وكان على شريف ضرورة تنفيذها ليضمن ولاء العسكريين له وحتى لا يثيرهم عليه ، فكانت النتيجة التصديق عليها جميعها ، كما وضع نظاماً للتعليم في المدارس الحربية وشروطها للالتحاق بها . كل ذلك لم يقلق الحكرمة والمراقبين قدر ما أقلقهما الإصرار على زيادة عدد الجيش ، فبالرغم من أن الدولة العثمانية قد أعطت مصر الحق في أن يكون عدد جيشها ١٨ ألفاً وهذا ما طالب به العسكريون ، إذ أن عدد الجيش كان في ذلك الوقت ١١ ألفاً ، فإن الإدارة المالية رفضت توصيل الجيش إلى العدد المطلوب .

وشجعت الصحافة على الزيادة « حيث إن ذلك من أهم الضروريات لحفظ الأمن في داخلية الوطن الذي يطلق فيه الرومي أو غيره عياراته النارية على الوطني، وأن بوغازاتنا تقضى علينا بالتحفظ عليها خصوصاً طريق الهند »^(١) ، ووضح ما تقصده الصحيفة من الاستعداد لأي غزو يمكن له أن يقع لحساسية المنطقة ، وقد تمسك العسكريون بضرورة الزيادة بعد الاعتداء على تونس التي لم يكن لديها القوة الكافية للدفاع عن نفسها أمام فرنسا .

وجاء الإعداد لميزانية ١٨٨٢ ، وطلب البارودي إضافة ٢٨٠.٠٠٠ جنيه لميزانية الجهادية وصمم على رفع عدد الجيش إلى ١٨ ألفاً لجميع الأسلحة « بزيادة وسلاح وفرسان وإشارة ومدفعية وسلاح مهندسين » وبطبيعة الحال سيكون لذلك أثره على الميزانية ، وهنا اعترض المراقبان وخاصة كولفن الذي بين أن الميزانية لا تسمح بهذه الزيادة لأن الأموال الموجودة بالخزانة لا تكفي ، في الوقت الذي جاء فيه الرفض من جرانفيل الذي صرح بأن لندن لا توافق على ذلك^(٢) ، وكان هذا أحد تحركات بريطانيا للوقوف أمام قوة العسكريين ، وبعد مفاوضات طويلة ، تم الاتفاق على زيادة عدد الجيش إلى ١٥ ألفاً .

وبنهاية تلك المسألة لم ينته نشاط العسكريين ، واستمروا في العمل والضغط والتأثير على كل قوى الأمة ، وكانت لهم وسائل دعاياتهم الناجحة حتى تمكنوا في نهاية الأمر من إسقاط شريف بعد ما لمسوا فيه انحرافاً عن سياستهم وميلاً إلى الاعتدال ورفضاً للثورة ، وبعد أن فشل في ممارسة نفوذه عليهم وفقد سلطته تجاههم .

ولم يكن شريف هو المنسحب من الميدان ، بل أنهم هم الذين أسقطوه كما سقط من قبل نوبار ورياض ، إذ اعتبروا أنه عليه دور معين يجب أن يؤديه ، وحينما انتهى وانكشف أمامهم بأنه لا يمكنه استكمال الطريق الثوري ، كان هناك من أكمل هذا الطريق ، ومرة أخرى تعطى الظروف للعسكريين السلطة لكي يمارسوها على أوسع نطاق أثناء النظارة التي تكونت على أيديهم .

نظارة الثورة الثانية

جاءت نظارة الثورة الثانية أو النظارة العسكرية إلى الحكم بناء على الرغبة الأكيدة للأمة عقب انتشار مبادئ الفكر الثوري للعسكريين ونزولها الميدان ، ودحولها كل بيت ، إذ وافقت الهوى ، والتأمت لها الجروح ، وأصبح الاستعداد لتلبية نداء الثورة أمراً واقعاً .

نادت هذه المبادئ ببرلمان ينتخب على أساس الحرية وله السلطة التشريعية الكاملة ، ونظارة وطنية مسئولة ، وخديو يملك ولا يحكم - وكان هذا مشابهاً لما نادى به الثورة الفرنسية في بداية عهدها - ونظام إداري عادل يجعل مشايخ القرى منتخبين بمعرفة الأهالي ومن الذين اشتهروا بالعفاف وحسن المعاملة ، وأن توضع قواعد عادلة لتحصيل الضرائب وإمكانية إلغاء بعضها (كالويركو) التي كان لها الأثر السيئ على الفقراء أو تعديلها وجعلها مناسبة لحالة الأراضي واستعدادها بدون فرق بين الأغنياء والفقراء ، وإبطال السخرة ، والاقتصاد الدقيق في الإدارة دون مراقبة سياسية ودون موظفين أجانب على رأس النظارة ينالون المرتبات الضخمة ، وألا يكون هناك موظف أجنبي في الإدارة إلا إذا اقتضى الأمر ويقدر كفاءته ويعطى المرتب المعقول ، والمدرسون والأطباء منهم لابد من حصولهم على الشهادات لشغل مناصبهم ، وأن تكون مصر للمصريين مع الحرية والسلام لكل الأجانب الذين يجب أن يخضعوا للضرائب ، وألا يكون للدولة ووكلائها تدخل في شئون مصر ، وإنشاء بنك وطني برأسمال مصري موزعاً بين الوقف والتركات وكبار

الملاك لإنقاذ مصر من الريويين الذين يندفعون على الفلاحين يأكلون أكبادهم ويدفعون لهم المائة ليأخذوها مائتين بعد ثمانية أشهر من الرهونات ، وأن توحد الديون الخارجية وتخفف فوائدها ، وديون الفلاحين تسددها الحكومة إلى الدائنين على أقساط مناسبة لحالة المديونين ، وأن يبذل الأغنياء أموالهم لإنشاء المدارس وترويج العلوم وإحياء الصناعة ، وأن يصلح حال الفقراء وذلك بوجود محاكم مديريات متخصصة ومحاكم أهلية بحتة ومحاكم استئناف ، وتلغى المحاكم المختلطة التي أضرت بالمصريين أكبر الضرر^(١) .

كذلك شملت المبادئ مسألة إلغاء الرقيق . فقد صرح عرابي لبلنت بأنه « ما من أحد من المصريين يرغب أن يكون له عبيد غير أمراء الأسرة المالكة والباشوات والأغنياء ، وأن المبادئ الحرة للإصلاح تجعل الناس سواسية مهما اختلفت في الجنس أو اللون أو الدين »^(٢) . وبالرغم من وجود القانون الذي يحرم تجارة الرقيق « فإن الباشوات قد تحايلا على ذلك وخرج الرقيق من المراكب بدعوى أنهم حريم الباشا الفلاني ، وإذا خرجت الجارية من بيت مولاهما والتجأت إلى الضبطية اعتماداً على أمر إلغاء الرقيق فلا يتيسر عتقها »^(٣) . وقد حرصت الثورة على إخراج هذا القانون إلى حيّز الوجود ، وتحرير الرقيق وغرس المودة بينهم وبين المصريين .

ومضت المبادئ تتوسع وتنتشر وتمس كل كبيرة وصغيرة على أرض مصر ، فتناولت الأبعاد جميعها من حرية ومساواة وعدالة ، وكما أعلن عرابي « سكان مصر كالواحد بدون فرق بين المذاهب والعقائد ، الكل إنسان تجمعنا جامعة الإنسانية^(٤) ، وجهر بها في كل كلمة تنطق وفي كل جملة تنشر ، وفي تقرير للقنصل النمساوي يبين دور عرابي في نشر تلك المبادئ الحرة التي دعمت الروابط بين الشعب والتي لا تحيد عن الخط القانوني ، وأنه يحترم المعاهدات ، لكنه يصرح علانية بأنه لن يسمح بتدخل لبريطانيا وفرنسا خارج حدود تلك المعاهدات^(٥) .

كانت مبادئ وطنية صادقة وديمقراطية نقية حرة ، ففي مقابلة جمعت عرابي وعلى فهمي وطلبة عصمت مع كولفن ، أبان عرابي أن حكم الممالك وحكم العائلة

(١) Broadly . The Trial and Pardon of Arabi Pasha, Vol. II

(٢) Blunt . Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 211

(٣) الوطن ، عدد ٨٩ في ٢٦ يوليو ١٨٧٩ .

(٤) أحمد عرابي ، تقرير ، ص ١٩ ، ٢٠ .

(٥) Archives de maison, de Cour et d'etat, Vienne, Fasz 31 / 24, No. 41, 9 Fev. 1882

العلوية متساويان في الظلم للمصريين الذين لم يتحصلوا حتى على الحياة الآمنة والذين فقدوا كياناتهم فهم ، إما مسجونون أو منفيون أو ملقون في النيل أو يموتون جوعاً ويسلبون ، ذلك كله وفقاً لرغبة سادتهم ، إن العبد المحرر أحر من المصري الحر ، وأن أجهل تركي مفضلاً عن أشرف مصري ، إن الناس جميعهم سواسية في الحقوق والحرية والأمان^(١) .

وسيطرت صيحة مصر للمصريين على شعب مصر ، فكان الكره واضحاً للأجانب ، الأتراك والشراكسة والشوام والأوربيين ، وأصبح الجمع على ألا تكون مصر ملكاً لشخص يحكمها أو لعائلة واحدة ، وألا يكون شعبها عبيداً لذلك الحاكم أو لتلك العائلة ، وبعد أن صرح في بداية الثورة أن الخديو يملك ولا يحكم ، تدرجت الرغبة في أن يكون هذا الخديو مصرياً لا تركياً ، فعقب إسقاط نظارة شريف أرسل القنصل النمساوي لحكومته يقول « إن الحزب الوطني أصبح له المكانة ، وإن رد الفعل أصبح موجهاً ضد ثلاثة سلطة الخديو وتدخل القوى الخارجية والخضوع لتركيا ، والشعب يرى أنه من الطبيعي إبعاد الخديو كلية وأسرته ، وبهذا يمكن القول بأن الحزب أدى الكثير لأنه أصبح قوة لا يستهان بها »^(٢) .

وكان التصور للحاكم الذي يحكم مصر ، « أن ينتخب من الذين حسنت سيرتهم من المصريين ، ويكون رجلاً عالمًا فاضلاً محباً عند قومه ، ويتم انتخابه بمعرفة رؤساء الأمة المصرية ونبائها الذين لم تدنس أعراضهم بالاشتراك في قبائح الولاة السابقين ، وهذا الحاكم يكون مقيداً بالقوانين ومنفذاً لها »^(٣) .

اعتنقت الأمة هذه المبادئ ورددها ، وقد أسماها عرابي « قواعد الأعمال » فيقول « وكان يوافقني عليها كثير من الناس ، وكان ينطق بموافقتها الجمهور الأعظم من أهالي البلاد ، ثم تحرك إليها بالفعل أعيان البلاد وتبعهم عامتها ، فكان الكل متحدين في المقاصد ، ولكن يوجد بينهم بعض اختلاف في الوسائل »^(٤) ، وبذلك يتضح أنها تغلغلت في النفوس التي أصبحت على عجل في انتظار لهذا التغيير الكامل والشامل .

Cromer , op. cit., Vol.I, p. 209 .

(١)

Archives de maison , op. cit .

(٢)

Broadly , The Trial and Pardon of Arabi Pasha , Vol. II .

(٣)

Ibid .

(٤)

ومضت جميع أجهزة الدولة تشجع هذه المبادئ وتسمى لإخراجها لحيز التنفيذ، ولقى العسكريون التشجيع من الصحافة حتى الأجنبية منها فيكتب جريجورى فى التيمز يؤيد ما توصل إليه العسكريون « ولا يستعجب من أن عرابيا قد حصل على هذا المركز ، وأنه أصبح من الممكن أن ينال العسكرية رتبة الأميرالاي أو الباشا بل يصير حاكم البلاد ، وأن ذلك ليس خاصاً بالشرق بل له نظير فى أوربا، فإننا لم ننس سلطة الجنرال بوناپرت التى عمت حكومة فرنسا ، ويجب أن يعلم أن عرابى بك قام ضد ظلم إسماعيل باشا الشديد ، لأنه لا يوجد أحد يؤسس حكم القانون ضد القوة والأهواء سوى الجيش ، وأن من يميل للمقاصد التى بينها عرابى بك الداخلة تحت كلمة واحدة هى العدل »^(١) .

ويؤكد بلنت فى خطاب له إلى جلادستون أن الأفكار التى يعرب عنها عرابى ليست مجرد ترديد للعبارات التى تستعملها أوربا الحديثة ، ولكنها آراء مؤسسة على المعرفة بالتاريخ والتقاليد العربية الحرة الموروثة من أيام حرية الإسلام ، وليس لعرابى مطامع شخصية ، ولا شك أن الجيش والبلاد مخلصان له كل الإخلاص ، وهو يصرح بأنه ممثل الجيش لأن الظروف أرادت أن يثق الجيش به ، والجيش ممثل الأمة فهو حاميتها ومرشدها ، وهو القوة الواقفة بين مصر وحكامها الأتراك الذين يسعون لتجديد شرور إسماعيل^(٢) . وبذلك أصبح واضحاً لماذا لقى العسكريون هذا التأييد الكبير ، وكيف انتشر فكرهم الثورى على أرض مصر ، وملكوا الزمام ومارسوا السلطة .

واختير البارودى بواسطة أعضاء مجلس النواب رئيساً للنظارة ، وكان مرضياً عنه من جميع الأطراف بالرغم من أنه ليس مصرياً صميمياً ، ولكن أخلاقه وصفاته ومبادئه جعلته لآخر أيامه مخلصاً لمصر والمصريين . وهنا نتساءل لماذا لم يتول عرابى الرئاسة ، وقد كان له من التأييد ما يفوق الحد وعلى مستوى قوى مصر جميعها ، ولديه من الأصالة الوطنية والنشأة الريفية ما يدعم موقفه ؟

أرجع ذلك إلى التبصر التام الذى كان أمام العسكريين ، وخاصة أنه لم يكن هناك تخطيط فى تقديم أشخاص معينين لاحتمال فشل الثورة ، وعليه يكون من يسمى للمنصب فى مأمن من عواقب الفشل ، فلم يدر بخلداهم مثل ذلك ، لكن كانت

(١) الملفيد ، عدد ٢٣ فى ٩ يناير ١٨٨٢ .

Blunt . Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 170 .

(٢)

هناك اعتبارات أخرى على رأسها التعليم والثقافة ، فلا ننكر أن تعليم البارودي وثقافته - فهو خريج المدرسة الحربية متمرن ومتمرس على فنون الحرب والقتال وعقليته دستورية ومستتيرة - رشحاته وصدرتاه لأن يكون الرئيس ، هذا ولم يكن هناك رواسب من العقد في نفسية عرابي من أجل استحواذة على الرئاسة وإنما وثوقه في نفسه إلى أقصى درجة ، وحب الناس له جعلاه على يقين من أنه سيتولى إدارة دفة الأمور ، وخصوصاً أنه يعلم أن المناصب الحكومية لا تدوم ، ومن الممكن لأية حركة أن تسقط النظارة ، لكن المناصب القيادية للشعب هي الباقية ، وقد أثبتت الحوادث ذلك، فعندما كان لا يشغل أى منصب حكومي راح يخاطب الجهات الرسمية بأنه رئيس الحزب الوطني الذي هو الأمة جميعها . هذا في الوقت الذي نظر الشعب فيه لعرابي على أنه فرد منه ، إذن فالرئاسة لن تزيد من قيمته شيئاً .

كان البارودي صاحب صفحة نقية في حياته ، مرضياً عنه من الجميع حتى من قبل الثورة ، فمنذ كان متولياً للضبطية بالقاهرة ذاعت شهرته بأنه رجل كامل وأمين ونشط ، وكان من المؤسسين للحركة الدستورية منذ عهد إسماعيل ، وعلى صلة بالوطنيين وخاصة العسكريين يبلغهم بالتيارات المضادة ، وهذا مما دعا رياض للتخلص من نظارته للجهادية التي فرض عليها برغبة العسكريين .

وامتلك أيديولوجية متفتحة ، فلم يكن يمر اجتماع إلا ويصر على أن مصر للمصريين ، ويذكر أسماء وطنيين محررين لشعوبهم أمثال واشنطن ولافيت وغاريبالدي ، ويشرح ويستفيض في معاني القومية وفضل مصر وحضارتها العريقة صاحبة الآلاف من السنسن ، وأنها كانت منارة للعلوم والمعرفة ، وأن لها الألوان أن تحصل على حريتها وتسترد مكانتها .

ولم يكن بعيداً عن أذهان العسكريين جعل مصر جمهورية وإسقاط نظام الحكم القائم ، وهو نفس الفكر الذي تأصل لدى المثقفين منذ أواخر عهد إسماعيل . ولا شك أن للصحافة دور كبير ، فكتابات المثقفين عن الحرية والاستبداد والدستور وفصل السلطات وأنظمة الحكم والقانون والحقوق رغبتهم في اختيار النظام الجمهوري ، وكانت النية معقودة على أن يكون عرابي رئيساً للجمهورية ، فمن بين أوراق الثورة العراقية إحدى الوثائق التي تؤكد ذلك(*) .

(*) محافظ انثورة العراقية ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٢١٨ / ب .

وواضح أن الأمل كان كبيراً عقب التاسع من سبتمبر مباشرة على اختيار هذا النظام بل وتحديد رئيسه ، وفى اجتماع حضرة الثوار فى بيت العقاد دار الحديث عن السياسة وأنواع الحكومات وأساليبها - وكان ذلك متبعاً فى جميع اللقاءات فى مصر آنذاك - وتحدث البارودى ويّين « منذ بداية حركتنا هدفنا تحويل مصر إلى جمهورية صغيرة مثل سويسرا وحينئذ تنضم إليها سوريا ثم تتبعها الحجاز ، ولكننا وجدنا بعض العلماء لم يتقبلوا ذلك فهم متأخرون عنا ، لكننا سنجعل مصر جمهورية قبل أن نموت ولنا كل الأمل فى ذلك »^(١) ، وبذلك نرى أن الحكم الجمهورى قد تأصل فى أعماق الثوار وسيطر على الأفكار ، وأصبح إسقاط نظام توفيق مُطالباً به ، ولم يكن العسكريون فقط المطالبين ، ففى خطاب من مأمور ضبطية القاهرة إلى عرابى يقول : « ذهب بعض الناس أن بعد عزل الخديو ستطلب الأهالى تصيب حكومة جمهورية يكون رئيسها سعادة أحمد باشا عرابى »^(٢) ، وغاب عنهم أن مركز مصر الدولى الذى حددته التسويات كان يقف أمام ذلك .

وظهرت الاتجاهات الاشتراكية فى الفكر السياسى ، وتبلورت فى إطاره المبادئ التى اتخذتها الثورة ، كما تاکدت بالتصريحات ، ففى مكتابة من عرابى إلى أحد رؤساء آلاياته يقول « إن الجميع حكام فى بلادهم ماداموا متمسكين بالحق والمنهج القويم ، وأن لكل فرد منا يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، إننا جميعاً روحاً واحدة مثبتة فى أجسام متعددة ، ولنضرب مثلاً لحضرات الضباط بنفسى لأنى لست من بيت غنى بل من بيت متوسط الحال ، وها أنا بين أيديكم الآن ناظر على جهاديتكم »^(٣) . وبذلك انصبت الأحاديث حول المساواة .

كانت هذه أفكار الرجال الذين تولوا نظارة الثورة ، فإلى أى حد كان التطبيق ؟ تم تشكيل النظارة ، واختار البارودى الثوريين ليكونوا نظاراً فى نظارته ، فعرابى للجهادية والبحرية ، ومحمود فهمى للأشغال العمومية . وعبد الله فكرى للمعارف ، وحسن الشريعى للأوقاف ، وعلى صادق للمالية ، أما الخارجية والحقانية فقد أعطيت لمصطفى فهمى ، وكان الوحيد الخارج عن نطاق الثوار ، واختير نظراً لإتقانه اللغات الأجنبية . وكان ممكناً للبارودى أن يبحث عن كفاءة أخرى ثورية .

(١) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 344 .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣ / د / ٧

(٣) المصدر نفسه ، دوسيه ٥٣ / د / ٨

ولم يستشر الخديو في تعيين هؤلاء النظار ، وحتى لو استشاره فلم يكن لرأيه قيمة ، ويقول البارودي في محضر استجوابه « وصدر لى النطق الكريم بانتخابهم بالاشتراك مع لجنة من النواب »^(١) ، وبذلك نرى وضوح عملية الالتحام والالتئام بين العسكريين وملوك الأراضي .

كان فاتحة عهد النظارة دستور الثورة - لائحة الحزب الوطنى - وقد انصب على شكل الحكم وتحديد علاقة السلطتين التنفيذية والتشريعية على هدى المبادئ النيابية الحديثة ، فقد نقل حقوق السيادة إلى الشعب ، ولكنها جعلت مناصفة بينه وبين الخديو ، كما أنه لم يأت بإخلال لحقوق الأجانب العامة فيما عدا مطاعمهم غير القانونية فى البلاد ، وجعل الخديو يمارس سلطته بواسطة نظار مسئولين ، كما أعطى الأمة الحق فى ممارسة سلطاتها هى الأخرى بنواب تسأل أمامهم النظارة .

لكن ماذا منح الدستور مجلس النواب ؟ لقد أعطاه كل ما يمكن أن يقدم له فى مثل هذه الظروف التى تعيشها مصر ، لكن لم تكن الحقوق كاملة ، إذ حددت رقابته على الحكومة ، فحرم من حق التشريع الذى منح للخديو ، ويمارسه كحق سياسى بواسطة نظاره ، وقصر هذا الحق على المجلس فى حدود الإقرار التشريعى دون غيره ، لكن انصب الاهتمام على بعض المسائل كالميزانية وحق الانتخاب والمسئولية الحكومية وحق إقرار الضرائب ، وكان الحق الأخير مهماً لمصر والثورة « لا يجوز ربط أموال جديدة أو رسوم أو عوائد على منقولات أو عقارات أو ويركو فى الحكومة المصرية إلا بمقتضى قانون يصدق عليه من مجلس النواب ، وعلى ذلك لا يجوز بأى وجه كان وبأية صفة كانت تحصيل عوائد جديدة » ، كذلك نص على أن ميزانية مصروفات وإيرادات الحكومة السنوية تقدم للنواب ، وأيضاً ميزانية عموم الإيرادات ، وأن ترسل الميزانية إلى المجلس فينظرها ويبحث فيها مع مراعاة الويركو للدولة والدين العمومى ، وما قرره التصفية والمعاهدات بشأن الدين ليس له أمر فيه ، وأن كل عهد أو شرط أو التزام يراد عقده بين الحكومة وغيرها لا يكون نهائياً إلا بعد الإقرار عليه من المجلس ، وأن للنواب حق مراقبة أعمال الموظفين العموميين فى دور انعقاد المجلس ، وأن يبلغوا الناظر المختص على لسان رئيس المجلس كل عبث أو شذوذ أو إهمال يرتكبه موظف عمومى فى تأدية أعماله^(٢) .

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٢٨١ / ١ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٢٣٠ فى ٩ فبراير ١٨٨٢ .

وبالنسبة لرقابة المجلس ، فتكون بالسؤال والاستجواب والزام النظارة بالإجابة ، وتقررت الحصانة البرلمانية ، ووضعت القواعد لشروط المداولة . كان ذلك هو دستور الثورة ذو الطابع الأوربي الذي أعطى المصريين كثيراً من الحقوق ليدعموا بها موقفهم ، وأصبح عقيدة لشباب مصر الذين تشبعوا بأفكاره وتمسكوا به .

وفي نفس اليوم الذي قدم فيه الدستور رفعت مذكرة احتجاج على تدخل الوكلاء السياسيين الأجانب في الإدارة المصرية . وتبع ذلك أن قدم دي بلنير استقالته ، وعين آخر بدلاً منه ، أما كولفن فقد امتنع عن التعامل مع النظارة عندما طلب البارودي أن تكون مخاطبة المراقبة معها بالطرق الرسمية ، وقد وصل الأمر إلى أن كان النظارة عند عقد مجلسهم لا يدعون المراقبين كالعادة المتبعة ، ويعلنون أن الاجتماع خاص بالأحوال الإدارية والأمور الخارجية التي لا علاقة لهما بالمراقبين « فأصبح المراقبان بعد هذا هملاً مهملًا بلا سقطة مردلاً » (٥) .

وبذلك انهارت السلطة والنزولجان للمراقبين . وكانت النظارة محقة حينما كررت أن اختصاصات المراقبين لم يحدث فيها أي تعديل وإنهما لا يملكان إلا صوتاً استشارياً . لكن كان الأمر الواقع قبل ذلك أن النظارة لا تصدق على الميزانية إن لم يوافق عليها المراقبان ، ورأيهما هو المتبع بشأن احتياجات الحكومة ، وكلاهما السيد المطلق على مصر لصالح النفع الجزيل لحاملي السندات على حساب تلك الجروح التي تسببت للمصريين .

مجلس النواب والعمل البرلماني

كانت الفرحة التي شملت أرجاء مصر بالدستور الجديد ، وبذلك الحقوق التي فاز بها النواب واكتسبوها بفضل الثورة لا توصف ، فقد تبلور الرأي العام وشمل مصر كلها حتى رجل الشارع أصبحت له دراية بالأحداث ، فهو يتكلم عن الميزانية والتدخل الأجنبي والنظارة الجديدة . وأصبح مجلس النواب يتلقى التأييد من قوى مصر المختلفة ، فعلى سبيل المثال نجد أن دمياط تيمت إليه بمذكرة وقّع عليها مائتان وتسعة وعشرون من العلماء والموظفين والوجهاء والأعيان والتجار ومشايخ الحرف والصناعات يعبرون عن شعورهم فتذكر « قد زاد فرح عموم أهل القطر بما دلهم على الوصول إلى درجات التقدم الأولى التي أصبح ذلك المجلس كغياًلاً

(٥) ميخائيل شاروبيم ، المرحع المذكور ، ص ٢٧٨ ، ٢٨٨ .

بالترقى إليها ، وذلك بسبب حسن النيات ودوام العدل والحرية التي يحبها كل وطنى ، وأن أهل القطر مع المجلس إذ هم منا ونحن منهم ويدنا واحدة وقولنا واحد فى اتباع الحق»^(١) .

وأصبح مجلس النواب لا يقتصر مهامه على ما ارتبط به ، فأعطى نفسه حق التدخل فى كل صغيرة وكبيرة اعتقد أنها من مصلحة مصر ، ووصل به الأمر كما وصفه ماليت بأنه وضع أصابعه فى أمور الخديو نفسها^(٢) ، ومورست الحرية على أوسع نطاق داخل المجلس ، وغدا كل فرد له الحق فى عرض الاقتراحات وهو يسمع ويشجع ، وكان ما يعرض يمس أدق الأمور ، ففى تقرير لأحمد عبد الغفار يطلب وضع قانون أساسى يشتمل على بيان الحدود والحقوق العمومية وصل إلى أسمى معانى الفكر الحر الذى نم عن طبيعة النواب وإدراكهم للمبادئ الدستورية الحديثة ، فتقول صحيفة مصر « فأذكرنا هذا التقرير بالقانون الذى عرضه النائب الفرنسى لافيت لجمعية الاشتراع فى ١١ يولية ١٧٨٩ ، فقبلته الجمعية والأمة ، وعده العالم المتمدن من بعد ذلك أساساً للقوانين العادلة »^(٣) .

ورأت الثورة أنه لابد من نشر محاضر جلسات المجلس ، وطالب النديم بأن يكون حق النشر لها فى الطائف ، وكان له هدف من وراء ذلك ، فالطائف هى صحيفة الثورة الأولى ونواب المجلس ثوريون ، فأراد أن يظهر أمام الجميع المناقشات وموضوعاتها وأهميتها ، ويبين قوة النواب على الصفحات حتى تصل إلى كل يد ، وتقرأها كل عين لتعيش مصر كلها مع الثورة .

وطُلب فى أول محضر الأصول والعقود التى تمت بموجبها المعاهدات بين مصر والحكومات الأجنبية ، وكان قد تقرر تعيين لجنتين لتحقيق الشكاوى التى رفعت عن مصلحة المساحة ، تلك التى لاقى اهتماماً من المجلس ، حيث إن العاملين فيها أجانب وخاصة إنجليز .

وقد استدعى ناظر المالية لبيان أسباب اختلال هذه المصلحة وقلة عائداتها بالنسبة إلى كثرة نفقاتها ، وأيضاً مصلحة الجمارك وهاتان المصلحتان لم يكفل تشكيلهما اتفاق دولي ، وظهر أيضاً فى الأخيرة وجوه الخلل فى أعمال الموظفين

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٢٣ فى ١٤ فبراير ١٨٨٢ .

Malet . op. cit., p. 163 .

(٢)

(٣) مصر ، عدد ١٣ فى ٢٣ مارس ١٨٨٢ .

الأوربيين ، وتعددت الموضوعات التي أثارها المجلس ، فبالنسبة للتجارة ، رأى أمين الشمسى بأنه إذا كان هناك صنف ضرورى للمصريين فيمنع تصديره ، ونوقشت مسألة احتكار التجار للغلال ورفع أسعارها « فأضر ذلك بفقراء الناس عموماً وصغار التجار خصوصاً » وطالب الأعضاء بإيقاف ذلك .

وخضع كشف فضائح وسلب وغش الشركات الأجنبية للبحث فى المجلس ، وعرضت تلك التعاقدات التى أجرتها نظارة الأشغال مع الشركات الأجنبية من أجل الرى بالآلات البخارية وتم الإتفاق ، لكنها أخلت بالشروط والمواصفات المتفق عليها مما تسبب فى أضرار الزراعة .

وجاء دور عبد السلام المويلحى ليقدم تقريراً عن التعليم وضرورة نشر المعارف بين الأفراد على اختلاف مراتبهم ، وبيان أن العلم من ضروريات الوجود المعنوى فى الإنسان ، كما أن الغذاء والماء من ضروريات وجوده الحسى ، وطالب بتعميم التعليم وتسهيل طرق التحصيل ، بحيث تكون ممكنة السلوك لكل وطنى على اختلاف الدرجات فى حدود الإمكانيات المالية بتعاون أغنياء البلاد ، واستدعى ناظر المعارف ليقدم تقريراً عن حالة التعليم والاقتراحات لنهضته والتشجيع على انتشاره .

وكان للمحاكم المختلطة نصيبها فى التناول ، إذ طالب الأعضاء بتطبيق المعاهدات التى تأسست بموجبها تلك المحاكم والتى تنص على أن رئاستها لا تكون إلا للوطنيين التابعين للحكومة المحلية . أيضاً طالبوا بمحاكم أهلية حيث إن « أساس الممالك العدل وأساسه القوانين الكافية لحقوق الرعية » ، ورئى ضرورة تنفيذ قانون ترتيب المحاكم الأهلية الذى وافق عليه شريف .

ونظر المجلس فى حتمية سن قانون يخص العموم ومشايخ البلد ويتناول عزلهم وتوليبتهم وإعطاءهم الحقوق وتنظيم معاملاتهم سواء مع مأمورى الحكومة أو لما هو تحت إدارتهم من الأهالى . كذلك نوقشت مسألة العونة وضرورة تنظيمها ، والبديلة وخاصة فى الأبعاد والجفالك وقومسيون الأراضى ، وما يتعرض له الفلاحون من ضرر وضنك وسوء حالة وبالذات فى أشهر الشتاء ، وطُلب من نظارة الأشغال وضع قانون خاص بذلك .

وبما أن الأعضاء ملاك للأراضي ، فطبيعة الحال لا بد من الاهتمام بها سواء في بيان درجات الاستفادة من أطيان البرارى ، أو مسألة الضرائب ، فقد تشكلت لجنة ، وأصدرت قرارها بربط تقسيط الأموال الأميرية على صورة عادلة ، وذلك بأن تحصل في أوقات المحصولات بالدقة حتى يكون الفلاح آمناً في تسديدها متمكناً من بيع محصولاته بالثمن اللائق كي لا يضطر إلى الإقتراض بالربا الفاحش أو البيع بالثمن الغبن ، وبينت ضرورة أن يكون الويركو موافقاً للحق والعدل والمساواة.

أيضاً كان لمسألة المقابلة أهمية بالنسبة إليهم حيث بين الأعضاء أن الجميع دفعها مكرهين وعانوا من ذلك عناء لا مزيد عليه ، وطالبوا بخصم سنوات ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ لأرباب المقابلة من أصل المطلوب منهم من مال ١٨٨٢ . وتم البحث في مسألة الديون التي على الحكومة للأهالى « وطلب من المالية كشف ببيان مطالب الأهالى من الديون المتفرقة بمقتضى قرار لجنة التصفية ومواعيد استحقاق الديون » .

وهوجم الأجانب من أصحاب الأراضي والتجار بعنف في المجلس ، هؤلاء الذين يعملون لمصلحة أراضيهم عن طريق إقامة « الوابورات » والاستحواذ على المياه على حساب بقية أراضي الأهالى ، وأن احتكارهم هذا يترتب عليه أضرار جسيمة (*) . واتهمت الدوائر القنصلية مجلس النواب بأنه أدار الدفة ضد الأجانب ليعلم الحرب عليهم ، وأن اجتماعات مجلس النواب ازدادت حماسة في المناقشات الوطنية ضد الأوربيين ، ولم يكن ذلك مبالغاً فيه ، بل كان لزاماً على المجلس أن ينظر فيما أنزل بمصر من كوارث ، فقد أصبحت أجور الموظفين الأوربيين تخضع لرقابة المجلس الذي راح يفكر جديداً في ضرورة الاستغناء عنهم .

ونادى المجلس بحتمية إرجاع النواحي إلى إدارات الأقسام ، حيث كانت الجفالك الملحقة للدائرة السنية وقومسيون الأراضي قد ضمت النواحي لهما فأساءها الضرر ، والسبب « ترويج زراعاتهما باستخراج ما يلزم لهما من الأنفار بدون ميلاة ولا التفات ، مع أن أهالى تلك البلاد لهم أراضي محتاجون لزراعتها وإذا تركوها تلفت » ، وطالب المجلس بتطهير الحياض في مديريات قبلى « لأن أهلها يتحملون المشاق عند زيادة المياه أو قلتها ، وبإصلاح وسائل الري في الوجهين ،

(*) الوقائع المصرية ، أعداد ١٣٥٤ ، ١٣٥٥ ، ١٣٦١ ، ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ ، ١٣٦٧ ، ١٣٦٩ ، ١٣٧١ ، ١٣٧٤ في ١١ ، ١٣ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٠ مارس ، ٣ أبريل ١٨٨٢ .

وما فرط النواب من شيء فى تقديم التقارير لإصلاح الرى وتسهيله وتقسيم المياه بالعدل ودفع أذى الطفليان ورفع الأضرار «^(١) .

وأخيراً فقد طلب المجلس وضع قانون أساسى للحكومة تعرف به حقوق التوى الحاكمة ، ووضع مشروع قانون للإدارة ، هذا وأحس قوى الشعب المختلفة أن هذا المجلس هو مجلسها ، ومن هنا كان منطلق تقديم الشكاوى والتظلمات ، فهناك من يسمع ويفحص ويحل ويرد الحقوق إلى أصحابها الذين دائماً وأبداً كانوا مظلومين ، وقام المجلس بهذا الدور خير قيام ، كذلك وضع أن النظار أصبحوا مسئولين أمام المجلس عن كل الإجراءات والمشروعات التى تقدم للحكومة ، وقد ناقشها المجلس بعمق وأدخل عليها ما رأى أنه ضرورى ، وظهر دور الأعضاء فى معارضة ورفض تعهدات والتزامات بموجب مناقصات أو مزايدات^(٢) ، كانت غالبيتها تخص الرأسمالية الأوروبية . وشجعت الصحافة الأعضاء . وتناولت فوائد المعارضة ، وضربت الأمثلة بوجودها فى شتى المجالس النيابية فى بريطانيا وفرنسا وألمانيا حتى اليونان « بأن لا يوافقوا الحكومة على ما فيه شطط أو خطأ ، فإن الإنسان لا يخلو من الهول والنسيان وكذا لا يجب أن يخالفوها فيما يعم نفعه »^(٣) .

وبذلك ارتفع صوت برلمان مصر بهؤلاء الرجال الذين جاءوا فى وقتهم لإنقاذ بلادهم ، وقد اعترف الجميع بهذه الحيوية ، وتلك الرغبة الأكيدة لتمثيل البرلمانى الصادق ، حتى أننا نرى جرانفيل يقر بقوله « لقد برهنت مناقشات مجلس النواب على أن هناك حركة شرعية للشعب المصرى من أجل الرغبة فى الحصول على الجزء الأكبر من إدارة بلادهم »^(٤) .

مواصلة المسيرة الثورية وإنجازات النظارة

جاءت النظارة تحقيقاً للرغبات الوطنية الصادقة ، ومن هنا كان عملها يتسم بطابع الثقة والثورة ، فقد افتتحته بالدستور الذى مارس به نواب الأمة نشاطهم ، وارتاح الجميع وعم الهدوء الأرجاء بذلك الرضا الواسع عليها ، لكنها لم تغفل ذلك التدخل الأوروبى الذى أقلقته الثورة ، لذا كثرت الاجتهادات للتوار وكانت تشمل القادة والشخصيات التى لها اعتبارها من كبار ملاك ومثقفين . وحاولت النظارة

(١) مصر ، عدد ١١ فى ٨ مارس ١٨٨٢ .

(٢) Archives de maison , op. cit , No. 13 Pol, 8 Janvier, 1882 .

(٣) الوطن ، عدد ١٧ ديسمبر ١٨٨١ .

(٤) Egypt, No. 10 (1882) , F.O. July 11, 1882, p. 5

التي تمتعت بالقوة والسلطة ، وهى مؤيدة من كل جانب أن تخلق نوعاً من الود بين الثورة والخديو ، لكن لم يكن لمسعاها هذا توفيق ، لأنها دائماً وأبداً تعمل بكل طاقاتها للتقليل من سلطته .

وراحت قوى مصر جميعها تعبر عن شعورها الفياض ورضاها عن النظارة فى تلك العرائض التى كانت تصلها من التجار والعلماء وشيوخ المساجد والضباط والأطباء والقضاة والتراجمة والمفتشين « وهى النظارة الوطنية الحرة التى انتخبت من رجال لنا بهم تمام الثقة متوسلين نجاح المقاصد والمشروعات وفوز آراء وأفكار مجلس النواب »^(١) .

كما شمل التعبير الاحتفالات التى أعطت صورة ناطقة للحياة السياسية والفكرية وكان الداعون لها دائماً ملاك الأراضى حيث سمحت لهم إمكاناتهم بالإكثار منها ، وفيها تتلى الخطب التى شارك فيها المثقفون ، وفى أغلب الأحيان كان البارودى وعرابى يخطبان فيها ، ويثيران ما يشغف القلوب ، ويعرضان مساوئ التدخل الأجنبى ، ويأصلان من تدعيم القومية وبلهبان الحماسة الوطنية ، ولم يكن أمر هذا التعبير مقصوراً على القاهرة ، ففى صعيد مصر نرى مدير قنا يرسل ليصف الحالة « إن التصديق على تأليف النظارة البارودية ولائحة النواب أدخلنا السرور على الوطنيين عموماً ، فقد تواردت عمد الهوارة وأعيانهم إلى ديوان المديرية ، وجاءوا منزلنا وفيهم حضرات رئيس المجلس وأمور المالية ووكيل المديرية وقاضى المديرية ونائبه وضابط الجهادية وجميع موظفى المجلس والمديرية وأعيان البندر ووجوه التجار ، وخطب الجميع ونريد أن نجعل هذا اليوم تذكراً للحركة »^(٢) .

وتدفقت الوفود على القاهرة لتعبر أيضاً عن إحساس شعب مصر ، جاءت للتهنئة ولإظهار الفرحة ، وامتلات الصحافة بالمقالات والقصائد التى ترف الحرية إلى مصر بفوز المصريين وحكمهم لبلدهم .

وكانت النظارة ديمقراطية حقة ، فهى تسمع لكل صوت يصل إليها ، وبالرغم من أن نفوذ عرابى كان واضحاً فى إدارة دفة الأمور ، فإن الملحوظ أن العمل أصبح

(١) محافظ الثورة العربية ، محفظة ١٦ دوسيه ٢٨١ / ب .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٦٠ فى ١٨ مارس ١٨٨٢ .

ينفذ بأسلوب جماعى . وبدأت النظارة تسلك المسلك الوطنى معتدة بإحساس أنها صاحبة القوة على أرضها ، وأنها مدعومة بالرغبة الشعبية

وعرضت على النظارة موضوعات متعددة ، فتمكنت من إصلاح الأمور على القدر المستطاع التى تسمح بها إمكانيات مصر . وفى حقيقة الأمر فإنها ورثت تركة مثقلة بالمشاكل ، وكان عليها بالعزيمة الصادقة أن تحلها جميعها . إذ أصبحت فى مهبط الطلبات ، فكل من تعرض لخسارة مالية صار يطلبها منها ، وكان لابد من الإجابة . وركزت اهتمامها تجاه الموظفين الأجانب المكتظة بهم الإدارات ، وعلى رأسها مصلحة المساحة ، وقد أظهرت المداولات فى جلسات مجلس النظار ذلك الهجوم .

وشكلت النظارة لجنة لعمل الإصلاحات والتعديلات التى يلزم إجراؤها بشأن المحاكم الأهلية وتحسين حالة تحقيق الجنايات فى المديرىات ، وانتقاء خيار موظفى المجالس ، وتعيين مندوب فى كل مديريةى يكون له معرفة بالقوانين ليلاحظ ما يجرى بالمديرىات من التحقيق فى المواد الجنائية وفحص أوراق التحقيق^(١) .

وكانت نظارة موفقة فى العمل من أجل مصر ، فلم يسع أحد من أعضائها من أجل صالحه ، وعلى يدها أعلنت الحرب على الرشوة . كما بذلت كل ما فى الوسع لإمكان وضع مبدأ المساواة وتطبيقه . فلم يفلق الباب أمام الفقراء الدين فحصت مشاكلهم بكل دقة وعناية ، كما نرى أن النظارة تقف أمام نشاطات الأجانب المختلفة . وتحاول بكل طاقاتها تطبيق برنامجها الثورى من جعل مصر للمصريين ، فهى ترفض المشروع المقدم من دليسيبس بشأن إنشاء ترعة حلوة بين الإسماعيلية وبورسعيد ، وترفض دفع المبالغ التى يطالب بها السماسرة المقاولون « قدم ألمانى دواليب وطاولات ومكاتب وآلات حديدية وكراسى ودواوين جلوس كعادته وطلب صرف المبلغ مغالى الارتفاع فرفضت النظارة السامية الدفع »^(٢) . وصدرت التعليمات للقبض على اللصوص الأجانب ومزيفى النقود وهؤلاء الذين غدت بيوتهم أوكاراً للفساد . وأصبح يكتب فى الحال إلى قناصلهم لمحاكمتهم بما يقتضيه القانون^(٣) ، وشددت النظارة بيد من حديد على البضائع المهربة من الجمارك التى أدت بالافتقار المصرى

(١) محفوظات مجلس الوزراء - محاضر مجلس النظار ، محفظة ٥ / ح . المحضران ٢ : ٦ مارس ١٨٨٢ .

(٢) المفيد ، عدد ٤٦ فى ٣٠ مارس ١٨٨٢

(٣) الإسكندرية عدد ١٦١ فى ٣١ فبراير ١٨٨٣

وقد اعتبرت النظارة أنه للوقوف أمام التسلط الأجنبي داخلياً لحماية المجتمع وخارجياً للتخلص من الوصاية الدولية وانتشال مصر من الطامعين ، لابد من التركيز على القوة التي يمثلها الجيش لدفع هذه الأخطار ، فزيدت اعتمادات الجهادية ٢٩٠ ألف جنيه ، ووزعت ما بين مرتبات ومعاشات وميزانية ، وعممت جميع القوانين التي كان قد بدئ في تنفيذها مع الثورة ، ومضت عملية ترقية الضباط ، وكان جميعهم الضباط الثوريون ولم يملك الخديو إلا التصديق على ذلك .

وعلى الأتراك والشراكسة تدور الدوائر ، هؤلاء الذين أذاقو العسكريين الويل والظلم ، فتبدأ عمليات اضطهادهم بعد أن تأصلت الروح القومية بين المصريين ، فلم يكن للضباط الشراكسة نصيب في الترقية السابقة(*) ، وتم فرز نحو ٦٠٠ ضابط منهم ، أبعدهم عرابي عن العسكرية التي أصبحت وطنية بحتة ، وذلك بإحالتهم إلى المعاش والبعض رأى أن يرسله إلى السودان ، وفي حقيقة الأمر ، فقد أرادت الثورة أن تظهر الجيش من تلك العناصر التي كانت تحمل منذ القديم لواء الكراهية للمصريين ، وكذلك تقاديا لإمكانية قيامها بأعمال تناوئ الثورة .

وكان من بين الذين وقع عليهم الاختيار للذهاب إلى السودان مائة ضابط وواحد . منهم تسعة من الشراكسة وستة من الأتراك والباقي مصريون ، فامتنع الأتراك والشراكسة عن الرحيل ، وقدموا عريضة إلى عرابي يطلبون منه « معاملتهم بالعدالة والمساواة » ، وكان من سمة النظارة تطبيق العدل والمساواة على المصريين لا على غيرهم ، ومن هنا تألفت القوى المضادة للثورة لتحاربهما بكل إمكاناتها وتستحوذ على المكانة التي أفقدتها إياها الثورة .



القوى المضادة

﴿... محاولات وأد الثورة ومواجهتها للموقف وانتصارها :

(أ) المؤامرة الشركسية

بناء على النجاح الذى حققته الثورة والمكاسب التى أحرزتها للمصريين على حساب المستبدين والمستغلين الذين وجدوا فيها ضياعاً لسلطانهم وفقداناً لمراكزهم ، فكروا فى إسقاطها وذلك بالتخلص من زعمائها ، وبهذا يمكنهم أن يستعيدوا كل ما كان لهم ، ويستحوذوا مرة أخرى على مراكز القوى ، وكان المتصدرون لذلك الشراكسة برئاسة كبيرهم رفقى ، فقرروا أن يتم التنفيذ على أيديهم ، وشاء القدر أن يكتشف الأمر وتقرر الثورة محاكمتهم ، وصدر حكم المحكمة ففوضى على ثلاثة وأربعين بالنفى المؤبد إلى أقاصى السودان مع تجريدهم من الرتب والنياشين ، وأن يكونوا متفرقين فى الجهات التى ينفون إليها .

وكان من الضروري أن يصادق توفيق على الحكم ، هذا الحكم الذى أقلقه ، إذ تمنى من كل قلبه أن تتجج حركة الشراكسة ويأتوه براءوس القادة الثوار ليتخلص من ذلك الكابوس الذى يطبق على أنفاسه ، فقلبه يملؤه الحقد والفيرة بعد أن أصبح حاكماً بلا حكم ، لذا نراه يرفض التصديق على الحكم ، كما نصحه وكيلًا بريطانيًا وفرنسيًا ، هذا فى الوقت الذى استند فيه على الباب العالى ، فأرسل إليه يشكو من أن التحقيقات مغشوشة والأحكام غادرة .

وانتهزت الدولة العثمانية الفرصة للتدخل وطلبت أن تحال الأوراق عليها ، وأخيراً انتهت المسألة بأن عدل الحكم واستبدل النفى مدى الحياة إلى النفى البسيط من البلاد ، ولم يجرموا من الرتب والنياشين .

لقد رأى الثوار التنازل عن تصميمهم في مسألة الحكم خوفاً من أن تضرب الحركة الوطنية عن طريق التدخل الخارجي ، لكن هذا أعطى توفيق فرصة ليتفلس الصعداء ، فأصر على استقالة نظارة الثورة ، بينما رأت الثورة صراحة أن ينزل توفيق من على عرشه ، وذلك عندما تمسك بإسقاطها ، وجرت مساع من أجل التوفيق بين الطرفين « سعى الكثيرون لدى الحضرة الخديوية لاستمالته إلى الرضا عن النظارة ، ولكن جنبابه لا يزال يأبى التساهل بأى شيء ، وعقد عزمه على ألا يتنازل عن شيء أبداً مهما كانت العقبى » (١) .

وقوى نفوذ الخديو بتأييد المساندين له ، واعتبر أمام الثوار أنه خائن ، وأن الوقت قد حان للفصل بينه وبينهم ، ورأوا أن يعقدوا مجلس النواب لتحال عليه قضية الخيانة الخديوية ، وسيطر التفكير على ضرورة التخلص منه بعزله ونفى جميع نسل محمد على ، وبناء على الحماس الوطنى المشتعل فى نفوس المصريين رثى أن يعين البارودى حاكماً عاماً لحكومة مؤقتة ريثما ترتب الأمور . وانقطعت نهائياً العلاقة بين توفيق والنظار ، وأصبح الموقف خطيراً للغاية . وانتشرت الأنباء عن تصميم الثوار على خلع الخديو ، وإن نظام الحكم الذى ستخضع له مصر هو النظام الجمهورى .

وجاء التأييد من الأمة لقواد ثورتها ونظارتهم . فنى برقية من محمد عبده إلى بلنت إبان تواجده فى لندن يقول له : « البلاد جميعها مع عرابى وسامى ، والفلاحون والبدو والعلماء متحدون وليس بيننا غير واحد فقط ضد الحرية المصرية » (٢) .

وتصل التأييدات من جميع أرجاء مصر إلى نظارة الثورة تطالب ببقائها ضاربة باتجاه توفيق عرض الحائط ، فترى على سبيل المثال إحدى الرسائل تسطر « عن عموم أهالى دمياط البالغ عددهم نحو الأربعين ألف لهيئة النظارة السامية أيدها الله ، وإننا على ثقة تامة من هيئة هذه النظارة ولا نرغب إلا بقاءها لما شاهدناه من وحسن مساعيها فى راحة الأهالى ، وخلص رقاب أهالى القطر من رق الاستبداد وإيصالهم حقوقهم ، والآن لنؤكد لسعادتك شدة الوقوف التام مع هذه النظارة » (٣) .

(١) المفيد ، عدد ٥٧ فى ١٨ مايو ١٨٨٢ .

(٢) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 272 .

(٣) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣ / د / ٢ .

(ب) خطوات التداخل الأجنبي المشترك

رأت بريطانيا وفرنسا أنه يجب أن توضع نهاية لهذا « العبث الوطنى » كما عدته ، وأنه آن الأوان للتدخل الفعلى لكسر شوكة الحركة الوطنية التى سلبتهما الكثير ، وإرجاع الحال إلى ما كان عليه قبل الثورة ، وأنه لا سبيل لذلك إلا بالقوة وخصوصاً بعد أن تردد على أوسع نطاق مسألة إسقاط نظام الحكم الموجود وإقامة آخر يتفق مع مبادئ الثورة .

وعلى الفور أعلنتا للدوائر الأوربية فى ١٤ مايو ١٨٨٢ عن عزم حكومتيهما - نظراً للأحداث التى وقعت أخيراً بمصر - أن ترسلا أسطولاً مشتركاً إلى مصر كمظاهرة بحرية ، الغرض منها تقوية سلطة الخديوى وسلطة القانون فى مصر ، وقد كلفتا سفيريهما فى الآستانة أن يشيرا على الباب العالى تجنب كل تدخل ، واتفقا على أن ترسل كل منهما ثلاث سفن حربية إلى الإسكندرية حيث تبقى على أتم استعداد لاستلام أوامر أخرى ، وأن الإتفاق تام بين بريطانيا وفرنسا إذا وصل الأمر لاستعمال القوة^(١) .

ومما لا شك فيه أن الهدف الأساسى كان إرهاب الثوريين بوجود قطع الأسطولين فى المياه المصرية ، فيكون التراجع والتسليم هذا من ناحية ، وتثبيت سلطة الخديوى وإعطاءه الثقة بالتأييد والمساندة لضرب قوى الثورة من ناحية أخرى .

وجاءت النتيجة عكسية ، فقد أصبح الخطر كبيراً بعد هذا التهديد ، فأحس الجميع أن توفيقاً وراء ذلك وحنقوا عليه ، وكان للمصريين النصيب الأوفر فى ذلك لدرجة أن محمد عبيد « أراد محاصرة سراى الإسماعيلية ولكن البارودى منعه »^(٢) ، وخلق هذا الوضع الجديد عملية التحام قوية للعمل المشترك من أجل الوقوف أمام هذا الاعتداء ، فكان القسم الذى تعاهد عليه ثوار مصب للمدافعة عن أرض الوطن الغالية ، والمكان غرفة خاصة بعلى فهمى فى قشلاق عابدين ، والحاضرون قادة العسكريين جميعهم - البارودى وعرابى وعبد العال حلمى وظلبة عصمت ويعقوب سامى وعلى الروبى وعلى فهمى ومحمد عبيد وأحمد عبد الغار والزمر وحسن جاد

(١) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٥ ، المجموعة ٣١ / ٢٨ ، ص ١١ .

(٢) محافظ الثورة العربية ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٤٤ .

وعلى يوسف ومحمود فهمى - وإمام المثقفين محمد عبده ، وكان السبب كما أعلن البارودى « حضور مراكب لمحاربتنا وأن القصد من الاجتماع هو أن نحلف يميناً على أنه إذا حصل حرب فتكون يدأ واحدة مع بعض وأن من يفشى السر تشق بطلنه ويقطع إرباً ويلقى » (١) .

وهكذا تم الارتباط الوثيق والمهد الصادق والعمل حتى آخر نقطة دم والتمسك بالدفاع إلى آخر المدى ، ومن الغريب أننا سنجد أن من بعض الذين أقسموا كانوا هم من طعنوا الثورة في النهاية .

ومضت بريطانيا وفرنسا في باقى الخطوات ، فأعطتا سلطتيهما إلى قتصليهما للتصرف وفق مصالحهما تجاه الحالة في مصر ، وكانت أولى تلك المصالح إسقاط الثورة والقضاء على نفوذ القادة الثوار ، وحاول ماليت إقناعهم بالانسحاب من الميدان وذلك بترك مصر فرفضوا ، كما عهد إلى سلطان بذلك فأبوا ، كذلك حاول على مبارك إذ لم يكن يسعده استمرارية الثورة . إلى هذه الدرجة أراد التدخل الأجنبى أن يكسر الثورة ، وهذا ما تم لبريطانيا في نهاية الأمر ، لكن في ذلك الوقت رفض الثوار وبكل شدة وأعلنوا أنه من المستحيل مغادرة مصر .

وعندما وُجد أن التفاهم ودياً لا يجدى مع الثوار جاءت المذكرة المشتركة في ٢٥ مايو ١٨٨٢ ، قدمها القنصلان موقعة منهما إلى مجلس النظار والخبديو يطلبان فيها إبعاد عرابي مؤقتاً من مصر مع بقاء رتبه ومرتبته ، وإرسال كل من على فهمى وعبد المال حلمى خارج القاهرة مع بقاء رتبتهما ومرتبتهما ، وأخيراً استقالة النظارة ، وأنهما باسم حكومتيهما وبتفويض منهما ينصحان رئيس النظار ونظاره بتقديمها ، وعند الاقتضاء يشترطان تنفيذها ، وأنهما يرميان من وراء هذا التدخل المحافظة على الوضع الراهن وليس لهما مقصد غير إعادة نفوذ خديوى مصر (٢) .

ورفضت نظارة الثورة مطالب الدولتين ، ورحب توفيق واحتضن المذكرة وقبلها ، وعلى أثر ذلك قدمت النظارة استقالتها في ٢٦ مايو احتجاجاً على قبول الخديو التدخل الأجنبى ، فأعطى هذا المزيد من السعادة لتوفيق ، وعلى الفور أرسل منشوره إلى المحافظين والمديرين يبرر وجود قطع الأسطولين في المياه المصرية ،

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٤٩ .

Doc. Dip. F. Tom IV, No. 336, 23 Mai, 1882. p. 323 .

(٢)

وكان القادة الثوار قد بدءوا فى الاستعداد للدفاع عن مصر بجمع القوات الإمدادية ، فأمر توفيق بإيقاف ذلك وتقلد أعمال النظارة .

(ج) خروج بعض كبار الملاك من الركب الثورى

مما لا شك فيه أن مبادئ الثورة التى أعلن عن تنفيذها ، وبدأت فعلاً خطوات ناجحة فى سبيل تحقيقها رسّبت فى الأعماق لبعض من كبار الملاك أن سلطتهم سوف تنهار ، وأن مصالحهم سوف تنتهى ، وأن فلاحهم سوف تعصى ، وأن أملاكهم سوف يُقتطع منها بعملية المساواة التى غدت أساسية فى نداءات الثورة ، كما كانت تلك الخطب التى تلقى فى الاجتماعات قد أخذت تعطى الإشارة للتحديات الصريحة لهم ولمصالحهم ، ثم أن ثورية النظارة فى حل الكثير من المشكلات ومحاولات القضاء على الأمراض الاجتماعية كالرشوة مثلاً التى كانت فى قمة التطبيق قبل الثورة أقلقتهم .

مثّل هذا الجانب خير تمثيل سلطان - بعد أن أغرى البعض وضمهم إلى جانبه - الذى لعب دوراً مهماً منذ بداية الثورة فى توثيق أوصل التكاتف بين الأعيان والعسكريين ، وقد لمسنا نشاطه الملحوظ هذا وسمعته الطيبة ، وكان ينظر إلى عرابى فى بداية الأمر أنه دونه ولا يملك ذلك الكيان الاجتماعى الذى يخشى منه على مركزه ، فهو كبير بين ناسه ، سلطان للفلاحين ، لكنه يريد المزيد ، لذا رأى فى عرابى أداة لتحقيق طموحه ، ولكنه لم يكن يتوقع تلك التأثيرات الفعالة لعرابى على الشعب ، إذ استحوذ على الزعامة الوطنية التى ارتبطت مع إحساس المصريين بأنه مبعوث من قبل الله لإنقاذ مصر .

من هنا ، ومن سمات النفس البشرية أن ينتاب سلطان الضيق بعد أن سلب منه عرابى قلوب الأمة جميعها ، حيث إن ذلك يفقده الزعامة والمكانة التى يرنو إليها ، هذا وقد ترسبت فى أعماقه منذ البداية أنه لم يشترك فى نظارة الثورة الأولى ، ولكنه عوض برئاسته لمجلس النواب ، ومضى فى المسيرة الوطنية لدرجة أن محمد عبده يذكر « جاء كلام عن الخديو فى جلسة ، فطلب سلطان باشا قتله وأبى عرابى ، وكان سلطان يقول اقتلوا الثعبان سلالة الجناة الناهبين الذين باعونا للأجانب » (*) .

ولكن عندما تولت نظارة الثورة الثانية ، ولم يعين فيها شعر أنه لم يقدر التقدير الصحيح ، وكان ذلك نقطة بداية تحوله تدريجياً إلى جانب معارضى الثورة ، ومن ثم ضعفت نفسه بعد إحساسه أنه بفضل أمكن إذكاء روح الثورة ، وعندما جاء ليجنى

(*) محمد عبده ، المصدر المذكور ، ص ١٧٦ .

ثمرة ما غرسه كان غيره أسبق منه . وراح ماليت يرقب الأمر بإتقان ويدرسه جيداً ، فوجد أنه من الممكن جداً سحب سلطان من الثورة ووضعها في المعسكر المضاد لها ، فإن استقطاب رجل له كيانه المادى والأدبى من الثورة سيؤثر في الموقف ، ونفس الشيء عبر عنه توفيق ، ومضى الطرفان لتلين قوة سلطان ، فاهتزت وطنيته ومال بعد أن خضع للتأثير .

ظهرت طبيعة الخلاف بين قادة الثورة وبين الخديو من خلال مسألة الحكم على أصحاب المؤامرة ، واستقر رأى القادة على دعوة مجلس النواب للانعقاد للنظر فى هذه المسألة دون صدور أمر من توفيق تطبيقاً للمادة التاسعة من الدستور بالرغم من معارضة سلطان لذلك ، وجاء النواب من كل مكان إلى القاهرة ، وكما يذكر ماليت « وتوافدوا على بيت عرابى وتقرر عقد الاجتماع ، وأنه سيعلن فيه عزل توفيق ونفى أسرة محمد على ، وتعيين رئيس النظار حاكماً على مصر »^(١) .

ولم يتم ذلك بعد سعى الساعين لتهدئة الموقف والوصول إلى تسوية ظاهرية بين الطرفين على أساس بقاء النظارة وتعديل الحكم العسكرى على المتآمرين ، وكان هذا من سلبيات الثورة ، إذ أن من المفروض المضى فى الإجراءات وإسقاط الحكم الخديوى ، حقيقة لقد سارت فى خطواتها من أجل التحقيق ، لكنها عند وقت التنفيذ يكون التراجع ، وربما كان التدخل الأجنبى ماثلاً أمامها إذ أقدمت على ذلك . بدأ سلطان فى العمل من أجل إسقاط النظارة ، فعقب وصول قطع الأسطولين إلى المياه المصرية ، وصل إليها إبداء رغبة توفيق فى استقالتها . وعندما رفضت ، نراه يبلغ ماليت عن إمكانية طلب استدعاء مجلس النواب لسحب الثقة فيها فتسقط ، لكنه عاد مرة أخرى وأبان أنه لا يمكن الاعتماد على النواب لشعورهم السيئ نحو وجود قطع الأسطولين .

واشتد موقف النواب بمذكرة مايو ، إذ تركت الأثر الجارح فى نفوس الجميع . فقرروا أن يرسلوا بصورتها للدولة صاحبة السيادة لتتدخل فى الأمر ، هذا فى الوقت الذى تكثفت فيه الاجتماعات فى بيت البارودى ، تلك التى ضمت « العلماء والمشايخ والوجهاء والأعيان ، وانضم إليها أعضاء المجلس ، وتكلموا فى خلع الخديو وتنزيله ، وفيمن تصبح ولايته »^(٢) . وهذا ما يؤكد موقف كبار الملاك من النواب وغيرهم فى استمرار مسيرتهم مع المد الثورى .

Egypt, No. 7, (1882), No. 173 . May 11, 1882, p. 120 .

(١)

(٢) ميخائيل شارويعم ، المرجع المذكور ، ص ٢٩٣ .

قوى الثورة والتحدى والانتصار

انتهى الأمر باستقالة النظارة ، وفي الوقت الذي وقّع فيع نظار الثورة استقالاتهم « وقعوا بينهم قرار خلع الخديو »^(١) ، الذي أحس أنه بهذه الاستقالة قد ملك الأمر ، ففي ٢٧ مايو ١٨٨٢ جمع النواب والعلماء والعسكريين - كانوا اثني عشر ضابطاً منهم يعقوب سامي وطلبة عصمت وعبد العال حلمي وعلى فهمي - وأعلمهم « أن النظارة فضت ، والجهادية صارت تحت ملاحظته ، وأن كلاً منهم مسئول عن وظيفته ، وإذا وقع من أحدهم أو من تحت إدارتهم أدنى خلل يضر الراحة العمومية والأمن العام فيكون مسئولاً عن ذلك ، فضلاً عن مسئولية جميعهم بالحفظ والصيانة واستتباب الأمن » ، كما أعلن قبوله لمذكرة مايو ، فما كان من يعقوب سامي وطلبة عصمت إلا أن ثارت ثورتها ، وتقول صحيفة الفسطاط أن الضباط قالوا « نحن رافضون جميع ذلك ولا نقبل النوبة المتقدمة من الدولتين ولا عزل عرابي ، فسماعة سلطان باشا نادى طلبة باشا ليرجع فما امتثل . ثم خرج سعادة عمر باشا لطفى وناداه ، فرجع إلى وضعه الأصلي وتكلم مثل كلامه الأول وخرج بالحالة الأولى ، وتوجه طلبة باشا ومن معه إلى قشلاق عابدين حيث محمود باشا والعرابي وعمر بك رحمي »^(٢) ، وقد صادق على هذا القول كثير من المجتمعين ، وهنا يستلفت النظر أن الثورة أصبحت مقرونة بوجود عرابي وليس بأحد غيره ، ونراه عقب استقالة النظارة مباشرة يرسل إلى العسكريين ليخبرهم بالاستقالة وبرئاسته للحزب الوطني . وواضح أنه لم يهتم بمنصب النظارة قدر اهتمامه بأنه مازال القائد لتلك الثورة .

لم يكن من السهل على الأمة عامة والعسكريين خاصة أن يتقبلوا إبعاد عرابي عن السلطة الرسمية ، وبدا الأمر وكأن العسكريون سيدخلون معركة من أجل فرض إرادتهم بقوة السلاح والتهديد لإعادة عرابي ، وفي محضر استجواب السيد قنديل أقر بأنه « ثاني يوم استعفاء النظارة بلغنا أنه حاصل هيجان في البلد ، وناس كثير متوجهين إلى قشلاق رأس النين فقمت وتوجهت وأخذت وكيل المحافظة ووجدت مصطفى عبد الرحيم وسليمان سامي وسليمان تلميب وجملة ضباط يقولوا هيا نصرف الجيخانة ولما سألتهم عن السبب فقالوا بأنهم سيكتبون تلمعية بألا يقبلوا ناظر جهادية خلاف عرابي ، وأن لم يجابوا سيستعملون قوة السلاح »^(٣) .

(١) أحمد شفيق ، المصادر المذكورة ، ص ١٤٢ . (٢) الفسطاط ، عدد ٧ في ٣١ مايو ١٨٨٢ .

(٣) مجاهدات الثورة العرابية ، محفظة ١١ ، دوسيه ١١٦ .

وانهال سيل البرقيات على توفيق وسليمان بطلب العسكريين جميعهم من جهادية وبحرية وشرطة بإسقاط الأمر الخديوي بالاستعفاء ، وبذلك فرض التهديد إذا لم يجابوا إلى ما طلبوه ، ووصل الأمر من البحرية أن طالبوا ليس فقط بعرابي بل النظارة جميعها « ولا يرغبون عنها بديلاً »^(١) .

حدث ذلك أثناء محاولات مكثفة من أجل إنقاذ الموقف ووضع الحلول ، وكان قد تم إتفاق بين المجتمعين لدى الخديوي على اجتماع آخر بمنزل سلطان ، وفيه تجلت زعامة عرابي ، فقد كانت ثقته لا حدود لها ، قام خطيباً فبين ظلم الأسرة المالكة ، وهاجم توفيق هجوماً عنيفاً ، وطالب بإسقاطه فوافقه العسكريون ، كما أعلن أمين الشمسى وفهمى عمر ومراد المسعودى وأبو عبد الله من نواب الشرقية ومحمد أفندى جلال من نواب المنيا تمام موافقتهم لما طالب به عرابي ، كما أظهر العلماء تأييدهم للموقف ، ويقر سلطان في شهادته أنه كان معروف اتجاههم^(٢) . وهنا ظهر سلطان في الاتجاه المعارض ورفض الطلب وبين أنه لا ينبغي التكلم بخلع الخديو حيث إنه تولى بأمر الدولة العلية بالإتفاق مع الدول العظمى . وعلى أثر اختلاف وجهات النظر ، هدأ الموقف وطلب المجتمعون من عرابي حفظ الأمن العام . كذلك فإن القناصل عندما أيقنوا أن الأمر بيد عرابي وخصوصاً بعد أن أعلن الضباط تخليهم عن الأمن في تهديدهم لتوفيق ، طلبوا من عرابي الأمان لرعاياهم^(٣) .

وجد عرابي نفسه في موقف يدعو للمحافظة على الأمن ، وليس فقط أهل مصر الذين يطلبون منه ذلك ، ولكن أيضاً القائمين على أرضها ، وكان من السهل أن يوافق توفيق على إعادة عرابي أمام هذا الضغط ، وخصوصاً بعد أن وردت برقية من السلطان تفيد بالاعتماد على عرابي في حفظ الأمن العمومي ، وضاعت فرصة من الثورة كان يجب ألا تتركها وتقصف بانخديو وتنزله من على عرشه .

كان توفيق على دراية بجميع الاتجاهات التي تعمل ضده ويشعر أنه مهدد في كل لحظة ، فراح يحيط نفسه بإجراءات أمن مشددة ، هذا في الوقت الذي توجه فيه وفد يمثل قوى الأمة مكوناً من سلطان . وسليمان أباطة ، وحسن الشريعى .

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣ / د / ٥ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٧٤ .

Egypt, No. 8, (1882), No. 101, May 28, 1882, p. 43 .

(٣)

وحسن موسى العقاد ، ومحمود العطار ، وهلال ، ومراد السعدي ، والشيخ حسن العدوي ، والشيخ عبد الباقي البكري ، والشيخ عبد الخالق السادات ، وبطربك الأقباط ، وحاخام اليهود^(١) . وكان ذلك - إذا استثنينا ملطان - مظهرًا من مظاهر الإرادة القوية للقوى الاجتماعية على أرض مصر والوحدة الوطنية من أجل بقاء زعيم في منصبه استمرار لمسيرة الثورة ، وطالبوا توفيق بضرورة إرجاع عرابي . وفي البداية أبدى تمنعه ، لكنهم أعلموه بالأخطار التي تنتج عن رفضه فوافق . وعاد عرابي بإرادة الأمة إلى نظارة الجهادية ورئاسة الجيش .

وحمل القرار إلى عرابي على يد الشيخ البكري ، فيقول : « وتوجهنا لمنزل أحمد باشا عرابي ، فوجدناه غاصص بضباط الجهادية ، فسألنا عنه فدلونا على أوضه ، فدخلت بها فوجدناها ملأنة ، البعض طلبة علم والبعض من العلماء أعرف منهم الشيخ سليم عمر والشيخ حسين الطرابلسي ، والبعض من التجار أحمد أفندي الأرناؤطي رئيس تجار خان الخليلي وأمين أفندي أبو زيد ، فسلمنا الأمر الكريم للمومى إليه »^(٢) .

ومع عودة عرابي نجده يكتب للقناصل ويطالب بإعادة مذكرة الدولتين وانسحاب قطع الأسطولين . ووضع قانون أساسي تبين فيه حدود كل العائلة الخديوية والنظار . وقطع المخابرات والعلاقات المباشرة مع الدول بما فيها الدولتان إلا بواسطة الباب العالي^(٣) .

ومن ذلك يتضح أن عرابيا لم يعد إلى مركزه ليضع نفسه داخل منصب الجهادية فقط ، وإنما عاد وكله سلطة وقوة ونفوذ وضعف توفيق أمام الجميع في الوقت الذي ارتقى فيه عرابي درجات ودرجات على أكتاف الأمة ، وكان من الممكن وجود مزيد من الانتصارات للثورة . حيث أصبح جليًا أنه لو عرابي أراد فيكون ، ليس بناء على جبروته وسلطانه . ولكن لأن قوى الشعب كانت بجواره ما عدا قلة معارضة يسهل القضاء عليها بممارسة القوة والضغط ، وبصفة عامة فإنه إذا قيسست الأمور بظروفها ووقت حدوثها يكون الاتجاه المعتدل وغير المتطرف هو السائد في كثير من الأحيان .

(١) الوقائع المصرية - عدد ١٤٢٢ في أول يونيو ١٨٨٢

(٢) محاضرات الثورة العربية - مجلد ١٩ ، دوسيه ١١٣

(٣) سليم النقاش - المصدر المذكور - ج ٤ ، ص ٢٧٨

وازدادت شهرة عرابي حتى خارج مصر ، وازدادت الدولتان قلقاً في نفس الوقت ، ومارستا كل الطرق لإمكانية إبعاده من الطريق ، فقد عرضتا عليه - عن طريق قنصليهما - مغادرة مصر وإغراءه بذلك ، ولكنه رفض . فلم يكن الزعيم الذي يرضى أن يخون ويأخذ ثمناً يبيع به وطنه ، فقد مضى حتى آخر لحظة - رغم ما قيل عنه - مثلاً للوطنية المصرية .

لكن ماذا عن انعكاسات هذه الأحداث على الشعب ؟

كان الشعب سعيداً بثورته وقادته وتنفس الصعداء عقب ليل طويل معتم بالسواد ، لكن الإشراق لم يستمر طويلاً بعد أن بدأت توجه للمصريين الضربات على أيدي الأعداء التي وقفوا أمامها بحزم وقوة ، ففى خطاب من عرابي إلى بلنت فى ٢١ مايو يبلغه « إن جميع شعب مصر قد آله مجيء قطع الأسطولين واعتبروا أن ذلك علامات تتم عن نيات سيئة من الدولتين تجاههم وهو اعتداء لا سبب له ولا ضرورة ، وأنهم لن يسمحوا لأية قوى بأن تتدخل فى شئونهم الداخلية ، وسيحتفظون بجميع امتيازاتهم التى أقرتها التسويات الدولية ، ولن يسمحوا أن ينال منها أحد ما داموا على الحياة »^(١) .

ولم تكن قطع الأسطولين فقط التى أشعلت النفوس ، أيضاً المذكرة التى كان وقعها مؤلماً وتأثيرها سيئاً للغاية ، وبلغ الاضطراب مداه وسيطر القلق على الجميع ، ويقر عرابي فى محضر التحقيق معه « حضر إلى العاصمة جميع أعيان البلاد ومستخدمو الحكومة وقدموا لنا مئات من العرائض محتجين فيها على عمل الخديو هذا وطالبين أحد أمرين ، إما رفض اللائحة ، وإما عزل الخديو الذى قبل تدخل الأجانب فى أحوال البلاد الداخلية ، والحق أن جميع المسلمين قد تأثروا بتلك اللائحة وأنكروها غاية الإنكار وكانت تأتى إلينا المحاضر مختومة من المديريات والمحافظات ، وكان حضور الناس بها جهرة إلى مصر لا خفية وبحضور جميع الناس لمنزلى إعلاناً بعدم قبولهم اللائحة المذكورة ومن يقبلها ، وكان ذلك بحضور أعضاء مجلس النواب ، وكلهم مصادقون على ذلك ، والمحضر المقدم من أهل مصر العاصمة عند حضوره وتلاوته قام الناس الموجودون من النواب والعلماء وغيرهم الذين لم يسبق ختمهم وختموا عليه فى منزلنا »^(٢) . واتحد الأعيان والعلماء والتجار وقدموا محررات بأختامهم وفتوى شرعية من العلماء بوجوب عزل الخديو بمقتضى الشرع الإسلامى .

Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 281 .

(١)

(٢) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣ / ١ .

أحس المصريون بأن هذا التدخل تهديد لوطنهم ولكيانهم ولثورتهم ولدينهم . فقد أفقدهم كل ثقة في حاكمهم الذى تسبب فى كل ذلك » وكانت الأسواق والشوارع والحانات والمنازل عبارة عن مجتمعات يقضى الناس فيها أوقاتهم بالتداول فى أحوال مصر وأمور سياستها وفيما عسى أن تؤول إليه تلك الحال « (١) .

واستمر الزحف على القاهرة حتى امتلأت بالآلاف من المعارضين ، وكثرت الاجتماعات بشأن إيقاف هذا التدخل السافر ، واجتمع الأعيان وأقروا أن ليس هناك شخص واحد على أرض مصر يقبل تلك المذكرة ، وتؤكد صحيفة التيمز حقيقة هذا التكاثر لقوى الأمة فتقول « انطلق الأزهريون ونواب المجلس وأعيان الفلاحين وبعثات المدارس والتجار والحرفيون ، جميعهم رافعين شعار رفض المذكرة وعودة عرابى » (٢) .

وجاءت عودة عرابى إلى السلطة - بعد أن التصقت به الشخصية الكاريزمية - لتلطف من الأجواء وتريح النفسيات ، فترى تلك الفرحة التى عمت أرجاء مصر كلها لانتصار الأمة وزعيمها المختار ، وانهاالت التهاني لتبارك بالنجاح ولتعطى المزيد من التأييد ، فكانت من أعيان وعلماء وتجار وموظفين وحرفيين وعمد ورؤساء أقسام وفلاحين .

وأصبح يطلق على عرابى « غاريبالدى مصر » ولم لا وهو منقذها وحاميها ومحررها من الظلم والاستبداد ، فقد كان يمثل النموذج المصرى الأصيل ، فلأول مرة يكون هناك ناظرًا بلا نظارة ، إذ كانت « صر فى حاجة إليه وبقيت بجواره فى ذلك الكفاح حتى النهاية ، فحصل على الحب الذى لم يصل إليه أحد ، ومضى اسم توفيق فى مصر حيث إن الآلاف من الآباء سموا أطفالهم باسم عرابى ووصل الأمر إلى تلقيبه فى بعض الصحف « مولانا أمير المؤمنين سعادة أحمد باشا عرابى » (٣) ، وأخيراً فقد كان للمبادئ التى بثها فى أذهان المصريين سبباً كافياً لأن يستحوذ على ذلك . ، فكثيراً ما يؤكد لهم مساوئ الأجانب ، كما يبين أنه سينقص فوائد المرابين ، وبالتالي أضحى لذلك رد فعل على الأوروبيين وخاصة الإنجليز ، فقد راح كولفن يوهم حملة السندات أصحاب المصالح فى مصر بأن عرابيا وجماعة الحزب الوطنى من الثائرين المتعصبين الذين لا يحجمون عن العمل على هبوط السندات فى البورصة

(١) سليم النقاش ، المصدر المذكور . ج ٥ ، ص ٣ .

The Times, May 25, 1882

(٢)

(٣) الفيصل ، عدد ١١ فى ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

إذا أتاحت لهم الفرصة ، وأنهم نجحوا فعلاً في تخفيض قيمة الضمانات^(١) ، ومن هنا كان لابد من العمل على ضرب مصر الثورة .

الاحتكاك وبداية الحرب والمسيرة الثورية :

التحرش بين السكندريين والأجانب

وصلت الحالة إلى أقصى درجة من الاستياء في تلك الظروف التي تعيشها مصر ، حقيقة أن الزعامة أصبحت في يد عرابي الذي له من المكانة ما لا يوصف ، لكن لم يكن وحده في الميدان ، وإلا لانتهى الأمر وأصبحت مصر للمصريين . كان هناك حاكم متردد وضعيف وجد له السند في الاعتماد على القوى الخارجية ، وهناك أسطولان أجنبيان في المياه المصرية كان لهما الأثر السيئ حتى أن توفيقا يعترف بقوله « إن الأهالي على أثر وصول السفن الحربية الأجنبية إلى الإسكندرية قد هاجت نفوسهم ويقولون إن الخديو هو الذي أتى بهذه السفن ليسلم البلاد إلى الكفار »^(٢) ، وهناك الوكلاء الأجانب الذين يخططون على أرض مصر لوأد حريتها التي حصلت عليها ، وهناك مندوب خائن من قبل الباب العالي وضع يده في يد أعداء المصريين ، وهناك أتراك ومستتركين متربصين ومتممرين لإجهاض الثورة ومعهم القليل من المصريين أمثال سلطان ، وأخيراً هناك الأجانب الذين رمى بهم المجتمع الأوربي ليأتوا مصر ويستمتعوا بخيراتها ويستبعدوا أهلها ويدخلونها ، وابتليت الإسكندرية بهذه العناصر ، فقد كانت سيطرة الأجانب عليها واضحة للغاية ، وعلى حسب التقرير النمساوي بلغ عدد سكانها في هذه الفترة ٢٣ ألف من المصريين إلى جانب ٨ آلاف من الأجانب^(٣) ، شملوا اليونانيين والإيطاليين والمالطيين ، وجميعهم يعملون بالتجارة وأغلبهم يعمل بالريا .

وكانت الإسكندرية بحكم موقعها وطبيعتها أهلها أكثر تأثراً بتيارات الثقافة ، وأكثر وعياً وتطوراً ، ووجدت الحركة الفكرية فيها التربة الصالحة والمناخ المناسب ، خصوصاً بعد أن تبلور الرأي العام فيها فصحافتها ، وجمعياتها ، واجتماعاتها ، وحماستها ، وأصحابها كانوا مهئين بالقدر الكافي لتخرج منها الثورة على الأجانب وخصوصاً عقب ازدياد حوادث شغبهم .

مع تلك الظروف كان لابد من الاحتكاك النهائي ، ووضع فاصل لتلك التصرفات ، ويجب ألا ننسى أن شغب مصر هو شعب مسلم تقى وكان يجد لما تم

(١) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 214 .

(٢) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٦ ، ١٦ يونيو ١٨٨٢ .

(٣) الأرشيف النمساوي ، محفظة ١٧ ، رقم ١٦٢ / سياسى ، ١٤ أغسطس ١٨٨٢ ، ص ٢ .

على أرضه الطاهرة اعتداء صليبي صارخ ، ومن هنا تأجج شعور الكراهية ويطنت الأحقاد ، وأشعل الوقود تلك الحملات التي شنت على الأجانب وكانت تمثل الحقيقة ، هذا في الوقت الذي وفد فيه على الإسكندرية أجانب من مختلف مدن ومديريات مصر إذ رأوا في وجود قطع الأسطولين حماية لهم من ذلك السخط الذي انتشر بين المصريين عليهم ، وعلى أرض الإسكندرية نراهم يظهرن التعلالى فى معاملاتهم مع السكندريين ويظهرون أيضاً التمنيات والآمال فى الرغبة فى سحق الثورة ونجاح التهديد الإنجليزى الفرنسى « وكان اليونانيون والمالطيون يرهبون زملاءهم من القواربية أولاد العرب عندما أتت الدونمة الإنجليزية وكانوا على الدوام يشيرون للوطنين إلى المراكب الإنجليزية كما يشير الإنسان للصغير الشقى إلى العصى المختصة بتأديبه »^(١) . وقد ازداد حنقهم بعد أن لمسوا اتجاهات حكومة الثورة إزاءهم ، وتلك الإجراءات التى اتخذت للتقليل من جبروتهم .

ووقعت حادثة الإسكندرية لينجلى فيها ذلك الشعور ، ولا يهمنى كثيراً أن نبين هل هى مدبرة أم لا ؟ ومن الذى دبرها ؟ ولماذا ؟ ومن خطط لتففيذها ؟ وكيف أنها اتخذت ذريعة لضرب الإسكندرية ؟ حيث أظهر ذلك الكثير من المسجلين لتلك الحادثة ، لكن كل ما يمكننا قوله أن أسبابها ليست بجديدة فى شىء ، وأن حوادث الاعتداء من الأجانب على المصريين كثيراً ما حدثت ، ولكن الجديد هو أن الأمة جميعها قد وصلت فى ذلك الوقت إلى قمة الضيق ، وكان لا يمكن أن تتحمل فوق هذا بعد أن فاض الشعور بضرورة تحطيم الأجانب ورد اعتداءاتهم ، هذا فى الوقت الذى رأت فيه القوة الأجنبية استئصال هذا الشعور من أعماقه ، وكان القناصل على رأس تلك القوة ، إذ وجدوا من الضرورى القضاء على الحرية الجديدة التى ولدت فى مصر ، ولم لا وهم يمثلون دولهم الاستعمارية . وعقد قناصل الدول بالإسكندرية عدة اجتماعات بدعوة من قنصل بريطانيا وتشاوروا فى إمكانية تشكيل قوة دفاعية أوربية فى الإسكندرية ضد أهلها وتزويدها بالسلاح ، وكان لماليت دوره الكبير فى عملية التسليح وتشجيعها^(٢) .

وعندما أخذ عرابى على عاتقه مسئولية الأمن ، صدرت الأوامر المشددة للبوليس التى وصلت إلى حد أنه فى حالة حدوث مشاجرة بين أى من الأوربيين والمصريين أن يثبت الخطأ على المصرى بالرغم من براءته ، وذلك منعاً لأية مشاكل ممكن أن تطن مسئولية عرابى ، وتكون فاتحة لاحتكاكات خارجية ، فيذكر مراسل صحيفة التيمز أنه بطريق الخطأ قاده (عريجى حنطور) فى اتجاه معاكس

(١) التيمز ، عدد ٦٢ فى ٣ يوليو ١٨٨٢ . (٢) المصدر نفسه ، عدد ٦٣ فى ٦ يوليو ١٨٨٢ .

« فاحتججت بهدوء ، وكان هناك عسكري يقف قريباً ، فأسرع بالتدخل في الأمر وأمر العريجي بإطاعتي وتوصيلي »^(١) .

ومضى التحفز بين الطرفين ، فالسكندريون تجرى في دمائهم روح الثورة . فهم ثوريون بطبيعتهم ، وخصوصاً تلك الفئات العاملة المطحونة التي كانت تجد في الثورة إنقاذاً لكيانها ، وأصبحت على درجة من الوعي الكامل ، هذا بالإضافة إلى الإحساس الكامل بأن تلك الإمتيازات التي يتمتع بها الأجانب سوف يقضى عليها نهائياً مع انتصار الثورة واستمرارها على يد منقذ مصر الذي سيعيد الحقوق المسلوقة إلى أصحابها ، ومن سلبها إلا الأجانب .

وجاءت حادثة الإنفجار في ١١ يونيو ١٨٨٢ ، وسواء أكان سببها ذلك الخلاف الذي وقع بين المالطي الخادم السابق للقنصلية الإنجليزية وبين الحمار الذي طاف المالطي على حمارة طوال اليوم وانتهى مطافه إلى حانة قريبة من قهوة القزاز بشارع السبع بنات وأعطاه أجرته قرشاً واحداً فجادله ، فما كان من المالطي إلا أن طعنه سكين مات على أثرها وفر إلى أحد المنازل المجاورة ، أو ذلك الفران الذي خرج من فرنه ليشتري دخاناً في نفس الشارع المسكون بأوباش اليونانيين والمالطيين ، وكان منهما اثنان يبيعان سمك لمصري ، وحصلت بينهما مشادة ضرية أحدهما ، وهنا تدخل الفران فما كان من المالطي إلا أن أنزل عليه السب وضربه بسكين وهرب فأسرع أخو المضروب لنجدته ، واشتعلت المنطقة ، وبدأت الحرب بين السكندريين والأجانب .

وراح الأجانب يمطرون السكندريين من نوافذ بيوتهم بوابل من الرصاص فدافعوا عن أنفسهم بالعصى ، حيث لم يكونوا يمتلكون للسلاح « كان الضرب بالنبايت وأرجل الكراسي والطرايبزات الخشب ، أما الأوروبيين فكان الضرب منهم بالأسلحة النارية من الشباييك »^(٢) ، وخرجت الصيحات تدوى وكأنها حرب صليبية ، يدعون فيها المسلمين على النهوض ضد من يقتلون إخوانهم ، وقد انتهز السكندريون هذه الفرصة وأصبح بمجرد ما يضرب الأجنبي أحداً منهم ضربة واحدة فقبل أن يكررها يكون الوطني قد هجم عليه بكامل قوته ، متقوياً بكل ما يتيسر له إن كان عصا أو يده أو أسنانه أو أظافره أو نحو ذلك ، وقد كان وكأنه بركان فاض ضد الأجانب ، ولم يكن هناك شك في أن المشتركين كانوا ثوريين ، فالبعض منهم بالرغم من إصابته فإن الكلمات كانت تتردد بطلب نصره عرابي والجهادية ، والرغبة في الالتحاق بها .

The Times, June 1, 1882 .

(١)

(٢) محافظ الثورة العراقية ، محفوظة ١١ ، دوسيه ١١٦ .

وتناوبت الاتهامات فى إلقاء مسئولية ما حدث على الثوريين والمعسكر المضاد للثورة ، وكل ما يهمننا أن نخرج بأن هذه الحادثة كانت تعبيراً صادقاً وانفجاراً لكبت طال مداه^(١) .

أتهم العقاد أنه المحرك لها وأنه اشترى « النبائيت » قبلها ، لكن لم تثبت التهمة عليه حيث أقر التاجر أنه جارى البيع لكل من يطلب منه^(٢) ، كما أتهم النديم على أنه أثار شعور السكندريين « بعقد جملة جمعيات قبل واقعة ١١ يونيو تتلى فيها خطب مهيجة ضد الأوروبيين »^(٣) ، لكن من المعروف أن خطب النديم تشعل القلوب ناراً ، فقد كانت ثورته جارفة ، وفى نفس الوقت لم تكن الخطب وليدة هذه الفترة فهي موجودة منذ أن تأسست الجمعيات قبيل الثورة ، ولربما زادت بعض الشيء فى ذلك الحماس الذى أضفى عليها الثورية الكاملة .

تجمعت العوامل لتدين عمر لطفى محافظ الإسكندرية الذى كان فى البداية مع التيار الثورى ، فهو من أعضاء الحزب الوطنى القدماء ، لكنه سرعان ما انسحب وأصبح عدواً لهذا الحزب ، وارتمى فى أحضان المعارضين وعلى رأسهم توفيق الذى عرض عليه النظارة فرفض لا شيء سوى لعلمه بقوة زعيم الأمة وإصرار الشعب وتمسكه به ، وهذا ما تم وجاء عرابى للنظارة على أسنة الإرادة الشعبية ، فازداد حنقه عليه ، وعندما أخذ عرابى على نفسه مسئولية الأمن أمام الداخل والخارج ، ولكى يظهره أعداؤه بعدم القدرة على ما تحمله أرادوا زعزعة موقفه بتلك الحادثة ، ويذكر أن درويش المندوب العثمانى كان من المخططين أيضاً^(٤) .

وانتهت الحادثة على يد سليمان داود ، إذ تحرك بعد أن وصله أمر عرابى الذى بلغه الخبر متأخراً ، واستطاع أن يهدئ الموقف ، واستتب النظام . ولم يحدث تحقيق علنى ولا محاكمة ولا حتى توجيه أى سؤال لكل من عمر لطفى محافظ الإسكندرية وحسين صادق الذى كان يتولى البوليس .

وكان للحادثة أثرها على الأجانب الذين ساد بينهم القلق ، وامتألت قلوبهم بالرعب ، وتدفقت الهجرة من مصر مباشرة ، وفى خطاب من صابونجى إلى بلنت يبين له « لا توجد أكثر من اثنى عشر محلاً أوروبياً مفتوحة ومغلق أبوابها ، ومنظر

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٦٣ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٣ / ١ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٦٦ .

Ninet , Arabi Pacha, p. 115

(٤)

الأحياء الأوربية بالقاهرة بادی الکآبة ، ولكن الأحياء العربية مثل ما كانت عليه «^(١)» حتى السوريين وبعض اليهود أخذوا في الرحيل بعد أن أغلقوا منازلهم ومحلاتهم . وبذلك ولأول مرة انعكست الأمور في مصر ، وأصبح الأجانب يقاسون ويتألمون لما وصلت إليه حالتهم على أيدي المصريين بعد أن مضى الوقت الذي كانوا يقسون عليهم ، وانقلب ميزان القوى ليثبت أن المصريين عند ثورتهم يطيحون بكل شيء . ومن هنا كان لابد من تهدئة الموقف .

النظارة الثالثة

ذهبت الأطراف المعنية لضرورة تشكيل نظارة لاستتباب الأمن ، وأجبرت الحالة الأخيرة على إعطاء عرابي المركز والسلطة ، فإنه وحده القادر على أن يسوس الجماهير الثائرة ، وكان قنصلا ألمانيا والنمسا من أكبر المؤيدين لجعل عرابي مسئولاً في النظارة الجديدة وذلك لضمان مصالح رعاياهما ، بينما رأى درويش المندوب العثماني أن عرابياً يستطيع أن يخفف من حدة الأوضاع ، وإنضم إلى هذا الجانب قنصل فرنسا ، وحاولوا إزالة الخلاف العميق بين عرابي وتوفيق . لكن لم تصف النفوس ، وأجبر الخديو على تشكيل نظارة يستمر فيها عرابي بنفس منصبه . ولم يكن توفيق ليجرؤ على تشكيل نظارة بدون عرابي ، فقد أجبر من الشعب في وقت لم تكن فيه نظارة على أن يكون عرابي ناظراً ، وجرت المفاوضات ، وكانت مصادقة عرابي على النظارة أهم من مصادقة الخديو والدول ، وتدخل قنصلا ألمانيا والنمسا ومعهما درويش في الأمر واتصلوا بعرابي وتفاوضوا معه في اختيار رئيس النظار الجديد ، فاستقر رأيهم بعد رأى عرابي على إسماعيل راغب لتشكيل نظارة ائتلافية^(٢) .

وراغب باشا ليس مصري الأصل وإنما هو موري ، ومن قدامى رجال المعية . لكنه انضم إلى الثورة ، ومنذ أواخر عهد إسماعيل ظهر اسمه وتردد في الأوساط الوطنية بعد أن فتح منزله وجعله مقراً للاجتماعات الوطنية ، حيث وضع فيه أول دستور لمصر في العصر الحديث ، وشارك الثوار في أفكارهم وكان أكثر تطرفاً ، فإنه صاحب الاقتراح في « قطع رأس الخديوي » إذ أشار على التادة « بإرسال بلوك لقتل الخديوي » لكن عرابيا يرفض ، وتؤكد وثائق الثورة ثورية راغب ، فيقرر على الروبي

(١) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p.456 .

(٢) الأرشيف النمساوي ، محفوظات ١٥ ، رقم ١٩١/سياسي ، ٢٩ أكتوبر ١٨٨٢ .

أنه عقب إعلان مطالب الأمة فى التاسع من سبتمبر توجه عرابى ومن معه إلى طرف راغب وأخبروه بما وقع فجوابهم قائلاً « إنكم لم تتموا المقصود بل كان يلزم إعدام الخديوى لنوال المرغوب »^(١).

وشكل راغب نظارته فى ١٨ يونيو ١٨٨٢ وفقاً لإرادته والتي لا يمكن أن تتم إلا بالإتفاق مع عرابى ، وعرضت على توفيق لمجرد الاعتماد ، وجاء فيها عرابى فى منصبه ، وسليمان أباطة للمعارف ، وحسن الشرىى للأوقاف وجميعهم ثوريون ، وكان هناك المعتدلون ، إذ اختير محمود الفلكى للأشغال العمومية وعلى إبراهيم للحقانية ، وعبد الرحمن رشدى للمالية ، أما الخارجية فقد تولاه راغب .

وكان برنامج النظارة المحافظة على الارتباطات الدولية، والفرمانات السلطانية، وتأسيس مجلس نواب بلائحته الأساسية والانتخابية . وعدم جواز مجازاة أى فرد إلا بعد محاكمة قانونية ، وألا تجرى مخابرات إلا من طرف ناظر الخارجية ، وذلك حتى يمنع تدخل وكلاء الدول فى شئون الحكومة ، وتخويل مجلس النظار مسئولية الحكم ، ثم توسيع دائرة المعارف والصنائع وتحسين أحوال الزراعة والتجارة^(٢) .

العدوان الإنجليزى على الإسكندرية

كان واضحاً أن المسامى التى تبذلها بريطانيا من أجل إجهاض الثورة بكل الطرق الممكنة وبجميع تلك الوسائل التى استخدمتها ، بمساعدة القوى المعارضة ، وبالتهديد والوعيد ، وأخيراً وجدت أن أفضل الطرق استعمال القوة لتوصلها إلى النجاح وتحقيق ما تصبو إليه . ولم تكن هذه المسألة بجديدة ، فهى منذ اللحظة الأولى كانت تفكر فيها لكنها لم تنفذها . فقد أرسلت قطعاً من أسطولها مع حليفها فرنسا مرتين ، الأولى عقب التاسع من سبتمبر ، والثانية لتنفيذ تهديدها الذى جاء فى مذكرة مايو ، وبعدها أصبح جلياً أنها قد صممت على إسقاط حرية مصر

وهنا رأت الثورة أنه من الضرورى عمل الاستعدادات اللازمة للدفاع عن الأرض المصرية وأيدت الأمة ذلك الاتجاه ، وبُدئ فى الإعداد للمواجهة الحربية ،عد ذلك التصميم الذى أبداه القادة ، فقد كانوا متأكدين من الحصول على النجاح ،

(١) محافظ الثورة الميرابية ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٤٩ .

(٢) فؤاد كرم ، النظارات والوزارات المصرية ، ج ١ ، ص ص ١١٣ - ١١٧ .

أما الفشل فهذا أمر لا ينظر إليه إطلاقاً ، ومضى العمل في التجهيزات الحربية على قدم وساق ، واستمر تدبير وسائل الدفاع بالرغم من أن الخديو قد منع عرابي من ذلك بناء على أمر السلطان العثماني عقب إعلان بريطانيا احتجاجها .

وبدأت الخطوات التنفيذية للاعتداء الإنجليزي ، ففي أول يوليو ١٨٨٢ أعلن سيمور قائد الأسطول البريطاني أن عرابياً معتزماً على سد بوغار الإسكندرية لحصر السفن الإنجليزية الراسية ، وأنه سيمنع ذلك بالتدمير ، هذا في الوقت الذي أرسلت النظارة إلى توفيق تبلغه أن السفن الإنجليزية قد أحاطت أماكن آلتها بالسلاسل الحديدية الضخمة وأقامت حولها خنادق واستحكامات « ونحن لا ندخر وسعاً في سبيل إعداد الأسباب والوسائل الكفيلة بالدفاع عن بلادنا » ، وأعاد قائد الأسطول الإنجليزي تهديده ووعيده وإنذاراته ، لكن لم يسمع له أحد مما اضطره أخيراً في ١٠ يوليو أن يرسل الإنذار النهائي « لتسليم البطاريات المنصوبة في الحصون » (١) .

وعقب هذا الإنذار عقد اجتماع بسرأي رأس التين حضرة توفيق والمندوب العثماني والنظار و السلطان ولواءات الجيش ، ودارت المناقشات حول إجابة طلب سيمور ، أو رفضه ، وأبان فيه مرعشلي باشا وهو من كبار مهندسي الاستحكامات بأن طوابي الإسكندرية تعجز بمدافعها القديمة عن مقاومة المدرعات الإنجليزية . لكنه وجد المعارضة من وكيل البحرية ومحمود فهمي ، وصمم الجانب الثوري على الدفاع عن البلاد ورفض إنذار القائد البريطاني ، وقطعت العلاقات الرسمية بين مصر وبريطانيا وأصبحت في حالة حرب ، وضربت الإسكندرية في ١١ يوليو .

وقبل أن تطل أقدام الغزاة الأرض المصرية حُرقت المدينة ، وتعددت الأقوال في الأسباب ، لكن مما لا شك فيه أن قتال الأسطول الإنجليزي كان لها أثرها في ذلك ، وأشارت أصابع الاتهام إلى العسكريين وعلى رأسهم سليمان داود ، كما فعل الروس في موسكو عندما اقترب منها نابليون ، وقد صرَّح عرابي في حديث له مع القنصل الفرنسي « أن الروسيين أحرقوا مدينة موسكو » (٢) ، وحتى الصحف الروسية وجدت في حريق الإسكندرية شبهاً مماثلاً لحريق مدينتها ، وأن عرابياً له الحق في ذلك

Egypt, No. 7 (1882), No. 176 - 655, pp. 103, 105, 172 .

(١)

(٢) محافظ الثورة العربية ، محفظة ١٩ ، شهادة قنصل الدانمارك .

« وهو ليس بدكتاتور عسكري بل هو زعيم قومي مصرى يريد أن يحرر بلاده من أطماع الفاسيين الأجانب »^(١) .

لقد كان قواد الثورة يميلون لهذه المسألة حتى تتم إعاقة تقدم الإنجليز للإسكندرية ليتيسر استكمال التحصين خارجها ، وإن لم تكن النية تميل إلى ذلك لأمكن إخماد الحريق فى الحال ، لذا كان رد الفعل بطيئاً فى هذا الإتجاه لنوال المراد ، وقد أقر أحد الثوريين أنه سمع عرابى والبارودى يتذاكران فى حرق الإسكندرية « إن الإنجليز أجروا ما أجروه فيلزم أننا نحرق البلد » وفى يوم الحريق كان القادة فى « سراى نمرة ٣ » وأثناء مشاهدتهم للحريق كانوا يقولون : « إنه إذا خرج الإنجليز إلى البلد لا يجدون شيئاً ولا حتى طريقاً يمررون منه »^(٢) .

ومن الملاحظ أن الحريق تركّز فى الحى الأوربى ، فمن أقوال عرابى « إن الإسكندرية لم يكن للمسلمين فيها سوى العشش ، أما الأبنية والأمتعة وغيرها فهى ملك للأورباويين ، فدعها تحترق وتترك لهم قاعاً صفصافاً »^(٣) .

وبذلك أصيبت أملاك الرأسماليين الأجانب الذين امتصوا دماء المصريين ، والذين ربحوا وملأوا جيوبهم من عرق وجبين هؤلاء الكادحين ، فكان الحقد والرغبة فى الانتقام قد تمثلتا فى حرق ثمرة أعمالهم غير الشريفة ، ويمكن القول أن التخطيط كان كاملاً لذلك ، بأنه إذا تمكن الإنجليز من ضرب الإسكندرية وعدم صمود المدينة أمام نيران أسطولهم يكون التقهقر للتحصين ، ولكى تستكمل الراحة النفسية للقوات المصرية ويعاق تقدم الإنجليز ليتم الاستعداد للمواجهة ، كان لابد مما حدث ، وخصوصاً أن الأذى وجه للأجانب دون المصريين . ولو أنه فى أشاء ذلك كان للبدو وأصحاب المواقف المتلونة دور فى ازدياد نار الحريق . واقترن حريق الإسكندرية بسلبها ونهبها ، وقام بذلك « الأروام والبرابرة والبدو » ، وقد بذل قادة الثورة مجهوداً كبيراً فى إيقاف هذه العملية ومنعها ، وبدأت هجرة السكندريين التى كانت سلسلة متصلة من حلقات العذاب المقرونة بصيحات الجياع ، فكانوا هائمين بلا مأوى ، وقد صوروا أبشع صور المأساة الإنسانية التى تحملتها الإسكندرية فى

(١) الأرشيف النمساوى ، محفظة ٢٠ ، مجموعة ٢٦/٣١ ، ١٢ يوليو ١٨٨٢ .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٦ ، دوسيه ١/٢٨١ ، دوسيه ١/٢٨٤ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ١٦ ، دوسيه ١/٢٨٤ .

تاريخها . وبذلك أصبحت تلك المدينة تحمل آثار العدوان من تخريب ودمار وحريق ، وانسحب منها الجميع ، وانعدمت فيها الحياة ، حتى المياه قطعت عنها ، لتعوق تقدم القوات المعتدية ، وليكتمل شكل الخراب لأجمل مدينة مصرية .

محاولة العصف بالخدوية

لم يقدم توفيق على القيام بأى عمل يعارض به التدخل الأوربي وارتمى فى أحضانه ليتمكن من الوقوف أمام الثورة التى أفقدته كل شيء حتى أنه راح يشكو القائمين عليها من قواد جيش ونظار وأعضاء نواب إلى القناصل ، وكان الإنجليز أكثر من احتضنه ، فدخل تحت سيطرتهم ، وأوضح تقرير نمساوى ما وصل إليه الخديو « إنه واقع تحت نفوذ الحكومة الإنجليزية المطلق ، فهو لا يملك تمامًا جهاز أبيه العقلى ، وتتقصه سرعة الخاطر والفهم النافذ والمبادأة ، ويفتقد التجارب ومعرفة الناس وعادات السلوك بينهم ، فكان لهذا السبب يتردد عند اتخاذ أى قرار ، حائرًا مرتبكًا مستسلمًا إلى حد الاستكانة » (١٠) . وقد بدا ذلك واضحًا منذ توليه العرش ، ومع حادثة يونيو وانتقال توفيق إلى الإسكندرية أصبح قلبًا وقالبًا مع الأجانب عامة والإنجليز خاصة ، واطمأنت نفسه لوجوده بجوار قطع الأسطولين الأجنبيين ، وراح يشجع استعجال نزول القوات البريطانية على الأرض المصرية بالرغم من أنه كان على قمة المجتمعين فى ١٠ يوليو للرد على إنذار سيمور ، ومن بين الموافقين على القرارات الصادرة بالمقاومة والدفاع ، وربما هداه تفكيره فى ذلك الوقت إلى إمكانية انتصار المصريين ومن ثم فلا يكون موقفه شائكًا إذا عارض .

ومنذ البداية كانت الثورة ترى ضرورة إسقاطه بعد أن تأكد تزعمه للمعارضة لها بمختلف الطرق ، وحدثت محاولات لكنها لم تصل إلى النتيجة التى ترجوها الثورة ، ومع ضرب الإسكندرية قرر القادة القضاء عليه ، وتوضح لنا الوثائق النمساوية محاولة إسقاط عرشه يوم العدوان « عقب ضرب الإسكندرية أمر عرابى جنوده بإحراق سراى الرمل الذى التجأ إليه الخديو ودرويش باشا ، وأن يقتلوا كل من يحاول الهرب منه ، فكلف عرابى ثلاثمائة جندي من حرسه الخاص لمحاصرة القصر ، ولكن للأسف نجح توفيق ودرويش فى إغرائهم إذ عُرض عليهم الأوسمة والنقود والأحجار الكريمة ، وهؤلاء الذين كلفوا بتلك المهمة هم الذين حموه فى انسحابه من سراى الرمل إلى سراى رأس التين الذى كانت تحرس أبوابه الجنود الإنجليزية ، فاضطر مع حرمه وجميع نساء القصر إلى أن يقطعوا مسافة طويلة

(*) الأرشيف النمساوى ، محفوظة ١٧ ، ملحق تقرير الكونت هنجولتر ، ص ٧ .

جداً وبم تنتهي العجلة على الأقدام ، وكان من جراء ذلك أن معظم سيدات الحرم أصابهن المرض وأن أختاً لزوجته ماتت «(١) .

كان سليمان داود من الأشخاص الذين اعتمد عليهم عرابي في تنفيذ أغراض الثورة ، وأعطيت له الأوامر بالتخلص من توفيق ، وكان عليه أن ينفذ بنفسه ، لكنه لم يذهب برغم ثورته الجارفة ، وأرسل عسكريين من آلاية على رأسهم البكباشي محمد منيب ، فوفدوا على السراي وضربوا الحصار حولها بإقامة « كوردون جنزير » بحيث لا يستطيع أحد أن يخرج منه أو يدخل إليه ، وأطلقت النيران على من حاول الدخول وإن لم تصب ، إلا أن الخطة كانت تسير وفق التعليمات ، وأعلن ظاهرياً أن هذه القوة المسلحة هي لحماية الخديو .

واستدعى توفيق قائد الفرقة المحاصرة وأفهمه أنه حاكم البلاد ، فأجابه أنه غير مسئول إلا لدى ناظر الجهادية ، وأن مرجع أمره إليه ولا يعرف رئيساً غيره ، وبعد أن أتم القائد جوابه أخذ يتهياً للهجوم ، فأعد الشاة وأمرهم بالانتظام حول السراي ، وجعل الفرسان وراءهم وشرع في الحصار فتأهب من في السراي للدفاع عنها .

وتمكن الخديو بطرقه المختلفة من استمالة محمد منيب القائد المحاصر فأنعم عليه برفع رتبته إلى أميرالاي ، وأنعم على الفرسان من جنده بشهرين « فأقسم للخديو أن يفتديه بنفسه ، وقال إنه كان مأموراً بإحراق السراي وقتل من فيها »(٢) .

تم ذلك بعد أن كان الثائرون قد أضرموا النار في جزء من السراي وعلى الفور قام الجنود الإنجليز بوقف سيرها . هذا في الوقت الذي أرسل فيه توفيق كل من سلطان وحسن الشريعي وسليمان أباظة وياوره وياور درويش إلى عرابي لمعرفة أسباب ذلك ووقفه ، وطال الحديث بين راغب وسلطان وبين عرابي ، فهم يترجونه ويلحون عليه في العدول وهو متمنع ورافض ، وفي البداية أبان أن هذا الحصار للتحفظ ، ثم أظهر أن الأمة غير راضية عن الخديو وتخشى من نزوله للأسطول الإنجليزي ، وتكرر الرجاء فيقول ياور توفيق « فصرنا ماشين خلفه وكلما يتقدم أبو سلطان لأجل أن يتكلم معه ، وبالفعل يتكلم فلا كان يلتفت له ولا يصفى لما يقوله »(٣) ، لكن انتهى الأمر بموافقة عرابي وأرسل معهم طلبة عصمت « لصرف العسكر » .

(١) المصدر نفسه ، محفوظة ٢٠ ، المجموعة ٢٥/٣١ ، رقم ١٣٥ ، ١٨ يوليو ١٨٨٢ .

(٢) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، ج ٥ ، ص ٧٤ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفوظة ١٨ ، دوسيه ٧١ .

وينفى عرابى أن ذلك كان بتخطيط قادة الثورة لإسقاط نظام توفيق ، وأعل أن عندما علم بالحصار أمر بفكه ، لكن كل الشواهد والدلائل تقدم الإثباتات العكسية ، ومن المستغرب أن سليمان أباطة الذى جاء ليتشفع ويترجى بفك الحصار كان يقول لعرابى « إن لم تحافظوا على الخديو وتقتلوه وإلا هرب إلى الأسطول الإنجليزى »(*) ، فواضح أن التراجع كان عاملاً قوياً للهزيمة ، وأيضاً التباطؤ عند التنفيذ ، والسماح بتدخل قوى أخرى فى برنامج معد وتغيير مساره ، والتقاعد وفقدان الجرأة القوية ، فبالرغم من شجاعة القادة فإنهم فى أحيان كثيرة كان التردد سمة ظاهرة على أعمالهم . وظهر ذلك جلياً فى هذه المسألة ، فلقد ردوا كثيراً الرغبة فى نجاح الثورة بدون إراقة نقطة دم واحدة ، هذا فى الوقت الذى لم يتعود فيه المصريون على مسألة الاغتيالات ، وحتى حينما فكروا فيها كاز الفشل يصاحبها ، كما يجب أن نضع فى الاعتبار أن النفوس الضعيفة التى خضعت للإغراءات قد أثرت فى مجرى الثورة ، وأخيراً فقد كانت وقفة الأسطول البريطانى تمكنه من إحباط الخطة .

قوى الثورة والحزب المعارض

ضرب الأسطول البريطانى الإسكندرية ، ورغم قصر المدة التى كافحت فيها ، فإن كفاحها كان شرفاً لها على الصفحات باعتراف أعدائها ، وحرقت من أجل إعاقه تقدم الإنجليز ريثما تتم الاستعدادات الكافية فى جنوب المدينة ، وفشلت محاولات إسقاط عرش توفيق لتجعله يرتضى أكثر وأكثر فى أحضان بريطانيا ، ولتكون النتيجة فى نهاية الأمر إنقسام مصر إلى حكومتين ، إحداها فى يد الثورة والأخرى فى يد أعدائها ، وكان الشعب بجميع قواه مع الثورة ، أما من لعبت بنفوسهم الضعيفة الخيانة ، فقد انضموا إلى المعسكر المضاد .

وأصدر الخديو أوامره التى وزعت على المديريات ، وتنفيذ بأن الصلح قد تم بين مصر وبريطانيا ، هذا فى الوقت الذى أرسل فيه عرابى إلى أنحاء مصر كلها ليبلغ موقف توفيق الخائن ، وأن البلاد تحت الأحكام العسكرية ، ويطلب اندامه على التجهيزات ، وتجهيز الطلبات العسكرية ، وأعطى الأمان لجميع سكان مصر . وعاد توفيق وكرر إنهاء حالة الحرب ، وتحميل عرابى مسئولية الاستمرار فيها وضرورة

(*) محمود فهمى ، المصدر المذكور ، ص ٢٢٣ .

وقف الأعمال العسكرية وطلب منه الحضور ، وكانت المباحثات تجرى بين رجال بريطانيا المسؤولين في مصر وبين توفيق ، ولم تكن أوامره تصدر إلا بناء على رغبة هؤلاء ، ومعروف أن جميع خطواته بناء على التعليمات الإنجليزية ، وكان الهدف من طلب عرابي الحضور لسراى الخديوى هو القبض عليه ، فيقول كارتريت إلى وزير خارجيته « إذا حضر فسيقبض عليه ، وإذا رفض فيعتبر عاصياً خارجاً عن القانون »^(١) ، وجاء رد عرابي معارضاً ، ورفض الحضور للخديوى بل وطلب النظارة ورئيسها أن يحضرا لمقر القيادة للمداولة .

ومما تجدر ملاحظته أن رئيس النظار الذى اختاره عرابي قد تحول عن الطريق الثورى ، بعد أن أملت عليه مصالحه الانضمام لأعداء الثورة واشترك مع الخديو فى أوامره ، ويكتب للأدميرال الإنجليزي عن مخالفة عرابي لأوامر توفيق ليبلغ حكومته ، ويعلن ضرورة عودة المهاجرين إلى الإسكندرية ، ووقف المساعدات العسكرية بحجة أن الصلح قد تم^(٢) .

المجلس الوطنى

رأى العسكريون أمام ضرورة إيجاد طريقة للوقوف أمام القوى المضادة . فاستقروا على عقد اجتماع بنظارة الداخلية يضم قوى الأمة المستتيرة من علماء وأعيان ورؤساء دينيين وذوات وكبار موظفى الدولة فى شكل جمعية أو مجلس وطنى تكون مهمته تقييم تصرفات توفيق التى بلغت مداها ضد الثورة ، والنظر فى مدى صلاحية تولية مثل هذا الوالى على الأمة الإسلامية ، وهل ما قام به يجوز شرعاً ، وأنه المنتسب فيما يفعله الإنجليز بمصر ، كذلك ليخرج من المجلس القرارات والتعليمات التى تسير مصر عليها أثناء فترة الحرب ، وتكون له السلطة الكاملة فى ذلك .

واجتمع المجلس فى ١٧ يوليو ١٨٨٢ وضم الأمراء - إبراهيم ، أحمد ، كامل أولاد عم توفيق - وشيخ الإسلام ، وقاضى قضاء مصر ، ومفتى الديار المصرية . وكبار العلماء ، والرؤساء الروحانيين للديانات ، وبعض أعضاء مجلس النواب ، ووكلاء النظارات ، والمديرين ، والقضاة ، والتجار ، والأعيان ، والعمد . حضروا بمحض إرادتهم وبدون أى ضغط عليهم ، فلم تحضرهم الأوامر ، ولم يتعرضوا لقوة

Egypt, No. 17 (1882), July 15, 1882 .

(١)

(٢) النوائى المصرية . عدد ١٥ يونيو ١٨٨٢ .

مسلحة تجبرهم ، فقوى الأمة حائقة على توفيق وأعوانه وسلوكه الشاذ تجاه مصر ، وهنا ثبت أن الثورة هي الأمة بأسرها التي يتزعمها عرابي ، ووفقاً للتقرير النمساوي « إن ذلك الاجتماع الذي عقد بالقاهرة وأيد عرابي يمثل الشعب وليس هناك أي برهان يدل على أن الخديو يمثل الشعب أكثر من تمثيل عرابي له »^(١) . وكان ذلك تطبيقاً لديمقراطية سليمة أرادها عرابي ، وهي في نفس الوقت تدعيماً لمركزه وقوته ، فقد وضع الأمة جميعها أمام المسؤولية المباشرة ، ولتكون الحاجز المنيع أمام مؤمرات القوى المضادة .

لقد جاءوا مصممين رافضين أوامر توفيق الخاصة بوقف التجهيزات العسكرية، وهنا نرى تلاحم القوى من أجل نداء الوطن ، ولم يكونوا بمفردهم في هذا الاجتماع ، بل كان ديوان الداخلية « غاصا بجماهير الناس »^(٢) ، حضروا ليشاركوا في الرفض وعدم الاستسلام ، وذلك لتكتمل دائرة القوى الاجتماعية ، وأثناء المداولة تركت الأبواب مفتوحة ليشاهد الجميع وليسمع من يريد ، ورأس الاجتماع حسين الدره ملى وكيل الداخلية ، وقرأ خطاب عرابي - حيث إنه لم يكن حاضراً لهذا الاجتماع - الخاص بالرأى في سلوك توفيق ، وعرضت الرسائل التي تبودلت بين توفيق وعرابي ، وخطب على الروبي وبين أفعال الإنجليز الشائنة . وأعقب ذلك قيام محمد عبده وتلاوته لأوراق تتضمن ضرورة استمرار التجهيزات ، وطلب عزل الخديو وأبان السبب بقوله « الخوف من كون الخديو يعمل مثل باي تونس ويكتب معاهدة بإعطاء مصر للإنجليز »^(٣) . فرد عليه الشيخ عlish ووقف في وسط المجلس وصاح الله أكبر ثلاث مرات « قد خلعناه يا قوم قد خلعناه ، الله أكبر على من طغى وتكبر ، فكثرت عند ذلك صياح العامة » ، فكان ذلك معناه التأييد التام ، وتبعه الشيخ العدوى بالموافقة ، إذ نهض وأعلن الحرب المقدسة ، وبين أنه وفقاً للشريعة الإسلامية من الحتمية عزله ، وتبعه بطريك الأقباط الذي ندد بتصرفات توفيق ، ووافق المجتمعون على أنه قد باع الوطن للأعداء ، وقرروا « توقيف أوامر الخديوي الذي خالف الشرع الشريف والقانون المنيف . وأن توفيقاً يكون خديوياً لمصر إذا كان معها ومع جيشها لا أن يكون مع الإنجليز وفي حماية أسطولهم، لذا فقد أصبح مقصياً عن سلطته » ، ورأوا إلزام عرابي وإناطته

(١) الأرشيف النمساوي ، محفوظة ١٧ ، رقم ٥٩ ، ١٧ أغسطس ١٨٨٢ .

(٢) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٣١٢ .

(٣) محافظ الثورة انمراية ، محفوظة ١٨ ، دوسيه ٥٣ .

بالمداخلة عن البلاد « وضرورة الاستمرار في الاستعدادات الحربية ما دامت العساكر الإنجليزية في الإسكندرية ومراكبهم في مياهاها » وطلبوا النظر من الإسكندرية للاستعلام منهم عن حقيقة ما تم قبل الحرب وما بعد ذلك لدراسة الموقف ، وأن تعين لجنة من ستة مندوبين من طرف المجلس ليتوجهوا إلى الإسكندرية لتبليغ قرار المجلس وإحضار النظر ، وقد انتخب لها على باشا مبارك ورؤوف باشا من الذوات وأحمد بك السيوفى والشيخ سعيد بك الشماخى من أعيان التجار ، والشيخ على نايل والشيخ أحمد كيوه من العلماء^(١) .

ذهب الوفد المختار إلى كفر الدوار وأجرى مباحثاته مع القيادة ، وكانت الرغبة في الصلح مع الإنجليز ممكنة على شرط الانسحاب ، لكن عرابيا عارض وبشدة أن يكون الصلح على أساس مذكرة مايو ، ولم ينته الأمر إلى إتفاق ، وحتى عند سفر الوفد للإسكندرية ، رفض توفيق والنظار الرجوع إلى القاهرة ، وهذا أمر طبيعي . كان من المفروض أن يجاب على ذلك الرفض بطريقة ثورية وعملية ، لكن لم يتخذ شيء سوى تقديم التماس للسلطان لوضع حد لتصرفات الخديو وتحرير ما تم في الاجتماع .

أعقب ذلك أن تكون مجلس عرقي وكل إليه إختصاص أعمال الحكومة ، كان على رأسه يعقوب سامى وكيل الجهادية ويطرس غالى وكيل الحقانية وحسين الدره ملى وكيل الداخلية ، وأحمد نشأت ناظرة الدائرة السنية ، « وكان عبارة عن جمهورية مؤقتة لحفظ نظام البلاد إلى أن تتشع سحب المصائب المتكاثفة على مصر »^(٢) ، ولقب عرابى « بحامى حى البلاد المصرية » ، واستمرت مصر تحت الأحكام العرفية العسكرية ، وصدرت الأوامر بعدم إرسال أخبار تلفرافية بالشفرة أو أخبار مبهومة العبارة من مصر لأوروبا وبالمثل الأخبار الواردة ، ومنع دخول الأجانب لمكاتب التلغراف ، وصدر قرار بمنع الصحف كافة من نشر أخبار أو أية نشرات تتعلق بالأحوال إلا بعد إقرار المجلس عليها ، وتقرر عدم الترخيص لأحد بالسفر من مصر إلى الخارج ما دامت الحرب قائمة ، وأصدر عدة قرارات بإجراء بعض انتقالات الإدارية وعزل المديرين الذين اشتبهت الحكومة فى إخلاصهم ، وبذلك سقطت سلطة الحاكم الشرعى ، وأصبحت الأمة جميعها فى جانب ، والخديو ومن

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١ ، دوسيه ٨ ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٨ ، محفظة ٨ ، دوسيه ١/٥٣ .
Commons, Vol. CCLXXIII, p. 370 . The Times, July 21, 1882 .

(٢) أحمد عرابى ، تقرير ، ص ٢٤ .

معه في جانب آخر ، وأضحى المصريون مجبرين على الخروج عن طورهم ، فطرحوا الهدوء ومضوا في طريق الثورة ، يدافعون عن حقهم الغالى في الاستقلال والحرية وإدارة بلادهم . وازداد استياء توفيق وخصوصاً بعد إجماع الأمة لمعارضة أوامره .

إذن لابد للخديو من أن يعمل على تحدى الثورة وعلى رأسها كبيرها وذلك بإسقاطه من قمته ، فأصدر أمره بعزل وطرده عرابى من النظارة ، ومعروف أن هذا الأمر صدر بناء على رغبة بريطانيا ، إذ عقب صدوره كلف جرانفيل دوفرين أن يطلب من الباب العالي « أن يؤيد السلطان الإقالة التى دبرها توفيق لعرابى بإقالة باسم السلطان لتقويتها »^(١) .

وكان عرابى مرابطاً في كفر الدوار وقت صدور قرار عزله الذى انتشر في الأرجاء ، ولم يلق استحساناً من أحد إذ رفضه الجميع « وجاء الناس لعرابى طالبين بقاءه والاستمرار في الاستعداد ، وأخذت الهدايا تتوافد عليه من كل جانب »^(٢) .

وبالفعل استمر عرابى في الاستعدادات وأرسل إلى يعقوب سامى يطلب منه عقد المجلس الوطنى للنظر في أمر عزله . ويجتمع المجلس في ٢٩ يوليو للبت في قرار توفيق الذى أصدره مدعماً بالحق والكراهية لزعيم الأمة . وفى الاجتماع الذى جاء يفيض حيوية وثورية ، أوضحت الأمور واستعرضت تصرفات توفيق ، وكان الجميع ضدها وتم اتفاق المجتمعين واتحدت كلمتهم على أن « وجود العساكر في إسكندرية والمراكب الإنجليزية في السواحل المصرية ، ووقوف عرابى باشا في مدافعة العدو يقتضى وجود بقاء الباشا المشار إليه في نظارة الجهادية مداوماً على قيادة العساكر ، ورأينا وجوب توقيف أوامر الخديوى وما يصدر من نظارة الموجودين معه في إسكندرية كائنة ما كانت لأى جهة من الجهات ، وعدم تنفيذها حيث إن الخديو خرج عن قواعد الشرع الشريف والقانون المنيف ويلزم عرض قرارنا هذا على على الأعتاب العلية الشاهانية بواسطة وكلاء النظارات » ووقع الجميع على هذا القرار ، رجال الدين والأمراء والعلماء والتضادة والمفتى ووكلاء النظار وناظر الدائرة ، ومأمور الضبطية ومديرو المديريات والأعيان وعمد البلاد بحرى وقبلى والتجار^(٣) .

كان ما وصل إليه المجلس يكاد يقترب من قرار عزل توفيق ، إذ رأى البعض أنه إذا أقدم على ذلك رسمياً بقرار من الأمة في مثل تلك الظروف ، ربما يؤدي إلى

(١) الأرشيف النمساوى : محفوظة ٢٠ ، رقم ٣٣ ، ٢٤ يوليو ١٨٨٢ .

(٢) محمد عبده ، المصدر المذكور ، ص ١٩٨ .

(٣) محافظ الثورة العربية ، محفوظة ٢١ ، دوسيه ١٢٨ .

أضرابات ومصر في حالة حرب ، ولكن في الحقيقة كانت هذه الأحداث أنسب وقت لصدور القرار ، خاصة وأن الجميع كان يرى ضرورة ذلك ويرغب في تنفيذه ، ولم يكن وليد تلك اللحظة بل له ماضيه ، فالعسكريون يعانون ضرورة عزله ، والعلماء ينادون بحتمية إبعاده ، والأعيان لم تكف لحظة عن المطالبة بإقصائه .

ولم تصدر فتوى شرعية بعزل توفيق رغم إجابة الشيخ عليش وبقية العلماء على أنه لم يعد يصلح أن يكون والياً على المصريين ، لكن مع قرار المجلس الأخير اعتبر شبه معزول ، وأصبح التعاون وثيقاً بين قادة الثورة والمجلس .

الصراع وانتصار الثورة

مضت القوة المعاكسة للثورة تسير في طريقها لتحارب الأمة ، ومن سراى الخديوى خرجت المنشورات المضادة التي تبين أن القادة الإنجليز مأذونون من طرفه بإجراء الحركات العسكرية التي يرونها ، ويطلب توفيق الامتثال والطاعة لهم حيث ، إن أوامرهم « هي أوامرنا في الحقيقة »^(١) ، ولم يكتف بهذا ، بل ذهب بنفسه إلى خط الدفاع المصري بأبى قير ليثبط عزيمة المحاربين .

أعقب ذلك استقالة نظارة راغب ، وعليه نال مكافأته على انحرافه عن الثورة ووقوفه بجوار سيده ، وتم الأمر وفقاً للإرادة التي سعت في تشكيل نظارة جديدة تحل محل نظارة راغب ذات الميول الوطنية ، ومعروف أنه كان من أعضائها من لهم الميول الثورية ، هذا في الوقت الذي كان فيه شريف مرضياً عنه تمام الرضا من أعداء الثورة ، فكلف بتشكيل نظارته الرابعة في ٢٨ أغسطس التي كللت أعمالها بالترحيب بالإحتلال ، ووزع النظارات ، فهاد رياض ليتولى الداخلية ، وحيدر أعطى المالية وعمر لطفي استحوذ على الجهادية والبحرية وعلى مبارك أنيطت له الأشغال انعمومية ، ومنح الخديو نفسه حق دعوة مجلس النظار تحت رئاسته واعتبر نفسه الرئيس الأعلى للثوات المصرية البرية والبحرية^(٢) .

وأرسل توفيق إلى السلطان يطلب جنوداً من الترك والكرد والأرناءوط ، لاستخدامهم في البوليس والجندرية ، وذلك بعد أن فشل في استمالة رجال الأمن التابعين للثورة . واستدعى الضباط الشراكسة - وعلى رأسهم رفقي - الذين كانوا

(١) المصدر نفسه ، مجلدة ٨ ، درسيه ٥٣/د/٥ .

(٢) شاهد الخديو ، المصدر المذكور ، من ج ١ - ١٣٤ .

قد نفوا على يد الثورة ، ومن ثم استطاع أن يدعم جبهته الجديدة من جميع المعارضين للثورة الذين كان أملهم الوحيد القضاء عليها . وانتشر الطابور الخامس بين الطرفين ، وازداد نشاط الثورة ، وكثرت الاجتماعات وخاصة في منازل القادة ، وكان فيها التشجيع والتحميس قد بلغ أقصاه .

ومضت الثورة بعد أن جندت كل إمكاناتها في طريقها ، وأرادت أن تضيف الشرعية عليها ، بتختيم جميع قوى مصر على محاضر لإسقاط عرش توفيق ، وقد قام بذلك العمدة والمشايخ ، كما كان يحضر مندوبون من المديريات « يطلبون خلع الخديو ولا يمكن أن يقال أن عرابياً قد أجبرهم على ذلك »^(١) ، وجرى توقيع محضر عمومي للسلطان ، بلغ الموقعون عليه أكثر من عشرة آلاف وشمل طلب خلع الخديو لكونه غير أهل للولاية .

ومع ذلك لم يسقط توفيق ومضى في محاربته للثورة وقائدها ، حقيقة فقد أصبح عرابي حاكم مصر الأوحده ، ليس بجبروته ولا قوته ، ولكن بحب الناس إليه ، فالثقة تزداد فيه يوماً بعد يوم وبالتالي يزداد نفوذه ، وفي أثناء الحرب كان معسكره مركزاً لتجمع الشعب من أرض مصر كلها ، وأقر تلك الحقيقة الإنجليز أنفسهم ، فلم يكن له طموح شخصي يسعى إليه وإنما عمل بكل طاقته من أجل مصر وصالحها ، ومن هنا فاض هذا الحب المتدفق الذي ربط الشعب بعرابي ، فامتد إلى كل مصري ، وكانت الدعوات المتكررة « الله ينصرك يا عرابي » تتردد بين شفتي كل فرد ، بينما تنزل اللعنات على توفيق^(٢) .

وكان الوعي تاماً والتعبير صادقاً ، حيث ظهر عرابي أمام الجميع بأنه خادم المصريين والمدافع عنهم ، فهو الذي يقاوم الغزو الأجنبي على الأرض المصرية ، وهو صانع الحرية ، فعلم شعبه كيف تنتزع من الغاصبين ، وعلى أيديه برهنت الثورة أنها أصيلة ، وخرجت لتعبر عن أمانى الشعب الذي اختار قائده بمحض إرادته ، حتى الأعداء فقد شهدوا بذلك ، فهذا الضابط الإنجليزي الذي اشترك في حرب المصريين قال « لننظر إلى القضية من الناحية المصرية لا من الناحية الأوروبية ، فليس هناك شك في أن عرابياً تجسد لشعور وانسجام الوطنيين المصريين الذين

Blunt . Secret History of the English Occupation of Egypt , p.327 . (١)

Broadly , How We Defended Arabi And his Friends, pp. 173, 484 , 502 , 503 . (٢)

كانوا يحاربون من أجل إصلاح حالهم ، ومن أجل الضرائب الظالمة ، والقضاء غير العادل والسيطرة الأوربية على الأوضاع جميعها ^(١) .

وجميع الأوراق التي عُثر عليها الخاصة بعرايى تفيض بالتأييد له ، عرائض مقدمة وعليها مئات التوقيعات والأختام شملت قوى مصر تقوضه كل شيء ، وباختصار يمكن القول « إن مصر كلها كانت مع عرابي ، وأن عرابي هو رأس مصر كلها » ، حتى لقد بينت صحيفة الستاندرد بأن ذلك كفيلا بأن يتقلد الحكم ^(٢) .

حقيقة لقد أصبحت مصر هي الثورة ، فلم نجد على أرضها قوة لم تشترك فيها بكل ما تملك ، ما عدا عناصر خرجت منها لأنها دخلت فيها بناء على مصالح خاصة ، وحينما رأت أن مسار الثورة ضد مصالحها انعكست بعد أن استيقظ الشعب وفتحت عيونها على حقوقه .

المنهج الثوري في التطبيق :

(أ) محاولات التفاهم مع بريطانيا

لم تترك الثورة باباً إلا وطرقته من أجل مصلحة مصر حتى باب فتح المفاوضات مع بريطانيا ، لعلها تصل للطريق الذي تسلم منه من التدخل السافر ، وكان ذلك قبل أن تعلن الحرب بين الدولتين ، فرأت أن تتفاهم مع الدولة التي تخطط مصائر الأمم ، وعليه فإن قادة الثورة لم يختلفوا كثيراً عن قادة ثورة ١٩١٩ في إمكانية الوصول إلى اتفاق حول الأوضاع في مصر .

كان تقرب قادة الثورة لبلنت من بين الأدوات التي استخدموها ومنذ أواخر عام ١٨٨١ راح يكتب إلى جلادستون رئيس الوزراء الإنجليزي ليعطيه صورة عن حقيقة الثورة المصرية وقائدها والظروف الصعبة التي تمر بها مصر ، وتلك الرغبة الأكيدة في إيجاد حل عادل للمسألة المصرية .

ووضعت مجهودات بلنت في نقل برنامج الحزب الوطني وشرحه سواء لجلادستون أو بنشره على صفحات صحيفة التيمز ليصل إلى الرأي العام الأوربي ، ويوضح أهداف وأبعاد الثورة المصرية ، كذلك حمل إلى جلادستون خطابات عرابي الخاصة بالإصلاحات والمشروعات الثورية ولكنه لم يرد عليها ، وأبان أن الرد على

Ibid , pp. 435 , 436 .

(١)

(٢) الطوائف ، عدد ١١ شعبان ١٢٩٩ (١٨٨٢) .

ذلك سيتضح من مناقشات البرلمان^(١) ، فواضح أن جلاستون لم يكن يشجع هذا الاتجاه على الإطلاق .

وخطر على تفكير القائمين على الثورة تكوين وفد وإرساله إلى لندن لعرض القضية المصرية ، وأن يترأسه محمد عبده لما هو معروف عن شخصيته المتزنة واعتداله وهدوئه ، فيقول صابونجى إلى بلنت فى ١٩ يونيو « كنت أنا وعبده ونديم وسامى نتكلم أمس فى الوسائل السلمية التى يمكن اتخاذها لكى تعبر بها مصر أزمتها الحاضرة ، فقال عبده أنه كون رأيه على أن يجمع كل الوثائق الخاصة بالأحوال المصرية ، ويذهب بها ليعرضها على جلاستون والبرلمان الإنجليزى ، ويأخذ معه أحد أثرياء التجار وأحد من الأحرار يكون نائباً عن الفلاحين ، ووافق محمود سامى على هذه الفكرة وأبدى رغبته فى السفر هو الآخر لنفس هذه المهمة ، واستعد محمد عبده إلى هذه الرحلة ، ووجدت الموافقة من النديم والعقاد ذلك التاجر الذى له اعتباره فى الثروة والنفوذ والوطنية^(٢) ، وليس من المعروف لماذا لم تنفذ تلك الخطوة ، وما هى العوائق التى وقفت فى سبيلها ، ولكن من المرجح أن القائمين على الأمر من الإنجليز لم يسمحوا بذلك لأن هدفهم الاستحواذ على مصر .

أعقب ذلك الرغبة فى استقدام مندوب من قبل بريطانيا لرؤية الموقف على حقيقته وإمكانية وضع حل للمسألة ، فيقول صابونجى لبلنت « قُدمت لمحمود سامى عريضة من أعضاء الحزب الوطنى تطلب من جلاستون أن يرسل إلى مصر معتمداً يفهم أحوال بلادهم ، وقد وافق سامى على ذلك وقالوا أنهم سيوقعونها عندما يحضر عرابى للقاهرة ، وأنها ستقدم عن طريقك إلى جلاستون^(٣) .

وعندما رأى القادة أن تلك الخطوات غير مكلفة بالنجاح وتقام أمامها العقبات ، أعد عرابى خطاباً وأملاه على صابونجى بحضور القادة وطلب منه أن يترجمه ويرسله لبلنت الذى يسلمه إلى جلاستون وفيه تتأصل روح الثورة ، ولو أنه أنكره فى المحاكمة ، وذهبت بعض الآراء فى التشكيك بأنه من صنعه على أساس عدم ذكره فى مذكراته ، لكن مما يؤيد أن صاحبه قائد الثورة أن صحيفة معاصرة للأحداث ويوثق بها قد نشرته له فى حينه وهى الوطن التى تسجل أنه كتب فى ٢ يوليو ولم يصل إلى جلاستون إلا بعد أن ضربت الإسكندرية ، وليس لإنكاره ما يدل على نفيه .

يحمل الخطاب بين طياته الكرامة المصرية ، وقد كان تهديداً أكثر منه تفاوضاً

(١) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , pp. 169, 236, 237 .

(٢) Ibid , pp. 345 , 346

(٣)

Ibid , p. 344 .

(٢)

من زعيم أصغر دولة إلى زعيم أكبر دولة إذ يسطر « لقد أمرنا القرآن أن لا نثير
ثائرة حرب ولا نكون البادئين بها ، وأمرنا أيضاً بأن نعتدى على من اعتدى علينا .
وأن نقاوم المعتدى بكل سلاح وإلا صرنا كافرين ، فلتنتبهن إنجلترا بأنه عندما تطلق
أول قنبلة على مصر سيصير المصريون أحراراً من جميع قيود المعاهدات والعقود
والإتفاقات ، وأن المراقبة الثنائية والديون العمومية سيلغيان ، وأن أملاك الأجانب
ستصادر ، وأن الترع ستعطل والمواصلات ستقطع ، وأنا سنستخدم رجال الدين في
الحض على إثارة الجهاد إلى الحرب الدينية في سوريا وبلاد العرب والهند ، ومصر
تقع في طريق مكة والمدينة ، وجميع المسلمين يحتم عليهم دينهم تأمين الطريق إليهما ،
وقد ألفت مواعظ بهذا الصدد في مسجد دمشق . وحصل إتفاق بهذا الصدد أيضاً
مع جميع زعماء الدين في العالم الإسلامي ، فأكرر القول بأن أول قنبلة ترمى بها
مصر ستكون سبباً في سفك الدماء في آسيا وأفريقيا وأن تبعة ذلك كله ستقع على
كاهل إنجلترا ، وأن هناك وسائل إنسانية ، فإن مصر لا تزال قابلة بل راغبة في أن
تتفق مع إنجلترا وتصادقها أشد الصداقة ، وأن تحافظ على مصالحها وتؤمن
طريقها للهند ، وأن تكون حليفها ، ولكن على شريطة ألا تخرج عن حدودها ،
والخلاصة أنه يجب على إنجلترا أن تتأكد أننا مصممون على القتال وأن نموت
شهداء لبلادنا كما أمرنا بذلك نبينا أو نحوز النصر ونعيش مستقلين سعداء ،
ونحن في الحالين نستقبل السعادة ، والأمة التي أشرب قلبها هذا الإيمان ليس
لبسالتها حد » (١) .

وضربت الإسكندرية وانتهى أي أمل في حل القضية عن طريق السلام ، وقد
عدّ جلاستون عرابي « مغامراً حريباً » ، وبرغم معرفته جيداً أنه يتزعم المصريين
الذين هم أصحاب حق ولا يطالبون إلا بدستور الحرية . فإنه في نفس الوقت يبين
أن كرمويل ذلك القائد الكبير لم يعمل شيئاً من أجل الحريات في بريطانيا ،
ونابليين أعظم حاكم أسس حكمه على القوة لكنه لم يعط الحرية لفرنسا ، وبالتالي
فلن يعطيها عرابي لمصر (٢) .

وقد وصل الأمر أن جلاستون رفض الاقتراح الذي قدمه له ماليت بعد حادثة
الإسكندرية ويقول فيه « إن الأحوال متوترة بدرجة تستدعي حتماً ضرورة القيام
بعمل ما ، واقتترحت على الخديو أن يبادر جنابه العالي باستدعاء مجلس النواب
فيسألهم أن يعبروا عن رغبات البلاد ، ويحتمل في هذه الحالة أن يقدم المجلس

(١) الوطن ، عدد ٢٦ أغسطس ١٨٨٢ .

Commons, Vol. CCXXIII, August 16, 1882, pp. 1940, 1941 .

(٢)

للخديو دستوراً مرسوماً ، واعتقد أن الأمل في الحصول على دستور سوف يوحد بين الأعيان والحزب العسكرى ويؤدى في نفس الوقت إلى مصالحه واضحة مع الخديو «^(١) ، وحتى لو كان قبله كانت الثورة رفضته .

ووقف جلادستون عائقاً أمام أى رأى يمكن أن يستشم منه التأييد للثورة ، إذ كان هناك بعض من المؤيدين أمثال شارل ديلك الذى صرح بأن « حركة الأفكار الحاصلة في مصر تدل على رغبة أهلها في إقامة إدارة لبلادهم تجعل رجوع الاستبداد إليها محالاً ، فهم في هذا القبيل جديرون بالتأييد »^(٢) ، لكن عندما ظهر أن الثورة ستعصف بالمصالح البريطانية كان لابد من الإطاحة بها . وبذلك انتهت فكرة إيجاد مفاوضات مع تطور الأحداث السريعة والعدوان الإنجليزي على الثورة .

(ب) مواصلة البرنامج الثورى

أصبح شعار المقاومة حتى النهاية من سمات الثورة في الفترة الأخيرة ، وكانت جادة في ذلك ، فالإصرار والعزيمة كانا واضحين ، وقد ردد القائد « فليرسلوا لنا جيوشاً أوربية أو تركية أو حتى قوات هندية ، فإننى ما دمت على قيد الحياة سأدافع عن بلادى ، وحينما نموت جميعاً يمكن لهم أن يمتلكوا البلاد خطماً ، وحسبنا فخراً أن نموت من أجل أرضنا »^(٣) . والأوراق التى عثر عليها لدى الثوار تؤكد ضرورة الدفاع إلى آخر العمر .

وفي هذه الفترة شغل بال الثورة مسألة الديون تلك التى مثلت عبئاً ثقيلاً على مصر ولا ذنب لها فيها ، وكان التهديد بها واضحاً إذا اعتدى على مصر ، لكن لم ينفذ هذا التهديد ، ومن المحتمل أنه لو نجحت الثورة حتى النهاية لأمكن ذلك .

وخرج الفكر الثورى إلى إطار التنفيذ ، فبذور المساواة التى وجدت داخل الثورة ، والكرة التى استولى عليها تجاه الأثرياء ، بدأت تظهر بوادره « فإنه عندما صار الحديث عن هؤلاء الذوات الذين خرجوا من الإسكندرية عقب نذور الحرب وسافروا إلى أوروبا كان عرابى يرى أنه يلزم ضبط أموالهم لجانب الميرى »^(٤) ، إذن فمسألة مصادرة الأملاك وتأميمها لصالح الدولة أراد عرابى تنفيذها ، لكنه لم يقدم عليها

(١) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٧ ، رقم ٥٩ ، ١٧ أغسطس ١٨٨٢ .

(٢) مصر ، عدد ٩ في ٦ فبراير ١٨٨٢ .

(٣) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 327 .

(٤) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٢٠ ، ديسمبر ٢٠٣ .

بصورة واسعة في هذه الفترة الحرجة ، إذ أيقن أنه ربما يكون نذيراً لانقضاء ملاك الأراضي عنه ، وحينما وجد في خيانة سلطان فرصة لتحقيق ما يصبو إليه ، صدرت الأوامر بالحجز على أملاكه فتقول صحيفة الوقائع المصرية بعد أن شرحت موقفه من الخيانة مع أقاربه « لقد صار من الخائنين سلطان ، فصدرت أوامر الحكومة بالحجز على أملاكه وأمواله لتتفق في سبيل الدفاع عن الوطن لأنها من ثمرات كسب أهله المساكين ، وأسكن في بيته الكائر بالقاهرة ٤٠٠ مهاجر »^(١) ، وكانت الثورة جادة في التنفيذ ولم يقع ذلك عليه فقط ، بل على أقاربه الذين على مشربه ، ويقول أحمد شفيق « وأكد لي والدي أنه يوجد كشف بأسماء الذين لم يوافقوا على الحركة العرابية ولم يساعدوها ، فقد تقرر عند تمام النصر لهم أن يوزعوا أملاكهم على الزعماء والأنصار »^(٢) . وكان معنى ذلك ألا يكون هناك طبقة متسلطة بثرائها ، فنرى في إحدى أوراق محمود فهمي ما يشير إلى الرغبة في اجتثاث طبقة الذوات^(٣) .

وشجعت الصحافة ورددت أن المصريين أحق بتلك الأموال التي يقتنيها غيرهم « أصحاب الأموال والباشوات الأتراك الذين يزعمون أنهم فتحوا مصر وجعلون خيرها لأنفسهم لا للفلاح »^(٤) .

وعندما احتاجت السلطة العسكرية إلى إمدادات استولت على ما كان موجوداً « بالجفالك وبأراضي القومسيون والدوائر وأراضي الأورباوين » ، وعقب الثورة طالب شريف ولسطان وإلهامى وفيكتور باكوس وغيرهم من الدوائر والتفاتيح رد اثمان ما أخذ منهم من تبين وخيول وجمال وفحم وغللال^(٥) ، كما استاء وكيل فرنسا لما قام به الثوار إزاء ممتلكات الأجانب ، فأرسل يشكو إلى وزير خارجيته هذه الإجراءات^(٦) .

وبذلك يمكن القول أن الثورة نجحت في ذلك التصميم الذي سارت عليه وأرادت أن تحقق ما خططته لنفسها ، ولو أن الظروف، خدمتها ولم تحارب من جميع الجهات ، لأنها في النهاية تحقيق برنامجها الثوري

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٨٣ في ٩ سبتمبر ١٨٨٢ .

(٢) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ١٨٠ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨٤/ب .

(٤) المفيد ، عدد ٢٩ في ٣٠ يناير ١٨٨٢ .

(٥) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٢ ، دوسيه ١٧ ، ٢٢ .

Doc. Dip. F. Tom IV. No. 474, 25 Juillet, 1882, p. 449 .

(٦)

العسكريون في الميدان الحربي وعوامل الإنكسار:

المواجهة الحربية

وقفت السياسة الإنجليزية من الثورة موقف المعارضة ، وبذلت قصارى جهدها من أجل تحطيمها والقضاء عليها سواء بالرغبة في نفي قاداتها أو حل مجلس نوابها أو تسريح جيشها ، ولكنها فشلت أمام تصميم قوى الثورة التي تمكنت من فرض نفسها ، فرأت بريطانيا السيطرة على الموقف بتدعيم سلطة الخديوى ومساندته وخلق قوى مضادة للثورة ، وكان كل ما تسعى إليه التخلص من عرابي ، إذ اعتقدت أن انتصار هذا الزعيم وذيوع شهرته في مصر وخارجها سيجعل اسمها أضحوكة في الشرق وستتهار سمعتها ، وسيكون لذلك أثر على مصالحها الرأسمالية ، وأيضاً على حياة رعاياها في تلك المناطق .

بناء على ذلك وضعت مصالحها في كفة وعرابي في كفة ، بعد أن تأكدت أن مصر كلها تؤيده وأصبحت في قبضته ، وازداد قلقها بعد أن رضى عليه السلطان العثماني ومنحه الوسام المجيدى ، فرأت أنه لابد من التدخل الحربي واستعمال القوة لتجبر الثورة على الاستسلام .

منذ البداية وبريطانيا تعمل للانفراد بالتدخل في شئون مصر ، وقد ساعدتها الظروف في نهاية الأمر على التمكن من ذلك حيث انسحبت فرنسا من العمل المشترك الذي ميز الفترة السابقة ، كما أمكن لها أن تبعد الدولة العثمانية عن طريقها ، وضربت بكل الإتفاقات عرض الحائط ، ووجدت في الثورة فرصتها للسيطرة ووضع اليد على مفتاح طريقها إلى مستعمراتها ، واعتدت على الإسكندرية وضربتها بأسطولها ، وكان للعسكريين دورهم البطولى ، فكفأتهم وتضحياتهم فاقت كل وصف ، فقاموا بواجبهم خير قيام ، إذ لم تكن الحرب في نظرهم إلا تخلصاً من رق العبودية التي رزحوا تحتها فترات طويلة ، ويذكر كرومر : إن جنود عرابي كانت قوة وطنية من أبناء تلك الأرض التي تعمل على التخلص من العدو الأجنبي ، وكانوا يحاربون بامتنياز ومهارة تحت تلك الظروف المحلية التي يعيشونها (*) .

حقيقة فقد تمثلت فيهم الوطنية الصادقة وملأتهم الشجاعة والبسالة في الدفاع عن أرضهم ، وكان لرجال المدفعية دور بطولى « هؤلاء الجنود الذين كانوا

Cromer . op. cit., Vol. II, p. 473 .

(*)

أمام مدافعهم وهى مكشوفة فى العراء لا يخشون الموت الذى كان محاصلاً بهم حيث لم يكن هناك ما يقيهم من دروع ولا متاريس ، ومع ذلك فهؤلاء الشجعان من أبناء النيل كانوا فى وسط الدخان الكثيف كأنهم أرواح الأبطال الذين سقطوا فى حومة الوغى ، ثم بعثوا من جديد ليكافحوا العدو ويستهدفون النيران مدافعة ^(١) .

ولم تقتصر تلك البطولة على الاعترافات الداخلية . بل ترددت أخبارها فى العالم ، فعلى صفحات الصحف الخارجية كانت تسجل سطور البطولة للقوات المصرية وتُثنى على روح الشجاعة المتأصلة فيها ^(٢) . وانسحب العسكريون إلى كفر الدوار تنفيذاً للخطة ، واتخذت مركزاً للجيش ، ورغم الإمدادات التى كانت تصل للإنجليز فى الإسكندرية ، فإن كفاءتهم لم تعطهم الفرصة للانتصار فى الميدان الغربى ، إذ فشلوا فى اجتياز الاستحكامات التى كانت من المنعة قل أن يمكن التغلب عليها .

كانت الانتصارات التى حصلت عليها القوات المصرية فى الميدان الغربى من ناحية ، وتلك الدعاية التى سرت على أرض مصر من ناحية أخرى ، جعلت هناك أصداً خارجية ، فتقول صحيفة كوسنبورج فى ٢٧ يوليو ١٨٨٢ « قد تبين أن شجاعة المصريين وثباتهم أمام الإنجليز فى المناوشتين الأوليتين ، عكسا الفكر على من يزعم من الأمة الإنجليزية أن المصريين يفرون ويتركون مراكزهم لأول نظرة يرون بها جيش الإنجليز ، وأن عرابى باشا يترك البلاد لهم بمجرد توجيههم إلى مصر . وحقق للناس أجمع أن هذا الزعم خطأ فاحش ووهم فاسد » ^(٣) .

أثرت الدعاية الواسعة للثورة تأثيراً كبيراً على سير الأحداث . ومنذ البداية كان لابد منها ، فقد كان خط الانتصار عالياً ، فأراد الجهاز الثورى إشعال حماسة المحاربين داخل أرض المعركة ، وإرضاء نفسية الشعب الذى هو مع الثورة بكل إمكاناته ، إذن لابد أن تدوى الانتصارات وتتردد فى كل شارع وفى كل بيت ، وحتى برقيات القادة وخاصة عرابى إلى المديرين والرؤساء تفيض بالانتصارات وهزيمة الأعداء التى كانت دائماً « تبديد وتشيت » ، وانيزم الجميع وولوا الفرار ، « وتقهقروا على أعقابهم خاسرين من شر ما أصابهم » ، « وتركوا فى مواقعهم

Ninet, Origin of the National Party in Egypt , p. 167

(١)

(٢) الأرشيف النمساوى ، محفوظة ٢٠ . المجموعة ٢٦/٣١ ، رقم ٥٩ ب . ١٣ يوليو ١٨٨٢

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٧٤ فى ٢٤ أغسطس ١٨٨٢ .

(تسجل الأعداء) ما بين قتيل وجريح ، « واغتتمت عساكرنا منهم مهمات حربية » ، « وأصوات طوبجتنا مرتفعة بالتكبير والتهليل » .

وانتقلت الحرب إلى الميدان الشرقي ، ولم يكن صد التقدم الإنجليزي في الميدان الغربي هو الحافز على ذلك وحده ، إنما هناك تخطيط إنجليزي قد وضع يقضى بإحتلال مصر بواسطة غزو يتم عن طريق قناة السويس .

وكان على القادة أن يلتفتوا إلى ذلك منذ بداية الاستعداد لخوض الحرب ، وفي الوقت الذي أخذ فيه الإنجليز يعدون أنفسهم للدخول في هذا الميدان من نقل المعدات الحربية والإمدادات ، أرسل سيمور إلى توفيق يطلب منه إصدار التحذيرات للعسكريين « بعدم إطاعة أوامر عرابي وأن يعودوا إلى أوطانهم ، وأن الإنجليز قصدهم حمايته وأهالي القطر من العصاة »^(١) ، ولكن لم يطع أحد ، إذ التهب المصريون ثورة وغضباً على المعتدين .

وعندما أيقن القادة إمكانية الغزو عن طريق قناة السويس ، أجريت الاتصالات مع ديلسبس ، وجاء الرد من باريس ليفيد « بذلك التعهد العظيم المتفق عليه العالم بتمامه ، وهو حياد القنال وحفظها ومراعاتها واحترامها ، وهذا الإتفاق يمنع كل أمر حربي يحصل فيه وهو من الواجبات التي هي أساس الالتزام للقومبانية »^(٢) ، ومن هنا أكد ديلسبس حياد القناة ، ولم يطمئن عرابي لذلك فأرسل إليه يبلغه « أن مصر مستعدة لأن تزيل القنال من الوجود لكي تدفع الأعمال الحربية »^(٣) ، ويؤكد الرد حياد القناة ، بل ونرى ديلسبس يحضر للقاهرة لمقابلة عرابي ويقسم على أنه سيقوم بحراسة القناة وسيكفل حيادها التام^(٤) . وانساق القادة وراء الوعود والعهود ، حيث يبين لنا نينيه أن « عرابي ومحمود فهمي رفضا عمل ذلك إلا إذا أتى الجيش البريطاني بعمل عدائي من ذلك الجانب ، وكان قد أعد كل شيء من الرجال والأجهزة لتدمير القناة في ليلة واحدة بأمر المجلس »^(٥) .

وجاء العمل العدائي من جانب بريطانيا ، فقد صرحت وزارة جلاستون لقائدها البحري في بورسعيد بأن يحتل من أجزاء القناة ما يراه ضرورياً ، ورفضت المناقشة مع شركة قناة السويس ، وبينت أن القوات الإنجليزية تعمل في القناة

(١) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٤١ ، دوسيه ٤ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٢ ، دوسيه ٢٨ .

(٣) المصدر نفسه ، دوسيه ٣٠ .

(٤) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ١٨٩ .

Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 579 .

(٥)

بموافقة الخديوى وباسمه لا باسم الحكومة الإنجليزية ، وأن الخديو صاحب الحق الشرعى فى مصر والقناة .

وبناء على طلب لندن ، فوض توفيق القائد البريطانى سلطة إحتلال نقط القناة التى يرى فيها لزوماً « وقمع كل قوة لا تخضع لسلطة الخديوى ، واتخاذ الخطوات لحرمان الثوريين من استعمال خطوط السكك الحديدية ما بين الإسماعيلية والسويس »^(١) ، وتبع ذلك الاستيلاء على السويس باسم الخديوى وقطع الخطوط التلغرافية ، ومنع مرور سفن الدول ، ثم الاستيلاء على القنطرة والإسماعيلية ، وأصبحت مدن القناة تحت أيدى القوات الإنجليزية ، ورفع عليها العلم الإنجليزى باسم الخديوى ، وألصقت الإعلانات بالزام السكون وإطاعة الأوامر ، كما بينت أن الإنجليز لم يحتلوا القناة وأنهم جاءوا لإعادة سلطة الخديوى والإبقاء على مركز السلطان .

هذا فى الوقت الذى توافدت على القناة الإمدادات للإنجليز ، فاستولوا على التربة بين الإسماعيلية والسويس ، واحتلوا نفيسة والمسخوطة ووقع محمود فهمى فى أسرهم ، وتلا ذلك استيلاؤهم على المحسمة والقصاصين . وفى تلك المناطق كان الضغط قوياً من الإنجليز ، لكن المصريين استماتوا فى الدفاع ، وتشيد التقارير الأجنبية بتفوق المدفعية المصرية ، فيقول أحدها « ونشطت المدفعية فى مبارزة حامية وكانت مدفعية العصاة عظيمة جداً »^(٢) .

وتصدد كفاح الجانب المصرى ، وفى الوقت نفسه ، إزدادت المحبة الصادقة للقائد الذى انتقل من كفر الدوار إلى التل الكبير ، وعلى طول تلك المسافة وجد التأييد من قوى الشعب التى استقبلته فى كل محطة طالبة النصر « الله ينصرك يا عرابى ، يا مولانا يا عزيز إهلك عسكر الإنجليز ، يا محنى ديل العصفورة وجيوشنا هى المنصورة » ، وكانت الثقة فى النصر متناهية والعمل من أجله واضحاً ، فيذكر نائب قنصل النمسا « إن المقاومة تشدد ضد الإنجليز وتكلفهم غالباً أكثر مما يتوقعوا ، كذلك لا يمكن إنكار الحقيقة ، وهى أنهم حتى اليوم لم يتقدموا عن مواقعهم التى وصلوا إليها فى يوم ٢٧ أغسطس خطوة إلى الأمام رغم الذهب الذى كان ينشره سلطان »^(٣) .

Egypt, No. 17 (1882), No. 587, F.O. August 7, 1882 .

(١)

(٢) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٧ ، المجموعة ٢١/٢٧ ، ملحق بتقرير رقم ١٧٣ سياسى ، ٢٠ أغسطس ١٨٨٢ .

(٣) المصدر نفسه .

ولعبت الخيانة دورها في إذكاء روح الضعفاء ، وعند محاولة استرداد القصاصين كانت معركة كبيرة جرح فيها راشد حسنى وعلى فهمى ، وفقد الإنجليز كثيراً من رجالهم ، وفشل التخطيط الذى وضعه قادة الثورة فى تطبيق الإنجليز عن طريق الصالحية بقيادة البارودى ، إذ بُلّغت الخطة للإنجليز عن طريق أحد الأميرالايات الخونة وهو « على خنفس » ، وأضل البدو الطريق للمصريين وأناروه للإنجليز ، لتأتى بداية النهاية ، وتختتم صفحات الحرب فى التل الكبير التى لم تكن معدة الإعداد الكافى للحرب من استحکامات وغيره ، كما أن أبرز القادة كانوا إما أن أسروا أو جرحوا ، والباقى إما فى كفر الدوار أو دمياط . وفى حدود الإمكانيات الموجودة كان الدفاع محدوداً ، لكنه مستميتاً نتج عنه استشهاد البعض ، وقد وصف شجاعة العسكريين فى تلك المعركة تقرير نمساوى يقول « دافع فى بدايتها المصريون دفاع الأبطال ، وكان لذلك دلائل واضحة على أن التهيج الوطنى قوبل بحماس زائد وبشجاعة شخصية من القوات المصرية المحاربة » ويتابع كلامه عن المدفعية المصرية ، فيسجل « المدفعية التى استعملت سلاحها بكل دقة ومهارة متقنة النظير معطية لبقية القوات القدوة الطيبة على غير ما كان ينتظر حتى ليكاد الإنسان يكذب عينيه » (*) . .

ونجح الإنجليز فى إصدار منشور عصيان عرابى من السلطان العثمانى ، فوزعت منه نسخ كثيرة على ضباط الجيش بواسطة سلطان ، وشكل ضربة قوية للثورة التى كانت مرتبطة بالإطار الدينى القوى ، وانتهى الأمر بأن خسر المصريون فى التل الكبير كل شيء وضاعت بل وسحقت كل الآمال .

ولم تستسلم بقية المواقع بسهولة ، فحصن جميلة - الذى يقع من بورسعيد على بعد بضع ساعات ويفصل ساحل المتوسط عن بحيرة المنزلة - استمرت مقاومتها ، فكان يمدّه « محمد أبو العطا أحد المتحمسين الموالين لعرابى » بالسلاح ، ومضت مقاومتها حتى سقط فى آخر الأمر .

وجاء دور عبد العال حلمى ، فرفض الاستسلام مصرراً على المقاومة ، وكانت تحت قيادته ثلاث آلاف من القوات ، فبارح دمياط وتحصن فى قرية كفر البطيخ ، وقد ضببطت الخطابات التى أرسلها إلى كفر الدوار والتى تفيض بروح البطولة والإصرار على المقاومة « وإنه من الحزم التحصين وعدم اللين للعدو والمدافعة لآخر رفق فى الحياة » ، ووصل به الأمر أنه حمل على الاعتقاد بأن عرابياً لم يزل بجيشه ثابتاً أمام قوة الإنجليز ، وأنه لابد من القتال والدفاع عن الوطن إلى الفناء ، وانهاالت

(*) المصدر نفسه ، رقم ٢٢ سياسى ، ١٨ سبتمبر ١٨٨٢ .

عليه الأوامر من توفيق ومن نائبه سلطان ، ووجهت إليه الإنذارات بضرورة التسليم وتحمله مسئولية العصيان ، وهو صامت ويرفض الرد ويقاوم ، واستمر على موقفه حتى ٢١ سبتمبر حين « اعتزمت الحكومة القبض عليه وإعدامه رمياً بالرصاص فسلم نفسه »^(١) .

وفى المنوفية كان محمد يوسف ومعه أربعة عشر ضابطاً وصف ضباط ، امتنعوا عن تسليم أسلحتهم وعارضوا الأوامر ، وحينما ضيق عليهم الخناق صاح اليوزباشى « لا أسلم سلاحى إلا على يد عرابى باشا » .

ورفضت حامية كفر الدوار الاستسلام للإنجليز ، ورأت أن تستسلم للخدو ، ولكن الأخير أعلن أنه لا يوافق على ذلك « فنبذت القوة الاستسلام الرسمى وهجرت خنادقها وتشتت فى كل اتجاه لدرجة أن الإنجليز عندما تقدموا إلى كفر الدوار وجدوا كل البنادق والماكينات ملقاة على الأرض وليس بينها متمرّد واحد »^(٢) .

ورأى القادة استمرار المقاومة ولو اضطر الأمر للإنسحاب إلى الصعيد أو حتى السودان وإدارة دفة الحرب من هناك ، وإغراق أراضى الشرقية والقلوبية لمنع تقدم الإنجليز ، والاستيلاء على جميع المراكب وشحنها ذخيرة وتعيينات إلى الصعيد . وانعقد المجلس الوطنى فى ١٣ سبتمبر وعرض الأمر لإتخاذ قرار ، فاختلقت الآراء « وعلت الضوضاء وكثر اللفظ بين سائب القوم وموجب إلى أن أسكتهم البرنس إبراهيم بأن قام فى المجلس خطيباً وبرهن على وجوب الدفاع عن الوطن ، وقال إن مصر غاصة بالجند ومخازن الجهادية ملأى بالمؤن والذخائر والأسلحة ، ومعدات الدفاع متوفرة فأجابه الجميع بالاستحسان »^(٣) .

واستقر رأى على إنشاء خط دفاعى فى ضواحي القاهرة ، وتوجه عرابى إلى العباسية ومعه المهندسين والضباط لاختيار الموقع الملائم ، إذ كان مصمماً على استمرار المقاومة . ولكن عادت المناقشات البيزنطية مرة أخرى ، وأخيراً رأى أن الوقت قد انتهى لإعداد الدفاع ، واستقر رأى على رفع عريضة لتوفيق بالاستسلام ، وأرسلت مع وفد برئاسة على الروبى ، ثم بُعث بعريضة أخرى مع النديم ، فسجن الوفد الأول ، أما الثانى فقد ولى الأدبار .

(١) المصدر نفسه ، رقم ٢٧/٢١ ، ٢٣ سبتمبر ١٨٨٢ ، محافظ الثورة المرابية ، محفظة ١٢ ، دوسيه ١/٢٠٢ ، ب .

(٢) المصدر نفسه ، رقم ١٧٦ سياسى ، ١٨ سبتمبر ١٨٨٢ ، محافظ الثورة المرابية ، محفظة ١٦ ، دوسيه ١/٣٧٥ ، ب .

(٣) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، ج ٥ ، ص ٢٥١ .

وبدا الإنجليز يصلون أفواجا إلى العباسية ، وخرج إليها القاهريون من باب الشعرية والحسينية والدرب الأحمر بالعصى والهاوى^(١) ، ولكن قضى على تلك الحركة في الحال على أيدي السلطات المصرية الجديدة ، وكانت البداية لخضوع مصر للإحتلال الإنجليزي .

عوامل الانكسار:

(أ) البدو وأصحاب الخيانت

عندما تازمت الأمور بين توفيق والثورة عقب - مسألة الشراكسة - رأى أن يعتمد على قوة داخلية تساعده في موقفه المضاد منها ، ووجد في البدو خير من يقوم بهذا الدور ، وعن طريق مدير البحيرة أمكنه شراء بعض القبائل القاطنة في تلك المنطقة ، وقد أنفق في هذا السبيل عشرين ألف جنيه حصلت « قبائل أولاد على » على أكثرها ، وأمكن استحضار ثلاثة آلاف من أفرادها للإسكندرية . وفي أثناء الفترة التي كانت فيها مصر بغير نظارة إزداد وجودهم « حتى كان يخيل للزائرين أن سراية الإسماعيلية مجتمع العريان »^(٢) ، ولم يكن يخلو القصر من تردد مشايخ البدو الذين كانوا يؤكدون ولاءهم ، وأقسموا للخديو أنهم لا يعرفون سيدياً للبلاد غيره .

وتقرب منهم عمر لطفى واستطاع أن يقنعهم « للقيام بالاضطرابات » وفي يوم حادثة الإسكندرية كان يرافق البعض منهم أثناء تجوله ، لدرجة أن أحدهم سأله عن قتل أوربي فوافقه ، وعقب ذلك مكثوا بالإسكندرية ، وأصبحوا يكونون ما عرف لدى الثوار « من ضمن حزب الخديوى » وكثر عددهم وخاصة في منطقة الرمل^(٣) . كما كان لهم الدور في إذكاء حريق الإسكندرية ونهبها ، كذلك تعرضوا للمهاجرين السكندريين ، وعندما أيقن عرابي ذلك أصدر الأمر بإطلاق النيران على بعضهم ، حيث كان منهم من هجم على العزب الواقعة بطريق دمنهور ، وقد ثبت أن مدير البحيرة له يد في هذا الأمر ، فطلب عرابي من المجلس العرفي تغييره في الحال ، وأرسلت القوات إلى المديرية « لحفظ البلاد وردع هؤلاء العريان الأشقياء »^(٤) . وكان توفيق وراء هذه العملية ، والهدف تفريق العسكريين وتشتيت قواهم بين الحرب الخارجية والداخلية .

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٥٢ . (٢) أحمد عرابي ، تقرير ، ص ١٢ .

(٣) محافظ الثورة العربية ، محفظة ١٧ ، دوسيه ١٧/٤٠٨ .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ١ ، دوسيه ٦ .

وحتى هؤلاء البدو الذين ذهبوا للإشتراك في الحرب مع الثورة لم يكونوا جميعهم على درجة من الإخلاص ، ففي برقية من عرابي إلى وكيل الجهادية تفيد بأن « عربان العباددة والمعازة الذين استسلموا النوق من الجيزة والقليوبية وبنى سويف ، فيصير مخابرة المديريات المذكورة بضبط أولئك العربان وإجراء اللازم » ، كما أن « عرب الحويطات » الذين صرف لهم خمسة آلاف بندقية هربوا بها ، ويؤكد عرابي على راشد حسنى بضبطهم وأخذ السلاح الميرى منهم ، هذا في الوقت الذي كان فيه قادة الثورة على يقين بما يدبره البدو ضدهم ، فنرى عرابي ينبه « أخذ الاحتياطات من العربان وقطع خط مواصلة تلغراف رأس التين » ، وتم القبض على كثير من « عرب الهنادى والحرايى الجارين إشاعات وأراجيف ضد الحالة الراهنة وأنهما مفسدان في الأرض »^(١) .

وعرب الهنادى تأسس وجودهم على يد شيخهم محمود سلطان في عصر محمد على ، ومن هنا كان واضحاً عليهم تأثير سلطان الذي أصبح في قبضة مالىة يحركه كيفما شاء ، فوضع نفسه في خدمة معارضى الثورة ، وأصبح الواسطة بين البدو والخديو الذى مضى فى التقرب إليهم .

وراح سلطان يكاتب مشايخ العرب ويمنيهم بالرتب والأوسمة على أن يبذلوا الطاعة للخديو والإنجليز وينبذوا طاعة الثوار ، وسار على طريقة معينة اتصف بها وهى إحياء العداء والغيرة بينهم كبدا وبين الفلاحين ، وذلك متأصل لديهم ، وأفهمهم أن توفيقا هو الحاكم الشرعى للبلاد وعرابيا ليس له أى صفة ، وأكثر من الذهب الذى ملأ به جيوبهم^(٢) .

وكانت مسألة الذهب هذه من ابتداء توفيق ، ووجدت الموافقة والتأييد من الإنجليز ، فدعوا سلطان إلى الميدان الشرقى ، وكما ذكر تقرير نمساوى « لممارسة الحرب على الطريقة القديمة التى عرفت عن فيليب المقدونى من رشوة البدو المشاكسين المستعدين دائماً للارتشاء بالذهب لسحب القبائل من صفوف عرابي »^(٣) .

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٣ ، ٨ ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٠٣/ب ، محفظة ٤١ ، دوسيه ٢ .

(٢) Biovès , op. cit., p. 276 .

(٣) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٧ ، رقم ١٣١ سياسى ، ١١ سبتمبر ١٨٨٢ .

وتم الإتفاق ومنح سلطان حق التصرف فى كل شىء بناء على تعيينه مندوباً لتوفيق ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح هناك بدو مقيدين بقلم الاستعلامات الإنجليزى ، وقد أيقن سلطان أن توزيع النقود باسم الإنجليز لن يفيد ، وهو يعلم مقدار سلطتها على النفوس ، فأخذ فى توزيعها باسم الخديوى والسلطان .

وحاولت الثورة ضرب قوة سلطان والقضاء على نشاطه الواسع ، لكنها لم تتمكن إلا فى حدود ، فقد هرب وكيله من المنيا ومعه أفراد لمحاربة الثورة فى هذه المنطقة ، وبذل المديرون جهوداً من أجل ضبطهم وأودعوا فى السجن وأحيلت جنائياتهم على المجلس العسكرى ، بينما ضبط البعض الآخر من أتباعه ومعهم خطابات لمشايخ العربان « بقصد الدسياسة والقضاء المفسد » ، وضبطت عدة منشورات فى داخل المعسكرات للبدو تحرضهم على ترك المعركة « وإن عساكر الإنجليز الموجودة بجهتى إسكندرية والسويس ثلاثون ألفاً ، وأن هذه القوة الجسيمة موجهة لمقاومة عرابى باشا » ، وأخذ فى الاستعداد بعد أن تردد أن سلطان سيدخل مع الإنجليز « عن طريق البحر بالوجه القبلى »^(١) .

وفى مذكرات سلطان التى كتبها إلى توفيق ما يؤكد دقة التخطيط لإلحاق الهزيمة بالثوار فى التل الكبير ، واعتمد فى ذلك على سعود الطحاوى شيخ عرب الهنادى ومحمد صالح الحوت المقيمين بجهة الصالحية ، فأرسل إليهما « بحضورهم يصير استعمالهم فى استمالة العربان وخلافه »^(٢) . كذلك رأى توقيف الإمدادات للثوار ، فأرسل البدو ، وبعض التجار الأجانب - بعد الوعد بالمكافأة - إلى مديرى وأعيان المنيا وأسيوط وجرجا وقتنا وإسنا لمنع تقديم أية مساعدة للثوار فى حريهم .

وكان للطحاوى دور كبير فى ضرب الثورة ، ولم تكن هذه المرة هى أولى إتصالاته بالمعسكر المضاد ، فقد سبق واتصل به « بالمر » الجاسوس الإنجليزى وكانت هذه الإتصالات سرية لا يعلم بها أحد . ومما يؤسف له أن هذا البدوى كان أحد ثقة عرابى ، وللتمويه كان « يخبر عرابى ببعض حركات العدو على وجه الصدق وعرابى يفضى له بجميع ما عنده »^(٣) ، وبالتالي ينقلها للإنجليز ، وبعد إعطاء الثقة

(١) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٢/د/٢ ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٧٦/ب ، محفظة ٢٢ ، دوسيه ٢٢ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٤١ ، دوسيه ٢ .

(٣) محمد عبيد ، المصدر المذكور ، ص ٢٠٢ .

له والاعتماد عليه أضل هو ورجاله البارودي في تحركه تجاه الصالحية للهجوم على ميمنة الإنجليز ، وما لبث الأمر أن دخلت القوات الإنجليزية « وأمامهم عربان الهنادى يرشدونهم إلى الطريق » ، وأمام ذلك انسحب الببدو الباقون الذين كانوا يشكلون طلائع الجيش .

واستمر سلطان ولم يكتف بما تم على يديه ، وإنما أكمل طريق الغدر والخيانة حتى النهاية ، وقد ساعده توفيق الذى كان سلطان نائباً عنه وممثلاً له ، فعقب دخول الإنجليز القاهرة أخبر ماليت توفيق هذا النبأ ، فأرسل على الفور لسلطان ليتوجه للقاهرة ليكون عنه نائباً . وبذلك أطلقت يد سلطان فى التصرف ، وتاقت نفسه للاستبداد ، فأمر بالقبض على الكثيرين ، وسجن الضباط والعلماء والتجار والأعيان ، وأمام ذلك كوفئ ، فأنعى عليه بالوسام المجيدى الأول ، وب عشرة آلاف جنيه مصرى . أما الإنجليز فمنحوه وسام سان جورج وسان ميشيل « وذهب به السير ماليت وسلمه له »^(١) . هذا هو سلطان الذى تلونت سياسته بمرور الأيام ، وأضحت مصلحته فوق كل شيء حتى أنه باع وطنه من أجل جنيهاات ليس محتاجاً لها ، وفى أواخر أيامه أيقن أن ما قام به من أجل العظمة والجاه والشهرة والمنصب لم يكن من نصيبه بعد كل ما فعل ، فندم بعد أن سجل له التاريخ أسوأ الصفحات .

لم يكن سلطان وحده فى ميدان الخيانة ، حقيقة لقد كان له الدور الرئيسى ، إلا أنه وجد بجواره من عمل على شاكلته فى نفس الاتجاه ، فهناك على مبارك وعمر لطفى اللذان قدما المساعدة للإنجليز لدرجة أنهما انتقلا إلى بورسعيد من أجل « تغيير أفكار الأهالى ومطابقتها لأفكار العدو »^(٢) . وقبل الانتقال أرسل على مبارك « مكاتيبه إلى عربان نواحي الشرقية بشأن ترك الحركات العسكرية » وفى ٣٠ أغسطس ضبط رجال الثورة خطاباً منه إلى شيخ المطرية يبين له بأن الإنجليز سيرسلون قواتهم إلى بحيرة تيس ، وأن عليه أن يجتهد فى منع الصيادين من معارضة الإنجليز ويوعده بالمكافأة ، وعندما علم قادة الثورة بذلك أرسلوا « باشمهندس الخط الشرقى إلى البحيرة لينشئ عليها طابية من الجهة الغربية ،

(١) أحمد تيمور . تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ، ص ٤٧٦ .

(٢) محاذات الثورة العربية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/ب ، محفظة ٤١ ، دوسيه ١ .

ولم يتأخر غلى مبارك لحظة عن مداومة إرسال الخطابات إلى الأعيان من أجل اتباع أوامر وتعليمات توفيق والخضوع للإنجليز»^(١).

وبالرغم من مصيرته الصميمة ، فإنه لم يكن ثورياً ، لذلك فقد استبعد نهائياً من أمام الثوار عند تشكيل نظارتى الثورة ، فلم ينسوا أن النظارة التى أسقطوها كان عضواً فيها ، ومن المحتمل أن ذلك جعله يحقد على الثورة ويتقرب من أعدائها ، حتى أنه وقت الحرب كان فى جميع مجالسه لا يتحدث إلا على قوة الإنجليز ، هادفاً من وراء هذا العمل على انهيار المعنويات ، ووضع موقفه عند اجتماع المجلس الوطنى ، إذ كان معارضاً للإتجاه الثورى بعد أن شكك فى الأخبار الواردة للمجلس من الإسكندرية ، وحينما انضم للوفد الذى سافر للإسكندرية ، إتصل هناك بسيمر وبيّن له أن السبب فى القوة الموجودة أن النظارة قررت زيادة القوات إلى ٢٥ ألفاً^(٢) ، ساعياً بهذا إلى كسر تلك القوة عن طريق الإنجليز .

حقيقة فإن له منهجه فى الإصلاح ، وهو الرقى بالتعليم الذى عدّه خيراً من الاهتمام بالسياسة ، لكن كان هناك من يؤمنون بذلك وجرفتهم وطنيتهم للعمل مع الثورة بكل طاقاتهم مثل محمد عبده وعبد الله فكرى . أما على مبارك ، فقد كان جامداً يسير على مبدأ الطاعة التامة لولى الأمر ، ذلك الذى جعل توفيق يختاره ناظراً فى نظارة شريف الأخيرة التى شكلت فى نهاية الثورة ، وإن كان البعض يسجل له أنه تبرع بشيء من ماله للحزب ، فلعل ذلك تحت تأثير من الشبان المتحمسين .

لم يكن عمر لطفى يقل عنه وربما زاد ، فقد لمسنا أدواره طوال الثورة رغم أنه فى البداية كان من مؤيديها ، فهو من الأعضاء القدامى للحزب الوطنى ، وكان يحضر تلك الجمعيات ذات الصبغة الوطنية وفيها الخطب المعهودة ، كل ذلك على مرأى و مسمع منه دون أن يظهر أقل إشارة تدل على رغبته فى منعها ، وهو مسئول فى الحكومة ، لكنه لم يكن إلا من العنصر التركى الذى أراد أن يصل على أكتاف الثوار . وعندما وجد نفسه أنه لن ينال ما يتمنى ، لم يدر وجهه بل راح يحارب بكل قواه الثورة والقائمين عليها لدرجة أنه لم يتورع على أن يصرح لمراسل صحيفة التيمز « بأن عربى هدد بالقبض على جميع الرعايا البريطانيين »^(٣) .

(١) محمود فهمى ، المصدر المذكور ، ص ٢٢٨ ، الطائف ، عدد ٦٧ فى ٢٦ أغسطس ١٨٨٢ .

(٢) محافظ الثورة العراقية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٨ .

Commons, Vol. CCLXXI, June 26, 1882, p. 406 .

(٣)

وكان منتظراً من الباشوات من العنصر التركي أن يفعلوا ذلك ، وأن يعدوا أنفسهم لحين وصول الإنجليز ، وليس فقط ليستقبلوهم ولكن ليرحبوا بهم وليبجلوهم ، وكم أشاد جلاستون بمثل هذه النوعيات .

(ب) الخديو وأتباعه

كان توفيق هو صاحب القوة المحركة لجميع الأطراف المضادة للثورة ، فهو يعمل بجميع إمكاناته في كل الميادين والاتجاهات داخلياً وخارجياً ، بعد أن اهتز العرش من تحته ، وبعد أن قال الشعب كلمته وأفتى العلماء بإسقاطه .

وبالرغم من نوال مراده ووجود الأسطول البريطاني الذي استند إليه واحتوى فيه ، لم يكلفه ذلك إذ أن الحقد يملأ قلبه من قائد الثورة بعد أن وصل إلى أعلى درجة من المكانة بين شعبه ، فنراه يرسل إلى لندن في ٢٨ يوليو ليشكو فيقول « إن عرابي باشا قطع عني المواصلات في داخلية البلاد ، وقد اتفق مع أهل مصر على العناد والمعارضة ، والقوة الآن بيده ولا يمكنني التصرف إلا إذا كنت داخل البلاد ، ولا أتمكن من دخولها إلا إذا كفلت لي حكومة الملكة الأمن على حياتي من عرابي باشا ، وإذا تفاقلت عني الحكومة فأني أفقد السطوة بالمرة ، إذ لم يكن عندي إلا بعض الذوات الذين لا يمكنهم تنفيذ أي أمر من أوامري »(*) ، ووضح رغبته الملحة في طلب استمرار المساعدات الإنجليزية له للقضاء على عدوه الأكبر ، أما على أرض مصر فقد استطاع أن يضم الكثير من أصحاب المكانة الوظيفية ، لينتهي الأمر بخلق تعاون ونشاط مكثف بين أعوانه وبين الإنجليز لمحاربة الثورة في فترتها الأخيرة .

نضجت ثمرة تلك العلاقة على أرض مصر كلها ، وخاصة في منطقة القناة ، في ذلك الميدان الذي لم يكن الثوريون قد أعدوه الإعداد التام ، فاستطاعت بذور الخيانة أن تثبت وتمنوا فيه ، « إبراهيم باشا رشدي محافظ القنال ، والوكيل على ذو الفقار ساعدا الجنود الإنجليزية في النزول بالإسماعيلية » ، ومحافظ بورسعيد إسماعيل حمدي باشا التجأ إلى إحدى سفن الإنجليز الحربية « لاستغلال سلطته في استصدار قرارات بوليسية باسمه » ، ووكيل محافظ الإسماعيلية جرى على نفس النحو « نزل بوابور الإنجليز » ، وبذلك أصبحت القناة خالية من المحافظين

(*) النوائف ، عدد ٥٦ في ١١ أغسطس ١٨٨٢ .

الذين أصبحوا قلباً وقالباً مع الإنجليز ، يمارسون نشاطهم ضد الثورة التي لم تستطع القيام بأى عمل مضاد سوى إحالتهم على مجلس عسكري وفصلهم وتعيين بدلاً منهم^(١) ، وكثيراً ما أصدر المجلس العرفى مثل تلك الأحكام على مرتكبي الخيانة ، لكن كان الحكم غيابياً ولم ينل منهم شيئاً .

ومضى تدبير المؤامرات ، فقد تم العثور على خطابات مرسله من حسين بك البغدادي أحد مأموري الدقهلية إلى بعض الأعيان « يدعوهم لاتباع توفيق باشا والخضوع للإنجليز » وينتقل حسين بك حسنى مأمور مالية الدقهلية إلى بورسعيد ليبحث عمداً المطرية على الانقياد والطاعة لتوفيق ويطلب منهم « إرسال فلانك بطريق بورسعيد لأجل مساعدة الإنجليز » وعلى نفس المنوال ضُبط أيضاً شكيب باشا مأمور مصلحة المطرية وعلى رضا بك بالمصلحة . وبناء على ذلك يطلب عبد العال حلمى من وكيل الجهادية « سرعة إرسال ألف وخمسمائة أو ألفين من العريان الخيالة لترتيبهم لحفظ حافات البحيرة من المطرية^(٢) ، وكان هذا تصرفاً غير حكيم .

وشددت الأوامر من جانب قادة الثورة بالتدقيق وتفتيش المتقلبين والمسافرين ، وبالرغم من ذلك كانت الاتصالات تتم بين الأطراف المعادية للثورة ، وتم القبض بواسطة الفلاحين على عثمان بك رافت أمير خور الخديوى - مدير الإسطبل - وهو متخفى فى جلاب رث وعمامة ، ضبط فى قارب بالبحر بالفيوم متوجهاً إلى قبلى « للإفساد » ، وساعد مأمور مالية بنى سويف فى إطلاق سراحه ، وصدرت الأوامر والبرقيات من رجال الثورة إلى جميع الجهات بطلب القبض عليه^(٣) .

أما عن مديري المديريات المضادين ، فقد أمكن لمدير أسيوط عثمان باشا أن يكون سداً منيعاً فى طريق الثورة ، وشاكر باشا مدير المنيا يعلن رفضه لإجابة طلبات الثورة من الإمدادات ، ويحاول قطع السكة الحديد بالقرب من بنى سويف ، لكن

(١) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٢ دوسيه ٢٧ ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٥ . محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨٤/ب ، الأرشيف النمساوى ، المصدر نفسه .

(٢) محافظ الثورة العربية ، المصدر نفسه ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٠٢/ب ، الطائف . عدد ٦٧ فى ٢٦ أغسطس ١٨٨٢ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٤٠٩ ، محفظة ٢٣ ، دوسيه ٢٢ ، الطائف ، عدد ٤٩ ، ١٦ ، أغسطس ١٨٨٢ .

الثورة تمكنت منه وسجنته^(١) ، ومدير جرجا يتصدى « للأشخاص التي حركتهم الغيرة الإسلامية للدفاع ، وأجرى سجنهم ووضع فيهم الخشب والحديد بممائلة قطاع الطريق ليكونوا شهداء لغيرهم »^(٢) . وكان ذلك « ملعة للروح الثورية المتدفقة في الشعب والتي تمثلت في حركة تطوع واسعة اتسمت بها مصر في تلك الفترة ، وفي البحيرة رفض رستم باشا رئيس قومسيون الأراضي الأميرية إعطاء ما طلبته الجهادية بالثمن وصرح أنها من حق الدائنين الإنجليز والفرنسيين ، فرد عليه عرابي بقوله « إن الحالة الراهنة تقتضى عدم الالتفات لحقوق أحد مادامت البلاد في حالة حرب »^(٣) .

وأمام ذلك كانت القطارات تغادر القاهرة إلى أسبوط من أجل إحضار المنشقين والرافضين ، لكنها لم تتمكن من اقتلاع جذور النفسيات الضعيفة والحاكمة والخائنة حتى لقد أصابت العدوى بعض العمدة كأحمد عبد الغفار عمدة تلا ، والسيد الفقى - عضواً مجلس النواب عن مديرية المنوفية - فجندا أنفسهما للعمل ضد الثورة وإعاقة خطواتها ، واستمرت المحاربة للثورة حتى آخر اللحظات ، فترى أنه عندما أرسل عرابي إلى مأمور مركز منيا القمح بقطع السكة الحديد الموصلة للزقازيق وقطع الجسر وإطلاق المياه لإعاقة التقدم الإنجليزي « عمل ناظر المحافظة على تأخير التفارغ لذلك المأمور حتى حضرت عساكر الإنجليز »^(٤) . وبذلك كان القدر يحيط بالثورة من كل جانب ، لكن لم يمنع هذا من أن جميع القائمين على الأعمال كانوا مع الثورة بكل ما يمتلكون ، أما تلك العناصر الرافضة فقد تجمعت لتحطيم الثورة في النهاية .

(ج) الجواسيس والدعاية المفرضة

انتشرت جواسيس القوى المعارضة لتلقى الدسائس وتنقل الأخبار وتريك أحوال الثورة ، فقد كان من ترتيبات الإنجليز الإسبانية « بنصاري الشام » وتم ذلك إذ تمكنت الثورة من العثور على كثير منهم في أرض المعارك ، واتضح أنهم جواسيس للإنجليز ، واستعملوا جميع الحيل التي تمكنهم من التقاط

The Times , Aug. 1, 1882

(١)

(٢) محافظ الثورة العربية ، محفوظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د ٨ .

(٣) الأرشيف النمساوي ، المصدر نفسه ، ١٨ سبتمبر ١٨٨٢ ، محافظ الثورة العربية ، المصدر نفسه .

(٤) محافظ الثورة العربية ، المصدر نفسه ، دوسيه ٥٣/د ٣ .

المعلومات ، وكثيراً ما كانوا يشيعون أنهم فروا من ظلم الإنجليز بالإسكندرية والتجأوا لرجال الثورة^(١) .

وكان للأتراك باع في مجال التجسس ، ففى مذكرات سلطان لتوفيق يقول له « ورد لنا الأمر العالى بالتلغراف بخصوص استخدام الأتراك وسيجرى اللازم حسب الأمر » ، كذلك استعان بهم الإنجليز مع الأرمن فى خدمتهم لهذا الغرض ، أيضاً استحضروا من عدن الأفراد للغرض نفسه ، فتذكر صحيفة الفسطاط « بلغنا أن عدو الله أرسل من أعوانه قوماً إلى مصر وأطرافها يتجسسون ، فقد تحقق عندنا أن صالح جعفر المقيم فى عدن وصل إلى السويس متخفياً »^(٢) .

وذهب الأمر إلى أن الأوربيين كانوا يرتدون الزى البدوى لتقصى الحقائق ، ففى برقية من وكيل مديرية الدقهلية إلى وكيل الجهادية يقول فيها « ضبطنا شخصين بيندر المنصورة من تبعية دولة اليونان لابسين ملابس عريان ومع أحدهما فرد لوفلر بستة أرواح » وقبض عليهما كجواسيس وأرسلا إلى وكيل الجهادية ، وتكرر مثل ذلك ، وتم ضبط هؤلاء الأوربيين المسلحين المتخفين دائماً « تحت العباءة النعمانية والكوفية والعقال »^(٣) .

هذا فى الوقت الذى كان فيه من المصريين المتزين بالزى الأوربى للهدف نفسه ، « فقد ضبط من يدعى محمود صدقى لابساً برنيطة ومتزيياً بزى الأوربيين » ، واتضح أنه يعمل مع المعسكر المضاد ، وامتألت البرقيات المتبادلة بين قيادة الثورة بانتشار مثل هؤلاء الجواسيس وضرورة العمل على إيقاف نشاطهم بعد أن « انتشروا فى كافة جهات المواقع العسكرية »^(٤) .

كذلك حوربت الثورة بالدعاية الأجنبية المضادة ، إذ تمكنت المطابع التابعة للأجانب من نشر ما كانت تطلق عليه « بشرى » وفيها « يهجون أهل الحق ويمدحون الخديو الجليل وسعادة سلطان باشا » ، وسلكت الصحافة الأجنبية الأسلوب نفسه

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٢٢ ، دوسيه ٢٢ ، الطائف عدد ٤٨ فى ٢ أغسطس ١٨٨٢ ، عدد ٥٦ فى ١١ أغسطس ١٨٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٤١ ، دوسيه ٢ ، الفسطاط ، عدد ١٢ فى ١٣ يوليو ١٨٨٢ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٣ ، الوقائع المصرية ، عدد ١٤٦٩ فى ٨ أغسطس ١٨٨٢ .

(٤) المصدر نفسه ، دوسيه ٥٣/ب ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٠٢/ب .

« فإنها دائماً تستهزئ بالحزب الوطنى وتسفه رأيه وترميه بالجهل وسوء النية وقبح الطوية ، حتى أن من يطلع على أخبارها يضطره عقله وإنسانيته إلى كراهية هذا الحزب »^(١) . ومضت الصحافة الهجومية وخاصة « الإيجيش جازيت » فى طريقها تنفث السم فى هذا الميدان . وضيقّت الثورة الخناق على تلك الدعايات المغرضة ، لكن الأخيرة انتصرت حيث إنها وجدت من يساندها ، فترى بعض الصحف تنتقل إلى الأسطول لتمارس نشاطها عن طريق البحر ، ولتكون بعيدة عن أيدي الثورة كي لا تبطل بها ، وتدخل أعدادها عن هذا الطريق وتنتشر على الأرض المصرية ، وتصدر الأوامر من قادة الثورة بمزيد من الرقابة ، وتُحرق الكثير من النسخ الواردة من تلك الصحف التى لم تقتصر على الأجنبية بل مائلتها بعض الصحف المصرية المناوئة « كالاعتدال » .

هكذا مضت الدعاية المضادة تنشر مخالبتها فى جسد الثورة لتدميه وتجعله غير قادر على المحاربة فى تلك الجهات المتعددة التى فتحت النار أمامه .

(د) انحراف بعض العسكريين

وأخيراً وصل هذا الأمر لداخل بعض من العسكريين أصحاب النفوس الضعيفة، الذين خانوا أنفسهم ووطنهم وقسمهم وانجرفوا مع تيار الخيانة ، فقد وجدت الوعود والعهود التى صدرت من توفيق للعسكريين بعض الأصدقاء ، وأصبح لياور توفيق عثمان رفعت دوره الرئيسى فى ذلك « فكان يوضح للضباط الذين هم من أصل شركسى عدم فائدة إنضمامهم للمقاومة الوطنية ، لأن الخديو هو الفائز فى النهاية ، ويكافئ من ينضم إليه الآن ويتبعه ويعاقب من يخالفه » ، هذا فى الوقت الذى أذيع فيه أن الجيش الإنجليزى ليس فى نيته الاستيلاء على البلاد أو الإقامة فيها ، إنما حضوره هو لحفظ النظام والأمن ، وصدرت المنشورات من الخديو التى تفيد « بما استقر عليه مؤتمر الدول من التدخل لإخماد الثورة ، وأن العساكر الإنجليزية أصبحت نائبة عن الجناب العالى »^(٢) . وكللت المنشورات بعصيان عرابى الصادر من السلطان العثمانى ، هذا فى الوقت الذى بدأ فيه تسرب بعض الضباط المصريين إلى المعسكر الإنجليزى وترك أرض المعركة ، « ففر نسيم بك وانضم إلى

(٢) القسماط ، عدد ٧ فى ٢١ مايو ١٨٨٢ ، عدد ٩ فى ١٤ يونيو ١٨٨٢ .

(١) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٤١ ، دوسيه ٣ .

الجيش الإنجليزي ، « والقائم مقام أركان حرب فرقة رشيد محمد لبيب » ارتكب عار الفرار بالبحر من رشيد لحد الرملة وانحاز إلى الإنجليز « وأيضاً الرتب العادية » إسماعيل نظيم يوزياشى أركان حرب ، وسعيد ناصر ملازم أركان حرب ، كانا يجريان عملية الكشف بجهة القنطرة وصحبهما نفر سوارى ، فتركوا معهم خيولهما والتجأ إلى العدو جهة القنطرة «^(١) .

وكان الهروب والالتجاء إلى الخديو أيضاً ، فقد وصل إلى الإسكندرية أربعة ضباط « عفيفى سالم ، محمد كامل ، محمد شريف ، بكير موسى » بعد أن تركوا مواقعهم فى أبى قير معلنين طاعتهم للخديو ، فأنعم عليهم بالرتب والنياشين ، بعد أن قرر « أن يعين راتب ونصف راتب للعساكر الذين نبذوا طاعة عرابى وانحازوا إلى مولاها الخديو » .

وعن هذا الطريق انتقلت الخطط الحربية والتكتيكات إلى الأعداء « فقد حدث أن الضابط ألفى أفندى يوسف الذى عاهد عرابى نكث بعهدة وأظهر ولاءه سرّاً للخديو ، فكان يخبر خيرى باشا بما يدبره العرابيون »^(٢) .

وفى حقيقة الأمر فإن تلك الشهرة والصيت والحب المتدفق والشعبية الكبيرة التى تمتع بها عرابى أثارت النفسية فى داخلية بعض العسكريين ، وخاصة أصحاب الرتب العالية الذين اعتقدوا فى أنفسهم أنهم أحسن وأكفاً وأقدر منه ، فلماذا لم يتمتعوا بما حصل عليه ؟ فإن لم يستطيعوا فليحطموه ، وأمام ذلك نسوا كل شيء وراحوا يعملون من أجل مطامعهم الذاتية ، وعندما أيقن الأعداء هذا الأمر اغتتموا هذه الفرصة ، فكانت النتيجة انهيار الثورة ، وتم التأثير المضاد على أحمد عبد الغفار قومندان السوارى وعبد الرحمن بك حسن حكمدار ٢ جى سوارى وحسن بك رافت قومندان الطوبجية^(٣) ، وكان من المؤسف أن يكون أحد غلاة الثورة وهو أحمد عبد الغفار من بين الخائنين .

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١ ، دوسيه ٨ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٤٧ ، محفظة ١٦ دوسيه ٣٨٤/ب .

(٢) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، ج ٥ ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، أحمد شفيق ، المصدر المذكور ،

ص ١١٨ .

(٣) أحمد عرابى ، مذكرات ، ج ٢ ، ص ٢٩٨ .

وتمكن سلطان من مراسلة على يوسف المعروف « بعلى خنفس » مقدم جنود خطوط التل الكبير « واستماله إلى طاعة الخديوى فأطاع واستوثق »^(١) ، وكان ذلك عن طريق الأموال التى انحنى لها الضعفاء ، ووضع على يوسف إمكانياته وتخطيطه للإنجليز ليكمل الدور الذى قام به أعداء الثورة ، وفى ليلة الهزيمة يخبر عرابى « أنه قد تحقق أن العدو لا يخرج فى هذه الليلة ، كما أخبر بذلك الجواسيس ، فبناء على هذه الإفادة أصدر عرابى أمره باستراحة فى تلك الليلة »^(٢) ، وتقدم الإنجليز وأمامهم بعض ضباط أركان حرب من المصريين إلى التل الكبير ، وأخلى لهم على يوسف الطريق ، وكانوا على دراية بكل صغيرة وكبيرة داخل أرض المعركة ، إذ أعد كل شيء لانتصار الأعداء الذين تمكنوا فى نهاية الأمر من الانتصار على الثورة .

(هـ) مآخذ الثورة

لم يكن الإنكسار معتمداً على نشاطات القوى المضادة والخيانة فقط ، وإنما كانت هناك أخطاء ارتكبها قادة الثورة أسهمت فى تلك النهاية ، وربما لو تفادت لأمكن الوقوف أمام هذه الجبهات . وحقيقة فإن للثورة برنامجها ، لكنه كان محتاجاً إلى تنظيم أدق ، وإعداد لمتطلبات الموقف وما يطرأ عليه لإمكانية مجابهة أى ظروف .

اعتمد رجال الثورة وعلى رأسهم عرابى على تلك الشعبية المطلقة التى ساندتهم ووقفت بجوارهم وأيدتهم ، ولم يفرقوا بين العناصر التى انضمت للثورة ، فالثقة متبادلة بين الطرفين ، عرابى شديد الثقة فى الناس جميعهم ، وهم شديدو الثقة فيه ، وهذا الأمر سلاح ذو حدين ، ففى البداية كانت هذه الثقة قائمة على نجاحه فى كل ما حصل عليه للمصريين ، لكنها فى النهاية تخللتها الشوائب التى أضرت بالثورة .

وكان عدم الدراية الكافية بفن السياسة وممارستها ، وعدم فهم الأعياب المخططات الأوربية ، من أهم ما تعرضت له القيادة الثورية . فبالرغم من الإجراءات التى اتخذتها بريطانيا وفرنسا ضد مصر ، فإنه ساد الاعتقاد بأن الأخيرة لن تقدم أية معونة للأولى إذا حاربت مصر ، وصدق عرابى هؤلاء الفرنسيين الذين أظهروا له العطف وبينوا له أن الأسطول الفرنسى لم يأت لمهاجمة مصر وإنما لمراقبة

(١) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٣٣١ .

(٢) سليم النقاش ، انصهر المذكور ، ج ٥ ، ص ٢٤٩ .

تحركات الأسطول البريطاني^(١) ، حقيقة أن فرنسا انسحبت من الميدان الحربي ، لكنها لم تبخل على حليفاتها ووقفت بجانبها ، ولم ينتبه الثوار لذلك بل كانوا يعتقدون الآمال على نصرة فرنسا للقضية المصرية .

واعتقد الثوريون أن تهديد لندن لن يخرج إلى حيز التنفيذ ، حيث إن الدول الأوروبية لن تسمح بذلك التدخل ، وأن مؤتمر الآستانة سيحل المسألة ، وبحول دون أن تتفرد بريطانيا بمصر ، وحتى إذا تمكنت من مخالفة الرأي الأوربي ، فسيكون هناك رد فعل وأثر سيئ في العالم الإسلامي الذي تخشى إثارته ، وخاصة في مستعمراتها إذا دخلت حرب ضد دولة إسلامية ، ومن هنا كان التحدي للإنجليز والإعلان بأن المصريين لن يستسلموا ، وإذا اعتدى عليهم فستكون الحرب المقدسة ، وأدلى عرابي بتصريحات التحدي للصحافة الأجنبية .

وساعد على ذلك العلاقة التي ربطت بين الثوار والدولة العثمانية ولم تكن تسير على وتيرة واحدة فسمتها التبدل والتغيير ، وبالرغم من زعزعتها فإنه في أحيان كثيرة أعطى الثوار ثقتهم للباب العالي ، وهذا مما أضر بالقضية المصرية .

أضف إلى ذلك الثقة المتناهية في النفس التي في كثير من الأحيان تأتي بعكس المتوقع ، فاعتقد قادة الثورة وسيطرت عليهم فكرة أن « العساكر المصرية أكفأ من دولة الإنجليز حيث لم يكن لهم قوة إلا في البحر »^(٢) ، وحمل النديم لواء نشر ذلك ، فراح يردد تلك الدعاية الرنانة ، واتسع النطاق وأصبح الجميع مؤمنين بأن الإنجليز كالسمك الذي يموت إذا خرج من البحر .

كما أن القائمين على الثورة لم يضربوا الخيانة بيد من حديد ولم يقتلعوا جذورها من أعماق الأرض وأعطوها فرصة لأن تكبر وتترعرع ، حقيقة كانوا ثوريين في إجراءاتهم في بعض الأحيان ، فترى حكم الإعدام يصدر على عدد من « البرابرة » العاملين بمنازل الأوربيين والذين كانوا يعطون إشارات للسفن الإنجليزية وقت ضرب الإسكندرية ، كما حدث نفس الشيء مع البدو المعتدين على الأهالي ، إلا أنهم لم يحتاطوا من البدو عندما جندوهم ، ونحن لا ننكر أنهم قدموا المساعدات للثورة لكن أساءوا إليها أكثر مما نفعوها ، وكان من الضروري إخضاعهم لمراقبة صارمة ، والقادة يعلمون أن « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً » ، وبالرغم من هذا فإنهم حازوا الثقة إلى حد كبير فكونوا فرقاً بأكملها في جيش الدفاع .

(١) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , pp. 197 , 198 .

(٢) محافظ الثورة العربية ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٨٣ / ١ .

أما عن الفلاحين الذين اشتركوا في الحرب ، فقد ضحوا بالكثير ، ولكن لم تكن فترة تدريبهم كافية لصعد عدوان جيش إنجليزى مسلح وقوى ، وخاصة في الميدان الشرقى ، ويذكر فارمان أنه « لم يكن هناك سوى ثمانية آلاف جندي من الأهالي المدربين في جيش عرابى ، وهؤلاء كان معظمهم معسكراً في كفر الدوار ورشيد ودمياط ، أما باقى الجنود من المصريين فإنهم إما طاعنين في السن أو فلاحين غير مدربين ، كان يمكن لألف جندي مدرب أن يجبروا عشرة آلاف منهم على الفرار »(*) ، وفى الواقع لم يكن الوقت كافياً للإعداد الكامل ، فأحياناً كان المتطوعون يرسلون إلى أرض المعركة ويلبسون الملابس العسكرية ويعطون البنادق ليحاربوا دون القيام بالتدريبات اللازمة .

وهناك رأى يرمى إلى أنه من الأخطاء إهمال تعبئة القوى الشعبية وتسليحها وخلق قوة ضاربة فى مواجهة قوة الاحتلال ، لكن مما لا شك فيه أنه مع قيام الحرب توافد على المعسكرات المتطوعون الذين مثلوا قوى الشعب المختلفة من كل مكان على أرض مصر بروح وطنية متأصلة وساهموا فى الميدان الحربى ، كما خرجت أوامر عرابى لتسليح أهالى بعض المناطق المتوقع غزو العدو لها ، وتوليبتهم أمر الدفاع عنها ، وتم ذلك بالفعل ، وقد كان من التهم التى ألقىت على قادة الثورة « تحريض الناس وحضهم على حمل السلاح » ، ومحافظ الثورة تشير إلى ذلك فى جميع محاضر التحقيق التى أجريت مع الثوار ، فهذا كفيل بأن قوى الشعب قد قدمت نفسها لمصر حيث اعتبرت أن هذه الحرب جهاد فى سبيل الله ، هذا وعندما رأى عرابى استدعاء الخضر للحرب وإقامة حرس أهلى من الشعب بديلاً عنه ، رفض المجلس الذى كانت مصر خاضعة له ، إذ سيطرت عليه هو الآخر المصالح التى لم يكن يوافقها استلام الشعب لأمن البلاد ، ومن هنا افتقدت الثورة التوافق فى الأفكار أمام هذه المسألة .

أيضاً كان على الثوار عدم إعطاء أية فرصة لخروج من انشق عن الثورة ، والعمل على استمرارية الاحتواء الثورى وإقصاء المعارضة جانباً وخصوصاً بعد أن بدأت الحرب ، لكن كان ذلك صعباً للغاية ، حيث إن تلك الاختلافات بنيت على تباين فى الإيديولوجية ، هذا فى الوقت الذى لم يرغب فيه الثوار أن تكون ثورتهم

(*) فارمان ، المرجع المذكور ، ص ٣١٥ .

دامية ، فتهاونوا مع من أساء للثورة وطعنها ، فلم يعلقوا المشانق ولم يجتثوا العناصر المعادية .

هذا بالإضافة إلى أن عربياً لم يكن في الصفوف الأمامية أثناء معارك الميدان الشرقي كقائد حربى يدير دفعة المعارك ويشترك بثقله فيها ، ولكنه اكتفى باشتراك معنوى وإضفاء المسحة الدينية على خطواته ، إذ اعتقد أن وجوده وتنقلاته بين المعسكرات يكون له تأثير أقوى على سيرها أكثر مما لو كان في الخطوط الأمامية ، ويقول بلنت « إن مكانته الكبيرة بين شيوخ البلد والفلاحين في الدلتا من أكبر البواعث على بث الحماسة من أجل الحرب ، ولهذا السبب كانت الإمدادات تتدفق من جميع النواحي على الجيش وأيضاً تدفق المتطوعون ، وأن عربياً بذلك كان أكثر فائدة مما لو تولى القيادة في ميدان القتال »^(١) ، غير أنه لو حارب عربى وتصدر المقدمة لما تغير موقف قوى الشعب الذى قدم كل شئ من أجل مصر .

وبذلك يمكن القول أن عربياً لم يعط الحرب مثلما أعطى السياسة ، وأنه فى الوقت نفسه لم يكن يدركها تمام الإدراك خاصة فى مسألة قناة السويس التى أجهزت على الثورة ، وكان للثقة فى ديلسبس وشركة القناة بداية الانهيار ، إذ اعتقد الزعيم أن ما يسعى له هذا الفرنسى إنما هو فى صالح مصر ، ففى خطاب يبعث به إليه يبين محافظته على أملاك الأجانب الذين هاجروا ، ويشكره على مساعيهِ الخيرة ويؤكد له وثوقه فى كافة مشروعاته^(٢) ، وكان عربى حسن النية فتراجع عن سد القناة ، ولو أنه أشد مكرراً وأكثر حسماً وأشد قسوة لمضى فى تنفيذ البرنامج الثورى ولما تردد لحظة ، وخصوصاً إنه كان ذا تأثير قوى على باقى أعضاء الثورة .

لكن من طبائع الثورات حدوث أخطاء لا حيلة لها فيها « فالثورة كالمطية الجموح تسوق من يركبها ولا يسوقها إلى غير مجراها » ، وتلك المأخذ التى تؤخذ على الثورة لا يمكن أن تنال من مكانتها وقدرها أمام التاريخ .



(١) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 385 .

(٢) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٢ ، دوسيه ٣٢ .

القوى الخارجية
والموقف من
الأحداث الثورية

الفصل الثامن

تحركات الدولة العثمانية .

الفصل التاسع

مساعي حليم واسماعيل من

أجل العرش .

الفصل العاشر

التأييد العربي والإسلامي

والأوروبي .

الفصل الثامن

تحركات الدولة العثمانية

١... الدولة العثمانية في النطاق الثوري

كانت مصر بالنسبة للدولة العثمانية من أهم ولاياتها ، فدائماً تحرص كل الحرص على تبعيتها لها ، وقد تمكن محمد علي من جعل مصر صاحبة وضع خاص وذلك بنشاطه الخارجى الذى انتهى بخضوعها للإرادة الدولية ، لتدخل تديجياً فى مرحلة يتغلغل فيها النفوذ الأوروبى خاصة الأنجلو فرنسى ، ليتوارى النفوذ العثمانى جانباً .

وقد دفع إسماعيل الكثير من أجل إرضاء نفسه وميوله التى تهوى الاستقلال بحكم مصر وإخراجها من تحت السيادة العثمانية التى لم تكن ممثلة إلا ظاهرياً ، فتمكن من الحصول على فرمان تلو الآخر ، لكنه لم يحقق ما تمناه ، فكانت على مصر تلك الالتزامات الشكلية المفروضة عليها ، فإذا دخلت الدولة فى حرب ، كان على القوات المصرية ومعداتنا أن تكون على أرض المعركة ، هذا بالإضافة إلى الجزية السنوية التى تدفع إليها وبعض القيود الأخرى التى فرضت على مصر .

وانتهت سنوات حكم إسماعيل ، ولم تكن مصر وحدها تعاني من الضعف والأزمات المالية إذ شاركتها الدولة العثمانية ، وكان التسلط الأوروبى قائماً على قدم وساق ، فقد جاء توفيق على أيدي بريطانيا وفرنسا وحتى عندما حاولت الدولة الانتعاش من بعض المميزات التى منحت لمصر فى إطار الفرمانات السابقة ، فشلت فى ذلك .

ولم تكن العلاقة على ما يرام بين الخديو والباب العالي ، فقد أحس منذ البداية بأن لقاءه مع بريطانيا وفرنسا أضمن له من أية لقاءات أخرى . لهذا فلم

يذهب إلى السلطان لأداء واجبات الشكر له عقب صدور فرمان التولية الذي حاول فيه السلطان التوفيق بين مصالح الدولة العثمانية ومصالح الدول الأوروبية .

ووضع السلطان عبد الحميد مصر نصب عينيه ، إذ راودته فكرة إمكانية استغلال تلك الأمة التي هي مهد الحضارة وصاحبة المركز الإسلامى لامتلاكها منبع الثقافة الإسلامية ووقوعها بين الأمم الشرقية ، هذا فى الوقت الذى كان فيه يحتضن حركة الجامعة الإسلامية ، فرأى جعل مصر مركزاً لذلك النشاط الذى يمكنه من الوقوف أمام المصالح الروسية والإنجليزية فى آسيا الوسطى ، ويكون قوة معارضة ، ويدعم عن هذا الطريق الزعامة الإسلامية فى آل عثمان بعد أن تطرق الضعف إليها ، ويظهر بالمظهر الأدبى والروحى فى دفاعه عن الإسلام ومجده واستعادة مكانته الأولى وخصوصاً أن المد الاستعمارى قد بلغ مده ، فاستولت بريطانيا على قبرص وأعلنت فرنسا حمايتها على تونس ، فشعر بوطأة التدخل الأوروبى ، ومن هنا كان لابد من ممارسة الضغط على الشعوب الإسلامية من خلال مصر .

وتشاء الظروف أنه عندما قرر السلطان التنفيذ كانت الحركة الوطنية قد أخذت مكانها فى مصر وبدأت الخطوة الأولى للثورة ، فرأى الاستفادة من وراء ذلك بتحقيق أمله فى الحركة الإسلامية ، هذا من ناحية واستعادة سلطانه وسيطرته على وادى النيل من ناحية أخرى . ولسياسة الدولة خبرة فائقة فى أمور التردد والمراوغة والمكر والخداع والتلون فى المواقف وضرب القوى ببعضها ليكون أولاً وأخيراً المكسب لها وحدها ، فماذا كان موقف الثورة المصرية من الدولة صاحبة الولاية على مصر ؟ اتخذ هذا الموقف أكثر من شكل طبقاً لمقتضيات الأمور ، ولتلك الظروف والأحداث التى مرت بها الثورة ، فأساساً هى قامت من أجل إعطاء مصر حقها بعد أن سلب منها كل شئ ، ونادت بمصر للمصريين حيث أساء لها من هو غير مصرى طوال تاريخها ، لكن مصر كانت إسلامية عميقة فى تدينها مؤمنة كل الإيمان بذلك المركز الروحى للدولة العثمانية الذى يجمع بين الزعامة الدينية والروحية والحكم الديوى .

ومع الوقت بدأ هذا المفهوم يهتز من الناحية السياسية لتستمر الناحية الدينية ، وذلك هو سمة التطور خاصة وأن القرن التاسع عشر قد اختص بظهور القوميات بعد أن سرت مبادئ الثورة الفرنسية إلى أوروبا وخارجها ، وفى مصر تبلور الرأى العام وقوى ، وتأسست النزعة الوطنية وساد الكره والحق على كل ما هو أجنبى

يعيش على الأرض المصرية ، لكن لم يكن معنى ذلك إغفال مركز الدولة العثمانية الدينى إذ وجدت كل عناية وتكريم ، فترى النديم يدافع عنها بقوله « هى الدولة الإسلامية التى بين ثمانى عشرة دولة مسيحية »^(١) ، ومضى محمد عبده فى نفس الاتجاه ، وهما من مفكرى الثورة ومن غلاة الدعاة لمبادئها ، لكنهما رأيا أن للعلاقة الروحية والمعنوية ثقلها خاصة أمام التحدى الاستعماري للغرب .

ولهذا فمع بداية الثورة ، والمصريون لا يبحثون عن انفصال عن الدولة ، وكان الحزب الوطنى يؤيد فكرة الإمبراطورية الإسلامية التى يكون فيها السلطان خليفة ، هذا فى الوقت الذى تأصلت فيه المصرية داخل أعضائه ، لكن إطاعة السلطان واجبة على المسلمين ، وبذلك التصقت الدولة العثمانية فى أذهان المصريين بتراث الإسلام ، حتى أن العامة ربطوا بين الإسلام والسلطان وقد وضع ذلك من دعواتهم طوال فترة الحرب .

من هنا كان العامل الدينى قوياً فى الثورة وخاصة أن معظم تيار المثقفين تيار دينى ، لكنه متحرر من القيود ، متسمّاً بالإصلاح ، يعطى للعامل الوطنى قدره وأهميته ، وكان زعيم هذا رأى محمد عبده الذى يرى أن السبب فيما أصاب المسلمين من إنحلال يرجع إلى خطأ ربط الدين بالسياسة ، وقد تمسك بتقاليد بلاده بحيث شكلت النزعة الوطنية جانباً هاماً فى تفكيره ، كما كان يرى أن الأمة المصرية هى جزء من دار الإسلام ، ومع ذلك فإنه واضح الميل للعروبة ، إذ طالب بالعودة للسلف الصالح وما كان عليه الإسلام من عزة ومجد وقوة وأيضاً بإحياء اللغة العربية وتجديد آدابها ، وبذلك فإن فكر محمد عبده السياسى أسهم بدوره فى نمو هذا الاتجاه ، فهو يكره الأتراك ، ويمقت سياستهم وخاصة ما يتبعه السلطان عبد الحميد ، وقد أعلن ذلك صراحة لبلنت^(٢) ، وبذلك حمل فى نفسه عقدة العنصر التركى وأصلها فى مدرسته .

ومعروف أن المصريين يبغضون الأتراك ، ومنذ أن وطأت أقدامهم الأرض المصرية وهم دائمو الثورات عليهم خاصة قبل حكم محمد على ، وكان شعور عرابى الشئ نفسه فهو لا يضر أى حب لهم ، ففى نظره أنهم أساءوا حكم مصر قروناً طويلة ولذلك فلن يسمح لهم بالتدخل فى شئون مصر الداخلية ، لكنه فرق بين

(١) عبد الفتاح النديم ، انرجع المذكور ، ج ٢ ، ص ٦٨ .

(٢) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 251 .

الحكومة العثمانية وبين السلطة الدينية فالسلطان يجب إطاعته طالما كان عادلاً « كلنا أبناء السلطان يجب علينا أن نعيش كأُسرة في منزل واحد ، وكما أن أعضاء الأسرة يكون لكل منهم غرفة ينظمها حسبما يهوى ولا يحق لرب البيت أن يستبجح حرمتها ، فكَذلك لكل شعب من الشعوب الإسلامية بلاد يعيش فيها وينظمها وفقاً لما يريد ، وقد كسبت مصر استقلالها بالفرمانات وستحافظ على ذلك »^(١) .

من هذا يتضح أن الثورة رحبت بالعلاقة على أساس أنها علاقة دينية وأن وضع مصر الدولي قد جعلها في إطار الدولة العثمانية فيجب المحافظة على ذلك بدون السماح للمزيد من الامتيازات ، كما كان لابد أن تستند الثورة على قوة ترى أنه من الممكن أن تقف معها أمام الاتجاهات الاستعمارية ، خاصة بعد أن انسلخت تونس من الدولة العثمانية وأعلنت فرنسا الحماية عليها ، ولذلك رأى الحزب الوطني أن يركن لمساعدة الباب العالي نظراً لخوفه من التدخل الأجنبي ، لكن بعد دراسة هذا الموضوع بين أعضاء الثورة رأى « أن يكون دور الأستانة دوراً إسلامياً فقط حتى الاتحاد مع الدولة يجب أن يكون في أضيق الحدود »^(٢) ، هذا بالإضافة إلى رغبة الثورة في التقليل من عدد الأعداء حتى يمكن أن توحد جهودها تجاه العدو الأصلي .

عرفنا اتجاه السلطان عبد الحميد إزاء مصر ، فقد وجد في الثورة فرصته لتحقيق ما يصبو إليه ، ونظراً لطغيانه واستبداده رأى ضرورة العمل والحيلولة دون ضياع هذه الفرصة خصوصاً أن خوفه كان كبيراً من أن تحطم آماله بقيام خلافة إسلامية عربية تضم المناوئين لسياسته في الحجاز والشام ، وأنه إن لم يظهر عطفه على الثورة ، فربما تتضمن لذلك الجانب « لهذا كان لا ينظر إلى المسألة المصرية إلا من زاوية هذه الخطط على أمل أن يفيد من النزاع بين الخديو والعسكريين »^(٣) . إذن فلم يكن موقف الدولة العثمانية من الثورة حياً في هذا الاتجاه ، فالسلطان هو عدو الأنظمة الدستورية كما وضع من موقفه من مدحت باشا وما تم له على يديه ، إنما من أجل المصلحة ، ومن هنا بدأ عرابي يلقي بعض التشجيع من السلطان رغم تصريحاته وإعلانه جهراً معاداته للأتراك .

Ibid, p. 172 .

(١)

Archives de maison, Fasc XXXI-9, No. 57 Pol, 6 Mars, 1882 .

(٢)

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصر والمسألة المصرية ، ص ١٤٩ .

وبذلك نرى أن قادة الثورة كانوا يميلون للإتفاق مع الدولة صاحبة السيادة على مصر من أجل إقصاء توفيق عن حكمها ، وتؤكد الوثائق النمساوية « أنه نُظر في أن يصبح عرابى وكيلاً للسلطان ويعزل الخديو الحالى ريجل محله ويحصل على الاستقلال من السلطان ويعترف به كحاكم لمصر »^(١) .

وظهرت العلاقة التى ربطت بين الثورة والدولة العثمانية إلى حيز الوجود وأصبحت على الألسنة ، لكن إذا بحثنا فى الأعماق نجد أنها علاقة أوجدتها ظروف معينة ، فالطرفان يكره كل منهما الآخر ، فطرف الثورة الذى يمثله عرابى كان يردد استقلال مصر على أسس وطنية ويحمل بين جنباته الرفض للخضوع للسلطان .

أما طرف السلطان فكان يكره ثورة مصر كحركة قومية داخل إطار ولايته ، هذا فى الوقت الذى بلغ فيه عرابى كزعيم قومى مداه ، ولم تكن مكانته داخل الحدود المصرية فحسب ، بل طارت سمعته لأفاق العالم وأصبح بطلاً للإسلام ورمزاً للمناضلين للاستبداد ، وله المؤيدون من الأجناس المتعددة ، وبذلك صار للسلطان الحق فيما غمره من إحساس سلبي تجاهه .

وبناء على تأصل النزعة القومية لدى الثوريين راودتهم فكرة إمكان إحياء الخلافة الإسلامية للعرب ، وعليه يسدل الستار على العلاقة التى تربط بين مصر بالدولة العثمانية ، فالعرب فضلوا على بقية الأجناس ، والقرآن الكريم نزل بلغتهم « إنا أنزلناه قرآناً عربياً » فيكفى فخر العرب بذلك ، ولغتهم هى لغة الضاد التى يجهلها العثمانيون الذين أغفلوا تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية ، وأخيراً فقد كانت مصر مقر الخلافة ، ولا بد من إرجاع الحقوق إلى أصحابها .

وبدأت فكرة القومية العربية تخرج إلى حيز الوجود وتطفئ على ما عداها تدريجياً ويذكر أحد شهود العيان أنه قد وصل الأمر إلى « إنكار تبعيه مصر لدار السلطنة العثمانية » ، وراح التفكير فى تدعيم ذلك ، وتصادف فى ذات الوقت أن كان شريف مكة على علاقة سيئة مع الدولة العثمانية ، وحزب الأحرار فيها يطالب بالتحريض على السلطان عبد الحميد ، ولبلنت يد فى الموضوع فعرض على عرابى « مخابرة شريف مكة وغيره من كبار العرب فى استهاضهم إلى الخروج وشق عصا الطاعة عند ظهور الحركة بمصر »^(٢) .

Archives des maison, No. 11, 13 Fevrier, 1882 .

(١)

(٢) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٢٦٨ .

مع بداية الثورة عين توفيق مندوباً له في الأستانة ليدرس الموقف ، ويبلغه الأخبار ، ويقربه إلى المسئولين هناك ، وكانت المراسلات بينهما صورة حية لما يجري على الصعيدين المصري والتركي ، فيرسل الخديو إليه ليخطره « أن عرابي يقدم نفسه بأنه شريف وإفادته إلى أهل مكة من هذا القبيل ، فنرجو عرض الموضوع على حضرة ولي النعم بصفة سرية جداً للعلم بحقيقة الأمر حتى لا يشعر الحجازيون بأى شيء عن ذلك »^(١) ، ويطمئنه ثابت باشا عن جهوده من أجل إسقاط مسألة القومية عن طريق تحريض السلطان على الثوار .

وبذلك يتضح أنه كانت هناك علاقات بين قادة الثورة والحجاز ، وأن السلطان أصبح يعلم بتلك الحركات ، فرأى أن يعمل على المزيد من أجل سحب الثورة من هذا المجال خوفاً من أن يقذف به كخليفة ويعين غيره سواء كان من المصريين أو شريف مكة ذاته . ويذكر البعض أنه دارت إشاعات حول أن عرابي حصل على موافقة عدد من علماء القاهرة بفتوى لعزل السلطان من الخلافة وتعيين شريف مكة خلفاً له في حالة معارضة السلطان^(٢) ، كما صرحت صحيفة التيمز بأن « عرابي باشا راغب في الانضمام للثورة الدينية الشديدة المتحركة الآن في بلاد العرب وممالك أخرى إسلامية »^(٣) .

ومضى توفيق للعمل في هذا الميدان الخصب ، لكي يضرب الثورة من ناحية ، ويتقرب للسلطان الذي كانت علاقته معه على غير ما يرام من ناحية ثانية ، ثم ليصف بكل اتحاد يمكن أن يتم بين الجانبين ، فنراه يرسل للأستانة ليقول إنه خادم مولاه السلطان وأنه يبذل « الدقة والعناية التامة في عدم حصول اختلال أو ثورة بأى شكل كان في مكة المكرمة التي هي قبلة الموحدين وفي مصر القاهرة » ويضيف أنه متيقظ من عدم تسرب الأسلحة من جمارك مصر إلى الحجاز ، ويرجع هذا النشاط الثوري لرجال مصر « وما ذلك إلا من تحريضات المفسدين » ، ويؤكد ضرورة قوة الارتباط بمركز الخلافة ، وأن ذلك يتوقف على تأكيد العنصر التركي وكثرة عدده ، وأن القومية والوطنية اللتين ظهرتا بمصر مخالفتان تماماً لهذا المبدأ « ففرضهم الوحدة العربية ، ويعمل رئيس هذه الطائفة (عرابي) على تقوية هذه الروح ليلاً ونهاراً ، كما أنه يسعى لإدماج أهالي الحجاز والشام وطرابلس الغرب

(١) - محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٦ ، ملف ثابت باشا ، ١٦ أبريل ١٨٨٢ .

(٢) - المفيد ، عدد ٢٣ في ٩ يناير ١٨٨٢ .

(٣) - Malorite , op. cit., p. 10 .

ضمن الإتحاد العربى ، وها هى لقاءاته مع الحجازيين وبسطاء العقول مدعياً أنه من الأشراف ، وغنى عن التعريف ما لهذه المقاصد الخبيثة من ضرر ومخاطر بالنسبة للحاكم الشرعى^(١) .

وتعمقت الروح القومية وظهرت فى تلك الاجتماعات التى هى تنظيمات تضم الثوار ، ويقول صابونجى فى خطاب له لبنت فى ٢٤ يونية ١٨٨٢ عن ذلك « إنهم يعتبرون أن عبد الحميد فى واد آخر ، ويسعون إلى كل ما يمكنهم الاستفادة منه حتى تصل قوتهم إلى الدرجة التى تؤهلهم لإعلان الجمهورية المستقلة ، وهذا هو أساس برنامجهم الثورى منذ البداية ، ولكنهم يفضلون تنفيذ ذلك تدريجياً ، وقد أكد لى محمود باشا سامى فى حضور نديم وعبدى بأنه لن توافيهم المنية قبل أن يعلنوا استقلال مصر عن الباب العالى والمناداة بالجمهورية ، ونديم يوجه جهوده نحو هذه الغاية ببذر بذورها فى أذهان الجيل الصاعد^(٢) . وقد غمرهم هذا الإحساس منذ أن بدأت الثورة إذ رأوا « أن أرضاً عربية كمصر لا تحكم بتركى ولا غيره ، وأنهم يفضلون القتل على دخول عسكرى غريب أرضهم أو رجل من رجال الحكومة التركية فى أعمالهم^(٣) .

ويتطور الأحداث وبالإجراءات الثورية التى تمت وخاصة تلك التى وجهت للعناصر التركية والشركية ، كان الخديو سابقاً ومسرّعاً بتبليغها للباب العالى وذلك حتى يقطع علاقاته مع الثورة وينتصر على عرابى ويظهر أمام السلطان بمظهر الغيور على مصلحته ، وفعلاً أثير غضب الأخير فتأكد « أن عرابى باشا قوله لا يطابق فعله ، وأنه متلون ومتقلب الأفكار دائماً وغافل وجاهل^(٤) .

ولم يهتم الثوار بذلك بل سيطرت نشوة القومية عليهم خاصة عندما أذيع أن قوات تركية ستحضر إلى مصر ، فيعلن عرابى « إن تداخل الباب العالى إذا كان بوجه غير سلمى وعلى الخصوص إذا كانت الدولة مصممة على إرسال عساكر فإنه يقاومها أشد مقاومة يفعلها مع فرنسا وإنجلترا^(٥) .

(١) محافظ الأبحاث ، المصدر نفسه ، ٧ ديسمبر ١٨٨١ .

(٢) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 347 .

(٣) التكتيك والتبكيك ، عدد ١٩ فى ٢٣ أكتوبر ١٨٨١ عن جريدة الديبا .

(٤) محافظ الأبحاث ، المصدر نفسه ، ٢١ يوليو ١٨٨٢ .

(٥) الطائف ، عدد ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

وازداد الموقف صعوبة بعد أن أحست الثورة أن الدولة العثمانية لم تقدم لها المساعدات المرجوة التي تنتظرها لوقف التدخل الأنجلو فرنسي ، فأصبح التحول عنها واضحاً واشتد النفور وتعمقت الكراهية ، فيذكر صابونجي لبلنت في خطاب ١٩ يونيو ١٨٨٢ « سمعت سامى وعبدى ونديم يلعنون السلاطين والجنس التركى من جنكيزخان إلى هولاكو إلى عبد الحميد ، وهم يعدون الأمة لحكم جمهورى ، وفى حالة تدخل الأتراك عسكرياً سيعلنون الاستقلال عن الباب العالى ، وقد أخبرنى نديم بأنه سيحطم عرش السلطان قبل أن يموت ، فهذا هو هدفه ويتمنى من الله تحقيقه » (*) .

وبذلك أصبح جلياً أن الثورة فى صراع مع هذا العنصر منذ بدايتها وحتى نهايتها ، شمل جميع قوى مصر التى أرادت أن تحقق شعارها « مصر للمصريين » وأن تستقل مصر وتنال حريتها وتضع نظام الحكم الذى يحلو لها ، إذ فضل مثقفوها الجمهورية لتتلاءم مع الطبيعة المصرية ، ومن هنا تحولت الثورة ضد سيادة الدولة العثمانية .

الخطوات العملية للدولة العثمانية تجاه الثورة :

(أ) البعثة العثمانية الأولى وأثرها

عقب الإطاحة بحكومة رياض أحييت المطالب الخاصة بتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش إلى الآستانة ، وهنا وجد السلطان الفرصة المناسبة للتدخل ، خاصة بعد أن طلب منه توفيق إرسال قوة عسكرية لواد الثورة ، وكانت بريطانيا وفرنسا تعارضان أى مجهودات قد يبذلها الباب العالى للتدخل فى شئون مصر الداخلية ، إذ سبق ورفضتا إرسال أى قوات تركية إلى مصر ، وانتهى الأمر بوصول البعثة العثمانية الأولى إلى مصر « بعثة نظامى باشا » التى ضمت عدداً من الشخصيات المهمة : الجنرال نظامى باشا ، وعلى فؤاد سكرتير خاص السلطان ، وقدرى أفندى ، وأحمد راتب السكرتير الثانى للسلطان وياروه . وكل منهم مزوداً بشفرة تليفرافية تختلف عن الآخر ولديه الأوامر بأن تكون المراسلة مباشرة مع الآستانة .

عين رئيس النظار أحمد رفعت لمرافقة البعثة ، وأعطى له الخديو التوصيات اللازمة بشأن عدم التبهر فى أحداث مصر الأخيرة ، ويذكر المندوب المرافق أن

Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , pp. 344 , 345 .

(*)

نوايا البعثة كانت تدور حول معرفة المعلومات عن الحركة العسكرية التي تزعمت موقف ٩ سبتمبر وشخصية الخديوى وتصرفاته ومركز ومكانة السلطان فى مصر ، وهل بوصول شريف للنظارة كطلب الثوار انتهت الحركة أم أنها حركة عربية عامة ؟ وقد انصب حديثهم على أن إنقاذ مصر لن يتأتى إلا بالاعتراف الكامل لسيادة السلطان ، والتقوا بالعسكريين فى القاهرة ، وأرسل أحمد راتب إلى عرابى بالزقازيق .

وجاءت المحادثات مع توفيق لتشمل ضرورة المحافظة على الوضع الراهن ، والعمل على الحد من تدخل الأجانب ، كذلك اتضح منها أن الآستانة لم تكن تميل إلى إيجاد مجلس نيابى فى مصر ، فعبد الحميد يخشى من انتشار العدوى الدستورية إلى بقية ولاياته بل إلى تركيا نفسها بعد أن أطفأ جذوتها ، كما كان يخاف من أن تتسرب الثورة نفسها إلى ممتلكاته .

وتعددت الأقوال بشأن أهداف البعثة ، فمن رأى أنها للوقوف على وجهات النظر والإتصال بعرابى لكى يتخذ السلطان مقلب قط ويتخلص من توفيق والمراقبة التى شكلت تدخلاً فعلياً فى شئون مصر^(١) ، وكانت هناك وجهة نظر أخرى تقول إنها لتلمس الأخطار واستطلاع الأمر وسبرغور الحركة^(٢) . ويذكر كرومر « أنه قد تم الإتفاق بين إنجلترا وفرنسا مع السلطان لإرسال مبعوث جنرال لكى يثبت سلطة الخديوى ويقدم له النصيحة »^(٣) ، بينما يصرح السلطان بأن الهدف هو « تهدئة الجو فى مصر »^(٤) .

وفى حقيقة الأمر فقد كانت رسالة البعثة صعبة للغاية ، فإذا جمعنا ما سبق وأضفنا إليه أن البعثة كان عليها قياس الظروف ودراسة المناخ بصفة عامة للعمل من أجل مصلحة الدولة أياً كان نوعها ، فالسلطان يهدف إلى تحويل الثورة لخدمته ، وجذب الكارهين لها تجاهه لتوسيع دائرة المكاسب التى يمكن له أن يستحوذ عليها والتى فقدوها أمام السيطرة الأجنبية ، فقد كانت الأوامر التى أعطاها للبعثة الإتصال بمتنفذى مصر من القواد العسكريين والعلماء كذلك الأعيان لضمهم إليه ، ففى برقية من نظامى إلى الآستانة تقول « كنا قد وعدنا بأننا حسب التعليمات سنقوم بالإتصال بأمراء الجيش وقواده وعلماء البلد لإبلاغهم الوصايا والتبهيئات

Duse, M., In Land of the pharaohs, p. 51 .

(١)

Commons , Vol CCLXXIII , Aug . 15, 1882 , p. 1888 .

(٢)

Cromer , op. cit., Vol II, p. 196 .

(٣)

Doc. Dip. F. Tom IV , No. 145, 3 Octobre, 1882, p. 144 .

(٤)

اللازمة مع توزيع الهدايا السنية عليهم ، فنقول إننا ذهبنا البارحة إلى ثكنة قصر النيل مقر نظارة الجهادية ، وأفهمناهم الطاعة ، وعندئذ قام بينهم الأميرالاي طلبه بك وأقسم بالله بأنهم لا يضمرون لجلالة السلطان غير الإخلاص والولاء . ويتابع « جاءنا كبار علماء مصر وبعض من أعيانها وكلمناهم عن الخضوع والطاعة للسلطان »^(١) . وواضح أن السلطان كان يخشى من مسار الثورة أن تتجه إلى فصل مصر عن الدولة العثمانية .

ولم تستطع البعثة أن تقوم بما وكل لها ، ففي ١٤ أكتوبر ١٨٨١ أرسل المابين السلطاني إليها يقول « هل أنتم متمكنون من القيام بمهمتكم بمصر حسب الرغبة السلطانية ؟ لأن دولتي بريطانيا وفرنسا تضغطان على الباب العالي طالبتين استرجاعكم من مصر على جناح السرعة وإلا فإنهما ستضطران إلى إرسال قطع من أسطوليهم إلى المياه المصرية بحجة المحافظة على موقف رعاياهما ، حتى أن الحكومة الفرنسية أرسلت فعلاً سفينة إلى مياه الإسكندرية ، واقتضت الإرادة السنية إبلاغكم بأن تبذلوا المساعي لتسوية الحالة بما يتفق مع المصلحة » وعقب ذلك أرسل لاستعجال عودة البعثة^(٢) .

تأكد بذلك أن الهدف من البعثة تحقيق المصلحة للدولة ، كما أبان ضعفها أمام دولتي بريطانيا وفرنسا اللتان كانتا لا تنظران بعين الارتياح إلى عودة النفوذ التركي لمصر ، وقد أيدهما في ذلك شريف الذي كان يكره التدخل من قبل الدولة ، ولم يكن وحده وإنما الخديو أيضاً .

وكان الاتفاق قد تم بين الدولتين على إرسال قطعتين من أسطوليهم إلى الإسكندرية للوقوف أمام أي نشاط تركي يمكن أن يمارس ، وصرحتا بأنهما لن تتحركا من المياه المصرية إلا بعد سفر بعثة نظامي .

ولم يكن ذلك هو الهدف فقط ، بل كان بداية التخطيط لضرب الحركة الوطنية، إذ أذيع في ذلك الوقت أن إرسال « البارجتين الحريبتين » كان بناء على أمر ماليت حيث أرسل إلى حكومته يبين أن الأوربيين في خطر ولا سيما القاطنين في الإسكندرية ، وقد أكدت الوثائق الفرنسية « أنها تريد حماية الأوربيين في حالة حدوث اضطرابات في مصر »^(٣) ، بينما نشرت صحيفة الفارداكسندري « إن

(١) البرقيات المتبادلة بين القاهرة والأستانة أثناء الثورة العربية ، ١٢ أكتوبر ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، ١٤ ، ١٦ أكتوبر ١٨٨١ .

Doc. Dip. F. No. 161, 8 Octobre, 1881 .

(٣)

الباعث للمسيو ماليت على هذا بالفعل ، إنما هو قصد إلقاء الدسائس ضد النظارة الجديدة»^(١) .

وفى الواقع فإن الأمر يجمع بين تهديد الثورة أنوطنية ، ووضع حد للتدخل العثماني الذي تراجع بسحب البعثة فوراً والاحتجاج على وجود قطع الأسطولين ، ولم يتمكن الباب العالي أن يفعل أكثر من ذلك ، ورحلت قطعتا الأسطولين فى اليوم التالى لسفر البعثة بعد أن تثبت الوجود الإنجليزى الفرنسى .

لكن ما هى النتائج التى توصلت إليها البعثة مع قادة الثورة ؟

عقب الشرارة الأولى للثورة أرسل قادتها مذكرة للسلطان وضحوا فيها تلك الأخطار المحيطة بمصر ، وأنه إن لم يتدخل فسيكون مصير مصر كتونس ، وفاضت الشكوى من الاستبداد الذى أضعف الأمل فى الأمن والأرواح ، كما عاد بالقوة على نفوذ الأجانب حتى أصبحت البلاد فى أيديهم وتحت تصرفهم وكاد اسم الدولة العثمانية ينسى ، هذا ووقع على المذكرة عرابى وعبد العال حلمى وأحمد عبد الغفار .

أعجب السلطان بهذا المناخ الجديد الذى من الممكن أن يكون خلية عمل ، وعندما رأى أنه من غير الممكن إرسال قوات تركية إلى مصر أرسل البعثة ، والتقى مندوبها أحمد راتب بقائد الثورة ليعطيه الأمل فى التأييد السلطانى ، ورحبت الثورة بتلك العلاقة التى تمكنها من تحقيق الأهداف ، وفى الوقت المناسب يكون التخلّى عن المساعدة وفك الارتباط . وتذكر صحيفة الستاندرد « بينما كان الرؤساء المعينون بمأمورية نظامى باشا موجودين بمصر إذ براتب باشا الذى هو ضمن المأمورية يرحل سراً مع فئة من مصر ، وقد أراد التوجه إلى مكة عن طريق السويس فبحث على عرابى باشا عند محطة الزقازيق لعلمه أنه كان بوقتها مع آلاية برأس الوادى ، ولما علم أن عرابى وكان قريباً منه وقتها ، توجه هو من معه لمقابلته وقضى ليلة عنده»^(٢) .

ولم يكن الأمر بهذه البساطة ، إذ كان هناك تخطيط لكل ذلك ، وتم الترتيب أن يستقل راتب باشا نفس القطار الذى سيركبه عرابى من الزقازيق إلى رأس الوادى ،

(١) المفيد ، عدد ٣ فى ١٩ أكتوبر ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، عدد ٥٩ فى ٢٢ يونيو ١٨٨٢ .

ويقول عرابي « وأخبرته بكل ما أجريناه من أول الأمر إلى آخره ، وإننا لم نشق عصا الطاعة كما يدعى الأوروبيون بل طلبنا الإصلاح باسم الذات الشاهانية ، وبذلك علم الصغير والكبير أن لنا سلطاناً شرعياً هو صاحب السيادة العظمى على البلاد المصرية »^(١) . وفي هذا اللقاء تبودلت الآراء والأفكار ، ووعد راتب بأن يذكر عرابي بالخير لدى السلطان ، ويبين له أنه مسلم مخلص يدين بالولاء للخليفة ، وبدأت العلاقات .

ومن خطاب لراتب باشا إلى عرابي الممثل لقيادة الثورة نلمس سياسة السلطان التي تلعب بأطراف المسألة المصرية ، فهو يشجع الثورة « لا أهمية في من يكون خديوى مصر إنما يجب أن تكون أفكار والى مصر ومقاصده وسيرته خالصة من الشوائب بحيث إن تكون جميع حركاته متجهة لصيانة مستقبل مصر ولتوطيد عرى العلاقة الوثيقة مع عرش الخلافة » ويهاجم حكام أسرة معتمد على وعلى رأسهم إسماعيل « اجترعوا على ظلم المصريين وفرض الضرائب الثقيلة عليهم ومعاملتهم بالضغط والقسوة ، وزيادة على ذلك فإنهم تداينوا ديوناً ثقيلة وجعلوا المصريين يثنون تحت نير العبودية » ويمضى في التحذير من التدخل الأوربي « وعليه يهكم قبل كل شيء منع ما عساه أن يؤدي إلى التدخل الأجنبي » ثم التبيه باتخاذ الاحتياطات حتى لا تقع المكاتبات في أيدي غيرهم ، وطلب إرسال ضابط سراً « ليقدم التقارير للسلطان عن حالة البلاد »^(٢) .

وفي نفس الوقت يستلم عرابي رسالة من الشيخ محمد ظافر « شيخ السادة الشاذلية وشيخ الحضرة السلطانية » يتضح منها أن عرابياً قد أرسل رسالتين للسلطان ، وأنه راض عنه وعن إخلاصه وأمانيه ، وتؤكد ضرورة تثبيت الخلافة والتحذير من مطامع بريطانيا وفرنسا وخاصة الأولى وتبين موقف الخديوى الضعيف المتقلب ، وتردد أن السلطان لا يعمل على إسماعيل ولا حليم ولا توفيق ، بل على الرجل الذى يفكر فى مستقبل مصر ويثبت الروابط التي تربطه بالخلافة^(٣) .

وأصبح الأمر خطيراً ، فالدولة حاولت كسب الثورة إلى جانبها ، وأكدت على مصالح مصر سواء عن طريق الحاكم نفسه أو إبعاد التدخل وهذا ما ترجوه الثورة ،

(١) أحمد عرابي ، مذكرات ، ج ١ ، ص ١٦٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .

Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , pp. 121, 122 .

(٣)

وبذلك أمكن للسلطان احتواؤها في البداية ومضى في إعطاء الآمال والعطف على الأمانى ، ورحبت الثورة طالما هي المستفيدة من وراء ذلك ، وقد أعطى هذا قادة الثورة الثقة ، فراحوا يعملون وهم يشعرون بالتأييد من صاحب الحق الشرعى على البلاد ، لكنهم عندما كانوا يرون منه حييدة عن الطريق المرسوم يعلنون معارضتهم ، ومن هنا كانوا على فهم واع وإدراك كامل لموقف الدولة وأعدوا له الإعداد الكافى .

شعر الخديو منذ البداية بهذه العلاقة ، ورأى أنه لابد من بترها ، فعين له مندوباً لدى السلطان - كما سبق ذكره - وذلك ليوقع بالثورة ويكسب السلطان بجواره ، وداخل مصر كلف البوليس السرى للسراى للوصول إلى معرفة وسائل الإتصال بين الطرفين ، لكنه لم يستطع أن يوقف الإتصالات .

وكثف السلطان نشاطه ، وظهر على مسرح العلاقات « أحمد أسعد وكيل فراشة المدينة » فقد أرسله للثوار في عدة بعثات سرية كلها تدور حول إفهام القادة بأن انضمام الحركة الوطنية إلى الخلافة سيقويها ويدعمها ، في الوقت الذى مضت فيه رسائل عرابى للسلطان والتي تفيض بالاتهامات لتوفيق بأنه يسعى لبيع مصر للإنجليز ويعمل ضد مصالح الخلافة ، وكتب هذه الرسائل أحمد رفعت رئيس قلم المطبوعات الذى كان على درجة عالية من الثقافة ، « وهو الذى مهد لهم سبل المخابرة مع الآستانة ، وكتب كل المحررات إليها خصوصاً المكاتيب التركية ، وهو كاتب سر مجلس النظار »^(١) .

ويتطور الأحداث ساءت الدولة العثمانية تلك الخطوات التى تقدم عليها كل من بريطانيا وفرنسا تجاه مصر للتدخل فى شئونها الداخلية ، فاعتضت واحتجت على مذكرة يناير المشتركة ، إذ ارتابت من الأمر ، فالظروف لا تستدعى ولا تبرر صدور تلك المذكرة « فمصر جزء متكامل من الدولة التركية ، وأن تعهد الخديو بحفظ النظام والهدوء وتحمله إدارة البلاد وكذلك توثيق سلطان الخديوى هو من صميم حقوق السيادة للباب العالى »^(٢) ، كان ذلك ما أصدرته سفارة الدولة العثمانية فى لندن وباريس ، لكن لم يغير هذا من الواقع شيئاً ، فالسياسة العثمانية فى البداية يعلو صوتها لكنه فى النهاية ينخفض أمام قوة الدول .

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٨ ، محفظة ١٩ ، دوسيه ٨٥ .

(٢) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٥ ، المجموعة ٢٨/٣١ ، ٢٠ أكتوبر ١٨٨٢ .

كانت تلك المذكرة من العوامل التى قوت التقارب بين قادة الثوار والدولة ، إذ اعتقدوا أن الضمان الوحيد لإنقاذ البلاد لا يكون إلا بالتمسك بسيادة الباب العالى نفسه ، حتى أننا نجد أنهم يعلنون رفضهم للمذكرة ولمن قبلها « وأن السلطان هو سيدنا حيث أن الخديو قد قبل حماية القوى الأوربية المسيحية »^(١) ، أما الدولة فبالرغم من تصريحات السلطان عبد الحميد إلى ماليت بأنه لا يمكن أن يوافق على حكومة دستورية فى مصر ، نراه يؤيد ما ارتآه المجلس فى مسألة الميزانية .

وجاءت تصرفات رجال الثورة فى مسألة الشراكسة لتكدر السلطان ، لكنها لم تقطع الوصال ، ومضى كلا الطرفين فى طريقه المرسوم ، فعندما ساءت العلاقات بين نظارة الثورة الثانية وبين توفيق ، راح السلطان يكتب لمجلس النظار وأهمل الخديو نهائياً ، وقد ضبط توفيق إحدى هذه البرقيات فيقول لمندوبه فى الآستانة « إن هذا الوضع سيكون له نتائج السيئة ، ولا شك أن إتصال الباب العالى بهيئة النظار الموجودة الآن رأساً لما يشعر هذه الهيئة بالقوة والسيطرة أكثر فأكثر ، وستتجم عن ذلك الأضرار الجسيمة »^(٢) ، وبطبيعة الحال كان قادة الثورة يقومون بالرد على السلطان ليواصلوا المزيد من الهجوم على توفيق .

وعندما ازدادت حدة الموقف بمذكرة مايو المشتركة وإرسال قطع من الأسطولين الإنجليزى والفرنسى إلى الإسكندرية لتهديد الثورة ، يرسل عربى للسلطان ليشرح له كيف قدمت المذكرة وما حوته ولماذا رُفضت ؟ وبدأ الثوار فى نشاطاتهم المتعددة من أجل إسقاط توفيق عن طريق الباب العالى ، فُرُفعت طلباتهم لتعلن صراحة « الخديو موقوف ومطلوب عزله وتعيين خلف له »^(٣) ، وسلموا مذكرة إلى أحمد أسعد موقع عليها بضعة آلاف من المصريين ومنهم أكثر من ثلاثين عضواً من أعضاء مجلس النواب يطالبون فيها « بخلع توفيق الذى تسبب فى وجود الأسطولين ، ويتبع نفس السياسة التى اتبعها باى تونس لكى يسلم مصر إلى إنجلترا ، وأنهم على استعداد لقبول حلیم إذا ما ساند السلطان الحزب الوطنى ضد إنجلترا وفرنسا ، وأنه باستطاعة عربى أن يعجن ١٠٠,٠٠٠ جندى ، والسلطان سيفقد مصر إذا وافق على التدخل الأجنبى بأى شكل من الأشكال »^(٤) .

(١) Polit, Archives, Fasx XXVI - 24, No. 16 Pol, 11 Janvier 1882 .

(٢) محافظ الأبحاث ، المصدر نفسه ، ١٥ مايو ١٨٨٢ .

(٣) محافظ الثورة المرابية ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٢٨١/ب .

(٤) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 122 ، أحمد عبد الرحيم

مصطفى ، مصر والسائلة المصرية . ص ٢٢٤ .

ومن هنا نرى أنه كان لابد من الاعتماد على الدولة التي بيدها الحل والربط وتملك السلطة في هدم عرش توفيق ، وبذلك يتحقق ما تصبو إليه الثورة .

وأمام هذا الموقف كان لابد للخديو من أن يتحرك خاصة بعد أن ماج المجتمع بصيحات الثوار في كل مكان ، وأحس أن عرشه معرض للزوال أمام ثورة الشعب . فاتصل بالسلطان ، وطلب قوة عسكرية لتقف أمام هذه القوى ، لكن كعادته من ناحية ولعدم موافقة مندوبى بريطانيا وفرنسا من ناحية أخرى ، عدل عن ذلك وتراجع عن طلب القوة ، وطلب إرسال مأمور ، وجاءت الموافقة من السلطان بإرسال لجنة لتقصي الحقائق .

وفي ذلك الوقت وصل عرابى إلى أعلى قمة للزعامة والشهرة والحب للدرجة التي جعلت جرانفيل يصرح في مجلس اللوردات أن عرابياً من الناحية الفعلية قد أصبح الحاكم الأوحده لمصر^(١) ، وأقلق ذلك بريطانيا وفرنسا اللتين راحتا تضغطان على السلطان لكسر تلك القوة ، فقد طلبتا منه « أن يأمر عرابى وسائر زعماء الحزب العسكرى أمراً قطعياً بالذهاب إلى الأستانة »^(٢) ، وكان هو نفسه قد بدأ يقلق هو الآخر من هذا الوضع وبالرغم من إصراره في علاقاته مع الثورة بالتأكيد على المسألة الإسلامية والتمسك بها فإنه في قرارة نفسه يعلم أن الثورة عميقة في الوطنية ومتأصلة في القومية ، كما أن تلك القطع من الأسطولين التي تقف في المياه المصرية وتهدد وضع مصر الراهن قد ارتاب منها ، وأحس أن ذلك جميعه بسبب الثورة التي ممكن لها عن هذا الطريق أن تُفقد مصر .

هذا بالإضافة إلى نداءات توفيق المتكررة التي راح فيها يكيد للثوار لدى السلطان ، وخاصة ما يمس الناحية العنصرية والقومية ، كما أنه أظهر ضعفه وخضوعه التام له ، وللخديو العذر في ذلك بعد أن أيقن أنه في طريق الزوال ، إذ كان يخاف من قرار الثوار بعزله وتعيين حليم بدلاً منه ، ففي أول يونيو ١٨٨٢ دعا إليه قنصلى بريطانيا وفرنسا « وأبلغهما ما سمعه من أن العرابيين سيعزلونه ويولون حليم باشا ، وإذا لم يمثل لإرادتهم فإن العاقبة هي موته ومن معه ولو كانوا القناصل »^(٣) .

Lords , Vol. CCLXIX, June, 1882, p. 177 .

(١)

(٢) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، ج ٥ ، ص ٢٧٧ .

(٣) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ١٤٥ .

وأخيراً بدأت تصل إلى مسامع السلطان تلك التصريحات التي كان يتفوه بها قادة الثورة وتعلن صراحة الوقوف أمام أي تدخل عثماني ، والتي لم تكن لتخفى العداء تجاه العنصر التركي . كل هذه العوامل جعلت السلطان يحتاط جانباً من الثورة ، في الوقت الذي دأب فيه على سياسة القضاء عليها .

(ب) البعثة العثمانية الثانية

أوفد السلطان بعثة إلى مصر برئاسة درويش باشا لتحمل أكثر من هدف ولتعمل مع جميع الميادين ولتستولي على كل ما يمكن الإستيلاء عليه ، وقد أيدت الدول - بريطانيا ، فرنسا ، النمسا والمجر ، ألمانيا ، روسيا - إرسال هذه البعثة ، واعتقد بعضها أنها ستجعل عقد مؤتمر الآستانة الخاص بتسوية المسألة المصرية من باب المستحيلات ، وأن الأمر سينتهي بخضوع الثوار .

وكل رئيس البعثة درويش باشا في أن تكون سياسته مع توفيق ، وأن يحد من نشاطات عرابي ، وذلك بإغرائه للذهاب إلى الآستانة برضاه ، وأن يعلن بطريقة عاجلة وبشكل أبوى لعرابي عدم رضا السلطان عن مسلك الثوار ، وأنه إذا فشل في مسألة إبحار عرابي « أن يدعو إلى اجتماع ودي ثم يفتك به بنفسه » ، كما كانت لديه التعليمات بإلغاء مجلس النواب ، وتدعيم وزيادة قوة الخديوى التي هي امتداد لقوة السلطان ، وأن يطلب القوات إذا دعت الضرورة ذلك^(١) .

أما أحمد سعيد أحد أعضاء البعثة الذي اختير لتلك العلاقة التي ربطته بالثورة ، فقد سبق أن أرسل إلى مصر ثلاث مرات ، وكان السلطان يستخدمه في المهمات السرية الخاصة بالمسائل العربية ، ويستشير في كل الأحداث التي تتصل بالدعاية للجامعة الإسلامية ، وأنيط إليه مهمتا تشجيع الثوار على المضى في طريقهم ومراجعة تصرفات درويش باشا ، وأعطى لكل واحد شفرة وخط تلغرافى منفصل عن الآخر^(٢) .

كانت للمكانة الدينية التي يتمتع بها المندوب الثانى أثر في تلك المحبة والعلاقة القوية التي ربطته بالثوار فتقول صحيفة الفسطاط « إن وجود السيد أحمد أسعد في الوفد السلطاني وقع عند أعضاء الحزب الوطنى أحسن موقع ، فإنهم استبشروا

Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 302, Cromer , op. cit., (١) Vol. II, p. 285 .

Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 742 .

(٢)

باسمه ولقبه وأحبه لجوار رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام^(١) ، ومن هنا لقي الترحيب من الجميع ، وأعاد على الثوار أقوال السلطان ، إنه لا يهمه من يكون على الخديوية إلا من يحافظ على العلاقات مع الدولة ، وكان عليه وفقاً لما صدر له من أوامر تقديم المساعدة للثوار وجذب مودتهم ، كما وضَّح لهم إمكانية إرسال قوات لتكون بجوار المصريين ضد الأوربيين^(٢) ، ولم تكن تلك السياسة بجديدة على الأتراك .

أعد رجال الثورة للأمر عدته قبل وصول البعثة ، وألقى على النديم تهيئة الشعب للقاء ، وإعداد الرأي العام ، لبيان المعارضة تجاه خطوات التدخل الأنجلو فرنسي ، وعين عرابي يعقوب سامي وكيل الجهادية ليجري رسوم الإستقبال ، فنبه عليه عمر لطفي بعدم إجراء مراسم استقبال وفقاً لأمر الخديو فأجابه « إني مرسل من طرف ناظر الجهادية بتعليمات لا تؤخرني عن إجراءاتي سوى أوامره » ، وركب درويش مع يعقوب سامي في فلوكته واستقبل من الجنود بالدعاء بنصر السلطان ، بينما استقبله السكندريون بترديد « يعيش مولانا السلطان عبد الحميد ، يعيش الحزب الوطني الحر ويعيش رؤساؤه ، كلنا رافضون لائحة إنجلترا وفرنسا ورافضون من قبلها » ، وفي طريقه إلى القاهرة نزل بطنطا لزيارة المسجد الأحمدي ، وخطب مبيناً أنه مكلف بالحضور « لأعضد مساعيكم الخيرية في حفظ البلاد ، وإعلاء كلمة الله ، ولأمنع عنكم كل يد غريبة تتداخل فيكم ولو أحوج الأمر إلى القوة » ، ويتدرد الدعاء للسلطان والقادة الثوار « وكان الناس كيوم الحشر والكل ينادون بما نادى به إخوانهم أهل الإسكندرية » ، وعند وصول البعثة إلى القاهرة كان في استقبالها « العسكريون والعلماء والتجار والأعيان والوجهاء وبأيديهم باقات الورد فنشروها عليهم وهم يصيحون الحادي نصر الله الكل مولانا السلطان ، الحادي نصر الله الكل عساكر الإسلام »^(٣) ، ومن الملاحظ أنه لم يكن ثمة دعاء واحد لتوفيق بل كان رفضه يتردد على الألسنة .

ومضى درويش يتظاهر لطرفي النزاع بالتأييد ، فطلب نحو مائتي وسام لضباط الجيش ، وأعلن أن ذلك مكافأة لهم على ولائهم وإخلاصهم « للذات

(١) الفسطاط ، عدد ١١ في ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

(٢) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends, p. 122, Cromer , op. cit vol. II, (٢) p. 286 .

(٣) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٦ .

الشاهانية « وطلب لعرابي « النيشان المجيدي من الدرجة الأولى » ، وعند التوزيع لم يكن مخلصاً فأعطى الأوسمة لخدمة المعية ، وبعضها أهداه إلى توفيق اتباعاً لسياسة الميل إليه ، ومن ثم أحس الخديو بذلك وكان على يقين من شهواته ، فمنحه ٥٠ ألف جنيه مضافاً إليها ٢٥ ألف جنيه كهبات^(١) .

تمت هذه الرشوة لعلم الخديو تمام العلم أنه بالرغم من التعليمات التي أعطيت لدرويش من أجل تثبيت سلطته ، فإن السلطان لم يكن راضياً عليه ولا واثقاً فيه ، ولم يكن هذا وليد اليوم وإنما منذ أن تولى العرش ، وقد عثر على خطاب مع ضابط بحري كان المراسلة بين الثوار والسلطان ، جاء فيه « بعد إضلاع مولانا السلطان على كافة المحررات تحقق لجلالته أن الخديو ليس له القدرة على خديوية مصر ، وأنه عديم الإدارة كونه صفيير السن ، فصمم على عزله ويرغب تعيين البرنس حليم باشا عوضاً عن الخديو الحالي^(٢) » ، إذ رأى السلطان أنه ممكن عن هذا الطريق إنقاص الامتيازات التي حصلت عليها مصر بموجب الفرمانات السابقة ، وإعادتها للتبعية المباشرة للأستانة .

من هنا كان درويش تحت طاعة توفيق ، وانضم كليه إلى جانبه بعد أن أصبح واضحاً أنه يعارض عرابي في كل ما يبيديه ، خاصة بعد أن صرح الخديو له بأنه ليس من الممكن إصلاح ذات البين بينهما ، وقد صادق القناصل على ذلك .

وجاءت مقابلات وفود المصريين لدرويش لعرض مطالب الثورة ، وفي البداية كانت إجاباته عامة على طلباتهم مؤكداً على سلطة السلطان ، وشكلت جلسة العلماء معه غاية الثورية وانتهت بأزمة حادة بين الطرفين ، واستلمت تلك العرائض التي تفيض بالثورة وتطالب بإسقاط توفيق ، لكن درويش يريد القضاء على الثورة فكيف يعمل على تحقيق رغباتها ، هذا ويجب ألا ننسى الضغط والإلحاح عليه من مندوبي بريطانيا وفرنسا في هذه المسألة . وأخيراً فقد كان الحاقدون والرافضون محيطين به ، وعلى رأسهم شريف الذي طالما اختلى معه فزاد من كراهيته للثورة .

وعندما أحس درويش أن الأمة بجميع قواها تتقف وقفة واحدة مع قائدها وزعيمها متقدة حماسة ووطنية ، أراد أن يلتقي بهذا الزعيم لينفذ الخطة ، ولم يكن عرابي حتى ذلك الوقت قد قابله ، وفي هذا لدلالة على سياسة الثورة تجاه الدولة ، ولكنه حضر في نهاية الأمر بعد أن توسط أحمد أسعد وطلب منه الحضور .

(١) Ninet , Origin of the National Party in Egypt , p. 92 .

(٢)

(٢) محافظ أنثورة العرابية ، محنظة ١٣ ، دوسيه ٢٤٦ .

وتمت المقابلة فى ١٠ يونيو وجمعت درويش وأحمد أسعد وعرابى والبارودى ، وفى البداية رأى درويش أن يكون ودوداً مع عرابى ويأخذه باللين فقال له : « أنت أنت وحدك الأمر الناهى فى مصر ، أنت مع كونك لست إلا ناظر الجهادية بيدك السلطة العليا بأسرها ، وهذا ما أغضب الدولة ... استعف من وظيفتك العسكرية بحجة حضورى حيث إنى مشير مرسل من قبل السلطان ، وكن نائباً عنى مأموراً تحت قيادتى لكى تسهل على المخابرة مع الأجانب ، عليك أن تذهب مع الضباط الكبار من إخوانك إلى الآستانة حيث إن مولانا الخليفة العادل يرى الخير من مفاوضاته معكم » . فرد عرابى : « لست حريصاً على السلطة التى تريد أن تتسبها إلى ، هى سلطة غير مفتتحة ، الأمة هى التى أفضت إلى بها ، فالواجب أن ينظر إلى الأمة ويفكر فى شكواها » ثم أبدى إمكانية انسحابه من ميدان العمل على شريطة إعطاء تصريح لقادة الثورة ببراءة الذمة من التبعات السابقة ، وطلب إعفاء من مسئولية حفظ الأمن الذى تعهد به للقناصل ، ثم بين « أن مالت وكولفن وسنكريش عاملونا معاملة الخارجين عن النظام ، وذلك فى بلادنا وهم الأجانب الذين لا يحترموا لنا شيئاً ونحن نحترم لهم كل شئ » (١) .

أعقب ذلك حادثة الإسكندرية ، وكان لابد لدرويش من الإستمرار فى سياسته ، فبعد أن منح عرابى « النيشان المجيدى » طلب منه أن يذهب للسلطان ليشكره ، لكنه رفض وأظهر أن الشعب لن يسمح له بمغادرة مصر « إن الناس متعلقة بى وازدحامهم على فى كل وقت بحيث أنهم لا يمكنونى تناول لوازمتى المعاشية ، وأخشى أن يحيلوا بينى وبين ذلك إذا علم لهم أنى أريد السفر إلى خارج القطر المصرى لما يتوقعونه مما يحيق بهم من الضرر فى المستقبل ويترتب على ذلك حدوث فتنة داخلية » (٢) .

تبع ذلك محاولة أخرى قام بها درويش سبقه إليها قنصل فرنسا وهى تقديم الرشوة لعرابى ، فتد عرض عليه مرتباً مغرياً شهرياً ، لكنه أبى وهذا أمر طبيعى . وأخيراً جرت آخر محاولة ، فيذكر درويش فى تقرير له بأنه أعطى أوامر سرية إلى قبطان السفينة عز الدين التى كانت بالميناء لتكون على استعداد برفع المرساة بمجرد أن ينزل عرابى إليها وتبحر على الفور « واقترحت على عرابى أن نقوم بزيارة السفن المصرية فى الميناء ومن بينها عز الدين ، فكانت إجاباته بأنه جندى ولا يوجد

(١) محمد عبده ، المصدر المذكور ، ص ١٨٠ ، ١٨١ .

(٢) محاضرات الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ١/٥٢ .

ما يهيمه في السفن ، وقال « الأفضل الالتفات لشئوننا من أن نضيع الوقت في زيارة السفن »^(١) ، لقد فهم عرابي الأعباء السياسية السلطانية .

وساءت العلاقات بين الطرفين ، ومضى عرابي في إلقاء الخطب العنيفة ضد السلطان ، واعتبر القادة أن مهمة درويش قد انتهت وقطعوا الإتصالات معه ، وسافر عقب ذلك بناء على طلب الخديو .

وفي تلك الأثناء كان القادة يجرون إقامة التحصينات ، وعندما اعترضت الدولتان على ذلك لدى السلطان أمر بوقفها ، لكن أمره لم يطع واستمرت ، وحينما قررت الدولة تكوين لجنة دولية للبت في مسألة تسليح الطوابي في الإسكندرية رفضت بريطانيا رفضاً قطعياً الموافقة ، وذلك حتى تتمكن من تنفيذ مخططاتها وإتمام عدوانها .

(ج) التحول النهائي ضد الثورة

عقب حادثة الإسكندرية ، قررت الدول عقد مؤتمر بالآستانة في ٢٣ يونيو ١٨٨٢ بدار السفارة الإيطالية لتسوية المسألة المصرية رغم معارضة الدولة العثمانية على أساس أن بعثة درويش ستحل الأزمة المتحكمة ، لكن ضرب برأيها عرض الحائط ، واجتمع سفراء دول بريطانيا وفرنسا وألمانيا والنمسا والمجر وروسيا وإيطاليا ، ورفضت الدولة العثمانية الاشتراك في المؤتمر حتى لا تجعل للوضع الصفة الدولية ، إذا عدت أن تسوية الأمور من إختصاصاتها ومضت في موقفها حتى ضرب الإسكندرية ، وعندما رددت الصحافة الإنجليزية مطالبة بأن يكون تفاهم لندن مع عرابي وليس الباب العالي ، أذاع ذلك الشك والقلق في الآستانة وساد الاعتقاد بأن الثوار في مصر يسعون إلى الإستقلال ، وهنا رأت الإشتراك في المؤتمر في ١٨ يوليو والتدخل المسلح من جانبها بناء على اقتراحات المؤتمر ، وكسرت رفضها الأول الذي اعتمد على تقارير درويش التي تؤكد أنه ليس في مصر من خطر يوجب التدخل ، هذا في الوقت الذي كان السلطان يخشى فيه من أنه لو تدخل يثير الشعور الإسلامي خاصة في تركيا نفسها ، حيث كان العلماء يؤيدون عرابي ويعتبرونه مدافعاً عن الإسلام ، كما أن شيخ الإسلام بالآستانة أعلن عدة مرات « أن سوق عساكر من قبل الدولة ضد المسلمين أمر لا تجيزه الشريعة »^(٢) ، لكن أمام مصلحة الدولة كان لا بد من وضع هذه الاعتبارات جانباً .

Egypt, No. 7 (1882). June 16, 1882 .

(١)

(٢) محافظ الأبحاث ، المصدر نفسه ، ١٠ أغسطس ١٨٨٢ .

وتزعمت بريطانيا المؤتمر وأهاب دوفرين مندوبها فيه بالدول أن تأخذ الثورة المصرية بالشدة حتى لا يستحفل نفوذها فلا يعود بعد ذلك من السهل استئصال شأفتها ، وكانت لندن تعد نفسها لتتدخل بمفردها ، وبينما المؤتمر يتفاوضون من أجل إرسال قوات تركية لإقرار الأمن باغتت بريطانيا وقامت بعدوانها على الإسكندرية ، إذ كانت سيئة الظن في الدولة وفي إخلاص السلطان تجاهها ، كما أنها خشيت من أن تنظم قواته في النهاية عملية موحدة مع عرابي ، أو أن يستسلم عرابي لهذه القوة ، وبذلك تتمكن الدولة من القيام بالدور الذي تتوق إلى أدائه ، فتبسط سلطانها وسيادتها على مصر ، وهذا يناقض سياسة لندن وباريس منذ البداية إذ كانت الإتفاقات بينهما مضادة كلية للتدخل العثماني في مصر .

اعتقدت مصر أن المؤتمر سيحل المشكلة ، ويقر الحقوق بطريقة سليمة ، ولن يسمح لتدخل عسكري منفرد ، لكن عندما انتشر الخبر بأن الدولة العثمانية سترسل قواتها ، رفع الثوار أصواتهم وأذيعت تهديداتهم بأنهم لن يسمحوا بأن تخطأ قدم أى عسكري تركى أرض مصر .

وعندما استأثرت بريطانيا بالعدوان وكان لابد من الحرب ، رأى الثوار مواصلة الإتصال بالسلطان ، فتوافدت عليه البرقيات منهم ، تلك التى غضت بالشكوى من تصرفات توفيق والقدح فيه وتواطؤه مع الإنجليز وانضمامه إلى جانبهم ، وتصور ضربهم الإسكندرية وسوء تصرفاتهم وخيانة درويش للقضية ، وتمضى في محاولات لضم السلطان لصف الثورة بالتأكيد على الروابط وإبلاغه بالدعوات التى يرددها له الأهالي^(١) .

ورأود الأمل الثوار في إمكانية مساعدة السلطان لهم على أساس الزود عن الإسلام ، فراح عرابي ييلفه بما قرره الأمة في مسألة الدفاع وينتهى بقوله : « إن الشعب بأجمعه واثق بأن العظمة الشاهانية تحل مشاكله التى جلبها عليه توفيق باشا ، أما المدافعة عن البلاد وأهلها والحقوق السلطانية فهى من الوجوب علينا »^(٢) . وبذلك أراد عرابي أن يحول حريه في مصر إلى حرب إسلامية ، ويحاول أن يشد أطراف الدولة لمشاركتها فيها ، ويبين أنها من أجل الدفاع عن حقوق السلطنة ، واعتبر أن الجيش المصرى هو جزء من الجيش العثماني .

(١) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د ٦ .

(٢) المصدر نفسه .

وعلى هذا الأساس انتقلت التخطيطات الحربية إلى السلطان وكان من يقوم بذلك أحد الثوريين « على بك راغب قبودان » وهو من الخلية الأولى للثورة منذ حرب الحبشة ، وقد أقر أنه توجه نحو ست أو سبع مرات للأستانة لتوصيل أوراق عرابي والبارودي وسليمان داود ، وتعددت لقاءاته مع الصدر الأعظم الذي كان دائماً يسأله عن « أفكار الأهالي » وقد أخبر البارودي القبودان عن أسلحة مصر ليلفها للأستانة « إنه موجود ألف وخمسمائة مدفع أرمسترون وخمسمائة مدفع كروب ومائتان وخمسون ألف بندقية ريمنتون وجبخانه تكفى لعشر سنوات »^(١) ، وقد كان ذلك من الأخطاء التي ارتكبها القواد حيث تسرب كثير من الأسرار الحربية التي عرفها الإنجليز .

وتمت السيطرة على طريق الشام ، وأصبحت الاتصالات في أيدي رجال الثورة ، فكانوا يضبطون المراسلات التي تصدر عن الخديو إلى باشكاتب السلطان ويمنعون وصولها ، وأمام ذلك سعى الإنجليز لقطع هذه الاتصالات ، وقد وكل إلى « بالمر » هذه المهمة ، ونجحت لندن في مسعاها بقطع جميع الخطوط التلغرافية الموصلة للأستانة ، وبالرغم من ذلك فقد ظلت الاتصالات ، فنى برقية شفرة من محافظ وقومندان فرقة دمياط إلى عرابي تفيد بأنه وجد « من يعول عليه توصيل البوستة والتلغرافات إلى يافا ومنها للأستانة ، وأنه شخص مؤتمن ، وينزل بمراكب التجار بصفة بحرى »^(٢) ، ووافق على ذلك المجلس العرفى ودوام القادة على التحرير للأستانة ، ووصف اعتداءات الإنجليز واختراقهم حيدة قناة السويس ومخالفتهم للعهود ، لكن لم يكن يصل الرد حيث قطعت الدولة إتصالاتها نهائياً ، إذ كانت تعد رداً قاضياً على الثورة .

ومضت بريطانيا في إجراءات الضغط على السلطان حتى تحوله عن الثورة وتجعله يقف موقف المعارض ، فقد كانت تتوق إلى قطع العلاقات بينهما إذ ساءها التأييد السلطاني بمنح عرابي النيشان المجيدى حتى ولو كان ظاهرياً . هذا في الوقت الذي سرت شهرة عرابي كبطل من أبطال المناضلين من أجل انتصار الإسلام على الصعيدين العربى والإسلامى . فانقذت الغيرة فى قلب السلطان من هذا الزعيم ، فكتب إلى العلماء فى مصر يطلب منهم أن يمنعوا المصريين من إرسال المؤن والمتطوعين إلى عرابي ، لئلا يته الرد بأن المصريين لن يلقوا السلاح إلا إذا انسحب

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٤٦ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٠٢/ب .

الإنجليز من الإسكندرية ، وأن القضية المصرية ليست متصلة بشخص عرابي وإنما بخلّاص البلد^(١) .

وهنا التقى الطرفان ، لندن والآستانة . واجتمعا على ترجمة الحقد إلى عمل من شأنه أن يقضى على عدوهما المشترك ، وذلك بإعلان عصيان عرابي ، فبريطانيا منذ فترة وهي تسعى لهذا العمل حيث إنها تعلم جيداً عمق وتأصل الناحية الدينية لدى المصريين ، فإعلان مثل ذلك من السلطان يكون له الأثر الكبير على الثورة في مصر ، لكن السلطان لم يكن يظهر الموافقة التامة ، وتكرر الطلب ، ويشير السفير النمساوي بالآستانة إلى مساعي دوفرين بشأن ذلك فيقول « إن الحكومة الإنجليزية تعتقد أن لديها أسباباً تبرر ذلك ، فمنها أن جزءاً كبيراً من الجيش المصري سوف ينقص من حول عرابي باشا بعد صدور مثل هذا الأمر ، وسيؤدي ذلك حتماً إلى حل الجيش المصري » ، ويبين أن السلطان بنفسه استقبل ترجمان السفارة الإنجليزية الأول الذي كُلف بتقديم هذا الطلب ، وتحدث معه بهذه المناسبة عن عرابي بتعبيرات مريرة جداً ، ناعتا إياه بالنفاق والخيانة وسوء الإسلام ، كما أعرب بأنه لا يستبعد أن يصدر مثل هذا الإعلان^(٢) . وركزت لندن على ضرورة إصدار إعلان العصيان بعد أن أدركت أهميته ، وكانت تهدف أيضاً من ورائه تدعيم موقفها في الهند وعدم إثارتها ، خاصة وأن نشاط عرابي وإعلانه الجهاد وصلت أصداؤه إليها ، فعندما يصبح عاصياً عن الخليفة يضمن لها البقاء دون قلاقل في مستعمراتها الإسلامية .

وأخيراً صدر المرسوم بإعلان عصيان عرابي ومما جاء فيه أن عرابياً « ثار على الترتيبات القانونية التي تتضمن الفرمانات ، فأصاب إختصاصات الحكومة القائمة بالاضطراب وبلبلة الثقة فيها والنظام العام ، مما أثار آخر الأمر التدخل العسكري الأجنبي » ومضى يبرر تصرفات بريطانيا إزاء ضرب الإسكندرية ، وأن عرابياً المتسبب في سفك الدماء وإزهاق الأرواح ، ولم يسمع لنصائح درويش بالسفر إلى الآستانة « وهو وأعوانه قد استمروا هذا المسلك الذي اتخذوه بإصرارهم على الظهور بمظهر المطالبين بإعطاء البلاد دستوراً شرعياً في الوقت الذي يخفون فيه

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصر والمسألة المصرية ، ص ٢٨٧ .

(٢) الأرشيف النمساوي ، محفوظ ٢٠ ، المجموعة ٢٦/٢١ ، ٢٥ يونيو ١٨٨٢ .

نواياهم الخبيثة ، ويمضى الإعلان في إقامة الحجج والبراهين على تعدد أخطاء عرابي حتى وصل إلى النتيجة المرجوة « فقد أعلن عصياناً ونتج عن هذه الحالة وهذا السلوك أن يجري بطبيعة الحال بما يتناسب مع عمله ويعامل ككائن وعاصي ، ويترتب على ذلك الاعتراف بشخص الخديوي العالى الذى يتمتع بثقة الحكومة الشاهانية » (*) .

وهكذا نجح تأثير وضغط بريطانيا ، إذ لمس أعماق الحقد الداخلى للدولة العثمانية التى تلونت مواقفها وأهواؤها وأغراضها ، فهى مرة مع الرجعية متمثلة فى الخديو ومن يسانده ، وأخرى مع الثورة ، لكنها تصحو لتغير من موقفها الذى لا يتمشى مع الثورات والقوميات ، وتجرى وراء مصالحها لتعصف بكل القيم والمبادئ .

ونشر العصيان فى الصحيفة الرسمية للدولة العثمانية إرضاء لبريطانيا التى ابتاعت من هذا العدد مليون نسخة ، وأرسلتها إلى الهند وأفغانستان والحجاز والعراق والمغرب الأقصى ، ووزع منها على ضباط الجيش المصرى فى جميع المراكز بواسطة سلطان باشا .

ولنا أن نتساءل لماذا اختص عرابى بالعصيان دون غيره مع وجود العديد من الثوار ؟ لقد كان عرابى الأمة بأسرها ، ذلك الشخص الذى أصبح الشغل الشاغل للدوائر السياسية الدولية ، وله من التأثير على قوى مصر جميعها ، فإذا سقط تأثرت الثورة بسقوط زعيمها ، وكان العصيان هو الورقة الراجعة التى كسبت بها بريطانيا دورها ، ويعد من أهم الضربات التى وجهت لقوى الثورة .



(*) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٧ ، مجموعة ٢١/٢٧ ، ١٢ سبتمبر ١٨٨٢ .

الفصل التاسع

مساعي حلیم وإسماعیل من أجل العرش

﴿... نشاط الأمير حلیم﴾

وفقاً لنظام وراثة العرش كان يحقق للأمير حلیم وهو الابن الأصغر لمحمد على أن يتولى حكم مصر ، لكنه لم يتمكن من ذلك لمجهودات إسماعیل ، فالعداء مستحكم بينهما ، وقد رأى الأخير ضرورة القضاء على ذلك المنافس الخطير لينال مراده ، وكان التعامل بالمال هو من سماته ، فوصل به لإتفاق مع حلیم على أن يعطيه ٦٠ ألف جنيه مصری لمدة أربعين سنة في سبيل أن يترك حقه في العرش ، ونفذ الإتفاق حتى جاء قرار الحكومة في ١٥ ديسمبر ١٨٧٩ ليخفض راتبه إلى ١٥ ألف جنيه ، فاحتج على هذا الإجراء^(١) ، كذلك قام إسماعیل بالاستيلاء على ما يملكه من « الأطنان الأثرية والجفالك والأبعاد العشورية وأطيان والدته بما فيها من مواشى وماكينات وطملمبات ووابورات مياه وأشجار في نظير مبالغ »^(٢) . وجاء فرمان ١٨٧٣ الذي بذل فيه إسماعیل الأموال ليغير نظام الوراثة ويحرم حلیم من حقه^(٣) ، ولم يلبث الأمر أن اتهمه بالتآمر عليه وأمر بنفيه خارج مصر واضطهد جميع مؤيديه فرحل أغلبهم^(٤) .

وفي الخارج بدأ يمارس نشاطه ويبذل مساعيه من أجل استرداد حقه الذي أفقده له إسماعیل ، فطرق جميع الأبواب ووجد المؤيدين ، فعندما ظهرت بوادر

(١) Egypt, No. 1 (1882), No. 1 , August, 14, 1880 .

(٢) محافظ الأبحاث ، محفظة ١٢٦ ، أوامر كريمة للدائرة السنية ، صورة الأمر الكريم نمرة ١٢ ، غاية ذی القعدة ١٢٨٢ (١٨٦٥) .

(٣) Cromer , Op. Cit., Vol. II, p. 136 .

(٤) عبد الرحمن الرافعی ، عصر إسماعیل ، ج ١ ، ص ٢٤٤ ، مارلو ، المرجع المذكور ، ص ٢١٧ .

ضعف توفيق في منصبه رأت فرنسا أن تحل مكانه حليم « وكان سفير فرنسا بالآستانة مداوماً على الاجتماع مع البرنس حليم باشا »^(١) ، وقد صدقت في مسعاها ، إذ يقول مراسل صحيفة التيمز بالآستانة « توجد أسباب تدل على أن فرنسا قبلت طلب عبد الحليم باشا حتى قيلت أنها فتحت المخابرة في هذا الشأن »^(٢) . واحتضنت باريس مناصريه ، فمنها خرجت صيحات يعقوب بن صنوع الذي كان يعيل إليه ويرى أنه أكثر ملائمة لحكم مصر من إسماعيل وتوفيق نظراً لما كان يعلنه حليم من مبادئ يريد تحقيقها إذا تولى عرش مصر .

ولاعتماد حليم على فرنسا وميلها له جعل بريطانيا تشكل معارضة تجاه ذلك ، وتقف أمام كل خطوة للاستحواذ على حقه ، فتتبعت وراقبت أتباعه وخاصة في مصر عن طريق قنصلها^(٣) ، وكان من رأى دى فريسنيه الذى كتب إلى جرانفيل يقترح عليه استبدال توفيق بحليم لكن وزير خارجية بريطانيا يرفض^(٤) ، هذا بالرغم من علاقات الود والتفاهم بينهما .

ويحاول حليم استرضاء لندن ، فيتصل بالسفارة الإنجليزية بالآستانة « ويوعده السفير بطرد عرابي باشا وغيره من كبار رجال الثورة وإعادة النفوذ الأوربي إلى مصر كالأول في حالة إعطائه خديوية مصر »^(٥) ، لكن تلك التصريحات لم تلق قبولاً لدى لندن ، ومضت تعارض في تعيين حليم^(٦) ، في الوقت الذى أيدت فيه ألمانيا والنمسا إعطاءه عرش مصر ، فيذكر بلنت « أن ألمانيا والنمسا اللتين يمثلهما روتشلد وبعض الماليين راضيتان بالعلاج الذى استعمل عام ١٨٧٩ بدخول السلطان في المسألة وتعيين حليم مكان توفيق »^(٧) .

أما عن الدولة العثمانية فقد كانت تميل إليه ، وتعلم بنياته ورغباته وتشجعه ، فيذكر مندوب الخديوى لدى الباب العالي أنها تسمح له بالذهاب إلى

(١) الطائف ، عدد ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

(٢) المفيد ، عدد ٥٣ في ٤ مايو ١٨٨٢ .

(٣) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٦ ، ٢٧ نوفمبر ١٨٨١ .

(٤) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ١٢٣ .

(٥) محافظ الأبحاث ، المصدر نفسه ، ١١ أبريل ١٨٨٢ .

Cromer , op. cit., Vol. II, p. 196 .

(٦)

Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 276 .

(٧)

أوروبا « لعمل الفساد »^(١) ، وكان حليم يعرف جيداً كيف يرضيها وينفذ إلى داخلها ، فهي تعمل من أجل المزيد لمصالحها ، فعقب عزل إسماعيل رأت الفرصة لاسترجاع نفوذها في مصر وأرادت تعيين حليم بدلاً من توفيق ، وذلك لإلغاء الإمتيازات التي حصلت عليها مصر ، وقد قال محرر صحيفة التيمز بعد حديث له مع إسماعيل قبل تنازله عن العرش « فهمت أن الباب العالي هو من أشار بتولية الأمير حليم لكن بريطانيا وفرنسا أشارتا على الخديو بالتنازل ووعداه بمساعدته على تولية ابنه توفيق »^(٢) ، وبذلك تتضح الثقة التي عقدتها الدولة على حليم وموقف بريطانيا وفرنسا إزاء ذلك ، ومع أن فرنسا كانت تميل لنصرة حليم فإن النفوذ الإنجليزي كان قوياً في هذه المسألة .

استطاع حليم أن يكسب بجواره الكثير من الساسة الأتراك ، ومع بداية الثورة والدولة تحوم حول إحلال وال آخر مكان توفيق وتجعل تعيينه محدوداً بمدة زمنية معينة وهي خمس سنوات ، ويذكر السفير الفرنسي لوزير خارجيته « أن السلطان لديه مشروعاً وينتهد الفرصة لكي ينفذه »^(٣) ، وعلى ذلك كثر تردد حليم على السلطان لدرجة أنه كانت هناك اجتماعات تعقد معه « تم استقدام حضرة حليم باشا لدى الحضرة السلطانية ، وذلك عقب وفود قنصل جنرال إنجلترا في مصر على الآستانة »^(٤) ، كما أنه لم يترك مجالاً إلا ويقوم بعرض آرائه ومقترحاته حول المسألة المصرية^(٥) ، بعد أن يأذن له السلطان ، لكن في نفس الوقت يرفض الأخير أن يعطيه الحرية في حديثه إذا أظهر فيه الإشارة بأنه سيكون خليفة للخديو^(٦) ، وهذا من سياسة الدولة المعروفة .

لم تغفل بريطانيا ذلك فقد كانت على علم بكل تلك الخطوات ، ففي حديث لكوكسن مع عرابي وضع له تلك السياسة التركية من أجل إعادة حليم وتولية عرش

(١) محافظ الأبحاث ، المصدر نفسه ، ٨ ديسمبر ١٨٨١ .

(٢) الوطن ، عدد ٨٧ في ١٢ يوليو ١٨٧٩ .

(٣) Doc. Dip. F. Tom IV, No. 134, p. 124 .

(٤) المصباح ، عدد ١٩٩ في ١٩ سبتمبر ١٨٨١ .

(٥) البرقيات الواردة من أستانبول والصادرة إليها أثناء الثورة العرابية ، ترجمة الدفتر ٢٨٧ ،

برقية ٤ ، ١٢ سبتمبر ١٨٨١ .

(٦) Archives des maison, de cour et d'etat, Vienne. Fasc XXX 1/9. 6 Mars, 1882 .

مصر^(١)، وعلى صفحات صحيفة التيمز كتب مراسلها في الآستانة يقول « إن عبد الحليم باشا تعهد لأهل السياسة في الآستانة بأن يكون آلة للباب العالي بمصر » ويمضى « إن فرض وتمكن من قصده وجب عليه أن يعطى للباب العالي الكفالات القوية عن صداقته في المستقبل »^(٢)، وقد وافق هذا ما ذكره عرابى « الحضرة السلطانية راغبة وتظهر كل يوم ميلها إلى حليم باشا وتقربه منها ، وهو يعدها بالخضوع والانقياد لأوامرها ونواهيها »^(٣) .

ولم تعد مسألة تولية حليم عرش مصر خافية خارجياً أو داخلياً ، واهتز عرش توفيق ، ففى عهد نظارة الثورة الثانية ، انتشر ما يفيد بموافقة الدولة على تنازل الخديو لحليم عن الخديوية^(٤) ، وأرادت الدولة أن تحقق ما تصبو إليه ، وأثناء مؤتمر الآستانة يذكر السفير النمساوى بالآستانة « أن السلطان عين مندوبين له فى المؤتمر، وزير الخارجية وباشا آخر من أجل مهمة سرية إلى السفيرين الإنجليزى والفرنسى ليقتنعهما بقبول تغيير شخص الخديوى بديلاً عن الحلول الأخرى ، باستبدال توفيق بحليم كوسيلة مناسبة يرى فيها إقرار النظام والحالة فى مصر ، هذا فى الوقت الذى قدم فيه هذا الاقتراح السلطان نفسه إلى « دوفرين الذى تلقى من حكومته جواباً بالرفض ، وقد استقبل السلطان القائم بالأعمال الألمانى لنفس الاقتراح »^(٥) . ذلك فى الآونة التى كان فيها يتفاهم مع عرابى بشأن إمكانية إتمام ذلك^(٦) ، رغم أنه فيما سبق هذه الفترة كان يبين أنه لا يهيمه من يكون خديو مصر .

لكن ماذا عن موقف المصريين من حليم ؟

كانت خطة حليم متشعبة الأطراف ، إذ سعى خارجياً من أجل الاستحواذ على مصر ، أما داخلياً فقد كثف نشاطه وأراد بكل الطرق التقرب من الثوريين الذين يمكن لهم أن ينادوا به حاكماً عليهم بعد أن يسقطوا من يقف ضد ثورتهم ، وبذلك يمكن له أن يتولى العرش بناء على إرادة الشعب ويمارس سلطته كحاكم شعبى .

(١) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 85 .

(٢) المفيد ، عدد ٥٣ فى ٤ مايو ١٨٨٢ .

(٣) أحمد عرابى ، مذكرات ، ج ٢ ، ص ٣٠١ .

(٤) محافظ الأبحاث ، المصدر نفسه ، ٢٥ أبريل ١٨٨٢ .

(٥) الأرشيف النمساوى ، محفوظة ٢٠ ، المجموعة ٢٦/٣١ ، رقم ١٨٤ ، ٢١ يوليو ١٨٨٢ .

(٦) المصدر نفسه ، رقم ٥٨ ، ٢٢ يوليو ١٨٨٢ .

رأت الثورة أن يلغى نظام الحكم القائم ، وأن تجتث الشجرة العلوية من جذورها وكان عرابي يكره حلليم^(١) ، بل الأسرة العلوية جميعها وكثيراً ما أعلن وضع نهاية لها^(٢) ، ويذكر لنا بلنت « أن هدف الثوار كان وطنياً بحثاً وأنهم لم يكونوا مقتنعين بولاية حلليم مكان توفيق أو بأى فرد من العائلة الخديوية »^(٣) .

ومع هذا كان من بين الخطة إمكانية الرضا بحلليم لإنهاء الحكم القائم كخطوة يمكن لهم بعدها الإطاحة به ، ما داموا قد برهنوا على النجاح فى إسقاط حاكم وتنصيب آخر . هذا بالإضافة إلى أن حلليم كان يروج مبادئ له ليست وليدة الأحداث ، ولكنها من الأسباب التى جعلت إسماعيل يتخلص منه تلك التى تتفق مع مصلحة المصريين^(٤) ، وكانت إعلاناته وتصريحاته عقب ذلك تضع ستاراً وراء تلك الطبيعة التى تتفق مع صفات بقية عائلته المتسمة بروح المؤامرة والتعالى^(٥) ، فهو يمثل الرجل الألبانى الجامد الطاغى الفاسد القاسى المرتشى^(٦) ، لكنه يخفى ذلك كله حتى ينال ما يرنو إليه ويظفر بعرش مصر .

أضف إلى هذا أنه كان له بعض الموالين فى مصر ، الذين كانوا على اقتناع أنه من الأوفق والمصلحة لمصر أن يكون حلليم حاكماً لها فى إطار الاستقلال الذاتى ، بمعنى أنه إذا كان ولائهم من الارتباط بالدولة العثمانية فى ظل الفرمانات ، فيفضل حلليم عن أى فرد فى الأسرة العلوية ، ومن بين هؤلاء عبد السلام المويلحى ، فقد كان يميل إليه وهو وكيل لدائرته^(٧) ، كذلك حسن موسى العقاد ، وعن هذا الطريق جرى التأثير على اتجاه قادة الثورة .

وبدأت الاتصالات بين الطرفين ، وكان عثمان فوزى أحد أداة التفاوض - وهو شركسى الأصل وأحد مماليك محمد على وظل مخلصاً لابنته زينب وعمل وكيلاً

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٤٦ .

Biovès , op. cit., p. 89 .

(٢)

Blunt, My Diaries, Vol I, p. 13 .

(٣)

Chaille' , Les trois Prophetes : Le Mahdi-Gordon - Arabi, p. 272 .

(٤)

Archives d'etate et de cour, Vienne, Actes, Politico, Commerciaux, Finances,

(٥)

5 Mai, 1880 .

Duse, op. cit., p. 13 .

(٦)

(٧) المنظم ، عدد ٧٨٨ فى ٩ أكتوبر ١٨٩١ .

لداثرتها - فساند سياسة حليم وراح يعمل لتحقيقها ، فنراه يتحول إلى جانب الثورة ، ويتقرب لعرابي ، ويؤيد كل خطواته من أجل اعتلاء حليم العرش ، كما كانت له علاقاته مع العقاد ونجح في أن يجعله من مؤيدي حليم^(١) .

ولم يجهل عرابي نوايا عثمان فوزي ، لكنه لم يكن في يوم من الأيام على صلة بحليم ، فلم يعثر على أى مكاتبات منه أو إليه تؤكد ذلك^(٢) ، ولكن تناول قادة الثورة في اجتماعاتهم التي كان يحضرها عثمان فوزي والعقاد مسألة تعيين حليم ، فيقول الأول في محضر التحقيق معه أن محمود سامي سأله عن سن حليم » فأخبرته أنه مثل سن إسماعيل باشا الخديو السابق أعنى الخمسين سنة ، فقال لى يوجد له صورة فقلت له موجود فطلبها منى وأحضرتها^(٣) .

ومضت الدعاية لحليم الذى بذل من أجلها هو وأخته الأموال ، واتهم العقاد بنشاطه في هذا المجال على أساس أنه اعتمد عليها » ليصرفها في جلب قلوب بعض الناس وترغيب العالم لحضور حليم باشا^(٤) ، لكن العقاد أوضح أنه ليس في حاجة إلى تلك الأموال فقد بلغ من الثراء مداه .

كذلك كان للعنصر النسائي « الحريم » دور في هذه المسألة ، ففي خطاب من على فهمي إلى عرابي يشير إلى أسماء بعض السيدات اللاتي يحضرن إلى مصر ومعهم جوابات من الآستانة من طرف زينب هانم وينقلن ردها^(٥) . كما كانت جميع مساعي حليم في تركيا أو خارجها تعلمها مصر ، فتزد البرقيات من الآستانة مفادها السعى في خلق الخديو » ولم يكن يستطيع أحد أن يطلع عليها إلا بعد أن يلتقى بالعقاد^(٦) .

وجاء موقف توفيق واحتضانه لمذكرة مايو المشتركة واحتجاج الثوار واستقالة النظارة في صالح حليم وتدعيماً لموقفه ، خاصة بعد انتشار أخبار رضا الدولة عليه ،

(١) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , pp. 143, 361, 363 .

(٢) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٨ ، دوسيه ١/٥٣ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٢٠/ب .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ١٦ ، دوسيه ١/٣٨٤ ، الفصل الثاني عشر ، عنصر دور التجار .

(٥) المصدر نفسه ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٦٤/ب .

(٦) المصدر نفسه ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٧٦/ب .

ومن هنا أصبح التقارب بينه وبين الثورة واضحاً ، فتقول صحيفة التيمز « إن عرابي يعمل لخدمة حليم ليعين خديوياً لمصر اعتقاداً منه أنه رجل أمين »^(١) ، وهذا في حد ذاته اعتراف منها أن عرابياً يعمل لمصلحة مصر ويريد لها الرجل الأمين ، وليست له أطماع في الاستحواذ على الحكم . ونجد صحيفة الطائف تذكر « تنهج الجرائد الآن باسم البرنس عبد الحليم ورضا السلطان عنه ونجاح أعماله ، وهذا يفهم منه أن الحضرة السلطانية مقرة على تعيينه خديوياً لمصر ، ورضيت بذلك بعض الدول وبقي البعض ، فهي تتراضاهم قطعاً لمشاكل مصر ودفعاً لمن جلب عليها هذه الشرور »^(٢) .

وفي اجتماع ٢٧ مايو ١٨٨٢ الذي عقده سلطان ونودي فيع بعزل توفيق ، اتجهت الأفكار إلى تعيين حليم^(٣) ، كإجراء وقته للتخلص من الخديو ، ليأتي حليم ويرفض المذكرة ويعيد البارودي ويحكم وفقاً لرغبات الثورة ، وكان حليم قد تبني أفكار الثورة وأظهر أنه قلباً وقالباً معها وأثنى على رجالها ، ففى خطاب منه إلى مندوبه في مصر عثمان فوزي يقول له : « لا تخافوا من شيء تأتي به أعمال عرابي يفاير أمل الناس فيه ويخل بالراحة والإصلاح ، فإنه ممن سعى هو وإخوانه للإصلاح وهو ماشى بالتدبير والعقل والحكمة ، ومثل هذا الرجل العاقل يلزم أن لا يفكر في نتيجة أعماله إلا الخير والصالح لوطنه »^(٤) ، وكثرت تلك الخطابات التي فاضت بالتأييد والتشجيع للثورة وقادتها ، بدليل أنه كان عقب وصولها يطلع عليها « ديوان الجهادية »^(٥) .

وبذلك دخل حليم في الإطار الثوري ، وأصبح من بين مضمون مراسلات القادة إلى الدولة العثمانية طلب عزل توفيق وتعيين خليفة له ، وجرى التختيم على محاضر بهذا الشأن كان أحياناً الطلب لا يذكر اسم البديل ، وأخرى يذكر اسم حليم ، فيقول العقاد « أحضرنا أحمد عرابي في منزله مع جميع العلماء والأعيان ووجدناه جاري

The Times, May, 13, 1882 .

(١)

(٢) الطائف ، عدد ٥٦ في ١١ أغسطس ١٨٨٢ .

Malortie , op. cit., p. 221 .

(٣)

(٤) محافظ الثورة المرابية ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٣٠/ب .

(٥) المصدر نفسه ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٣/أ .

تختيم الناس على عرضحال للحضرة السلطانية بطلب استبدال الحضرة الخديوية بدون تعيين اسم البديل وأنا ختمت بالجملة «^(١)» ، أما المحاضر التي عين فيها طلب حلیم فقد سعى لها العقاد^(٢) ، وأمام ذلك انهار توفيق واستدعى وكيلی بريطانيا وفرنسا وأبلغهما بأن « الجهادية سوف تعزله وتعلن البرنس حلیم خديويًا »^(٣) .

وكان من بين علماء الدين من هو ميال إلى حلیم ، فقد طالب الشيخ عlish تعيينه خديويًا^(٤) كما أيده الشيخ العدوي^(٥) ، وترددت أصداء ذلك بين المصريين « محمد عبد الله عمدة الصنافين شرقية كان يحضر من المحروسة ، ويقول للناس إن الخديو إتخلع بأمر السلطان ، وأن عرابی سيحضر عبد الحلیم باشا ، وأن بحضوره يكون خديويًا »^(٦) ، ولعل كان الترحيب بذلك بناء على أنه ثوري ومؤيد من قادة الثورة وخاصة عرابی ، وأنه سيكون حاكمًا وفقًا لدستور الحزب الوطني^(٧) .

وتكثفت مجهودات حلیم وأتباعه عقب إعلان الحرب وانضمام الخديوي نهائيًا للأعداء ، وإيقاف الأمة لأوامره واعتباره شبه معزول ، ففي مسودة لخطاب عثر عليه لدى العقاد « لمناسبة انضمامه (توفيق) للإنجليز وجلب حربهم على المصريين، أصبح مشاعاً أنه سيأتي عساكر عثمانية إلى مصر ومعها البرنس حلیم باشا ، على أن المتراعى بأنه إذا كان المقصود حضورهم لأجل رحيل الإنجليز عن مياه الإسكندرية وخلافها وتوصيل البرنس إلى مستقرة فلا بأس ، وإن كان المقصود نفى عرابی باشا وأخواته من مصر حسب رغبة الإنجليز فلا يمكن التسليم في ذلك »^(٨)، وواضح أن الأنظار قد اتجهت لعودة الأمير المنفى .

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١١ ، قضايا المتهمين ، دوسيه ١٥٤ .

(٣) Egypt, No. 11 (1882) , No, 6 June 1, 1882, p. 2 .

(٤) محافظ الأبحاث ، المصدر نفسه ، ١٦ يونيو ١٨٨٢ .

(٥) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الثورة العربية ، ص ٨٦ .

(٦) محافظ الثورة العربية ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٤٢ .

(٧) Ninet , Arabi Pacha, p. 77 .

(٨) محافظ الثورة العربية ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٣ .

وقد اعتقد أن مؤتمر الآستانة سيعالج الموقف عن طريق تعيين حليم لدرجة أن العقاد « جارى التجهيزات اللازمة لعمل الزينة لقدم البرنس بصفة خديو مصر » كما أنه فى خطاب منه إلى حميد أبو ستيت يذكر له « أما أفندينا حليم باشا فقد عينه حضرة السلطان خديوياً على مصر ، ووافق على ذلك جميع الدول ، وفقط المعارض الإنجليز لتطلبهم بعض شروطا ، وجزماً لابد عن النهو فى هذا الشهر ، وبعدها يتشرف إلى القطر »^(١) ، وانتاب العسكريون نفس التوقعات بعد أن كانت مراسلات الآستانة تفيد بالموافقة على خلع توفيق وتنصيب حليم « وأنه مزعم حضور الباشا المشار إليه عن قريب »^(٢) .

وبعد أن استشم حليم موقف الدولة العثمانية بتحولها عنه ، أراد أن يعمل بمفرده فعرض على السلطان رغبته فى السفر إلى مصر لا كحاكم ، ولكن كمجاهد وطنى يلتحق بجيش عرابى ، وطلب منه السماح له بذلك فرفض السلطان^(٣) ، ولم يكن حليم مصرياً ولا وطنياً لكى يدافع عن مصر ، لكنه وجد أنه يمكنه عن هذا الطريق الوصول إلى قلب مصر ، ولم تساعده الظروف عندما تغيرت الأهواء العثمانية لتضع مصلحتها فوق كل الاعتبارات ، فثبتت توفيق على عرش مصر لتعصف بمجهودات حليم إلى الأبد .

دسائس الخديو السابق إسماعيل

بعد ما قام به إسماعيل بمصر من الأسباب التى أدت لقيام الثورة ، وقد أسعد المصريون خروجه منها إذ تقم عليه الجميع ، ولم تثبط الثورة عزيمتها لحظة عن مهاجمته لإسائه لمصر ، وهو أيضاً لم يهدأ لحظة إبان وجوده فى الخارج ، إذ مارس جميع نشاطاته من أجل العودة مرة ثانية إلى مصر واسترجاع عرشها .

كانت علاقاته سيئة مع بريطانيا وفرنسا وهذا شئ طبيعى ، فهما اللتان عزلته ، أما الآستانة فهى لا ترتاح إليه أبداً هذا من ناحية ، ولم تكن تستطيع أن

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١٧ ، دوسيه ١/٤٠٨ .

(٣) البرقيات المتبادنة بين القاهرة والآستانة أثناء الثورة العرابية ، ترجمة الدفتر ٢٨٨ ، برقية بتاريخ ٢٢ نوفمبر ١٨٨٢ .

تتصرف دون موافقة الدولتين من ناحية أخرى ، فقد أبان سفير فرنسا بالآستانة إلى وزير خارجيته « إن السلطان استدعى اثنين من وزرائه لأخذ رأيهما في إمكانية عودة إسماعيل ، لكنهما أبانا له أن بريطانيا وفرنسا ترفضان ذلك بشدة ، ولربما نُعلن استقلال مصر عن تركيا » ويمضى لينصح بأنه يجب الوقوف أمام دسائس إسماعيل^(١) .

فكر إسماعيل في العودة إلى مصر عن طريق الحجاز ، وكان راتب باشا مندوبه ووكيله والرجل الأول لديه في تنفيذ المخطط ، فقد أبرقت السفارة العثمانية في روما إلى الخارجية بالآستانة بأن « إسماعيل باشا قد أوفد راتب باشا بالأسرار المحرمة إلى الحجاز على الباخرة التي استأجرها لهذه الغاية ، وأنه قد أوفد للإتفاق مع الشريف لتدبير المفاصد ، وسيخرج من ميناء ينبع حتى لا يلتفت إليه أنظار موظفي الحكومة في جدة »^(٢) ، وتم الإتصال بين إسماعيل والشريف عبد المنعم شريف مكة وراح يزوده بالسلاح ويحرضه لإعلان خلافته في الحجاز^(٣) ، إذ كانت لديه النية في الخروج على الدولة العثمانية والاستقلال لذلك احتضن كل معارض لها .

كذلك أوجد إسماعيل علاقات مع بعض الأجانب الرأسماليين بمصر ، حيث رأى أنه من الممكن بواسطتهم أن يحقق ما يريده ، وقد أفادت معلومات من ضبطية مصر عن هذا النشاط الذي يقومون به من « عمل دسائس لإعادة الخديو السابق والياً لمصر وهم إخوان سوارس وقطاوى بك وموسى قطاوى »^(٤) ، ولم يكن هؤلاء فقط بل كان هناك أعوان له يعملون من أجله .

وكان إسماعيل يكره الثورة والثوار ، لكن في سبيل مصلحته وكما عاهدناه يتقرب إلى الحركة الوطنية ليصل إلى أهدافه ويضرب بها أعداءه ، وقد هداه تفكيره أن يعود إلى مصر عن طريق الثورة « فكان يرى في ظهور أحمد عرابي واتساع كلمته واستفحال الخلل بديار مصر وتهديد مقام ولده توفيق باشا فرصة ربما كان من ورائها خلع ولده وعودته إلى كبرى الخديوية »^(٥) . ومضى يخطط ليحقق هدفه ،

Doc. Dip. F. Tom III, No. 34, February, 25, 1880 .

(١)

(٢) محافظ الأبحاث ، المصدر نفسه ، ٢٠ نوفمبر ١٨٨١ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ١٦٤ ، ٢٩ نوفمبر ١٨٨١ .

(٤) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٧ .

(٥) ميخائيل شاروويم ، المرجع المذكور ، ص ٢٧٣ .

فأبرق سفير بريطانيا من روما إلى حكومته ليخبرها بأن « إسماعيل يباهى فى نابولى بأن عرابى فى جيبه »^(١) ، حتى لقد وصل الأمر أن اعتقد جرانفيل فى ذلك ، فأخبر بلنت أن لديه معلومات تفيد أن إسماعيل مسيطر على عرابى ، وأن دكل ما يجرى فى مصر هو مؤامرة يراد بها عودة إسماعيل^(٢) .

وفى مصر نرى تكرر توفيق لعلمه برغبة أبيه الأكيدة فى العودة ، فهو يرسل من يتحرى عن تحركاته واتصالاته^(٣) ، وبناء على ما أشاعه إسماعيل ، اعتقد توفيق أن هناك علاقة سرية تربطه بعرابى كما صرح بذلك إلى قنصل النمسا^(٤) .

لقد توهم إسماعيل عندما ظن أنه من الممكن أن يقدم له عرابى المساعدة للوصول إلى ما يصبو ، فهو يكرهه من أعماق قلبه ، وجميع تصريحاته انصبت على الهجوم عليه ، وبأنه المتسبب لكل ما جرى لمصر من كوارث ، ويقول بلنت : « إن موقف عرابى فى ذلك الحين أدل منه فى أى وقت آخر على عدائه للباشوات الشراكسة أنصار إسماعيل الذين كانوا يدسون الدسائس لتوفيق ، فلم يكن يخفى على كل حال أن لإسماعيل أغراضاً فى إظهار ما يحدث فى مصر على أنه لحسابه^(٥) . هذا هو موقف القائد ، وأيده فيه العسكريون الذين عارضوا وبشدة عودة سلطة الحكم إلى إسماعيل مرة أخرى^(٦) ، أيضاً صورت الصحافة المصرية بانوراما كاملة تنطق برفض خديوى مصر السابق ، وبالتالي تأصل شعور العداء فى قلوب المصريين .

لم يكف إسماعيل لحظة عن العمل ، وعندما رأى استمالة العناصر الثورية عن

Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 222 .

(١)

Ibid, p. 221 .

(٢)

(٣) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ٩٤ .

Archives des maison, de cour et d'etat, Vienne, Fasc XXX 1/9, 19 Fevrier, 1882 .

(٤)

Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 222 .

(٥)

The Times, April. 20, 1882 .

(٦)

طريق راتب باشا فشلت محاولاته^(١)، طرق باباً آخر، فأرسل زوجته الأولى من نابولي إلى الإسكندرية، وأيضاً زوجته الثانية بدعوى أنها مريضة ومشرفة على الموت ومعها ما يزيد عن ٣٥ شخصاً من الأتباع والجواري، وعقب وصولها إلى الميناء رفضت أن يكشف عليها الأطباء، فهذا جعل توفيق يأمر بعودة تلك الزوجة على نفس الباخرة^(٢)، وكان عليها ابن إسماعيل وهو يرتدى أثواب النساء ومحتجباً بالباخرة^(٣)، على أساس أنه إذا نجحت الخطة يستولى على العرش حين حضور أبيه.

وأعلن عرابي رسمياً رفضه لنزول الزوجة على الأرض المصرية، وأبان أن الأمة المصرية والجيش يرفضون مجيء أى إنسان يساعد الخديو السابق ويكون عضداً له ولدسائسه، وأذاع بلاغاً مفاده «أشيع على السنة العامة عن ورود إحدى نساء الخديوى السابق إلى الإسكندرية، وأن ناظر الجهادية وضباط العسكرية يميلون إلى دخولها للإقامة بالقطر المصرى، وانتشرت تلك الإشاعات حتى خيف من دخولها على بعض الأذهان، فحملنى هذا على المبادرة بتكذيب هذا الخبر عن نفسى وعن كل ضابط بل كل فرد عسكري فى مصر، فإن ضباط العسكرية عموماً يشاركون أهالى القطر المصرى بأجمعهم فى النفور التام من دخول أى شخص يأتى من قبل الخديو السابق من نساء أو رجال لما يعلمونه عما حدث عن هذا من الضرر للبلاد»^(٤).

ومما لا شك فيه أن كان للمعسكر المضاد للثورة أراجيفه فى هذا الشأن، فهو يعلم أن الثورة جاءت لتقضى على مفاسد إسماعيل التى تركها فى مصر، فإذا نسب علاقات لرجال الثورة مع هذا المستبد، فريماً ينفصل التلاحم وينفك الارتباط وتضرب الثورة. كما أنه كان لتلك الإشاعات التى نشرها الخديو السابق صداها فى الداخل لذا أصبح على عرابي ضرورة الوقوف أمام هذه العاصفة.

(١) أبو نظارة، عدد ٥ فى ٣ مارس ١٨٨٢.

(٢) محافظ الأبحاث، المصدر نفسه، ١٠ أبريل ١٨٨٢.

(٣) مصر، عدد ١٧ فى ١٦ أبريل ١٨٨٢.

(٤) المصدر نفسه، عدد ١٩ فى ١٩ أبريل ١٨٨٢، المفيد، عدد ٥٠ فى ٢٣ أبريل ١٨٨٢.

وقد حاول إسماعيل استمالة رجال الدين فى مصر لمعرفة بأنهم ركن أساسى فى الثورة ، فيتصل بالشيخ حسن العدوى ليطلب منه السعى فى حضور عائلته لمصر، كما كان يبعث بمن تموت من جواريه للصلاة عندها ودفنها بمصر^(١) ، لكن لم يترك إسماعيل أى أثر طيب له حتى يفكر أحد من المصريين فى مساعدته .

وأمام تلك المحاولات لإسماعيل كانت الثورة تقف له بالمرصاد ، ولم تكن الثورة بمفردها ، كذلك توفيق ، إذ اعتقد أن أباه أصبح مقرباً للسلطان بعد السماح له بالعودة إلى الآستانة^(٢) ، فوضعه تحت المنظار وكشف المؤامرات التى يحيكها ، وراح يبحث وينقب عن كل صغيرة وكبيرة يمكن لها أن تعود بنفوذ أبيه حتى أنه عندما أشيع أن عائشة هانم رئيسة الزار - التى تبخر الخديو وملابسه وتتلو عليه العزائم والتمائم - تجرى « أعمال دسائس من قبل إسماعيل باشا » عمل على نفيها إلى سواكن ورحلت فى الحال^(٣) ، وشغل الخديو بتلك الإجراءات التى يقوم بها إسماعيل إلى أقصى حد ، لدرجة أنه لم تكن تخلو مقابلة من مقابلاته مع القناصل إلا ويعرضها ويشكو الأمر^(٤) .

وأخيراً وعندما وجد إسماعيل أنه من المستحيل تحويل الثورة عن مسارها واستخدامها لخدمة أغراضه بالوصول على أكتافها لعرش مصر ، انعطف على طريق آخر ودبر خطة ، وذلك بإيجاد حركة معاكسة تقضى على الثورة ، ومن ثم وفى زمرة الاضطرابات التى يمكن أن تحدث تكون الفرصة لدخول مصر واستعادته ملكه ، فكانت المؤامرة الشركسية لاغتيال قادة الثورة والتى كان له يد فيها « وهذا يؤدى إلى إيجاد ثورة مضادة تحدث دوامة تهين لإسماعيل فرصة العودة »^(٥) ، ويحلل عربى الموقف بقوله : « طلب إحداث الفتن والانقلاب لعله يصادف انقلاباً تقول فيه أوروبا بأن حكومة مصر لا تكون أمينة من الاضطراب إلا إذا أطلق فيها التصرف

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١١٥ .

(٢) Archives des maison, de cour et d'etat, Vienne, Fasc XXX 1/9, 19 Fevrier, 1882 .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د ، ٥٣/د .

(٤) Politisches archiv, Alexandrien, Fasz XXXVIII/ 195, No. 2863, 5 Decembre, 1881.

(٥) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 249 .

للخديو «^(١) ويمضى ليبين ما ظلم به إسماعيل مصر والمصريين . وفى خطاب من محمد عبده إلى بلنت فى ٢٥ أبريل ١٨٨٢ يسب فيه إسماعيل وينسب إليه العمل من أجل القضاء على الثورة » الخديو إسماعيل العدو الأكبر لمصر ، يجد سعادته فى عمل الدسائس لى يحطم حكومتنا ويفكر أنه بعمله هذا يمكنه العودة إلى مصر ، لكن الله بدد آماله فذهبت مع الريح ، فكل مصرى يعلم أن رجوع إسماعيل لا يعنى سوى دمار مصر «^(٢) . وبذلك فشلت جميع المحاولات أمام صمود الجبهة الثورية ، ولم يحقق إسماعيل ما كان يسعى إليه .



Broadly , The Trial and Pardon of Arabi Pasha, Vol. II .

(١)

Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 249 .

(٢)

الفصل العاشر

التأييد العربى والإسلامى والأوروبى

للمح... أثارت الثورة العربية انتباه العالم الخارجى ، فهى أول ثورة قومية فى المنطقة ، قامت لنصرة مبادئ وآراء ثورية تطالب بالحكم الدستورى والحرية والعدل والمساواة ، وهذا يجعلها تسمو إلى مصاف الثورات الأوربية ، إذ اشتركت فيها قوى الشعب المصرى من أعلى الطبقات إلى عامتها ، قدمت من أجلها كل شيء ، إذن فهى ثورة وطنية أصيلة . وقد تمتع قوادها وخاصة عربى بتلك السمعة الطيبة التى انتشرت وسرت فى الأرجاء ، وأصبح بطلاً ورمزاً للمناضلين وله من المعجبين من الأجناس المتعددة .

النشاط العربى

وضحت دائرة الوحدة العربية فى إطار التأييد الشامل للثورة المصرية ، فعندما ارتفع صوت مصر منادياً بالحرية والاستقلال كان له أصدؤه فى المحيط العربى ، ووجد من يسمعه ويعمل على نصرته ، فقد قوى الرباط الذى شمل العامل الدينى والعامل القومى .

ومصر طوال تاريخها هى مركز للإشعاع الحضارى والثقافى وحركة الاستتارة لمن حولها فى المنطقة ، ينزحون إليها ويستقرون بها ويتمتعون بمميزاتها ، ومع الثورة نجد أن هناك مساحات من المغرب العربى قد خضعت للنفوذ الفرنسى ، فرحبت القاهرة بمن حضر إليها هرباً من تلك الحالة ، ونذكر منهم « إبراهيم افندى السراج » الذى نزح من تونس وعمل مع النديم فى الصحافة ويقول عنه « فرأيته ميالاً بالجوارح والأفكار إلى العرب الأحرار »(*) . فساهم بجهد فى العمل الثورى ، وكان له النشاط الملحوظ فى صحيفة الحجاز التى تعرضت للضغوط الرجعية فى كثير من حياتها ، وتعد ترجمة صادقة للثورة .

(*) عبد الله النديم ، المصدر المذكور ، ص ٥٧ .

وكونت جالية المغاربة تماسكاً في موقفها من الثورة وأيدتها بما تمتلك من إمكانيات ، لدرجة أنه عقب مذكرة مايو ١٨٨٢ ووصول قطع الأسطولين الإنجليزي والفرنسي ، قدم المغاربة أنفسهم ليكونوا تحت إمرة قائد الثورة ، فتذكر صحيفة الفسطاط « أن ذوي الحمية من المغاربة المقيمين في القاهرة لما سمعوا بقدوم بوابير الدولتين ورأوا معارضة أحمد باشا عرابي وإجراءاته العادلة شرعوا في التختيم على عرض يقدمونه إلى سعادة ناظر الجهادية مضمونة أنهم لما تحققوا إخلاصه في خدمة الوطن والدين تآقت أنفسهم إلى أن يكونوا في زمرة أعوانه الصادقين ، فهم يعرضون عليه خدمتهم ويضعون بين يديه أرواحهم ، وقد سألت أحد المغاربة عن مقدار ما يمكن جمعه منهم ، فقال يجتمع بسهولة عند الاقتضاء من كافة أنحاء القطر ما يزيد على ٥٠,٠٠٠ مغربي »^(١) .

وكانت الاجتماعات السياسية التي تتم في منزل عرابي تضم المغاربة الذين كانوا « يعدونه ويمنونه ويقرأون له الأحزاب والأوراد لينال بها مرغوبه »^(٢) ، وعند حضور البعثة العثمانية الثانية ، حاول علماء طرابلس وتونس أن يقنعوا أحمد أسعد بأن « نجاح قضية الإسلام في شمال أفريقيا وبل وجود الإسلام على الإطلاق يتوقف على بقاء عرابي في الحكم »^(٣) .

ومما لا شك فيه أن اللقاء الروحي بين الثورة والمغرب العربي كان يفرضه الواقع ، فشمال أفريقيا غير مستقر ، والسياسة الاستعمارية تفرض سلطاتها ، والشعور الإسلامي قد بلغ مداه « ففي طرابلس الغرب حصلت جملة تظاهرات عدوانية فيها على اليهود والنصارى وبارح المدينة عدة عائلات أورباوية ، أما في الجزائر فقد امتد الهيجان الإسلامي أشده من قبل »^(٤) ، لذا فكل انتصار لثورة على الأطماع الأوربية هو انتصار للمغرب العربي ، وكل هزيمة لبريطانيا وفرنسا هي فرحة كبرى ، ومن هنا كان التوافق التام بين أحرار المغرب والثورة في مصر .

وبقيام الحرب كان عرابي على صلة بعرب الصحراء في برقة وبالسوسى الذى رأى ضرورة تدبير خطة محكمة لخلاص مصر^(٥) ، وكان الحرب في مصر غدت وأنها حرب صليبية تستلزم الجهاد في سبيل الله من أجل نصرة الإسلام . ولم تكن

(١) الفسطاط ، عدد ٧ في ٢١ مايو ١٨٨٢ . (٢) محمود فهمي ، المصدر المذكور ، ص ٢٣٦ .

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الثورة العربية ، ص ١٠٢ .

(٤) الطائف ، عدد ٧٣ في ٣٠ أغسطس ١٨٨٢ .

(٥) Biovès, op. cit., p. 247, Broadly, How We Defended Arabi And His Friends, p. 162, (٥)

Malortie, op. cit., p. 260 .

لندن لتسمح بذلك ، فحملت السلطان على أن يصدر أوامر مشددة إلى المسؤولين فى طرابلس وبنى غازى بوقف هذه الاتصالات^(١) ، خاصة بعد أن أصبح عرابى فى نظر الجميع المحرر والبطل والمنقذ من برائن الدول الأوربية والذي وقف وتحدى التهديدات الأجنبية .

وكان مقر قيادة الجيش فى كفر الدوار به من المؤيدين والمشجعين ، فشيخ القيروان يتنقل بين المعسكرات « ليدكى الحماسة الوطنية ، ويشد أزر المصريين المحاربين »^(٢) ، بينما نرى شيخ الجزائر وهو من أخلص أنصار عرابى يريد أن يساهم فى نصره الثورة ، فيطلب الإذن من عرابى للسفر إلى الآستانة ليعمل على منع حضور جيش تركى إلى مصر ، لأن مجيئه « سيجدد العداء القديم »^(٣) .

وخارج مصر تجمع الأموال لتقدم الثورة ، ففى برقية من الخديو إلى وكيله بالآستانة يقول له « عرض علينا اليوم قنصل جنرال فرنسا أنه ورد إليه تلغراف من نظارة الخارجية يكلفه بإبلاغنا أن الشيخ صغير والشيخ زعير أسسا جمعية لإعانة عرابى وإمداده ، وأنهما أخذا يجمعان النقود فى سبيل ذلك »^(٤) .

وأشادت الصحافة فى تونس بعرابى ولقبته بحامى الإسلام والعرب ، وكانت الصلوات تقام فى مسجد القيروان يدعى فيها بالنصر لعرابى وبالهزيمة للإنجليز ، وعندما علم التونسيون أن عرابياً الذى كان موضعاً لخلاصهم لم ينتصر انهارت آمالهم حيث إن الفوز الذى حققته بريطانيا حوى فرنسا من قيام ثورة عربية تمتد من القاهرة إلى الجزائر^(٥) .

أما عن السودان وتأييدها للثورة ، فقد وصل الأمر أن تأثر المهدي بها ، واتبع نفس خطواتها فى ثورته ، إذ صادفت مبادئها هوى فى نفسه ، ومنذ البداية راح يفكر فى إخراج الأجانب من السودان^(٦) ، وكان كل من الثورتين مؤيداً للآخر ، إذ امتنع قادة الثورة عن إرسال المدد لإخماد الثورة بالسودان ، فعندما أراد شريف إرسال آلاى طره ، رفض الثوار وتأكد رفضهم مع البارودى ، فكان ذلك سبباً فى نجاح ثورة المهدي^(٧) .

(١) . Egypt, No 7 (1882), No 674, Aug. 9, 1882 . (٢) . Ninet , Arabi Pasha , p. 273 .

(٣) . Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 553 .

(٤) . محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٦ ، ١٦ أغسطس ١٨٨٢ .

(٥) . Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 17 .

(٦) . أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ٢٦٤ .

(٧) . عبد الرحمن الرافعى ، مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ، ص من ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٨ .

ومع أن مسألة المهدي المنتظر هذه لم ترق عرابي^(١) ، لكن هذا لم يمنع من أن ثورة مصر استجذبت بثورة السودان ، وبدئ التفاوض من أجل مساعدة المهدي لها ، ولم يمهل الوقت أن تتم تلك المساعدة « إذ جاءت متأخرة »^(٢) ، ونلمس موقف السودان من تلك المقالة التي كتبها أحمد رفعت في صحيفة « التان » الفرنسية بأن مثلما يعضد المصريون عرابي فالسودانيون معه^(٣) .

ووضع المهدي عرابي على القمة ، وهذا ما شجعه على « تقليده وجعله موضع عطفة وتقديره »^(٤) ، ومما يؤثر عنه أنه حين هاجم الخرطوم عام ١٨٨٥ أصدر أوامره بالمحافظة على حياة جودون قائلاً : « إنني أفتدى به أحمد عرابي باشا »^(٥) ، كذلك يجب أن نضع في الاعتبار أن من مثقفى الثورة المصرية من أسهم في الثورة المهدية ، فأحمد العوام كان له الدور الإيجابي في إيقاظ الوعي الثوري هناك .

وفي أبريل ١٨٨٥ يستلم يعقوب بن صنوع خطاباً من عرابي بكونولومبو يظهر فيه عطفه على السودانيين والمهدي ويقول في نهايته لماذا تتقم بريطانيا من أخوة المصريين ومن رجال يدافعون عن وطنيتهم^(٦) ، وكانت هذه نظرة المصريين إلى السودانيين الذين كانوا قلباً وقلباً مع المصريين .

ويأتي دور الشام لتشارك ، حيث إن سوريا في ذلك الوقت قد بدأت تنجذب لتيار القومية ، وجرت اتصالات بين الثورة وبينها ، وعندما سرى اتجاه تأسيس وحدة عربية تضم مصر والحجاز كانت سوريا تدخل في نطاقها ، وآمن بذلك الجميع سواء قادة الثورة أو قوى المجتمع ، وقد كان لوجود الأمير عبد القادر الجزائري في دمشق أثره في هذا المجال إذ كتب إليه عرابي^(٧) ، ليدعوه لتوحيد الموقف ضد التدخل الأجنبي .

وتحمست سوريا للثورة وهي نفسها « بدأ فيها استعداد ما للأخذ بمبادئ الحزب الوطني المصري »^(٨) ، وعاشت أحداث مصر عن طريق ذهاب بعض من

(١) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , pp.495, 496 .

(٢) Biovès , op. cit., p. 247 .

(٣) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٨ .

(٤) عبد الرحمن الراقى ، مصر والسودان في أوائل عهد الإحتلال ، ص ١٠٣ .

(٥) إبراهيم فوزى ، السودان بين يدى غوردون وكتشتر ، ج ١ ، ص ٢٩٨ .

(٦) Chaillé , op. cit., pp. 257, 276 .

(٧) Biovès , op. cit., p. 247 .

(٨) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصر والمسألة المصرية ، ص ٢٥٤ .

علماء الأزهر إلى دمشق واجتماعهم بعلمائها وأعيانها في المسجد الأموي حيث بينوا لهم « أن مصر هي باب الكعبة وبيضة الإسلام ، وأن هدف الإنجليز هو القضاء على الإسلام والاستيلاء على الكعبة الشريفة ، وأن على كل مسلم أن يهب لمساعدة عرابي بقواته وأمواله طالما أن هذه الحالة تعيد إلى الأذهان قصة العرب في أسبانيا »^(١) .

كذلك انتقلت الأفكار المصرية إلى سوريا عن طريق المعبر الذي يمر منه مراسلو الثورة إلى الآستانة ، وقد ظهر موقفها عندما علمت أن هناك جنوداً عثمانية تعسكر في اللاذقية ، وأنها ستبحر إلى مصر لقمع الثورة ، « فقاطعتهم وعنفتهم لخروجهم لحرب إخوانهم المسلمين ، وعندما تعامل معهم أحد التجار وباع لهم ما يريدونه أحرقت متاجره جميعها »^(٢) .

وكان ذلك من نتائج التأثير بالقومية التي لمصريد في الدعوة إليها ، وقد وضحت في تلك الإضطرابات التي قامت ضد المسيحيين في النصف الأول من شهر أغسطس ١٨٨٢ واحتجت على أثرها وزارات خارجية النمسا وألمانيا وفرنسا ، وطالبت الدولة العثمانية باستعمال أقصى الشدة ، « فزاد حمدي باشا من قوة البوليس وقبض على الأشخاص الذين كانوا يلقون الخطب المهيجة »^(٣) ، وهذا يعكس مدى التأييد الثوري .

أيضاً كان لعرابي المكانة والمركز ، ففي تقرير لبعثة قيادة الأسطول النمساوي صادر من بيروت يصف الحالة في يافا وضواحيها وعطف أهلها الشديد على عرابي وحبهم له^(٤) ، كما حمل الرجال السلاح وأعدوا الكتائب من المجاهدين لكن « جنود السلطان التركي منعهم من الإبحار إلى مصر »^(٥) .

أما عن الحجاز ، فقد كانت مكة المكرمة مركزاً ثورياً ضد السيادة العثمانية ، إذ هدف حزب الإصلاح فيها إلى إسقاط التبعية للسلطان عبد الحميد ، وإقامة خلافة عربية ، ومن ثم حدث إلتقاء في وجهة النظر بين الحجاز والثورة المصرية^(٦) .

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الثورة العرابية ، ص ١١٠ .

The Times , June 9, 1882 .

(٢)

(٣) الأرشيف النمساوي ، محفوظات ١٧ ، المجموعة ٢٧/٣١ ، رقم ٥٢ ، ١٥ أغسطس ١٨٨٢ .

(٤) المصدر نفسه ، محفوظات ١٥ ، المجموعة ٢٨/٣١ ، أرقام ١٩٥٠ - ١٩٥٢ ، ٤ أكتوبر ١٨٨٢ .

(٥) علي الحديدي ، عبد الله النديم خطيب الوطنية ، ص ٢١٦ .

(٦) الفصل الثامن ، عنصر الدولة العثمانية في النطاق الثوري .

ومع قيام الحرب كانت الحجاز كلها تؤيد مصر في ثورتها ، فيقول صابونجي في خطاب له بلنت في ٨ يوليو ١٨٨٢ « منذ يومين كنت مع عرابي فأناه رجل عربي بخطاب ، ففتحه وتلاه على وعلى الضباط الآخرين ، وقد كتبه حافظ الكعبة المصاحب لشريف مكة ، وكان الخطاب مكتوباً بأسلوب متميز ملئ بالمدح ويقول « إن جميع شعب مكة يصلون من أجل عرابي ومن أجل نصره ، وأن تلك الصلوات تقام في الكعبة وعند حجر إسماعيل وزمزم وعرفات ومنى وفي كل مكان مقدس بمكة من أجل نجاح عرابي » ، ولم يتردد الكاتب في منح عرابي لقب « حامى حمى الإسلام » مسطراً أن الدول الإسلامية والحجاز مع عرابي^(١) .

وفي مقر القيادة أثناء الحرب كانت وفود المؤيدين تتوافد ، فمندوبون من الحجاز واليمن^(٢) ، تأتي لتقدم المشاركة وتدعم الموقف العربي للجبهة الحربية ، إذ كان غزو دولة مسيحية لأرض إسلامية له الأثر السيئ في النفوس ، ففي برقية من الكونت « جولوشفسكى » السفير النمساوى بباريس إلى وزير خارجيته يفيد بأنه « بلغه من جدة ومصوع أن الشعب الإسلامي هناك تغلى فيه كوامن الهياج ، وجاءت هذه الحالة أثر الأخبار الأخيرة التي ذاعت فيهما »^(٣) ، وكانت تتضمن العدوان الإنجليزي على مصر .

وأصبح خروج التأييد من مكة المكرمة له دلالة على شرعية الثورة أمام العالم الإسلامي ، ويذكر مندوب توفيق بالأستانة في مذكرة له عقب نهاية الثورة أن من بين أسباب اعتقال شريف مكة « راجع إلى ولائه لعرابي »^(٤) . وعليه يتضح كيف تأذر الموقف العربي الذي امتد غرباً وشرقاً مع الثورة المصرية .

التعصيد الإسلامي

كان الرأي العام في عاصمة الدولة العثمانية مسانداً للثورة ومرتبطاً بها أشد الارتباط ، رغم أن الثورة لم تحمل الحب لتركيا ، فإنها وجدت فيها من وقف بجوارها واهتزت مشاعره لها ، فقد عبر ضباط الباخرة التي حضرت عليها بعثة درويش عن الموقف بقولهم « إنه لما بلغنا استعفاء النظارة السامية حصل أسف عام وكسوف بال لكافة الأهالي ، لكن عندما جاء التلغراف يبشر برجوع أحمد باشا

(١) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 553 .

(٢) Ninet , Arabi Pasha , p. 242 .

(٣) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٧ ، المجموعة ٢٧/٣١ ، رقم ١٠٧ ، ١٦ أغسطس ١٨٨٢ .

(٤) محافظ الأبحاث ، المصدر نفسه ، مذكرة ثابت باشا ، ٢٨ سبتمبر ١٨٨٢ .

عرايى إلى مسند نظارته استبشر الناس عمومًا حتى أن كثيرًا من الأهالى صنع أشرية حلوى وسقى الناس جميعًا شكرًا لله على رجوعه ورجوع الطمأنينة به ^(١) . ومع أن هذه النظارة ضغطت على العنصر التركى عقب المؤامرة الشركسية وقد أقلق ذلك الرأى العام فى تركيا وجعله يتحول وقتها عن الثورة ، لكن سرعان ما نسى الأمر أمام الأحداث وعاد بقوته ليؤيدها ويقف مع قائدها .

ووضع من كتابات الصحافة التركية الانحياز التام لعرايى ، فهو فى نظرها « خدم الدولة العلية وكافة المسلمين خدمة عظيمة » ^(٢) ، وقد كان للثورة مندوبيوها الذين أرسلتهم لطرح أفكارهم وطلب المساعدة ، ففى برقية من انخديو يطلب تعاون محافظ بورسعيد والقناة مع الضباط الإنجليز من أجل إحضار من أطلق عليه « جاسوس من طرف عصبة الأشقياء » ويطلب إتخاذ كل الإجراءات لضبطه بأقرب مسافة وإرساله إلى الإسكندرية « حيث إنه بالمورة » ^(٣) .

وازداد موقف الأتراك حماسة تجاه الثورة مع الغزو الإنجليزى لمصر فيقول ثابت باشا « العوام هنا وكثير من الرجال والعلماء الكرام يتمنون انتصار العرايى حتى أننى صادفت منذ أيام فى المابين الهمايونى الشيخ على محوى أفندى مدرس السلطان الحائز على رتبة الصدر (رتبة دينية) ، فأخذ فى مدح عرايى والثناء عليه ، فاعترضت عليه لكنه ابتدرنى بقوله لا لا إنه رجل عظيم ومتدين ، كما وأننى عندما قابلت فى المابين الهمايونى نجيب أفندى الحائز كذلك على رتبة الصدر تكلمت ضد العرايى وشنت عليه ، فكان كلامه بالابتهاال إلى الله تعالى أن ينعم على الإسلام بما فيه الخير ، ونسمع هنا أن معظم ضباط العساكر مع العرايى » ^(٤) . وبذلك وضح أن القوى الاجتماعية لتركيا أصبحت مع الثورة المصرية .

وفى المساجد التركية كانت تقام الصلوات وتكثر الدعوات لنصرة عرايى ، لدرجة أن أحد الخطباء دعا إلى حمل السلاح دفاعًا عن الإسلام وقال : « إذا ما طلب عرايى مالاً جمعناه له ، وإذا ما طلب جنود فسنحمل جميعاً السلاح لمساعدته ، إنه رجل مبعوث من قبل الله وقيض له أن يحمينا نحن الأتراك المؤمنين » ^(٥) ، إذن

(١) الفسطاط ، عدد ٩ فى ١٤ يونيو ١٨٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ، عدد ١١ فى ٢٨ يونيو ١٨٨٢ ، Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 17 .

(٣) معية سنبة عربى ، دفتر صادر التلغراف ، سجل ٢ ، مجموعة ٣٩ ، ٢٥ أغسطس ١٨٨٢ .

(٤) محافظ الأبحاث ، المصدر نفسه ، ٦ سبتمبر ١٨٨٢ .

(٥) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الثورة العرابية ، ص ١١٠ .

فقد نجح عرابي في تحويله الحرب من قومية للدفاع عن أرض مصر إلى إسلامية ، فعقب قيامها نادى جميع المسلمين ليهبوا بالثورة - وكما يذكر السفير الإنجليزي بباريس - ضد الدول الأجنبية^(١) .

واشتعلت المشاعر ضد بريطانيا ، بل إن بعض سكان تركيا صرحوا بأنهم سينتقمون من المسيحيين إذا ما احتل الإنجليز مصر ، وبدأ الناس في الآستانة في التطوع للانضمام إلى الجيش المصري^(٢) ، ووفد على مصر المتطوعون من « جريدلية وإستانبولية وأتراك » يطلبون الإنخراط في سلك الجندية « والمحاربة مع إخوانهم المصريين ، وحلفوا أن يكونوا يداً واحدة في الدفاع عن شرف البلاد ومقاتلة الأعداء »^(٣) . وكان الأتراك بكل عواطفهم مع منقذ الإسلام وحامي المسلمين ، وهذا مما عمق الحقد في قلب السلطان وأقدم على قراره الخاص بعصيان عرابي^(٤) ، الذي طعن به الثورة .

وفي غالوبولى وسالونيك كان الشعور العام للمسلمين معادياً للأوروبيين بعد ضرب الإسكندرية ، حيث عدوا بريطانيا وفرنسا عدوتين لدينهم وكيانهم ، وأن هذا الشعور لم يعد يقتصر على العامة ، وإنما وجد كذلك لدى ضباط الجيش والعلماء ، إذ أنهم يعدون عرابي بطل الإسلام^(٥) .

وأخيراً تأتى الهند ، فبتحرك الثورة ويتعدد نشاطاتها ، بعث قادتها إلى كبار مسلمي الهند^(٦) . فتأثروا بها فيقول مراسل صحيفة التيمز هناك بناء على ما أرسل له من أحد أعضاء الجمعية الإسلامية الوطنية « ولا شك أن الحوادث جارية الآن في القطر المصري نبهت أذهان مسلمي الهند »^(٧) . وكان الأفغانى مقيماً بها ويعمل رئيساً لمدرسى حيدر آباد ، ويدهى فإن له نشاطه المعهود ، مما جعل الإنجليز يستدعونهم إلى كلكتا ويحددوا إقامته فيها^(٨) .

(١) Doc . Dip. F. Tom IV , No 461 , July 19, 1882, p. 434 .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الثورة العربية ، ص ١١١ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٨١ في ٦ سبتمبر ١٨٨٢ .

(٤) الفصل الثامن ، عنصر التحول النهائي ضد الثورة .

(٥) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الثورة العربية ، ص ١١١ .

(٦) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٢٦٨ ، ٥١ ، Duse, op. cit., p. 51 .

(٧) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، ج ٥ ، ص ٢١٠ .

(٨) على الحديدي ، المرجع المذكور ، ص ٢١٥ ، صلاح نيسى ، الثورة العربية ، ص ٤٦٤ .

كانت مما تسعى إليه ثورة مصر إثارة الشعور الدينى فى العالم الإسلامى ضد بريطانيا حتى تجبرها أن تتراجع عما تقوم به إزاء مصر ، والهند بالنسبة لها هى درة التاج البريطانى ، وفى خطاب عرابى إلى جلادستون التهديد بهذه المسألة^(١)، وكان لذلك أثره ، فتذكر صحيفة الطائف « إن أهالى بعض الأقطار الهندية ثارت على الحكومة الإنجليزية ، ونظن أن هذه الثورة من تدمر مسلمى الهند من تظاهر الدولة على إخوانهم مسلمى مصر^(٢) ، وتقول صحيفة المفيد أنه ممن أتوا من بمباى قد أخبروا بأن « أهل الهند لما علموا أن دولة الإنجليز سالكة طريق المعاكسة للمصريين ، وأن المصريين واقفين لرد جماع طمعها ، أجمع الكثير منهم على أن الإنجليز إذا حاربوا المصريين ، يحدث هؤلاء الهنود ثورة تكون نتيجتها التخلص من ظلم هذه الدولة التى حرمت عليهم أموالهم وضيقت فى وجوههم الطرق واستعملتهم فى دنئ العمل ومشاقة حتى رأوا من جورها وتوحشها ما لم يخطر ببالهم^(٣) .

ومما لا شك فيه أن الهند إرادت نصرة الإسلام فى شخصية عرابى والثورة المصرية ، فتؤكد صحيفة الستاندرد « إن حوادث مصر قد شغلت بعض أهالى الهند ، وقدم أهالى كلكتا صلوات وطلبات فى المساجد لنجاح عرابى باشا^(٤) . وهذا يوضح أن قيمة عرابى كانت مرتفعة فى نظر العالم الإسلامى ، وأن ذلك أثار لندن إلى أقصى حد ، لدرجة أن حكومتها بالهند أعلنت العلماء هناك « بأنها تقتضى أثر من يظهر إعلانات للعموم ويتخذ دسائس يكون الغرض منها إحداث تحزب بين مسلمى الهند وإنها تعامله أشد معاملة^(٥) . ويستدل من هذا على أنه قد أثيرت الاضطرابات والقلق ضد الإنجليز . هذا فى الوقت الذى استصدرت فيه فتوى من أحد صنائعها من العلماء الهنود « بأن عرابياً مخالفاً للدين الإسلامى ، لأنه خالف أوامرولى الأمر وطاعته من طاعة الله^(٦) ، ولذا كان لابد من القضاء على الثورة المصرية بعد أن انتشر تأثيرها .

(١) الفصل السابع ، عنصر محاولات التفاهم مع بريطانيا .

(٢) الطائف ، عدد ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

(٣) المفيد ، عدد ٥٦ فى ٢٦ يوليو ١٨٨٢ .

(٤) الوطن ، عدد ٢٤٤ فى ٤ أغسطس ١٨٨٢ .

(٥) الوقائع المصرية ، العدد ١٤٨١ فى ٦ سبتمبر ١٨٨٢ .

(٦) على الحديدى ، المرجع المذكور ، ص ٢١٦ .

ويصدر مرسوم إعلان عصيان عرابي لتعصف به لندن حركة التأييد الكاملة للثورة المصرية في الهند ، فتوزع « الجوائب » المنشور فيها المرسوم « لتسعين بالأثر الذي تحدثه على إخماد حركة التشجيع للعرايين وكانت قد اضطربت هناك بشكل ينذر بشر العواقب »^(١) ، ومن هنا نرى أن الهند قد عملت من أجل ثورة مصر وأيدتها ورفعت شعار المعارضة أمام الدولة التي اعتدت عليها . وعلى الأرض المصرية عمل الهنود مع الثورة ، فنرى « جامبجان غوري » الذي عينه عرابي بوظيفة مأمور أشغال السكة الحديد والتلفراف بمحطة السويس يخلق الصعوبات أمام نقل ذخيرة ومؤونة الجيش الإنجليزي ، وأسر بالزقازيق وصدر عليه الحكم بنفيه المؤبد^(٢) .

وكانت مصر تزداد ثقة بذلك التأييد ، وعرابي نفسه نظر إلى أن مسلمي العالم يعتبرونه بطل الإسلام ، حيث إن الحجاج الذين عادوا من مكة أخبروه بذلك ، فكان يرى أنه من الصعب على السلطان أن ينضم إلى بريطانيا ويحاربه^(٣) ، بعد تلك المكانة التي وصل إليها في العالم الإسلامي ، إذ أصبح من الناحية الفعلية خليفة للمسلمين ، وحتى بعد انكساره ونفيه كان له نفس التقدير ، فحينما يذهب لصلاة الجمعة ، كان مسلمو سيلان يقبلون يده ويتبركون به ، ولقى من الحفاوة درجة لم يبلغها زعيم من الزعماء ، وكان جميع المارين والمسافرين يتوجهون لزيارته^(٤) .

التعاطف الأوربي :

(أ) الداخلي

تشاء الظروف لأجانب مصر الذين قامت الثورة من أجل تسلطهم ، أن يقف البعض منهم بجوارها يعطيها المساندة والتعاضيد ، فكان لهم بعض الأثر في إذكاء الرأي العام ونمو الوعي سواء بالصحافة ، أو بالاجتماعات التي تقام في السفارات وتنتشر أخبارها في الصحف ، أو التي تتم عن طريق المحفل الماسوني واتسمت بالطابع الفكري التحرري .

ومنذ البداية نشأت الصداقة القوية بين هؤلاء المتحررين من الأوربيين وبين أعضاء الحزب الوطني^(٥) ، إذ أيدوهم في مطالبهم فكان اللقاء الروحي ، وقد

(١) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ١٨٥ .

(٢) محافظ الثورة العربية ، محفظة ١٠ ، دوسيه ٩٧ .

(٣) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 396 .

(٤) أحمد عرابي ، مذكرات ، ج ٢ ، ص ص ٦٥٨ - ٦٦٠ ، محمود فهمي ، المصدر المذكور ، ص ٢٣٤ .

(٥) Chaille' , op. cit. , p. 101 .

(٥)

أشادت بعض الصحف الأجنبية بهذه العلاقة التي ربطت بين الطرفين^(١) ، وكان يخشاها توفيق ، فيذكر لمدوبه بالآستانة « أنه يوجد في مصر بعض الأداني من الإفرنج وبعض الماسونيين »^(٢) ، ويمضى في بيان صلاتهم بالثوار .

وكانت المساهمة الفعالة في حضور تلك الاجتماعات التي مثلت لقاءات سياسية، وفيها ترتفع أصوات الثوار ليعلنوا مبدئهم وليطعنوا في النظام القائم ويطالبوا بإسقاطه ، ولقى ذلك الاستحسان من هؤلاء الأوربيين ، تبعه التشجيع والمشاركة ، فنجد « نينه » الذي وقف بجوار القضية المصرية يشارك في الخطابة ليبين ما تحملته مصر من الظلم والاضطهاد والديون في فترة حكم إسماعيل وبين مساوئ وجود الأجانب في الديون أو الاستحواذ على الوظائف أو تمتعهم بالامتيازات^(٣) ، وكان يصور في كتاباته إلى لندن مدى صدق الشعب لثورته ويعترض على التهديد الإنجليزي الفرنسي ، ويؤيد حق الأمة المصرية في تقرير مصيرها واستقلال أمورها^(٤) ، وبذلك يسير وفق أحلام المصريين السياسية « في الوقت الذي نبتت فيه بذور الوطنية »^(٥) ، وبناء على موقفه هذا أصبح مكروهاً من أعداء الثورة ، فنرى صحيفة التيمز تتهمه بأنه عميل للأمير حليم^(٦) .

كذلك كان « بلنت » الذي عطف على الأماني المصرية وتحمس لمبادئ الثورة وخطواتها وشجع على الحرية التي تطلبها وأعطاه من أفكاره ، ولمكانته لدى الثوار، فقد اعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً في إمكانية مساعداته لحل المسألة المصرية بحكم صلاته بحكومة لندن ، كما أنه أعطى الأمل والمزيد من الدفعة لقوة الثورة للتمسك بالموقف الثوري ، ونقل التأييد والتشجيع من كبار الشخصيات الأحرار الإنجليز إلى القادة، الذين استفادوا من نصائحه^(٧) .

ولم يكن بلنت يؤيد تلك الإجراءات التي تتخذها بريطانيا تجاه مصر طوال الثورة، وكثيراً ما انتقد سياسة مالميت وكولفن في لقاءاته معهما ، كما أنه لقي الكره

(١) Malortie , op. cit., pp. 5 , 6 , The Standerd , Feb. 16, 1882 , The Times , Oct. 10, 1882 .

(٢) محافظ الأبحاث ، المصدر نفسه ، ٢٦ مايو ١٨٨٢

(٣) محافظ الثورة المرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٧٩ .

(٤) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 281 .

(٥) Ninet , The Orgin of the National Party in Egypt , pp. 118 , 119 .

(٦) The Times , Aug. 5 , 1882

(٧) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٧ .

والحق من توفيق الذي كان يعلم بدوره في إذكاء الثورة ، لدرجة أنه عقب الثورة جاءت تعليماته لمحافظ الإسكندرية « أذيع بأن بلنت الإنكليزي المشهور رفيق الشقي عرابي سيحضر ، فيجب عمل الاحتياطات اللازمة لعدم تمكنه من دخول المدينة مطلقاً »^(١) .

واتحد « وليم جريجوري » مع بلنت في موقفه إزاء الثورة وخاصة في بلورة الفكر الثوري ، إذ كانت لهما لمساتهما في برنامج الحزب الوطني ، وهناك رأى يبين أنه من صنعهما^(٢) ، لكن هذا معناه عجز مثقفي مصر عن دورهم في ذلك ، وخاصة محمد عبده صاحب الفكر التحرري والتي كانت بصماته مؤكدة على البرنامج . كذلك كان لهما تلك الوساطة التي قاما بها في المحادثات والتفاهم بين قادة الثورة والممثلين الإنجليز في مصر سواء ماليت أو كولشن^(٣) ، وأخيراً دورهما في المحاكمات .

وهناك « صابونجي » سكرتير بلنت الذي وقف بجوار الثورة ، وكثرت نشاطاته ، فهو دائم التحرك ما بين مصر ولندن ، ناقلاً ومصوراً الثورة وأبعادها ، كما أعطاه محمد عبده مسئولية الصحيفة العربية التي أنشئت في لندن لتؤيد الاتجاه التحرري في مصر ، وكان له مركزه لدى الثوار فيقول بلنت « لصابونجي مركز عظيم عند رجال الأزهر ، وهو مع الحركة الوطنية قلباً وقالباً ، ويقابل بالترحاب عند جميع الوطنيين باعتباره نائباً ، وكانت الثقة فيه عظيمة جداً »^(٤) .

ونجد بعض العاملين على أرض مصر من المثقفين الأجانب لهم نصيبهم في المد الثوري ، « فموسيو فوكلان » رئيس القلم الأفرنجي بإدارة المطبوعات كان مكثفياً في نشاطاته ، فمن الاتهامات الموجهة إليه « دايماً صحبه أحمد رفعت يتخابر معه في أمور سرية ، ويحمل المراسلات والآراء إلى عرابي عندما يكون في الإسكندرية »^(٥) ، وله دوره الذي اشترك فيه مع محمد عبده في تحرير المحاضر ضد توفيق « وهي محتوية على ألفاظ غير لائقة في حق الحضرة الخديوية »^(٦) ، ومما يذكر أن أفكاره تحررية واستعان به القادة في المجال الإعلامي من أجل غرس المبادئ الثورية في

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٤١ ، دوسيه ٣ .

Lords , Vol. CCLXXL , June 26, 1882 , p. 373 .

(٢)

Ibid .

(٣)

Biunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 299 .

(٤)

(٥) تقارير وشهادات مقدمة من كبار الموظفين ، تقرير ١٧ ، ص ٨٦ .

(٦) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٦٣ .

النفوس ، وله الكتابات التي تفيض بالنداءات الثورية ، وبحكم سلطته بالصحافة ، كانت له اليد الطولى فى إغلاق الصحف الأجنبية المعارضة^(١) .

كذلك حظيت الثورة بتأييد بعض صفار الموظفين من الأجانب ، فترى « الخواجة أنطوان » وهو يونانى يعمل ترجماناً بالجهادية ينبئ عرابى بتلك المراسلات التى بين أعوان إسماعيل بالقاهرة والإسكندرية ، ويبلغه عن نشاطات بعض الأوربيين الموجودين بمصر والذين ينقلون الأخبار الداخلية ، وحددهم له وأبان أنهم يعملون لحساب إسماعيل » وما أجريت هذا الإعلان لسعادتكم إلا لكونى من ضمن المحاسيب من قديم الزمان وخوفى على أمير الجيش^(٢) .

وأذا تركنا المثقفين نجد العمال المؤيدين للثورة ، فقد سعد العمال الإيطاليون بتلك النقاط التى تحرزها الثورة ، لدرجة أنهم عقب تولى البارودى رئاسة النظارة أقامت « جمعية الفعلة الإيطالية » حفلاً كبيراً ابتهاجاً بهذه المناسبة الوطنية ، وتقرر فيه إرسال برقية تأييد لقيادة الثورة^(٣) ، لتعبر عن لسان رئيسها « عن ارتياحها إلى ما حصل عليه الحزب الوطنى بسبب مساعيه الوطنية فى الفوز الذى كان من نتاجه تأليف النظارة الجديدة ، ولأننا أمة جاهدت للحصول على استقلالها حتى وصلت إليه ، نود أن نوافق رغبات الأمة المصرية المصحوبة بالحزم وحسن التروى صالح النجاح^(٤) » وقد أجابه البارودى شاكرًا . وفى أثناء الحرب قدم بعض الإيطاليين مساعدتهم للثورة ، وقد أنهم بذلك « هنرى مالانستا » ومثل أمام المحاكمة عقب نهاية الثورة ، لكنه تمكن من الهرب^(٥) .

(ب) الخارجى

وجدت الثورة العطف والتعاضيد من القنصل الإيطالى الذى كان له نشاطه الملحوظ ، حتى وُصف بأنه « صديق حميم لعرابى »^(٦) ، وكان جزاؤه على ذلك سحبه من مصر ، فيذكر تقرير زمساوى « لن يعود الكونت جلوريا قنصل إيطاليا هنا إلى منصبه ثانيًا ، لقد كان من العاطفين على عرابى ، ولم يكن يكتف عطفه هذا ، فبقى فى البلاد بعد ضرب الإسكندرية ولم يفارقها إلا بعد ذلك ومعه الجزء الأكبر من

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/٢ .

(٣) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، ص ٢٢٥ .

(٤) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٣١ فى ١٢ فبراير ١٨٨٢ .

(٥) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٤٠٧ .

(٦) Archives de maison , de cour et d'etat , Vienne , Fasc XXXI/9 , 19 Fev. 1882 , p. 2 .

الجالية الإيطالية إلى جانب عدد كبير من أفراد الجنسيات الأجنبية الأخرى الذين أسبغ عليهم حمايته ، ففارق القاهرة بهم إلى الإسماعيلية ثم إلى بورسعيد ، ومنها إلى إيطاليا رأساً ، وفي موطنه استقبل استقبال الأبطال ، واحتفى به الصحفيون وأجروا معه الأحاديث وأقاموا له المآدب ، وفي إحداها صرح بشكل علني برأيه في الخديو وعرابي والأزمة المصرية ، وفي اليوم التالي وجد كل ما قاله كلمة بكلمة مذكوراً في إحدى الصحف ويظهر أن مضمون ذلك المقال لم يكن ليسمح لوزير الخارجية أن يعيده إلى منصبه مرة أخرى في القاهرة»^(١) .

حقيقة لقد كان موقف إيطاليا مشوباً بالعطف تجاه الثورة ، لكنها ترضخ للرأى الأوربي وخاصة الإنجليزي وتعمل له حساباً ، وهي منذ البداية تخشى من تصرفات بريطانيا وفرنسا تجاه مصر إذ صرح «مانشيني» بأن مذكرة يناير المشتركة سيكون لها الأثر السيئ على مصر وسبباً في اندلاع نار الوطنية لدى المصريين^(٢) .

وعارض الرأى العام الإيطالى السياسة الإنجليزية في مصر ، وأيد الثورة وأطلق عليها «الشعور الغريبالدى»^(٣) ، ويذكر صابونجى إلى بلنت في ٨ يوليو ١٨٨٢ أنه «أثناء وجوده مع عرابى تسلم خطاباً من إيطالى مهذب يرجوه فيه أن يقبله كمتطوع فى الجيش المصرى ، ويبين له أنه كان فيما سبق فى الجيش الإيطالى تحت زعامة غاريبالدى ، ويرغب أن يحارب من أجل حرية مصر»^(٤) ، وفى روما جرى اكتتاب للراغبين فى التطوع لمساعدة المصريين والدخول تحت أوامر عرابى ومحاربة الإنجليز ، وكان زعيم هذه الحركة «منوتى غاريبالدى» الذى نشرت الصحافة مجهوداته^(٥) ، وتكونت بالفعل فرق من المتطوعين تحت زعامته للوقوف مع الثوار أمام المعتدين^(٦) .

وشارك فى الحماس العسكريون الإيطاليون الذين رغبوا فى السفر لمصر ، «غير أن البحر كان مأخوذاً تحت مراقبة المراكب الإنجليزية والمواصلات كانت منقطعة تقريباً بين مصر وأوروبا»^(٧) . وذلك هو الحاجز أمام الاستفادة من تلك

(١) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٥ ، رقم ١٨٥ سياسى ، ١٥ أكتوبر ١٨٨٢ .

(٢) Polit Archiv , Egyptische Frage , Fasz XXXI/24 , No. 4 . A.E. 20 Jan. 1882 .

(٣) Wallaee , op. cit., p. 92 .

(٤) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 552 .

(٥) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٧/٥٣ .

(٦) Duse . op. cit., p. 83 .

(٧) محمد عبده ، المصدر المذكور ، ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

المساعدات التي كانت تأملها الثورة في كفاحها من أجل الحرية^(١) ، لكن هذا لم يمنع من أنه كان هناك من ساهم في الحرب مع المصريين ، فقد حارب القائم مقام الإيطالي مسيو « بولس » في المعارك بعد أن لحق بعرابي في كفر الدوار ، وعقب النهاية « التفت الجنرال وود فرأى الرجل بينهم (المصريين) وهو في زى الضباط المصريين فأمسك بيده وقال هذا الذي أطلبه ، قال ذلك وسلمه إلى نفر من الإنجليز فساروا به إلى الإسكندرية ليجازى عما فعل »^(٢) .

وعندما أعلن توفيق عزل عرابي ، تأثر الإيطاليون بذلك ، فيقول قنصل النمسا « ومن الغريب أن يقف الرأي العام في إيطاليا على خط مستقيم ضد مضمون هذا الإعلان ، واستخلص من خطاب لزميل إيطالي يقضى الآن أجازته في روما أن دوائر اجتماعية معينة في شبه جزيرة الأبنين تبدي حماساً كبيراً لعرابي وتعدّه بطلاً محرراً للشعب ، وهو حماس في تصور الحكومة الإيطالية لا يتطلب منها أن تشارك بصفة خاصة في التدخل في مصر »^(٣) .

وواضح أن عرابي كان رمزاً للثورة والوطنية وحامل لواء الحرية ، وربط بينه وبين غارibaldi الزعيم الوطني الإيطالي ، فصحيفة « الكوريه دي فرانس » تأتي بالمقارنة وتميز عرابي عن زميله في النضال « إن كل ما فعله الجنرال غارibaldi فعل مثله وأحسن منه أحمد باشا عرابي ، وأن وقائع غارibaldi وقع فيها سفك دماء ، أما وقائع عرابي باشا فلم تقع فيها قطرة دم واحدة »^(٤) ، ومن هنا أطلق على عرابي « غارibaldi » أو « غارibaldi النيل » .

وكان للصحافة الإيطالية دورها في التأييد الثوري على اختلاف اتجاهاتها ، فاعتبرت ضرب الإسكندرية عملاً بريئاً ، ووصفت معاملة الإنجليز المتهورة للمدينة ، وأزدرت الأسباب الواهية التي تزرعت بها بريطانيا بشأن حماية الأوروبيين وممتلكاتهم من تعصب الوطنيين^(٥) .

وتكتب صحيفة « الدريتو الإيطالية » فصلاً تحت عنوان « مصر للمصريين » بينت فيه فضل مصر على العالم منذ العهد القديم وإشعاعات حضارتها عليه ،

(١) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 262

(٢) ميخائيل شارويعم ، المرجع المذكور ، ص ٣٣٧ .

(٣) الأرشيف النمساوي ، محفظة ١٧ ، ١٤ أغسطس ١٨٨٢ .

(٤) الفسقاط ، عدد ١٠ في ٢١ يونيو ١٨٨٢ .

(٥) الأرشيف النمساوي ، محفظة ٢٠ ، المجموعة ٢٥/٢١ ، ١٧ يوليو ١٨٨٢ .

وسجلت « أن حركة الحزب الوطنى المصرى الحاضرة هى حركة حق عادلة ، وأن الشعب المصرى يريق النقطة الأخيرة من دمه صوناً لاستقلاله ودفعاً للوقوع فى براثن الأسر ومخالب العبودية » وأضافت أن دول البحر المتوسط لن تترك مصر بين يدي بريطانيا وفرنسا^(١) .

كما عرضت صحيفة « الأبنونة » ما قاست منه مصر على يدى إسماعيل وما حدث من البلاء والشر الذى سببه « الفوائد الفاحشة لسد نهمة الإنجليز والفرنساويين ، وأن قلم المراقبة أضر بالفلاحين ، وأن السير رفرس ولسن والمسيو دى بلنيار تصرفا حسب ما تقتضيه مصلحتهما الذاتية وأصبحا فى غاية اليسار » وأشارت إلى أن الواجب على أوروبا عموماً وإيطاليا خصوصاً ألا تخمد ميول المصريين الوطنية ، كما نددت صحيفة أخرى إيطالية بما فعلته بريطانيا ونسبت إليها دمار الإسكندرية ، ورأت ضرورة إلزامها بدفع التعويض عن ذلك^(٢) . وعليه نلنس حقيقة الموقف الإيطالى المتعاطف مع الثورة .

ويجىء دور ألمانيا والنمسا فى هذا المجال ، والواقع أن الدولتين لم تؤيدا استمرار توفيق على عرشه ، وتتوافد البرقيات على عرابى لتحمل معانى المساندة والتشجيع لخطوات الثورة^(٣) ، وتأتى الأخبار إلى القادة فتريحهم وتعطيهم الثقة « إن بسمارك يهنئ السلطان بوجود قوتين يصادم بهما من عاداه ، إحداهما تركية والأخرى مصرية وإن العساكر المصريين منصورون والإنجليز دواماً مقهورون »^(٤) .

وكانت الصحافة الألمانية تتابع بالنشر الخطرات التى تتخذ لعزل الخديوى وتولية غيره^(٥) ، وذلك اتفاقاً مع ما تنادى به الثورة ، وتمضى فتشن هجومها على الإنجليز ، فترى صحيفة « كولونيه » البروسية الرسمية أن حادثة ١١ يونيو ١٨٨٢ « هى بدسائس بعض الإنكليز وبواسطة نقود دفعوها لذلك »^(٦) ، تلك الحادثة التى

(١) الجنة ، عدد ١١٧٦ فى ١٢ فبراير ١٨٨٢ .

(٢) الوطن ، عدد ٢٤٤ فى أغسطس ١٨٨٢ .

(٣) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٧/٥٣ .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٨ .

(٥) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، ٥ مايو ١٨٨٢ .

(٦) الطائف ، عدد ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

قامت ضد الأجانب ، وكان من الممكن اتهام المصريين بها ، لكن إلقاء التبعة على الإنجليز دليل على الرغبة في عدم إشابة الثورة المصرية .

كذلك الصحافة الروسية عدت عرابي زعيمًا قومياً يريد أن يحرر بلاده من أطماع الفاسيين الأجانب ، كما رأت في حريق الإسكندرية شبهاً مماثلاً لحريق موسكو ، وأثت على القوات المصرية في حربها مع الإنجليز ووصفت شجاعتهم وحملت على الإنجليز^(١) .

وكان من يطلع على كثير من تلك الصحف يتضح له كما يذكر عرابي « أن الأميال العمومية كانت في ألمانيا وروسيا وفرنسا وإيطاليا منحازة بحق إلى المصريين »^(٢) ، وزاد هذا الأمل في الانتصار والرقوف بجوار القضية المصرية ، ويؤكد سليم النقاش - وهو شاهد على الأحداث - ذلك بقوله « إن العرابيين كانوا يتلقون هذه الأقوال والمنشورات ويزدادون بها ثباتاً على عزمهم وتيقناً بأن فوز إنجلترا في محاربتهم من رابع المستحيلات »^(٣) .

ولم يكن هناك من أعلن معارضته للثورة التي أمكنها أن تنال جذب العطف الأوربي حتى سويسرا وبلجيكا كان لهما الميول القوية تجاهها^(٤) ، وقد أظهر بعض العسكريين الألمان والسويسريين الرغبة في الانضمام لجيش مصر المحارب ، فعرضوا أنفسهم ومعهم عدد وافر من المتطوعين ، والبعض كان يطلب وسيلة للنقل ، والبعض لم يكن يطلب كالألمان إلا تعيين الضابط الأكبر باسم رفيع في الجيش^(٥) ، لكن عاقت رقابة الأسطول الإنجليزي إتمام ذلك .

أما بالنسبة لفرنسا ، فموقفها من الثورة واضح من خلال الأحداث ، ولكنها عند العدوان المسلح انسحبت في آخر لحظة ، وكان للشوار نظرهم تجاه فرنسا منذ أن وقف معهم قنصلها « دي رنج » كما كان في فرنسا أحرار عضدوا الثورة^(٦) ،

(١) الأرشيف النمساوي ، محفوظة ٢٠ ، المجموعة ٢٦/٣١ ، رقم ٥٩ ب ، ١٢ يوليو ١٨٨٢ .

(٢) أحمد عرابي ، مذكرات ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ .

(٣) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، ص ١٨٣ .

(٤) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 552 .

(٥) محمد عبده ، المصدر المذكور ، ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٦) Biovès , op. cit., p. 153 .

وتحقق اللقاء الروحي بين بعض الفرنسيين وقادة الثورة ، فتأتى الخطابات لتتم عن الود والتعاطف وتلك العلاقة التى تربط بين الشعبين الفرنسى والمصرى منذ القدم^(١) .

وفى ٣٠ يوليو ١٨٨٢ عقد العمال فى باريس اجتماعات أدانوا فيه التدخل الإنجليزى ، ونددوا بموقف الحكومة الفرنسية المحايد^(٢) ، ورأت بعض الصحف الفرنسية أن ما قامت به بريطانيا تجاه الإسكندرية عمل غير إنسانى « لم ينتج عن ذلك العمل الحربى سوى تخريب مدينة حصينة ، وهى أعظم مدن سواحل أفريقيا الشمالية ثروة وغنى ، وجلب العناء على أهاليها الذين لم يجنوا ذنباً ، وأن ما حدث فى الإسكندرية بعد ذلك من الذبح والحريق ، فهو إن كان مقصوداً أو مرتباً على اختلاف فى التدبير ، منسوباً إلى السياسة التى أوجبت إطلاق المدافع على الإسكندرية »^(٣) .

كما كانت بعض مناقشات البرلمان الفرنسى تعطى الآمال فى أن فرنسا تنظر بعين الارتياح إلى مطالب المصريين الخاصة بحقوقهم ، فترى « كليمنصو » يشير إلى أن مصر كانت منهوبة ومسلوبة ومملوكة للأوربيين ، وينتقد المراقبة والمرتبات الضخمة التى يتقاضاها الأجانب^(٤) . وقوى ذلك اعتقاد الثوار بإمكانية نُصرة فرنسا لقضيتهم ، فترى أحمد رفعت يلجأ للصحافة الفرنسية لكى يعرض على صحافتها القضية المصرية ، فيحرر لصحيفة التان يقول « إن أحد أبناء الشرق محباً لوطنه والحق راغباً إتفاق بلاده مع أوربا خصوصاً فرنسا ، وإن ظلم الإنجليز الآخذ فى الازدياد يخول له الحق بالاستجداد بكافة القوى الإسلامية ، وأن المسألة الآن ليست منحصرة فى الميرآلى عرابى ، لأن تداخل الإنجليز قلبها لموضوع آخر ، وما عرابى إلا خادم للأمة چنرال لها يعضده خمس ملايين من المصريين ، بالإضافة إلى السودانين ، وحايض لميل عموم المسلمين ومحبتهم »^(٥) .

Ninet , Arabi Pacha , p. XXXV.

(١)

(٢) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، ص ص ١٦١ ، ١٦٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٦ .

(٤) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٦٨ فى ٥ أغسطس ١٨٨٢ .

(٥) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٨ .

ويتضح أن هذا الأسلوب كان شبيهاً بما قام به مصطفى كامل فيما بعد ، وقد حمل هنا التهديد بين طياته ، ورأى إمكان استغلال العداء التقليدي بين بريطانيا وفرنسا ، لكن فاتته أن المصالح تتصالح ، وأن فرنسا كانت قمة في التطبيق الاستعماري .

وأخيراً ماذا كان موقف أحرار الإنجليز من الثورة ودولتهم صاحبة العدوان على مصر ؟ لقد أعطوا الأمل للثورة في مساندة مطالبها الوطنية ، وتم نقل ذلك عن طريق بلنت ، فوجد القبول والراحة لدى الثوار وشجعهم على المزيد من العمل والتصميم ، ففى برقية من مكدونالد إلى عرابى يقول له « تقدموا أيها المصريون فلا خوف من جهة الأمة الإنجليزية لأنها موافقة على ما يختص بحال الفلاح ، فلتخفض حال المتلفين للأحوال المالية بالإشاعات الفاسدة ، تعيش الأمة المصرية » ، وأخرى بنفس المعنى من شارك ديلك^(١) ، الذى صرح بحق المصريين « فى إقامة إدارة لبلادهم تجعل رجوع الاستبداد إليها محالاً ، فهم من هذا القبيل جديرون بالتأييد »^(٢) ، ولكن يجب أن نذكر أنه كان أحياناً يظهر سياسته الناقمة على الثورة^(٣) ، وهذا شيء من سمات بعض أعضاء البرلمان الإنجليزي .

وآمن الثوار أن حزب الأحرار معضد لهم ، وأنه من الممكن عن طريقه التأثير على الحكومة وقيامها بدور مختلف حيال مصر غير الذى تسلكه ، وقد هاجمت صحيفة الديلى نيوز - لسان حال الأحرار وأبرز صحفهم - حزب الحكومة ووقفت منه موقف المعارضة^(٤) .

وكان اتجاه جزء كبير من رأى العام الإنجليزي يميل مع الثورة ويقف ضد الإجراءات العدوانية على مصر ، ففى ١٦ يوليو ١٨٨٢ عقد اجتماع فى لندن حضره « وكلاء عن جمعيات العمال الإنجليز للنظر فى سير الحكومة فى المسألة المصرية وحضره أيضاً بعض أعضاء البرلمان ، فاستقر رأى العام أنهم يعرضون على رئيس

(١) المفيد ، عدد ٣١ فى ٥ فبراير ١٨٨٢ .

(٢) مصر ، عدد ٩ فى ٦ فبراير ١٨٨٢ .

(٣) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 220 .

(٤) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٨ ، المجموعة ١٠٠/٨ ، رقم ٣٠ هـ ، ١٥ يونيو ١٨٨٣ .

الوزارة كدرهم من ضرب طوابى الإسكندرية ، ومعارضتهم لكل تدخل حربي في أمور مصر الداخلية حيث لا سبب شرعاً ، وأن يطلبوا من الحكومة استدعاء الأسطول سريعاً وإيقاف هذا القتال المتجاوز الذي لا داعي إليه سوى صالح البنيكيرية (*) . وبذلك يتبين أنه كان هناك من يؤيد الثورة المصرية حتى في الدولة التي وقفت أمامها وانتصرت عليها ، وسيوضح الموقف المشوب بالعطف تجاه الثوار أثناء المحاكمات .

ولعل تلك المواقف الأوربية جعلت قادة الثورة يعطون المزيد من الثقة في صعوبة انفراد بريطانيا بمصر ، وعليه غفلوا عن الأعياب السياسية وفنونها ، إذ أن الحكومات سرعان ما تغير وتبدل من مواقفها وفقاً لصالحتها وخاصة في هذه الفترة التي بلغ فيها المد الاستعماري أقصاه ، وقد وضع ذلك في مؤتمر الآستانة ، لكن إذا تركنا الحكومات جانباً فإن الشعوب الأوربية كانت صادقة الرغبة لنصرة الثورة إذ رأت فيها ثورة قومية عاشتها .

والواقع أن هذه التأييدات العالمية للثورة المصرية كان يمكن استغلالها من أجل نصرة القضية المصرية بتكوين جبهة موحدة تقف أمام بريطانيا وتجبرها على التراجع والانسحاب ، لكن قصر الوقت أضاع الفرصة ، كما أن الظروف التي أحاطت بالثورة لم تساعد على انتهاز المواقف ، ويجب أيضاً أن نضع في الاعتبار أن التسلط الاستعماري على معظم العالم العربي والإسلامي يمكنه في الحال القضاء على أية حركة مناهضة له .



(*) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٦٨ في ٥ أغسطس ١٨٨٢ عن صحيفة « بال مال جازيت » وهي الوحيدة التي كان جلاستون يقرأها بإمعان . Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 220 .

القوى الاجتماعية
وتناغم التلاحم
الثورى

الفصل الحادى عشر

الضالـحـون .

الفصل الثانى عشر

التجار والحرفيون .

الفصل الثالث عشر

الجنـاح المدنى من المثقفين .

الفصل الرابع عشر

ملاك الاراضى .

الفلاحون

نمو الوعي

كان اشتراك الفلاحين في الثورة العربية ضرورة ملحة أوجدتها الظروف الصعبة التي عاشوا فيها طوال العصر الحديث ، فتورثهم كانت ثورة اجتماعية سياسية ، فبالنسبة للأولى نجد أنها استهدفت تحقيق تغيير جذري في الحياة ، بهدف إيجاد عدالة اجتماعية حرروا منها ، أما الثانية فقد كان الفلاحون منذ هذا الوقت المبكر على فهم وإدراك ووعي بأنه من الضروري أن تتغير الهيئة الحاكمة التي تمثلت لهم في الظلم والطغيان والسيطرة التركية والتحكم الأجنبي ، لكن ثورتهم الاجتماعية كانت أشد قوة وأعمق أثراً ، حيث إنها لم تقم لمجرد مشيئة فرد معين أو بناء على إرادته ، لكنها استلزمت لقيامها ظروفًا موضوعية - دخل تحتها الضرائب والسخرة والظلم والتعدي والاعتصاب وتحكم الأجانب - ، كانت تزداد يوماً بعد يوم ، حتى أن الفلاح أصبح لا يمتلك سوى قوت يومه وأحياناً قد لا يجده ، فكان بديهياً أنه عند قيام ثورة أن ينضم إليها بسهولة .

وبدأت اليقظة الثورية لدى الفلاحين ، فكانت حقيقة واقعة عاشوها ، جعلتهم مدركين لكل التحركات السياسية التي بدأت مع الثورة في قصر النيل على أيدي العسكريين من أبنائهم ، فكان لهم بطبيعة الحال رد فعل قوى انطبع عليهم ، هذا في الوقت الذي تلاحمت فيه القوى المنشطة لاستعجال ثورة الفلاحين وإطلاق شعورهم الجياش . فقد كان من الضروري وجود من يُفَتِّحُ أذهانهم ، ويوضح لهم معالم طريق الثورة على الأوضاع القائمة ، هذا كان دور المثقفين من طلبة الأزهر ، وما هم إلا أبناء فلاحين ، فكانوا عند زيارتهم لقراهم يقيمون ندواتهم التي يتحدثون فيها إلى أهلهم وذويهم ، ويعرضون تاريخهم الطويل الذي امتلأ بالظلم على أيدي أجناب عن

أرض مصر ، سواء أكانوا الحاكمين من الأتراك وما يتبعهم أم المتحكمين من الأوربيين ، وأنه لابد من بتر هذا الوضع والتحرر ، ووضع النهاية التي ستكون على أيديهم ، وأن مخلصهم هو فلاح منهم ، إنه عرابي^(١) ، هؤلاء الأبناء الذين تشربوا تعاليم الأفغانى فحركت مشاعرهم ، فقاموا بتبسيطها للفلاحين ليفتحوا أذهانهم ولينيروا عقولهم ، كما أن محاولات الأفغانى لإثارتهم منذ البداية « أنت أيها الفلاح المسكين تشق الأرض لتستتبت ما يسد الرمق ويقود بأود العيال ... لماذا لا تشق قلب ظالمك ، لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون أتعابك ؟ »^(٢) ، كان لها أثرها في الريف ، لكنها لم تنفذ إليه بعمق .

وبرز دور المعلم الذي أمكنه التوغل في داخل الفلاحين ومعايشتهم عن طريق صحافته الشعبية التي ألهمت الحماس ، إذ أنه وقَّد التيقظ لكل فئة بطريقتها ، وأوصل أفكار الحرية والمساواة إلى الأعماق وعلم النقد اللاذع المبني على السخرية ، وهذا يتفق مع طبيعة الشعب المصرى الذى لا يترك مجالاً إلا وأظهر فيه الفكاهة ولو كان في أحلك فتراته ليخفف عما به من مصائب ، ذلك المعلم هو يعقوب ابن صنوع ، وبالرغم من أنه وقت الثورة كان خارج مصر ، فإن كتاباته وصحفه تم تداولها داخلها وتواجدت بين الفلاحين ، فيقرؤها عليهم من يعرف القراءة ، فهي مكتوبة بلهجتهم وأفكارهم ، وموضوعاتها تتفق وإياهم ، فتأثروا بها إلى أقصى درجة بدليل هذا الانتشار الرائج ، وهذا الترديد لحوادثها وقفشاتاها ، حتى أصبحت محاورات على ألسنة فلاحى قرى مصر كلها ، ومع الحصار القاسى والرقابة الشديدة التى كانت مفروضة عليها فإنها كانت تصل إلى أعماق الريف .

وتناولت يده تصوير الفلاح شامخ الأنف بينما الحاكم راعع ، فقد أحب شخصية الفلاح إذ عدها الممثلة للمصرى الأصيل ، وأراد أن ينير له الطريق ويوقظه من غفلته في تلك الفترة التى تفشت فيها المظالم الواقعة عليه ، وحاول أن يدفع « أبو الغلب وأبو شادوف » كما كان يطلق عليه إلى الثورة والانتقام ، ودائماً يبصره بحقوقه وأمواله المسلوبة في كتاباته .

وأعطانا يعقوب بن صنوع التحركات الأولى للفلاحين عقب قصر النيل « ده أهل مصر اليوم قامت وقعدت والواد ووزيره ومحاسبهم انصابوا بعيد عنك بالفالج

Wallace , op. cit., p. 290 .

(١)

(٢) السيد محمد رشيد رضا ، المرجع المذكور ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

اعوذ بالله وسبب ده كله قيامه الفلاحين بالقرب من طنطا ، أصل لما بلغهم ثورة الضباط ورفت ناظر الجهادية دخلت قلوبهم الجسارة والحمية ، وفاقوا من غفلتهم وقاموا بالبنائيت على أحمد بك والمدير الظالم ماخلوا لا وراهم ولا قدامهم ، آه يا خسارة إن مجاش الهوا سوا لأن أبو روضه حالا بيعت لحبيبه المدير مقدار ألف عسكرى ، وطلعوا من عيونهم العلقه ، وأبو روضه نده الساعة خامسة من بعد نصف الليل جميع محررين ومديرين الجرائد المحلية من أفرنج وأولاد عرب ، وقال لهم بأن من الآن وصاعداً من تجاسر منهم وتكلم عن الثورة الضابطان ، أو قيامه الفلاحين حالا إدارة المطبوعات تصدر أمر بتعطيل جرناله ، فالزموا المساكين يقولوا له سمعاً وطاعاً (١) .

وفى حقيقة الأمر فليس هناك مصدر آخر يؤكد هذه القيامة للفلاحين ، لكن لا يستبعد أن يكون ذلك صحيحاً لعدة أمور ، فهى لم تكن الحركة الانتفاضية الأولى ، إذ سبقتها حركة شبيهة فى عام ١٨٨٠ عبرت عن السخط ، فما بال بعد قصر النيل التى أعطت الدفعة لجميع قوى مصر ، ثم من المعروف أن جميع أخبار مصر كانت تصل للثائرين المصريين فى فرنسا سواء كان يعقوب بن صنوع أو أديب إسحق فاستخدموها فى صحافتها ، وأخيراً فإنه لشبوع صحف الأول وتداولها بين الفلاحين ، كان يمكن لهذا الخبر أن يثيرهم ويزيد من حميتهم ويدفعهم لاتباع أسلوب العسكريين ، حيث إنه قائد طليعتهم ، الذى بلور أفكارهم وعلمهم السياسة بطريقته ، وعبر عن سخطهم أصدق تعبير .

وجاء النديم ليحمل مشعل الثورة على المفسدات التى عانى منها الفلاحون ، فجعل سبيله للتحدث معهم بذلك الأسلوب القريب إليهم ، فإنهم الدعامة الأساسية والقاعدة الشعبية التى لابد لكل قائد أن يعتمد عليها لتحقيق أهدافه الثورية ، وظهر ذلك فى كتاباته لهم ، والتى بدأها فى صحيفة التكتيك والتبكيك لإيقاظهم مما هم فيه وتنبيههم إلى الأخطار المحيطة بهم ، وقد اعتمد كسابقه على النكتة المثيرة التى تؤثر فى المصريين ، ولكن بصورة تختلف عن الأسلوب الساخر ، فالنديم يرثى حالهم ويركز على ضرورة التغيير « فالفلاح الصادق فى هذا البلد هو من تراه قليل الهدوء كثير الكلام ، رث الحال ، مفتوح الصدر ، دانى القدر ، حافى الأقدام ، كثير الأوهام ، عارى الساق » (٢) ، ويمضى فى الدعوة للنهوض به بعد أن يعدد المظالم التى وقعت

(١) الحاوى ، العدد ٣ فى ١١ مارس ١٨٨١ ، « ألواد هو ترفيق وأبو روضه هو رياض » .

(٢) التكتيك والتبكيك ، عدد ٦ فى ١٢ يونيو ١٨٨١ .

عليه والبؤس الذي يعيش فيه ، ويهاجم الأجانب ورباهم الفاحش ويبين أن الفلاح كان يقترض بالربا من أجل أن يدفع لمحام أجنبي ليترافع عنه أمام المحكمة المختلطة التي تناصر خصمه وهو أجنبي^(١) ، ويوجه النداء لإيقاظ الفلاح ، ويحث الأغنياء والمتعلمين على الأخذ بيده وفتح الأبواب أمامه وتقديم المساعدات له « فاقراً عليه أخبار أمريكا بلسان يفهمه ، وحوادث فرنسا بعبارة يعقلها ، وصور له التقدم في صور لا تبعد عن إدراكه وفهمه مقدار النعمة وموجبات الثورة ووسائل القوة وثمرات العمار ، وأن الجهادي عليه مدار حفظ الوطن والنفس والجنس ، ليكون أوسع ساع في الانتظام في الجندية الذي علم بالثمرة المترتبة عليه بعد أن كان منه نفوراً ، فإنك إن فعلت هذا انبعث في الفلاح روح جديدة في طلب التقدم ، وجاهد في إحسان زراعته ونمو حاله ، وظهر في الوجود إنساناً يحفظ له تاريخ كباقي العقلاء »^(٢) .

وواضح أنه لم يكتف بالحث على النهضة بالفلاح فقط ، وإنما يلاحقه في سلك العسكرية أيضاً بعد أن أصبح لها كيانه المرموق عقب قصر النيل ، كذلك وجهه إلى الإقلاع عن التعامل مع الأجانب الذين أفسدوا البلاد بالحنانات التي انتشرت في الريف ، وراح يثير الفلاحين ويحمسهم ضد ساداتهم الأتراك الذين ألصقوا بهم تهمة أنهم فلاحون « فبعد أن يعد الفلاح أرض الباشا التركي ويستحمل العذاب وانهوان لخدمتها وإحيائها ، وعندما يلجأ هذا المسكين لصاحبها لا طالباً مجداً ولا مستجدياً قوئاً بل ليخبرهم بإصلاحها ونجاح الفرس ، أنفوا من دخوله عليهم ، وغضبوا من وجوده في مجلسهم ، وقالوا : من أنت ؟ ومن أدخلك علينا ؟ ومن جراك على بيوت العظماء ومجالس الأمراء ؟ إمش إطلع بره فلاح ، فأصبح الفلاح كلما حول نظره وجد غريباً ، وكلما سرى صدمه أجنبي^(٣) ، كما كان يوجه الفلاحون للتمرد على السخرة^(٤) . ونجحت رسالة النديم في التكييت والتبكييت ، وتابع إثارة الفلاحين في صحيفة الطائف التي رفعت من الروح المعنوية للشعب مصر ، إذ غدت البلمس الذي أراحهم لدرجة أنه عند تأخرها على بعض المناطق البعيدة كانت ترسل الخطابات لأجل استعجالها .

(١) المصدر نفسه ، عدد ٨ في ٣١ يوليو ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، عدد ١٠ في ١٥ أغسطس ١٨٨١ .

(٣) المصدر نفسه ، عدد ١١ في ٢١ أغسطس ١٨٨١ .

(٤) المصدر نفسه ، عدد ١٣ في ١١ سبتمبر ١٨٨١ .

وسارت المفيد وهى صحيفة ثورية على نفس الأسلوب ، فحركات الفلاحين « إن الفلاح لهو السيد فى صورة العبد ورب الدار فى موقف الخادم »^(١) ، وهاجمت الربا وتذلل الفلاح للسماصرة والمرايين وضرورة الوقوف أمام هذه السلطات الداخلية .

وبذلت الوقائع المصرية على يد محمد عبده الجهود من أجل ذلك ، ففاضت مقالاته عن الظلم والاستبداد وتصوير بؤس الفلاحين وآلامهم فى الضرائب والسخرة والكرباج والفقر والسجن « الفلاحون أهالى بلادنا محملين من الأثقال النقدية ما لا يطيقون من ضرائب متنوعة على الأراضى ، فتكثر وتتجدد على الدوام بتجدد الأشهر والأعوام ، وجرائم تفرض على الأنفس وتوابعها من غير نظام لا تنتهى إلى غاية ولا تقف عند حد ، بلغت بهم نهاية لا يستطيعون معها الأداء لشيء مما فرض عليهم »^(٢) ، وكان لصحافة الثورة ونظرتها للفلاحين من ناحية ، وتقبل الفلاحين لما تعرضه من ناحية أخرى الأثر الكبير فى تفتح أذهانهم وإحساسهم بأن هناك من يهتم بهم ويسأل عنهم وينتقد أوضاعهم ويتكلم بلسانهم ، ومن هنا أرادوا تطبيق مبادئها وتوجيهاتها .

وكان لنزول الطليعة المثقفة إلى العمل الميدانى الأثر الكبير على الفلاحين ، فقد طاف النديم بالبلاد وارتقى منابر المساجد وجلس مع الفلاحين يشعل نار الثورة فى قلوبهم ويحرضهم للذب عن حقوقهم ، حدثهم فى دمياط والرحمانية ودسوق وزفتى والمنصورة وميت غمر عن حياة البذخ التى يحياها الأغنياء والحكام الذين يعيشون فى ثياب العز ويتمتعون بأسباب المدنية وينعمون بالمراقص والغانيات وينفقون الأموال ذات اليمين وذات الشمال وما هى فى الحقيقة إلا أموالهم ، وأنهم أساس النعمة وأسبابها يجمعونها بعرقهم ودمائهم من فلاحه الأرض وتربية الماشية ليأخذها الأغنياء ويبيعوها على ملازمهم ومتعمهم^(٣) ، وكان قادة الثورة قد وكلوا هذه المهمة للنديم .

وأصبحت الخطب التى تخطب فى جميع مساجد مصر أسبوعياً تتناول الإصلاح السياسى والاجتماعى ، والأخطار المحدقة بالأمة ، حتى لقد طلب النديم

(١) المنيد ، عدد ٢٧ فى ٢٣ يناير ١٨٨٢ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ٩٦٩ فى ٢٥ نوفمبر ١٨٨٠ .

(٣) التكتيت والتبكيث ، عدد ١٠ فى ١٥ أغسطس ١٨٨١ .

من ديوان الأوقاف أن يسمح بإلقاء هذه الخطب وأن تطبع وتشر في أنحاء البلاد ، ليصل صداها إلى كل قرية وبلدة وتتضمن المحافظة على حقوق البلاد والنهي عن الظلم والبنى والدعوة إلى الائتلاف لمواجهة الأخطار والإتحاد مع المواطنين من غير نظر إلى اختلاف في الدين ، والتذكير بمجد مصر السابق ، والتحذير من تمكين الأجنبي من وضع يده على سياسة البلاد^(١) .

وكان الفلاحون يتسمون بذلك الطابع القوى من الإيمان العميق ، وهنا كان العامل الديني واضحاً في الثورة ، فالإسلام دين ثورة على الأوضاع الفاسدة القديمة ، وهو يرفض الظلم والعدوان وسوء الأخلاق ، ثم هو يدعو لمحاسبة الحاكم إذا ظلم رعيته ، وعزله إذا استمر في الظلم ، وهذا مما سيجعل للثورة ذلك الإطار الديني ، وبالرغم من كراهية الفلاحين للأتراك ، فإنهم يقبلون حكم السلطان كحاكم للمسلمين ، حيث إن للإسلام قدرة لديهم ، لكن ليس معنى هذا أنهم متعصبون له ويكرهون المسيحيين كما اتهمهم معظم الكتاب الأوروبيون .

أساء الخديو وحكومته إلى الفلاحين إذ عدوهم جهلاء لا يساوون أى قدر في الحياة ، إنما هم الآلة التي تعمل من أجلهم والبنك الذي يسدد لهم ديونهم ، وفي نظر الأجانب كانت عملية غريبة أن يشترك الفلاحون في ثورة ، إذ اعتبروا أن الحركة الوطنية ما هي إلا أسطورة ، وكل ما اعتقدوا فيه أن على وادي النيل فلاحين يعيشون تحت السياط ، هؤلاء الفلاحون عاشوا أحلك الظروف وخضعوا للمبودية التي كللت بالسيطرة الأوروبية على يد المراقبة الثنائية فأصبح « عملهم للولاء وأموالهم للأوروبيين » ، وكتبت صحيفة « لانوفيل روفيو » « كان الأليق بشرف المستر جلدستون أن يعترف بأن تعدى المراقبين المالي والإداري أوصل الفلاح إلى درجة من التميز ، وأن التعليمات الأوروبية كونت من الجموع المصرية شعباً صار أمة »^(٢) ، لذا كانت صيحة مصر للمصريين لها أصداؤها الواسعة بين الفلاحين الذين دمروا تحت أسوأ الظروف .

وراح مراسل صحيفة « البول ميل جازيت » يسجل إدراك الفلاح الذي خلقته العناصر الغربية عنه والمستغلة له إذ يقول « من المؤكد أن الفلاح لا يعرف كثيراً عن المسائل السياسية ، ولكن خبرته بتدخل الأتراك والأوروبيين في شئونه تجعله ينظر

(١) على الحيدى ، المرجع المذكور ، ص ١٢٦ .

(٢) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، ج ٥ ، ص ١٨١ .

إلى هذا التدخل بعين الشك . فالأتراك يلجأون إلى الكرياج ليبتزوا منه كل ما يمكن من القروش التى يملكها ، كذلك يلجأ المرابون اليونانيون والإيطاليون إلى المحاكم المختلطة ليفعلوا نفس الشيء ، فهل من العجيب إذن أن يعضد شيخ قريته وعن طريقه الحزب الوطنى «(*)» ، وكان ذلك اعترافاً من صحيفة أجنبية بأن الفلاح أصبح ملماً بالشئون السياسية .

وتثبتت الأفكار التحررية فى أعماق الفلاحين وأصبحوا على درجة كبيرة من الوعى أفهمتهم جميع الأحداث الجارية التى راحوا يتابعونها باهتمام وحماسة ، كما أن ما تم على أيدي العسكريين منذ البداية أعطاهم الأمل الكبير فى الجيش ورجاله ، وأيقنوا أن هناك قوة من طينتهم يمكنهم الوقوف خلفها .

وانطلق دور الزعيم فكان القوة الصلبة الدافعة للفلاحين ، وتتجسد الثورة فى شخصية ويتحول إلى بطل أسطورى بل ولى من أولياء الله الصالحين ، فهو سيقودهم إلى الخير وسيكون حكمه يفيض بالعدالة ، سيقضى على الخراب والدمار ليبنى مجتمعاً جديداً فى ظل المساواة التى تؤكد حقوقهم ، ولا سيادة للغرباء ، سيطيح بعلاقات الإنتاج القديمة ومصالح الطبقات الرجعية ليضعهم فوق كل اعتبار ، كان القائد فلاحاً من هؤلاء الفلاحين ، أحس بأهله وناسه ، فأصبح من الطبيعى أن تنصب دعوته لهم على تخليصهم من المظالم والقسوة التى يعيشونها ، ولم يعد القائد فقط ، وإنما هو الحق بعينه ، وبه أمكن لهم أن يتكلموا ويجهروا بل ويثوروا من أجل حقوقهم المسلوبة بعد أن كانت السياسة محرمة عليهم .

إذن يرجع الفضل فى هذه النهضة لتلك الشخصية التى جاءت لتثار من تلك الأحداث التى تراكمت على مصر ، ويجب أن نذكر أنه فى تاريخ مصر كله ، ولم يبرز فلاح بسيط يصبح ذا مكانة سياسية يقود شعبه إلى الإصلاح ، فقد اكتسب ثقة الفلاحين وراح يعمل من أجلهم ، وغدا اسم عرابى يتردد على الألسنة كرجل استطاع أن يتحدى الحكومة الأوتوقراطية وينجح ويرغمها على تغيير النظار ، وتسمع له وتتفذ ، وكتب محرر صحيفة التيمز وليم جريجورى يقول « إن هذا الانقلاب الذى يعبر عنه باسم المحبة والاعتبار فى كل بلدة بها الظلم والاعتساف هو بواسطة الكولونيل أحمد بك عرابى ، وهو أحد الرجال المشهورين الذين يظهرون فى الأزمان ، أنصار الحق ضد القوة والضعيف ، ضد الأهلوى والمظلوم ، ضد الظالم ،

(*) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الثورة العرابية ، ص ٥٩ .

وقد كان ظهوره فى وقت اشتد فيه انعقاد الظلم فى عين الفلاح المصرى ، إذ كانت حالته أقرب إلى حضيض الفقر بسبب مطامع حضرة إسماعيل باشا الخديو السابق^(١) ، وقد أخطأ جريجورى فى وصف الثورة بأنها انقلاب فى بدايتها لأنها منذ البداية كانت ثورة لاستجابة قوى الشعب ، ولها الجذور العميقة فى وعى الأمة ، وأحاسيس الطبقات الاجتماعية ، وأنه لا يمكن أن يكون هناك استجابة بين الشعب والقائمين على أمر الانقلاب ، حيث إن الثورة تذوب فيها المصالح الذاتية وتبرز المصلحة الجماعية العامة فوق كل اعتبار ، لكن المحرر كان صادقاً فى تقييم عربى بالنسبة للفلاحين .

وبذلك نرى أن لصلة الدم قوة كبيرة ربطت بين الطرفين ، وجعلت عربى صورة صادقة للفلاح الذى أحس بكل ما فى أعماقهم ، ومن هنا خرج برنامجه لإصلاح حالهم ، بإلغاء الكرياج وتخفيف الضرائب وإنهاء الدين وهو الدودة التى تتخر فيهم وتقضى عليهم كالسم القاتل ، ووعدهم بالعدالة والمساواة « ولم تمض بضعة شهور إلا وقد ماجت البلاد بتلك الأفكار »^(٢) ، وأصبحوا مؤمنين بضرورة أن تكون مصر للمصريين فلا سيطرة تركية ولا تدخل أجنبى ، وتلك العقيدة لازمتهم طول الفترة ، ونجح عربى فى تثبيتها بداخلهم ، وبذلك كانت ثورة قومية صحيحة .

وغدا عربى الزعيم الأواحد بالنسبة لهم وكانوا يطلقون عليه « الباشا بتاعنا » فهم الذين يملكونه ، هذا فى الوقت الذى زاعت فيه شهرة عربى على أرض مصر كلها ودوت تصريحاته لتحرير الفلاحين ، ومن ثم سيطر الحب على الإحساسات منذ البداية وطوال الثورة « فكانت إذا وضعت حبلى صبيا سمته عربى أو أحمد عربى لا سيما أهل القرى ، واشتد تعلق الناس به شدة لم تكن تخطر لأحد على بال »^(٣) ، وصدق بلنت حينما أكد أن « الحركة الوطنية لعام ١٨٨١ هى حركة فلاحية غرضها تحرير الفلاحين »^(٤) ، تحريرهم من كابوس الهيئة الحاكمة التركية ، وأخطبوط الأجانِب المتشعب والمسيطر على الحياة المصرية .

(١) المفيد ، عدد ٢٢ فى ٩ يناير ١٨٨٢ .

(٢) محافظ الثورة العرباية ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٣٨٩ .

(٣) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٢٦٠ .

(٤) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 144 .

الترجمة العملية للوعى

بناء على الإحساس ببداية تلك الحياة الجديدة ، ولم يكن قد مر عشرة أيام على قصر النيل ، حتى بدأت الأفواه تتكلم وتشكو وتتطلع للعدالة ، وجرت عملية واسعة من الجهر والمطالبة بالحقوق التى سلبت قبل الثورة بعد أن أصبح عرابى فى نظرهم كل شئ ، فغمرته شكاوى المظلومين ولم تكن تنهال عليه وحده بل اتسعت الدائرة إلى المسئولين جميعهم .

فقد حضر للقاهرة وفد من فلاحى ناحية « رأس الخليج غربية بشبين » للشكوى من أن زمام الأقطان ببلدهم ٢٤٠٠ فدان منها ٩٣٠ تتبع القومسيون ، ١٤٧٠ مكلفة « وأن الأنفار الشغالة الموجودة بالناحية سبق تقسيمها نصفين من مدة استيلاء الأقطان للعهد ، ولما طلب بدلية الأنفار من النواحي التابعة للقومسيون صار إدخالنا وأنفارنا البدلية بدون علمنا ، وعلى ذلك صار أخذنا بالقوة الجبرية تارة بأجرة وتارة بدون لأشغال القومسيون ، وبانتهاء ١٨٨٠ صار حصول القومسيون على البدلية منا وأنفارنا بمقتضى سنوات ، وقد ترتب على ذلك إتلاف مزرعاتنا وعدم مقدرتنا على سداد ما هو مطلوب منا للتجار ، ويعقب ذلك امتلاكهم الأقطان تعلقنا وانحرمانا من المعاش ، وحيث إننا صرنا فى درجة التأخير ولم نملك سداد ما هو مطلوب منا بأوقاته لداعى ظلمنا تركنا أشغالنا وحضرنا »^(١) .

وهكذا فبالرغم من أنهم دفعوا البدلية فإنهم طلبوا للسخرى لأراضى القومسيون ، وكان لذلك أثره على أراضيتهم وحالتهم ، فجهرروا بأصواتهم ضد إجراءات الدولة نفسها ، وهناك شكاوى أخرى تؤكد نفس المعنى من فلاحى ناحية « قوة بمديرية الغربية » يتظلمون فيها من تسلط خدمة القومسيون بالناحية عليهم « وأخذهم وتشغيلهم فى زراعة أقطان القومسيون بالقوة الجبرية » ، كذلك فلاحو « كفر نصارة وكفر يوسف سلامة بمديرية الشرقية » يتضررون من إلزامهم بطلوع أنفار للعملية ويلتمسون قبول البدلية^(٢) .

وكإحساس الفلاحين بأن الوضع قد تغير ، ازدادت شكاوهم وعرض ما تعرضوا له لإيقانهم أن هناك من سيسمع لهم ويحل لهم مشاكلهم ، ففلاحون من مديرية « المنيا وبنى مزار » يتظلمون بأن « يوسف أفندى عبد الشهيد » استولى على زمام بلدهم البالغ مقداره ٥٠٠ فدان بالقوة الجبرية « وصرنا قاطنين بالبلد حيط من غير

(١) محفوظات الداخلية ، محفظة ٣٦ ، ١٠ فبراير ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، ١٩ مارس ١٨٨١ ، ١٣ يونيو ١٨٨١ .

غيط ، وتكررت شكوانا فما وجدنا إنصافاً»^(١) ، معنى هذا أن وقت الإنصاف قد حان .

وتبع ذلك مسألة العمل في الجفالك وسخط الفلاحين عليها والرغبة في تركها ، فتقدم فلاحو ناحية « الشرايبة » وناحية « العلوانية » بقسم قلوبنا بمديرية المنيا وبنى مزار يشكون من « أنه في العام الماضي كنا مشاركين الجفالك السنية بتفتيش معصرة سمالوط في القصب ، والآن صار كسره وتوريده بفاوريقة المنيا ، وإحالة أشغالنا ومطالبنا على التفتيش ، وما هو حاصل للأهالي من التعب الذي لا يطاق من خدمة التفتيش ومن زراعة القصب ، وصار تشتيت أغلب أهالي نواحيننا ، وما هو باق من الأنفار ليس لهم اقتدار على خدمة التفتيش مما أصابهم منه وصار اضمحلال حالهم»^(٢) ، ويطلبون الانسحاب من التفتيش ، ولم يكونوا ليجرؤوا قبل ذلك على هذا الطلب .

وتتوافد على نظارة الداخلية الصفحات والصفحات التي تنطق بسخط الفلاحين على العمد واتهامهم بأنهم موجود لديهم أنفار حمايات ، ويعفون من السخرة من يرون ، بحجة أنهم أرباب صنائع وغفرة وطاعين في السن ، وبيان أن هناك اتفاقاً بينهم وبين مأموري المالية ، ويطلبون الخروج من حصتهم^(٣) ، وتمضى التماسات طلب العدل من الفلاحين ممن أخذت أراضيهم وسلبت أموالهم وخربت بيوتهم على أيدي الحكومة وأجهزتها .

وارتفعت أصوات المسجونين بسبب ما عليهم من أموال الميرى وغبنهم في ذلك ، فأحدهم يتظلم بأنه قد ورد ١٤٠ أقة باذنجان قوطة ، ١٧٠ عدد بيت فجل بلدى ورومى ، ١٥ عدد بيت ملوخية إلى مطبخ السراى « ولم يخصم حقها مما يستحق عليه من إيجار أطيان ، وعندما طالب بذلك سجن ويطلب أنصافه»^(٤) .

وقد اتضح أنه أمام هذه الأصوات تحركت الحكومة وأرسلت محققين من الداخلية للتحقيق في أمور تلك الشكاوى ، ولم يكن ذلك ليتم قبل قصر النيل .

واهتم البارودى بأمر عساكره الفلاحين ، فنراه يرسل على الفور للداخلية بأن أونباشى بالآى ناحية « مسطية » بمديرية الغربية أثناء وجوده ببلده بإجازته أراد

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه ، ٢٤ مارس ١٨٨١ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ٣٨ ، أول أغسطس ١٨٨١ .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ٣٧ ، ١٨ يونيو ١٨٨١ .

عمدة الناحية تشغله بأطيانه سخرة ، وحينما رفض « فالعمدة وإخوانه أجروا رمية بالأرض وصاروا يضربونه بالكراييج والمداس إلى أن أشرف على الموت ، وحضر مخدومه وأراد تخليصه ، فما كانوا إلا وصاروا يضربونهما ووضعهما بالخشب والحديد وسجنوهما بمنزل العمدة أربعة أيام » ويطلب البارودى التحقيق الفورى^(١)، وهذا من الدلائل على نصرة الفلاح فى عهد الثورة .

وكان للكراهية والحقد الذى صبه الفلاحون على الأجانب دوره فى هذا المجال بعد أن سلبوهم كل شىء ، فمن « ميت الشيوخ » دقهلية يلتبس ١٤ فلاحاً عدم خرابهم على يد الخواجة وسيلى وكيل قنصلية فرنسا بدمياط ، « حيث إنهم يمتلكون ٤٩ فداناً سابق تسويتها عليهم بموجب تنازل من أصحابها الأصليين ، وذلك نظير سداد الديون التى كانت مطلوبة منهم للحكومة ، ومضى على ذلك ١٤ سنة ، أنفقوا فيها من أجل إصلاح الأرض ، وتداينوا عليها من التجار ، ودفعوا عنها المقابلة وكافة المطالب الميرية ، فاتفق أصحابها الأصليين مع الخواجة المذكور وباعوا منها ٢٥ فداناً باسم والدته الست كاترين ، الذى قدم دعوى بمجلس المنصورة المختلط ، فحكم بأحقيتهم فى تلك الأطيان ، فحضر الخواجة مع مأمور المركز وأراد نزع الأطيان بالقوة الجبرية ، ولما توقفوا عن التسليم أرسلوا للمديرية وصار وضع البعض منهم بالسجن والحديد^(٢) ، ومن ذلك نلاحظ أنه حتى لو تصادف وحكمت المحكمة المختلطة فى صالح الأهالى لم يكن حكمها ينفذ بعد أن سيطر الأجانب على مصر .

واشتكى فلاحو « نزلة العدوة » بتعدى الخواجة حنا سوريال وإخراجهم من الأراضى وأذيتهم على يديه بالضرب والسجن « وذلك عندما اشترى ٤٠ فداناً بما فيه النزلة السكن المتداخلة ضمن زمام الأطيان بمشتملاتها من بناء ونخيل » وأظهر الفلاحون الطعن فى البيع ، وبأنه نوع من أنواع الغش وراحوا يطالبون بحقهم . ونرى شكوى لأحد الفلاحين من « سنعيد » بالدقهلية أنه « أخذ مبلغ من الخواجة جريس اسطفانوس ، ورهن له أرضه بميعاد ست سنوات ، وقبل مضى الميعاد بسنتين أحضر المبلغ بقصد تسليمه إلى الخواجة الذى رفض ، وباتحاده مع وكيل المديرية صار سجنه ، واستطاع الخواجة أن يستخرج حجة من محكمة المنصورة بتملكه تلك الأطيان^(٣) .

(١) المصدر نفسه ، ٢٣ يونيو ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، محظلة ٢٦ ، ٣١ مارس ١٨٨١ .

(٣) المصدر نفسه ، أول إبريل ١٨٨١ ، ١٠ يونيو ١٨٨١ .

وأثبتت تلك المعروضات الحالة التي وصلت إليها مصر من جبروت الأجانب الذي ازداد وطفى ، فقد طالب أهالي ناحية « شبرا بلوله » بمركز سبك منوفية بانتشالهم من برائن الخواجات الذين تحابلوا عليهم بالإتفاق مع مشايخ البلاد للاستيلاء على أراضيهم المزروعة قطعاً ، فإذا أقام كل من الخواجة دمتري بدريكو والخواجة دمتري كريازو - وهما تاجران بالقاهرة - وابوراً على ترعة الباجورية لأجل سقيه القطن على أساس إسقاء كل سنة ٢٥٠ فداناً فى نظير مبلغ معين ، وعقد الشروط لمدة ثلاث سنوات ، لكنها لم تنفذ ، وجاء السقى أقل ، وفى السنة الأولى كان ١٨٠ فداناً ، وتلاها ١٦٠ فداناً ، فازداد أمر الأراضى سوءاً وقل إنتاج المحصول ، ثم أوقفوا الوابور كلية ، وطالبوا الفلاحين بـ ٣٠٠٠ جنيه ، وأدخلوا ألرعب عليهم بأن الحكومة ستأخذ الأطنان جميعها « وإننا بواسطة تبعيتنا لحكومة مصر فلا لنا قدرة على رد تبعيات الدولة الأوربية » ، وأعقب ذلك إن خفضوا المبلغ إلى ٥٤٠ جنيهًا ، وكتبوا سنديين بالمبلغ وجعلوه لخواجة آخر ، فأراد اغتصاب الأرض ، وحكمت المحكمة المختلطة بالمبلغ المحرر به السندان « وسجن أصحابها لمدة تزيد على ثلاثة أشهر لإجبارهم على إسقاط الأطنان بسعر ١٢ جنيهًا للفدان ، وهو يساوى زيادة عن ١٠٠ جنيه «^(١) ومضوا يطالبون بالإنصاف وضرورة عودة أراضيهم وإبعاد الأفاقين والسارقين والنصابين .

وكانت الخطوة التى تلت الجهر بالآلام ، هى التمرد التدريجى ، فرفض فلاحو « كوم حمادة » الخروج للعونة ، بل واعتدوا على مأمور المركز ورجاله الذين توجهوا إليهم ليَجبروهم على الخروج ، فلم يطيعوا إلا عندما استعان هؤلاء بقوة عسكرية^(٢) .

وترك الفلاحون أشغال الجفالك رافضين هذا العمل القاسى ، فترى وكيل دوائر الأمير محمود يشكو لناظر الداخلية « إن الأهالى يتركون أشغال الجفلك ، وهذا أمر موجب لعطل لم (جمع) المحصول الشتوى وإتلاف زراعة الصيفى «^(٣) .

وبذلك انتفض الفلاحون وملأهم الإحساس والرغبة فى المزيد من الانتصارات ، فقد كتب مونج قنصل فرنسا إلى وزير خارجيته يقول « حتى الفلاح فقد تأثر

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٣٨ ، ٢٧ أغسطس ١٨٨١ .

(٢) المحروسة ، عدد ٢٤٧ فى ١٩ مايو ١٨٨١ .

(٣) محفوظات، انداخلية ، محفظة ٣٦ ، ٢٢ أبريل ١٨٨١ .

بالفوضى التى عمت البلاد كلها بتلك السرعة الفائقة ، فمنذ بضع سنوات كانت سلطة المدير فى القرى محترمة ، ولم يكن أحد يقوى على الوقوف أمامه ، أما اليوم فالوضع تغير ، إذ أن المدير لم تعد له أية صفة ولا سلطان على الفلاح «^(١) .

التاسع من سبتمبر وانطلاق الفلاحين

يُعد التاسع من سبتمبر بداية لمرحلة تبلور فيها الموقف بعد أن وضعت النقاط على الحروف بانتصار الأمة ، وتحقيق المطالب الوطنية ، سواء بإسقاط حكم رياض المعادى أو بوجود حكومة دستورية ومجلس نواب ، لتكون النتيجة وصول عرابى لقمة المجد ، ومما لا شك فيه أن ذلك قد أسعد الفلاحين للغاية ، إذ كان العداء يربط بينهم وبين رياض ، أما مسألة مجلس النواب فقد أدركوها فيسجل شاهد عيان قوله « كان للأحداث الجارية فى القاهرة ، والتى كانت خطوات الثورة تدفعها للأمام صداها فى القرى ، فهى تصل بسرعة ويتأقلمها الفلاحون الذين أصبحوا يفهمون ويعون كل شيء ، حتى اجتماع مجلس النواب بناء على رغبة عرابى كان من الأحداث السياسية التى تناولت فى الكفور »^(٢) .

وكان على الثورة أن تبدأ برفع الغبن عن الفلاحين ، وبدأت على الفور فى العمل رغم قلة إمكانياتها ، فيذكر النديم أنه أثناء زيارة له لمأمور الضبطية علم منه أنه تم رفع الرمانات الخاصة بوزن القطن حيث كان إذا أراد القبانى سرقة الفلاح حل القلاووظ الخاص بها ووضع قطع من الرصاص فى الداخل حتى يفش الفلاح فى الوزن^(٣) .

وبدأت قضايا الفلاحين تُعرض على المسئولين فى قالب جديد بعد أن استندوا على نصيرهم ، وأحسوا بوقوفه بجوارهم ، وتظهر فى شكاياتهم النقمة على تلك الفئات التى تمتلك الأراضى وليسوا أحق بها منهم ، فكان ذلك بعداً اجتماعياً وفكرياً ثورياً يطالب بالمساواة ، ففى خطاب لأحد الأهالى من فلاحى الوجه القبلى يقول من بين سطور « بخصوص سعادة الباشا زعلان منا ، ولكن هو ليس مغلداً ولا اشترى هذه المديرية لا هو ولا خلافة »^(٤) .

Affaires Etrangères , No. 18, 3 Juillet, 1881, p. 23 .

(١)

Wallace , op. cit., p. 291 .

(٢)

(٣) التكتيك والتبكيك ، عدد ١٧ فى ١٩ أكتوبر ١٨٨١ .

(٤) محافظت الثورة العرابية ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٢٨٨ .

وأصبح في مفهوم الفلاحين أن القائمين على الثورة هم « الذين يأمررون بالمعروف وينهون عن المنكر » ، وضع ذلك فيما قدمه بعض من فلاحى ناحية « إيستو » مركز طلخا بمديرية الغربية بالتضرر من بدراوى عاشور عمدة « بهوت » والوكيل عن أطيان دائرة إنجى هانم حرم سعيد باشا ، حيث نزع منهم الأطيان المؤجرة من الدائرة ومقدارها ٢٣٠ فداناً وحجز محصولاتها لرغبته في رفع الإيجار^(١) .

ويمضى التحقيق في الحال على يد الحكومة الجديدة ، فعندما جاءت شكوى من فلاحى « كفر سعيغان » بالشرقية من المصرف الذى فتحه عمر لطفى وأتلف مزروعاتهم « كونت لجنة تحقيق لإنقاذ الأهالى »^(٢) .

وبإحساس أن الحقوق ستعود لأصحابها ، سيطرت رغبة الفلاحين فى استعادة أراضيهم السابق فقدها بسبب الديون التى تراكمت عليها وبيعت بالمزاد لكى تحصل الحكومة على ما فرضته من أموال ، ففى مديرية الشرقية أخذ من أهالى « الفار » أطيانهم وكان أحدهم له ٣٥ فداناً مع طاحونة وبقرة ورسا مزادهم على آخر ، « فالآن يريد استردادها »^(٣) ، ويطالب ورثة أحد الفلاحين ناحية « الكوم الأحمر » لمديرية القليوبية بحقوقهم ، ورد أرضهم إليهم ، ومقدارها أربعة أفدنة حيث أن أحد الخواجات ضمها إلى أطيانه عن طريق الحيلة ، واتفق مع المدير وتسلم الأرض ، وسجن أصحابها^(٤) ، وحتى أولئك الذين كانت قد أخذت منهم أراضيهم الخصبة وأعطوا بدلاً منها أراضى قاحلة ، أصبحوا يريدون استعادة أراضيهم الأولى^(٥) .

واستمر التمرد على العمدة وفضح تصرفاتهم « ارتشاهم ووضع أيديهم على أراضى العباد وتسخير الأهالى »^(٦) ، ورفض السلاخون إطاعة أوامر نظار الزراعة باستخدام مواشيهم بأشغال التفاتيش^(٧) .

(١) محفوظات الداخلية ، محفظة ٢٨ ، ١٩ سبتمبر ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٣٩ ، ٢٤ سبتمبر ١٨٨١ .

(٣) المصدر نفسه ، ١٠ أكتوبر ١٨٨١ .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ٢٨ ، ١٢ نوفمبر ١٨٨١ .

(٥) المصدر نفسه ، محفظة ٣٩ ، ٢٣ ديسمبر ١٨٨١ .

(٦) المصدر نفسه ، محفظة ٣٨ ، ٢٤ أكتوبر ١٨٨١ .

(٧) المصدر نفسه ، محفظة ٤٠ ، ١٥ نوفمبر ١٨٨١ .

لقد ارتاح الفلاحون لبداية ذلك العهد الجديد ، فكل من عصفت به يد رياض عاد إلى أرضه وأهله وناسه بقرارات شريف لعودة المعتقلين إلى بيوتهم ، فعلى لسان هؤلاء الفلاحين كانت تصل طلباتهم بشأن ذلك ، ودائماً ما كانت تحمل الأمل « التباشير بانقضاء عهد الظلم نطلب الإفراج عن الأرقاء الذين تركوا ديارهم وتيتمت أطفالهم وأرملت حلالثهم وذهبوا إلى الأقطار السودانية إجحافاً وظلماً دون تحقيق ، بل لمجرد محاضر اصطنعها مدير الشرقية السابق لمن يريد سلب نعمته » واهتمت النظارة ، وبالسؤال والتحقيق تبين أن التختيم على هذه المحاضر ضد المبعدين كان جبراً ، وصدرت الأوامر بعودتهم « وتحرر تلفراف لمحافظة سواكن بإرسال المذكورين »^(١) ، وهذا دليل واضح وترجمة فورية وسمة جديدة للحكومة الوطنية التي اختارها المصريون .

وحيثما بُنيت التهم على المديرين الذين يعملون ضد الفلاحين وقاموا بأدوار مخزية من أجل القضاء عليهم ، امتدت إليهم يد الثورة لتعصف بهم ، وخصوصاً أولئك الذين كانت لهم صلات بالأجانب ، فقد تقدم فلاحو ناحية « اصطبارى » بمركز سبك بمديرية المنوفية بما يفيد أن هناك اتحاداً بين الأجانب وبين تلك الهيئة الإدارية التركية ، والذي كان من نتيجته استحواذ الأجانب على الأراضى وسجن أصحابها من الفلاحين على أيدي المديرين ، إذ حصل الخواجة إسكندر أرقش وهو من تجار شبين الكوم - يرجح أن تجارته كانت بالأقطان نظراً لتخصص تلك المنطقة فيها - على أراضيهم وأجبرهم على دفع ضرائبها ظلماً وعدواناً ، ويطلبون من الحكومة إعادتها لهم^(٢) .

وعندما عيّن مديرون ثوريون جدد وأقصى السابقون ، وجد الأجانب فيهم شخصيات تختلف عن سابقتها ، فهم يرفضون التعاون معهم على ظلم الفلاحين ، لدرجة أن بعضهم يرفض تنفيذ أحكام المحاكم المختلطة ، فقد رُفِع إلى الحقانية طلب مقدم من محام موكل عن أحد الخواجهات بالتشكى من مدير هذه الجهة فى « عدم إجابة القاضى المعين لبيع أطيان مديونية إبراهيم عمار ومحمد إبراهيم الشيخ »^(٣) ، ويعد ذلك أول تصرف من هذا النوع لإنصاف مدير للفلاحين ورفض ما تقررته تلك المحاكم .

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٢٩ ، ٣ ديسمبر ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، ١٩ ديسمبر ١٨٨١ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ٤٠ ، ٢١ يناير ١٨٨٢ .

وأصبح هناك رأى للفلاحين يؤخذ به ، ففى أحد الكفور « كفر براش » رفعوا أصواتهم يطالبون بالبرقيات وبإجماع عام عدم رغبتهم فى عودة مشايخ الناحية التى تخصهم ، ويوضحون أسباب رفضهم « إرتكابهم الجنايات وسيرهم غير الحميدة » ، وفى حينه يكتب مدير الشرقية للداخلية برغبة أهالى الكفر فى تعيين أربعة مشايخ برضاهم واختيارهم « حيث لهم الصفات الطيبة وضرورة إبعاد الأشقياء »^(١) .

كذلك استقبل مجلس نواب الثورة آلام الفلاحين ليعرضها على بساط البحث ، فانهالت شكاويهم عليه عندما أحسوا بأن هناك سلطة تمثلهم ووكلاء عنهم ، وأن ييدهم الحل والربط ، ففى تقرير قدم من « روسل » مدير الدومين إلى المراقبين يطلب فيه « مراقبة مجلس النواب الذى أعطى الفلاحين آمالاً فى أن يصلوا بالطفرة إلى ما يقال عن حريتهم ، واشتكى من أن المدير لا يحبس فى الحال من يطلب حبسه لتوقفه عن العمل ، ومن أن كل شخص يحبس بغير أمر قضائى يرسل بالتغلفراف إلى نائبه ، وعلى ذلك يسأل المدير عن السبب فى الحبس »^(٢) . ذلك هو البناء الجديد لحرية الفلاحين فى حياتهم الجديدة ، وانصبت مناقشات المجلس على ما يتعرض له هؤلاء الكادحين ، حتى تلك العروض التى تقدم له وليس لها الأهمية ، كانت تناقش ويبحث عن الحل أو يحول لجهة الاختصاص التى تمضى فى الحال ، لتعطى كل ذى حق حقه .

وبالرغم من أن أكثر الأعضاء كانوا من العمدة ، ومعظم الشكاوى كانت تصل ضد العمدة « ففلاحى الفيوم يشكون بما هو واقع من « مقاوى باسل » عمدة عريان الرماح من تعديده على بعض أطيانهم »^(٣) ، فإنه لم يكن هناك تحيز أو لقاء بين الشريحة الواحدة طالما وجد ظلم واقع على الفلاحين .

وعندما عرض ٢٣ فلاحاً بالنيابة عن ٤٠٠ فلاح من « فولنجيل » دقهلية بشأن ما فعله معهم حسين مصطفى أغا قوره جلى من رفع ضبط الفدان عليهم من ٢٠٠ إلى ٧٥٠ قرشاً ، وأخذ مائة فدان ، وأدخل فيما بقى آخرين معهم واستولى على المحصول ثم منعهم من الأرض كلية ، حُقق فى تلك القضية ، وظهر التعدى الفعلى من هذا التركى بعد أن أرسلت الحكمدارية للاستكشاف فى أوراق محفوظات الدفتر

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٣٩ ، ٢ يناير ١٨٨٢ .

(٢) محمد عبده ، المصدر نفسه ، ص ١٧٢ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٢٨٨ فى ٢٠ أبريل ١٨٨٢ ، جلسة ٢٥ مارس ١٨٨٢ .

خانة بشأن إعطائهم ١٥٠ فداناً من أطيان معاش بالضريبة ، وكان وكيل الداخلية السابق للثورة قد أصدر أمره بعدم أحقيتهم فى تلك الأطيان ، وطردهم بالقهر منها وحجز على ماشيتهم رغم أن تملك هذا التركى هو إنعام لا بطريق أيلولة ، ورفع الأمر لمجلس النواب الذى رأى بعد التحقق من صدق الفلاحين ، إحالتها إلى الداخلية لإرجاع حقوقهم^(١) .

وكان شعور الفلاحين بالحرية شيئاً مقدساً ، ذاقوا طعمه ، وتحسسوا نوره ، وآمنوا أنه نعمة لا تموض ، وأرادوا أن يتحرروا من الجفالك التى استعبدتهم سنوات وسنوات ، ففى رسالة من فلاحى « تلا » تضم عمدتهم ومشايخهم تقول « إن اضمحلال الأهالى هو أشغال الجفالك فى زمن الاستبداد ، ولما أن أراد الله ومنحت الحرية والعدل ورفعت السخرة والمظالم ، فإننا ما خلصنا من العبودية إلا فى هذا الزمن العادل » ، ويرسل مدير بنى مزار إلى الداخلية ليبين أن تلك الناحية قد صار درجها من ضمن نواحى الجفالك للمشاركة فى التفتيش بناء على ما قرره نعمانى باشا مفتش جفالك المنيا والروضة لسخرة الفلاحين بالإجبار ، ويأتى قرار الثورة لصالح الفلاحين « فيصير ابتعاد بلادهم من بلاد الجفالك »^(٢) .

وأصبحت الجفالك التى تخصصت فى القصب ، وأضافوا إليها نواح للفلاحين تعرضهم للغبن ، فأعلنوا للحكومة بعدم رغبتهم فيها حيث إنهم غير مشاركين فى الزراعة وأرادوا الخروج من هذه التفاتيش ، فصدرت الأوامر بعدم إكراه الأهالى والنظر فيما يبتغونه ، وذهب وكيل المديرية ووكيل عموم الجفالك لأخذ رأى الأهالى فرداً فرداً ، فكانت النتيجة رفضهم البقاء تبع الجفالك حيث أقروا إنهم « أربعة عشر عاماً فى الجفالك ونحو جارين طلوع أنفارنا وعيالنا وزيادة على ذلك تأجير أنفار من الخارج ، وحصل لنا الإضمحلال الكلى ، أولاً تشتت البعض منا بالجهات ، وثانياً من فضلوا التسحب أجروا مبيع أطيانهم إلى مشايخ الناحية ، والبعض قد أجروا تأجير أطيانهم سنتين وكسور ، والبعض قد صار مبيع مواشيه وعقاراته وكل ما يمتلكه ، ولم تزل الديون متراكمة على عبيدكم لحد الآن »^(٣) .

ونرى فلاحين من نواحى تفتيش « منية سندوب » دقهلية التابع لدائرة « فاطمة خانم أفندى » يعرضون أوضاعهم لمرابى لكى يخلصهم مما يعانونه « أنهم تملية

(١) مخطوطات الداخلية ، محفوظة ٢٩ ، ٦ يناير ١٨٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ، محفوظة ٤٠ ، ٣٠ يناير ١٨٨٢ .

(٣) المصدر نفسه ، محفوظة ٤٣ ، ٦ يونيو ١٨٨٢ .

شغالة بذاك الجفلك ومعدمين فليس لديهم أملاك ، وأن الجفلك المذكور أعطى كلاً منهم أطياناً بالإيجار من فدان إلى اثنين بواقع الفدان أربع جنيهاً لغاية سنة ونصف ، ولعجزهم عن السداد ، فالدائرة والتفتيش استحضروا نقدية بالأرباح عليهم لتكملة الإيجار وأخذوا عليهم سندات بذلك لحين طلوع المحصول الشتوى مع كونهم أخرجوا الأنفار والجهادية والغفرة الذين تخصصت عليهم ، وأن المفتش والمعاون والباشكاتب متواطئون معاً ضدهم » ، وهنا أمر عرابى بإحالة الأمر على الداخلية وتعيين مندوب للتحقيق ورد الحقوق^(١) ، ويتابع وكيل الداخلية أمر التحرى لنصرة الفلاحين ، وبذلك وضع أن الريا الذى خضع له الفلاحون لم يكن من ساقطى الأجانب فقط ، بل واشترك معهم دوائر الباشوات الذين مارسوا على عبيد الأرض وسائل القهر والإذلال .

وكانت المعاملة السيئة للفلاحين فى الجفالك وما قاسوه على أيدي مفتشيها من مبيع أراضى ومواشى واستعمال العدة والكرباج وعزل المشايخ الطبيعى السمعة ، وإحلال من يتفق مع هواهم ، مادة خصبة فى مناقشات مجلس النواب ، إذ فطن الفلاحون أن تلك المعاملة قد انتهت زمانها ، وطالبوه برد الأطيان التى انتزعت منهم والمؤجرة لهم من الدوائر مثل دائرة إلهامى باشا ، كما لجأوا إليه لتخفيض ضريبة الأموال^(٢) .

ونصرت حكومة الثورة الفلاحين الذين كانت أراضيهم مرهونة للميرى ، حيث إنه عندما طلب أصحابها ردها إليهم ، وجاءت إفادة المالية بأن « هذه الأطيان مدفوع عنها المقابلة ، وأنه من المعلوم أن المقابلة هى من حقوق الطين » ، تمت الموافقة على خصم صافى مقابلة تلك الأطيان فى الدين المطلوب عليها^(٣) ، معنى هذا أنه بالرغم من إلغاء العمل بالمقابلة ، مضى فى تنفيذها نصرة للعدل ، وإعادة الحقوق إلى أصحابها ، والضرب بقانون التصفية عرض الحائط .

ووصل الأمر إلى أن الفلاحين الذين كان إسماعيل قد استولى على أراضيهم يطالبون بها « فقد تظلم مشايخ وأهالى ناحية معصرة دودة بالفيوم من أخذ أطيانهم للدائرة السنية جفلك الواددين والبالغ مساحتها ١٥٠٠ فدان والتى كانت مكلفة

(١) المصدر نفسه ، ١٠ سبتمبر ١٨٨٢ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٨٨ فى ٢٠ أبريل ١٨٨٢ ، جلسة ٢٥ مارس ١٨٨٢ .

(٣) محفوظات الداخلية ، محظظة ٤٠ فى ٢٣ ، ٢٧ ، فبراير ١٨٨٢ .

عليهم ، وحررت بها تقاسيط إلى الخديو السابق وأنجاله^(١) ، وطمعن الفلاحون فى أتباع داود باشا ، فيتظلمون من أن فلسطين سداروس ناظر قلم قضايا مديرية قنا استولى على أراضيه البالغة ٥٤ فدأناً بالتحاليل معتمداً على علاقته بسيدده أحياناً وبالقواسة أحياناً أخرى ، فأمر البارودى إجراء تحقيق شامل لذلك^(٢) .

وصدر قرار من الثورة برد الأطيان التى استحوذ عليها داود باشا نفسه من الفلاحين قصرأ وجبرأ وذلك بإجراء مبايعة ظاهرية ، وتمكنه من اغتصاب ١٠١٧٧ فدأناً ، فردت إلى أصحابها ، لكن الباشا سافر إلى لندن « وأجرى بيع الأطيان المذكورة فى لوندريه لشخص يدعى كولون بمبلغ ٢٢٣٨١٥ جنيهأ إنكليزيأ ، فقدم الخواجا تداعياً على الحكومة وحولت القضية على مجلس الاستئناف » ، وثار عربى فى اجتماع مجلس النظار وبين « أن الحكومة لما طالبت رد الأطيان لأربابها رأت أن بيع الأطيان الذى حصل من الأهالى لسعادة داود باشا هو فاسد ، ولهذا أمرت بردها إلى أربابها » ، وأعطت القضية لأحد محامى الحكومة^(٣) .

كذلك ردت الثورة الأطيان الخاصة بفلاحى ناحية « كفر درويش » التابعة لمديرية المنيا وبنى مزار ، والتى كانت أدخلت فى أبعادية حليم باشا الذى باعها للدائرة السنية ، فالزيادة ٧٢ فدأناً ، وهى العجز فى أراضى الفلاحين ، واتضح ذلك من دفاتر المساحة ، وصدرت المضابط بأحقية الأهالى لأراضيهم ، ويعترف أصحاب الحق بأنهم سعوا لنواله مدة اثنى عشر عاماً بدون فائدة حتى أعطته لهم الثورة^(٤) .

واعتمد الفلاحون على عربى ، فكانت شكاياتهم فى كثير من الأحيان تصل رأسأ له إذ عدوه قمة العدالة ، ويقول كرومر « كان الفلاحون ينظرون إليه على أنه مخلصهم ، وأن على يديه سيستردون أراضيهم وستلغى ديونهم^(٥) » ، وفى كثير من الشكاوى التى تنصب على غبنهم كانوا يوكولونه كممثل لهم من أجل إنقاذهم وخلصهم مما يثنون تحته ، ويذكر بلنت « إن شعبيته وصلت إلى أقصى درجاتها ، وأطلقوا عليه اسم الوحيد ، وكانت غرفته الخارجية بل الشارع الموصل إلى بيته

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٤٣ ، ٩ يونيو ١٨٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٤٢ ، ٢٩ أبريل ١٨٨٢ .

(٣) محفوظات مجلس الوزراء ، محفظة ٥/ج ، دوسيه ١٠ ، محضر ٦ مارس ١٨٨٢ .

(٤) محفوظات الداخلية ، المصدر نفسه ، ٨ مايو ١٨٨٢ .

Cromer , op. cit., Vol . II. P. 281 .

(٥)

ممثل كل يوم بجماعة الشاكين»^(١) . وكان لتعاون نظارة الثورة من أجل رفع الضر عن الفلاحين أمر ملحوظ ، حتى لقد سرى على طلب حمايتهم من بعض من اشترك في الثورة ، فعندما تظلم بعض الفلاحين من شريف باشا لاغتصابه أطيان بناحية « دهمشا » بمعرفة وكيل دائرته ، تأمر حكومة الثورة بالتحري ، ومن مديرية المنيا ترسل إلى عرابي الشكوى من الظلم ونهب الأموال العلنى « بواسطة إبراهيم الشريعى » ، وكذلك من أمين الشمسى ، فقد اشتكاه أحد الفلاحين لأخذه بعض الأقدنة منه^(٢) ، وكانت الشكوى موجهة أيضاً إلى عرابي ذلك الذى سيرد الحقوق إلى أصحابها .

ومع تلك الحرية ، وهذا الإنصاف كان من المفروض أن يخجل الأجانب أمام ردع المستغلين على أيدي الثورة ويعملون أن زمن الصمت قد مضى ، وأن كل خلل أصبح يحقق فيه ، لكنهم لم يضعوا ذلك فى الاعتبار ، فمضت إجراءات التصفية ، فحدث أن بعضاً من الفلاحين مؤجرون أطياناً من أحدهم ، وهو صاحب أبعادية ويزرعون معه بالشرك ، فما كان منه إلا أن قام بحجز محصولاتهم وضربهم بما فيهم النساء ، وبالكشف تبين أن إحداهن سقط جنينها البالغ ستة أشهر ، وأجرى التحقيق معه ، ومضى البعض منهم فى ممارسة طريقة عمل السندات المفتعلة على الفلاحين « فاستريا بصطورى الرومى المقيم بناحية مليج منوفية يتحايل على سلب الأموال بعد اصطناع اختتام بأسماء الفلاحين على سندات ويقدمها للمحكمة المختلطة »^(٣) ، ومن هنا سيشارك الفلاحون بكل قوتهم مع الخطوات القادمة ضد الأجانب .

ويطعن الفلاحون فى أحكام المحاكم المختلطة ، ويطالبون بما لهم عند الأجانب « أنه لواسطة ما كان حاصلاً لنا من المضايقة من الأموال والمطالب بالزمن السابق ، قد استجرينا نقدياً من الخواجة بناس كبرياديس تاجر بناحية بلدنا من تبعة دولة اليونان لغاية ما صار تقسيط المبلغ علينا بأرباحه على أربع سنوات مبلغ ٢٤٠ جنيهاً لكل سنة ٦٠ جنيهاً ، ولما استحق أول قسط دفعناه ٦٠ جنيهاً ثمن قطن ، وفى ثانى

(١) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 169 .

(٢) محفوضات الداخلية ، المصدر نفسه ، ٨ ، ١٨ مايو ١٨٨٢ ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٤١ ، دوسيه ١ .

(٣) محفوضات الداخلية ، محفظة ٤٠ ، ٢٦ فبراير ١٨٨٢ ، محفظة ٤٣ ، ٨ يونيو ١٨٨٢ .

سنة لم تقتدر على دفع قسطها فالخوافة المذكور قدم دعوته بالحقانية بالإسكندرية، فأصدرت أمرها إلى مديرية الغربية بمبيع مواشينا ومحصول زراعنا ، وكل ذلك بدون حضورنا مع كون هذا الخوافة أخذ منا ساقيتين على البحر الأعظم ومركب عليهما وابور لسقيه الأراضى « وتستمر الشكوى لتؤكد ضرورة إرجاع ما أخذه هذا الأجنبى^(١) .

وتحاول الثورة بكل إمكاناتها وطاقاتها أن تسترد الأموال وتعيد الأراضى سواء التى اغتصبها الباشوات أو الحكومة أو الأجانب ، وتمضى لتعمل من أجل الفلاحين، فنرى قرار محمود فهمى ناظر الأشغال الخاص بضرورة إيصال المياه لأراضيهم ، وعدم هدم أى مساقى ، وذلك بناء على ما قدمه بعض فلاحي ناحية « محول » غربية مما أقدم عليه عبد القادر باشا من هدم المساقى المرتبة لرى أطيانهم « من مدة خمسين سنة مع هدم المساقى التى أعدها مهندس المركز لرى تلك الأطيان»^(٢) .

وهكذا كانت الثورة تضع أمام عينيها حالة الفلاحين ، وتأتى مسألة السخرة التى ذاقوا منها الأمرين طوال تاريخهم لتكون موضع اهتمام كبير ، فمجلس النواب يساهم باقتراحاته لحلها سواء بتنظيمها أو إعطائها بالمقاولة بمعرفة نظارة الأشغال^(٣) ، ونرى الحكومة تخفف عنهم فلا تلقى عليهم العبء ، حتى أن نائب القنصل البريطانى فى الزقازيق يقول « لقد أصبح من الصعب جمع الرجال للسخرة فى رفع المياه المنخفضة من النيل للرى هذا العام أو حفر أية ترع أو القيام بزراعة الأرض فى مواعيدها مما سيؤثر على محصول القطن ولا يستطيع الموظفون جمع رجال السخرة » ، ويكتب ماليت إلى جرانفيل يقول « إن هناك عقبات فى إصلاح القناة بسبب ضعف الحكام فى جمع السخرة »^(٤) .

لقد كره الفلاحون السخرة حيث مثلت لهم العبودية ، وعندما جاءت الثورة لتضع برنامجها وتخفف عنهم أحمالهم ، شعروا بأن حكومة الثورة تعمل لصالحهم ، ومن هنا خرجت أعمالهم من أجلها بروح قوية ومعنوية عالية ، كما أن الاطمئنان الذى غمر قلوبهم دفعهم بصدق وبطيب خاطر للتفانى ، فعندما كان من الضروري

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٤٢ ، ٢٠ أبريل ، ١٨ مايو ١٨٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ٢ مايو ١٨٨٢ .

(٣) الدقائق المصرية ، عدد ١٢٥٤ فى ١١ مارس ١٨٨٢ ، جلسة ١٥ فبراير ١٨٨٢ .

(٤) Egypt, No. 7 (1882), No. 122, April 15. 25, 1882, p. 97 .

تطهير ترعة الشرقاوية حضر ثلاثة عشر ألفاً ببعض إرادتهم ، بعد أن كان بالكرباج والطرق القاسية من سجن وتعذيب يحضر ستة آلاف ، وأن ما كان يعمل في ثلاثين يوماً أصبح ينجز في ثمانية أيام^(١) .

وكان من هدايا الثورة التي قدمتها لفلاحها القضاء على المعاملة الوحشية التي كثيراً ما قاسوا منها تحت العدة والكرباج ، وقد أسعد الفلاحين في الوقت الذي غضب فيه الأجانب أشد الغضب لنوال هؤلاء حقوقهم ورفع الضيم عنهم ، فيكتب « روجل » مدير الدومين إلى ماليت يقول « إن الحاكم الشرقي إذا حرم كرباجه وحظر عليه أن يسجن من يشاء ، عجز عن سياسة قوم اعتادوا منذ القدم أن يخضعوا لحكومة فردية قوية ، إن الطريق الذي سارت فيه الحركة منذ عام جعل الفلاح يعتقد أنه يستطيع الوصول مرة واحدة إلى ما يسمونه الحرية^(٢) » ، كانت هذه نظرتهم ، فاعتقدوا أن الثورة قد سلبت السلطة الشرعية ما تتمتع به من قوة وبطش وجبروت ، وكان لذلك رد فعله على الفلاحين وخاصة الذين يعملون في الضياع التركية والذين تمردوا ورفضوا العقاب بالجلد ، هذا في الوقت الذي راقبت فيه حكومة الثورة معاملة الفلاحين في تلك الإقطاعات ، وعملت على أن تكون لهم حقوق ثابتة لدى أصحابها .

ومثلت مسألة الضرائب موضع اهتمام الثورة ، فوافقت على أن تقبل الضرائب عينية ، بعد أن كان قد أبطل ذلك مع نظارة رياض ، ونلاحظ الرحمة والشفقة ، فعندما تظلم بعض فلاحى الوجه القبلى بتأييد من مديرهم بعدم مقدرتهم تحصيل تقسيط « شهر يونية بتمامه » وذلك بسبب كساد التجارة ، والتمسوا الاكتفاء بتحصيل نصف التقسيط ، وإبقاء النصف الثانى لتحصيله فى وقت آخر ، تمت الموافقة وأجيبوا إليه طلبهم مع التشدد فى « حفظ محصولات الأهالى وعدم التصريف فيها للخارج بالبخص^(٣) » .

كذلك كان لابد من إنقاذ قيمة الأراضى التى انهارت أسعارها بسبب قيام الفلاحين بالبيع دون الثمن ، ففى منطقة « سيمىلا » بمديرية الغربية باع فلاح ٤٢ قيراطاً بمبلغ ٥٠ جنيهاً أى بسعر الفدان ٢٨ جنيهاً فى حين أن ثمنه ٦٠ جنيهاً^(٤) ،

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٠٩ فى ١٥ مايو ١٨٨٢ .

(٢) Egypt, op. cit., Inclosure 3 in No. 51, Feb. 18, 1882, p. 42 .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٢٧ فى ٧ يونيو ١٨٨٢ .

(٤) Egypt, op. cit., Inclosure 1 in No. 157, April. 23, 1882, p. 112 .

ذلك فى الوقت الذى كان على الثورة أن تتخذ مثل هذا الفلاح بعد أن أصبح تفتت الملكيات هو السمة الظاهرة نتيجة لأعباء الالتزامات التى فرضت عليه فى عهد ما قبل الثورة ، تلك التى استمرت فى تنفيذ برنامجها ، فوضعت مشروعاً لإصلاح المحاكم المختلطة التى أضرت بالفلاحين وكادت تقضى عليهم ، وآخر لإنشاء بنك زراعى يقدم المساعدات إليهم ، لكن لم يكن هناك الوقت الكافى لتنفيذ مثل هذه المشروعات، حيث ألقت الثورة بكل قواها لتقف أمام بريطانيا .

لقد كانت حقاً نظارة فلاحين ، فلأول مرة يصبح لهم حقوق يطالبون بها ، فيلبى طلبهم ، بل ويعددهم زعيمهم للمشاركة فهم أصحاب مصر ، كما أن بذور المساواة التى غرسها بينهم آتت أكلها ، ففى خطاب مرسل إليه من أحد الفلاحين بناحية « ساقلة » يشكو فيه العمدة لارتشائه فيقول « وإذا أعطيت العمدة عشرة جنيهات يسبب ابنى ويمسك واحد فقير بدلاً عنه ، فيه ناس عندهم أطيان وخيل وجمال وغنم ومواشى ولا ساير عليهم ما يسير علينا ، أن الناس زى بعضها »^(١) ، وتلك هى المساواة التى كانت قمة مبادئ الثورة ، وكثيراً ما ردد عرابى بأنه فلاح ويعمل من أجل الفلاحين وأنه ليس بتركى لكونه وصل إلى منصبه هذا ، بل إنه وصل لأن الحق معه ، وكانت فلسفته بالنسبة للفلاحين حقيقة مؤكدة ، هى الثورة الشاملة للقضاء على الطبقة فيقول « وليعلموا أن فقراء أهالينا صار عندهم أمل فى أن أولادهم يتقدمون ويصيرون حكاماً على بلادهم ، بعد أن كانوا يتوهمون أن ذلك من المستحيل عليهم ولا كان يخطر ذلك على أفكارهم »^(٢) .

ومن أجل أن تكون مصر للمصريين ، كان الحب لعرابى الذى أعطى الأمل وحرك المشاعر فى أعماق الريف ، وأثناء محاكمته يرد خطاب من دليسيبس إلى المحكمة ليبرهن على أنه لم يكن عرابى هو الثائر فقط بل الفلاحون الذين وجدوا فيه المنقذ والمخلص فيقول « لقد زرت عرابى فى نظارته وكنت أرى فناء قصر النيل حيث مقر النظارة مزدحماً بالفلاحين الذين امتلأت بهم الغرف المقابلة »^(٣) ، جاءوا إليه ليعلموا ثورتهم .

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٤١ ، دوسيه ١ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣ د .

(٣) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 302 .

(٣)

التنفيذ الثورى :

(أ) الفلاحون وكبار ملاك الأراضى

اتفقت الآراء على أن خضوع الفلاح واستسلامه يعد أحد الظواهر الاجتماعية الأساسية فى الريف المصرى ، وهى سمة سيكولوجية تظهر فى رضاه بالقضاء والقدر والمصير المحتوم الذى فرض عليه ، لقد أعطت الطبيعة فلاح مصر البساطة والوداعة وحب الخير والبعد عن الشر ، كما سرى الإيمان فى قلبه وروحه وآمن بكل مكتوب على جبينه ، لكن مع أسرة محمد على تراكمت الرواسب على نفسيته حتى وصلت إلى درجة كان لابد وأن تتغير الطبيعة والأسس والسمات ليخرج ما بداخله ، ويتحرر ويثور ويرفع لواء المطالبة بالتغيير الجذرى الشامل .

ومما لا شك فيه أن الأموال تلعب الدور الرئيسى فى حياة الحكومات والشعوب ، ففرض الأموال من الأولى على الثانية يرهقها ويولد الحقد والضغينة فى النفوس تجاهها وخصوصاً إذا صاحبها الآلام ، كذلك فإن امتناع الشعوب عن دفع الأموال للحكومات يشلها ويقضى عليها . وفى مصر اتبع الفلاحون أسلوب الامتناع عن الدفع وخصوصاً بعد أن أعطتهم الثورة الاطمئنان ، وبعد أن ألغت وسائل التعذيب التى كانت تحصل بها تلك الأموال ، فكان إيقاف الأموال المطلوبة منهم أحد الضربات القوية التى وجهها الفلاحون للانتقام ، فهم يعلمون تمام العلم أن كدهم وعرقهم إنما يذهب إلى جيوب الرأسماليين الأجانب والمستغلين .

وكان الوجه القبلى أكثر حيوية إذ ازدادت فيه الحركات الثورية للفلاحين ، حيث إنه يضم تلك الإقطاعات الواسعة من الأراضى التى يتحكم فيها قلائل من العائلة المالكة والباشوات ، وقد بلغت الأموال التى أوقفت حوالى ألفين من الجنيهات ، وامتنع الفلاحون عن دفع إيجارات الجفالك وعدم تسديد ما عليهم لها ، ورفض طلبات مديرية أسيوط ، ومعارضة الشول أمام مفتش الروضة بمديرية أسيوط وتهديده ، إذ تسلم الفلاحون بالأسلحة النارية ودخلوا فى لقاءات مع أعدائهم أسفرت عن ضرب جملة أنفار بما فيهم مشايخ الناحية « وأخذوا صراف الناحية بالقوة الجبرية بعد أن أبطلوا تحصيل الأموال ثم بعد ذلك التجأوا لمراكبي » (*).

ويتضح أن ما تم كان يلقى تأييداً من رجال الثورة ، بدليل أنه بعد قيامهم بأعمالهم ذهبوا للقاء بالقائد ، وأن المعتدى عليهم من الراقضين ، ومما يؤكد أن

(*) محافظ الثورة المراكبية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٩ .

السلطات المحلية وكبار الموظفين كانت لديهم التعليمات وغير مسموح لهم بإنزال العقاب بأحد ، ما ذكره فيليبس إلى نائب القنصل الإنجليزي بالقزايق « أن مفتش دائرة خلوصى بك يقص له أنه رأى بنفسه مجموعة من أربعين شخصاً بعضهم مرتجلاً والآخر ممطياً ، متوجهون مباشرة إلى أملاك الدائرة »^(١) ، وأصبح هذا على مسمع ومرأى من الجميع ، وقد وجد كشفاً بأوراق الثورة يحتوى على من يريد تخريب عزيمتهم^(٢) .

وكانت الهزة العميقة التى هزت الريف هى المنادة باللائبكية وتطبيقها على أيدي الفلاحين ، وفى بعض الأحيان كان هناك من العمد والموظفين من يثبون تلك الأفكار التى اتفقت مع ميول هؤلاء الفلاحين ، وخاصة المعدمين منهم وعمال الجفالك الذين لا تختلف أحوالهم عن أقتان الأرض فى العصر الإقطاعى الأوروبى . وانعقد الأمل الكبير فى انتصار الثورة بزعماء القائد ، وبالتالى ساد الاعتقاد عن قرب سقوط نظام الحكم القائم بما تبعه من مفساد اقتصادية وغيوب اجتماعية . وكان التركيز على إقطاعيات الأسرة المالكة وأراضى كبار الملاك من الباشوات الذوات حتى ولو كان من بينهم العنصر المصرى ، فقد سيطر التفكير بأن هذه الممتلكات الكبيرة ستصبح مشاعة لجميع الفلاحين العاملين فيها ، الذين هم أصحاب فضل فى وجودها ، فمصنع السكر (فاوريقة مطاى) سيكون للأهالى ، وأطيان الجفالك ستوزع على بلادها الأصلية ، وأطيان الباشوات أمثال طلعت باشا وسلطان باشا ستكون ملكاً لهم ، ووصل الأمر إلى تشفى الفلاحين من هذه الطبقة « فبعد انتزاع أملاكها يضيع ثمنها على أربابها » ، واستتبع ذلك حركة الفلاحين فى هذه المنطقة^(٣) .

وبدأت عملية التقسيم لتلك الأراضى بين الفلاحين ، قسمة تولوا هم أمرها ، وأعلنوا أنها أصبحت ملكاً لهم « أى أن أهالى كل بلد يتسلمون زمام أطيانهم » ، وراحوا يخضرون أطيان الجفالك لحسابهم ، وكانوا يزرعونها بعزيمة قوية وبإحساس المالكين لها ، وفى البحيرة حدث أن هاجم الفلاحون بمساعدة مشايخهم أراضى الوسية التابعة لدائرة حيدر باشا ، وقسموها وزرعوها ذرة شامية^(٤) .

(١) Egypt, op. cit., Inclosure 3 in No. 70, Feb. 23, 1882, p. 55 .

(٢) مجموعة مجلس الوزراء ، محفظة ٧ ، ١٠ حرية .

(٣) محافظ الثورة المرابية ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٢٤ ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٥٧ .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٤ ، دوسيه ٢٩ .

كان ذلك ثورة اجتماعية خطيرة ، حملت بين طياتها نصرة الأيدي العاملة وحققها في الحياة ، قضت على الاستغلال والاستعباد ، وأصبح الفلاحون متساوين في الملكية ، لم يعد هناك الباشا الذي يرتعد منه الفلاح ويركع له ويقبل يده ، ولا من يقيم المشانق ليخلص ممن يناوئه ، ولا من يستحوذ على الأرض والماشية ويسوق للسخرة ويضرب بالكرياح ويتمتع بخيرات الأرض وحده ويكسب ويرابى ويمتص الدماء ويمنع المياه ، لقد أصبح الفلاح حراً له ملكيته وحقوقه دون رقيب عليه أو محاسب ينتزع منه لقمة العيش .

ومضت الحركات الثورية القوية لتعصف بكل من سلبها ، ففي أربع بلاد للجفالك بالغربية - طماي وطوشى - أضرب الفلاحون عن العمل وتركوا الماشية والآلات الزراعية في الحقول ، وأعلنوا ثورتهم بعد أن وجدوا غيرهم استحوذ على الأرض ، وأنه ما زالت أيادي الباشوات تسيطر على الأراضي التي يعملون فيها ، وفي جفالك الدومين لم يستول الفلاحون على الأراضي ولم يعلنوا الإضراب العام ، لكنهم صرحوا وبصوت مسموع ، بضرورة حقهم في الأرض وتطبيق المساواة مع الملاك ، ورفضوا الاقتراح بأن تعطى لهم بإيجار يماثل الأراضي المجاورة - وكان معنى ذلك أنهم فعلاً مغربون في الإيجار وكان الدومين بين الحين والآخر يرفع الإيجار عليهم - وأن يطلق سراحهم من السخرة ، ويرفض الفلاحون ويصرون على أحقيتهم في أراضيهم ، ويعلنون أنهم سيقابلون القوة بالقوة^(١) ، فأى تحد هذا الذي قام به فلاحو الثورة ، أصبحوا يرفضون عروض الملاك .

وأعلنت حقوق الفلاحين على أرض مصر كلها في الحرية والحياة والمساواة والعدالة وسقوط عهد الظلم والاستبداد ، ففي « كفر لطيف » بالدقهلية تعلق أصوات الفلاحين بالمطالبة بحقوقهم ، ويكتب لهم مأذون ناحية « كفر الشراقوة » باسمهم ويسجل طلباتهم وقد انصبت على مبادئ الثورة التي وصفها المحققون في محاكمات الثورة بأنها « جملة إفسادات »^(٢) .

وفي « الزنكلون » بالشرقية ثار الفلاحون المآجرين في أربع قرى وكان مشجعهم على الثورة والاستمرار فيها يوزياشى بالجيش ، ومن هنا ظهرت عملية الالتحام القوية بين العسكريين والفلاحين ، فقد بين لهم أن الأتليان المملوكة لأصحاب الأراضي هي ملك حلال لهم وأنها من حقهم ، ويقول كرومر « وبذلك في كلمة

Egypt, op. cit., Inclosure 3 in No. 51, Feb. 18, 1882, p. 42 .

(١)

(٢) محافظ الثورة العربية ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٢٨٦ .

مختصرة كانت جميع العلامات العادية للثورات قد تكاملت في مصر^(١)، ولم يقتصر أمر العسكريين على ذلك، وإنما كانوا «يجويون البلاد يحرضون الأهالي على عدم دفع الضرائب»^(٢)، واستمرت الإجراءات الثورية لفلاحى الزنكلون، فأضربوا عن العمل، وأرادوا تقسيم أراضى الملك وخاصة تفتيش الأمير إبراهيم الذى كان يمتلك الجزء الأكبر من تلك الأراضى، ففزع من تلك الأعمال الثورية التى لم تتوقف رغم إرسال حامية من ألف جندى، فما كان من الأمير إلا أن أجّر تفتيشه إلى أحد الأجانب لمدة طويلة حتى يتخلص من مخاوف استيلاء الفلاحين على أرضه بالإضافة إلى استغلالها عن هذا الطريق، وحدث أيضاً أحداث مماثلة فى دمنهور، فأرسلت إليها قوة مثل التى أرسلت للزقازيق^(٣)، لكن الفلاحين استمروا فى إجراءاتهم.

وقد حاولت حكومة الثورة أن تهدئ من روع الفلاحين عن طريق تنظيم المسألة حتى لا تتحول إلى ما يسئ لها، لكن كان الفلاحون كمسجونين وأطلق سراحهم، وكثرت الاجتماعات للحد من كبح جماح هذا الغضب النائر، ويذكر روسل أنه فى اجتماع عقد بطنطا طلب من مديرها «التصرف قبل تضخم الاضطرابات - كما كان الأجانب يطلقون على الثورة - وقيل أن تصبح عامة وتسبب له المتاعب، لكن اتضح أن سلطته تجاه مشايخ البلد قد انعدمت، فطلبت منه استدعاء اثنين منهم الأكثر مشاغبة وسجنهم، لكنه قال الأفضل أن تتم التسوية بالتفاهم، سنرسل إليهما ولكن ليس نهم مكان فى السجن» ويمضى روسل ليبين أن قوة المدير قد ضعفت «فإذا وضع شخص بالسجن ظلماً، فعلى الفور تصل البرقية إلى مجلس النواب الذى يستدعى المدير برقية ليحقق معه، كما أخبرنى المدير أنه كحاكم وطنى لحكومة وطنية، فإن كل ما يهمله هو أن يحمى الفلاحين ويراعى مصالحهم»، وفى لقاءه مع مدير المنصورة «أخطرني المدير بأنه أصبح يخشى العودة إلى استعمال القوة والظلم والبطش الذى كان موجوداً سابقاً، وأن المساجين أصحاب القضايا العادية إتصلوا بأعضاء النواب وبعرابى بك الذى أمر المديرين برقية بإطلاق سراحهم»^(٤).

Cromer, op. cit., Vol II, p. 258.

(١)

(٢) ميخائيل شاروبيم، المرجع المذكور، ص ٢٢٧.

Egypt, op. cit., Inclosure 2 in No. 122, April. 18, 1882, p. 42.

(٣)

Ibid, Inclosure 4 in No. 51, Feb. 15, 1882, pp. 42, 43.

(٤)

ومن ذلك تظهر تلك الثورة المطلقة لا للفلاحين فقط ، ولكن كل من على أرض مصر وكان راضياً عن مبادئ الثورة ، بما فيهم مديرو المديرية الذين كان دورهم السابق مضاداً للفلاحين ، أصبحوا الآن يعملون على مصلحتهم ، كما أن المعتقلات والسجون انتهت وأصبح الجميع أحراراً . أضف إلى ذلك حيوية المجلس النيابي وإحساسه بأنه نائب عن مصالح الأمة ، وأخيراً عرابي الذي كان قوة لا تتضب ولا تنهار من أجل فلاحيه .

وأصبح كل شيء يمضي في مصلحة الفلاحين ، فتمتعوا بجميع حقوقهم ، تدفع لهم أجورهم كاملة شهرياً بعد أن كانوا بدون أجور ، لدرجة أنه في بعض الجفالك بعد الإيجار الجديد ورفع أجره أصبح الفرق حوالي ١٢٠٠ جنيه لصاحب الأرض ، ولم تعد الزراعة لحساب المالك ، وإنما ذهبت بالإيجار غير المغبون فيه ، ونجح الفلاحون في إثارة رعب المالك الذي آمن بأن الفلاح غدا حراً فيقول مدير الدومين لماليت « منذ عام مضى كانت الحرية يوعد بها وكانت كلمات تتردد ، لكنها الآن أصبحت قوة عملية » (١) .

ولأول مرة ينقلب ميزان القوة ويخيف الفلاحون الباشوات ، « فانقطع كثيرون منهم عن التردد إلى أراضيهم ولزموا منازلهم ، واستمرت هذه الحالة جارية من ابتداء شهر رمضان إلى انتهائه ، وهي مدة قضائها بعض أصحاب الأراضي في معاناة وتحمل الذل والهوان » (٢) .

(ب) الفلاحون والأجانب

لم تقتصر ثورة الفلاحين على ما سبق ، ولكنها وجهت أيضاً ضد الأجانب الذين أذاقوهم الأمرين ، سواء في مسألة الديون والرياء الفاحش والسندات المزورة التي اختلقها مرابو القرى « الأفاعى » ، أو في بيع أراضيهم وقوانين المحاكم المختلطة التي جردتهم من كل شيء ، أو في بذور الفساد وسوء الأخلاق اللذان انتشرا في الريف ، أو في تلك المعاملة التي دائماً وأبداً تتسم بالقسوة والاحتكار والجبروت ، وصحافة ما قبل الثورة تكتف بالدلائل ، وحتى أثناء الثورة وبالرغم من معرفة الأجانب أنها أولاً موجّهة ضدهم ، فإن استعلاءهم وأخلاقهم مضت دون

Ibid. Inclosure 3 in No. 51, Feb. 18, 1882, pp. 42 .

(١)

(٢) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، ج ٥ ، ص ١٤٩ .

تغيير مما جعل المصريين فى نهاية الأمر ينفجرون ضدهم ، فتذكر لنا صحيفة الإسكندرية على لسان مراسلها : « وقف بنا قطار السكة الحديد عند كفر الزيات ، وكان ضمن المسافرين فيه فلاحه فقيرة ومعها ولدان يشكيان الجوع ، فطلت من العربة فوجدت عن بعد ولداً من المتعيشين الفقراء واقفاً ومعه زاد للبيع ، فتداته لتشتري منه ما يلزمها ، فتجراً الولد ودخل ظاناً أنه لا يدع أحداً من المتاعين أن يراه ، فأخذت المرأة منه رغيفاً من العيش وناولته إلى ولديها ، وما نشعر فى هذه الأثناء إلا وواحد من الأفرنج لا نعرف إن كان رومياً أو طليانياً هجم عليهم هجوم الديب على الغنم وصرخ فى الولد البائع : كم ننتهاكم يا عرب يا فلاحون وأخذ يشتم بكل أنواع الشتائم ، وخطف ما كان حاملة من العيش ، وخطف أيضاً ما كان بأيدي الولدين وفتت سائر العيش وطرحه تحت عجلاز البابور فذعر البائع منزعجاً ، والمرأة تدب مصابها وتذرف دموعها ضنيناً وشفقة على ولديها الذين غاب صوابهما ، وغشى عليهما عندما اختطف ذلك الرغيف الذى كان يعضان عليه ، ففجبت لهذا الأمر واندحشت ^(١) .

وبذلك وصلت الكراهية إلى أقصى مداها أمام هؤلاء الذين اعتبروا أنفسهم أصحاب البلاد الشرعيين ، وكان لابد من توجيه الضربات والانتقام ، وبدأ ذلك بإيقاع محاصيل ملاك الأراضى منهم فى الأرض وعدم جنيها ، وخاصة القطن الذى جرى إعدامه ، حدث ذلك عندما « أراد الخواجة مانولى اغتصاب المحصول من الفلاحين بدون محاسبة ، وأحضر ستة أشخاص من الأروام المسلحين ، لأخذ ما يجنى بالقوة الجبرية لوضعه فى محلات الخواجة ، فما كان من الفلاحين إلا وأبطلوا الجنى وأعدموا المحصول ، فتقدم الخواجة إلى قنصل اليونان بطنطا يشكو مشايخ البلد والفلاحين للتعدي والهجوم على غيطانه ، وإطلاق سراح الأهالى والمواشى » وثبت من التحقيق تعدى الفلاحين « وكسر الأشجار وسير المواشى على الأقطان » ^(٢) ، ومن المعلوم من هو مانولى بالنسبة إلى الفلاحين إنه ذلك المرابى اليونانى .

وبما أن الأجانب كان معظمهم أصحاب بيوت تجارية ، فقد تم هجوم الفلاحين عليها مطالبين بالأرباح التى اغتتمها هؤلاء فى السنوات السابقة ، وكان ناظر

(١) الإسكندرية ، عدد ١٧٠ فى ٢٠ مايو ١٨٨٢ .

(٢) محفوظات الداخلية ، محفوظة ٤٠ ، ٣ مارس ١٨٨٢ .

منفلوط هو المتزعم لتلك العملية مع العمد ، وخرجت التهديدات لمن يتأخر عن تسديدها لفلاحين ، بأن يحال إلى المجلس العسكري^(١) .

كما طالب الفلاحون برد الأراضي إليهم ، تلك التي استولي عليها الأجانب بناء على أموال كانوا أقرضوها لهم بالربا ، ومضى الوقت دون أن يتمكنوا من السداد ، وأبانوا أن ليس للأجانب الحق فيها ، ومن المعروف أن المرابي كان يحصل على الفدان الذي يساوي خمسين جنيهاً بعشرة جنيهاً مقابل الدين ، وكثيراً ما كانت الأراضي تباع جبراً قبل أن يكون صاحبها قد علم بأن مزاد بيعها قد أشهر . وهكذا أطاحوا بأحكام المحاكم المختلطة التي كانت دائماً في صالح الأجانب ، كذلك استولى الفلاحون على بعض أراضي الملاك ، وسرى عليها ما طبق على الجفالك في التقسيم^(٢) .

وآمن الفلاحون بأن عرابي سيلغى جميع الديون سواء كانت على الحكومة أو الأهالي ، وقد فكر القائمون على الثورة في هذا الأمر ، وبناء على ذلك أذيع أن ديون المرابين سوف تُلغى على يد عرابي ، وأن توفيقاً يمانعه من ذلك ، فكان هذا حافزاً للمزيد من الكراهية للخدو والمزيد من الحب لعرابي ، في الوقت الذي أيقن فيه الجميع أن السلطة والقوة والسلطان في يد عرابي زعيم الثورة .

واحتلت مسألة الديون مكانة بالنسبة للفلاح ، فهو دائماً مثقلاً بها لحاجته الضرورية لدفع الضرائب ، وكان البنك العقاري دائماً ما يرد الفلاح خائباً ميئوساً ، فهو لا يقرض أحداً إلا أن يأخذ تحت يده ضمانات كافية من حجج التملك ونحوها ما يعز وجوده لدى الفلاحين ، بالرغم من أن نظار الحقانية صرحت للمحاكم بإخراج حجة (أيلولة) لمن يطلب إخراجها من الذين كانوا قد دفعوا المقابلة « على شرط أن يؤخذ منه ١٠٠ قرش قيمة الحجة وكتابتها ، فاندفع الفلاحون إليها ويبددهم بيانات أطيانهم ، ولكنهم كانوا يلقون في سبيل ذلك عناء شديداً فوق ما هم فيه من شدة الحاجة ، حيث إن المحاكم لا تسعفهم بل تقابل الطلب بالتسويق »^(٣) .

لذلك كان لابد من الالتجاء للمرابين ، فأقرضوا الفلاحين بفوائد عالية كان من الصعب على الفلاح أن يوفى حتى بتلك الفوائد ، إذن فلم يعد من المستبعد أن تحدث

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٢٥ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٢٩٣ في ٢٨ ديسمبر ١٨٨١ .

عملية رد فعل واسعة النطاق ، ويقول بلنت « إن ثورة ١٨٨١ اكتسبت مغزى ذا قوة عند الرأى العام فى وقت كان فيه اليونانيون بائعو المشروبات الروحية الذين مزجوا ذلك بإقراضهم النقود فى القرى وخاصة فى الوجه البحرى ، والذى كنت أقيم فيه كان مثلاً حياً لهذه الشرور ، وفى أثناء عودتى هذه السنة إلى القاهرة وجدت على شريط السكة الحديدية الضيقة على كل محطة دكاناً لبيع المشروبات الروحية تدار بواسطة يونانى مرابى يجذب الفلاحين لتذوق الخمور المحرقة بغرض إسكارهم وإقراضهم النقود بالربا المرتفع »^(١) ، ويؤكد شاهد عيان آخر أن « كل فلاحى الدلتا ومصر الوسطى كانوا مدينين بغزارة للمرابين اليونانيين ، وتبعاً لذلك أصبح من السهل أن تتعمق بحرارة تلك الكراهية ضد الأجانب عموماً »^(٢) .

وبدأت حوادث تصفية الحساب بين الفلاحين وهؤلاء المرابين ، وكانت هناك السندات - الكمبيالات - التى تثبت إدانة الفلاحين ، فرأوا الإستيلاء عليها عنوة حتى تسقط ديونهم ، « كان الخواجة فنجيلى إسكندر التاجر بناحية طوخ له مبلغ طرف منصور أبو رياشة و خليل الخضراوى وبتوجيهه للناحية لمطالبتهما بالدين ، تقابل مع منصور و خليل و طلبا منه الحساب على المطلوب منهما له ، فأخرج محفظة من جيبه لأعمال حسابهما ، فخطف منصور المحفظة لعلمه أن بها السندات ، ونزل الاثنان عليه بالعصا » ، كذلك « عندما أرسل الخواجة طناش سماكوبلو تابعه الخواجة أندريه ليحصل مطلوبه من أهالى العزبة الكائنة بأراضى ناحية الباجور ، فبوجوده بمنزل إبراهيم الأقطش فى مكان العزبة وإخباره بالمطلوب منها ومن أهاليها ، أخذوا منه بالقوة كامل السندات الموجودة معه »^(٣) ، وتكررت هذه الحوادث ووصل الأمر إلى التهديد بالقتل ، وكانت النتيجة استرداد السندات وتمزيقها . وهكذا سيطر الغضب على جموع الفلاحين .

هذا بينما نرى أن من الفلاحين من ماضل فى الدفع بل وأنكر الدين « وهدد صاحبه وتوعده : فخاف جميع التجار وانكمشوا وقلت معاملتهم لأهل البلاد ، ونزح الكثير منهم إلى المدن الكبيرة ، وقد تبدل ورقهم ورقاً حتى تعطل البيع والشراء »^(٤) ،

Blunt , My Diaries, Vol. I, p. 34 .

(١)

Wallace , op. cit., p. 86 .

(٢)

(٣) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٢ ، ٨ مايو ١٨٨٢ ، معية سنية عربى ، إفادات ، سجل ٩ ، مجموعة ٦٤ ، ٤ يونيو ١٨٨٢ .

(٤) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٢٣٧ .

وساءت حالة الأجانب الملاك والتجار ، وأصبح الفلاحون أحراراً يفعلون ما يشاءون « من غير حساب ولا عقاب ، فكثرت التعدي على المسيحيين بأن أخذ الأهالي يسومونهم خسفاً وهواناً ويوسعونهم شتاً وسباً ، بحيث أصبح التاجر منهم غير قادر على تحصيل حقوقه واستيفاء ديونه من الفلاحين »^(١) .

وبدأ هجوم الفلاحين على الأجانب ، فقد كان مجرد مرور أى أجنبي بالقرية - وكثيراً ما كان المارون هم المرابون - يتم التعدي عليه « تعدى المدعو سليمان الصعيدي على الخواجة جورجى نقولا بالضرب حالة كونه ماراً بالبندر بشبين منوفية ومعه نبوت »^(٢) ، وقد شمل الانتقام الاعتداء على أراضيهم « هجم الفلاحون على أبعادية الخواجة يعقوب وضربوا حراسها البرابرة »^(٣) ، ولم يكن الأوروبيون فقط الذين وجه لهم هذا ، وإنما أيضاً السوريون واليهود على أساس امتهانهم الوظيفة نفسها .

كان ذلك يتفق مع ميول الثورة ورجالها الذين لم يتوانوا لحظة فى أى اجتماع أو أية خطبة أو أية فى مقالة ، إلا وهاجموا فيها الأجانب وأرادوا تطهير مصر من برائن مصاصى الدماء المصرية الذين استحوذوا على خيرات مصر .

وتبع ذلك تهديد الأجانب بالقتل ، هؤلاء الذين كانت لهم قضايا مع الفلاحين وكسبوا وارتاحوا لتلك الأحكام غير العادلة التى صدرت لصالحهم ، فبدأت الدوائر تدور عليهم لتسقط هذه الأحكام ، فقد حدث أنه فى عام ١٨٨٠ أقام ثلاثة من الفلاحين دعوى أمام المحكمة المختلطة على « مستر كوتريللى » وهو مهندس رى مدعين عليه بدين ، وكانت نتيجة الحكم لصالحه ، وازداد الأمر سوءاً بأن حكم على الفلاحين بالتعويض ، وفى ٢٢ يونيو ١٨٨٢ قابله وطالبوه بحقهم المسلوب ، فلم ينصت ، فهددوه بالقتل فى الحال إذا رفض إعطائهم مالهم ، فأسرع إلى القنصل الإنجليزى الذى نصحه بمفاداة البلاد فوراً^(٤) .

وجاء دور التنفيذ فى القتل ففى ٢٦ يونية ١٨٨٢ ورد إلى الإسكندرية « نبأ برقى من بنها العسل يخبر بقتل أحد اليونانيين فيها ، قيل أن أحد مديونية الفلاحين قتله ، وأن الباعث على ذلك تمنعه عن إعطاء الفلاحين سنداتهم التى له بمقتضاها دين ،

(١) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، ج ٥ ، ص ٤٨ .

(٢) محافظ الثورة العربية ، محفظة ١٦ دوسيه ٣٧٤ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ٢٠٧ فى ٩ مايو ١٨٨١ .

Commons , Vol. CCXXXI, June 26, 1882, p. 406 .

(٤)

واجب الأداء»^(١)، وقد أخبر نائب القنصل الإنجليزى حكومته بأن المقتولين عشرة من اليونانيين وثلاثة من الإسرائيليين، وأيدته بعض من المصادر^(٢)، وبصرف النظر عن الاختلاف فى العدد، فالحقيقة أمر واحد هى الرغبة فى الانتقام.

وعقب العدوان الإنجليزى على مصر وقيام الحرب، أصبح الشعور معبأ بالحق، وكان الهجوم على الأجانب أوسع انتشاراً وأكثر جراً وأعظم تأثيراً، ففى طنطا أمسك الفلاحون «بالنصارى واليهود والأروام وهجموا عليهم وكسروا دكاكينهم» وازداد عدد القتلى للدرجة التى امتلأت بها «ست» عربات كارو»، ولم يكن الفلاحون بمفردهم إذ كان معهم مهاجرو الإسكندرية، وأشعل الموقف وجود يوسف أبو دية أحد الضباط الثوريين ومعاون عب. العال حلمى، إذ مر على طنطا أثناء توجهه من دمياط إلى عرابى فى كفر الدوار وكانت ثورته جارفة، فراح يشجع ويبارك^(٣)، إلى أن حسم المنشاوى الأمر وهذا الموقف.

وفى «المحلة وسمنود» اعتدى الفلاحون على الأجانب، وقتلوا بعضاً منهم^(٤)، ويقول شاهد عيان لأحداث المحلة «وصلنا إلى بيت المفتش - وهو مفتش التاريع والمساحة - فوجدناه مغلقاً وعلى بابه جماهير ثائرة يريدون كسره واقتحام البيت لنهبه وقتل من فيه، والأهالى ثاروا رجالاً ونساءً وأطفالاً يصيحون الله أكبر ويهجمون على الحانات والدكاكين، وكان القتلى ستة من الأروام وثلاثة من مهندسى التاريع الأوربيين»^(٥).

وواضح أن عملية الانتقام كانت من مهندسى المساحة الأجانب الذين لعبوا بأراضى الفلاحين، وكما اقتتلوا منها لحساب مصلحتهم وذوهم باعتراف المسئولين الأجانب أنفسهم، ثم الهجوم على الحانات، وكان ذلك ضرورياً وجاء متأخراً، فالدين يحرم التعامل مع هؤلاء.

ومضى ذلك النشاط، فتكرر ما حدث فى كفر الزيات^(٦)، وفى دمنهور يقول نائب قنصل اليونان «إن الفلاحين مثلوا بالجثث وسكبوا عليها وأحرقوها، وقدرت

(١) سليم النقاش، المصدر المذكور، ج ٥، ص ٤٩.

(٢) Egypt, No. 17 (1882), June 26, 1882, p. 37.

(٣) محافظ الثورة المرايية، محفظة ١٧، دوسيه ٤١٠.

(٤) The Times, July 25, 1882.

(٥) سليم النقاش، المصدر المذكور، ج ٥، ص ١٤٢.

(٦) The Times, op. cit.

بحوالى خمس أو ست^(١) ، وراح يرمى الفلاحين بالتعصب ، وأن الأجانب لا ذنب لهم وأظهرهم بأنهم أصبحوا بل حول ولا قوة ، كما فعل مراسل صحيفة التيمز الذى أشفق على ما حدث لهم على أيدي الفلاحين فى طوخ^(٢) .

كان هذا العنف تعبيراً عن السخط لما ذاقه الفلاحون على أيدي الأجانب هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فمصر فى حالة حرب مع الإنجليز ، ومن ثم قدموا كل ما يمتلكونه من قوة انتقامية يحاربون بها الأعداء فى صورة الأجانب جميعهم ، ومن الملاحظ أن القائمين على الثورة وعلى رأسهم عرابى لم يقدموا على مجازاة أى فلاح شهر سلاحه أمام أجنبى ، فكان ذلك دليلاً على الراحة التى انتابت الثورة من جراء ما حدث ، وكل ما فعله زعيم الثورة للرد على ما حدث أنه استبدل بعض المديرين للقليوبية والمنوفية والغربية لتهدئة الموقف وأحالهم للمحاكمة بسبب « عدم حفظ الأمن » ، بالإضافة إلى إرساله فرقة عسكرية بقيادة محمد عبيد إلى دمنهور لإعادة الأمن والطمأنينة . وبما أنه كان متعهداً للقناصل بالمحافظة على أمن الأجانب ، أرسل للمديرين بصيانة حياة وأموال الأوربيين ، وأحياناً يطلب حماية ممتلكات الأجانب المهاجرين من السطو والتعدى^(٣) . وكانت النتيجة أنه لم يأت ٢٣ يوليو ١٨٨٢ حتى كان عدد الهاربين من الأجانب ٢٨ ألفاً^(٤) ، وواضح أن ذلك كان عقب الضربات التى وجهت إليهم .

واستمرت المناوأة ، ولم يعد الأمر مقتصرًا على تحقيق مصالح خاصة للفلاحين ، وإنما تعداه إلى نطاق أوسع من أجل مصر والدفاع عنها « فقد قام فلاح من السلامية دقهلية بالهجوم على الخواجة طنّاش اندر ساكى وكيل مخالى اندرساكي التاجر بناحية السلامية بمركز ميت سمنود وهو تاجر أسلحة وسيوف واستولى على تلك الأسلحة ، وأرسلها للجيش » ، وفى بلبس هجم الفلاحون على ثلاثة محلات للأجانب وأخذوا ما بها من سلاح ، احتوى على بنادق وسيوف وطبنجات ورصاص وبارود وأوصلوها إلى مقر القيادة^(٥) .

(١) Scotides, No , L'Egypte Contemporaine et Arabi pacha, p. 215 .

(٢) The Times, July 21, 1882 .

(٣) Ibid ، أحمد عرابى ، تقرير ، ص ٣٧ ، سليم النقاش ، المصدر المذكور ، ج ٥ ص ١٤١ .

محافظ الثورة المرابية ، محفظة ١ ، دوسيه ٢ ، محفظة ٢ ، دوسيهات ٢٥ ، ٢٣ ، ٢٥ .

(٤) الأرشيف النمساوى ، محفظة ٢٠ مجمعة ٢٦/٣١ ، ٢٣ يوليو ١٨٨٢ .

(٥) محافظ الثورة المرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ١٨ ، ٣١ .

البعء السياسى لثورة الفلاحين

سيطرت فكرة سقوط النظام القائم على يد عرابى ، وسرى اتجاه قوى بين الفلاحين أنه بنهاية الحرب وانتصار مصر لن يبقى الخديو على عرش مصر وسيذهب ومن معه من الأكابر والذوات الباشوات ، حيث إنه هو المتسبب « فى هتك أعراض المسلمين فى الإسكندرية وقتلهم » ومضى السب فيه والدعاء لعرابى بالنصر ليس فقط على العدو الإنجليزى ولكن أيضاً على الخديو^(١) ، وآمنوا بأن قائد الثورة سيكون الوالى عليهم ، فهو من السلالة النبوية الشريفة ، وولى من أولياء الله المكشوف عنهم الحجاب ، وأذاع العلماء فى القرى « أنه توجد نصوص قاضية على أن عرابياً سينتصر ويتسلم ولاية مصر بدلاً من الخديو ، ويجرى رفع المظالم ، ويقطع دابر الأفرنج الذين هم عمد البلاد ، وأن عرابياً سيصير ملكاً للعرب عمومًا بما فيها الشام والحجاز »^(٢) .

ذلك هو الشكل السياسى الذى أراده الفلاحون ، لا حاكمًا من أسرة أجنبية ، ولا أتراك مستوردين ، ولا أجانب مسيطرين ، إنما حاكم فلاح مصرى وحكومة مشكلة من فلاحين ، وتأصلت النزعة القومية ، وراود الأمل فى عودة مجد مصر عندما كانت مهيمنة على الشام والحجاز وحملها للواء العربية قبل دخولها تحت الحكم العثمانى .

وكانت المشاركة فى اختيار عرابى للدفاع عنهم وعن مصر مسألة ديمقراطية للغاية ، فقد أراد عرابى أن يستند على الشعب بفئاته فى الوقت الذى رأى فيه الفلاحون المشاركة فى تصويب هذا الزعيم الفلاح عليهم ، ومن هنا كانت تلك الأختام التى وكلته وكانت سنداً قوياً له ، دعم به موقفه أمام القوى المضادة الداخلية والخارجية ، كذلك عبرت عن رأى العام برفض التدخل الأجنبى الذى تمثل فى مذكرة مايو المشتركة ، ورفض من قبلها متمثلاً فى الخديو ، فيذكر مالىت لوزير خارجيته أن التوقيعات أخذت من الطبقات الفقيرة ضد المذكرة الإنجليزية الفرنسية وضد الخديو^(٣) ، لقد أدلى الفلاحون برأيهم بأنهم لا يريدون الخديو ولا يريدون

(١) المصدر نفسه ، دوسيه ٢٢ ، محنظة ١٤ ، دوسيه ٢٨٩ .

(٢) المصدر نفسه ، محنظة ٧ ، دوسيه ٢٤ ، محنظة ١٢ ، دوسيه ٢٤١ .

Egypt, No. 8 (1882), No. 111, May 20, 1882 .

(٣)

اللائحة على أرض مصر كلها ، ومما لا شك فيه أنه كان للأعيان والعلماء دور في هذه العملية .

وللنديم مشاركته ، إذ وزع الخطباء على المديرية ، تخطب وتطلب من الناس كتابة العرائض وإرسالها إلى بعثة السلطان ليحتجوا على المذكرة ويطلبوا عزل الخديوى ، وللعسكريين أيضاً مهمة فى عمليات التحام قوى الشعب ، فقد قام بعضهم بعمليات التخييم داخل القرى^(١) .

ويجب أن نذكر أن الفلاحين لم يكونوا منساقين فى ذلك ، حيث إن وعيهم قد وصل إلى درجة عالية سهلت المهمة ، فقد كان كل مصرى قلبه يخفق مع عرابى ، وكم أساءتهم استقالته مع نظارة الثورة ، وكم أسعدتهم عودته . وعندما بدأت الحرب كانت دعوات النصر تتردد على كل لسان ، وبلغت المشاركة والحماسة أشدها ، ويقول شاهد عيان « وفى كل صباح كان الفلاحون يحكى كل واحد منهم للآخر الأخبار التى تصل فى المساء عن تلك الإنتصارات الرائعة على الغزو الأجنبى ، وهذه الضربات القاسمة لمغتصبى أرضهم »^(٢) . وكانت أجهزة الدعاية للثورة تمضى داخل الريف لتعطى الاطمئنان عن استعدادات الجيش وعلى الأمل الكبير فى النصر .

وبالرغم من تعرض بعض الفلاحين لنفوذ القوى المضادة والتكيل بهم لى يحدوا عن تأييد الثورة ، وذلك بالضغط عليهم بجميع الوسائل الممكنة ، فإنهم لم يتراجعوا أبداً ، وظلوا متمسكين بمبادئهم حتى النهاية ، فقد قام مدير ومفتش جفلك فى « ميت خلف » بالمنوفية بالتحايل ، وسجن أحد الفلاحين لأنه دعا بنصرة عرابى ، وكان هذا المدير من الراضين ووقف أمام طلبات الجيش ، كما قبض محمد أفندى فؤاد الشركى على من كان يطوف ويقول : « الله ينصرك يا عرابى بجيش المؤمنين » وأجرى ضربه ضرباً فاحشاً وحبسه أسبوعاً ، وتعرض فلاحو تفتيش « كفور نجم » بالدقهلية بالطرد من أراضى التفتيش ، إذ كان المفتش هو شاهين بك الشركى ينبه على الفلاحين بعدم إطاعة طلبات الجيش من جمع الأنصار ، لكن وطنيتهم فرضت عليهم رفض الأوامر واستمروا فى طريقهم ، ولما تأكد من استحالة ردعهم وقّع عليهم الجزاء القاسى فيقولون « أبرق للدائرة الإلهامية لإخراجنا من أوطاننا بالتفتيش وإحرامنا من التعيش ، ووزع أطيافنا بمعرفته مع أنها كانت مؤجرة

(١) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٧ ، دوسيه ١٠ .

Wallace, op. cit., p. 291 .

(٢)

لنا من مدة جدودنا لحد تاريخه ، ، ولم يكتف بذلك فسجن أحد شيوخهم ، فأمر عرابى بالتحقيق ومعاينة المسئول^(١) .

ووصل بالفلاحين أنهم شنوا حرباً شعواء على أعداء الثورة ، فكانوا على وعى ويقظة ، واستطاعوا أن يقفوا أمام حركات الخيانة للمعسكر المضاد ، فقد كتب يعقوب صبرى مدير الفيوم إلى عرابى يقول « بلغنا ممن يوثق بأخباره أنه بينما كان بمحطة الواسطى ينتظر واپور الفيوم إذ أقبل عليه شخص عليه جلابية رثة وعمامة خلقة واقع عليه القبض من جملة من الفلاحين يلتجئ إليه لتخليصه منهم ، وإذا هو عثمان بك رافت أمير خور الخديوى ، وذهبوا به إلى مأمور مالية بنى سويف ، وقالوا له إن هذا الشخص متخف وكان فى قارب فى البحر تحت الواسطى ، وأنهم لهذه المناسبة أرادوا القبض عليه فخرج إلى البحر لتحصد الفرار ، فضبطوه وأحضروه إلى مأمور مالية بنى سويف فسأله عن الهيئة التى هو متزى بها فأورى أن هذه ملابس نومه وأنه قاصد أبعاديته بنى سويف ، وأبرز له جواباً من وكيله ، فما كان من مأمور المالية إلا أنه اكتفى بذلك وأطلق سراحه » ، ومن هذا يتبين أن الفلاحين أدركوا أنه جاسوس وعدو يعمل ضد الثورة فأمسكوا به على الفور ، وللأسف أطلق سراحه هذا المأمور ، فوجه عرابى أمره للبحث عنه والقبض عليه فى جميع الجهات بالبنادر والمراكز^(٢) .

وعمل بعض الفلاحين كطابور خامس للجيش ، فعندما أعلن سيمور أن من يحضر له أسيراً من المصريين يعطيه خمسمائة جنيه ، فحضر له أهالى وفلاحون من إدكو وأخذوا منه مائة جنيه مقدماً وطلبوا بعض العساكر الإنجليز ليكونوا معهم لاقتصاص العساكر المصرية ، فأعطى لهم خمسة عشر رجلاً ، فما أن وصلوا إلى كفر الدوار حتى سلموا العساكر الإنجليز للمعسكر المصرى^(٣) .

وعندما لعبت الخيانة دورها بزعامة سلطان ، وأذيع فى المنيا أنه سيدخل مصر من الجبل ومعه مائتا عسكري إنجليزى ، جمع أحد الفلاحين على الفور أنصاراً كثيرة وخيالة بالأسلحة تسد الدروب والمنافذ بالجبل ومنعه من الدخول . ووجه الفلاحون نشاطهم تجاه الذوات ، فأعلنوا أن من يقاوم عرابى منهم لابد من هلاكه وسلب ما يمتلكه^(٤) ، وراحوا يهددون من يتأخر منهم فى سداد الإعانة الحربية

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧، دوسيه ٢٨ ، محفظة ٤١ ، دوسيه ١ ، محفظة ٥، دوسيه ٦٧ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٤٠٧ ، محفظة ٢٢ ، دوسيه ٢٢ .

(٣) الملائف ، عدد ٤٩ فى ٥ أغسطس ١٨٨٢ .

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٤١ .

بالتجريد من أطيافهم التي تؤخذ وتوزع على من يؤدي طلبات الجهادية ، وفي البحيرة هاجموا أراضي الوسية الخاصة بحيدر باشا « واستولوا على مواشيها من أجل الجهادية » (١) .

الفلاحون والمجهود الحربي ،

(أ) التبرعات

مع قيام الحرب أحس كل مصري بالواجب الذي عليه أن يقوم به ، وكانت التبرعات العينية إحدى سمات المشاركة الفعالة لقوى مصر جميعها - وقد قدم الفلاحون الكثير بالرغم من تلك الظروف الصعبة التي طغنتهم وأتت على كل ما لهم- فكانت عماداً للقوات المصرية في وقت فيه الخزانة المصرية خاوية كما تسلمها عرابي بعد أن أخذت الأموال إلى الأسطول البريطاني على يد كولفن ، وحتى أموال صندوق الدين حملها أعضاؤه إلى السفن الحربية (٢) .

اعتمد عرابي على الوطنية الصادقة لقوى مصر ، وخاصة الفلاحين ، وذلك الحب المتبادل بينهما ، فأصبح على ثقة بأنه إذا طلب سيجاب ، لذا نراه يخبر العمدة والمشايخ بمتطلبات قواته ، وعلى الفور كانت الإمدادات تصل للجيش بغاية السهولة مصحوبة بالحماس الوطني الملهب ومرسلة رأساً إلى عرابي .

ومن الصعب عمل حصر شامل لتلك التبرعات ، فصحيفة الوقائع المصرية ، والمحفوظة الأولى والرابعة من محافظ الثورة العراقية تزرع بالأعداد الهائلة والكميات الوفيرة من القمح والأذرة والشعير والبقول والعدس والنخيل والجمال والماشية والأغنام والفاكهة والمسلية التي وفدت على معسكرات الجيش في كفر الدوار ، تلك التبرعات التي كانت ترد كل يوم ولم تنقطع أبداً (٣) ، حتى لقد ملئت مخازن الجيش عن آخرها بالأغذية ، لدرجة أن من لا يمتلك جمع الحطب وأرسله وقوداً للمعسكرات ، والبعض تبرع بكل ما يمتلكه يداه ، والبعض قدم طلبات الجيش نصف ثمنها تبرعاً والنصف الآخر بثمنه الأصلي ، وشارك جميع الفلاحين في هذا المجهود ، فمن كانت عنده بقرة أو جاموسة أو بعض من أرادب القمح أو الشعير لم يبخل

(١) المصدر نفسه ، محفوظ ١٢ ، دوسيه ٢٢٥ ، محفوظ ٧ ، دوسيه ٣٥ .

(٢) محمود الخفيف ، أحمد عرابي الزعيم المفترى عليه ، ج ١ ، ص ١٢٢ .

(٣) Ninet . Arabi pacha , p. 216 .

وقدمها، وعلى سبيل المثال ، ففى أحد الكفور بالمنوفية تمكن الفلاحون ذوو الإمكانات المحدودة من تجميع ٨٧ رأس خيول وبغال وفحول وجاموس لإهدائها للجيش^(١) .

ومن اللافت للنظر أن برقيات أبناء التبرع بها نوع من الرجاء لقبول تلك الهبات « نؤمل التصريح باستلامهم » ، والبعض يضيف « وجميعنا بأسطين الدعوات لعزة مولانا عز وجل أم يؤيدكم بالنصر المبين » ، وعلى الفرر يقوم عرابى بالرد ، فكان اللقاء بين القائد وشعبه ، فيقول فى أحد ردوده « وهذا دلالة على ما لحضرتكم من الغيرة الدينية والحمية الوطنية ، فأهديكم مزيد سرورى وممنونيتى وأتشكر لكم على حسن صنيعكم أنت وأمثالكم »^(٢) .

وقد ساعد توقف الحركة التجارية بسبب الحرب على توفّر كل السلع وتديرها وإهدائها للجيش المحارب ، ويجوز السلع كانت هنالك الأموال التى قدمت كتبرعات من فلاحى النواحي كل على حسب إمكانياته ، فعلى سبيل المثال لا الحصر « تبرع أهالى ناحية قهرة بـ ٢٢١٤ قرشاً ، وناحية أناسية بـ ٢٢٩٤ قرشاً ، وناحية بشنا بـ ٢٢١٥ قرشاً ، ومثلهم أهالى ناحية الحمام وبنى هارون والشناوى وناحية شيط البحارى وناحية الرمل القبلى إذ بلغت تبرعاتهم ١٧٦٦٤٢١٣ قرشاً وأهالى بحرى ١٠٣٥٤٥٢٦ قرشاً »^(٣) ، وليس المقصود هو تجميع المبالغ ومعرفة قدرها ، ولكن الهدف أنها كانت على المستوى الكلى لمديريات مصر لتعبر وتثبت المشاركة الفعالة ، وأصدق تعبير ما أقره عرابى وهو فى سجن الدائرة عقب نهاية الثورة « أن الأموال الغزيرة زحفت على خزينة الجيش »^(٤) .

وكان لأقباط مصر مساهمة حقيقية سواء فى تقديم المساعدات العينية أو المالية^(٥) ، حيث انضمت أى ثغرة يمكن لها أن تقيم فرصة لفصم عرى الوحدة ، فحرص الأقباط على تجنب أية اضطرابات تسمى « للحركة الوطنية ، واجتمع الفلاحون على وحدة وطنية ومفاهيم جديدة وفقاً لمبادئ الثورة ، ففى تقرير محمد عبده لبرودلى يسجل « كان كفاحنا وطنياً موحداً بين كل أجناس مصر ، الكرد

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٦٤ فى ٢٥ يوايو ١٨٨٢ .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١ ، دوسيات ١٤ ، ١٧ ، ٢٢ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٧١ فى ١٣ أغسطس ، عدد ١٩٧٦ فى ٢٨ أغسطس ١٨٨٢ .

(٤) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 133 .

(٥) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١ ، دوسيه ٢٢ ، الوقائع المصرية ، العدد نفسه .

والمسلمين والأقباط واليهود ارتبطوا برابطة الحماسة ، وقدموا جميع المساعدات فالحرب هي بين المصريين جميعاً وإنجلترا ^(١) .

وكتب عرابي لصابونجي يقول « إن النفقات التي تكلفها ١٠٠,٠٠٠ جندي مصري أثناء الحرب هي هبات من الأمة المصرية ، ففي بداية الحرب لم يكن هناك أكثر من ١٠,٠٠٠ جندي تحت السلاح ، ولا أكثر من ١,٢٠٠ من الزى العسكري في المخازن ولم تكن جاهزة ، ١,٥٠٠ بشل - مكيال إنجليزى للحبوب ٢٦,٢٥ كيلو - من القمح ، ولكن عند نهاية الحرب كان بخزائن الجيش والمديريات والمخازن ما يزيد عن ١,٠٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني من الأموال ، والمنتجات والماشية ، والجاموس والغنم ، والأقمشة ، كل ذلك قدمته الأمة لجيشها المدافع عن بلدها ، ولم ينفق على الجيش درهم واحد من أموال الحكومة ^(٢) ، وحينما انتهت الثورة كانت التهم التي وجهت للكثيرين أنهم قدموا التبرعات للقوات المصرية ، تلك التي ساهم فيها الفلاحون بالنصيب الوافر .

(ب) التطوع والعمل في الميدان الحربى

لم تكن مساهمة الفلاحين عن طريق التبرعات فقط ، بل ازداد الأمر بما ضحوا به من أجل مصر عن طريق تقديم أنفسهم للدفاع عن شرف الوطن الذى دنسته أقدام الغزو الأجنبى ، واشتركوا إما متطوعين أو عمال فى بناء الاستحكامات والتجهيزات العسكرية .

وهذا يدعو للتساؤل ، كيف أمكن للفلاح أن تعود على الا يفارق أرضه وألا يذهب إلى الجهادية التي كانت سخرة مفروضة عليه ، وكثيراً ما كان يجمع النقود لدفع البدلية ، أو يجمع الرشوة للقائمين على جمع أنفاسها ، أو يقطع إصبعه أو يخرق عينه من أجل أن يبقى فى أرضه ولا يذهب إليها ، أن يذهب الآن ويقدم نفسه متطوعاً بإرادته لا بإرادة أحد غيره ؟ لقد دفعه الحماس وقاده الواجب ، فقد عدت الحرب بين مصر والإنجليز حرباً دينية مقدسة . إذن فالجهاد فى سبيل الله هو أرقى درجات الإيمان حيث الجنة هي النصيب ، والفلاح المصرى متدين بطبيعته ويتفانى فى هذا السبيل ، كما كان ذلك الرباط الذى توثق بين عرابي

Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 231 .

(١)

Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 541 .

(٢)

والفلاحين قوة دافعة لهم يلبون نداءه ويطيعون أوامره ، وهؤلاء الدعاة الذين جابوا القرى يحثون على التطوع بالخيول والأسلحة لحرب المسيحيين الأجانب أعداء الدين والوطن ، وأنه من الواجب على كل مسلم الذب عن نفسه وعن أهله ووطنه .

وأوراق الثورة العربية مليئة بنداءات الفلاحين لأهالى بلادهم ، تلك التى كان لها الأثر الكبير والعميق لدى الفلاحين « كان عبد ربه يوسف عبده من كفر عبد الخالق مديرية المنيا يمر على النواحي وينادى : هيا بنا نتوجه لطرف عرابى الذى هو من نسل المبرور ، بعثه الله لحماية الوطن والدين ، وسيجعله والياً على القطر المصرى ، وأن أسيدانا المشايخ متوجهين للحراية ، وأن أحدهم نظر رؤية تدل على نصرته » وكان ممطياً لجواده وبيده البندق ويقول بأعلى صوته « نصره نصره عرابى منصور يا قوم إجعلوا الموت أمام أعينكم ولا تخشوا من شئ ومن لم يمت بالسيف مات بغيره » ، وعلى الفور قام الفلاحون بالتجهيزات العسكرية من مشترى أسلحة وخيول وخيام وما يلزم من الذخائر وتوجهوا صحبة المشايخ بزيادة ألفين وخمسمائة فرد^(١) .

واستمرت النداءات التى أثارت الحمية الدينية والوطنية ، وكان للندم مساهمته سواء عن طريق صحيفة الطائف التى التهمت مقالاتها بالحديث عن الجهاد ، واستخدم الآيات القرآنية الكثيرة والأحاديث النبوية ، ووصف المعارك والانتصارات التى يتبعها خلق الحماس والثقة والقوة ، وكان أيضاً له الدور مع أتباعه فى حث الفلاحين وحشدهم للاشتراك فى الدفاع عن أرض الوطن ، وطبيعى أن يلبى الفلاحون هذا النداء ، وتلك الصيحات التى خرجت لتنادى أهل مصر لإنقاذ البلاد ، وسرت هذه الروح بعد أن أحس الجميع أن الإسلام فى خطر ، والواجب يحتم عليهم القيام للوقوف مع ذلك البطل لإنقاذ مصر » وبهذه الطريقة أثارت حماسة الفلاحين وازداد الحزب الوطنى أعداداً من المؤيدين^(٢) ، وذاع صيت الفلاحين المصريين الذين يدافعون عن بلادهم فتقرر إحدى الصحف التركية « بأنه بعد أن كانوا ينفرون من العسكرية ولا يجلبون إليها إلا فى الحديد ، أصبحت الآن

(١) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٧ ، دوسيه ١٨ ، محفظة ١٢ ، دوسيه ١٨٧ ، محفظة ١٣ ،

دوسيه ٢٥٧ .

Wallace , op. cit., p. 87 .

(٢)

رغبتهم في الدخول تحت السلاح قد حيرت العقول وما ذلك في الحقيقة إلا لكونهم يريدون الوقوف أمام التعرضات الأجنبية^(١) .

وماجت البلاد بطوفان التطوع ، ويذكر محمد عبده لبرودلى « رأيت الأهالي يذهبون إلى الحرب بمحض إرادتهم سواء كانوا فلاحين أو بدو مبدين شوقهم الكبير لمحاربة الإنجليز حتى الأقباط أبدوا نفس الشعور »^(٢) . وتتابع الوفود التي تصل أرض المعركة من أدنى مصر إلى أقصاها ، وتدفقت البرقيات على عرابي تحمل رغبة الفلاحين للتطوع ، ويرد عليهم ويشكرهم ، ومن كثرة الأعداد الملحة في الإشتراك ، نرى عرابي يبلغ بعض مديري المديريات « نحن شاكرين المتطوعين غيرتهم على أوطانهم ، فبلغوهم عنا ذلك ، وأخبروهم أن يكونوا مستعدين لحين الطلب ، أما الآن فيطمئثوا في أماكنهم آمنين »^(٣) .

لقد أيقن الفلاحون أنهم يحاربون من أجل حريتهم وبلدهم ، ويحلل بلنت سبب اشتراكهم « إن الفلاحين قد استغرقته ديونهم للدائنين اليونانيين ، فكان هذا من أسباب حماسهم لأنهم توهّموا أن الحرب تخلصهم من هذه الديون ، فصاروا يمدون الجيش بالأموال والرجال »^(٤) ، لكن لم يكن الأمر كما تصوره ، فإنه من السهل عليهم التخلص من ديونهم مع المرابين ، فقد تمكنوا من إيجاد الطرف لذلك واستخدموها ، وإنما الذي جعلهم يشتركون في الحرب بتلك الحماسة هو الإيمان الصادق ، والرعى العميق ، والواجب المقدس ، وحب القائد ، جعلهم يتقلبون قرار الحرب بالرضا الكامل ، ويقسم نبيه أن فلاحى مصر كانت الوطنية والحرية لديهم يفضلونهما على كل شيء^(٥) .

وأوراق الثورة العربية تشير إلى أن الكثير منهم كانوا معدمين ، فنزى مأمور تشهيل العساكر بقنا يرسل إلى عرابي ليخبره « وجود أشخاص من الأهالي راغبين التوجه للمجاهدة ، والبعض منهم محتاجين لأصرف جروى من النقود لزوم القوات الضرورى فقط لفاية وصولهم لمركز الجيش ، وصار الاستئذان عن ذلك من المديرية

(١) الفيد ، عدد ٥١ في ٢٧ أبريل ١٨٨٢ عن صحيفة ترجمان الحقيقة (الأستانة) ، عدد ٢٣ جمادى الأولى ١٢٩٩ هـ .

(٢) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 233 .

(٣) محافظ الثورة العربية ، محفوظة ١ ، دوسيه ١٨ .

(٤) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 394 .

(٥) Ninet , Arabi pacha , p. 268 .

فلم أتمكن الصرّف ، فتأمل صدور أمر سعادتك إذا رثى الموافقة ، إما بصرف نقود أو بصرف بقسمات لهم من الجارى تشغيله بالمديرية «^(١) .

ومما أشعل الحماس تلك الأخبار التى كانت تغطى أرض مصر كلها بانتصارات الجيش على أعداء الله ، وذلك عن طريق الصحافة ، والخطب فى المساجد ، والدعاة المتنقلين أو الدائمين ، وأصبح أفراد كل قرية يتكلمون ويتناقشون ويبدون الرأى فى المسائل السياسية والشئون الحربية التى تناولت نقط الجيش ولقاء الممارك والهجوم المصرى^(٢) .

وكان لهذا رد فعله القوى ، فلم تغل قطارات السكة الحديدية فى أى يوم من أعداد المتطوعين بأسلحتهم سواء كانت بنادق أو حتى نبايت ، ومعهم خيولهم « مجاهدين على المحاربة ضد الخديو »^(٣) ، إذن لم تكن الحرب ضد الإنجليز فحسب ، فهى أيضاً ضد من كان السبب فى إحضارهم ، واختلفت الآراء فى عدد المتطوعين ، إلا أنها كانت أعداد كبيرة ، ولم يكن يمضى عليهم إلا نحو خمسة عشر يوماً من التدريبات ويدخلون ميدان المعركة ، فتذكر صحيفة الوقائع المصرية « تعلموا فيها ما لو رآه منهم إنسان لم يفرق بينهم وبين العساكر القدامى ، فإذن يحق لسعادة أحمد عرابى أن يفخر بما كان له من الثقة فى الأمة المصرية ، فقد جذب إليه قلوب الأمة جميعها حتى أخلص الضباط فى التعليم والعساكر فى العلم »^(٤) .

والكثير يلقي على هؤلاء سبب الهزيمة ، حقيقة أن الفترة الزمنية كانت غير كافية على تدريب تلك الأعداد الكبيرة ، وليس كما ذكرت الصحيفة أنه فى فترة قصيرة تساوا مع أصحاب المهنة ، هذا بالإضافة إلى أن التدريب كان نظرياً ولم يكن عملياً ، وأثر ذلك فى اللقاء الميدانى ، ففى تقرير نمساوى يذكر « لم يصمد الضاحون الذين حولهم عرابى بين يوم وليلة إلى جنود أمام القوات البريطانية التى هاجمتهم بالسلاح الأبيض فى خنادقهم برغم تفوقهم العددي الذى بلغ ضعف القوة البريطانية »^(٥) ، لكن لم يكن الأمر كله هزيمة - تلك التى تضافرت عليها عدة عوامل - إذ حارب هؤلاء بشجاعة « وكانت قلوبهم تملؤها الكراهية للفازين »^(٦) ،

(١) محافظ الثورة المرابية ، محفظة ١ ، دوسيه ١٩ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٢٤ ، دوسيه ٢٢٥ ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٥٧ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٤ .

(٤) الوقائع المصرية ، عدد ١٩٨١ فى ٦ سبتمبر ١٨٨٢ .

(٥) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٧ ، رقم ١٧٦ ، ١٨ سبتمبر ١٨٨٢ .

Scotides , op. cit., p. 187 .

(٦)

واستشهد الكثير منهم ، وكان نينيه شاهد عيان على أولئك الفلاحين حيث قال « لم يكونوا يحاربون من أجل نياشين أو مكافآت ، بل إن الروح الوطنية والثورة المتأججة في صدورهم أثارت حماسهم »^(١) .

وأمام هذه الروح المعنوية العالية ، وذلك القبول التام للرغبة الأكيدة في الإشتراك لصد هجمات الغزو ، كان من الممكن أن تكون النتيجة غير ما وصلت إليه ، ويلقى البعض اللوم على عرابي لعدم استغلال هذا الشعور الفياض في تعبئة القوى الشعبية ، لكن لم يقصر عرابي في ذلك إذ بدأ في التنفيذ ، فحتى قبل إعلان الحرب جرت عملية استعدادات لتدريب الفلاحين وتسليحهم ، وقد ساهم « حميد أبو ستيت » في تجميع قوى الفلاحين وتوزيع الأسلحة عليهم ، ومع الحرب نرى مدير قنا يطلب إرسال ألف بندقية لتسليح أهالي مديرية قنا للاستعداد^(٢) . وفي منطقة بحيرة المنزلة دُعي الأهالي لحمل السلاح والتدريب بالطوابي القريبة ، فصدرت أوامر عرابي لمدير الدقهلية « لأجل حفظ بحيرة المنزلة ، نبهوا على مأمور مركز المنزلة بأن يستحضر العمدة والمشايخ يأخذ عليهم التعهد القوي باستخراج جميع الأنفار من الأهالي الذين لهم إلمام باستعمال الأسلحة النارية ، يجعلوا في النقط المهمة في بحيرة المنزلة لأجل حفظها مما عسى يطرأ من العدو بالدخول منها بواسطة مراكب ، وإذا لم يكن عندهم أسلحة لبعضهم فيصير طلبها من ديوان الجهادية » ، كما أرسل نفس المعنى لمدير الشرقية « باستحضار العمدة والمشايخ وأخذ التعهد عليهم بحفظ بحيرة المطرية وإلزامهم باستخراج أنفار من بلادهم »^(٣) ، وأخذ مدير الشرقية في الحال بإعداد الأسلحة اللازمة للتنفيذ .

وبذلك أصبح هناك مناطق للدفاع الأهلي ، وقسمت الدقهلية وشواطئ البحيرة على خمسة آلاف فلاح تحت رئاسة العمدة والمشايخ وإشراف مدير الدقهلية ومأمور دكرنس ، وأُرسلت ٢٠٠٠ بندقية إلى عبد العال حلمي قائد دمياط ، ووزعت على الفلاحين لحراسة الشواطئ ومقاومة كل غزو يتوقع من هذه المناطق ، وعقب نهاية الثورة وجدت هذه الأسلحة مع الفلاحين ، واعترف كثير منهم بالمهام التي كانت

Ninet , Arabi pacha , pp. 175 , 177 .

(١)

(٢) معية سنية ، دفتر صادر التفرافات (١٨٨١ - ١٨٨٣) ، سجل ٢ ، مجموعة ٣٩ ، ١٧ يونيو

١٨٨٢ ، محافظ الثورة العربية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٣/٥٣ .

(٣) محافظ الثورة العربية ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٣٩٥ ، محفظة ٩ ، دوسيه ٧١ .

ملقاة على عاتقهم^(١) . حقيقة أن تلك التعبئة لم تكن على المستوى الواسع ، لكنها وجدت وأقبل عليها الفلاحون ، وما كانت على عرابى إلا أن يتوسع فيها ويخضعها لنظام أدق .

ورأى عرابى تعبئة الخفراء للعمل فى الميدان الحربى ، فأرسل للمديريات بدلب تعيين حرس أهلى من المقتدرين على حمل السلاح لحفظ الأمن ، وأن يقوم بتعليمهم « ضباط المستحفظين وأصحاب المعاشات منهم » ووزعت أعداد الخفراء على البحيرة ١١٧٢ ، والقليوبية ١٠٣٨ ، والشرقية ٢٠٧٧ ، والغربية ٢٤٣٥ ، والدقهلية ٢٦٦٥ ، والجيزة ١٣٥٠ ، وبنى سويف ٦٩٥ ، والفيوم ٨٦٣ ، ومنية أبى خصب ١٧٣٨ ، وأسيوط ٢٣٤٥ ، وجرجا ٢١٦٠ ، وقنا ١٦١٠ ، وإسنا ١٤٦٢ ، وقد وصل عددهم إلى ٢٥٠,٠٠٠ خفير^(٢) . وازدادت رغبة الخفراء فى التطوع والانتظام فى السلك العسكرى ، ولم يقتصر الأمر على الشباب فكان كل من فى قدرته حمل السلاح قدم نفسه ، فبينما كان على فهمى يفرز الخفراء السواردين من المديريات « فورد عليه رجال من أهالى أسيوط الذين كانوا يتقدمون للفرز وهم باسمون مستبشرون فرأى من ضمنهم رجلاً قد أبيض الشيب رأسه ولحيته ، فأمر بإرجاعه ، فاحتد الرجل وقال لا تنظرياً سعادة الباشا إلى هذا الشيب ، فقربه الباشا وقبل لحيته البيضاء »^(٣) .

وبينما نجح عرابى فى ذلك نجده لم يوفق فى مسألة الحرس الأهلى ، فقد رفضه المجلس العرفى وعلل الأمر « بكثرة أشغال الأهالى ، وأن الذين لهم مقدرة على حمل السلاح يكون أحرى تعليمهم بالآيات ويسافروا مع الجيش عند الاقتضاء » ويمضى مع تعليل رفضه « إن من يدخل تحت السلاح هم الفقراء المحتاجون للقوت ويخشى على البلاد إذات سلمت إليهم حراستها »^(٤) ، وكان المجلس يهدف إلى إبعاد السلطة عن الشعب وهم من أصحاب المصالح التى يخشون عليها .

أما عن الفلاحين الذين اشتركوا فى بناء الاستحكامات ، فقد أدوا دورهم على أحسن وجه ، فإنه بعد ضرب الإسكندرية وإتخاذ قرار التحصين بكفر الدوار ، جعل خط الدفاع فى المقدمة عند عزبة خورشيد على طول الخط من المحمودية إلى الملاحة ، وأصبح ما وراء هذا الخط من التلال والمرتفعات مواقع حصينة بمدافع

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٠٢ ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٣٩٥ ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٢٣٠ ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٧٦ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١ ، دوسيه ٨ ، الوقائع المصرية ، عدد ١٤٨١ فى سبتمبر ١٨٨٢ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٧٤ فى ٢٤ أغسطس ١٨٨٢ .

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢١ ، دوسيه ٦ .

الكروب ، وكذلك التلال الموجودة بين المحمودية وأبى قير » وقد تم إجراء هذه الأعمال الدفاعية بمعرفة المهندس الحربى العظيم محمود باشا فهمى ورجال الهندسة الحربية ومساعدة ٥,٠٠٠ رجل من الأهالى من مديرتى الغربية والمنوفية ومديرية البحيرة^(١) . وبذلك اشترك الفلاحون فى بناء هذه المواقع وحفر الخنادق أمام الخطوط الدفاعية ، ويذكر محمد شكرى باشا وكيل عموم الاستحكامات « حضر الفلاحون فوزعهم محمود باشا فهمى للشغل على طول الخط وعلى بعد نحو ١٠٠٠ متر من كنج عثمان ، ورأيته وهو يقسم مزاغل البيادة بيده ، ويعلمها للمهندسين والفلاحين والضباط حتى صاروا يجرونها من أنفسهم »^(٢) .

وكانت تتم عملية تغيير وتبديل للفلاحين العاملين نظراً لهذا المجهود الشاق الذى يتحملونه من ناحية ، وحتى يراعوا زراعتهم من ناحية أخرى ، فيكتب عرابى إلى مديرية الغربية يقول « حيث مقتضى تغيير الأنفار الموجودين بأشغال الاستحكامات من المديرية بأنفار خلافهم ، فينبه بإرسال أنفار بقدر المخصص على المديرية بالمقاطف والفئوس إلى كفر الدوار »^(٣) ، ولم يكن عملهم مقصوراً على الميدان الغربى فقط ، إنما ساهموا أيضاً بعملهم فى الميدان الشرقى ، وزادت أعدادهم عن المطلوب ، وعملوا بروح عالية إذ « كانوا يتنافسون فى بناء تلك الحصون والمتارس والاستحكامات »^(٤) ، ويصفهم شاهد عيان « كانوا ينامون فى مثل تلك الأحوال فى مكان عملهم بالليل على الأرض يلتحفون ببطانية واحدة على الأكثر لوقاية أنفسهم »^(٥) ، وتمرضوا للإبادة التى شنتها القوات البريطانية على المصريين فى الميدان الشرقى ، لكن بعد أن قاموا بدورهم خير قيام وبقيت أسماؤهم مجهولة .

هكذا أيد الفلاحون الثورة واشتركوا فيها ، وأسهموا فى المعركة مساهمة فعليه بكل قواهم المادية والمعنوية ، وكانوا على استعداد للمضى فى الحرب والمزيد من التضحيات ، ولكن الظروف كانت أقوى ، فلم تحقق لهم ما أرادوا ، ولم تعط مصر النصر المأمول .



(١) أحمد عرابى ، مذكرات ، ج ٢ ، ص ٣٢٤ .

(٢) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٧٩ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٣ .

(٤) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ١٧٤ .

(٥) فارمان ، المرجع المذكور ، ص ٣١٦ .

الفصل الثاني عشر

التجار والحرفيون

١٢... نمو الوعي

ساء وضع التجار والحرفيين وتعرضوا لظروف غاية فى القسوة من زيادة ضرائب بدون قاعدة وغير حدود ومن سيطرة أجنبية ومن ذل فرضته الحالة المالية التى هزت الكيان المصرى ، وانقلبت الوداعة التى اتصف بها المصريون والطبيعة الهادئة التى كانت من سميتهم إلى إحساس عميق، بالنير ، خلق شعور الثورة لتفجر الكراهية التى ملأت القلوب ، وشملت قوى مصر ، فحتى أرفع درجة من التجار كانت تعاني من الحصول على العدالة(*) ، أما فقراء الطبقة الدنيا من الحمالين والنوتية والحوذية والخدم فقد طفق بهم الكيل وأصبحوا يطرقون الأبواب ، بادياً عليهم اليأس ، منتشرين فى الشوارع ، خاضعين لظلم القوى الغامضة لكنهم بدءوا يعبرون عما يجيش فى صدورهم ، بل وضجوا لتسمع أصواتهم وهم ثائرون ، وغدت معنوياتهم مهيأة وعلى استعداد للمشاركة فى أى عمل يمكن له أن يقضى على تلك المعاناة التى يعيشها المجتمع المصرى منذ فترة طويلة .

وجاء تصدى العسكريين للقيادة الثورية فى قصر النيل لتسانده قوى مصر ، وليأتى دور الصحافة لكى تزيد الوعي نضوجاً وتوضح ما غفل ، وتصور دقائق ما تعانيه الأمة ، وتفتح الأذهان لضرورة التغيير ، وتذكى روح التمرد على الأوضاع والإنضمام للثورة ، وتهاجم متناقضات المجتمع ومساوئه وما يتحمله الاقتصاد المصرى وما يعانيه التجار والحرفيون ، فخرجت منهما الصيحات لتعطى تلك القوة للتقدم والاندماج الكلى فى الثورة .

ويعيش النديم داخل التجار ليعرض على الصفحات كساد التجارة الوطنية وسوء حالة التجار « إنى كنت من التجار المعتبرين ومكثت مدة من الزمان معزراً بين

Milner , op. cit., p. 45 .

(*)

الأخوان مشهوراً بالصدقة والأمانة والعفة والصيانة وغير خاف عليك ما آل أمر تجارتنا إليه من الكساد لعدم إقدام الأهالي على بضاعتنا وميلهم إلى تموينيات الغير، حتى أصبحت تجارتنا اسماً بلا جسم ولم يبق لها عين ولا رسم ، فبعد أن كان رأس مالي نحو عشرة آلاف جنيه لم يبق إلا نحو خمسمائة جنيه ^(١) . ودائماً وأبداً يكون السبب سيطرة التجار الأجانب « فنرى في البلد ثلاثين دكاناً من الوطنيين يقضون النهار يسبحون ويهللون وبعضهم يفتح المصحف صباحاً فلا يشغله عنه شاغل حتى يناديه مؤذن الظهر ثم ينام فلا يوقظه إلا مؤذن العصر ، ثم يجلس يصلى على النبي ﷺ حتى يوافيه الغروب ، وترى دكاناً واحداً لبقال فيه جميع أصناف البقالة والعطارة حتى بهرجان العروسة ، وصاحبه طول النهار على قدمه وزن ويربط ويلف ويقبض ، والناس في ازدحام على بابهِ والكل يناديه شهنى يا خواجا . »

ويثير النديم التجار ويدفعهم للقضاء على ذلك الوضع الذى أوجدتهم فيه ظروف مصر ، ويندد بمنفعة الأجنبي « لكم أن تفيقوا من هذه السكره التى حولت ثروتكم إلى الغريب ... من منكم يمكنه فتح دكان فى بلاد الإنجليز وهى لا تمكن الغريب من ذلك ، من منكم يرى فئة مصرية فى جمرك باريس تتلقى البضاعة المصرية كما نجد الألوف من الأجانب تتلقى الملايين من الطرود الواردة من بلادهم ... ما الذى بقى فى أيدينا من التجارة ؟ » ^(٢) .

إذن لابد من محاربة الرأسمالية الأجنبية الخاصة بالمشروعات التجارية التى سيطرت على اقتصاد مصر وأضررت بالتجار الذين ثاروا عليها ، ولم تكن صحيفة النديم وحدها فى ذلك الميدان ، فنرى صحيفة الفسطاط تسير على وتيرتها فتحرك التجار المصريين بهجومها على الأجانب الذين سلبوهم « إنهم يأكلون خيرنا ولا يدفعون على تجارتهم ولا على أملاكهم ولا على أنفسهم ولا على منازلهم ولا على طرقهم المستقيمة ذات الغاز ولا على دوابهم » ^(٣) . ومن هنا يعبأ الشعور القومى للتجار وبيدعون فى التنفيذ الثورى .

وتتم عملية الإعداد الثورى للحرفيين على يد الصحافة ، فيوضح النديم وضع طائفة المعمار « تعطى المقاوله بالمنافسة ويطلب من العامل تأميناً وضامناً غارماً ولا يصرف له شئ مقدماً فيبتدئ المسكين يبيع مصاغ زوجته وحليها وأمتعة

(١) التكيث والتبكيث ، عدد ٧ فى ٢٤ يوليو ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، عدد ١١ فى ٢١ أغسطس ١٨٨١ .

(٣) الفسطاط ، عدد ١١ فى ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

بيته ، وإذا انتهى العمل يقال له هذا العمل مغاير لما فى الشروط ، فإن الحجر أحرق والبلاط معصرانى والقصر ملء كله تراب والهيصم مرمى والجير قليل وقلب البناية فارغ والبياض قشرة واحدة والجبس بارد والسلم قائم والسقف واط والجدار ناقص وسمك الحائط ناقص عشرة سنتيمتر ... ويخرج من العمل بخراب بيته وذرة ديونه « ويمضى ليوضح » بينما لو تقاضى أجنبى عمل بمائة جنيه يأخذ مائتين وخمسين « (١) .

ويعطى النديم الصناعة أهميتها فى بناء الدولة « لا دولة إلا بالرجال ولا رجال إلا بالمال ولا مال إلا بتقدم الصناعة والفلاحة » ، وينبه الصناع إلى خلق نظام أشبه بالنقابات « يسعى فى عقد جمعية لكل طائفة تحت رئاسة عقلائها ، فإذا طرأ عليهم عمل من الأعمال كان أمره مفوضاً لمجلس الرؤساء من الطائفة يساوم من يشاء ويأخذ ما يشاء ، ثم يوزع فيه من العمال بقدر ما يحتمله وعندما يطرأ غيره يوزع فيه من لم يكن فى الأول » ، ويرى تكوين صندوق دعم ، تكون أمواله موزعة بأسهم على الصناع ولهم نصيبهم فى الأرباح ، وضرورة تقديم المساعدات لهم عن طريق الرأسماليين سواء كانت مالية أو فكرية بواسطة « تفهيمهم ما يقرأونه فى الجرائد من تقدم صناع أوروبا واجتهادهم فى زيادة الثروة ومقدار ما وصلوا إليه بحسن التدبير والإتفاق لنبعث فيهم الفيرة والحمية » (٢) .

وعن إعادة مجد الصناعة المصرية وانتشال الصناع مما حاق بهم خرجت نداءات النديم بإقامة المصانع بتلك الأموال التى تنفق على « الشراب وتعاطى المخدرات والقمار والمتغزلين بهاتكات الحجاب وأصحاب الشفغ بالفلمن وغيرها من آفات المجتمع ، والاستفادة باستخدام الأيدى العاملة المعطلة أو الأجيعة للأجانب » . كما هاجم الأجانب الذين يستحضرون أبناء جنسهم « ولا يستعمل الوطنى إلا فى نزع الكيف أو حمل الزبالة » ، ويشير إلى انهيار الحرف الوطنية بناء على اشتغال الأجانب بها ، فيقول على لسان أحد الخياطين « إنى كنت خياطاً أيام كانت هذه الصناعة رابحة فى بلادنا وكنت فى نعمة بالنسبة لأشغالى ، ولا يخافك ما آل إليه أمر هذه الصناعة من الكساد بعدم استعمال الملابس الوطنية حتى عدت بالكلية ، وعدم معها كار العقادين والقصبية والكزا والفرا وغير ذلك مما كانت تدعو إليه الخياطة ، فلحق بالخياطين الفقر وانفاقه ما لا يحتاج لدليل حتى اشتغل بعضهم فى التراب وبعضهم فى الحدادة وبعضهم لا يجد القوت ، فلما رأيت الأمر

(١) التكتيت والتبكتيت ، عند ٢ فى ١٩ يونيو ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه .

كذلك وصرت لا أقدر على دفع أجرة الدكان تركته وصرت حائراً لا أدري ماذا أصنع لعدم معرفتي غير صنعتي ، والسبب أن حرفة الخياطة تحولت إلى أيدي « الأسطى الأفرنكية »^(١) ، لذا سيساهم الخياطون بنشاط كبير أثناء الثورة .

ويؤيد النديم نزعة الكراهية للأغنياء ويثير طبقة الحرفيين « أين البنائون والنجارون والحدادون والبرادون والخراطون والمبلطون والمبيضون والحجارون والرمالون والمنجدون والخياطون والعقادون والقصابون والقزازون والفزالون والنحاتون والطحانون والسبكية والخرازون والصباغون والصائغون والحريرون والفوطية والنحاسون والقفاصون والفخارية وغيرهم ممن لم يدخلوا تحت حصر ، أين أهل الطوائف والمهن ؟ تالله أنهم في أماكنهم بين أغنياء لم تنزل عليهم صاعقة ولا خفست بهم أرض ولا جهلوا الصنعة ولا قصروا في الخدمة ، وإنما سلط عليهم الأغنياء فحاربوهم بسهام مسمومة حتى ماتوا ، فقد تركوهم يتكففون الأبواب ويلتمسون الإحسان »^(٢) ، وبذلك أصبح الحرفيون مهينين ومعدنين لرفع لواء الثورة .

ويطالب النديم بتطبيق « مصر للمصريين » بإيجاد الالتحام بين قوى المجتمع من أجل سعادته وحرية واستقلاله « لا تلبس إلا من صنعة بلادك ، أو ما كان من غرسها أو أصواف وأوبار حيوانها ، مشغولاً بمعرفة الوطنى محيكاً بيده مبيعاً في دكانه لتحفظ ثروة البلاد وتزيد من عمرانها »^(٣) .

وتابعت الدعاية الثورية موقف النديم ، فسارت على نفس الطريق فكان ذلك بلا شك الوقود الذى أشعلت به الثورة ، وقد ظهرت أصداء الروح الصناعية بتأسيس « الجمعية الصناعية المصرية » بهدف إنماء الصناعات المصرية كالطرايش والأثاث ، وساهمت صحيفة الطائف في توزيع أسهمها وأوردت أسماء المشتركين ، وكانت قيمة السهم خمسة جنيهات ، ووصل عدد المشتركين فيها إلى ٦٤ اسماً ، اشترك فيها النديم بأربعة أسهم والباقي أفندية وبهوات^(٤) .

وأعطت الصحافة الراحة النفسية للصناع وشجعتهم وأثبتت قدرتهم الفائقة على التقدم والرقى « فعلى جلت وعمله لمنبر سيدى العارف السيد أحمد البدوى

(١) المصدر نفسه ، عدد ٣ فى ٢٦ يونيو ١٨٨١ ، عدد ١١ فى ٢١ أغسطس ١٨٨١ ، عدد ٨ فى ٢١

يوليو ١٨٨١ ، عدد ٧ فى ٢٤ يوليو ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، عدد ١١ فى ٢١ أغسطس ١٨٨١ .

(٣) المصدر نفسه ، عدد ١٤ فى ١٨ سبتمبر ١٨٨١ .

(٤) المحروسة ، عدد ١٠٦٩ فى فبراير ١٨٨٢ .

حيث جعله بوضع متقن واختراع محكم لم يسبق له مثيل ، إذ أتى على صورة تذهل العقول وترتبك فيها الأفكار ، إذ أنه خال من المسامير بالكلية مع كونه قطعاً دقيقة من خشب وبه رسومات ونقوشات ، ومع ذلك فإننا نرى هذا الصانع العجيب لا يمتلك قوته الضرورى لمعاشه « ، وتمضى صحيفة المفيد فى ذكر نماذج المخترعين من الصناع المصريين المهرة التى طحنتهم الظروف ، هذا فى الوقت الذى نبهت فيه أصحاب المهن بأنه حان الوقت لاسترداد مكانتهم والحصول على حقوقهم . كذلك كان لدور الجمعيات وعلى رأسها الجمعية الخيرية الإسلامية فى توعية الصناع بدراسة الحساب والهندسة^(١) ، ودور أيضاً فى اليقظة ، وبذلك يتضح أن الثورة قامت من أجل النهوض ببركائز المجتمع وقد نجحت صحافتها فى إنماء الوعى وتوير الطريق للتجار والحرفيين .

بداية التطبيق الثورى

بدأ الكفاح بالتمرد على الأوضاع وطلب استرداد الحقوق والمستحقات ، فتصبب الشكوى على إهمال الثغور التجارية كدمياط ورشيد والسويس ، وأن ذلك ساعد على كساد التجارة ، ونرى التجار يتضررون ويرفعون أصواتهم « للمطالبة بإصلاح حال البوغاز الخاص بدمياط ، ويقترحون فتح ترعة من بورسعيد تتصل بالنيل بالقرب من جهة بوغاز دمياط لمرور المراكب ، وذلك لتفادى خسائرهم وانضباط حركة التجارة »^(٢) .

وعرف الحرفيون حقوقهم وطالبوا بها بجرأة متناهية ، فعندما زار ولى عهد النمسا الفيوم طلب من ملتزمى أسماك البحيرة إحضار ١٣ مركباً من المراكب المعدة لصيد الأسماك لخدمة الأمير بما عليها من عاملين ، يطلبون التعويض عن تلك الفترة التى تعطلت فيها أشغالهم وسخروا لهذا العمل . وفى الإسكندرية يعترض الصيادون على قرار رئيس الميناء الغربية بالإسكندرية - وهو أجنبى - بمنع الصيد فى هذا الميناء ويصرون على حقهم فى الصيد فيه^(٣) .

وتقوم المعارضة ضد الضرائب التى تجبى من الحرفيين ، فيرسل أفراد طائفة الحلاقين إلى المسئولين « إنه قبل الآن كان قد تكرر من الصحة أن كل من أراد الدخول فى هذه الطائفة يصير امتحانه ويؤخذ شهادة بيده ، ويدفع عوايد على ذلك أول مرة فقط ، ومن وقتها للآن وهو جارى تكلفنا بدفع عائد سنوى خلاف الويركو

(١) المفيد ، عدد ٤٤ فى ٣ مارس ١٨٨٢ ، عدد ٥٥ فى ١١ مايو ١٨٨٢ .

(٢) محفوظات الداخلية ، محفظة ٣٦ ، ٢ أبريل ١٨٨١ .

(٣) المصدر نفسه ، ١٢ مارس ١٨٨١ ، محفظة ٣٧ ، ١٣ يونيو ١٨٨١ .

المرتب علينا ، ونحن فقراء الحال ، وتكليفنا بدفع عوايد مرتين في السنة للدائرة البدلية ومرة للصحة لا يرضى عدل دولتكم ، كذلك نرى طائفة الماعونجية بالسكة الحديد بالإسكندرية تتضرر من « العوايد الجارية دفعها سنوياً ، وكانت البرقيات تصل تباعاً من « أرباب الكارات ، للشكوى من أحوالهم وخاصة « مسألة الصلح ، إذ يطالبهم المعاؤون « بدفع أثمانه وضربهم بالكرباج »^(١) .

إذن الإحساس بأن العدالة في الطريق إلى مصر جعلهم يلجأون لشرح أحوالهم ، وما هو منغص لحياتهم ، فهم الفئة العاملة الكادحة المظلومة ، لكن كان الإحساس ببداية الطريق الثوري نقطة انطلاق لهم .

ومع نظارة الثورة الأولى وبداية قوة اليد المصرية على الأجانب ، وجد التجار تنفساً لذلك ، فقد وقفت أمام التجار الأجانب الذين اعتمدوا على تهريب البضائع والتهرب من الضرائب « تم ضبط أرز تعلق الخواجة يوسف فرمون بيندر طنطا من غير دفع عوايد دخولية عليه » ، ورفعت عليه قضية أحييت على مجلس طنطا . وبذلك وضع بداية البرنامج الثوري في الحد من تهريب الأجانب ، وفتحت النظارة صدرها للشاكين ممن أصابهم الضرر على أيدي هؤلاء المهربين الذين كانوا يمارسون التعدي على من يقف في سبيلهم بالضرب الذي سبب المعاهات ، فشكى أصحابها لحكومة الثورة لإنصافهم « تشكيت مراراً فلم يسمع أحد مني ، وحيث إن العدالة لا تجيز ذلك ، والحكومة لا يوافق برأيها إطعام حقى للفرنساوية وعدم سماع شكوى غير جائز ، فالآن تقدمت راجياً إجراء ما يلزم بمعرفة الحكومة »^(٢) ، وحقق في الأمر .

وكان وجود مجلس النواب عاملاً قوياً للإحساس بأن هناك من يتكلم باسمهم ويقصى عنهم الجور الذي خضعوا إليه ، فارتاحت نفسياتهم ورفعوا إليه أحوالهم وما يقاسونه أملاً في الإنصاف ، ففي تقرير عرض على المجلس من إبراهيم أحمد الحصرى رئيس طائفة التمجعية بالقاهرة في شأن الويركو الراغب تعديله مع ربطه على الأجانب أرباب الصناعات ، وقد أحال المجلس هذا الأمر للمالية للبت فيه ، وطلب منه ١٧ حرفياً من طائفة الحباله تعديل ويركو طائفتهم بمعرفة شيخ طائفة القفاصين ، كما تظلم القبانية والعتالون المشتغلون بمصلحة أوزان الفحومات بالإسكندرية من أوضاعهم ويطالبون بضرورة تحسينها^(٣) .

(١) المصدر نفسه ، ٦ يونيو ١٨٨١ ، محفظة ٢٨ ، ١٥ يوليو ١٨٨١ ، محفظة ٢٩ ، ٢١ نوفمبر ١٨٨١ ، المصلح هو الملح .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٢٨ ، ١٦ أكتوبر ١٨٨١ ، محفظة ٢٩ ، ٥ يناير ١٨٨٢ .

(٣) النوقائع المصرية ، عدد ١٢٨٨ في ٢٠ أبريل ١٨٨٢ ، جريدة ٢٥ مارس ١٨٨٢ .

وفتح المجلس صدره لكل ملتجئ إليه ، وكان التأكد من العدل على يد الثورة قد أعطى المزيد من الحرية ، تلك التى يتوق إليها كل مصرى ، وأن له الحق فى الحياة دون منافسة ودون أن تسرق من فمه لقمة عيشه ، ففى مذكرة قدمت للمجلس من ٦٢ فرداً من طائفة سائقى عربات الركوب بشأن « شركات العربات المؤسسة بمعرفة الأوربيين بالإسكندرية ، الذين أسسوا قومبانية عربات للركوب فى الشوارع تحمل العربة ٢٠ شخصاً أو أكثر ، وبهذه الحالة توقف حال هذه الطائفة وتأخرت عن سداد عوايد الميرى المربوطة عليهم وعلى العربات والمواشى ، ولفقرهم واقتراضهم أثمان المواشى والعربات ، وعدم وجود حرفة لهم خلاف ذلك ، يلتمسون النظر بإرجاع هؤلاء التجار عن مقاصدهم الموجبة لاضمحلال الوطنيين والتزامهم مشترى عربات العريجية المذكورين وخيولهم ، ليسعوا على معاشهم فى مهنة أخرى » وتمضى المذكرة فى سبب الأجانب وبيان أهدافهم من أضعاف المصريين « إنه لم يحصل منهم الاكتفاء بما تكسبوه من التجارة وغيرها من البنوك ولا يصح حرماننا من تعيشنا ، وتمتع الأجانب غير المحتاجين لإدارة تلك القومبانية » ثم تبين « أنه لو توجه أحد المصريين إلى بلاد أوربا ، وأراد الإقامة هناك والتعيش بأى شكل كان ، فإنه لا يمكنه ذلك مطلقاً » (١) .

وبعد ذلك ثورة على الأوضاع ، وتبلوراً لوعى كامل ، يرى ضرورة الإطاحة بالمستغلين غير المصريين وتطبيق شعار مصر للمصريين ، وقد رأى المجلس تحويل تلك المذكرة على المالية التى رفعتها للداخلية لإنصاف هؤلاء المظلومين .

لم يكن الإنصاف يتم إلا بالحد من نشاطات المفسدين ، فنرى حكومة الثورة تصدر تعليماتها إلى الضبطيات بمنع الخمر ، وبالرغم من ذلك ، يفيد شيخ البقالين أنها توجد فى « الأزبكية والفجالة وحاترات الروم » (٢) ، ومن هنا دعت الصحافة أن من يسء للقانون من الأجانب يعاقب ، فيتقول صحيفة المفيد « إن جماعة من اليونانيين وقفوا فى طريق الوابور بالزقازيق ونبه عليهم أوسطة الوابور ثلاث مرات بإخلاء الطريق ولم يمتثلوا ولو ساق الوابور وداسهم لا نؤم عليه » (٣) .

ومع أن الأجانب لم يمتثلوا لإجراءات الثورة كلية فإنه تم ردعهم بعض الشيء ، فقد حدث أن تشاجر « أحد التليانيين مع بعض الحمارين فى شارع كلوت بك ،

(١) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٣ ، ٢٦ أبريل ١٨٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٤٢ ، ١٦ مايو ١٨٨٢ .

(٣) المفيد ، عدد ٤٤ فى ٢٣ مارس ١٨٨٢ .

فأطلق الأول على الثاني وجهًا ناريًا من طبنجة مسدسه ^(١) ، وعلى الفور أرسل هذا الأجنبي إلى قنصليته لتحاكمه ولم يترك شأنه . كذلك أوقفت الحكومة التجار الأجانب الذين يقومون بإدخال الشحومات الخاصة بالخنزير ويخلطونها بالسمن على أوسع نطاق من الغش ^(٢) ، وأعطت إجراءات الحكومة الأمل للتجار والحرفيين في إمكانية إصلاح حالهم وإنقاذهم على يد الثورة ، فلما لا يؤيدونها ويعملون بكل طاقاتهم من أجلها .

أضف إلى ذلك ما ربط بينهم كبقية قوى مصر وبين زعيم الثورة ، فقد ارتفع نصيبه من حب الشعب له لدرجة لم يصل إليها زعيم في تاريخ مصر ، وخاصة القوى العاملة المضطهدة المطحونة التي كانت تتوق لقيادة تسير خلفها من أجل الحرية والإخاء والمساواة .

عدَّ عرابي المنقذ لتلك الجموع « فكانوا إذا رأوا جماعة يهرولون في الطريق قالوا إنهم ذاهبون بدعوة من أحمد عرابي ، أو شاهدوا ازدحاماً على حانوت قالوا إنه بإشارة منه لسر لا يعلمه إلا هو والمقريون إليه ، أو سمعوا مؤذناً ينادى حى على الفلاح قالوا إنما هو يدعو الناس إلى التعاون والتعاقد ، أو سمعوا امرأة تولول على صبي ضل اسمه أحمد قالوا إنما هى تستغيث بأحمد عرابي بك لدفع مظلمتها وكشف غمتها ، وعم هذا الخلط جميع المدن والبلاد » ^(٣) ، وكان ذلك شيئاً طبيعياً بعد الضيق والكرب الذى سيطر على المصريين ، فعندما تكون هناك بادرة أمل وبداية عمل ثورى على يد مصرية ، فيصير التأييد تاماً وشاملاً ، فقد اعتبر عرابي ذلك المصرى العربى هو المحرر والمنقذ والمخلص ، ولم يكن المصريون إلا باحثون عن الحرية بالطرق العادلة .

دور التجار

شكل التجار وخاصة البورجوازيين منهم ثقلًا في الميدان الثورى ومنذ البداية أحس عرابي بما لهم من أهمية فى عملية الكفاح التى تزعمها حتى أننا نجده يختار تاجرًا من تجار الإسكندرية ليكون الوكيل لجريدة الثورة الثانية « المفيد » ، وهو حسن أفندى القماش ^(٤) . وبدأ التجار الذين لهم كياناتهم فى المجتمع ينضمون إلى

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٦٧ فى ٢٦ مارس ١٨٨٢ .

(٢) الإسكندرية ، عدد ٦١ فى ٥ سبتمبر ١٨٨١ .

(٣) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٢٦٠ .

(٤) المفيد ، عدد ٣٥ فى ٢٠ فبراير ١٨٨٢ .

موكب الثورة ، وهؤلاء الذين عانوا من ضريات الحكومة السابقة ، فقد أصدرت قرارها بمعاقبة أمين بك الشمسى سر تجار الزقازيق ، وذلك بناء على حكم مجلس المنصورة المحلى بالسجن ثلاث سنوات مع بعض العمى والمشايخ ، والسبب هو الشكوى من مدير الشرقية الذى كان ملكاً غير متوج فى منطقتة ، ومع بداية الثورة نجدهم يطلبون العفو ، فيجابون إلى طلبهم^(١) ، ليبدءوا المسيرة الثورية .

لم يكن هؤلاء وحدهم الذين تعرضوا للسجن والظلم ، فعلى سبيل المثال نرى أن تجار بندر سمند يعرضون مذكرة تتضمن « أن مأمور الضبطية التابع لهم قد قبض على أحد زملائهم التجار الاعتباريين المستقيمين المحافظين على الهدوء والراحة ، وكذلك سجن ابنه ، ومعروف أن سيرة هذا المأمور غير حميدة ولا مستقيمة »^(٢) .

هكذا وبدون أسباب تعرض التجار للظلم وعانوا منه ، فالتمسوا النجاة على يد المبعوث الجديد ، وأحسوا بذلك النصر الذى حصلت عليه الأمة عقب التاسع من سبتمبر ، فكانوا يهتفون بعضهم بعضاً ، ويقهرون الحنلات والنوائم ابتهاجاً بزوال دولة الظلم ، وعلى سبيل المثال فقد ساهم مصطفى عنانى ، ذلك التاجر الثرى فى هذه الاحتفالات وكرم العسكرين أصحاب الانتصار فى حفلة الأزيكية ، واستمر نشاطه مع غيره من التجار فى تلك الحفاوة التى ظهرت فى توديع قواد الثورة إلى معسكراتهم عقب تشكيل نظارة الثورة الأولى .

واتسع نشاط التجار من خلال ممارستهم للحياة النيابية فى مجلس النواب ، فكان لهم الصوت المسموع والاقتراح المقبول ، وساهموا بحركة واسعة من أجل خدمة الاقتصاد المصرى فى ميدان التجارة ، لكن لم تلق المحاولات التى بذلت من أجل توجيه الرأسمالية لهذا الميدان التعضيد الكامل .

ويتطور الأحداث السياسية ، كان للتجار دورهم فى رفض مضادات الثورة ، فيذهب وفد منهم للخديو طالباً رفض المذكرة المشتركة وعودة عرابى^(٣) ، وعندما أجبر توفيق بناء على رغبة قوى الأمة إعادة عرابى ، يسعد التجار ويبعثون للزعيم البرقيات الفياضة بالشعور الجارف للتهنئة من الأعماق للمسيرة الثورية^(٤) .

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٠٢٩ فى ١٦ فبراير ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، عدد ١١٥٤ فى ٣ يوليو ١٨٨١ .

The Times, May 5, 1882 .

(٣)

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٤ .

ومن المعروف أنه بمجرد تولى شريف النظارة أعيد من كان منفياً وأخرج من كان مسجوناً ، ومن بين من استصدر إليهم قرار العفو التاجر الرأسمالي الثرى حسن موسى العقاد ليعود وليرفع صوته لنصرة عرابي .

وفي حقيقة الأمر ، فإن موقف هذا التاجر لم يكن واضح تمام الوضع ، فقد عرفناه مناضلاً قبل الثورة ومعارضاً لأفكار الحكومة وتصرفات القائمين عليها ، لكنه ثبت أنه على علاقة بالأمير حليم الذي كان يسعى لعرش مصر ، ومن هنا حمل الرغبة في إحلال حليم مكان توفيق ، وقد أتهم بوجود مبالغ لديه سواء من عثمان فوزى أو الأميرة زينب ، وكلاهما ذو صلة وثيقة بالأمير حليم ، وتبين من البنك العثماني أنه مودع له بواسطة مبالغ عشرة آلاف ليرة ، ١٢٥٤٣ فرنكاً تحت تصرفه من أجل استخدامهما في الإعداد لذلك ، ويسؤاله أبان أن الغرض مشتري أوراق بونات من لندن ، وأنه اشترى من عثمان فوزى كمبيالات بمبلغ عشرة آلاف جنيه على لندن ، واعترض على تدخل لجنة التحقيق في أشغاله الخصوصية « فإن غنى عائلتنا معلوم من قديم الزمن ، ولا سيما أنى وضعت يدي منذ ست عشرة سنة على تركة المرحوم موسى بك العقاد التي يبلغ مقدارها ما ينوف عن مائة ألف جنيه خلاف الأملاك والأطيان وإيراداتها » (١) .

والواقع أن العقاد من البورجوازية المدعومة بالثراء والنفوذ ، وله معاملاته التجارية الضخمة داخل مصر وخارجها ، ولم يكن في حاجة إلى المزيد من هذا الثراء ، فعلى سبيل المثال فقد صدر له مضبطة من مجلس التجار على من يدعى « مصطفى أفندي الحكيم » بمبلغ له اعتباره ، ولكنه مات وضاعت حقوق العقاد ولم ينفذ قرار مضبطة المجلس (٢) ، إذن فلم يدفعه المال للإنخراط في الثورة ، ولم يكن سعيه لإسقاط توفيق وإحلال حليم ليقلل من وطنيته الجارفة ولا من مكانته ، إذ أعطى الثورة الأموال التي احتاجت إليها ، وكان ككل مصري يريد أن يتخلص من الحاكم وحكومته المتسلطة على رقاب المصريين ، ومن الأجانب المتحكمين ، حتى ولو بتغيير الحاكم بآخر كان يوعد بتخليص مصر مما حاق بها ، وقد تعذب وشرد ونفى في سبيل مبادئه ، لدرجة أنه طلب الحماية الفرنسية من أجل التحرر والمزيد من الانطلاق .

كان للعقاد تأثير قوى على التجار عامة ، وفي نفس الوقت له وزنه لدى قيادة الثورة ، وخاصة عرابي الذي عول عليه كثيراً ، حيث كانت اجتماعات عرابي جميعها

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١/١٢٣ .

(٢) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٣ ، ٣٠ يونيو ١٨٨٢ .

لا تخلو من وجوده ، وقد أظهرت الأوراق التي عثر عليها في منزله على مبادئ وطنية حقة ، فمنها ما هو منشورات تتضمن الطعن في سياسة إسماعيل وأثرها السيئ الذي تركته في مصر ، كما وجدت خمسة كتيبات معنونة « قال صلى الله عليه وسلم الجنة تحت ضلال السيوف » وفيها من الإتجاهات المتعددة ، فهي تعرض غفلة المصريين عن حقوقهم واستبداد الحاكم ، والأجانب التي امتدت أيديهم في أحشاء مصر « حتى صار حكمदार عموم السودان إنجليزياً ، والتوسل والاستشفاع للحاكم المسلم برعاع اليهود وأسافل النصارى ، الذين استولوا على أحسن المراكز برواتب باهظة تجمع من قوت الرعية ، وأباحوا لنساء الأمة ما تبيحه العادات الأفرنجية ، وقوانينهم من الحضور في مجامع الرجال ومواكبهم ... وأن مصر أمكنها تأليف حزب وطني رغم أنف الخواجة جمبتا والخواجة جلاستون العدوين الألدن لملة الإسلام ، ورغم أن أنف الذين ينبحون في جريدة الإيتالى التي تطبع في روما » وسطرت المنشورات المدح في عرابي « الشهم الهمام مشرع الحزب يجاهد بالقول والفعل على واجباته الوطنية » وحث المصريين على مواصلة الطريق الثوري ، ومن خلالها ذلك نجد الهجوم على الأجانب ومن استحضروهم^(١) .

وكذلك عثر بالأوراق التي ضببطت لدى طلبة عصمت على ما يخص العقاد منها ، وكلها حث ثوري لقوى الشعب على الأوضاع القائمة^(٢) ، لكن تبين موقفه تجاه حلیم من بعض أوراق له « بعد توقيف أوامر توفيق ونظاره لمخالفة الشرع والقانون من عموم الأمة من برنسات وذوات وعلماء وعمد وأعيان ورؤساء ملتي النصارى واليهود فقد سقط بطبيعته ، ومن المعلوم أن المسألة صارت غير مختصة بذات عرابي باشا بل هي مسألة عمومية ، بحيث لا يكون موجوداً بالقطر من هو راض عن توفيق بمناسبة انضمامه للإنجليز وجلب حريهم على المصريين ، فخديويته الهبلية صارت في علم كان ، وأنه مشاع أنه سيأتي عساكر عثمانية إلى مصر ومعها البرنس حلیم باشا ، على أن الظاهر بأنه إذا كان المقصود حضورهم لأجل رحيل الإنجليز فلا يمكن التسليم في ذلك بالتساهل »^(٣) . ولم يكن العقاد وحده المنادى بذلك ، فقد انتشرت على الأرض المصرية هذه الفكرة لما كان فيها من بعض الحقيقة خارج

مصر .

(١) محافظ الثورة المرابية ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٣/ج ، صحيفة الإيتالى هي الناطقة باسم

إسماعيل .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٧٦/ب .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٣/أ .

إذن عملية الخلاص من توفيق أصبحت وشيكة الحصول ، وكان العقاد على رأس الساعين في تختيم المحاضر الخاصة بعزل الخديو ، وعندما عقد عرابي اجتماعاً جمع فيه العلماء والأعيان وكبار التجار لكي يرفعوا طلبهم للسلطان بشأن استبدال الخديو بدون تعيين اسم البديل ، كان العقاد على رأس من ختموا ، وحين حضور المبعوث العثماني درويش باشا دعا العقاد التجار جميعهم وذهبوا لمقابلته ، وألقى الزهر تحت أقدامه ، فلم يكن أحد يعرف نياته الحقيقية سوى أنه مندوب للسلطان خليفة المسلمين .

وكانت علاقة العقاد مع بقية العناصر البورجوازية على درجة من القوة والتعاون ، فهناك صلة قوية بينه وبين حميد أبو ستيت ، ولعل السبب التعرض لنفس المظالم والتوافق في الأفكار ، ففي خطاب من الأول للثاني يشكره فيه على التبرعات التي قدمها للقوات المحاربة وتقديره لألفى متطوع^(١) ، وقد اعتمد عرابي على تلك القوة ، فكان كلما يحس باحتياجات الجيش يطلب من العقاد ، ففي ٥ أغسطس ١٨٨٢ يكتب عرابي إلى وكيل الجهادية يخبره بأنه بعث إلى العقاد لتوريد ألف ثوب بفترة^(٢) .

هذا بالإضافة إلى ما كان يقوم به العقاد من رفع المعنويات ، والإشادة بالوطنية، عن طريق إقامة الولائم والاحتفالات التي يدعو فيها قادة الثورة من عسكريين ومدنيين ، وفيها تمارس كل أنواع النشاطات الثورية ، وظهرت فيها الرغبة الأكيدة لتحرير مصر « كل أمة محكومة بجنسها إلا مصر فيلزم أهلها الإتحاد والتعاون حتى يحكمها أهلها وتصير في درجة الأمم المتقدمة »^(٣) . وبذلك كان العقاد عنصراً فعالاً في الثورة المصرية .

وشارك العقاد في وطنيته أمين الشمس ، الذي أسهم بثورته الجارفة في أعمال مجلس النواب ، وأيد قادة الثورة في كل قراراتهم ضد الخديو ، وعمل من أجل التأييد المعنوي عن طريق تلك الاستقبالات التي كان يقوم بها لرجال الثورة « وللمحاربين عند وصولهم للتل الكبير وينشرهم بالزود » ، وفي هذه الاجتماعات والاحتفالات حيث الخطب التي كانت أصداؤها تنشر الحماسة والتشجيع وتنتهي بالتهنئات ضد الخديو والدعاء « يعيش عرابي ورجال الجهادية » ، وأثناء وجود عرابي بكفر الدوار كان دائم التردد عليه ، ويعود ومعه الأخبار لليبافها

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/ب .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٧٩ ، الطائف ، عدد ٢٩ يونيو ١٨٨٢ .

لأبناء بلده بقوة الاستحكامات ، واستعداد القوات المحاربة وشجاعته ، ويمضى ليساهم فى عملية التختيم لإسقاط توفيق ، وعندما انتقلت القيادة إلى الميدان الشرقى ظل متردداً على جميع المواقع ، وبحكم أنه وكيل مشيخة نقابة الأشراف بالشرقية ، كان له النفوذ والسلطان ، فيجمع رؤساء ومشايخ الطرق للتأييد الروحي وإعطاء الحرب طابعاً دينياً ، وبيان أنها حرب مقدسة مفروضة على كل مسلم ، ويشجع أهالى الزقازيق على الاشتراك فى الدفاع عن أرض الوطن ، والمداومة على الحرب ، ويعلن أن السلطان غير راض عن توفيق ولهذا خلعه ، وأن الأمير حليم سيكون خليفة له . إذن فقد كان اتجاه الثوريين فى بعض الأحيان الرضا بحليم ، كذلك أصبح له دور فعال فى الحض على التبرع ، وبدأ بنفسه إذ أعطى المزيد من المساعدات سواء من الفواكه الخاصة بإنتاج أراضيه أو الأموال^(١) ، ومن هنا تتضح تلك الثورية التى تميز بها أمين الشمسى .

وكان أيضاً ممن تذكر لهم الثورة مواقفهم إبراهيم المويلحى وعبد السلام المويلحى تاجرا الحرير ، والأول كان على صلة وثيقة بعربى ، ويبلغه دائماً ما يحكيه أعداؤه ، وخاصة صحافتهم لوجوده خارج مصر ، ففى ٧ مايو ١٨٨٢ أرسل إليه يقول « الذين يكتبون فى سعادتك كل يوم بغاية التهور قد أرسلت لسعادتك نموذجاً ليكون فى علمكم ، وأسأل الله العظيم أن يعينكم على أعداء الله وينصركم نصراً عزيزاً » ويستشهد بالآيات القرآنية التى تدل على انتقام الله من أعداء الدين ، ويبلغه فى ٢٥ مايو أنه تقابل مع أحد العارفين بالسياسة فقال له : « إن هذه الأيام هى الفصل لقومك المصريين ، فإن التزم أولو الأمر بالثبات واستمسكوا بحقوقهم السياسية لا يزيدون عنها ولا ينقصونها ولا يبالون بالتهديدات تركية كانت أو أوربية ، فقد فازوا فوزاً عظيماً ، أسأل الله أن يتم بالنجاح المطلق »^(٢) . كما كان لعبد السلام المويلحى دوره منذ بداية الثورة ، فهو من بين الذين قدموا التعهد لشريف بإطاعة الجيش لأوامر الحكومة ، وعند تكوين لجان مجلس النواب ، تولى رئاسة لجنة المدن ، وأسهم فى تلك الاحتفالات التى أقيمت بمناسبة افتتاح المجلس ، ووجه نشاطه فى داخله للعناية بشئون التجارة والقائمين عليها ، وقد وضع مشروعاً لتأسيس بنك وطنى ، وطلب منه عربى تشكيل لجنة برئاسته لدراسة هذا المشروع ، حيث انصب الاهتمام على إنقاذ الاقتصاد المصرى .

(١) المصدر نفسه ، محفوظة ٩ ، دوسيه ٨٦ ، الوقائع المصرية ، عدد ١٤٧٢ فى ٢٠ أغسطس

١٨٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ، محفوظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د ٢ .

وقد كانت الاجتماعات التي شكلت لقاءات سياسية وطرحت فيها القضايا الوطنية يشارك فيها التجار ، وخاصة أصحاب المكانة ، « فأحمد أفندي الأرناؤطي رئيس تجار خان الخليلي لا ينفذ عن تلك الاجتماعات »^(١) ، كذلك كان للتجار المساهمين بأموالهم في الجمعيات الخيرية دور في المجال الاجتماعي سواء ما يختص بإنشاء مدارس تحقيقاً للمبادئ الثورية أو إعانة المهاجرين^(٢) .

أيضاً كلف رجال الثورة التجار بمهام في مناطقهم على أرض مصر كلها ، فوزعت عليهم مهمة التختيم ليقول الشعب كلمته في أكثر من موضوع سواء طلب رفض مذكرة الدوليين أم عودة عرابي وتوكيله الدفاع عن الأمة أم عزل توفيق ، وكانت الإسكندرية - حيث كون فيها التجار طبقة متميزة - تعقد فيها الاجتماعات « في منازل بعض الأفندية والبهوات وتجمع العطارين والتجار والفقهاء وأفندية من الأهالي ليسوا بمستخدمين يتناولون سياسة البلد » ، وقسمت مناطقها على التجار ، فهناك تاجر جاري التختيم على المحاضر بكم الشقافة ، وثاني من تجار سوق الترك يختم في منطقته ، وثالث في العطارين ، ورابع بحى الجمرك « وكان ذلك جهاراً في الشوارع »^(٣) . ولم تكن الإسكندرية فقط ، وإنما على أرض مصر كلها فمثلاً في المنيا عقد تجار البندر الاجتماعات وضموا إليها بقية الشرائح ليتناقشوا الأحداث^(٤) .

هذا بالإضافة إلى دور التجار كجهاز إعلامي للدعاية الثورية ، فعلى سبيل المثال نرى أبو العلا مبروك أحد تجار بندر أخميم التابع لجرجا كانت « وكالته باتجاه دكاكين أولاد الشاذلي وكان عند ورود جريدة الطائف يتجمعون معه على قارعة الطريق ويتولى تلاوتها وتفهيم الموجودين بما فيها ، وأنه عندما أرسل إليه قرار عزل عرابي كباقي التجار : استقبل الصورة المذكورة مسروراً قبل أن يطلع عليها ظناً منه أنها بشرى من رئيس العصاة ، ولما أجرى تلاوتها أجرى حذفها على الأرض من يده بشدة ، وتخلق وتكلم بما لا يليق ضد الحضرة الخديوية » ، وكان له نشاطه المتعدد ، فهو يكشف عن المناوئين للثورة ، ويبلغ الجهات المسئولة ، ويحض على التطوع لأهل بلده في قوات الدفاع ، ويتبرع بالفلال ، وقد اشترك مع أحمد عبد الغنى ومحمد

(١) تقارير وشهادات مقدمة من كبار المرظفين الوطنيين والأجانب إلى لجنة التحقيق ، تقرير ٧ ، ص ٢٨ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٠٢ في ٧ مايو ١٨٨٢ ، عدد ١٤٥٩ في ١٦ يوليو ١٨٨٢ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٠ .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٧ .

عبد الفنى وهما مدرسان بالأزهر فى التختيم على محضر توكيل عرابى وعزل الخديو ، وأخيراً فلم يكن منزله يخلو من المجالس الليلية والنهارية التى يجتمع فيها الكثير يتناولون سياسة الثورة وأغراضها^(١) .

وكانت تبرعات التجار تشكل جزءاً مهماً فى أساسيات الجيش ، إذ أن الإحساس والرغبة فى النصر قوية ، فعندما تصل البرقيات والأخبار التى تفيد بالانتصار ، تعم الفرحة الجميع ، وكان التجار يرددون « الله ينصرک يا عرابى باشا بجيش المؤمنين »^(٢) ، وامتلأت الصحف ومحافضة الثورة الخاصة بالتلفرافات بتبرعاتهم ، فالقماشون يقدمون طاقات الأقمشة والمقاطع ، وأصحاب المحلات يتبرعون بالحل ، وتجار الغورية بالبفتة الخام ، وتجار الأزهر يهدون الأقمشة والخيول ، حتى نساء التاجرات اشتركن فى التبرع ، وخارج القاهرة نرى سر تجار بندر شبين يتبرع بكميات وافرة من الفلال ، وسر تجار دمياط يقدم الخيل والأموال ، ويساهم تجار ميت غمر فى تقديم الكميات الوفيرة من البفتة ، وتجار رشيد تتعدد نوعيات ما أهدوه « للجيش الحامى » ويسارع تجار الزقازيق ويسيروا فى نفس الركاب ، ويتبعهم باقى تجار مدن مصر^(٣) .

وكان للبورجوازيين من التجار المساهمة الفعالة فى تلك المساعدات التى قدمت لمهاجرى الإسكندرية ، فقد « أخلى عنانى بك منزلاً وسرايتين ، وأعد ذلك لإقامة ٥٠٠ من المهاجرين ، وتكفل بحاجتهم وضروريات معاشهم ، ومحمود بك العطار أنزل منهم بمنزلة » وكان « إبراهيم وفا من تجار الجمالية يزورهم فى سراى قصر الشوق ، ويوزع عليهم ثلاثمائة ريال »^(٤) ، وبذلك يكون التجار قد قدموا جميع إمكاناتهم من أجل الثورة .

دور الحرفيين

كان الحرفيون على درجة من الوعى والتيقظ لأحداث مصر ، وقد أحبوا عرابى وشغفوا بذلك المصرى الذى سيخلصهم من ذلهم بعد أن ساءت أوضاعهم - وقد سرى هذا على عامة الشعب من الطبقة الدنيا - ويصور لنا شاهد عيان حالتهم

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٠ . (٢) المصدر نفسه ، محفظة ٤١ ، دوسيه ١ .
(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٥٨ فى ١٥ يوليو ١٨٨٢ ، عدد ١٤٧٥ فى ٢٧ أغسطس ، عدد ١٤٧٣ فى ٢٢ أغسطس ، عدد ١٤٧٢ فى ٢٠ أغسطس ١٨٨٢ ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢ ، دوسيه ٣٣ ، محفظة ٥ ، دوسيه ٧٦ .
(٤) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٥٨ فى ١٥ يوليو ١٨٨٢ ، عدد ١٤٦٣ فى ٢٣ يوليو ١٨٨٢ ، المفيد ، عدد ٢٦ يوليو ١٨٨٢ .

عقب التاسع من سبتمبر فيقول « تزايد تساؤلهم عما في صحف الأخبار وأكثرها من شرائها ، واضطر من لا يعرف القراءة من العامة إلى مصاحبة من يعرف القليل منها ، فكنّت تراهم في شوارع القاهرة ومصر القديمة جماعات ، وبينهم الرجل أو الصبي من صبيان المكاتب وهو يقرأ عليهم ترجمة لصاحب جريدة التيمس الإنجليزية أو لصاحب الديبا الفرنسية أو لغيرهما من صحف الأخبار الأجنبية ، وهم في ضجة وحوقله ، وعمّ هذا الحال السوق وأصحاب الحرف الدنيئة كالصبّاغين والزيتّين والحلاقين ، وقد رأيت يوماً صبياً في حانوت لرجل يبيع البقل ويبيده صحيفة من صحف الأخبار العربية ، وأمام الحانوت خلق من السوق وهم محدقون بالصبي وهو يقرأ عليهم ما نصه : (قد طلب الباب العالي من سفيرى الفرنسيين والإنجليز أن يعلماه مفصلاً بالسبب الحامل للدولتين على إرسال المركبتين الحريبتين إلى مدينة الإسكندرية ، فأجاباه بأنه ليس المقصود من إرسالهما إرغام رجال الوفد العثماني على سرعة الخروج من مصر كما أشاعه المرجفون ، وإنما المقصود هو وقاية رعايا الدولتين فقط ، فإذا سافر المبعوثان سافر المركبان أيضاً) فقهقه الجمع عند سماع هذا الكلام ، وهمز كل في أذن الآخر وصاح أحدهم قائلاً : وهلا ترى في هذه الورقة أيضاً أن الإنجليز والفرنسيين يتخوفون من تخلف كامل باشا السمين بالقاهرة بعد قيام الذين جاءوا معه من دار السلطنة ، وقد نادى أصحاب صحف أخبار الفرنسيين على قومهم بالحدز والإلتفات إلى ما عساه أن يحصل من بقاء الباشا المذكور ، فقلب الصحفي الصفحة يمنة ويسرة وتأمل فيها ، وقال صدقت يا عماء ومن الذى أعلمك بهذا الخبر ، فقال سمعت فلاناً الحلاق الساعة يقول إنه سمعه من أحد موظفى الدولة ^(١) . وبذلك يظهر جلياً الوعى الكامل والإدراك السياسى التام ، وبأن الثورة أصبحت سيّدة مصر .

وأسهّم الحرفيون كبقية قوى مصر فى المسيرة ، فنجد أنه من بين الوفود التى تكونت ومثلت مصر من أجل رفض المذكرة ، وطلب عودة عرابى كان هناك من ينوب عن الحرفيين ^(٢) ، وعندما حضر درويش باشا ، حملوا لواء المعارضة على اللائحة وعلى الأجانب ، فقد أحاطوا بعربته وأغلقتوا عليه الطريق فى شعبية قوية ومظاهرة عنيفة ، وكان منهم الحمّارون وماسحو الأحذية صائحين « نصرك الله دين الإسلام ، أهلك دين الكفار ، أتاكم الموت يا كفار ، أتاكم الموت بحرق النار » ملوحين بأيديهم هاتفين بسقوط الأجانب ، وتبعهم باقى الحرفيين كل شريحة على رأس متعهدتها ،

(١) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

The Times, May 29, 1882 .

(٢)

فمثلاً العاملون في وابورات الطحين يتقدمهم متعهدهم ، وقد سحب ذلك الدعاء بالنصر لعرابي والحزب الوطني^(١) ، وتذكر صحيفة الفسطاط عن هذا التجمع الشعبي « أن الناس جميعهم في الإسكندرية عند مقابلة وفد السلطان كانوا يهتفون : اللهم انصر سلطاننا ، اللهم أيد الحزب الوطني الحر ، اللهم أيد بسلطاننا فارسنا المقدام أحمد باشا عرابي ، لا نقبل لائحة الدولتين ، والدعاء على المحطات برفض اللائحة »^(٢) . فكان مظهراً ثورياً نابغاً من الأعماق .

ومما لا شك فيه أنه كان لثقفي الثورة دورهم في جذب الطبقة العاملة إلى الفلك الثوري ، ولا ننكر فضل النديم في إذكائه لروح الثورة بينهم ، فقد كانت لخطبه التي يلقيها في الساحات الشعبية الأثر الكبير في عملية الاحتواء الثوري ، وخصوصاً أنه كان يحس بهم ويعبر عما في صدورهم ، ومن هنا ازدادوا اشتعلاً ، وقد وضع ذلك في حادثة الإسكندرية وما تلاها من أحداث .

كانت تلك الطبقة العاملة تريد المتففس لها لتعبر عن سخطها ، فتقول صحيفة التيمز « عقب حادثة يونيو وسفر الخديوي ودرويش باشا ، تظاهر حوالى مائتين من العمال رافضين مهديين سابيين مشيرين بأيديهم ، وبذلك ازدادت سلوك وتصرفات الأهالي سفاهة »^(٣) . لقد كرهوا الخيانة في صورة هذا الحاكم ، في الوقت الذي انصبت فيه المساندة والتأييد والدعاء بالنصر لعرابي ، وبالرغم من أن المعسكر المضاد كان يحاول بكل طرقه القضاء على شعبية عرابي ، فإنه لم يستطع ومضت تزداد يوماً بعد يوم في نفس الوقت الذي تتأجج فيه الثورة ، « فقد حدث أن ثلاثة شيالين بمحطة بركة السبع كانوا يدعون بالنصر للسلطان وعساكر الإسلام وسعادة عرابي باشا ، حيث كانوا جارين الشغل ، فوكيل المحطة المدعو رزق الله أفندي ووكيل البوسطة المدعو الخواجة يوسف الشابي ضريوهم وأهانوهم ، ثم أحضروا جملة خواجهات أخرين ، وحرروا عرض في حقهم للمديرية بأنهم يتناولون بالسفاهة وسب الديانة ، وبناء عليه صار طلبهم بالمديرية في الحديد وسجنهم ، وعين إبراهيم أفندي اللقاني من مأموري قلم تفتيش الداخلية وأجرى التحقيق ، وتبين بالإضافة للدعاء أن هناك عدداً من الأجانب كان على رصيف المحطة ، فوقف أمامهم إبراهيم القرش وإبراهيم الصعيدى (شيالون برانى) وقالوا إن كل عشرة

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١١٩ .

(٢) الفسطاط ، عدد ٩ في ١٤ يونيو ١٨٨٢ .

The Times, June 14, 1882 .

(٣)

نصارى بقرش والبقال بعشرة فضة ، وأنهما على استعداد أن يذبحوا أحدهم ويبيعونه بالبرطل ، وبالرغم من ذلك ، فإنه أفرج عنهما بالضمان^(١) . وقد أثبت ذلك تعانق كل من الطبقة العاملة والقائمين على الثورة .

وفى أوراق عرابى الخاصة مراسلات التأييد الكامل للقائد ، « إننا من وقت ظهور حزب الحق ونحن فى كل الوقت نتكلم بمحاسن الحزب ومشروعاته المؤيدة للوطن ، ونكابر كل منافق ونقيم عليه الحجة ونثبت لإخواننا الفقراء إسعاد الأمة فى المستقبل ، ويوم استعفاء النظارة كاد يخشى علينا » ثم يطلبون منه حمايتهم بعد أن أصبحوا معروفين أنهم من أتباع عرابى^(٢) . وواضح أن عرابى قد أصبح ملجأ الجميع وحامى حوى الديار المصرية ، ومطعم الفقراء فى المستقبل ، إذن اشتراك تلك الطبقة الكادحة كان من أجل تحسين أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية ، إذ لم يكن فقراء المدن بأحسن حال من فلاحى الريف .

ويُدعى فى تطبيق اختصاص العمل الثورى ، فشيخ الخياطين بالإسكندرية يتولى المساهمة فى مهام عملية تخطيطهم ورفض المذكرة المشتركة وعودة عرابى وعزل الخديو ، « وكان يدور بشوارع الجمرك وشهد أن الأسطى حسن المصرى كان قائداً لهذه العملية^(٣) ، وأصبح كل داعية للثورة ، عليه تكوين وتنفيذ الخلايا الثورية فى منطقة عمله » فمحمد سليمان سائق الوابور كان مهيجاً للأفكار فى السكة الحديد^(٤) .

وبذلك يتم التعاون الكلى والمؤيد للثورة ، رغم ما فرض على الحرفيين من بعض الأعباء كإعانة حربية « كل صنايعى يدفع عشرة قروش »^(٥) ، فالجميع دفعها بنفس راضية ، ونرى أيضاً أنهم يساهمون فى المجهود الحربى بتقديم مبالغ وفقاً لحالتهم ، حتى لقد وصل الأمر إلى أن أحداً منهم لا يمتلك إلا بغلة تعينه على الحياة تبرع بها للجيش^(٦) .

واستناداً على الثورة ، يتمرد العمال على مرءوسيتهم من الأجانب ، فقد أحسوا أنهم أفضل منهم ، وأن مصر أصبحت للمصريين ، وما هى إلا فترة قصيرة ويفادر الأجانب جميعهم أرضهم ، ففى مصلحة خفر السواحل ببورسعيد يضرب العمال عن

(١) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٢ ، ١٣ يونيو ١٨٨٢ .

(٢) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٢ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٠ .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٣٢٣ .

(٥) المصدر نفسه ، محفظة ٤١ ، دوسيه ٢ .

(٦) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٦٢ فى ٢٠ يوليوز ١٨٨٢ ، عدد ١٤٧١ فى ١٣ أغسطس ١٨٨٢ .

العمل ويرفضون نقل البالات » ولا يبالون بأوامر رئيسهم الخواجة فكاري ويجاوبونه
إفعل ما تريده «^(١) .

أما عن الاشتراك في الحرب ، فقد سجل الحرفيون صفحة طيبة من صور
الكفاح الوطني ، فواصل « عمال الورش والفابريكات العسكرية أشغالهم مع مزيد من
الهمة والنشاط ليلاً ونهاراً »^(٢) ، من أجل الإعداد للمعركة ، هذا وعندما شرع في
إقامة الاستحكامات والتجهيزات الحربية من خنادق وتحصينات ووكل الأمر إلى
محمود فهمي « استحضر لها مهمات البناء والحجر المجالي ، والبنائين والنجارين
والمرخماتية والسباكين وباقي الصناعية والورشجية »^(٣) ، وقد استطاعوا بكفاءة فنية
أن يقيموا ذلك العمل على أحسن وجه ، ولم يقتصر هذا على ميادين القتال حيث
حصنت المدن كذلك « فقام الحدادون والنجارون ببناء استحكامات القلعة الكائنة
على جبل المقطم »^(٤) .

هذا وفي ميدان العمل المعنوي شارك الحرفيون في كافة النشاطات
« فالإسكافية والقهوجية والخياطين كانوا يطوفون بالشوارع ويصيحون : يا لطيف
يا جبار أهلك عسكر الكفار »^(٥) .

وعمل الخبازون من أجل نصرة الثورة ، فمنعوا الخبز عن الجنود الإنجليز ،
وأصبحوا لا يخبزون إلا ما يكفى القوات المصرية وينقلونه إلى كقر الدوار ، وبالرغم
من التهديد فإنهم أصروا على موقفهم ، فيرسلون للقيادة ليبلفوها « منذ خمسة أيام
حصل التهديد لنا من ناظر مصلحة وابورات المخابز بالقبارى بالقول إن الخديو
طلبه وسأله عن صرف خبز للإنجليز ، وحضر للمخبز شخصان إنجليز أحدهما
ضابط والآخر نذر سوارى ، فصار تعريفهم أنه لا يصنع الخبز إلا لدواير الخديو
وعساكره فقط »^(٦) .

وقد رأى عرابى إمكانية الاستفادة من تعبئة قوى الصيادين وخاصة في المناطق
التي كان من المتوقع هجوم الإنجليز عليها ، فأرسل إلى قومندان فرقة دمياط بيلفه «
أنه موجود ببخيرة المنزلة عدد وافر من المراكب المعدة لنقل البضائع وصيد السمك

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٠٣ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٥٨ في ١٥ يوليو ١٨٨٢ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٧٩ .

(٤) الفسطاط ، عدد ٩ في ١٤ يونيو ١٨٨٢ .

(٥) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٣٣٢ .

(٦) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٦٧ .

والطير ، وبهم عدد وافر من الرجال المعدين لهذه الأشغال من أهالي المطرية والمنزلة ، وإذا صار أعطائهم أسلحة ، يمكنهم المدافعة عن سواحل المنزلة وصيد من يتجاسر من الأعداء على المرور بالبحيرة بالصنادل أو الصالات ، فبهمة سعادتهم يصير عمل التدابير اللازمة في جمع هؤلاء الأشخاص وتسليحهم وترتيبهم في جهات اللزوم لمنع المرور من بוגاز جميل ، ومن التمكن من سواحل البحيرة ^(١) . إذن فكرة التعبئة العامة للدفاع عن أرض مصر موجودة ، لكنها لم تنفذ على المستوى العريض .

كذلك كان للصيادين دورهم في تقديم مجهوداتهم ، فبعد تحصين طابيتي الجميل والديبة في دمياط « وصل في الحال خمسمائة رجل من الصيادين لمساعدة العاملين في الطوابي » ^(٢) . ولم ييخل أهالي دمياط ومعظمهم حرفيون في المضي حتى آخر وقت من أجل نصرة الثورة ، ففي برقية من عبد العال حلمي إلى وكيل الجهادية يبلغه « أن كافة الناس يساعدوننا » ^(٣) ، ووقفوا من الأجانب موقف العداء والتبرم ، وانعكس ذلك على تصرفاتهم التي تشبعت بمبادئ الثورة وتطبيق شعار مصر للمصريين وإيقاف الاستغلال الذي امتص دماءهم ، فحدث أنه بينما كان قنصل فرنسا في دمياط يمر في أحد الشوارع تعرض « بما لا يليق بشأنه من الألفاظ » واشتكى ، لكن لم يسمع أحد شكواه « فذهب إلى القرمقول وهدد العساكر الموجودة ومزق كبود أحدهما بحضور جملة من الناس ، فأجرى معه التحقيق » ^(٤) ، ومع الحرب وزيادة الحنق على الإنجليز ، يهاجم الحرفيون القنصلية الإنجليزية في دمياط « ويكسرون شبابيكها وصارى البونديرة ويمزقون الراية ، ثم أخذوا يطوفون الأزقة شاتمين متوعدين بالقتل من كان قد بقى فيها من المسيحيين الأجانب » ^(٥) .

وأخيراً يأتي دور الإسكندرية الذي توطد فيها هذا الشعور ، وقد شكل التجار والحرفيون عنصراً قوياً في تركيبها الاجتماعي ، وقاست طبقتها العاملة من تلك الظروف التي خضعوا لها ، فكروا الأجانب الذين أوصلوهم إلى حالة من التدهور والفقر والفاقة لدرجة أن صحيفة « ترومبا » نشرت مقالاً بينت فيه حالة الفقراء في الإسكندرية ووفرة عددهم وترددهم على الشوارع والأزقة طالبين الإحسان ،

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٣ ، دوسيه ٤٥ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٨١ في ٦ سبتمبر ١٨٨٢ .

(٣) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٢ .

(٤) المنيد ، عدد ٢٨ في ٢٦ يناير ١٨٨٢ .

(٥) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٩ ، دوسيه ٨٥ ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٠٢/أ .

ووصفت حالة الأولاد الذين لا ملجأ لهم ولا ملاذ^(١) . ومن هنا كان الانضمام التام للثورة ، وأصبح السكندريون على وعى ، ولمسنا دورهم واتحادهم أمام جميع الأحداث ، فلم تتعرض مدينة مثلما تعرضت له الإسكندرية ، إذ وقع عبء الغزو عليها ويقول محمود فهمى « رأيت فى ذلك الوقت بعينى ما حصل من غيرة الأهالى بجهة رأس التين وأم كبيبة وطوابى باب العرب وهمتهم فى مساعدة عساكر الطوبجية من جلبهم المهمات والذخائر وخراطيش البارود والمفرقات ، هم ونساؤهم وأولادهم وبناتهم والبعض من الأهالى صار يعمر المدافع ويضربها على الأسطول^(٢) . ولم يكن ذلك بجديد ، فالإسكندرية لها فى تاريخ الوطنية صفحات مشرفة ، ويذكر عرابى « وفى أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء فى خدمة المجاهدين ، ومساعدتهم فى تقديم الذخائر الحربية ، وإعطائهم المال وحمل الجرحى، وتضميد جروحهم ، ونقلهم إلى المستشفيات ، وقد استشهد فى ذلك اليوم من جميع الطوابى مائة رجل وامرأتان من المتطوعات اللاتى كن يضمندن جروح الجرحى^(٣) » ، وواضح اشتراك العنصر النسائى فى هذه الملحمة البطولية .

ويذكر لنا أحد شهود العيان الذى أطلق على الحرفيين تارة أصحاب المهن الحقيمة وأخرى الفوغاء « خرجت الفوغاء من الحارات وانتشرت فى الأطراف ، واختلطت بالجنود وهم فى جلبه وصياح ، وتزاحموا على القلاع والحصون يريدون معاونة الجند ، فكان إذا هم الجندى بتصويب مدفعه نحو سفن الإنجليز هللا وصاحوا ونادوا يا أهل بيت رسول الله ، يا شيخنا يا أبا صيرى ، يا سيدى ياقوت ، وغير ذلك من أنواع النداء والصياح والجلبة ، وسار جماعة منهم أمام أرباب الأشاير بالبيارق والطبول والكاسات حتى وقفوا على شاطئ البحر ناحية السيالة ، وصاروا يصيحون بأعلى أصواتهم يا لطيف ، الله أكبر وهم يطوحون البيارق ويضربون الطبول والكاسات ، فرمت عليهم إحدى تلك السفن شيئاً من القنابل الصغيرة تباعاً فمزقتهم وأهلكتهم عن آخرهم ، ودمرت القلعة (آطة) وأهلك جميع من بها من الجند والعامة والضباط ، والتصقت لحومهم وما بقى من مشاشهم بجدران القلعة ، فكان لها منظر من رؤيته القلوب تنفتت من هولة الأكباد^(٤) .

(١) التجارة ، عدد ١٨٢ فى ٥ فبراير ١٨٧٩ .

(٢) محمود فهمى ، المصدر المذكور ، ص ٢٢١ .

(٣) أحمد عرابى ، مذكرات ، ج ٢ ، ص ٣١٥ ، ٣١٦ .

(٤) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٣٠٤ .

وفى أثناء ذلك العمل كانوا يتغنون بسب سيمور والإنجليز ، ولعن توفيق الذى تمثلت فيه صورة الخيانة ، بينما كانت الأصوات ترتفع وتدوى بطلب النصر لعرابى^(١) . وفى تقرير أحد المساعدين الإنجليز عن ١١ يوليو ١٨٨٢ يذكر أنه بعد أن بدأت الهجرة للسكندريين أوقفت ، وعادوا مرة أخرى « فرحين يتبادلون التهاني بالتعانق وعقد الأيدي ، ثم سمعنا النساء ينشدن الأغاني المعروفة بالزراغيط ويبدين كل ما هو مألوف عندهن من علامات الجزل والمسرة »^(٢) ، وهذا دليل على الأمل الكبير فى النصر والاعتقاد الراسخ بحتميته .

وكان الواقع شيئاً آخر ، فاضطر السكندريون للخروج من مدينتهم ليسجلوا أروع صورة للوطنية فى أصدق معانيها ، ويعطينا حسن الشمسى فى صحيفته ما يؤكد ذلك « هدمت كلل العدو بيوتهم وأقنت بعضهم فما خرجوا من مساكنهم إلا على عجل ، وقد تفرق الولد من أبيه والبنت من أمها والزوج من زوجته ، ولعمر الحق أنى كنت مع بعضهم فى قطر السكك الحديدية ، وهو فى ازدحام ولا ازدحام المحشر ، وكل منا يشكر الله لو تمكن من وضع قدمه فى الوابور ، فكان معنا فى عربة واحدة امرأة تحمل ولدين على الكتفين ومعها بنت ترضع من ثديها ، وكان معنا أيضاً امرأة ومن غرائب الدهر أن هول الحال أنساها طفلاً رضيعاً تركته فى المنزل ولا تعرف أين توجه زوجها ، فكانت تبكى على ولدها الرضيع ثم تقول : الله ينصرک يا عرابى »^(٣) . لقد خرج نحو مائة وخمسين ألفاً مجردين من كل شيء ، أخذوا فى الحركة بغير قصد أو ماوى ، فالموت والفزع ملاً نفوسهم على الطريق من المحمودية إلى دمنهور ، وعلى جسر السكة الحديد من دمنهور إلى القاهرة ، وبالرغم من تعليمات عرابى للمحافظة عليهم عندما حرر لمدير البجيرة بالتشديد على مشايخ العريان بحفظ الأموال والأرواح ، فإنهم تعرضوا لأقصى ألوان العذاب « تبهدل بعضهم وجرح وقتل البعض »^(٤) ، فكانت تلك الظروف من بين التضحيات التى قدمتها قوى الشعب العاملة من أجل الثورة .



(١) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , pp. 502, 503 .

(٢) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، ج ٥ ، ص ١٠٥ .

(٣) المفيد ، عدد ٦٢ فى ٢٠ يوليو ١٨٨٢ .

(٤) محمد عبده ، المصدر المذكور ، ص ١٩٤ ، أحمد عرابى ، تقرير ، ص ٢٧ ، Arabi pa- , Ninet

cha , p. 182 ، محافظ الثورة العربية ، محنظة ٨ ، دوسيه ٥٣ د/٨ .

الفصل الثالث عشر

الجناح المدني من المثقفين

﴿... التيار الديني﴾

فى ظل دولة الظلم والاستبداد ، بدأ انشغال الأزهريين بالسياسة ، حتى أنه عند بدء الخطوات العملية للثورة كانوا من المشاركين والمؤيدين والمساندين لها ، ولهذا ثقله وتأثيره ، فالعامل الدينى له السيطرة الكبيرة على الفكر المصرى ، إذ لم يكن هناك تعارض بين الدين والسياسة ، ومن هنا كانت الدفعة القوية لمشاركة المصريين وانضمامهم للثورة حيث أعطى الموقف الدينى تلك الصفة الشرعية للموقف القومى .

كان القائمون على الدين مصريين ، ويكرهون السيطرة الأجنبية ومن يرتقى فى أحضانها من ولاة الأمور ، وقد بدأ ذلك الجمود الذى كان له طابعه للأزهريين يلين ، بعد أن فتحت النوافذ للإصلاح ، لنصل فى النهاية ونراهم ثائرين .

وقد ثبت أنه منذ بداية الثورة كانت العلاقة متوطدة بين قادة الثورة والأزهريين، إذ يجمعهما أكثر من لقاء ومصلحة ، وأدرك قادة الثورة ما لأهمية الأزهر وتأثيره الفعال على قوى الشعب هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد خرجت حركة الكفاح والنضال الوطنى من الأزهر طوال تاريخ مصر . وفى أوراق الثورة العربية عثرت لجنة التحقيق على بواكير تلك العلاقة والصلات المتبادلة ، وكان الشيخ محمد الهجرسى له النشاط ، إذ تأكد « أنه متحد مع عرابى من قديم » ، وهو مثقف وصاحب أفكار متقدمة ، وعلى علاقة ود مع بلنت كبقية مثقفى الثورة(*) ، هذا وقد أصبح واضحاً أن كثيراً من أعضاء الحزب الوطنى كانوا الجامعة الأزهرية .

(*) محافظ الثورة العربية ، محفوظة ٢٢ ، دوسيه ١٩ ،

Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 165 .

خرجت أولى الحركات الثورية من الأزهر عقب التاسع من سبتمبر وانتصار الثوريين ، ووجهت ضد الشيخ محمد العباسي الذي كان يتولى الإفتاء ومشيخة الأزهر ، فطلب عشرة آلاف من الأزهرين عزله ولكن بدون أن يوضحوا الأسباب ، لكنها واضحة ، فمعروف أن الغالبية العظمى من طلبة الأزهر فلاحون على المذهب الشافعي والمالكي ، أما العباسي فهو حنفي - وهو المذهب التركي والرسمي لمصر - ولذا كان النفور بين الطرفين ، كما أن هؤلاء الطلبة بدأ يسرى فيهم تيار الثورة ، والعباسي ذو سلطة قوية مارسها وسيطر بها طوال اثنين وثلاثين سنة^(١) ، وكان قد وضع نظاماً لامتحان إجازة العلماء بالتدريس ولم يوافق هواهم ، واشتد الخلاف بينهما ، أيضاً بسبب الجراية وتوزيعها ، وهناك رأى ينصب على أن السبب الرئيسي في العداء هو موقف العباسي من الثورة ، والخوف من عدم تأييده النظام الدستوري^(٢) ، وفي حقيقة الأمر فإن هذه العوامل مجتمعة ساهمت في إسقاطه ، فأصحاب الثورة ومؤيدوها على بينة من أن العباسي معين من قبل الأسرة الحاكمة وحافظ لنعمتها وأنه يمكن أن يفتى بإبطال شيء يرى فيه توفيق خطراً عليه ، لذا خاف الأزهريون على وليدهم الجديد من أن يكون للعباسي رأى مخالف في شرعية هذا المولود . وأخيراً فمن طبيعة الثورات التخلص بقدر المستطاع من كل ما يمت ويكون له صلة بالنظام السابق .

لهذا سعى رجال الثورة في عزله ، ومن محاضر التحقيق الخاصة يتبين صدق هذا القول ، ووضحت عملية الاتحاد القوية بينهم وبين الأزهرين الذين أملاوا إرادتهم في اتباع نظام الانتخاب للرئيس الديني ، فاختيار الأصلح هو سمة من سمات الثورة ، وتم لهم ما أرادوا ، وألفت لجنة تحت رئاسة أحمد رشيد باشا وعبد الله فكري باشا « لإحقاق الحق » ، وجاء تقرير اللجنة بطلب « انفصال حضرة شيخ الجامع عن المشيخة لأجل إعادتها للسادة الشافعية كما كانت عليه من قبل ، وتقرر تعيين شيخ آخر بدلاً عنه من السادة الشافعية بانتخاب كبار العلماء »^(٣) .

وكان ذلك انتصاراً للثورة ، فلم يعارض شريف بعد أن وجد أن الأزهر يسوده القلق والاستياء وعبر عن ذلك « بأنه ثورة من العلماء » ، كما أن توفيقاً رضخ على

(١) . 3, 4, pp. 2863, 5 Dec. 1881, Arch Fasz XXXVIII/195, No. 2863, Polit, Arch Fasz XXXVIII/195, No. 2863, 5 Dec. 1881, pp. 3, 4, محافظ الأبحاث ،

محفوظة ١١٦ ، ٦ ديسمبر ١٨٨١ .

(٢) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt, P. 165.

(٣) محفوظات مجلس الوزراء ، محفوظة ٥/ز ، دوسية ٢٩ ، محضر ٣ ديسمبر ١٨٨١ .

الفور ولم يعارض هو الآخر ، إذ كتب إلى مندوبه بالآستانة يقول « نظراً للكراهية والنفور رأينا عزله من المشيخة تسكيناً للفساد ودفعاً للقليل والقال ، وأمرنا بترتيب هيئة من العلماء قوامها ثلاثة ينتخبون من المذاهب الثلاثة لانتخاب شيخ للجامع بدلاً عنه يكون من المذهب الشافعى ، وقد نفذ ذلك بالفعل »^(١) .

ومن الملاحظ أن الحكم جاء على أيدي ثوريين وأثبت ذلك الالتحام بين قادة الأمة وحملة الشريعة ، وكان البديل شافعيًا كـرغبة الأزهريين وتأييد الثوريين ، وصدر الأمر بتعيين الشافعى الشيخ محمد الإمامى شيخًا للجامع الأزهر ، وأختير الشيخ الدرستوى للحنفية والشيخ عlish للمالكية والشيخ يوسف للحنابلة .

وفى البداية كانت الرغبة تميل إلى تعيين الشيخ عlish وهو وطنى متقد حماسه - لعب دوراً بارزاً فى الثورة ومات فى السجن مسموماً كما اتضح من الشهادات فى محاكمة عرابى - لكن وجد تعيينه معارضة من الخديو ، وانتهى الأمر بتعيين الإمامى وهو متدين ومتحرر من القيود ، وتجمعت العوامل لتمكنه من العمل بثقله الدينى والروحى الأدبى فى المجتمع من أجل الثورة ، وسيعلم هذا الشيخ عزل توفيق فى الوقت الذى يتمتع الشيخ العباسى على الموافقة .

كان إسقاط القائم على أمر الإسلام على يد الثورة حدثاً اهتزت له حتى الدوائر السياسية التى اتهمت شريف بالضعف لتركة الثوار يفرضون أنفسهم على الأحداث ويسيرونها كيفما أرادوا ، فيقول تقرير نمساوى « إن عزل الشيخ العباسى وتعيين خلف له هو الشيخ محمد الإمامى لا مفسر له سوى ضعف حكومة شريف »^(٢) .

وبداً فى الأزهر العمل التحررى ، فكانت ثورة على القديم ووضعت الأسس الجديدة التى تتفق مع مبادئ العهد الجديد ، وقدم شيخ الأزهر ووكلاء المذاهب الثلاثة إلى الداخلية تقريراً أوضحوا فيه برنامجهم الإصلاحى .

وجاءت الأحداث السياسية التى تعرضت لها مصر والتدخل الإنجليزى ليعطى الدفعة قوة بعد ذلك الخطر الذى أصبح يهدد مصر سواء من الخارج أو الداخل

(١) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٦ ، ٦ ديسمبر ١٨٨١ .

Polit, Arch, op. cit., No. 144/13, 9 Dec, 1881 .

(٢)

ليكون في النهاية انضمام كلى للأزهريين ونزولهم للميدان الثورى . وبدأ دورهم فى إثارة الحمية الدينية والوطنية لقوى الشعب ، ويُعزى البعض إلى أنه كان لذلك أثره فى الثورة . حقيقة لا ننسى أن الشعب كان معداً الإعداد الكامل لها ، لكن مما لا شك فيه أن دور الأزهريين فى الحث والحماسة أضفى الشرعية الكاملة عليها ، ولم يكن ليقصر على ذلك بل أنهم غدوا الأفكار الثورية ونموها ، وما كان اختيار الإمبابى ، إلا من أجل خدمة أهداف الثورة ^(١) ، هذا فى وقت بعدت فيه أفكارهم عن الجمود الذى اتصف به الأزهريون ودخلت فى مرتبة الرقى والتقدم والتطور للدرجة التى جعلتهم تأثروا بالمؤثرات الثقافية الأوربية ، وبذلك لم تقتصر زعامة الثورة على القادة العسكريين فقط .

وعاش رجال الدين خطوة بخطوة مع الثورة ، فكانت لهم مواقفهم من الأحداث ، فيرفضون مذكرة مايو المشتركة ، ويسعون لإعادة عرابى ، وكانوا يمثلون الزعامة الدينية لدى مناطقهم ويعبرون عما يكنه الشعب ، هذا فى الوقت الذى أعطتهم فيه الثورة المزيد من الشخصية والسلطان ، فأصبحوا لا يتكلمون باسمهم فقط وإنما باسم المجموع ، فنرى برقية واردة إلى الداخلية من الشيخ محمد القصبى شيخ الجامع الأحمدي تؤيد وترفض وتعترض إذ تقول « إنى بصفة كونى شيخ الجامع الأحمدي بطنطا أقول إن جميع الناس متمتعون بنعمة عدالة حكومتنا الحالية ، معضدونها كل التعضيد ، رافضون كل تدخل أجنبى ، ولا يكدرهم إلا كما علموه من إتيان المراكب الحربية إلى الإسكندرية ، فلما رأينا منهم غاية من التحمس فى هذا الأمر ، سعينا فى تسكين جأشهم ، وتهذئة خواطرهم ، وقلنا لهم لا ضير فستجلى هذه المراكب عنا بسلام حافظين امتيازاتنا واستقلال إدارتنا » ^(٢) .

وواضح أنه كما كان رجال الدين القوة المعنوية الدافعة لثورة الشعب ، كانوا القوة المهدئة إزاء الأحداث ، وقد انصب موقفهم فى هذه الفترة على ضرورة خروج الأسطول المشترك من المياه المصرية ، أيضاً لهم دورهم فى تثبيت عرابى بمنصبه فى الوقت هم فيه غير راضين على حكم توفيق .

Ibid, No. 151/pol, 18 Dec. 1881 .

(١)

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٤١٣ فى ٢٠ مايو ١٨٨٢ .

وقد ظهرت ثورتهم الفعالة أثناء اللقاء الذى تم بين أربعين عالماً ومعهم شيخ الإسلام وبين درويش باشا ، إذ ثاروا أمامه وأظهروا استياءهم من الحالة ، وقدموا مطالبهم لترفع للسلطان « ثبات نظارة سعادة محمود سامى باشا ، ورفع الخديو عنا ، ورفض اللائحة ، لأن أصل الارتباك الحاصل الآن بمصر هو ناشئ من الخديو بسبب قبوله تلك اللائحة ، والدليل الوحيد الذى يؤكد لنا ذلك أنه استعان على جماعة المسلمين بأعدائهم الكفار وخالف قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ، فضلاً على أنه طلب من الدولتين المدرعات الحربية ، وأنه قبل لائحتهما المخلة بالفرمانات الشاهانية الصريحة مع أننا لا نقبل دخولنا تحت سطوة أى دولة كانت غير دولتنا العلية ، ومن يعارضنا نحن مستعدون لمقابلاته بالقوة ومعضدون للحزب الوطنى بأموالنا وأنفسنا وأولادنا » ، وتحديث الشيخ عليش وقال « إننا نخشى أن تتقلب مسألة مصر وتصبح مثل مسألة تونس ، فأجابه درويش باشا قائلاً : حاشا أن تكون مصر مثل تونس أو الجناح الخديو مثل باى تونس » ، وأضاف أن الجيش قد خلص البلاد من الوقوع فى أيدي الكفار ، وأثنى على رؤسائه ووطنيتهم ، أما الشيخ العدوى فقد رفع صوته ومعه اثنان على ضرورة طرد الأساطيل ، مما جعل درويش يتوقف ويمنعهم من الاستمرار فى الحديث معلناً « أنه جاء ليعطى الأوامر لا ليتلقى نصائح ، وأن القصر ليس قهوة السياسيين المشاغبيين ، وأمرهم أن ينصرفوا فى الحال » (*) .

وفى حقيقة الأمر ، فإنه منذ البداية لم يكن العلماء راضين عن سلوك توفيق ، وكانوا مؤيدين للعسكريين وعلى رأسهم عرابى الذى حاول بكل الطرق استصدار فتوى شرعية منهم بعزل الخديوى ، وأرسل إليهم « ما القول فى حاكم مولى من طرف سلطان المسلمين على أن يعدل فى الناس ويقضى بأحكام الله ، فنقض العهد ، وأحدث الفتنة بين المسلمين ، وشق عصاهم ، ثم انتهى به الأمر إلى أن اختار ولاية غير المؤمنين على ولاية المؤمنين ، وطلب من الأمم الخارجة عن الدين القويم أن ينفذوا قوتهم فى بلاد حكومته الإسلامية ، وحمل رعاياه على أن يدينوا ويخضعوا لتلك القوة الأجنبية ، وبذل عنايته فى الدفاع عنها ، ولما دعاه المؤمنون للرجوع عن ذلك أبى وامتنع وأصر على الخروج على طاعة السلطان والمروق من الشريعة ، فهل يجوز شرعاً أن يبقى هذا الحاكم حاكماً حتى يمكن قوة الأجانب من السلطة فى

(*) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٤٤ ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٣١٨/ب ، محفظة ٥ ،

دوسيه ٢٤٦ ، The Times, June 12, 1882 .

البلاد الإسلامية ، فبهذه الحالة يكون عزله وإقامته بدل له يحافظ على الشرع ويدافع عنه ، أفيدوا الجواب « (١) .

وكان الجواب معروفاً ، فمنذ بداية الفجوة بين توفيق ورجال الثورة ، أعلن الشيخ الإمامي عزله ، واستمر هذا الموقف ، وظهر جلياً في الاجتماع الذي عقده توفيق عقب استقالة نظارة الثورة الثانية وأيضاً في الاجتماع لدى سلطان ، ومعروف رؤية الشيخ عيش وثورته وإصراره على خلع توفيق الذي لم يعد يصلح لأن يكون والياً على المسلمين ، وازداد الأمر تعقيداً عندما تمت المقابلة مع درويش ، إذ كانوا يعتقدون أن مندوب أمير المؤمنين سوف يكون بجانبهم ، لكن عندما اتضح العكس ، عادوا وهم في أشد الحق عليه هو الآخر ، ويذكر صابونجي في خطاب له لبنت في ١١ يونيو ١٨٨٢ وكان شاهداً لتلك الأحداث « حدث في الأزهر حركة شبيهة بالثورة ، وقد حضرت عدة اجتماعات للعلماء وغيرهم ، وكان الغضب في جميعها شديداً ، والمتكلمون يكثرون من ذكر القرآن والحديث ، ويثبتون بهما أن توفيقاً غير مناسب لأن يكون والياً على أمة إسلامية ، ولم يكتفوا بعقد الاجتماعات الخاصة ، بل قرروا أمامي أن يعقدوا اجتماعاً عاماً في الأزهر احتجاجاً على الإهانة التي لحقت بهم ، وعُقد الاجتماع بالفعل في الأزهر حيث تقام الصلاة ، وطلب من نديم أن يخطب الحاضرين ، وكانوا يزيدون على أربعة آلاف نفس وليس عندي من الوقت ما يسمح لي بوصف التأثير الذي أحدثته خطبة النديم « (٢) .

وتعددت اللقاءات الثورية في الأزهر لنشر الأفكار ضد الأجانب والحاكم « وأخذ الأزهريون يسировون في الشوارع والطرقات في شكل مظاهرة يحتجون فيها على الأوضاع وعلى معاملة الخديو لبعض الأحرار من علماء الأزهر « (٣) ، حيث بدأ توفيق يضيق ذرعاً بهم فكان دائماً يحاول توجيه الضربات لهم ، والتحمت القوى والتصقت الكيانات وتلاقت الأرواح وكثرت الاجتماعات لدى القائد الذي أصبح معبود الشعب ، وامتألت الصحف بوصفها وبدقة تلك الوفود اليومية من شباب الأزهر الذين يجتمع بهم « مجدد أمر الأمة سعادة أحمد باشا عرابي « (٤) ، فلم يكن هناك اجتماع يخلو من علماء الأزهر الذين اعتمد عليهم اعتماداً كبيراً ، وقد أعطت

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، دوسيه ١/٥٣ .

(٢) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 330 .

(٣) عبد اللطيف حمزة ، العقدة الشركسية عند مدرسة الشيخ محمد عبده ، ص ١٣ ، ١٤ .

(٤) الفسطاط ، عدد ١٠ في ٢١ يونيو ١٨٨٢ .

التقارير والشهادات المقدمة إلى لجنة التحقيق بأن « طلبة العلم وشيوخ الأزهر كان منزل عرابي يغص بهم »^(١) .

وفى هذه الاجتماعات ، كان رجال الدين الحجر الأساسى فيها ، خرجت منها أصوات اتهامات توفيق وضرورة مقاطعة معسكره ، فى الوقت الذى كانت أصداء التأييد والتشجيع للقادة تدوى ، وكثيراً ما كانت القصائد الخاصة بمديح عرابي تلقى فتزيد المجتمعين حماسة وقوة ، وقد لعب الشيخ عليش دوراً مهماً فيها ، ففى محضر اتهامه « أنه من الساعين للهيجان والإفساد المساعد للعصاة فى الإتحاد بهم والتهور فى المحافل والمجامع العمومية والخصوصية بالانتصار لهم ، والقدح والتبديد فى حق الحضرة الخديوية حتى حصل إفساد الأذهان والأفكار العمومية للدرجة التى أوصلت إليها من الإختلال والتعصب الدينى والسياسى »^(٢) .

وتجسدت إرادة الشعب على يد العلماء ، وأعلن الشيخ العدوى صراحة أن توفيقاً مرق من دين الإسلام ويجب خلعه ، وكان ذلك أثناء انعقاد المجلس الوطنى للمداولة فى استمرار التجهيزات الحربية أو إبطالها ، وللعدى تاريخ يسجل فى الثورة إذ أيدها بكل قواه ، وبالرغم من أنه كان مسناً وضعيفاً جسمانياً ، فإنه روحانى عميق وباحث قديم عن العدالة التى فقدتها مصر ، وقد أيد شرعية مطالب الثوار ومضى فى موقفه البطولى حتى مات ، وبناء على قراره صدرت الفتوى التى مضى عليها ثمانية من رؤساء العلماء الأزهريين على رأسهم الشيخ عليش .

وهكذا صدر حكم الرؤساء الدينيين على الحاكم ، وبينوا أنه على الحكام أن يكونوا أصحاب إيمان ويحكموا بالعدل وفقاً لما أمرت به الشريعة ، لكن توفيقاً حاد عن ذلك « حيث أتوا بقصة إبرهه وأصحابه كمثّل جيد لطغيانه وعدم إخلاصه وصلاحيته »^(٣) ، ومع هذا فإن الخديو لم يسقط .

وكان للعلماء موقفهم إزاء الوجود الأجنبى ، فقد احتجوا وختموا على رفضهم ببقاء السفن الإنجليزية فى الإسكندرية ، وأيضاً فى اجتماع المجلس الوطنى الأول والثانى أصدروا قراراتهم باستمرار التجهيزات للمدافعة عن مصر ضد المعتدين ، وعدم تنفيذ إرادة الخيدوى فى عزل عرابي .

(١) تقارير وشهادات مقدمة من كبار الموظفين الوطنيين والأجانب إلى لجنة التحقيق ، تقرير ٧ ، ص ٢٨ .

(٢) معانك الثورة العرابية ، مطبعة ١٢ ، دوبيه ١٩٣ .

(٣) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , pp. 175 - 177, 365 .

وفى أثناء الحرب كان لهم موقفهم المشرف إذ عدوها حرباً صليبية ، فذهبوا أفواجاً إلى ميادين القتال برئاسة الشيخ العدوى ، وذلك للتأييد الروحي والمعنوي ، واعتبار ذلك من دواعي المدافعة عن الوطن ، وأن ذلك واجب شرعاً وسياسة .

وراح طلبة الأزهر بعد أن وحدوا جهودهم يجوبون الشوارع ويوزعون المنشورات التي تحت على الجهاد في سبيل الله ، ومضى التوسل والتضرع لله لينصر المسلمين وذلك بقراءة البخارى ، وقد انشغل العلماء بهذا الأمر ، فكانت الجوامع تنص بالمقرئين وخاصة الأزهر والحسين ، وفى قاعة الأزهر الشريف داخل المسجد الأحمدي ، وأيضاً فى أرض المعارك ، وأقيمت الصلوات ليلاً ونهاراً فى جميع المساجد من أجل نصرة عرابى وجيشه ، يقوم فيها المؤذنون على المنائر يبتهلون إلى الله بعبارات الاستغاثة وطلب النصر على العدو(*) ، هكذا فعلوا مثلما حدث وقت غزو التتار والحروب الصليبية .

كما كانت للخطابة الدينية الأثر الكبير فى تعبئة الراى العام وتجميعه وتحميسه ، وخصوصاً أنها خرجت من المساجد وهى بيوت الله التى أذن فيها بذكر اسمه ، وكان علماء الأزهر على قمة الخطباء فى إعلان الجهاد الدينى ، وسرى الأمر إلى جميع مشايخ المساجد منذ أن بدأت الحرب وحتى نهايتها ، ففى أسيوط هناك خطب الشيخ زين الدين نقيب الأشراف بجامع الدفتردار ، وتتضمن بيان أحوال البلاد ، وشرح ما يجب على المسلمين عمله الذين دهم العدو بلادهم ظلماً وعدواناً من غير أن يقترفوا ذنباً أو يجترموا جريمة ، سوى المحافظة على حقوقهم الدينية والوطنية ، وحض على بذل الأرواح فى سبيل الله والتبرع بالأموال مستشهداً بالآيات القرآنية .

وفى المنصورة يخطب الشيخ إبراهيم السمنودى على جمع الكلمة وائتلاف القلوب والتعاون ، والدعاء للجيش بالنصر والظفر فيضج الحاضرون بالتأمين ، وفى المحلة لم يقتصر الأمر على خطب الجمعة ، بل استمرت طوال الأوقات لتبنيه فضل الجهاد وما أعد للمقاتلين فى سبيل الله ، وكانت تطبع وتوزع فى جميع الجهات المجاورة ، وفى دمنهور كان لصوت الشيخ حميده الدمنهورى صدى واسع بجامع

(*) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٠ ، محفظة ٤١ ، دوسيه ٢ . الوقائع المصرية ،

عدد ١٤٥٩ فى ١٦ يوليو ١٨٨٢ ، Broadly , How We Defended Arabi And His Friends ,

p. 233. ميخائيل شاروويم ، المرجع المذكور ، ص ٣٢٢ .

أحمد الزواوى ، وتميزت خطبه بإشعال الحماس من أجل الجهاد الدينى والمالى ، كما كان لخطب الشيخ المليجى النتائج المرجوة ، فقد لى أهالى أسىوط النداء الذى وجهه إليهم^(١) . أيضاً تواجد النشاط المتزايد الذى قام به الشيخ أحمد عبد الجواد وأخوه من علماء الأزهر فى الدعوة للتطوع وقتال الإنجليز ، وتركهما لبلدهما ووجودهما فى مقر وجود الجيش ، « لأجل الدعاء وحث العساكر على المحاربة » مما انعكس على الحالة المعنوية للقوات ، كذلك ظهر فى هذا المجال الشيخ العدوى كداعية للجهاد حتى لأقرب المقربين إليه « أوعز إلى نجل أخيه وهو على جانب عظيم من شدة البأس وقوة المراس وعارف ببعض اللغات بأن يتطوع بنفسه للانضمام فى سلك المجاهدين »^(٢) ، وقد أثر ذلك على القوى الاجتماعية .

وكان هناك بجوار الجهاد والتطوع والاقتداء بالرسول ﷺ وبيان دور الخيانة للمنشقين عن الشريعة ، وإظهار وضع العائلة الخديوية « الذين كانوا كالليل المظلم إذ كانوا منهمكين فى ميدان حظهم الدينوى وعن طريق الدين غافلين » ، أن أصبح الدعاء فى صلاة الجمعة لا يدعى نلسلطان أو للحاكم ، إنما لعرابى « اللهم أنصر عرابى بجيش المؤمنين » ، وبذلك غدا حاكم مصر الشرعى بدون منازع .

أيضاً كان لهم دورهم فى مسألة الأموال ، فقد حثوا على التبرع بها ، وقدموا تلك الصناديق المملوءة بנדور المساجد إلى المجهود الحرى ، وأسهموا فى التبرعات كل على حسب مقدرته . وقام الشيخ العدوى بإخلاء سرايته بعابدين لينزل بها مائة من مهاجرى الإسكندرية ، ورتب لهم خمسمائة رغيف كل يوم ، ولم يكن هو وحده ولكن معه باقى العلماء الذين تبرعوا بمنازلهم لسكنى المهاجرين ، وأجروا عليهم المآكل والمشرب^(٣) .

وبجوار ذلك ، فقد نظم العلماء القصائد ، فيقول الشيخ المرصفى :

يا صاح قم واشكر إلهك وأحمد فالدین منصور على يد أحمد

ويقول أحمد عبد الغنى المدرس بالأزهر :

وقت فيه الاستعداد فسررض لتنفيذ الأوامر من عرابى

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، دوسيه ٤٤ ، الوقائع المصرية ، عدد ١٤٨٤ فى ١٠ سبتمبر ، عدد

١٤٦٢ فى ٢٠ يوليو ، عدد ١٤٦٩ فى ٨ أغسطس ، عدد ١٤٧٤ فى ٢٤ أغسطس ، عدد ١٤٨٠

فى ٤ سبتمبر ، عدد ١٤٧٦ فى ٢٨ أغسطس ١٨٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٤١ ، دوسيه ٢ ، الوقائع المصرية ، عدد ١٤٥٨ فى ١٥ يوليو ١٨٨٢ .

(٣) المصدر نفسه ، عدد ١٤٨٠ فى ٤ سبتمبر ١٨٨٢ ، عدد ١٤٧٠ فى ١٠ أغسطس ١٨٨٢ .

قوموا بالثبات على الأعادي وقولوا فيهم فصل الخطاب
وقولوا يا عرابي مر بامر تراه فانت ذو الأمر المجاب
وقولوا يا عرابي دم رئيس لحفظ النصر محفوظ الجناح(*)

هذا بالإضافة إلى تلك الرؤيا التي أعلنها العلماء بانتصار عرابي والمصريين ، فتارة السيدة نفيسة تلبس له السيف ، وتارة أبو العباس المرسى يؤيد خطواته ، وهذا دليل على التطلع إلى النصر ، وخصوصاً أن ذلك الوقت كان لمثل هذه الأقوال القوة في رفع المعنويات ، سواء للمحاربين أو للشعب .

وبذلك وضع الدور الذي قام به العلماء مع الثورة ، فقد أيدوها بكل قواهم الروحية والمادية ولم يدخروا وسعاً في ذلك إملأ بأخذ يد مصر وإنقاذها مما كانت تعاني منه .

الإمام الأزهرى والفكر الليبرالى

حمل لواء التيار الدينى المثقف فيلسوف الثورة ومفكرها الإمام محمد عبده ، فاعتمدت عليه في تنفيذ مساره ، وبرز دوره السياسى ومثل السمو لفكر المثقفين الذين أسهموا بعقليتهم وجهدهم فيها . ولم يكن اشتراك محمد عبده في الثورة بجديد على اتجاهه الثورى ، فقد عرفناه منذ أن كان تلميذاً ثورياً للأفغانى أليس هو الذى وكل إليه الترصد لإسماعيل وقتله عند قصر النيل ؟ وهو الذى ساهم بالرائى مع أعضاء الحزب الوطنى فى عزله ، ولكنه كان بجوار الإطار الثورى يرى أنه من الضرورى إصلاح المجتمع ، وقد فضل هذا الاتجاه مع بداية الثورة مما جعله معتدلاً « فقد زار مرة طلبة باشا فإذا مجلسه الذى كان به عرابى يتكلمون فى الاستبداد والحرية والحكومة المطلقة والحكومة النيابية والدستورية ، واتفقوا على أن الأمن على الأرواح والأموال وصعود الأمة فى مراقى الكمال من آثار الحكومة المقيّدة بلا جدال ، وأن هذا التحويل قد آن فى مصر وأدركها إبانة ، فعارض محمد عبده وقال أن أول ما يجب أن يبدأ به التربية والتعليم لتكوين رجال يقومون بأعمال الحكومة النيابية ، وطالت المناقشة بين القادة والعسكريين وبينه وكل منهما مصمم على رأيه ، وأخيراً قال أن الأمة لو كانت مستعدة لمشاركة الحكومة فى إدارة شئونها لما كان لطلب ذلك بالقوة العسكرية معنى ، فما يطالب به رؤساء العسكرية الآن

(*) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٠ ، سليم النقاش ، المصدر المذكور ص ١٩٨ .

غير مشروع لأنه ليس تصويراً لاستعداد الأمة ومطالبها ، ويخشى أن يجر هذا الشعب على البلاد احتلالاً أجنبياً^(١) .

لكن سرعان ما تغيرت هذه المفاهيم لدى محمد عبده عندما وجد أن الثورة هي ثورة شعب وليست قاصرة على العسكريين ، فدخل بسلاحه وشارك كل المشاركة حتى غدا أحد الرؤوس المدبرة لشئون الحركة الوطنية ، وأعطاه مركزه في صحيفة الوقائع المصرية القيادة منذ البداية ، ففيها راح يكتب عن ضرورة الإتحاد بين عناصر الأمة على اختلاف أديانها ومذاهبها حتى تستطيع مواجهة أعدائها ، وحث الأغنياء على المساهمة في المشروعات لإفادة الشعب ، وفي الفترة من قصر النيل إلى التاسع من سبتمبر ، تلك التي كانت مضغمة بالنشاط السياسي الذي شمل جميع قوى مصر ، جعلته ينقل ثقله إلى المعسكر الثوري ، وقد وضع ذلك في مقالاته إبان عهد الثورة التي عظم فيها المصريين ، وأشاد بروح الإتحاد وشرح للقراء أهلية الحكم الدستوري وتطبيق العدالة والصحة من الغفلة .

ويرى محمد عبده أن الحرية تنقسم إلى حرية رأى وحرية قول وحرية انتخاب ، وهذه الحريات لها حد ، فحد حرية الرأى أن يكون مبنياً على القياس موافقاً للحكمة مطابقاً للصواب ، وحد حرية القول أن يراد به الخير ولا يجاوز فيه حد المنفعة ولا يمس شرفاً مصوناً ولا يضر بريئاً أميناً ولا ينتشر من غير علم اليقين ، وحرية الانتخاب أن يراد به مصلحة الوطن العزيز ليس إلا ، كما عرّف الحرية السياسية بأنها عبارة عن حق الإنسان في المساهمة والاضطلاع بشئون الدولة ، وتعرض لتلك الحرية من ثلاث زوايا ، الأولى الإقرار بهذه الحرية والثانية توفير مقوماتها والثالثة إيجاد وسائل التعبير عنها^(٢) .

أما القانون فقد كان له المكانة في فكره من حيث حتمية تطبيقه ، فهو الحق الذي ترجع إليه الأمة في معاملاتها وأحوالها الخصوصية وهيئاتها ، وأن الحكم على أساس القانون وأنحكم على أساس القوة ، أن الأخير يتم دون مراعاة طرق عادلة أو أحكام مؤسسة على أصول المساواة واستعمال الشفقة والمرحمة ، بل بحسب ما تقتضيه القوة التي سفكت الدماء وذلت الشعوب وأنهكت حرمان الأمم وسجنت حرية الإنسان في مطاردة الرق والاستعباد ، وفي ذلك يتبين أنه كان متفقاً مع فكر مونتسكيو ، وعندما تم انتخاب مجلس النواب طالب الأعضاء بأن « لا يجاروا غير

(١) السيد محمد رشيد رضا ، المرجع المذكور ، ص ١٤٦ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٠ نوفمبر ١٨٨١ .

بلادهم في سن القوانين ، وعليهم أن يجعلوا أوضاع بلادهم وأحوال الأهالي الحاضرة نصب أعينهم حتى يتهيا لهم حينئذ أن يرسموا ما لا بد منه من الأحكام الملائمة » ، فالقانون هو الوسطة بين الحاكم والمحكومين ، وهو الذي يحدد واجبات كل منهم ، وأن الديمقراطية ليس لها القوة إلا باحترام القانون ، ويتحقق القانون بتوافر الحرية السياسية وبالاستناد إلى الرأي العمومي الذي هو ثمرة أهل الحل والعقد ^(١) .

كذلك تغلبت مسألة الحكومة الشورية على أفكاره ، وكانت الركيزة التي غذى بها الثورة ، وطرحها أمام الجميع بصورة مبسطة وربطها بالإسلام والأفكار الغربية المتطورة وبين حاجة مصر لها ، وأفهم المصريين ما هي واجبات الحكام وحقوق المحكومين ، فيقول « كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها وهي لم يخطر لها هذا الخاطر على بال من مدة تزيد على عشرين قرناً ، دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، وإنه لا يردده عن خطئه ولا يقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول والفعل جهراً بهذا القول ، والاستبدادية في عنفوانه والظلم قابض على صولجانه ويد الظالم من حديد والناس كلهم عبيد له أي عبيد ، نعم إنني في ذلك لم أكن الإمام المتبع ولا الرئيس المطاع غير أني كنت روح الدعوة » ^(٢) .

ويبين المعاني الحق للوطن والوطنية « فالوطن عند أهل السياسة مكانك الذي تنسب إليه ويحفظ حقه فيه ويعلم حقه عليه ، وتأمين فيه على نفسك وآلك ومالك ، ومن أقوالهم فيه ولا وطن إلا مع الحرية » ، وأن الوطن تصل بينه وبين الساكن صلة منوطة بأهداف الشرف الذاتي ، فهو يغار عليه ويزود عنه .

وتطرق إلى القومية « التي لا تُفرق بين دين أو آخر ، وهي سمة العصر الحديث منذ الثورة الفرنسية ، نزعة فكرية وعاطفية توجه لواء الفرد للأمة ، وقد سميت القومية نسبة إلى القوم الذين يعيش الفرد بين ظهرانينهم ويشعر بأن كيانه جزء لا يتجزأ من كيانه ، ولها مقوماتها الخاصة كاللغة والأرض والكيان السياسي والعادات والتقاليد والدين ، وبالرغم من أن هذه المقومات لها أهمية كبرى في تكوين

(١) المصدر نفسه ، عدد ٧ فبراير ١٨٨١ ، عدد ١٢٩٠ في ٢٥ ديسمبر ١٨٨١ ، عبد العاطي محمد

أحمد ، الفكر السياسي للإمام محمد عبده ، ص ١٨٦ ، ١٩٥ .

(٢) محمد عبده ، المصدر المذكور ، ص ٢٨ .

القومية، فإن العامل الأساسي في حفز الشعور بالقومية هو الإرادة الحية النشطة التي هي نزعة فكرية توجه نشاط الغالبية العظمى من الشعب»^(١)، وأن الشورى وحرية الإرادة تبنى على حق الحكوميين في اختيار نظام الحكم الذي يحقق مصالحهم .

لقد عرض محمد عبده على المصريين المعانى السياسية والقومية في صور مبسطة حتى تعيها الأذهان ، إذ أنه أراد أن يعتمد على جميع عناصر الأمة بلا استثناء ، ولم تكن تلك المعانى تصل عن طريق الصحافة فقد ، وإنما أيضاً عن طريق الكلمة المسموعة من على منابر الخطابة سواء في الجمعيات أو في تلك الليالي والاحتفالات التي كانت عبارة عن لقاءات سياسية .

وتمكن من السيطرة على الصحافة ، إحدى وسائل أجهزة الإعلام ، وصدر أمره بتعيين أحمد بك رفعت ناظراً لقلم المطبوعات التركية والعربية ، والمسيو فوكلين رئيساً لقلم المطبوعات الأفرنجية ، وعمل هذا الثلاث بكل قواه من أجل الثورة ، كما جند العاملين معه لنفس الغرض ، فكان منهم سعد زغلول وعبد الكريم سلمان والشيخ محمد خليل والشيخ عامر إسماعيل ، وهم من محرري صحيفة الوقائع المصرية ، وقد اتبع الأول أسلوب أستاذه في كتاباته^(٢) .

وكره محمد عبده الأتراك ومقت سياستهم ، وبالتالي فهو شديد النفور لسياسة السلطان عبد الحميد الاستبدادية ، وفي خطاب له إلى بلنت في ٢٥ أبريل ١٨٨٢ يتكلم بلسان كل مصري « سواء أكان من العلماء أو الفلاحين أو الصناع أو التجار أو الجنود أو الموظفين أو السياسيين أو غير السياسيين ، أنه لا يستطيع مصري أن يفكر في نزول الأتراك في بلادنا بدون أن يشعر بعاطفة قوية تدفعه إلى امتشاق سيفه والهجوم به على هذا المعتدى ، إن الأتراك ظلمة قد تركوا في بلادنا من آثار السوء ما لا تزال قلوبنا تضرب منه ضربان الجرح ، فلسنا نريد رجعهم وللسنا نريد أن نعود إلى معرفتهم ، وكفى الأتراك ما لهم من حقوق الفرمانات ، فعليهم أن يقفوا عند هذا الحد ولا يتعدوه »^(٣) .

وكان يرى أن الوحدة الوطنية لا يجب أن تكون فوق الخلافات الدينية فحسب ، وإنما هي أيضاً فوق الخلافات السياسية « فإن كان الفرنسيون جمهورياً أو ملكياً

(١) الوقائع المصرية ، عدد ٢٨ نوفمبر ١٨٨١ ، عبد العاطى محمد أحمد ، المرجع المذكور ، ص ١٦٤ .

(٢) المصدر نفسه ، عدد ١٣١٩ في ٢٨ يناير ١٨٨٢ .

(٣) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 251 .

(٣)

أو امبراطورياً فهو فرنسى على كل حال ، ، وبلور فكره السياسى فى الشكل الجمهورى الحر ، فكان نصيراً للديمقراطية البرلمانية للدرجة التى جعلت عرابى يقول عنه « إنه يصلح للبس القبعة عن العمامة »^(١) ، وكان ذلك دليلاً على تحرره ، إذ صب فى العقول الأفكار الغربية التحررية ، حتى أن الكثير قد اتهموه بالطعن فى الشريعة الإسلامية ، وبأنه دس تلك الأفكار فى عقول كثير من طلبة العلم الذين تتلمذوا على يديه ، وكان كرومر على حق حين وصفه بأنه « مؤسس مدرسة الفكر المصرى الحديث »^(٢) .

وعُرف محمد عبده بذكائه ووسع ثقافته وإجادته للكتابة ، فهو الرجل الموهوب للحركة الوطنية فى الوقت الذى كان فيه متحدثاً لبقاً له النفوذ القوى على المثقفين وهو المتحرر البعيد عن التزمت ، قدم الكثير من أجل مصر ويقول برودلى « وأحياناً كان يصعب علينا الوقوف على شخصية محمد عبده ، فقد كان سليط اللسان يشرح ويصور أهداف وبواعث الوطنية المصرية »^(٣) ، وبذلك أصبح القائد الفكرى للثورة فالتصق بالشوار وساهم فى صنع الأحداث .

ويعد برنامج الحزب الوطنى من المبادئ التحررية للثورة ، هذا البرنامج المتكامل الذى أسهم فيه محمد عبده بنصيب وافر مع بلنت والبارودى وعرابى ، وقد نشر فى صحيفة التيمز فى أول يناير ١٨٨٢ بناء على الإتفاق بين الإمام وبلنت لكسب الرأى العام الخارجى تجاه الحركة الوطنية ، وشمل المحافظة على العلاقة التى تربط مصر بالباب العالى وفقاً للتسويات الدولية ، وخضوع مصر للحاكم الشرعى ما دامت أحكامه جارية وفقاً للعدل والقانون ، وعدم العودة للاستبداد والأحكام الظالمة التى أورثت مصر الذل ، وإطلاق عنان الحرية للمصريين ، والإعتراف بفضل فرنسا وبريطانيا مع استمرار المراقبة الأوربية ، وأن مصر ملزمة بالديون التى لم تفرض لمصلحتها وإنما أنفقت فى مصلحة حاكم ظالم كان لا يُسأل عما يفعل ، والأمل فى استخلاص المالية من أيدي أرباب الديون حتى يأتى اليوم الذى تكون مصر فيه بيد المصريين ، وإظهار خلل المراقبة والهجوم على الموظفين الأجانب مع وجود من يقوم بعملهم من المصريين على أحسن أسلوب براتب لا يوازي خمس راتب الأجنبى ، وضرورة فرض ضرائب على الأجانب وخضوعهم لقانون البلاد ، وأن طريق الحرية هو اتباع المؤسسات الدستورية كمجلس النواب وإطلاق حرية

Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 227 . (١)

Cromer , op. cit., vol. II, p. 180 . (٢)

Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 228 . (٣)

المطبوعات بطريقة ملائمة وتعميم التعليم ، وأن المصريين فوضوا أمرهم للعسكريين الذين يكونون القوة الوحيدة في البلاد ومتى وصلوا لغرضهم فهم تاركون التدخل في السياسة لأهلها ، وزيادة عدد الجيش إلى ١٨ ألف عسكري ، وأن الحزب الوطني حزب سياسي لا ديني ، يضم رجال من مختلف العقيدة والمذهب ، حقوقهم في السياسة والشرائع متساوية ، وأن آمال الحزب معقودة على إصلاح البلاد مادياً وأدبياً وذلك بحفظ الشرائع والقوانين ، وتوسيع نطاق المعارف ، وإطلاق الحرية السياسية التي هي حياة للأمة ، وأخيراً أشار البرنامج إلى أن للمصريين اعتقاداً في دول أوروبا التي تمتعت ببركة الحرية والاستقلال أن تمتعهم بهذه الحركة^(١) .

ومن ثم تمكن مثقفو الثورة من عرض قضيتهم بطريقة لا تجعلهم يتعرضون للهجوم من أية ناحية ، وقد لقي البرنامج أمناً فنجده صحيفة الستاندرد تؤيد الحزب الوطني بقولها « إن هذا الحزب ليس إلا حركة وطنية ، فهي تود أن يأخذ المصريون على أنفسهم عهد إدارة الأعمال المالية بدون مساعدة الأجانب التي لا تنتهي مع مرتباتهم الباهظة ، فمن نظر إلى ذلك بعين الازدراء ، وظن أنه ليس إلا خروجاً عسكرياً عن حدود القوانين أو ثورة صاحب غاية لا مقصد له غير غايته ، فقد زاغ عن محجة الصواب »^(٢) .

كذلك كان لمحمد عبده تأثيره في مجلس النواب ، فهو على صلة قوية ووطيدة بأعضائه أمثال أحمد محمود عمدة الرحمانية وإبراهيم الوكيل عمدة سمقراط ، وله الدور الفعال في تحريكهم وإشعال نشاطهم ، وقد وضع ذلك من خلال عمل المجلس . ومع البارودي تجلى تأثير محمد عبده ، إذ جعله قادة الثورة « واسطة عقدهم وفهرست كتبهم يرجعون إليه في جميع أمورهم ، لا يتحركون إلا بإرادته ، فكان أرسطوهم وفلسفة وبسماركهم سياسة »^(٣) .

ومن خلال صحيفة الوقائع المصرية كجريدة رسمية اضطلعت على مجريات الأمور في مصر ، سيطر على الموقف ، ونشر فيها خيانات توفيق وامتلأت الصفحات بالقدح فيه والمدح في عرابي والدعاء له ، والحث على المحاربة والجهاد في سبيل الله بالتطوع في دخول الخدمة العسكرية ، وتشجيع الإعانات المالية ومدح المديرين على مجهودهم في سبيل ذلك ، وشرح كيف أن العدو هاجم مصر ظلماً

(١) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , pp. 556 - 559 .

(٢) الطائف ، عدد ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

(٣) سحافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٩ ، دوسيه ٨٥ .

وعدواناً ابتغاء توسيع ممتلكاته ، وكان يستشهد بالقرآن الكريم وأقوال الرسول ﷺ ، ويذكر أنه بفضل هذه الكتابات « فتحت عقول الأمة ووجهتها نحو طلب الحرية والإصلاح بعد أن عاشت زمناً فريسة للطفليان والاستبداد وضحية للجهل والفساد »^(١). أيضاً أوعز إلى « إبراهيم أفندي سراج من المدينة المنورة » لإصدار صحيفتي الحجاز والفسطاط للكتابة فيهما عن شجاعة العرب ، وتمكن بمساعدة بلنت وجريجورى من إصدار صحيفة فى لندن باللغة العربية « الإتحاد العربى » تحت إشراف صابونجى ، فصولها محررة بقلمه ومطبوعاً فى صفحاتها صور عربى وعبد العال حلمى وعلى فهمى ، وفيها نشرت المشاكل والصعوبات التى تلقاها مصر من حاكمها ومن السياسة الأوربية ، وقد ذكرت فى عددها الأول أن من يريد الاشتراك فيها فليطلبها من إدارة صحيفة الوقائع المصرية^(٢) .

واستمر محمد عبده مخلصاً للثورة ومبادئها مداوماً على الاجتماعات مؤثراً فيها ، لدرجة أنه كان يلحن الخطب لكل من على الروبى ويعقوب سامى ، وكلمته نافذة وإرادته مهيمنة ، ولا تنسى له الثورة موقفه عندما جمع القادة حول المصحف الشريف ليكون أول قسم على حب الوطن والتضحية والتعاون والإتحاد من أجل إنقاذ مصر والدفاع عنها ، وأثناء انعقاد المجلس الوطنى بالداخلية ، كانت مكانته بارزة وصوته مسموع ، ليعلم أن عربياً هو الذى يعمل لإصلاح مصر ، أما الخديو فيجب عزله ، وتولى بنفسه تحرير المحاضر الخاصة بذلك^(٣) .

وكان يكره من أعماق قلبه جميع أفراد الأسرة الحاكمة ، ويعتقد فى قرارة نفسه أنها قد أساءت إلى مصر إساءة بالغة ، ولا يستثنى من ذلك محمد على نفسه وينكر عليه كل شيء ، ويرى أن من الخير لمصر أن تتخلص من هذه الأسرة فى أقرب وقت ، من هنا كان اللقاء تاماً مع العسكريين ، وقد جند تلاميذه أمثال سعد زغلول والشيخ محمد خليل والشيخ عامر إسماعيل ، وهم من محررى صحيفة الوقائع المصرية وفتح الله زغلول التلميذ بمدرسة الإدارة ، وأبو يوسف الدمياطى للعمل فى خدمة الثورة ، وتولوا المراسلة بينه وبين قادة الثورة وخاصة عربى ، وسعوا بالمحاضر لعزل توفيق وداروا بها على المصالح ، وحرروا المقالات ضده ،

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٤٤ ، الوقائع المصرية ، عدد ١٤٥٥ فى ١١ يوليو ، عدد

١٤٥٧ فى ١٣ يوليو ١٨٨٢ ، محمد عبده ، المصدر المذكور ، ص ١٧ .

(٢) تقارير وشهادات مقدمة من كبار الموظفين الوطنيين والأجانب إلى لجنة التحقيق ، ، تقرير

١١ ، ص ٤٦ .

(٣) محافظ الثورة العربية ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٤٤ .

وكان محمد عبده إذا خرج فى وقت ما من بيت عرابى ليعمل عملاً فى غيره ينوب عنه أولئك الأشخاص أو بعضهم فى تختيم من يجدونه ، ويذكر أحد شهود العيان عنهم عقب الثورة « تدنس ألسنتهم فى محافل كثيرة بالوقعية فى حق الذات العلية ، وكان أحدهم سعد أفندى زغلول من زمرة العصاة الذين ذهبوا إلى منزل سعادة سلطان باشا واشترك معهم فى المنادة بخلع الحضرة الخديوية »^(١) ، وبذلك يمكن القول أنه لقن تلاميذه المبادئ التى آمن بها ، فاعتنقوها وراحوا يعملون بها .

وأصبح محمد عبده ثورياً متاجراً فلم يكفيه عزل توفيق الذى سعى إليه ، وإنما أراد التخلص منه إذ أنه « لما ورد الخبر من الإسكندرية بانتقال الركاب العالى من سراى الرمل إلى سراى رأس التين ، كاد يتمزق من الغيظ و أخذ يرميهم بالضعف والجبن وسفه رأى لعدم نجاحهم فيما أغراهم من أمر الفتك » ، وفى حديث له مع سعيد البستانى مترجم أفرنجى بقلم المطبوعات قال له « لابد أن تعلم أن سلطان باشا هو الذى يستحق القتل ، فإنه هو الذى ثبت قدم الخديوى ، وهو الذى أحدث فيه الجراءة على مقاومة العسكرية ، فوالله لو سمع الحزب العسكرى نصيحتى لفتك بالخديوى وكان الأمر مقضياً »^(٢) .

وبذلك يتضح أنه لم يعد المصلح المعتدل الذى يطالب التدرج فى الوصول للغايات المنشودة ، والذى كان يصف العسكريين بالثهور ، فقد أصبح يلومهم عندما فشلت مسألة اغتيال توفيق ، ورغب فى أن ينجح فيما فشلت فيه القيادة ، أراد أن ييتر الخيانة التى تمثلت فى سلطان ، عندما اكتشف تحريره لبعض العمدة والمشايخ خطابات لمنعهم من تقديم المساعدات للثورة .

هذا ويجب أن نضع فى الاعتبار فكر الإمام فى مسألة جعل مصر جمهورية ، وقد اتحد فى ذلك مع باقى مثقفى الثورة ، وتم السعى لتحقيق هذا الهدف ، لكن الظروف تكاثفت ووقفت أمام النجاح . وواصل نشاطه الدائم حتى النهاية ، فهو مقتتل ما بين تحرير صحيفة الوقائع المصرية والاجتماعات ، ويسافر إلى كفر الدوار ، للقاء مع القادة على الأقل مرتين أسبوعياً ليشارك فى رأى ، ويؤيد ويشجع وبيارك جميع خطوات الثورة . وعقب الإنكسار ، أعلن بالقاهرة « إننا وإن كنا انهزمنا فلا بد أن نصنع بمصر كما صنعنا بالإسكندرية ، ولن يدخلها توفيق باشا إلا رماداً ، وأن

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١٩ ، تقارير وشهادات ، ص ٤٨ .

(٢) المصدر نفسه ، دوسيه ٨٩ .

خط الرجعة محفوظة للجهادية إلى آخر أقاليم السودان^(١) ، أنه لم يرض بالتسليم ، وأراد الاستمرار في الكفاح من أجل انتصار الثورة .

عبد الله النديم والصحافة الثورية

مع قيام الثورة تبلور الرأي العام وسيطر الوعي على قوى الأمة ، ومما لا شك فيه أن الصحافة واصلت دورها في العمل على المزيد من الإعداد التام للثورة ، وذلك بتصعيد الحملة على نقد المجتمع سواء تحكم الأجانب ، أو السياسة المالية ، أو تلك العيوب الاجتماعية التي انتشرت ، ثم التأييد الكامل للثورة والقائمين عليها وعرض النظريات السياسية التي تموج بالحرية والديمقراطية .

وأصبح للصحافة الكيان المرموق ومضى الشغف يسرى على القراء لذا فإن لدور أصحابها أهمية كبرى ، إذ تمكنوا من التطرق إلى الموضوعات التي كانت تدخل قلوب المصريين وتغذى أرواحهم . ولم تكف الصحافة عن المطالبة بالإصلاح ، وراحت تشر علاج النكبات والمصائب التي حلت بالوطن وأهله ، وكانت الصحيفة التي حملت لواء الإصلاح الاجتماعي ونقدت المجتمع وفجرت الإحساس الثوري هي التكتيك والتبكيك التي نزل بها النديم لميدان الصحافة ، ولم يكن هذا أول عمله في الصحافة فقد كتب في الصحف المعارضة قبيل الثورة ، ولكنه أراد أن يستقل بنفسه بتأسيس صحيفة خاصة به بعد أن تأكد أنها خير وسيلة للعمل الثوري ، فيقول « واجتمعت برياض باشا في مصر وقد أضمر لي الأمر ، فتناقفته وناقضني ، وجاذبته الحديث فوافقني ، حتى أخذت منه إذنًا بجريدة التكتيك وما أردت إلا التبكيك ، وقصدت أن تكون لساني إذا تركت الجمعيات ليكون لي في كل بلد محافل خطابية »^(٢) .

لقد أراد النديم أن ينفذ إلى داخل المصريين ويخاطبهم بما يهوى ، إذ أرادها صحافة للجميع ، وكان من أوائل من أدركوا في مصر أن لغة الصحافة البحتة ينبغي أن تكون غير لغة الأدب البحتة ، وصدرت الصحيفة فقالت عنها صحيفة الكوكب المصري « التكتيك والتبكيك وما أدراك ما هما ، علم في جرنال جديد نسيج على منوال النصيحة بعبارات مألوفة وإشارات معروفة ، صدر عن صفاء عقل ونقاء قلب وجودة تفكير وخلوص نية ومحبة وطن ومحمود سيرة وممدوح سريرة ، فأرانا كيف يداوى الداء بالدواء ، وكيف يتفجر من الجماراة الماء ، فشكراً لك يا نديم المثلوك

(١) المصدر نفسه .

(٢) عبد الله النديم ، المصدر المذكور ، ص ٥٥ .

ويا مربى النفوس ومهذب الأخلاق على قريحتك التى هى أصفى من ماء السماء وأحلى من الوفاء»^(١) .

ويطبع النديم من العدد الأول ثلاثة الاف نسخة فلا يرتد منها إلا خمس نسخ فقط ، وبعد ذلك كانت الأعداد تنفذ ساعة صدورها ويتخطفها الناس فى ابدن والقرى وخاصة رجل الشارع الذى وجد من يهتم به ويحل له مشكلاته ، ويقول النديم إنه « لم يبق بمكتب الإدارة ولا نسخة من العديدين الأول والثانى وكثر علينا طلبهما ، فنعد حضرات النبهاء ومشتكى الصحيفة بأننا سنطبع العديدين ونوزعهما لكل من لم يصله »^(٢) ، فكانت دائرة معارف مصفرة ، وجهها للناطق بالضاد وعرفها « هى صحيفة أدبية تهذيبية تتلو عليك حكماً ومواعظ وفوائد ومضحكات بعبارة سهلة لا يحتقرها العالم ولا يحتاج معها الجاهل إلى تفسير ، ويخبرك ظاهرها المستهجن بأن باطنها له معان مألوفة ، لا تلجئك إلى قاموس الفيروزباده ، ولا تلزمك مراجعة التاريخ ولا نظر الجغرافيا ، ولا تضطرك لترجمان يعبر لك عن موضوعها ولا شيخ يفسر لك معانيها ، فهى مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم وفى بيتك كخادم يطلب منك ما تقدر عليه ونديم يسامرك بما تحب وتهوى »^(٣) .

وبناء على ذلك انتشرت فى طول البلد وعرضها ، وصار قراؤها من جميع الأوساط ، يتلهفون عليها ويتلقونها بشغف شديد ويقبلون على قراءتها إقبالاً شديداً ، ويجلس الأميون ليقرأها لهم من يعرف القراءة ، وقد أدرك النديم ميل المصريين إلى الأسلوب القصصى وتفضيله على باقى الأساليب ، لذا وجه عنايته به ، وكثرت مقالاته التى لها فى العمق معنى ، فهو يخاطب كل مصرى ويحثه على مراقبة الحكومة ويهاجم النفوذ الأجنبى الذى طغى على الوطن « لا تتركوا الغرياء يتولون خدمته ، ولا تمكنون الأجانب من الوصول إليه » ، وينقد طبقة الأفندية العائدة من أوروبا والتى تخلت عن مبادئ الفلاحين الأصيلة وحتى عن لغتهم . ويبين أهمية الصحافة « إنها السنة الأمم ، وترجمان الملوك ، وسير التجارة ، وأعمال العقلاء ، وصنائع العلماء ، وخطب النبهاء ، وتاريخ الأذكاء ، وما قامت به هذه الأمة من عمار وطنها وحمايتها له وحفظها من امتداد أيدي الغير إليه وما أهملت فيه تلك الأمة حتى خاتلها الغرب وتداخل فى شئونها وحجز على أهلها عوائدهم ومذاهبهم » ، وكان تركيزه قوياً على مسألة الصحافة لدرجة أنه طالب بتعليم القراءة « ليتسنى لكل فرد صحيفة يقرأها ».

(١) الكوكب المصرى ، عدد ١١٠ فى ١٧ يونيو ١٨٨١ .

(٢) التكييت والتبكييت ، عدد ٢ فى ٢٦ يونيو ١٨٨١ ، ص ٤٥ .

(٣) المصدر نفسه ، عدد ١ فى ٦ يونيو ١٨٨١ .

كذلك تناول مسألة النهضة التعليمية التي رأى أن تبدأ بفتح مكاتب ابتدائية في المدن والقرى على نفقة أهلها ، ويلزم كل والد بإرسال ولده إلى المكتب يقيم فيه نصف النهار والنصف الثاني يعمل بصناعة أبيه ، وضرورة تعميم التعليم^(١) .

ويعمل النديم على الرقى بالتفكير المصري ، وحث المصريين وفتح أعينهم على تلك المفاصد والأزمات التي تعيشها مصر ، وذلك بإلقاء بذور الثورة على الأوضاع وتوبيخهم على السكوت على ما هم فيه ، فيروى عن ازدحام لوداع شيخه من الأولياء « لم أر في تلك الأيام ما يماثل هذا الازدحام العظيم ، فقلت في نفس أسدت ديون الإفرنج وهذا يوم فرح أهل بلادنا ، أم خلصت الأموال المرهونة وهؤلاء متوجهون لاستلامها ، أم استردت الأتيان والأمالك لأهلها بالتبائع الشرعى بعد ذهابها بالدعاوى الباطلة والقضايا الملفقة وهؤلاء أصحابها متوجهون لتهنئة مليكهم برد منبع ثروتهم ، أم الجيوش عائدة من الانتصار على عدو أراد إذلالتها والناس مزدحمة لمقابلة أبنائها وتهنئتهم »^(٢) .

ويسعى النديم لتقويم المجتمع من ذلك الانهيار الذي حاق به وصاحب الشباب وأضر بالبلاد « أسواق التجارة في كساد وأسواق الفسوق في ازدحام عظيم وصرف جسيم ، حتى كأن المولد أقيم لغنيمة قهاوى الأروام ، وما اكتسبه شبابنا طول العام ، يدخل القهوة يوحد الشموع ويطلب الخمر ويشرب الحشيش »^(٣) .

ويشن النديم حملاته الهجومية على الأجانب الذين كونوا الثروات بامتصاص دم الشعب، وأفاض عن أدوارهم في الريا وعدد حوادثهم في غبن المصريين ، وأثار الحمية الوطنية ، وطالب بعدم السكوت على ذل الأجانب وشطب كلمة « معلش يا خواجا » وشجعهم على استرداد حقوقهم ، والقضاء على مفاصدهم من فتح الخمارات وبيوت الفاجرات ، وبين أنه يجب أن يستبدل الشبان مجالس السكر بمجالس المطالعات والآداب ، وحنانات الفجور بأندية المطارحة والمسامرة بالسياسات ، لترتب لهم ملكة يجولون بها في فنون السياسة ، ليحفظوها من أيدي الطامعين فيها ويملاؤها عدلاً وإحساناً وإصلاحاً عندما يندبون للشورى^(٤) .

(١) المصدر نفسه ، عدد ٢ في ١٩ يونيو ١٨٨١ ، عدد ٤ في ٣ يوليو ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، عدد ١٠ في ١٥ أغسطس ١٨٨١ .

(٣) المصدر نفسه ، عدد ١٥ في ٢٥ سبتمبر ١٨٨١ .

(٤) المصدر نفسه ، عدد ١٦ في ١٢ أكتوبر ١٨٨١ .

ونراه ييث في الشعب الجراً من أجل المشاركة السياسية ، وينزع منه الخوف الذي سيطر على الناس مع رياض فيقول « وجود شبان أو شيوخ في مكان يتحدثون بأمر سياسي وعيونهم ترمق المارين وقلوبهم ترجف خوفاً من الجاسوس المسمى البصاص ، وربما تكلمت مع أحدهم في أمر فيبدأ بقوله مألنا ومال الكلام ده ظناً منه أنك بصاص ، وهذا الذي أمات الأفكار وأورث الذل والرعب وصيرنا لعبة في أيدي الأجانب »^(١) .

ويهاجم النديم الأتراك والشراكسة الذين ابتليت بهم مصر التي تتكلم وتقول « قوم وفدوا على أبنائي شعناً غبراً مدرجين في أطمار بالية ، فمكنتهم يد الأقدار من خدمة أمرائي فتحلوا باللائى ، ولبسوا مطارف الخز ، وركبوا جياد الخيل ، وأصبحوا بين أهلى في كبرياء وعظمة ورغد عيش ونعمة كأنهم من العائلات الحاكمة ، قفلوا الكثير من الأبواب وأعدموا الألوف من الأرواح ، ومتى تتبعت أفكارهم ، نزل عليهم بسوط العذاب وحبسهم في بئر الاستبداد وأوقفهم تحت سحب مظلمة يمطرهم حجارة من نهب وسلب وقتل وتشريد » ويحول النديم الدفة على الأوربيين على لسان مصر « فما رأيت من قصر لطيف فذاك للمسيو ، وما نظرت من جفالك وأبعاد فهذا للمستتر ، وما بلفك من بنك ومتجر فهذا للخواج ، وما سمعت من رفعة وإنعام فهذا للسنيور ، وقد صار الإسكافي عندنا مهندساً والمزين طبيباً وخادم الخيل رئيساً وذليل بلاده عزيزاً وطريدها محبوباً ، وأهلى يجاهدون في خدمتي فتدركهم جهالة أمرائي بالهزيمة ، ويرفعون رؤوسهم جهة العلو ، فتظلم عليهم سحب الغفلة وتحجب عنهم شمس الحرية المنيرة » ، ليأتى قصر النيل ويبدأ الحال في التغيير « وبات أبنائي يتشاورون ويتراءون ، وقد تفتحت العيون وتبعت الأذهان وتحركت الدماء واشتعلت الأفكار ، وابتدأ بأخذ العهود والمواثيق على أنفسهم بحماية البلاد ووقاية أهلها ، وكان هذا سبباً في ربط القلوب وعقد المحبة وتوحيد الكلمة واتفاق المشرب » ويأتى التاسع من سبتمبر « انتصروا بالحق وفازوا بإبعاد العدو وفتح باب الشورى »^(٢) .

ويُحْمَلُ النديم مجلس النواب المسئولية للوقوف أمام الأجانب واستغلالهم ، وبعد أن يعدد ما استحوذوا عليه من وظائف رئيسية ، يذكر دورهم في إنشاء البنوك والاستيلاء على الأراضي « ولا شك في أن مجلس نوابنا لا يسلم بشيء من هذا ، ولا يبيح لأحد حق التملك بعد الذي فقدناه » وراح ينادى بالإصلاح لإنقاذ البلاد

(١) المصدر نفسه ، عدد ١٦ في ١٢ أكتوبر ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، عدد ١٧ في ٩ أكتوبر ١٨٨١ .

مما طرأ عليها بعد أن أدرك بثاقب فكره وموهبته كيف طغى سيل الغرب على الشرق ، وكيف أوشكت الحضارة الأوروبية أن تجرف الحضارة الشرقية^(١) .

وبجوار تناوله نقد المجتمع وإصلاحه مضى يعرض فكره ، فتكلم عن سيادة القانون « مات زمن تحرير التذاكر السرية لإبعاد زيد ونفى عمرو وجاء زمن القوانين والأحكام الحقة » ، ويعرف الحرية « الحر من ملك أمره ولم تنقيد أفكاره بفرض ما ، وإن كان لا مدلول له ، فإنه محجور عليه لا يلتفظ به إلا في سرداب ولا يكتب إلا في أوراق ، ولا يكون اللفظ حراً إلا إذا جاز تناوله في كل مكان وتلى على أعواد المنابر » ، وينفرد النديم بأنه أول مفكر مصري يكشف في ذلك الوقت الجانب الاجتماعي لمفهوم الحرية لكي يعطيها بعداً اشتراكياً « لو نظرنا إلى إنسان الوجود الحالى في سائر البقاع المسكونة لرأيناه بعيداً عن الحرية سواء في هذا تابع الحكومة الجمهورية أو الشورية أو الاستبدادية ، فإن الوجود مضبوط بممالك مقيدة بقوانين وضعت بأغراض ذاتية وأفكار مقصورة على فرد أو بعض أفراد ، وإن قيل أن الممالك تعرض القانون على مجالسها قبل تقريره ، قلنا إن الممالك مقصورة على أرباب الثروة أو أهل الكلام وليست الأمة كذلك »^(٢) ، فالنديم يطالب باشتراك الشعب اشتراكاً فعلياً في حكم بلده ، وألا يكون ذلك قاصراً على الأغنياء وحدهم ، وقد نبع ذلك من حبه للفقراء والمناداة بتحقيق مصالحهم .

ويعرف النديم الوطنية بأنها غذاء ينتفع به جميع الجسم ، بحيث لا يترك عرقاً من عروقه إلا وقد أجرى فيه ماء الوطنية التي هي حفظ البلاد ولغتها وعاداتها الجميلة وتوسيع العمران بالصنائع والمعارف والأمن والثروة ، وموته في ترابها كما نشأ فيها .

وبيّن النديم وجوب مصرية الحاكم وأهمية ذلك للوطن « أما حقه عليك من جهة الحاكم ، فهو حفظ سلطوته وتخليد ملكه والدفاع عما يشين مجده أو يضعف قوته ، والموت في إحياء كلمة الوطنية باسمه ، فأنت تعلم أن الحاكم إذا كان من أهل البلاد عاملهم بمقتضى عوائدهم وطباعهم وأخلاقهم وحفظ لهم ناموس الشريعة للتمسك بها معهم وخاف عليهم خوفه على ولده وأهله ، فإنه يعلم أنه بهيئاتهم الاجتماعية ملك عظيم وبدونهم فرد من الأفراد ، ولو كان الحاكم من غير جنسك

(١) المصدر نفسه ، عدد ١٨ في ١٦ أكتوبر ١٨٨١ ، عبد اللطيف حمزة ، أدب المقالة الصحفية في مصر ، ج ٣ ، ص ٥ .

(٢) المصدر نفسه ، عدد ٤ في ٣ يوليو ١٨٨١ .

لنزع عايك الوصول إليه ، وإن وصلت لغته وإن عرفتتها كنت حقيراً في عينه ذليلاً بين يديه ، وإعلم أن الحاكم الروح والوطنيون الجسد »^(١) .

والعروبة عند النديم فكرة تتردد كثيراً في كتاباته ، وهي لا تتناقض ولا تتعارض مع مصريته ، فكما كان يفخر ويشيد بالتاريخ المصري القديم نراه نفس الشيء مع التاريخ العربي فيظهر فضل العرب على الحضارة الأوربية ، وهو يدمج المصرية مع العربية كثيراً على أساس اعتبار اللغة أساس الرابطة الوطنية^(٢) .

ويعمق في النفوس الفكر الاشتراكي بتلك الحملات التي شنّها على الأثرياء ، وما وصل إليه حال الفقراء وصوره تصويراً دقيقاً ، وكانت للتجارب القاسية التي عاشها بنفسه مادة خصبة لصحافته فتنب على كل شيء وكشف عن الكثير من الصعوبات التي يعيشها الفقراء « نرضى بالخبز والملح ولا تقنعون بالآلوف من الجنيهاً وتقتنع بالقرش الواحد ، أخلقتم من الذهب وخلقنا من التراب ، أم ولدتهم قابضين على الدنيا وولدتنا عبيداً لكم ، أم نزلتم من السماء ونزلنا من بطون الأمهات ؟ ألا ترون أنكم تعدون بالأصابع في بلادنا والفقراء هم الأمة »^(٣) .

وكان يقدم هذه الأفكار ويقربها للعامة عن طريق الزجل حتى يكون لها التأثير الفعال .

اهل البنوكة والاضطيان صاروا على الأعيان أعيان

وابن البلد ماشى عريان ممعاه ولا حق الدخان

شرم برم حالى غلبان^(٤)

إذن فاتجاه النديم اتجاه ثوري جارف ، فهو يؤمن بالشعب وقواه وطبقته الكادحة وقدراتها وتضحياتها من أجل الأثرياء ، وهنا كان الاختلاف بين النديم ومحمد عبده الذي خدم الطبقة الوسطى أكثر من الطبقة الشعبية ، تلك التي التصق بها النديم وهذا مما جعله « صحفي الشعب كله لا يستغنى عن قراءته رجل ولا امرأة بل أن النساء رجونه أن يحرق لهن مجلة خاصة بهن من دون الرجال ، وقلن له إنك وحدك القادر على ذلك »^(٥) .

(١) المصدر نفسه ، عدد ١٤ في ١٨ سبتمبر ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، عدد ١٤ في ١٨ سبتمبر ١٨٨١ .

(٣) المصدر نفسه ، عدد ١ في ٦ يونيو ١٨٨١ ، عدد ١٧ في ١٩ أكتوبر ١٨٨١ .

(٤) المصدر نفسه ، عدد ٩ في ٧ أغسطس ١٨٨١ .

(٥) عبد اللطيف حمزة ، أدب المقالة الصحفية في مصر ، ج ٢ ، ص ٢١٠ .

وأمتع ما قدمه لنا النديم من فكره كان على الشورى فى مقالته التى كتبها إبان الأزمة الدستورية التى قامت بين النظار ومجلس النواب بشأن الميزانية ، شرح فيها معنى الشورى بمفهومه المبسط « إنها غرس الأفكار فى أرض التبادل وسقيها بماء الحرية ، وخدمتها بيد الاعتدال لتتبت العدل وتزهر الحق وتثمر العمران ، فإن كان الانتخاب قاصراً على الأغنياء دون الفقراء كان المحفل وبالأ » ويتابع كلامه عن المجلس « يجب أن يشكل المحفل من نبهاء وأذكىاء وأمراء وأغنياء وعلماء وصناع وأعيان » ويطالب بحرية الانتخاب « وتترك ما كانت عليه من الميل للأغنياء والخوف من العمد والرغبة من الأمراء ، وتنتخب من تريد من أهل المعرفة والدهاء »^(١) .

وتولى النديم نشر الدعوة للثورة وكان اللقاء تاماً بينه وبين القادة ، فوقع عليه دور إعداد الشعب للثورة للقضاء على المظالم والمفاسد القائمة « فكان أول كاتب مصرى يعالج مشكلة القومية المصرية بذلك الأسلوب الشعبى ، وهو أول من سهل على الشعب استيعاب المفاهيم القومية التى كان إدراكها قاصراً على المثقفين والأرستقراطيين »^(٢) . وقد وجدت الثورة فى نفسه حباً عميقاً لأن مطالبها هى مطالب الشعب ، كما وجدت هى فيه مصرياً بمعنى الكلمة من الأصالة والوطنية والجرأة والخبرة ، حتى أنه قبل سقوط رياض نجده يكتب لمجلس النظار لنفيه خارج مصر ، لكن عندما عرض القرار على توفيق تصدى له على فهمى وقال له « إن نديماً منا معشر العسكريين وإن لم يحمل سلاح العسكريين ، ولئن أخذتموه بفتة من البلاد حافظنا عليه بالأرواح والأجناد »^(٣) وألفى القرار .

وكان النديم من المعتنقين للنظام الجمهورى ، وأراده لمصر ودعا إليه ، وله نشاطه فى ذلك مع رجال الثورة ، وكان عليه أن يصب فى الأذهان أسسه ، وخاصة بين الشباب .

وغدا النديم رسمياً الجهاز الإعلامى للثورة منذ بدايتها ، وقويت الحركة الوطنية بانضمامه إليها ، وأحس عرابى بدوره ، ومن هنا طلب من مأمور إدارة المطبوعات تغيير اسم التكتيك والتبكيك « لدخولنا فى عصر جديد وفوات أزمان التبكيك » ، ووافق النديم « بحمد الله تعالى خلاصنا من زمن التبكيك والتبكيك وأصبحنا فى زمن الحرية ومعرفة الحقوق »^(٤) .

(١) التكتيك والتبكيك ، عدد ١٧ فى ٩ أكتوبر ١٨٨١ .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، تطور الفكر السياسى فى مصر الحديثة ، ص ٢٢ .

(٣) عبد الله النديم ، المصدر المذكور ، ص ٥٦ .

(٤) التكتيك والتبكيك ، عدد ١٩ فى ٢٣ أكتوبر ١٨٨١ .

وصدر العدد الأول من صحيفة الطائف فى ١٠ نوفمبر ١٨٨١ ، وبلغت من الشهرة ما لم تبلغه صحيفة قبلها ، وأصبحت أكبر الصحف وأخطرها حتى أن سلطان رئيس مجلس النواب طلب أن « تنشر وقائع جلسات المجلس فيها وأفكار النواب » . ويعاون المجلس الصحيفة مادياً ، فيشارك فيها أعضاؤه بمبالغ كبيرة من المال^(١) ، بعد أن أصبحت لسان حالهم .

ويواصل النديم فى الطائف سياسته النقدية لكنها هنا كانت سافرة وموجهة رأساً إلى المعنيين ، فيهاجم إسماعيل ثم توفيق ووضع الأجانب واستيلائهم على ثروة البلاد ، ويعرض بؤس العامة سواء من الفلاحين أو سكان المدن الفقراء ، ويشرح حال الموظفين وتحكم الأجانب من أتراك وشراكسة وأوربيين فيهم ، فأثر على كل قوى الشعب ليشاركهم فى الثورة ، وشرح النظام البرلمانى ، وكذلك تناول الإصلاح الاجتماعى وشن الحملات على التراخيص بإدارة المواخير والحانات والمراقص والمغاني تحت اسم الامتيازات ، وشجع الصناعة ، واستمر فى الهجوم على الأغنياء ، ونادى بإصلاح حال الموظفين ، وأعلن الحرب على الرق ، ودعا الرقيق المحررين أن يكونوا جمعية ، وسجل كل أحداث مصر فيها ، وعرض سياسة الدول وخاصة فى مؤتمر الآستانة ، كما عالج أزمة الثقة بين الصحفيين المصريين والسوريين ، ونادى بوحدة الصف العربى ، ونفى التعصب الدينى الذى أدان به الأوربيون مصر ، وخرجت جميع المقالات باللغة العربية الفصحى ، وبهذا يكون النديم قد أضاف إلى الطائف ماثرة من مآثر دلت على فهمه لطبيعة الموضوعات التى تتطلب الكتابة بالفصحى ، وطبيعة الظروف التى توجب الكتابة بها^(٢) .

واحتلت صحيفة الطائف المكانة الأولى بين الصحف ولم يقتصر انتشارها داخل مصر فقط بل وفى خارجها ، فيذكر لنا يعقوب بن صنوع أنها تصل فرنسا فهو يرسل للنديم يقول « أحلف بحب الوطن يا عم إن كلما أتى جرنالك يزول عنى الهم من حلاوة أقوالك ومقالاتك الأدبية ، نورث مصرنا ونبذاتك السياسية حددت عصرنا ، وحياة دقنك يا عزيزى من عشقى فى فصولك الفريدة بأترجمها بالفرنساوى والإنجليزى »^(٣) ، كذلك عثر عليها مع الطلاب المصريين الثوريين العائدين من فرنسا من أجل الإنضمام للثورة .

(١) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، ج ٥ ، ص ٢٤٨ ، نفوسة زكريا ، عبد الله النديم بين الفصحى والعامة ، ص ١٦٣ .

(٢) الطائف ، عدد ٢١ ، ٢٩ يونيو ١٨٨٢ Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 394 ، عبد الطيف حمزة ، أدب المقالة المعجنية فى مصر ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .

(٣) إبراهيم عبده ، أبو نظارة ، ص ١٤٣ .

وشهدت لها الصحافة الأجنبية ، فتقول الستاندر « الوطنيون - المصريون - عن طريقها اهتموا باستطلاع خفايا السياسة الأوربية حتى علموا خباياها ، فالطائف وهي جريدة ذات أهمية عظمى صاحبها نديم من أرباب النفوذ عند عربى ، قد أخذ فى ترجمة أهم المقالات المدرجة فى الجرائد الفرنسية والإنكليزية حال وصولها إلى مصر ، وبهذه الكيفية صارت الأخبار معروفة فى جميع أنحاء المدينة بلا استثناء »^(١) ، وبذلك نجح النديم فيما يصبو إليه .

وعند قيام الحرب انتقل النديم مع صحيفته إلى ميدان القتال ، ليسجل الأحداث ويحمس الشعب ، ويرفع من المعنويات ويزيد التآجج فى النفوس ، وأصبحت الصحيفة فى متناول الجميع منتشرة على أرض مصر كلها فى القرى والكفور والشوارع والبيوت والقهوى والدكاكين ، تتلى فيها تلك الانتصارات التى سجلها النديم ، وكذلك فى جميع المعسكرات ، فنرى طلبه عصمت يستعجل ببرقية إرسال نسخ منها « حيث إن النسخ لم تعد تكفى بعد أن تم توزيعها على قبائل العربان الموجودين بالطرق ونقطة أبو قير ومريوط »^(٢) .

كان النديم يصف المعارك بصورة تجعل النفوس مليئة بالحماس والقوة ، وكأنه يوم الملحمة « هجوم ليوث الوغى على أرائب الإنسانية وصيحاتهم تتعالى يا ثار إسكندرية ، يا مجد عربى ، يا شرف الوطن » ويتابع « نقاتل لنحيا حياة طيبة لا ذل فيها أو نموت على شهادة فتحيا حياة أخرى نرزق فيها عند الله » ، ويستشهد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة .

وراح النديم يبالغ فى وصف المعارك الحربية ، ويشيد بالعتاد الحربى وبذلك الهزائم التى أوقعها المصريون بالإنجليز ، أراد بذلك أن يقوى من نفسيات المحاربين فى الوقت الذى رغب فيه أن يقصى عن الشعب كل شعور بالقلق أو الخوف .

وهاجم توفيق بكل جرأة وشجاعة « بعد أن يؤس كل مصرى من عودته لحظيرة الوطنية ، بعد أن اعترز بالإنجليز وخلع طاعة السلطان وباع الأمة لأعدائها »^(٣) ، فقد كان يكرهه كل الكراهية ومضى يعلن أنه غير صالح للحكم .

وعندما سئل أحمد رفعت رئيس قلم المطبوعات عقب الثورة عن موافقته على طبع ما يسجل الذم فى الذات الخديوية أجاب : « إن كل ما حرره الطائف وخلافه

(١) الطائف ، عدد ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

(٢) محافظ الثورة العربية ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٧٦/ب .

(٣) الطائف ، عدد ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

من الجرائد كان نتيجة هيجان الأفكار ضد الحضرة الخديوية ، وهذه الأفكار كانت حاصلة عند جميع الأهالي حتى الأطفال في الطرق وليست خاصة بجريدة « (١) » ، إذن لم تكن صحيفة الطائف خالقة الثورة ، لكنها ذكت بروحها وأعطتها الدفعة القوية

ويشن النديم حملاته على أعوان الخديوى ، وصحافة المعسكر المضاد ، فأخرج ملحقاً خاصاً عن « سليم وبشارة تقلا وتوفيق باشا » هجم فيه عليهم ووصفهم بأنهم مأجورون ، وحارب ضد الإنجليز بقلمه ولسانه فجعلها حرباً صليبية ، واتجه للعالم الإسلامى والعرب ليثيرهما على السياسة البريطانية ، وعبا شعور الكراهية بعد أن نشر أفعال الإنجليز سواء التى ارتكبوها من قتل وهتك عرض وسرقه ، أو هجومهم على المنازل والمساجد وانتهاك حرمتها « (٢) » .

وقد كان لكتابات النديم الأثر العملى فى ذلك التطوع الجارف ، وفى تلك الأموال التى زحفت على الخزينة الحربية ، فراح يمجّد القائمين بها على صفحات صحيفته ، وهذا مما زاد من الحماس والتشجيع ، ويقال إن ما اتبعته الصحافة المصرية أثناء الحرب وخاصة صحيفة النديم « تماثل فى طرائقها أحدث ما يتبع فى الحروب الحديثة » « (٣) » . وبذلك يمكن القول إن النديم قدم نفسه للصحافة ، وعمل بكل جهده من أجل نجاح مهمته التى تمكنه فى النهاية من أن يفوز بما خطط له .

مواصلّة الصحافة للطريق الثورى

جاءت صحيفة المفيد لتلقى بثقلها على مسرح الصحافة عقب التاسع من سبتمبر وتلقب بصحيفة الثورة الثانية - بعد الطائف - لصاحبها مصطفى ثاقب ومحررها حسن الشمسى ، والأخير من خيرة مثقفى الثورة ، عمل بالتدريس ثم بالنظارة لمدرسة ليلية ، وأدى رسالته على أكمل وجه فى مجال التعليم ، ومن هنا وضع ثقله فى هذه الصحيفة لتخرج صفحاتها وتصبح بين الأيادى .

وخرج العدد الأول فى ٥ أكتوبر ١٨٨١ ، وتعددت موضوعاتها وتناولتها أقلام كثيرة من مثقفى الفترة فكتب فيها إبراهيم الهلباوى ، وسعد زغلول ، حيث كان من بين اتهامات أحمد رفعت « أن ما ذكر بجريدة المفيد كان بإملاء إلى سعد أفندى زغلول المعاون بالداخلية إذ ذاك ، والذى كان له الباع الطويل لتهييج الأفكار والفتن » « (٤) » ،

(١) محافظ الثورة المرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٨ .

(٢) الطائف ، أعداد ٣ ، ٤ ، ٧ أغسطس ١٨٨٢ .

(٣) إبراهيم عبده ، تطور الصحافة المصرية ، ص ١٢ .

(٤) محافظ الثورة المرابية ، محفظة ١٩ ، دوسيه ٨٥ .

وكانت المهام الملقاة على صحيفة المفيد عديدة ، فعليها أن تُجرح الأسرة الحاكمة ، وتهاجم الأجانب ، وتقرب الأفكار السياسية للأذهان ، ومن ثم نزلت إلى جميع الميادين لتقف بجوار الثورة وتحارب أعداء مصر .

كان إسماعيل الموضوع الخصب الذي راحت تطرقه ، فعمقت المزيد من الحقد والكراهية ، وفضحت جميع أعماله « هو منبع الفساد ومحط الضلال ، نهب الفلاح ، وابتلع المال وأعطاه للأجانب » ، كذلك اشتدت في الهجوم على توفيق الذي وصفته « الجبان المستخزي »^(١) . وفي محضر تحقيق صاحبها كان من بين اتهاماته « أنه يستعمل الهيجان وتشويش أذهان التلامذة بالمقالات التي تغرس في قلوبهم البغضاء والنفور من الذات الخديوية »^(٢) ، وقد اضطرب توفيق أمام تلك الحملات القاسية التي وجهت ضده ، لدرجة أنه كتب إلى مندوبه بالأستانة بعد أن جرح ذلك التجريح على يد الصحافة يقول « إن جميع الجرائد المطبوعة هنا في أيدي النظار وعرابي وهم يأمرونهم بالكتابة بما يشتهون ، وعليكم أن تفهموا صاحب الجوائب ألا ينشر شيئاً نقلاً عن الجرائد المصرية حتى الوقائع المصرية »^(٣) .

ومارست المفيد هجومها على الأجانب ، وسلكت طريق إثارة العداوة والبغضاء في قلوب المصريين ، فتطالب بوقف التدخل الأجنبي « فكفانا ما قد قاسيناه من لعب اليد الأجنبية بنا ، دراهمنا التي نؤسس بها المعامل التي تغنينا عن الأجنبي وتحرر منه ، فقد أوسعنا له المجال وضيقنا على أنفسنا » ، وتتابع بقولها « متى يستقيم لنا الراحة وقد علا فوق رؤوسنا عود التسلط الأورباوى وهو أعوج ، فكأننا فريسة وقعت بين أسدين هصورين ، يريد هذا أن ينهشنا بنياب طمعه ، ويرغب ذلك أن يمد إلينا مخالب شره ، فبأى وجه قانوني تتداخل الدولتان ؟ أبوجه كون وطننا باباً لطريق هند الأولى وجزائر الثانية ، أم بسبب أن لها ديناً جليته علينا السياسة الإسماعيلية ، أما الدين فإننا لا نتأخر في سداده لأوقاته طبقاً للمعاهدات سواء بقيت اليد الإنجليزية والفرنسية في الإدارة أو نزعتهما » ، وتخص بريطانيا في حملاتها ، ففي مقال لها يحمل عنوان « الإنجليز » تبين أنهم « أتوا حفاة عراة فأصبحوا أقرن من قارون وقد ساعدتهم الوقت بوجود إسماعيل باشا » وفي مقال آخر تحت عنوان « حارة الإنجليز » وصفتهم « بعدم مراقبة الإنسانية وعدم الذمة

(١) المفيد ، عدد ٢٧ أبريل ١٨٨٢ ، ٢٦ يوليو ١٨٨٢ .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١١٤ ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٣٩٠ .

(٣) محافظ الأبحاث ، محفظة ١٦ ، ١٨ مايو ١٨٨٢ .

وعدم مراعاة التمدن ، وأن ما ينطبق عليهم هو التوحش والظلم « وراحت تجسم الخطر الذى يهدد المصريين من سيطرتهم وتتخذ الخطوات السياسية التى اتبعت ضد مصر للقضاء على الثورة فرصة للمزيد من الهجوم^(١) .

وبذلك كانت مثل تلك المقالات لسان حال الثورة ، إذ عبرت عن كثير من معانيها وما يحسه الثوار ضد الأجانب وخاصة الإنجليز ، وكتب ماليت إلى وزير خارجيته يستصرخ منها ويبين هجومها على الحكومات الأوربية المسيحية وخاصة بريطانيا وفرنسا ، وتلك المعارضة التى تشنها على صحيفة التيمز التى سجلت أن الرقابة الأوربية كانت خيراً وبركة وإنقاذاً لمصر . ووصف المفيد بأنها متمسكة بالإسلام والقرآن ودائماً تظهر أمجاد العرب ، وأن صوتها يعلو بأن المسلمين أصبحت بلادهم فى خطر بعد أن ملّكوا الأعداء بيوتهم وأراضيهم^(٢) .

واهتمت صحيفة المفيد ببيان أهمية الشورى « إن مباني العمار لا تشاد إلا على قواعد الشورى مع أرباب الحكومة ، فبنوَاب الأمة يستتير الوطن بطابع سعده » ، وردت على من يصف المصريين بالتعصب « إن الأديان جاءت مبنية للعقائد والمعاملات ، فليس فيها ما يدعو المرء إلى إظهار موجبات الكراهية لمن خالفه فى العقيدة ، بل أظهرت لنا أننا لا نرفع سلاح الكراهية إلا فى وجه من حاربنا منهم ، ونهتينا عن توجيه الإيذاء لمن كان بيننا وبينه مودة^(٣) .

واتبعت أسلوب النديم فكتبت على لسان الوطن « شاهدت قوماً يسكنون القصور ويلبسون الديباج والخز ويجنون ثمار قسم متسع من أرضى المباركة ، فهم على جانب عظيم من الثروة والرفاهية ، واستدلكت من رطانتهم وقبعاتهم أنهم قوم أجنيون عن أنبائى ، ثم قوماً غيرهم يسكنون الخيام والأكواخ والمنازل الضيقة التى لا يرتضيها أولئك مبيتاً لخيول عرباتهم ، وقسماً ثالثاً يشابه الأولين فى الصورة الظاهرية ، ولكنه يعد أسوأ حالاً من ساكنى الأكواخ والخيم ، هم الذين يقلدون الأجانب ويشربون الخمر ويتعاملون بالريا ويلبسون البضائع الأجنبية وهم الذين مكنوا الأجانب من التسلط علينا^(٤) .

وبذلك نرى أن صحيفة المفيد كانت من خيرة الصحف ، فلها أسلوبها الممتاز الذى استخدمته فى كتاباتها عن الحرية والاستقلال ، وشغلت الأفكار بالقومية

(١) المفيد ، عدد ٣ فى ٩ أكتوبر ١٨٨١ ، محافظ الثورة المرابية ، محفوظة ١٠ ، دوسيه ١١٤ .

(٢) Egypt, No. 5 (1882), No. 2, October 31, 1881 .

(٣) المفيد ، عدد ١ فى ٥ أكتوبر ١٨٨١ ، عدد ٤ فى ٢٤ أكتوبر ١٨٨١ ، عدد ٧ فى ٤ نوفمبر ١٨٨١ .

(٤) المصدر نفسه .

المصرية التي تغفلت في النفوس ، وقد أعلن حسن الشمسى أنه سينتهى دور صحيفته « حينما يأتى يوم يقال فيه تنبه الغافل وتعلم الجاهل وغلت يد العادى وردت الحقوق لذويها والأرض لبنيتها » .

ولم يكن حسن الشمسى يحزر صحيفة المفيد فقط ، إذ صرحت له قيادة الثورة بإصدار صحيفتي السفير والنجاح ، وأعفى من تأمين المطبوعات ، وذلك من أجل توسيع القاعدة التي اعتمدت عليها الثورة في التوجيه المعنوى والتعبئة الروحية لقوى مصر الاجتماعية .

واتسع نشر الأفكار الثورية ، وتكذيب ما يصرح به الخديو والهجوم عليه ، ففى العدد الرابع من صحيفة السفير يذكر « إن توفيق باشا الآن فى قفص إنجليزى ، وقد انفصل عن حزب الأمة وانضم إلى عدوها ، ولذلك صار مبغوضاً عند جميع الأهالى والعساكر بما فيهم المستحفظين والبوليس ، ولم يبق عند أحد منهم أدنى احترام له »^(١) .

ومن أجل إثارة الشعب على الخديو نشرت فى عددها الأول أنه « أصدر أمر بإطلاق الرصاص على خطيب دعا فى المسجد للمسلمين فى صلاة الجمعة بالنصر ، وأنه أمر بسجن الشيخ عفيفى بسبب دعائه للمسلمين » ، كما كانت هناك المقالات التى تحرض على الحرب وتشجيع التطوع والتبرع^(٢) .

وتمضى صحيفة الفسطاط على نفس اتجاه سابقيها ، فتثير الخواطر ضد توفيق وتعطى المكانة لعرابى ، وتتادى بضرورة الحرب والدفاع « أما من يلوم الحزب الوطنى على الاستعجال بالحرب ، فإننا نقول له لو كنا أحراراً فى بلادنا لما حاربنا ولما حوربنا ، ولكننا كنا تحت نظر المراقبين وتحت نظر القناصل وتحت نظر المحاكم المختلطة وتحت نظر مكاتبى الجرائد الأورباوية ، وكنا لا نقدر على صرف قنطار ولا دينار فى صيانة الوطن »^(٣) .

وكان لأحمد رفعت رئيس قلم المطبوعات دور فى تلك المسيرة ، وهو على أعلى مستوى من العلم والثقافة إذ استقاهما من باريس ، وبالرغم من أنه ابن لباشا تركى فإنه على درجة من التفتح ، وله من المبادئ ما جعل قادة الثورة يسلمونه زمام الإعلام ، فقد كان قلباً وقالباً مع المصريين وحتى بعد الإنكسار ، يعلن صراحة بأن الحركة الوطنية حية ولم تمت ، وقد أسهم بنصيب وافر فى نجاح رسالة الصحافة

(١) محافظ الثورة العربية ، محفظة ١٠ دوسيه ١١٤ ، محفظة ٢١ ، دوسيه ١٨ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الفسطاط ، عدد ١٢ فى ١٣ يوليو ١٨٨٢ .

أثناء الثورة ، وعمل كاتب سر مجلس النظار - نظارة البارودي - ومن اتهاماته « كاتب وكاتم أسرارها ، مراسلاً وأمراً ومكاتباً جميع الجرائد بنشر الخطب والقصاصد والأراجيف والمقالات والطرقات التي أوجبت تهيج الأوباش وتجارهم على ارتكاب أمور شنيعة ومنكرات فظيعة »^(١) .

وتعد مبادئه من الدعامات الفكرية التي ارتكزت عليها الثورة ، فإيمانه راسخ بالحياة النيابية ، وعقب تكوين مجلس النواب صرح بأنه تقوية وتحقيق لآمال مصر كلها ومزیداً ودعماً للوطنية المصرية ، وكان يثبت دائماً أن الثورة ليست قاصرة على أفراد أو هيئة ، إنما هي ثورة شعب من أجل حريته فيكتب لإحدى الصحف « إن المدافع عن حقوق الأمة لم يكن أحمد عرابي بل معشر المصريين أعنى خمسة ملايين وهم تحت السلاح »^(٢) ، وينتقى من الصحافة الأوربية ما يتفق مع المصلحة الثورية « فيؤشر عليها بالقلم الرصاص الأحمر ويعطيها لحسن الشمسى لى ينقلها فى الجرائد المصرية » ، فحدث أن أمر مترجميه بترجمة ثلاث تحريرات « أحدهما يتعلق بأفكار أهل السياسة فى إنجلترا وخصوصاً أفكار الحزب الحر فيها ، والثانى بأفكار بسمارك ، والثالث من هذا القبيل »^(٣) ، من هنا كانت أفكاره تتفق مع المفاهيم السياسية الحرة الحديثة .

وفى التقرير الذى قدمه لمحامى الثوار برودلى ما يعطى المزيد من نوعية تلك العقلية حتى بعد أن وضع فى قفص الإتهام ، وفشل ما كانت تسعى إليه الثورة ، ففيه يبين أنه سيأتى اليوم الذى يحلم به وتنتصر فيه مصر على بريطانيا وتهزمها ، وأظهر عظمة الشرق وأن الغرب مخطئ حينما فكر أن الشرق فى حاجة إلى تعليم ، لأن المبادئ الفكرية الحرة موجودة فى مصر ، فالحرية والراديكالية والإيمان بأن الجميع سواسية أمام العدالة مهيمنة على الفكر المصرى ، كما بين وسرد جميع الظروف التى أدت بالمصريين إلى الثورة وكيف أنها مثلت ضرورة وحتمية^(٤) .

كانت لصحيفة يعقوب بن صنوع التى يحررها فى باريس وتصل مصر بمختلف الطرق ، نشاطها الواسع فى ازدياد الشعور انفعالاً والثورة اشتعالاً ، فقد تحقق ما تمناه لمصر وهو خارجها ، فراح يغذيها ويزكيها ، وعقب قصر النيل هاجم حكومة

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١٩ ، دوسيه ١٩ ، نشرت ذلك الصحيفة الفرنسية Le Temps .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١١٤ ، تقارير وشهادات مقدمة من كبار الموظفين

الوطنيين والأجانب إلى لجنة التحقيق . تقرير ١٧ ، ص ٨٦ .

Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , pp. 203, 204, 206 .

(٤)

رياض ، دافعاً الشعب للثورة على حكمه « ما هذه الأفعال وعلام هذا الاستبداد والتحكم في عباد الله بالظلم والعدوان ، أكان أبناء مصر عبيد أبيك الوزان واستودعهم في يدك » ، ويحذره « فإنته عن هذه الأفعال قبل أن ينتهي بك الندم » ، وينادي الشعب « قوموا مثل ما قاموا الضباط عليه ، واطلبوا رقت محاسيبه المجرمين وتعيين نظار معتبرين من بين أعضاء ميدان الحرية ، وبمدها إبعثوا قواس يجرجروه إلى ديوان الحقانية ، وفي وقتها اطلبوا منه جميع الحسابات وخلصوا تار الفلاحين والأهالي والذوات » ، ويمضى في التحميس « أتركوا التآني والإهمال وفرجونى همة الرجال ، وارفعوا رق العبودية على أعناق إخوانكم وإعملوا لكم مجلس نواب من أبناء الوطن المثقفين بالفضائل الجليلة ، وإجعلوا لكم وزارة عادلة منصفة حليلة تكون على كيفكم وعوضاً عن دوامكم في القهاوى والبيراريات ، إتجمعوا في محافل أدبية وطالعوا فيها تواريخ جدودكم العرب (*) .

وعليه يتضح أن يعقوب بن صنوع كان على دراية بالخطوات الكاملة للإعداد الثورى ، وهو ينهج نهج النديم في مسألة القومية من ناحية ، وخلق وعى للشباب من ناحية أخرى ، ويمضى ليبين حقوق الأمة « للأمة حرية البحث بملاحظة ميزانية إيرادات ومصروفات فروع الحكومة ، ولها أن تصلح من شأن الرسوم الميرية وجهات الإدارة والشعونات بالمرتبات الخارجة عن حد التناسب الجارى صرفها إلى أجاناب جاهلين عوايد البلاد وشئونها ، ومن حق الأهالي تغيير الجمارك وما يماثلها ، ومن حق الأهالي التأمل إلى مادة مجالس الحقانية المختلطة ، ومن حق الأهالي مراقبة أعمال الزراعة ، ثم حقوق جمهور الأمة الذى ينوب عنه نواب ذوى النباهة والتعقل فى رأى غير مأسورين فينتخبهم الجمهور من كافة درجات الأهالي » ، وكانت هذه هى مطالب الثورة .

وعقب التاسع من سبتمبر وسقوط رياض ، يملؤه الفرح بذلك الإنتصار « أقدم الليث العربى نائب الجيش ومن خلفه أسود الوغى وأشبال القتال ، يريدون قهر دولة الاستبداد ورد صولة الفساد وإحياء الوطن بالحرية وهيئة شورى ، فراغ لهم المستبد الأكبر (توفيق) المفسد الأول روغان الثعلب وانخفض لديهم انخفاض رأس الأرنب » ، وينادى بإسقاط الخديوى ، ويضع نظام الحكم الذى يمكن لمصر أن تسير وفقه « تبين لى أن أفكار جمهور من الوطنيين خلق الأمة للحاكم ، أعنى الخديوى وقومه وجعل مصر حكومة جمهورية تجرى بمقتضى قانون قانون الجمهوريات الحرة

(*) الحاوى ، عدد ١ فى ٥ فبراير ١٨٨١ ، عدد ٤ فى ٢٥ مارس ١٨٨١ ، أبو نظارة لسان حال الأمة المصرية ، عدد ٢ فى ١٣ مايو ١٨٨٢ .

وتتنزع عموم الأجانب من دوائر حكومتها وتستمر في إصلاح شئونها ، إننا نرى المصريين اليوم يجمعهم قول واحد وهو خلع الخديوى الحالى»^(١) .

ومن هنا نرى أنه لا يعمل على حلیم فی مسألة الحكم بل يريد لها جمهورية ، وكان ذلك مبدأ الثورة ، فهي كما يرى الصالحة لحكم الناس ، وقد كتبت عنه صحيفة « لوجلوا » أنه المعبر عن رأى الحزب الوطنى ، وأول من قال عبارة « مصر للمصريين » التى أخذت طريقها للأمام ، كما شملت أفكاره المبادئ الاشتراكية ، إذ كان صديقاً للنائب الاشتراكى « كلومش سليج » منذ عام ١٨٨٠^(٢) .

ولم يكن راضياً عن شريف منذ البداية الذى كان يسميه « الديك الرومى » فيهاجم قانون المطبوعات الذى أصدره ، ويرسم شريف مكتم أفواه الكتاب وموثق أيادهم أمام ممثلى الأجانب الذين هم سعداء بذلك ، ويلقى « إكسروا أقلامنا وسدوا أفمنا ، برضنا ننتصر على أخصامنا ونكسر أنف أظلم حكامنا والرب كريم يسعد أيامنا »^(٣) .

وقد أقلق هذا النشاط المفعم توفيق ومعسكره ، حتى لقد شكاه إلى نظامى باشا المبعوث العثمانى الأول ، واتهمه بأنه يعمل لتأصل القومية فى مصر « إن هذه لا يروج لها أحد سوى أنصار سعادة حلیم باشا فى الصحيفة المعهودة التى تصدر بياريس فتدخل مصر خلصة وتوزع مجاناً على أفراد وضباط الجيش » فأجابه نظامى « إن ضرر مثل هذه الجرائد التى تتمتع بقسط كبير من الحرية بالحكومة المصرية لا يخفى على أحد ، فكان الواجب عليها إذن عدم إطلاق الحرية لهذه الجرائد والصحف من دخول مصر »^(٤) .

وبالرغم من المحاولات المضادة للوقوف أمام تلك الصحافة ، فإنها كانت فى متناول الجميع يتلقونها بشغف وينتظرون وصولها بفارغ الصبر ليلتقوا بهذا الثائر لتزداد ثورتهم ، وقد سجل نينيه عنه ، وكان قوله الواقع « إنه الدهشة الشعبية المحقة ، وأشهد أنه جعل الناس يهتمون بالسياسة ويتعلمونها منه ، فأصبح

(١) أبو نظارة لسان حال الأمة المصرية ، عدد ٤ فى ١٠ يونيو ١٨٨١ ، عدد ١٧ فبراير ١٨٨٢ ، عدد ٢ فبراير ١٨٨٢ .

(٢) إبراهيم عبده ، أبو نظارة ، ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٣) أبو نظارة لسان حال الأمة المصرية ، عدد ١١ فى ١٨ نوفمبر ١٨٨١ ، عدد ١٣ فى ١٨ ديسمبر ١٨٨١ .

(٤) البرقيات المتبادلة بين القاهرة والأسنانة أثناء الثورة العرابية ، ترجمة الدفتر رقم ٢٨٨ ، ص ١٠ .

معبودهم، فهو الرسول الحقيقي لعهد ، والعنصر الفعال في الحركة الوطنية ، وكانت صحيفته تصلنا من باريس إلى مركز القيادة الحربية هنا «^(١) . وبذلك يتضح دور هذا المثقف الذي توغل في أعماق المصريين ، وأعطاهم المزيد من الدفعات الثورية حتى على أرض المعركة .

وكان للصحافة الأوربية الأثر الكبير في المساعدة على اليقظة العامة والتحفز ، فكثيراً ما كانت تتناول كتاباتها الحط من قدرة المصريين ومحاولاتها المتكررة لتحطيم كيانهم، وقد أعطى ذلك المزيد من الحماسة فأتى بنتيجة عكسية على غير ما ترجوه ، كما تناولت الصحافة المصرية الرد الفوري في تلك المقالات التي هاجمت فيها الأوربيين ومؤسساتهم ، فترد صحيفة الوطن على صحيفة التيمز بقولها « إن قول جريدة التيمز بأن المصريين منغمسون في الجهل إنما هو تعصب ذميم ، والدليل على تقدمهم أنها ذكرت وجود عشر جرائد عربية واستكثرتها على خمسة ملايين نفس ، ولو كانت الأهالي كما قالت لما كثرت الجرائد ، إذ وجودها وكثرتها يدلان على تقدم الأهالي «^(٢) ، وتشبع المصريون بأفكار واتجاهات صحافتهم وتحركت فيهم الرغبة في الوصول إلى أعلى الدرجات .

كذلك كان من بين ما تناولته الصحافة الأوربية ، تلك الأفكار التحررية التي وجد فيها المثقفون الفرصة للمزيد من التطلع ، فنقلوا عنها وترجموها ما يوافق هواهم وما يعمل على توسيع المدارك والمفاهيم . كما كانت اتجاهاتها المصحوبة بالتيار الاستعماري مادة خصبة لتفتيح الأذهان على نوايا الدول أصحاب المطامع ، ففى لندن كان عليها أن تهيبء الرأي العام وتطالب باحتلال مصر ، خاصة بعد أن أعلنت الحماية الفرنسية على تونس ، فنتجت عن ذلك الإثارة الكاملة للمصريين ، واشتد النفور عندما علموا « استباحة الفرنسيين حرم المساجد واعتدائهم على النساء »^(٣) ، ومن هنا سمت الروح الإسلامية ، وتجسدت في كره الأوربيين عامة وبريطانيا خاصة ، خوفاً من تحقيق ما تكتبه صحافتها بشأن نية الاستيلاء على مصر ، وتلك الإجراءات التي تتخذها منذ إحتلالها قبرص ، وكان ذلك موقفاً تتب له المصريون ولا سيما المثقفون ، ووجد العناية الكبيرة من الصحافة التي تناولته مراراً وتكراراً ، كما مضت في الهجوم على الدولتين وليس بريطانيا فقط ، وخاصة ما تم في مؤتمر برلين من ازدياد لمكاسبها^(٤) ، وكان للشباب المثقف نشاط مجد

(١) Ninet, Arabi Pacha, p. 225 . (٢) الوطن ، عدد ١٩ نوفمبر ١٨٨١ .

(٣) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 164 .

(٤) الإسكندرية ، عدد ١٥٩ في ٤ فبراير ١٨٨٢ .

فى « جلب كثير من الجرائد وتدقيق النظر فيما فيها من الأفكار المتعلقة بمصر ، ويظهرون للعامة الوقائع »^(١) . وبذلك أصبحت هناك وحدة بين مثقفى مصر وخاصة صحفيوها للوقوف على أرض المعركة ، ورفع سلاحهم والهجوم على السياسة الأوربية ، حتى أن الصحافة أصبحت فى ذلك الوقت دستوراً لشعب مصر .

الصحافة الشامية

تعرضت الصحافة الشامية لاضطهاد رياض ، ونالت يده من زعيمها أديب إسحق الذى نفاه خارج مصر ، ومن باريس خرجت صيحاته وشن هجومه على هذا العدو ، ويقول النديم « انعطف أديب إلى شريف ومال وجعل وجهته تسفيه رياض بالنقد والاعتراض »^(٢) ، وبالفعل فقد قدم شريف المساعدات له وأعانه على اتباع تلك السياسة ، فأسس صحيفة مصر القاهرة التى عبرت عن أفكار الحزب الوطنى .

وبانتصار الثورة ، وتقلد شريف نظارتها ، أرسل لاستدعاء أديب إسحق من باريس ، وجاء ليعينه رئيس مكتب الترجمة ، وكان ميالاً لقادة الثورة العسكريين فى البداية ، ودائماً يصف عرابى بالإخلاص والأمانة ، وبناء على مواقفه وميوله ، عُين سكرتيراً لمجلس النواب بناء على طلب سلطان باشا وموافقة الجميع ، هذا فى الوقت الذى واصل فيه على إصدار صحيفة مصر .

وكانت لكتابات دوره الفعّال لقوى الشعب ، تناولت الديمقراطية والتنديد بالأتوقراطية ، ودعت بضرورة مشاركة الأمة لحكم نفسها ، وأن يكون لها الصوت المسموع والرأى المتبع ، ووصف أديب إسحق حالة المصريين ودعاهم لليقظة « إن لله خلقاً يشتغلون بياض نهارهم معرضين أبداً لحر الشمس وأذى المطر والرياح وسائر تغيرات الفصول ، يفلحون الأرض ويودعونها قسماً من قوتهم وجزءاً من حياتهم مع البذور التى تثمر للناس ، هؤلاء القوم هم رجال من الشعب ، ولله خلقاً يشكون السلاح لحماية الوطن ، ويهبون له نضر شبابهم وزهرة قوتهم ويبدلون فى سبيله دمهم غير آسفين عليه ويتهاكون على الموت ليحيى إخوانهم فرحين ، وآخرين يذللون المصاعب ويحيون الليالى الطوال فى سبيل نشر المعارف وتعميم الصناعات ، وآخرين يقومون على عمل الأخشاب للبناء وينسجون الصوف والكتان والقز ، واعلموا أنه

(١) المفيد ، عدد ٥١ فى ٢٧ أبريل ١٨٨٢ .

(٢) عبد الله النديم ، المصدر المذكور ، ص ٥٤ .

لا سعادة في الأرض ولا نمو ولا حياة إلا بالشعب ، فالحياة ممتعة بلا عمل ، والعمل شأن الشعب في كل حال ^(١) ، وواضح أنه بعد عن الأثرياء من كبار ملاك الأراضي وأصحاب الممتلكات ولم يدرجهم في الشعب العامل الذي له الحق في الحياة ، وبصفة عامة فإن أفكاره تأثرت بالفكر الفرنسي خاصة والأوربي عامة .

لم تقتصر مقالاته على الناحية السياسية ، فنزل إلى الميدان الاقتصادي والاجتماعي ، فنجده يعرض مسألة الإدخار ، وذلك عن طريق إنشاء صندوق له ، وأن يتم خصم جزء معين من المرتب ، ويكون هناك قومسيون يوزع كويونات على المشتركين ، وتبعاً للأرباح تكون درجة الاستفادة ^(٢) ، وكان ذلك هو النظام التعاوني بعينه .

لم يكمل أديب إسحق طريقه حتى النهاية مع الثورة ، وبالرغم من ذلك فلا يمكن أن نغفل دوره في إذكاء الروح الوطنية ، لقد اختلف معها ، فهو من أتباع شريف والمتحيزين له ، وسقوطه على أيدي الثورة كان له رد الفعل على مؤيديه ، وكان ذلك هو المظهر الشكلي للأمر ، لكن إذا تعمقنا لننقب عن الأسباب الداخلية ، نجد أن الثورة مضت في تطبيق شعارها المقدس « مصر للمصريين » وكما يذكر كرومر أنه استبعد أمام ذلك « الأوروبيون بذكائهم وغناهم وسلطانهم والخديو والسوريون والأرمن والأتراك المستوطنون الأرستقراطيون كبار ملاك الأراضي الذين تحكموا في مصر فترة طويلة » ^(٣) ، فمن هذه العناصر خافت الثورة على نفسها .

وحملت الصحافة المصرية لواء ذلك ، إذ كانت لها نظرة معينة تجاه كل من هو غير مصري ، فهي تشك في نواياه ولا تطمئن له ، وأدارت الدفة على السوريين ، حتى أن النديم نفسه كان يعتبرهم دخلاء مرابين ، وتطلب صحيفة المفيد من الحكومة فصل الشاميين من مصر ، لأنهم غير خليقين أن ينتسبوا إليها ، وتمضى في الذم والقدح على الصحفيين السوريين وصحافتهم « أتانا أصحابها وجيويهم أفرغ من فؤادهم من الوطنية التي ادعوها ترويجاً لمقاصدهم » ، ولم يتوقف هجومها ، لدرجة أن صحيفة الطائف أرادت معالجة الموقف فخففت من تلك الحدة في مقال لها تحت عنوان « المصريون والشاميون » ^(٤) ، لكن ذلك لم يقلل من حقد الصحفيين السوريين ، ومع أنه في بداية الأمر كانوا في مقدمة العناصر الحرة ،

(١) مصر ، عدد ٩ في ٦ فبراير ١٨٨٢ ، عدد ١٠ في ١٤ فبراير ١٨٨٢ .

(٢) المصدر نفسه .

Cromer , op. cit., Vol. I, p. 324 .

(٣)

(٤) المفيد ، عدد ١٣ أبريل ١٨٨٢ ، عدد ٢٢ يونيو ١٨٨٢ ، الطلائع ، عدد ٢١ يونيو ١٨٨٢ .

يلتهبون حماسة لاستقلال مصر وحياتها الدستورية ، فإن هذه الأقلام الملتهبة انزوت وخبت ، ثم وقفت إلى جانب الخديو علانية^(١) ، فانسحب أديب إسحق من الميدان الثورى ليعود مرة أخرى ليعمل ضد الثوار ، فساهم بمقالاته ومنشوراته فى صحيفة المعسكر المضاد « الاعتدال » ليرد الهجوم الذى شنته الثورة على غير المصريين .

أما عن صحيفة الأهرام ، فقد تعرض القائمون عليها للنقد اللاذع بالرغم من أنها كانت دائماً تنصر عرابى ، فهى تنشر خطبه وتلخصها ، وتؤيد نظارة شريف ، وتعرض خطب النديم^(٢) ، لكن الثورة لم تكن لترتاح لها فكثيراً ما وجهت إليها الإنذارات ، وقد كان لتلك العلاقة التى ربطت آل تقلا بتوفيق وتأيبده لصحيفتهما أثر فى هذه الكراهية التى توثقت بين رجال الثورة وبينهما ، وينتهى الأمر بأن يهاجر تقلا لسوريا .

وسعدت مصر بالذين تركوها من غير أبنائها ، واعتقدت أن الخلاص قد حان ، فتقول صحيفة الفسطاط « أما الآن قد بقيت مصر للمصريين وسافر منها كل خائن^(٣) » ، ويذكر أحد المترجمين الشوام فى شهادة له يستدل منها على ما بلغته العلاقات من سوء بين المصريين والشوام إذ يقول « إننى فى أثر سقوط نظارة محمود باشا ، رأيت على محمد عبده لوائح الغم والكدر ، وقال لى إن الشاميين فرحوا بسقوط محمود باشا حتى أنت أيضاً ، فإنك فرحت بسقوطه ، فقلت له إن الشاميين لا يؤاخذون على سرورهم بسقوطه ، فإنهم لم يشمتوا ويلعنوا فى الجرائد المصرية إلا على عهد نظارته^(٤) » ، إلى هذا الحد كانت النفسيات لكل من الطرفين حاقدة .

حكومة الثورة والصحافة

مع بداية الثورة أراد شريف تنظيم تلك المؤسسة الإعلامية وترتيب شئونها وإعلان حقوقها وبيان واجباتها ، فبعد أن تقلد الحكم أراد أن يحد من النشاطات ويهدئ من الأجواء الثورية ويقلل من سطوة الصحافة ، وخصوصاً أنه كان يخشى العسكريين الذين سارت الصحافة فى ركابهم ، فأصدر قانون المطبوعات ليلقى أمامهم بعض القيود فى الممارسة الصحفية ، فلا يسوغ لأحد أن يكون صاحب مطبعة

(١) عبد اللطيف حمزة ، أدب المقالة الصحفية فى مصر ، ج ١ ، ص ١٥ .

(٢) الأهرام ، أعداد ٢٨ أبريل ، ١٩ سبتمبر ، ٣ أكتوبر ١٨٨١ .

(٣) انفسطاط ، عدد ١٢ فى ١٣ يوليو ١٨٨٢ .

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محنظة ١٩ ، دوسيه ٨٩ .

إلا بعد أن تعطى إليه رخصة من نظارة الداخلية ، وبعد أن يودع عشرة آلاف قرش بصفة تأمين ، وللحكومة أن تتزع منه الرخصة عند الاقتضاء ، وأن تقفل المطابع السرية وتضبط أدواتها وتجازى مالكيها ، وأنه لا يجوز لأحد من أرباب المطابع أن يطبع صحفاً قبل أن يقدم لإدارة المطبوعات كتابة معلنة ، وأنه يسوغ محافظة على النظام العمومي أو الدين أو الآداب تعطيل أو قفل أى صحيفة ، ومنع دخول وتداول وبيع الصحف والرسائل المنشورة في خارج القطر المصري ، ومنع أى منشورات ماصوفة على الحوائط أو المجلات تحوى أخباراً سياسية^(١) .

ولم يلتفت الصحفيون إلى هذا القانون ، واستمروا في حملاتهم ضد الأجانب ، فطالبوا بإبعادهم عن مصر ، وتزعمت صحيفة الحجاز ذلك التيار ، ودعت إلى الجهاد والدفاع عن حقوق المسلمين ضد الأوربيين ، وتمادت في ذلك ، فاشتكى ماليت إلى شريف الذي أحضر مدير الصحيفة ونبه عليه بعدم الطعن في الدول الأوربية . في الوقت الذي أرسل فيه الإنذارات الرسمية لكافة الصحف ، لكن « صاحب الحجاز لم يرجع عن السير الذي صار تحذيره منه ، وكتب في نمرة الأخيرة كلاماً غير لائق في حق الدول » ، فما كان من شريف إلا أن ألغاه بصفة نهائية ، وذلك بموجب قانون المطبوعات^(٢) .

وبالرغم من تصرفات شريف المتشددة ، فإنه لم يستطع أن يقف أمام تيار ثورة الصحافة ، فشخت صحيفة الطائف بالمقالات التي تهاجم ليس الأجانب ودولهم وتصرفاتهم فقط ، أيضاً حكومة شريف التي وجهت لها الطعنات في مقالة « مصر يجب أن تكون لها السلطة المطلقة » فتتابعت إنذارات شريف لها ، ولكن دون جدوى^(٣) .

وذهب شريف وجاء البارودي لتشريع نظارته في تحسين قانون المطبوعات بما يجعله أولى إلى حرية الكلمة وأبعد من قيود العقاب ، وجندت الصحافة من أجل الثورة ، ولم يجد المعارضون لهم مكاناً ، فانسحب أديب إسحق وغيره ، وأعلنت صحيفة البرهان وهي صحيفة السراي ، أنها عزلت الشيخ حمزة فتح الله من تحريرها لموقفه العدائي من الثورة ، وذلك لتنفادي أن تتولها حكومة الثورة بشيء ، تلك التي مضت تغلق الصحف المعارضة ، وفي أثناء الحرب أصبح لا يطبع شيء في

(١) محفوظات مجلس الوزراء ، محفظة ٥/ز ، دوسيه ١٦ ، محضر ٢٧ أكتوبر ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، دوسيه ٢٠ ، محضر ٧ نوفمبر ١٨٨١ ،

Egypt, No. 5 (1882), op. cit.,

Polit. Arch, Fasz XXXI/24, No. 13/pol., 8 Janvier , 1882, pp. 4, 5 .

(٣)

الصحف إلا بعد إقرار ديوان الجهادية عليه ، وموافقة المجلس العرفى على جميع المطبوعات(*) وذلك للوقوف أمام مجهودات الحاقدين الرافضين ، الذين راحوا يستعملون كل الأسلحة من أجل إجهاض الثورة .

وأخيراً فقد نجحت صحافة الثورة فى كل المهام التى ألفت عليها ، وأدت واجبها على أكمل وجه ، فخاطبت طبقات الأمة دون تفريق بين طبقة وأخرى ، بل كانت عنايتها بالطبقة الدنيا أكبر من عنايتها بالطبقة العليا لأنها تريد أن تغريها على قراءتها وتحببها فيها ، فبلغت من التبسيط أقصى الغايات حتى تجذب الشعب إليها وتستحوذ على القلب وتؤدى رسالتها فى تنوير وتبنيه الرأى العام، بتلك الدراسات والتحليلات الكاملة لجميع المجالات سواء السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية حتى أمكنها أن تسجل لنفسها فى هذه الفترة صورة مشرفة فى تاريخ الصحافة المصرية .

ممارسة العمل الثورى من خلال الجمعيات والخطابة

لم تقم الجمعيات بقيام الثورة ، إذ أنها سبقتها ومهدت لقيامها ، وبناء على ذلك أصبح عليها مواصلة الكفاح لتحقيق الأهداف التى قامت من أجلها ، فمن على منابرها خرجت صيحات الثورة وكأنها المقام المقدس الذى جذب إليه الناس للإنخراط فى سلكه .

أسست الجمعيات وجاء فى قوانينها أنها لا تمس النواحي السياسية ولا تخاض من بين موضوعاتها ، لكن رويداً رويداً فرضت السياسة نفسها على الجمعيات ، وامتلات بالمثقفين وخطبهم التى تكلمت عن مصر والاستبداد والتدخل الأجنبى ، ودائماً فى نهاية اللقاءات كانت الصيحات تعلو « يعيش الخديو » ، وذلك لإعطاء الطلاب الخارجى البراق وإبعاد الشبهات ، نفس الشيء بالنسبة لرئاستها ، فقد أسندت إلى أعضاء الأسرة المالكة وكبار الشخصيات ، لكن لم يكن هذا إلا ظاهرياً ، حيث تكون وتبلور داخلها الرأى العام ضد تلك الأسرة وأصحاب النفوذ .

وكالعادة كانت الإسكندرية الرائدة فى هذا المجال ، إذ أسست فيها الجمعية الإسلامية بفضل مجهود النديم فيقول « لم أجد طريقاً لتبنيه الوجهاء والأمراء إلا بعصبة أكونها من النقرء ، فأخذت هى تأسيس الجمعية الإسلامية بوطنى

(*) مصر ، عدد ١١ فى ٨ مارس ١٨٨٢ ، البرهان ، عدد ٢٦ مايو ١٨٨٢ ، محافظت الثورة

البرابية ، صفحة ٧ ، دوسيه ٢٨ .

العزیز إسكندرية»^(١) ، وكانت جمعية المقاصد الخيرية بالقاهرة عبارة عن هيئة شعبية يتولاها مفكر مصر محمد عبده ، وانتشرت الجمعيات على أرض مصر كلها ، في دمنهور وميت غمر والمنصورة حتى قنا ، ودائماً يتبع الجمعيات إنشاء المدارس ليتعلم الفقراء بأموال الأغنياء ، وتلك المدارس التي غدت مساح للخطباء « تم إفتتاح المدرسة الخيرية ببندر دمنهور يوم الخميس غرة يونيو ١٨٨١ وكان المحفل ساحة خطابة »^(٢) ، ودائماً النديم على رأس الخطباء ، بحث على التعليم والإتحاد ، وينقد المجتمع ، ويهاجم العادات السيئة ، ويتعرض للتغفل الأجنبي .

وشجعت الصحافة تلك المجهودات وحثت على المزيد من إنشاء الجمعيات مثلما هو الحال في أوروبا ، وعرضت ما تقوم به من مساعدات لخدمة المجتمع ، وبينت أن الأغراض ليست قاصرة على المدارس ، بل مهمتها وضع اقتصاد الدولة في اعتبارها والاهتمام بالصناعة^(٣) ، ومن هنا أصبح مفهوم الجمعيات لم يعد يقتصر على أهداف محددة ، إذ توسعت دائرته لتضم وتشمل كل ما يخص مصر ، كما امتدت هذه الاجتماعات التي كانت تضم أعضاء الجمعيات وروادها ، لتكون تنظيمات مضت في طريق العمل الثوري ، وتعددت الحفلات التي أقيمت بمناسبات وبدون مناسبات من أجل اللقاء والكلمة المسموعة التي تنفذ إلى القلب ، وتغذي الروح لينطلق الفكر للمساهمة في الثورة .

ويسجل شاهد عيان قوله « وانقلبت مصر مسرحاً للخطباء في كل مجتمع وناد حتى في المساجد ، ولم يبق مجلس للسمر أو للاحتفال بعرس أو غيره إلا اقتحمه الخطباء واعتلوا منصبه المغنيين بعد إقصائهم عنها حتى لقد سمعت أن محمد عثمان المغنى الشهير كان إذا سئل في أى فرح تغنى أجاب في الفرح الفلانى مع عبد الله النديم »^(٤) .

وكان للنديم قدرة فائقة على الخطابة ، فبجوار قلمه كانت روحه ولسانه عاملان أعطيا الثورة انكثير ، فميله للخطابة واستعداده لها لم يتيسر لأحد غيره في مصر ، فهو يظهر في كل مجتمع ويقف في كل حفل ويعلو صوته في كل ناد « ويرتجل الكلام ارتجالاً ويتدفق فيه تدفقاً تسعفه فيه بديهه لم نسمع بمثلا

(١) عبد الله النديم ، المصدر المذكور ، ص ٤٩ .

(٢) التكتيك والتبكيك ، عدد ٤ في ٢ يوليو ١٨٨١ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٠٧ في ١٢ مايو ١٨٨٢ .

(٤) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ١٤٧ .

فى تاريخ الأدب المصرى الحديث»^(١)، ويرى البعض أنه إعظم خطيب مصرى لا فى الثورة العرباية وحدها بل فى القرن التاسع عشر، وكفى أنه قد أجمع كتاب الجرائد العربية والأجنبية على تلقيه بخطيب الشرق^(٢).

وعُدَّ النديم الجهاز المتقل للدعاية الثورية، وقد وجد فيه قادة الثورة تلك المؤهلات التى تمكنهم من بذر بذور الثورة ونشر مبادئها وأفكارها فهو يتمتع بلسان زلق فصيح، وجرأة فائقة فى مواجهة الجماهير، وامتلاك الموقف، وحجج قوية مقنعة، وظل خفيف يشجع على التجاوب معه والإنصات إليه مهما طالت الخطبة^(٣)، ومن ثم بدأ فى ممارسة نشاطه، إذ يقول «أخذت أقلب فى البلاد، وجاهرت بالتضاد، ولبست ثوب الجلد، وتابعت الخطب فى كل بلد، وحركت الأفكار حركة لا سكون لها، ونشرت مظالم الحكام وأعمالهم، وناديت بهدم دعامة الاستبداد، وكسرت قيد الاستعباد»^(٤)، وكان ما يميزه خفة الحركة التى كان يتقل بها عبر أرجاء مصر، ولم يكن ذلك بجديد عليه، فحياته قبل الثورة تتقللات واختلاطات بجميع فئات المجتمع من أعلاها إلى أدناها.

وراح يخطب فى الناس ويقص عليهم أمجاد أجدادهم «ويصعد على منابر الجوامع ويخطب جهاراً وعيناه تذرغان الدمع، فافتتن الناس ومال إليه خلق كثير من الأعيان والوجهاء من كل صوب وضرب، فلما آنس منهم ذلك كتب محضراً وذكر فى عرض عباراته أن أهل البلاد كافة يدعون ولاية الأمور ومن بيدهم زمام الأحكام إلى تشكيل مجلس يكون أعضاؤه من أهل البلاد البحرية والقبلية للذب عن حقوقهم واستخلاصهم من ريق الاستعباد الذى أثقلهم فوقعوا عليه جميعاً»^(٥)، وبذلك كان للنديم الفضل الأول فى إعلاء عرابى للقيمة وجعله نائباً عن الأمة وخلق مجلس نيابى بناء على إرادة المصريين.

وساعدت الظروف التى أحيطت بمصر النديم فى نجاح مسعاه، إذ كان موتوراً منها، فصب كفاحه وأتى لكل فئة بجرحها، ونشر على أرض مصر فن الخطابة وعلم أهلها معانى الثورة، فهو ثائر بطبيعته، شعلة ملتهبة وجمرة متقدة يمثل

(١) عبد اللطيف حمزة، أدب المقالة الصحفية فى مصر، ج ٢، ص ١٢١.

(٢) إبراهيم عبده، تاريخ مصر فى خمسة وسبعون سنة، ص ١٢٤، عبد الفتاح نديم، المرجع المذكور، ج ١، ص ١٩.

(٣) نفوسة زكريا، المرجع المذكور، ص ٨٠.

(٤) عبد الله النديم، المصدر المذكور، ص ٥٥.

(٥) ميخائيل شاروبيم، المرجع المذكور، ص ٢٢٩.

في حقيقته المثقف الثوري ، يعلم بالثورة ويدعو إليها في كل كلمة يكتبها ، وفي كل قصيدة شعر ينظمها ، وفي كل نكته يطلقها ، وفي كل زجل ينشده ، وفي كل خطبة يلقيها ، ومن هنا أصبح أسطورة يتناقلها الجميع .

كان ما ألقته الثورة من مهام على الخطباء هو الوصول إلى أعماق النفوس وجذبها ، وتوير الأذهان ، وتبسيط المعاني والمفاهيم السياسية للشعب ، والعمل على إثارة الأوضاع التي تخضع لها مصر وكيفية تغييرها ، وقد أبلى النديم في ذلك أحسن البلاء حتى أنه إذا خطب عدة خطباء في اجتماع ، كان يقوم ليعلق وراء كل خطيب ويشرح ويزيد ، والناس منصتة باهتمام دون أن يشعر أحدهم بشيء من السأم والملل ، فهم بحاجة إلى تفهم تلك المعاني التي تطرح ، وبذلك كان « كلام النديم وقود الثورة الذي زادت به ضراماً ، وزيتها الذي أصبحت به نوراً وهاجاً »^(١) .

ومما يلاحظ على خطب النديم أنها دائماً مقرونة بالاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة فصور كشاح وبطولات من التاريخ الإسلامي ، وهذا يتفق مع طبيعة المصريين ، وخاصة في ذلك الوقت الذي كانت فيه السياسة في نظرهم مرتبطة تمام الارتباط بالدين . كما أنه استوعب جيداً رسالة الخطابة في التوعية السياسية والاجتماعية والدينية ، ورأى ضرورة توصيلها إلى الشعب ، فيبين أهمية الخطابة « فما فرضت الخطبة إلا لتجتمع الأمة في ساعة واحدة في سائر الأقطار وتقف على الحوادث والأخبار لتأخذ حذرهما من أعدائها وتحفظ مظهر حياتها وناموس دينها وشرف مذهبها الحقيقي » ثم يبين فضلها وأهميتها « لما كان نظام الاجتماع موقوفاً على وحدة الائتلاف ووقوف الأمة على حقوقها وحدودها ، ولا يتمكن الفرد بنفسه في فهم البعيد عليه أو الخفى عليه إلا بمرشد متضلّع عالم متقلب في حوادث الزمان ووقائع الرجال ، والأمة ليست جميعها من صنف العلماء ولا كلها من رجال الكلام ولا أغلبها من أهل السياسة ولا جلها من أرباب الأقلام لتشكيلها من عالم مختلف الأغراض متباين الطباع ، فرضت الخطابة ليقف الخطيب بين قومه وقمة الخليفة الأمر الناهي ، فيقص على الرعية ما فعله من الجميل ، وما قام به من الأعمال ، وما ورد عليه من الأخبار ، وما يحرز من الحطاريق ، وما يرجوه من الإصلاح ، لتكون الأمة على علم بأحوالها في سائر بلادها ، إن الخطابة في الأمة بمنزلة جرائد الأفكار ، فالأمية كثيرة في بلادنا متغلبة على السواد الأعظم منا ، ولو كانت الأمة قارئة كلها لاستغنت عن تغيير هيئة الخطابة »^(٢) .

(١) عبد اللطيف حمزة ، أدب المقالة الصحفية ، ج ٢ ، ص ١٢٢ .

(٢) التكتيك والتبكيك ، عدد ١٤ في ١٨ سبتمبر ١٨٨١ ، عدد ١٥ في ٢٥ سبتمبر ١٨٨١ .

وكان تحليله صادقاً حيث أن للخطابة الأثر الأقوى من الصحافة ، وفى ذلك الحين لم تكن هناك وسائل أخرى للإعلام ، كما أن الكلمة المسموعة تعطى الإحساس الفعلى بالموقف ، وقد تهافت الشعب على تلك الخطب لتعطشهم لسماعها ، هذا فى الوقت الذى كانت تُنشر فى الصحف ، حتى إذا تغيب أحد أمكنه الإطلاع على ما فاتته .

وتعددت الاجتماعات من أجل هذا الغرض « إن مصرنا فى هذه الأيام صارت عبارة عن أحزاب يسعون إناء الليل وأطراف النهار ، فربما كان فى الحارة الواحدة مجفان أو ثلاثة محافل ، كل بما لديهم مشغلون »^(١) ، كما كانت هناك تلك الاحتفالات التى وصلت فيها الخطابة إلى ذروة الحماس ، ففى وداع عرابى عقب التاسع من سبتمبر « غمر النديم أعماق شعور المجتمعين ، فكان نقياً فى حديثه ، سلساً فى أسلوبه ، عباراته كلها فاعلية ، إذ تكلم عن الوحدة التى تصنع القوة »^(٢) ، وعندما صدّق على قانون مجلس النواب عمّت الفرحة الجميع ، فأقامت جمعية المقاصد الخيرية احتفالاً « اجتمع فيه النظار والأمراء والعلماء وضباط الجهادية وأعيان مصر وشبابها ، حتى ضاقت قاعة الحفلة بالحضور ، فقام السيد عبد الله أفندى نديم وافتتح الخطابة واقتدى به كل من أديب إسحق اللبناني وإبراهيم أفندى اللقانى ومصطفى أفندى ماهر والشيخ محمد عبده والسيد حسن أفندى الشمسى وفتح الله أفندى صبرى ، واستمرت الخطب تلو فى تلك الحفلة إلى الساعة الثالثة بعد نصف الليل »^(٣) .

وتحدث النديم عن أهمية التربية والتعليم ، وتكلم مصطفى ماهر عن الاجتهاد فى تحصيل المعارف واستحث ذوى الفيرة من الأغنياء على إنشاء بنك أهلى يستغنى به الفلاحون عن الإقتراض من المرابين بالفوائد الفاحشة ، أما محمد عبده فقد انصبت خطبه على السياسة ، فشرح مزايا الحكومة الدستورية بعد أن عرّف أنواع الحكومات ، وبين المقيدة والمطلقة وأظهر فضل الأولى وضرر الثانية ، ونقد سياسة إسماعيل وأظهر مميزات الشورى ورأى الأمة فى مصالحتها ، وطالب بنشر العلم حتى يكون الجميع مستعداً للمشاركة ، ونادى بحتمية إطلاق حريات الأفكار والأقوال والأعمال ، وأنه يجب أن يكون هناك قانون عدل يبيع حرية المجامع والمطابع ، وأن

(١) أبو نظارة إسمان حال الأمة المصرية ، عدد ١٥ فى ٣٠ ديسمبر ١٨٨١ .

(٢) Archives de maison, de Cour et d'état, Inclosure 2 in No. 105, October 9, 1881 .

(٣) أحمد عرابى ، تقرير ، ص ٢٢٨

الحكومة المثلى هي الحكومة القانونية التي تضبط الأعمال وتبين الحقوق والواجبات ، ثم أتى على نظارة الثورة لإخلاصها ووطنيتها وعزيمتها .

وجاء دور أديب إسحق ليبين ما يجب أن يكون عليه أعضاء مجلس النواب « أن يعلموا بكليات الأمور وما تحتاج إليه البلاد ، وإذا كانت المصائب المشتركة هي التي أنالنا هذه النعمة ، فلا بد من تذكر آلام هذه المصائب حتى نحافظ على النعمة التي وصلنا إليها » . وعقب ذلك خطب أحد المدرسين ليظهر حسن التعلم والتعليم ثم تقدم فتح الله صبرى أحد طلبة الألسن ونصح بالإتحاد حتى بلوغ المراد « ولا تنازعوا وتذهب ربحكم فتقهقروا إلى حالكم القديم من الظلم والاستبداد ، والشكر للرجال الذين ركبوا الصعاب واخترقوا العقاب ، وبُدد عنكم هاتيك المصائب فخرجتم من الظلمات إلى النور » (١) .

وضح من ذلك فكر المثقفين وفلسفتهم التي لا تقل في الأصالة عن مفكرى الثورة الفرنسية ، ومما يستلفت النظر اشتراك الطلبة في هذا المجال ، فكان دليلاً على وعى كامل وصادق انتاب شباب مصر ، وللنديم أثره في ذلك منذ أن أسس جمعياته بالإسكندرية ، وهو دائماً يصطحبهم معه ويقدمهم في تلك الاجتماعات ، ففرس فيهم الشجاعة والجرأة والإقبال على تذوق الخطابة ، ويقول شاهد عيان « شاهدت عبد الله النديم مرة يقدم فتحي أفندى زغلول ليخطب في حفلة عظيمة ، وبعد أن جال بخطبته في السياسة في كل مجال ، أمسك عبد الله النديم بذراعه وقال للحاضرين : ألا تعجبون بما أبداه هذا التلميذ في خطبته من العلم والبيان والتفنن في المواضيع مع أن جلادستون خطيب إنجلترا لا يتناول إلا موضوعاً واحداً في خطبته ، وقدم مرة أخرى في إحدى حفلاته الطالب مصطفى أفندى ماهر فخطب القوم وراقته خطبته فقال عبد الله النديم : أشهد أيها الناس أن أمة يكون هذا مقدار استعداد التلميذ فيها لا يغلبها أحد على أمرها » (٢) .

وقد اعتبرت صحيفة التيمز جمعية المقاصد نادياً سياسياً للحزب الوطنى ، ووصفت تلك الخطب الحماسية التي تُلقي فيها بأنها موجهة ضد الأوروبيين لإثارة الحمية الدينية للمصريين (٣) ، لكن كان جلياً أنها طرقت كل ما يمس الأمة ، وفيها تفاعل النشاط الثورى للمثقفين .

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٣٤ فى ١٥ فبراير ١٨٨٢ .

(٢) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ١٤٧ . (٣) The Times, April, 22, 1882 .

وكثرت اللقاءات الخاصة لتحديد سياسة الثوار ، وشملت جميع العناصر المثقفة ، وكانت تعقد فى منازل عرابى والبارودى ومقبل بك وطاهر بك ، وتمارس فيها الخطب التى تناولت ما بلغه النفوذ الأوربى من السطوة على مصر ، وكان المسيطر على الدفة فيها النديم بشخصيته وإقناعه ، وبرز فيها الأفندية ، فهاجم مصطفى ماهر الأوربيين حتى لقد وصل به الأمر أنه رأى « قتل الأجانب والأتراك وإلقاء عظامهم بالبحور حتى لا تتلوث أرض مصر »^(١) .

كانت هذه الاجتماعات عبارة عن صالونات سياسية امتلأت بالعقليات المثقفة ، وجاء الدور على أعضاء مجلس النواب فى إقامة الحفلات ، فیدعو الشيخ أحمد على محمود وإبراهيم أفندى الوكيل أعضاء جمعية المقاصد الخيرية وباقى النواب لاجتماع موسع ، ويمارس النديم نشاطه المحبب إليه « فتلى عدة آيات من القرآن الشريف وشرح كل واحدة منها بشرح لطيف العبارة بديع الأسلوب ، وكان عند كل آية يأخذ فى الحث على التمسك بها وبيان موضع الأخذ بما دلت عليه من الحكم ، وحث على رعاية الواجب والذمة وحفظ المهود وحسن المعاشرة » ، وعلا صوت محمد عبده وتكلم بصفته فلاحاً مصرياً من خدمة العلم الشريف فى الجامع الأزهر ، وبيّن سوء حالة الفلاح بالرغم من تمتعه بالصفات المحموده والوضع الفطرى الإلهى والفضيلة ، وتبعه فتح الله زكى أحد تلامذة مدرسة التجهيزية ، فتحدث عن التربية والتهديب وفتح المدارس وعقد الجمعيات والاهتمام باللغة العربية وحفظ الحكومة الشورية ، أما إبراهيم اللقانى فحذر من الأعداء ونادى بالاحتياط وطلب استجماع القوة ، وأوضح أن ما تم ما هو إلا بداية لإنطلاق جديد وليس هو بآخر المطاف ، وعندما جاء دور فتح الله صبرى دعا بعقد الجمعيات وفتح المدارس الليلية ليتعلم فيها من لا تسمح له أشغاله الضرورية بتلقى العلوم فى النهار^(٢) .

وفى ليلة الاحتفال التى أقامها أحمد أباطة ، وحضرها النظار والنواب ، تكلم محمد عبده عن الحكومة الشورية وسلطة القانون ، وطرق النديم باب الاهتمام بالاقتصاد المصرى وخاصة الصناعة ، كما طلب مساعدة الفلاحين واستخلاصهم من الديون ، وكان يوجه حديثه للأغنياء ، كما أشار إبراهيم اللقانى إلى أهمية الخطابة وتأثيرها فى تشييط الأذهان وبعث الهمم « أسوة حسنة بنبينا ﷺ وأصحابه ، فإن الخطابة لم تكن فى زمانهم الشريف قاصرة على خطب الأسابيع ،

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٨ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٣٩ فى ٢١ فبراير ١٨٨٢ .

بل كانوا يعقدون مجامعها عند كل داعية من تنبيه اجتلاب مرغوب أو اجتذاب مرهوب أو تسكين خاطر أو رفع وهم أو إرجاف أو إزالة التباس»^(١).

أما عن دور مثقفي الإسكندرية فيشهد له تاريخ المدينة ، فمنذ قصر النيل والقلق يسود أهلها وبوادر الثورة تتضح معالمها إذ تبلور فيها الرأي العام بصورة واضحة ، وقد حذر ماليت رياض من تلك الأجواء^(٢) ، وعقب التاسع من سبتمبر أسست جمعية الشبان « للنظر في منافع الوطن العمومية » ، وللنديم يد في تأسيسها وضمت « أولاد ناس من كبار الإسكندرية »^(٣) ، الذين كُونُوا وفدًا منهم للمشاركة في الأحداث التي تمر بها مصر ، فتذكر صحيفة الوقائع المصرية « كلف شبان الإسكندرية النبهاء ١٢ نبيهاً منهم بأن ينوبوا عنهم في تقديم التهانى والشكر إلى المقام السامى الخديو على تأييده أمر النواب وبقية النظارة الجديدة تحت رئاسة محمود سامى ، وقابلوا الخديو وسامى والعرايى الذى خطب فيهم بالحث على التآزر والاتحاد ، وأثنى على همهم وهمم إخوانهم الذين انبعثت فيهم روح الألفة والوداد ، ثم توجهوا لمجلس النواب وهنأوا الأعضاء ، وفى المساء اجتمعوا برئيس النظار فشكر لهم اهتمامهم بشأن الوطن وأمر البلاد ، ثم رغبهم فى زيادة ربط القلوب والإكثار من الاجتماع ، ثم توجهوا لسلطان باشا بصحية النديم ثم قابلوا محمد عبده » وتواصل قولها « فعلمنا من ما شاهدنا فيهم من حسن الأفكار أن أهل الإسكندرية وخصوصاً شبابهم قد انبعثت فيهم روح المحبة وانتشرت فيهم مبادئ الأفكار الحرة »^(٤).

وعمل القائمون على الثورة من أجل استمرار المسيرة ، وذلك بالتشجيع على الاجتماعات والتحدث بالسياسة ، وتعددت اللقاءات داخل أسوار الإسكندرية فتقول صحيفة المحروسة « إن فى الإسكندرية شباناً طمعت نفوسهم إلى طلب المعالى وطمعت أفكارهم فى نيل الغوالى وجنحت خواطرهم إلى جعل مصر للمصريين ، فهنيئاً لمصر إن كانت فى يد أبنائها » وتعاود فى وصف السرور بالتصديق على قانون المجلس النيابى الجديد « كانت سراى يوسف باشا محطاً لرجال الوطنيين والأجانب ، وسمع المدعوون من خطابات النديم ما راق فى أعينهم ، وقد حضر الحفل المحافظ وضباط الجهادية وأعيان الثغر وتجاره وفتيان وشبابه »^(٥).

(١) المصدر نفسه ، عدد ١٣٤٩ فى ٥ مارس ١٨٨٢ .

(٢) Malet , op. cit., p. 120 .

(٣)

(٣) محافظ الثورة العربية ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٦٦ ، سليم النقاش ، المصدر المذكور ، ج ٤ ،

ص ٢٢٢ ، Biovès , op. cit., p. 119 .

(٤) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٢٨ فى ٧ فبراير ١٨٨٢ .

(٥) المحروسة ، عدد ١٠٦٩ فى ١٦ فبراير ١٨٨٢ .

ومنذ فبراير ١٨٨٢ أصبح من المؤلف رؤية النشاط والحماس المتقد لشباب الإسكندرية ، فكانوا على علاقة قوية ومتينة بالعسكريين يؤيدونهم فى جميع الخطوات التى يتخذونها ، ولم يكن هناك أى اجتماع يخلو من العسكريين ، وقد اقترنت هذه الاجتماعات بالخطب التى كانت تشعلها ضد الوضع القائم .

وتابعت دمياط الإسكندرية فى هذا النشاط ، فأنشئت فيها « جمعية مساعى الخير » ، وبعد أن كانت رئاسة الجمعيات إما لأعضاء الأسرة الحاكمة أو لكبار الشخصيات ، تغيرت الأوضاع وأصبح رئيس هذه الجمعية عرابى ونائبها عبد العال حلمى ، وراحت تعد الليالى فى منزل مؤسسها حسن بك المرقبى ، وكثير روادها « إذ بلغوا حوالى ٣٠٠ ، وكانت تغص بأهل الثغر من العلماء والذوات »^(١) ، حيث أقيمت خطبة الحماسة للتحريك الثورى .

كان قادة الثورة يداومون على حضور هذه الاجتماعات وخاصة عرابى ، وفيها تلقى القصائد « فى مدحهم وتقديسهم وتعداد مناقبهم ولا ينصرفون عنها إلا بالتهليل والتكبير ، فإذا انتهت خرج الناس منها وكأنهم أهل سياسة ورياسة ، وأصبح الناس كلهم عرابى وأصبح عرابى الناس كلهم ، إذ كان يمثل فى شكل البطل المنقذ ، وقد وزعت صورته فى أنحاء البلاد وهو جالس ينظر نظرات بعيدة وعلى رأسه عبد العال قابضاً على سيفه وإلى جانبه على فهمى وهو يمسك بيده ورقة مطوية كتب عليها الدستور ، وهكذا سارت الروح العربية فى الأمة بأسرها وجعلت الطبقات فى صعيد واحد ممترج بعضها ببعض »^(٢) .

وعندما حدث التآمر الشركسى لإسقاط الثورة ، كانت نتائجه المزيد من الالتحام والتعاون ، وأصبح العداء سافراً وبدون تحفظ لتلك الطبقة ، فاشتد الهجوم عليهم ، فقد أقام محمود شكرى باشا وكيل عموم الاستحكامات الليالى من أجل سلامة الثورة وقوادها ، وألقيت فيها الخطب التى أنزلت اللعنات على الشراكسة ، ووصفتهم بأنهم المفسدون فى الأرض ، وتمسكت بالإتحاد ، وكان الدعاء فيها لعرابى ثم السلطان وأسقط اسم توفيق ، وأقام خورشيد بك طه وليمة بميدان قشلاق باب شرقى بالإسكندرية خطب فيها لبنيه خطبة سياسية باللغة الفرنسية ذكر فيها « ما كانت عليه مصر سابقاً من الثروة والرفاهية ، وما صار بها مدة إسماعيل من الظلم والدين الثقيل الذى اقترضه لصالحه الخاص لا لصالح أهل مصر ، وتكلم عن

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٠٩ فى ١٥ مايو ١٨٨٢ .

(٢) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ١٤٧ .

مساعدة الأوربيين له في نواله اقتراض الدين لمنافعهم الشخصية ، وعن كيفية جبر الأهالي والزمامهم بالرغم عنهم لقبول سداد الدين غير المعلوم لهم أسبابه ولا أبوابه ، وتطرق إلى ظلم أوربا للمصريين في عدم تركهم يدبرون سداد الديون بأنفسهم ، وبين هضم حقوقهم وعدم مساواتهم بالأوربيين وسلطة المراقبين ، وانعطف على الموظفين الأوربيين ومعاملتهم للمصريين ، ثم أوضح أن عرابياً الذي هو فلاح بسيط منهم ساقه الله لخلاص أهل وطنه من ظلم الغير^(١) ، وقد ترجمت هذه الخطبة في الحال وألقت على مسامع الحاضرين .

والواقع أن للفكر الأوربي الأثر في الثورة ، وكان نينيه وهو عميد الجالية السويسرية بمصر ، من أصحاب الآراء الأوربية الحرة ، وينسب إليه البعض قيامه بالمساعدة في تنظيم الدستور ونشر تلك الأفكار التي ماجت مصر كلها^(٢) .

ومما هو جدير بالذكر أنه حتى الأطفال تواجدت في تلك المناسبات « وصارت تخطب بالنشر والنظم المتضمن في مدح العرابي ، والحث على الاتحاد ، وقيل أن هؤلاء الأطفال من جمعية الشبان »^(٣) .

واتسعت الخطب التي أنزلت اللعنات على الحاكم « وكان النديم يدعى للخطبة فيلبى الدعوة ويسب توفيقاً ويدعو جهاراً إلى خلعه »^(٤) ، وبرز أحمد العوام كأحد الخطباء المثقفين وسار في نفس الاتجاه .

كذلك أسست جمعيات إصلاحية على أيدي المثقفين كان لها اللقاءات الدورية ، فتذكر صحيفة المفيد « جميع المنتظمين في هذه الجمعية من أنشبان ذوى الاستقامة والصلاح والجد مشغولون باكتساب العلوم ، البعض بمحلاتهم والبعض بالجامع الأزهر والبعض بالمدارس الليلية ، وقد استحسنا وجودهم مع بعض ليلتي الأحد والأربعاء من كل أسبوع ، وارتضى كل منهم بدفع خمسة قروش صاغ شهرياً لمشتري الكتب اللازمة مع ما يلزم لإحياء الليلة »^(٥) . وبذلك انتشرت الجمعيات بأنواعها على أرض مصر وذاع صيتها في الخارج ، فنرى صحيفة ترجمان الحقيقة الصادرة في الأستانة تقول « يوجد الآن في مصر جمعيات سياسية من الشبان ، وكلها مجتهدة في إكمال الأسباب التي يتبنى عليها سلامة الوطن والإعانة العمومية »^(٦) .

(١) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٧٩ .

(٢) Scotides , op. cit., p. 28 .

(٣) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٧٩ .

(٤) عبد اللطيف حمزة ، العقدة الشركسية عند مدرسة الشيخ محمد عبده ، ص ١٤ .

(٥) المفيد ، عدد ٤٨ في ١٧ أبريل ١٨٨٢ .

(٦) المصدر نفسه ، عدد ٥١ في ٢٧ أبريل ١٨٨٢ .

وبالإضافة إلى ذلك فهناك « الصالونات الديمقراطية » التي تعقد في الشوارع والحدائق والأسواق والقهاوى وأمام أبواب الحوانيت ، وتضم قوى الشعب « وفي تلك الحلقات كنت ترى الشيخ الأزهرى إلى جانب الفتى العصرى إلى جانب الشاعر أو الكاتب المغمور إلى جانب الأديب المشهور أو العالم الكبير ، وجميعهم يتحدثون في شتى الأمور السياسية »^(١) ، فكانت اجتماعات شعبية تتم يومياً تجرى فيها المناقشات بكل حرية ، وتخرج منها التأييدات للثورة وقائدها ، كما كان الشباب المثقف أثناء تجوالهم يعبرون عن داخليتهم بتلك الأغاني التي تنصب على مدح زعيمهم . ولأول مرة في مصر نرى تلك الوحدة بين المسلمين والأقباط واليهود ، وهذه الفرحة التي سيطرت على الجميع لقيام ثورتهم « وكانوا يتعانقون ويقولون لبعضهم أشرقت شمس الأمل وأذابت الثلوج ، وتعاسة ثلاثة قرون اختفت ، وفاضت دموع الفرح وحفرت لها قناة الابتسامة والسعادة »^(٢) .

وتطور الأحداث ازدادت حدة الثورة وانفعال القائمين عليها ، فمقب مذكرة مايو المشتركة ، وورود أخبار مقدم درويش باشا لإقناع عرابى بقبولها سافر النديم إلى الإسكندرية « وخطب مدة ساعتين في عشرة آلاف شخص ضد المذكرة ، وأوجز إلى المجتمعين أن يحتجوا عليها ، فحاز ذلك قبيلهم لدرجة أنه حين عودتهم إلى منازلهم بثوا تلك الروح في زوجاتهم وأرلادهم ، وعند وصول درويش صاح الأولاد في الشوارع اللائحة ، وترد عليهم النساء من النوافذ مرفوضة مرفوضة »^(٣) . وبذلك تغفل تأثير المثقفين ودخل كل بيت ليعلن التأييد التام للثورة .

واستمر النديم في حملاته التي وجهها ضد تصرفات الإنجليز ، وكان لها الأثر السيئ على المجتمع « أیرون أن الإنجليز هم الذين نشروا منشور المومسات ورخصوا للنساء أن يخرجن للبقاء وإعطاء شهادات بأنهن صالحات للزنا ، فهتكوا حرمة القرآن والإنجيل والتوراة بتحليل ما حرمه الله تعالى »^(٤) ، ويتابع الهجوم على رأسمالیهم في مصر وتحكمهم في الاقتصاد المصرى والوظائف والتعليم ، ويعرج على دول أوروبا الاستعمارية ، وأهدافها في القضاء على الإسلام .

(١) عبد اللطيف حمزة ، أدب المقالة الصحفية في مصر ، ج ٣ ، ص ٢٨ .

(٢) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , pp. 88 - 233., Duse ,
op. cit., p. 45 .

(٣) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 329 .

(٤) عبد الفتاح نديم ، المرجع المذكور ، ج ١ ، ص ١٧ .

وامتلات النفوس بالغضب على الأجانب ، وكثرت لقاءات الشباب أنسكندرى فى جمعياته المتعددة ، وكان للخطب الصدى المسموع وانصبت على الذم فى الأوربيين ، وتطرقت إلى ضرورة عزل الخديوى الذى اعتبر السبب فيما حل بمصر ، وقد حاول المعسكر المضاد للثورة ضرب حركة الشباب السكندرى ولكنه لم يتمكن ، وفى خطاب من عمر لطفى إلى رئيس النظار يظهر له « إن شباب الإسكندرية متحدين مع العساكر فى الهيجان » ويطلب منه « أعمال طريقة لمنع ذلك » ، وعندما أصدروا مذكرة هاجموا فيها الخديو والأجانب « استدعاهم المحافظ ووقف حائلاً دون قصدهم وهددهم فيقول : نهيناهم مع التخويف عما شرعوا فيه » ، وفى خطاب له إلى رئيس القومسيون ، يوضح أنه على يديه تم تهريب الشباب للحد من ثورتهم^(١) .

وبالرغم من ذلك ، فقد ظل الشباب المثقف على ثورته بل ازداد ، وجاءت خطبة النديم فى السيالة بالأنفوشى ، لتفصح عن الغضب النائر الذى امتلأت به الصدور ، ومرة أخرى يرى المحافظ حد الثورة التى انتشرت لمستمعى ومؤيدى النديم ، فى أمر مأمور الضبطية بإخراجه من الإسكندرية ، لكنه لم يفعل ، ورفض النديم أن يبرح مكان نضاله حيث له السلطة والنفوذ ، وجاءت حادثة الإسكندرية فى ١١ يونيو ١٨٨٢ لتعطى المزيد من العمل من أجل الثورة .

وتعلن الحرب ، وكان المثقفون قد بنوا آراءهم على استبعادها ، فترى محمد عبده يجزم بعدم وقوعها حيث إن « لإنجلترا ما يفيد عاملين يمنعانها من مهاجمتها للقطر المصرى ، أحدهما ذاتى وهو قصورها عن المحاربة براً ، والثانى خارجى وهو تحتم مخالفة أوروبا لها » لكن بمجرد وصول خبر ضرب الإسكندرية إلى القاهرة « نهض وسافر واجتمع هناك بإخوانه مدة نهار الحرب ، وعاد ليلاً إلى مصر بسياسة أخرى غير سياسته الأولى ، وهى إصراره على إمكان مقابلة العساكر المصرية لعساكر إنجلترا زمنًا مديدًا ، تمل الدول طوله ، فتتداخل فى الأمر ، وترد إنجلترا عن مقاصدها وتقرر عزل الخديو »^(٢) . وكان ذلك هو نفس رأى النديم فيذكر شاهد عيان « كنت فى عهد الثورة تلميذًا فى مدرسة رأس التين بالإسكندرية فبلغنا أن السيد عبد الله نديم سيخطب الجمهور فى مكان كذا ، فحضرت خطبته مع كثير من الطلبة وغيرهم فكان ما قاله ما خلاصته : إن طوابى الإسكندرية إذا أطلقت

(١) محافظ الثورة العربية ، محفوظ ١١ ، دوسيه ١٧٦/ب ، محفوظ ١٩ ، دوسيه ١١٤ .

(٢) المصدر نفسه ، محفوظ ١٩ ، دوسيه ٨٥ .

مدافعها على البحر يبلغ مرماها جزيرة قبرص من هذا الجانب ، ومدافع الآستانة إذا أطلقت تبلغ هذه الجزيرة من الجانب الآخر ، فكيفما حاولت الأساطيل الإنكليزية فهي تحت رحمة مدافعنا ، فعلا هتاف الناس وتصفيقهم له «^(١) ، وربما كان ذلك لتقوية الروح المعنوية للشعب وكنوع من الدعاية التي لها ضرورتها في الحروب ، لكنها حملت في نفس الوقت بين طياتها سوءاً لتقدير الموقف .

وعقب ضرب الإسكندرية كان لشبابها المثقف من أعضاء الجمعيات وغيرهم ومعهم نساؤهم وأولادهم الهمة الملحوظة « هرعوا وقت أن سمعوا إطلاق المدافع على الطوابي ، وصاروا يخدمون الطوبجية في مناولة الكلل وخلافها ، ومن فعلهم الذي يبهز القول إن امرأة منهم كانت حين تقع الكلة على الأرض تكون أسرع من البرق في وضع التراب فوقها فتبطل مفعولها ، وكان الثبان حين يرون الكلة مارة من فوقهم يميلون رؤوسهم ويصفرون استهزاء بها «^(٢) ، فكانت هذه المعنويات المرتفعة مشاركة فعالة في الثورة .

وانتقلت عناصر من المثقفين إلى ميدان القتال ليس فقط كمراسلين حربيين لتسجيل وقائع المارك ، ولكن أيضاً للتقليل بين الجنود وتشجيعهم على الصمود والاستبسال وإقامة صلوات الجماعة والدعاء بالانتصار للجيش المحارب ، ولم يكن محمد عبده والنديم وحدهما أصحاب النشاطات المتزايدة فهناك العديد ، فعلى سبيل المثال نرى إبراهيم اللقاني يحارب بكلمته في جهة الصالحية^(٣) ، ليلهب الحماس ويثير الحمية الوطنية ، ويعلن أن الحرب مقدسة وأنها جهاد في سبيل الله .

المبعوثون ونشاطهم الثوري

لم يقتصر أمر المثقفين المشتركين في الثورة على داخل مصر ، وإنما هناك من المصريين من كان في بعثات تعليمية بأوروبا واشترك فيها ، فمحمد توفيق طائب الطب بأكاديمية « مونبيليه » بفرنسا يرسل لعرابي أكثر من مرة مؤيداً وموضحاً أن « المصريين على اختلاف أجناسهم وأديانهم وطبقاتهم قد شعروا بنتائج الإصلاح الذي تأسس تحت عناية سعادتكم بإرادة وتوفيق الحضرة الإلهية وذاقوا حلوة

(١) السيد محمد رشيد رضا ، المرجع المذكور ، ص ٢٣٦ ، شاهد العيان هو أحمد فتحي زغلول .

(٢) المنيد ، عدد ٦٥ في ١٦ يوليو ١٨٨٢ .

(٣) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٧ ، دوسيه ١٢ .

الحرية « ويظهر استياءه لخيانة سلطان وأتباعه ويستكر ذلك ثم يتبع « ونحن جميعاً تحت إمرتك نفدى سعادتك بدمائنا ، ومنى لسعادتك ولحضرات الأمر عموماً أرقى التحية »^(١) .

وقد كان مدير البعثة المصرية بفرنسا « ميسمير » قد أرسل إلى وزير المعارف في ١٨ يوليو ١٨٨٢ بشأن هذا المبتعث وزميل آخر له يدعى محمد فتحى ، ويوضح أن الأول اشتغل بالسياسة والمناقشة فيها ، ويمارس نشاطه هذا فى المقاهى والمحلات العامة ، ويكتب العرائض ويقوم بجمع توقيعات زملائه عليها ، يؤيد فيها عرابى ، وتبعه كثير من الشباب « ورغم تحذيرى له فقد استمر وأصبح أداة اضطراب لدرجة أنى لا أحتمل أن أستبقيه بعد الآن » ، هذا فى الوقت الذى طلب فيه هذان المبتعثان العودة لمصر لكى يشاركا فى الثورة ويحاربا الإنجليز ، ويتابع مدير البعثة قوله « وإنى ألفت نظر سعادتك إلى هذين الشابين باعتبار أنهما متطرفان وخطيران ، وأنه فى استطاعتكما أن يستمررا على التحريض والاضطراب فى مصر أيضاً »^(٢) .

إذن فصوت الثورة المصرية وصل إلى أرض الثورة الفرنسية ، وجعل الوطنية تزداد حماسة لدرجة التضحية بعدم إتمام التعليم من أجل المساهمة فى الحركة الوطنية ، وقد وضع أنه كان للقائمين على الثورة رسالاً خارج مصر ، فمن خطاب « مالوس » نائب مدير البعثة المصرية إلى مديره يقول « حضرت إلى الأكاديمية قالوا لى فوراً إنه يوجد هنا مبعوث من قبل عرابى وهو يحرض بقية الطلبة »^(٣) ، لكن إذا لم يكن هناك الاستعداد الكافى لهؤلاء الوطنيين الصادقين لما نجح جهاز الدعاية ، فهؤلاء تعرضوا للضغط بل والتهديد من أجل إبعادهم عن المعسكر الثورى لكن بدون فائدة ، فيذكر الخطاب السابق « إنه لم يفلح معهما التهديد ، وبدلاً من أن يحملا التهديدات على محمل الجد ، فإنهما يمزحان مع زملائهما ويهددان الفرنسيين بالانتقام منهم بسبب حوادث الإسكندرية »^(٤) .

ويتبين من ذلك أنه كان للأحداث التى تعرضت لها مصر أصداؤها فى الخارج ، فقد كره المصريون الأجانب ، ولم يخشوهم حتى وهم على أرضهم ، واستمروا فى سياستهم الثورية وساد « الاضطراب بين الطلبة جميعهم بالمجادلات السياسية وكافة

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، دوسيه ٢/٥/٥٣ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٢٩٧ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه .

أنواع التحريض « حتى أن البوليس الفرنسى لفت نظر مدير البعثة لتلك المناقشات الحادة التى يثيرها محمد توفيق ، ويطالب مدير البعثة بفصله وزميله من جدول البعثة وترحيلهما بالرغم من أن محمد توفيق قد قدم إلى فرنسا على نفقته ، لكنهما اعتبرا من الثائرين الواجب التخلص منهما بعد أن تركز نشاطهما على حد قول المدير فى « بذر بذور الفوضى بين أعضاء البعثة » وصدر الأمر باستدعائهما ومعهما طالب ثالث يدعى زاهد . وعثر لديهم على صحيفة الطائف وتسويد فصول محررة بها ، وجملة أوراق وخطابات تفيد بأن مخلص مصر من الاستبداد هو عرابى ، والدعاء له بالنصر ، والإشادة بمواقف الثورة التى وقفها منذ أن قامت ، وقوة الجيش ومسودات لخطابات مرسله للقائد الزعيم^(١) .

وعند عودتهما كان الوقت قد قارب الانتهاء ، وعلى مشارف بدايات النهاية ، وما لبث الأمر أن إنضمنا إلى أولئك الذين امتلأت سجون مصر بهم ، وقد عمد محمد توفيق أن يكون عقب ذلك من المشتركين فى جمعية الانتقام التى تألفت بعد النهاية للانتقام ممن كانوا السبب فى الهزيمة^(٢) . وبذلك نرى أنه حتى من كان خارج مصر لم ينساها بل شارك بكل إمكاناته متضامناً ومؤيداً ومدافعاً عن الثورة .

الموظفون فى الميدان الثورى

أسهم الموظفون بنصيب وافر فى الثورة ، وشاركوا بكل قواهم نظراً لحالة المعاناة التى مروا بها ، وبقيامها عرفوا أن الوقت قد حان للأخذ بيدهم ، وهم الشريحة المتعلمة والمتمتعة بالنضج الفكرى ، فقد كان منهم العائدون من البعثات والمنتشبعون بالمبادئ الحرة .

ولم يكن اشتراك الموظفين نتاج لوطنية صادقة ولوعى ثقافى فحسب ، وإنما أيضاً ناشئاً عن أوضاع مادية لمسوها وقاسوا منها ، فإن السيطرة الأجنبية على أجهزة الحكومة قد سلبت كياناتهم لتحل محلهم الموظفين الأجانب ، ففى مارس ١٨٨٢ وصل عدد الأخيرين بما لا يقل عن ١٣٥٥ موظفاً بلغت مرتباتهم ٢٧٩,٠٥٦ جنيهاً ، وتراوحت من ٣٠٠٠ جنيه فى السنة إلى ٢١٠٠ جنيه ، وأقل وظيفة كان صاحبها يتقاضى ١٢٠٠ جنيه^(٣) .

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٢٣ ، دوسيه ٤٠ .

(٣) المفيد ، عدد ٥٢ فى أول مايو ١٨٨٢ .

كانت المراقبة الأوروبية مكروهة من جميع القوى على أرض مصر ، وللموظفين النصيب الأكبر في ذلك ، وتذكر صحيفة المفيد سبب ذلك بقولها « تعلم المراقبة شيئين ، الأول أنهم عازمون بأنهم أكفاء ذوو مقدرة على إدارة أعمالهم بأنفسهم مثل المرسلين لمساعدتهم ، ثانياً كون المصريين عوملوا بالظلم » ، بينما ذكرت « النوفيل ريفيو » أن « الأمة المصرية قد استيقظت من نومها وما أيقظها إلا بغضها للمراقبين وتذمرها من تسلط الأجانب » ، وترجع صحيفة الستاندرد سبب الثورة إليهما « إن سبب الحركة هما المراقبان لأنهما خرجا عن حدودهما وتخطيا واجباتهما التي تقضى عليهما بالنصح ، وأن يكونا في الأعمال المالية كواسطة ليس إلا »^(١) .

أما آراء الساسة الأجانب فإنها لا تختلف عن الرأي السابق ، فقد بين كليمنصو ما كان يصرف من الخزانة المصرية على الموظفين الأجانب ، كما أوضح « أن تأسيس قلم المراقبة لم يترتب عليه سوى تكثير الأوراق وزيادة أعدادها ، وجر انشاكل للحكومة المصرية ، وبذلك أوجدنا سخط المصريين علينا » ، وحينما دارت المناقشات في مجلس العموم البريطاني عقب بداية الغزو البريطاني لمصر ، أرجعت الثورة إلى ما تحمله هذا الشعب الذي كان تعيشاً بفضل هذا العدد الكبير من الموظفين الأوربيين الذين كانوا يتقاضون أعلى المرتبات^(٢) .

وكان عدااء المصريين للأجانب نتيجة لرد فعل الإساءات التي وجهوها لهم وتعاليلهم عليهم ، خاصة أنهم كانوا دائماً أصحاب الأعمال والرؤساء ، ومن ثم أصبح الهدف الذي يصبو إليه المصريون ليس فقط إبعاد التأثير الأجنبي عن الحكومة ، وإنما طرد الأجانب من الإدارة .

ومع بداية الثورة راح جهازها الإعلامي يزيد من الإثارة حول وضع الموظفين المصريين ، وتعددت النداءات للحد من سلطة هؤلاء الأجانب ، فتناشد صحيفة المحروسة شريف لاستخدام الموظفين الوطنيين الذين هم أحق من الأجانب للبلد « إننا نعلم أن كثيراً من الأجانب يتمتعون برواتب لا ينالون عشرها في بلادهم بل في أي بلاد الدنيا ، إن الواجب الذي لا بد منه أن نوجه عنايتنا إلى استخدام الوطنيين في المصالح أولاً ، فهم أحق بها وأولى من سواهم ، فإذا رأينا اضطراراً إلى غيرهم استقدمناهم بشروط معلومة ورواتب غير فادحة ، وغاية ما نرجوه أن تعتنى نظارتنا الجديدة في سن قانون للخدمة والموظفين يستوى به الأجنبي والوطني ، فالأجنبي

(١) المفيد ، عدد ٢٩ في ٣٠ يناير ١٨٨٢ ، سليم النقاش ، المصدر المذكور ، ج ٥ ، ص ١٧٨ ،

الطائف ، عدد ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

Commons, Vol. LXXXII, July 25, 1882, p. 1764 .

(٢)

عندما يعزل يشكو ويقيم دعوى ويطلب تعويضاً ويساعده على ذلك قنصله أو المحاكم المختلطة والقونتراتو الذى بيده ، أما الوطنى فإن عزل بحق أو غير حق فكل ما يقدر عليه أن يصبر^(١) ، ويتابع النديم « كم من شبابنا من أذكىاء ونبيهاء قائمين بأعمال لا يقوم لها عدد من الأجانب ، ولو كانوا عدداً قليلاً لعددتهم ، ولكنهم كثيرون فى زوايا الإهمال ، ولنا فى عناية أمرائنا الحاضرين ما يفتح للوطنى باباً يدخل منه إلى الرواتب الكافية ليضارع من جاء من بلاده لا يملك نقيراً ولا فتيلاً ، وأصبح يوسع له الطريق ليجرى بعريته ، وكنا فى غنى عنه لو استعملنا أبناء بلادنا ووسعنا ثروتهم وحفظنا نعمة البلاد لأهلها ، وليست السيادة بفتح باب البلاد للغرباء ، يأكلون خيرها ويهتكون سرها ويميلون بأهلها لجانب الأجانب بالغرور والتحسين ، بل السيادة بفتح بيوت الأهلين وتكثير المعبرين وحفظ الثروة^(٢) .

وتستمر حملات الهجوم على الأجانب فى عهد الثورة « ولا يخافك باهظ رواتبهم لغاية المائتين والخمسين جنيهاً شهرياً مع أن البعض منهم كان رئيس كناسين فى بلاده بسنة جنيهاً وأقل ، والبعض كان يسن أمواس وأسلحة ، والبعض كان يصيد الأسماك ، وتلك الرواتب أضرت بالإيرادات ، وأبناء الوطن كونهم حرّموا الاستخدام بتلك المصالح إلا من يعرف اللغات الأجنبية منهم وتجده موظف فى أتعس الوظائف بماهىة جزئية على أنه وطنى ولا يأكل بالشوكة والسكينة ولا يشرب النبيذ البوردو العال^(٣) .

وتعرضت صحيفة المفيد لزيادة رواتبهم وعدم كفاءاتهم « هؤلاء أناس قد لحظتهم عين العناية فساقتهم البحار وحملتهم أكف السفن حتى أتوا مصر منبع الثورة ومنبت الخيرات ففتحت لهم الوظائف أبوابها فدخلوها ، وجرت سيول المرتبات فما حمد الكثير منهم نعمتها ، بل ارتفعت أنوفهم عن أن يمتثلوا لقوانين حكومتنا حتى فى أمر التعليم ، إن مسيو فالوا معلم اللغة الفرنسية والمسيو فنك معلم اللغة الإنكليزية غير أهل ليكونا أساتذة لتلامذة ، والأول تعليمه لم يكن مطابقاً لترتيب المدارس فضلاً عن ضعف حال التلاميذ الجارى تعليمهم بمعرفته وأنه مستعمل معهم الضرب^(٤) ، هذا بالرغم من الكفاءة المتزايدة للموظفين المصريين ، فيبين لنا النديم أنه زار أحد معارفه فى قسم الحسابات بديوان عموم المرور «قرأيت

(١) المحروسة ، عدد ٢٨٦ فى ٢٦ سبتمبر ١٨٨١ .

(٢) التكتيك والتبكيك ، عدد ١٦ فى ٢ أكتوبر ١٨٨١ .

(٣) أبو نضارة لسان حال الأمة المصرية ، عدد ١٠ فى ٢١ أكتوبر ١٨٨١ .

(٤) المفيد ، عدد ٥٢ فى أول مايو ١٨٨٢ .

أمام الفتى البارع أحمد أفندي زكى دفاتر جسيمة ، وقد تذكرت هذا العمل وقسته بعمل بنك فوجدته يوازي خمسة من البنوك ، وفيه هذا الوطنى يتكبد مشقة العمل الجسيم براتب قدرة ألف قرش ، فعجبت من سوء حظ الشرقيين كما عجبت من نسبة ما ينسبهم للجهل وعدم حسن الأعمال ، وأورد الأمثلة الكثيرة ، وأظهر قلة الرواتب ، وأشار إلى المحسوبة وظلم الفقراء والنفاق^(١) .

ونادت الصحافة علانية بضرورة فصل الموظفين الأجانب ورؤسائهم ، بعد أن أعلنت الحرب عليهم وارتفعت صيحاتها بالشكوى منهم ، وتزعمت صحيفتا الطائف والوطن ذلك ، ولم يكن الهجوم على الأوربيين وحدهم ، أيضاً السوريين العاملين فى مصالح الدولة ودواوينها الذين مارسوا الرشوة ، كذلك أنصب الحقد على الموظفين الأتراك والشراكسة الذين شغلوا أحسن مناصب الدولة .

وأمام الثورة لم يتخذ الأجانب موقفاً معتدلاً استجابة للأوضاع الجديدة التى تمر بها مصر ، لكنهم زادوا من سوء تصرفاتهم وتسلبت ألسنتهم ، وبذلك تصعد سخط المصريين عليهم ، فترى « روسل » الإنجليزى الذى يشغل وظيفة عليا فى الإدارة يصرح علناً عقب التاسع من سبتمبر بضرورة احتلال بريطانيا لمصر^(٢) .

وبدأت الثورة تعمل من أجل الموظفين ، ففى نظارتها الأولى ، وبجوار قوانين الجهادية ، أصدرت قرانين تتعلق « بالمستخدمين المالكين » وتشكلت لجنة كلفت بتحضير القوانين المتعلقة بشروط قبول موظفى الحكومة ومستخدميها وترقيتهم ورفعتهم » وأما ما يتعلق بالخواجات فلا يكون داخلاً فى أعمال القومسيون^(٣) ، وكان شريف معتدلاً ، ففى البداية لم يرد أن يمس امتيازات الأجانب ، لكنه لم يستطع أن يوقف تلك الحملات التى شنت ضدهم ، والتى بدأت بالتقريع بمدير الجمارك .

وكانت الخطوة التالية الاتجاه نحو التمصير مع نظارة الثورة الثانية ، فقد اتخذت إجراءات من أجل المضى فيه ، ففى تقرير من القنصل النمساوى يذكر « أن عربياً أصبح له النفوذ القوى والتأثير الكبير فى شغل جميع الوظائف الحالية فى النظارات بمؤيديه ، وغدت القوة العسكرية تثبت جذورها أكثر وأكثر فى البلاد ، لكن

(١) التكتيك والتبكيك ، نفس العدد ، عدد ٢ فى ١٩ يونيو ١٨٨١ .

(٢) Polit, Archiv , Fasz XXXVIII/195, No. 144/5, Dec. 1881, p. 3 .

(٣) المحروسة ، عدد ٤٠٦ فى ٢٤ أكتوبر ١٨٨١ .

مع استمرار هذا الوضع واتساعه ستزداد الحالة خطورة ، والأضرار الناتجة ستسبب كارثة سيكون لها تأثيرها على المصالح الأجنبية ^(١) ، لقد هدفت الثورة إلى أن تحل الموظفين المصريين - الذين كانوا موضع ثقتهما - محل الأوربيين ، وكان هذا ما سعى إليه قادة الثورة إذ وافق اتجاههم وهواهم ، فتجد لعربى خطاباً يهاجم فيه الأجانب وتحكمهم فى الوظائف وحرمان المصريين منها « هم الربويون الذين امتصوا ثروة المزارعين بالربا الفاحش ، واغترفوا خيرات البلاد غرقاً مع سوء المعاملة لأهلها ، وهم الأجانب المتوظفون فى أعلى المناصب وغيرها بمرتبات باهظة ، الشاغلون لمعظم المصالح الأميرية حتى انجبرت الحكومة على رقت أبناء الوطن منها ، وهم الذين بأيديهم زمام الحكومة من المسلمين غير المصريين المتغلبين على ما ليس لهم بحق ، فهؤلاء الآخذون بمقائيد الأمور لا يرون فى أعينهم إلا أن يروا المصريين دائماً فى أسفل درجة من التأخر والقهر ، حتى يستقيم لهم أمر التغلب والاستعباد لأهل البلاد » ^(٢) .

وعندما أنيط لمجلس النواب مسألة الموظفين الأجانب ورواتبهم ، لمسنا الدور الذى قام به أعضاؤه تجاههم ، وخاصة فى مصلحتى التآريخ والجمارك ، كذلك خضعت ترقياتهم وفقاً لاستحقاقهم أثناء نظارة الثورة الثانية ، ومضت عملية التصفية ، فتذكر صحيفة التيمز « فصل أمس أربعة موظفين أوربيين من نظارة المالية بدون إنذار ولا سبب موقع عليه ، كما وزع منشور فى النظارة ينص على أن تكون جميع المراسلات باللغة العربية » ^(٣) ، وعندما ثبت عجز بعض المدرسين الأجانب وعدم خبرتهم قام عبد الله فكرى ناظر المعارف بفصلهم من الخدمة ^(٤) .

ومن بين الأوراق المضبوطة لدى منازل الثوريين بعد الهزيمة ما يدل على الشعور الذى انتاب مصر تجاه الأجانب ، الذين بسطوا نفوذهم حتى على الوظائف الإسلامية « الخواجة أنطون كراييجو الأرمنى نسيب الخواجة كركور بمصر وهو لمعرفته برياض باشا قد صار ترتيبه ناظراً لقلم قضايا محافظة بورسعيد بماهية شهرى ٢٠٠٠ قرش أى عشرون جنيهاً مع أن المحافظة لم يسبق لها ترتيب ناظر قلم القضايا ، وتحكمه فى قضايا المسلمين الذى لا يعرف فيها أصول ، وأن قضايا المسلمين لا يعرف حكمها شرعاً وسياسة إلا من هو منهم ، من أجل هذا يكون إبطال

Arch. de Cour, de maison et d'etat, Fasz XXXI/9, No. 60, 13 Mars 1882 . (١)

Broadly , The Trial and Pardon of Arabi Pasha, Vol. II . (٢)

The Times , April. 15, 1882 . (٣)

(٤) المقيث ، عدد ٥٢ فى أول مايو ١٨٨٢ .

معاش هذا الأجنبي»^(١)، معنى هذا أن أخضعت الثورة الأجانب لثورة الفصل ، بعد أن كانوا هم المتحكمين في المصريين ويتم فصلهم على أيديهم ، وتمضى هذه المسألة ودائماً تقرر بإحلال المصريين في وظائفهم « ورفت الخوجة مأكولوج وكيل التلفزيون بيورسعيد لحجزه إيراد التلفزيون بطرفه وتعصبه للإنجليز ، وتعيين بدله من الوطنيين بمعرفة سلامة بك باشمهندس عموم التلفزيونات »^(٢) .

وأعلن الموظفون المصريون الثورة على رؤسائهم من الأجانب ، وخرجوا عن طاعتهم وعصوا أوامرهم ، فيشكو الخوجة صيون وهو إنجليزى إلى الخوجة فكارى وهو إيطالى ومفتش لخفر السواحل أحد الموظفين بأنه عندما قال له « لا تكلم أحداً أثناء الشغل ، رد بقوله إنه يكلم مسلمين لا نصارى ، وفزع على بعضا ، وعندما قلت له يروح الكبرى امتنع عن التوجه وقال إنه يمشى على كيفه »^(٣) ، هكذا وصل الأمر للتطاول بالضرب على الرؤساء الذين طالما أذاقوا المصريين الأمرين ، وقد كان عدد موظفى مصلحة خفر السواحل حوالى ٤٢ موظفاً مصرياً ، وبالرغم من معرفة الأجانب أن مصر تمر بعهد ثورة ويجب أن يتخلوا عن جبروتهم فإنهم فصلوا هؤلاء الموظفين ، فعارضوا وارتفعت أصرااتهم ، وأرسلوا إلى عرابى ، فعلى الفور اهتم بذلك وأجرى ما فى صالحهم ، وتتابعت القرارات لتدور الدائرة على الأجانب ، ففصل العاملون منهم بالهندسة سواء بأجر يومية أو دائمون ، وأوضح تقرير الفصل أن هؤلاء الأشخاص « غالبهم غير لازمين »^(٤) .

وقد كان أمل الموظفين كبيراً فى إخراج أندادهم الأجانب ، ومع الثورة جاء التصريح بأنه قد حان الوقت لطردهم من الخدمة واستبدالهم بالمصريين بعد أن أيقنوا موقفهم العدائى ، وبعد أن تنفسوا الصعداء وأرادوا أن يستردوا كرامتهم .

وتمت الوحدة بين الوظائف بنوعيتها المدنية والعسكرية وتعاون الجناحان من أجل الوقوف أمام التسلط الأجنبى والتيار المعارض ، فاشترك العسكريون مع الداخلية فى الحراسات العامة ، وشغلوا وظائف مدنية وإدارية مختلفة ، ووضع التآلف والود بينهم وبين المدنيين ، فانتظمت الأعمال وقل الفساد الذى تميزت به الإدارات فى فترة ما قبل الثورة ، راعطت الثورة للموظفين الأهمية الكبرى والصفة

(١) محافظ الثورة العراقية ، محفظة ٤ ، دوسيه ٣١٨/ب .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٢١ ، دوسيه ١٩ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٠٣ .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ٢ ، دوسيه ٢٦ ، محفظة ٢١ ، دوسيه ١٦ .

البارزة بعد العسكريين ، وذلك عقب أن استبعدت أصحاب الوظائف ، وخاصة العليا كالمديرين المعروفين بولائهم للحكم المضاد . ففى خطاب مرسل إلى حميد أبو ستست يسجل « بلغنا أنه جارى عزل المديرين الذين هم من حزب الخديو »^(١) .

وكان لسياسة الثورة فى عملية التقل المستمر فى الوظائف أثر فى إصلاح الحال ، ففى مديرية البحيرة تغير ثلاثة مديرين واثان من المفتشين من نظارة المالية وثلاثة وكلاء للمديرية وثلاثة باشكتبة فى سنة واحدة^(٢) ، وأعطت معظم الوظائف للمصريين تطبيقاً لمبدأ الثورة وخاصة الوظائف العليا ، فكان لأصحابها النشاط المثمر فى خلق ائتلاف حى ، جمع الأعيان والعمد والمشايخ والتجار والأهالى فى إطار موحد لكل مديرية ، كثيراً ما كانوا يقيمون الاحتفالات والاجتماعات من أجل إذكاء الروح الثورية لقوى مصر الاجتماعية .

وأفترجت الثورة عن الموظفين الذين كانت يد رياض قد اعتقلتهم وسجنتهم ، فأنصفتهم وكرمتهم مثل محمد أفندى فنى ، الذى كان ناظر قلم ترجمة المالية ، فعينته الثورة مترجماً فى مجلس النظر ، وصدرت الأوامر إلى المحافظات « بعدم نقل ولا رفت ولا ترقية ولا قيد أحد ما مطلقاً من عموم المستخدمين بالحكومة ، إلا بعد المخاطبة مع ديوان الجهادية والتصريح بما يراء »^(٣) ، وهكذا أصبح الموظفون فى حماية العسكريين ، كما كان ذلك درعاً للأخطار التى كثيراً ما تعرضوا لها .

ونرى الجرأة والشجاعة تتاب الموظفين ، فيعرفون أن لهم حقوقاً ، وهناك من يقف بجوارها لكى يردّها لأصحابها ، فأوراق نظارة الداخلية تفيض بطلبات موظفين لصرف استحقاقاتهم حتى عن وظائف كانوا يشغلونها فيما مضى ولم يتحصلوا منها على حقوقهم ، وقد كان لمجلس النواب نشاطه الملحوظ تجاه نصرة الموظفين ، فيستقبل الشكاوى ويناقشها ، منها موظفون مفصولون ويريدون العودة ، ومنها من يريدون رفع مرتباتهم ، وقد أحيلت هذه الشكاوى على الداخلية للبت فيها وإعطاء كل ذى حق حقه ، كما احتوى بعضها على الثورة ضد الأجانب والجهر بظلمهم والمطالبة بإيقافهم عند حددهم وردعهم « فمحمود أفندى عدلى أحد

(١) المصدر نفسه : محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٣/ب .

(٢) Egypt, No. 7 (1882), Inclosure 2 in No. 157, April 22, 1882, pp. 112, 113 .

(٣) محافظ الثورة المرابية ، محفظة ٥٠ ، دوسيه ١٩٢ . محفزمات الداخلية ، محفظة ٤٢ ،

المعاونين بمركز أبو حمص يجهر بالشكوى من التناول الذي وقع عليه من الخواجة إسكندر دوسكويج - حماية النمسا والمجر - وفي الحال تجرى نظارة الثورة التحريات والتحقيق في الأمر^(١) .

ونجحت الثورة في نصرة الموظفين المصريين وإبعاد تسلط الأجنبي إلى حد كبير ، فيرسل ماليت إلى وزير خارجيته لينقل إليه الحسرة والألم اللذين غمرا الأوروبيين ، ويصف وفود الموظفين منهم الذين زحفوا أفواجا إلى الإسكندرية من أجل الرحيل^(٢) .

ولم يكن الأوروبيون وحدهم التاركين لمصر ، أيضاً كان هناك بعض من الأتراك والشراكسة الذين احتلوا مكاناً من الكراهية في قلوب المصريين ، وعندما وجهت إليهم الثورة انتباهها ، رأى البعض أنه من الصعب الاستمرار على الأرض المصرية ، وكان أغلبهم من الشبان المثقفين الذين « يتحصلون العلوم الرياضية والحربية » ، فطلبوا السفر ، وكان الترحيب والموافقة ، ومما لا شك فيه أن تصرفات رجال الثورة أثارت العنصر التركي وزادت من حنقة عليهم ، فيقول ثابت باشا مندوب الخديو بالآستانة إلى الخديو « وقد دلت التجارب على أنه فيما بعد سيكون من اللازم الالتفات إلى عدم رفع الوطنيين المصريين إلى رئاسة الوظائف الملكية ، أو إلى درجات الضباط العظام ، وقد كان هذا رأى المرحوم محمد علي باشا »^(٣) ، وبذلك انتقمت الثورة من أعدائها ، وقدمت لأصحابها حقوقهم ونصفتهم على من أذلوهم زمناً طويلاً .

وأصبح لا بد من رد ذلك العطاء ، ولم يتوان الموظفون عن تقديم كل شيء من أجل ثورتهم ، وقد حفلت أوراق الثورة العربية بنشاطهم وشرائعهم المختلفة - محافظين ومديرين ووكلاء مديرية ومهندسين وقضاة وأطباء وصيادلة ومعاونين ومدرسين ونظار أقسام وكتبة وعاملين بالمصالح المختلفة - واشتراكهم الفعال في الثورة .

أما عن المحافظين ، فالمصريون منهم خدموا وطنهم إبان الثورة وكانوا معها ، بينما غير المصريين تخلوا عنها وطمعوا بها بعد أن كانوا في البداية لهم موقفهم المؤيد منها ، ووضع الثوريون إمكانيات محافظاتهم تحت تصرف الثورة ، ففي محافظة

(١) محفوظات الداخلية ، محفظة ٢٨ ، ٩ يوليو ١٨٨١ ، محفظة ٤٣ في ١٢ يونيو ١٨٨٢ .

(٢) Lords, Vol. CCLXXI, June 23, 1882, p. 186 .

(٣) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٦ ، عابدين محفظة ١٦٤ ، ملف ثابت باشا ، وثيقة ٣٧ ، وثيقة ٧٣ .

العريش كانت عملية المجابهة الحربية والدفاع تتطلب مجهوداً وافراً من المحافظ ، فقام به خير قيام حتى إذا هاجم الإنجليز هذا الشاطئ أمكن للمنطقة صد الهجوم ، وكان عليه إعداد الأهالي والبدو منهم إعداداً كاملاً للتأييد الثوري ، فتذاع يومياً أخبار صحيفة الطائف « ويصير تلاوتها بين الأهالي والمستخدمين بقصد الهيجان » وكانت برقياته تنهال على « مركز القيادة بالتأييد والتشجيع » الدنيا امتلأت بالسرور والأفراح ، وأن الدعاء مستمر على المنابر ^(١) .

وكان المديرون ثوريين فألهبوا نشاط مدرياتهم ، وبفضلهم تم جمع الأنصار المطلوبة من المديرين ، وقاموا بتنظيم المتطوعين ، وفوراً يلبون نداءات الطلبات العسكرية التي تشحن مع التبرعات إلى مراكز القيادة ^(٢) ، كما شنوا حملات الجهاد المكثفة في مناطقهم ، وأسهموا بكل مجهوداتهم من أجل الثورة ومعروف أنهم أحبائها ، فقد كان عرابي المعين لهم منذ البداية ، لذا فمنتظر منهم القيام بهذا الدور . وكان إسماعيل بك رافت مدير المنيا قد أعطى خير مثال لمدير ثوري ، جاهد بكل قواه من أجل نجاح الثورة ، فعندما تسلم البرقيات إلى المديرية التي كان يطلق عليها « بشرى » ولو كان ليلاً . يتم إطلاق المناداة بسوق البندر وشوارعها بطلب الاجتماع ، فيحضر الأعيان والتجار والحرفيون « وجميعهم يتوجهون لطرفه ويتلو عليهم : إن عرابياً منصور ، وأنه سيكون ولي الحكومة المصرية ، ويأمر بالطواف بالبوارق والطبول في شوارع وحارات بندر المنيا العمومية والخصوصية ليلاً ونهاراً ، والصياح بكلام نظمه قاضى المديرية الشيخ بخيت :

يا مولانا يا عزيز إهلك دولة الإنجليز

يا مولانا يا بارى انصر باشنا عرابى

ويأمر مدير المنيا بإحضار بعض من الكلاب والخنازير وربط أعناقها بالحبال ، وجعلها تدور مع الأولاد في الشوارع ، أحدها أسود على رأسه قبعة باسم سيسور الإنجليزي والثاني باسم توفيق والثالث باسم سلطان ، وبالفعل تعدم شتقاً بعد تعذيبها وإحضار بدلها لتتكرر العملية نفسها ، وعندما أشيع في ذلك الوقت أن سلطان سيحضر إلى المنيا مع أتباعه الخونة ، أمكن لإسماعيل رافت أن يكون جبهة دفاعية وهجومية لتخرج للقاء الأعداء ، وأعطى الشمع للإنارة

(١) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٤١ ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٦٧ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٣ ، دوسيه ٤٦ .

في حالة مرورهم ليلاً ، « وحتى بعد النهاية كان يردد أن عرابياً باشا لا يمكن انهزامه »^(١) .

كذلك كان موقف وكلاء المديرين ، يعقدون الاجتماعات ويجتمعون بالشعب ليلاً ونهاراً ، وينشرون الأخبار البرقية بنصرة عرابي ، ويحمسون الأهالي ويفهمونهم أن عرابياً سيكون الحاكم المصري لمصر ، ولدرجة أنه عند صدور أمر عصيان عرابي « لم يكن لينشر في وقته »^(٢) .

ومارس بقية الموظفين نشاطاتهم ، فتعددت الخطب التي كانت تلقى في المساجد والاجتماعات ، وكان لذلك أثره في يقظة وتحميس الحمية والغيرة الوطنية ، ففيها يُعرض ما أصاب مصر ، وما نكبت به من ضرر على يد غير المصريين من الأتراك والأوربيين « الذين يرغبون في المعيشة الطيبة ومسيطرين على البلاد » ، وكان منها منصباً على الدعاء لنصرة عرابي وهزيمة الأعداء « لأنه هو المخلص والمنقذ مما أحاق بمصر » وأيضاً الدعاء للحزب الوطني بالنفوذ الذي هو الأمة كلها « ففي أثناء خطبة الجمعة بالحسين ، قام أحد الموظفين وقال ثلاث مرات : اللهم أنصر الحزب الوطني الحر »^(٣) .

وأسهم الكثير من الموظفين في المشاركة بكتابة المقالات ونشر القصائد في الصحافة التي هاجمت الحزب المعارض وعلى رأسه توفيق ، وأيدت خطوات الثورة وقادتها ، وفي اجتماعاتهم ولقاءاتهم انصبت أحاديثهم على بيان الظلم الذي تعرضت له مصر على يد أسرة محمد علي ، وتمنوا زوال هذا الملك من أيديها ، وقد تعرض إسماعيل لهجوم عنيف ، إذ عدوا سياسته هي التي جلبت الأجانب والمصائب لمصر ، وفي مكاتبتهم الحكومية نزعتم صور توفيق وكسرت ، وعلقت مكانها صور عرابي ، كذلك تولوا عملية التختيم في مناطقهم على محاضر ضد الخديو وخيانتة ، وأعلنوا عدم الرغبة فيه كحاكم لمصر ، ولم تكن تلك المحاضر ضد توفيق فقط ، أيضاً ضد الأجانب ، والمطالبة بإنهاء تحكمهم في مصر^(٤) .

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٩ ، دوسيه ٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٥ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ٩ ، دوسيه ٧٩ ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٦ ، محفظة ١٥ ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٣١٠ .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ٩ ، دوسيه ٧٩ ، محفظة ١٨ ، دوسيه ٤٧ ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٣٢٠ ، محفظة ٨ ، دوسيه ٤٥ ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٠٧ ، دوسيه ١١٠ .

ولم تخل مراكز القيادة من وجودهم ، وترددوا على ميادين القتال يعلنون التمنيات بالنصر ، ويرفعون من معنويات المحاربين ، ويظهرون التأييد الكامل لخطوات الثورة ، كما تولوا توزيع صحيفة الطائف على أحيائهم ، ومنهم من يقوم بدور المعلم فيسهررون الليالي لقراءتها وشرح ومناقشة ما فيها والتعليق على أحداثها ، وكان مصطفى أفندي نور حكيم بيطرى مديرية المنيا يتوجه ومعه الصحيفة إلى سوق البندر ويتقل بين الدكاكين ويقرأ بأعلى صوته « أيها التجار والأعيان اسمعوا هذه البشرية ، إن جيش عرابى منصور ، وإن كافة الممالك العربية مثل تونس وطرابلس الغرب وبلاد الحجاز ومسلمى الهند وبر الشام أخذتهم الحمية الدينية ، وخابروا عرابى باستعدادهم للحضور معه لمساعدته ، وإن مصر هى للعرب لا للترك ، وإن المملكة المصرية ليس بها سوى عرابى الجارى منه المقاومة والمدافعة لحفظ الوطن والدين » وقد اشتهر هذا البيطرى فى منطقته بأنه « قاموس الأخبار »^(١) ، وبذلك وضع الشعور القومى المتأصل فى الثوريين .

وكان على الموظفين دور التعبئة النفسية لقوى الشعب ونشر أنباء الانتصارات من أجل الوقوف أمام المعسكر المضاد حتى لا تعطى له الفرصة للعمل على الهزيمة وعدم بلبلة الأفكار ، فكانوا يعدون جميع ما يورده عرابى انتصارات ، ويشجعوا أهالى مناطقهم « بالطواف بالطبول والبيارق فى شوارع البندر ينادون بنصرة عرابى وأنه امتلك الظفر » ، ويذيعون أن الجيش فى غاية القوة وأن قواته متدربون على فنون العسكرية وأمور المحاربة مثل « محمود باشا سامى وعبد العال أبو حشيش وعلى الديب وعلى الروبى ومحمود فهمى الذى رسم خطوط الاستحكامات المتينة ، وأن العدو لا يمكنه امتلاك الفرصة فيها ، وأن دولة فرنسا عارضت دخول المراكب الإنجليزية ترعة السويس ، وأن المسيو دليسبس أقام الحجة لدولته على ذلك ، وأنه صار سد الترعة الإسماعيلية وترعة المحمودية لعدم وصول مياه النيل إلى الإسماعيلية والإسكندرية ، وذلك يضعف قوة المحاربين ضد عرابى »^(٢) .

هذا بالرغم من أن بعضاً منهم قد نال الأذى من الرافضين أمام ثورتهم ، فبينما كان أحدهم يشتعل حماساً ويدور بالشوارع ويدعو بالنصر للثورة وقائدها

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٧ ، محفظة ٩ ، دوسيه ٧٢ ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٣٢٠ ،

دوسيه ٣٢١ ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٥٩ ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨٩ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٥ ، دوسيه ٢٧ .

« فما كان من مأمور محطة بندر منوف • وهو شركسى - إلا أن أخذه وأجرى ضربه ثم سجنه »^(١) ، لكن لم تتجح اليد المعارضة من وقف ذلك الحماس الثورى الذى استمر حتى النهاية ، وكان من يرى منهم إشعاعاً للخيانة يمضى فى القضاء عليه ، فمعاون هندسة المنيا « عندما يرى المروء من أحد وميله للخديو أو أعوانه كان يتهدهده ويتوعده بالأضرار بل ويكتب فيه المحاضر »^(٢) .

أما عن البعد السياسى والاجتماعى لتلك الفئة ، فعندما كثرت الاجتماعات فى المنازل التى أصبحت مقراً لملتديات سياسية ، وشارك فيها العسكريون ، أثيرت المسائل السياسية ، وكان لرجال القانون وخاصة القضاة الدراية الوافية فى إدارة المناقشات^(٣) ، ووضعت الإرادة فى إسقاط النظام القائم ونوال مصر حريتها التى حرمت منها ، فيصرح أحد الموظفين لأهل منطقتهم « إن زمن الاستبداد قد انتهى وأن الحرب دينية ، وأنه يجب على كل مسلم المساعدة للانتصار على النصارى وقطع دابرهم من القطر ، وأنه بانتصار عرابى يصير رفض حكم الترك ويتولى عرابى على القطر ، وذلك حتى يكون الوالى من أهاليه ، وينقطع أمل الأورباويين فى العودة إلى مصر ، وأنه فضلاً عن إضاعة ديونهم يصير أخذ أموالهم ويصير القطر حراً »^(٤) .

وعرج الموظفون على بعض من كبار الملاك بعد أن ظهر موقفهم العدائى للثورة وخيانتهم وانضمامهم للعسكر المضاد ، فترتفع أصوات « التتديد بسلطان باشا وعلى مبارك باشا وغيرهم من الذوات المخلصين للخديو على انحيائهم وإقامتهم بإسكندرية ، وأنه صار ضابط يبلغ من النقود فى منزل على باشا مبارك تنفع الحرب ، وسلطان باشا عنده غلال تؤخذ لمؤونة العساكر »^(٥) ، فكان ذلك تعبيراً عن داخلية الموظفين وكرههم للخيانة والطبقية ، وتجنيب كل شىء لميدان الحرب ، ووضع ذلك فوق كل الاعتبارات . وبهذا لم يختلف موقفهم عن بقية قوى مصر ، بل نلمس الالتحام التام ، فالموظفون كونوا وحدة جمعت الثوار من أجل نجاح الأهداف وتأييد الخطوات المدعمة ، فدائماً ما كانت الاجتماعات تضم الشرائح المختلفة من المجتمع .

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٦٤ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٧ .

(٣) معية سنه عربى ، مجموعة رقم ٥١ ، الإفادات الواردة للمعية رقم ٨٦ ، ص ٧٥ .

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٥٩ .

(٥) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٧ .

وقام الأطباء بتسهيل المهمات العسكرية من إعطاء شهادات وخلافه ، وأدى البيطريون مهمتهم وأرسلوا الإعانات من المواد الغذائية والأخبار إلى المعسكرات ، وفرزوا الخيول والبغال المطلوبة للجهادية ، وكان للصيادلة دورهم الثوري ، فالصيدلي السكندري محمد ماجد ساهم بخطبه وحماسه مع جمعية الشبان للدرجة التي أقلق عمر لطفى لإنصباها في الهجوم على الأجانب ، وطلب رسمياً منع ذلك ، والصيدلي أحمد راتب بدمياط كان من بين التهم التي وجهت له أنه « مهيجاً للأفكار » إذ كان يعد أهالي دمياط ويشجعهم ويحثهم على المضى في الثورة^(١) .

أما المدرسون ، فقد كان لهم موقفهم وخاصة مع تلاميذهم ، ففرسوا في قلوبهم وملأوا أذهانهم وغذوا أرواحهم بالثورية « مما جعل هؤلاء التلاميذ في حالة هيجان »^(٢) .

وكان الموظفون المسيطرون على المواصلات وخاصة البريد يقومون بمجهوداتهم في هذا المجال ، فتم التعاون بينهم وبين المطبوعات ، « فكان مأمور إدارة عموم البوستة يقوم بفتح الخطابات والإطلاع عليها خاصة ما كان يأتي من الآستانة والشام وأوربا مع كافة الجرائد ويضعهم داخل أكياس ويحجز عليهم ويختتمهم ويوصلهم إلى قلم المطبوعات »^(٣) .

وعندما قررت قيادة الثورة في آخر الأمر قطع المواصلات في الميدان الشرقي لإعاقة تقدم الإنجليز ، وصدرت برقية عرابي « حالاً يصير رفع قدر أربعة وأربعين جوز قضيب من سكة الحديد الموصلة للزقازيق ، وقطع الجسر قطعاً مهولاً ، وإطلاق المياه ، ويكون ذلك من جهة القنطرة » فيسرع المهندس على أفندى حسن ويأخذ قطاراً مخصوصاً ويحرق كوبرى الشرقاوية ويهدم كوبرى طلخا^(٤) ، لكن لم يتم المخطط حيث كان الوقت متأخراً .

(١) المصدر نفسه ، دوسيه ٤١ ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨٩ : محفظة ٧ ، دوسيه ٣٤ ، محفظة ١٩ ، دوسيه ١٤٤ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٤٠١ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٣٢٠ .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٢٦/ب .

كذلك قام الموظفون بدور فعال في مسألة المناداة بالتطوع للدفاع عن أرض الوطن التي دنسها الأجانب ، وأعلن القضاء الجهاد وأظهروا أنها حرب دينية وأن « من مات بالمحاربة يموت شهيداً ، وأن أفضل الأعمال بعد الإيمان الجهاد في سبيل الله »^(١) ، كذلك كان من بين المنادين بالجهاد ذلك الموظف معاون الداخلية المدعو سعد أفندي زغلول « ففي اليوم الذي وقع فيه ضرب الإسكندرية كان الشيخ سعد زغلول وهو أحد أحباب محمد عبده ينادى بالجهاد الديني »^(٢) ، هذا ولم يقف دورهم على التحميس فكان منهم من يحضر المجاهدين إلى أرض المعركة^(٣) .

وشمل النشاط والتشجيع مسألة التبرعات . فتولوا جمعها من أجل الجيش المدافع عن أرض الوطن^(٤) ، وأسهموا بالأموال حيث لم يكن الموظفون يملكون الحبوب والبغال ، وامتلات صحيفة الوقائع المصرية بأسماء الأفندية المتبرعين ومنهم عدد كبير من الأقباط^(٥) ، ولم تكن تقدم الأموال للجيش فحسب ، ولكن أيضاً لمهاجري الإسكندرية ، وكان عن طريق اشتراك الموظفين في الجمعيات الخيرية تتم التبرعات باسمها للقوات المحاربة ولإعانة المهاجرين . وعندما قرر « خصم ٥% من مرتبات الموظفين وأصحاب المعاشات من جميع موظفي الحكومة لتكون بمثابة إعانة للمهاجرين النازحين إلى القاهرة من الثغور ، وتوزيع الموظفين المهاجرين من الإسكندرية على مثيلات أعمالهم بمصر »^(٦) ، رحبوا بذلك وقدموا كل مساعداتهم لتنفيذ قرارات الثورة .

أما عن تقديم النفس للحرب والتضحية بها من أجل مصر ، فقد اشتركت الأعداد الكثيرة من الموظفين ، منهم الشباب مثل هؤلاء « الذين توجهوا إلى حضرة

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٤١ ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٠٥ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١٩ ، دوسيه ٨٩ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٤١ .

(٤) المصدر نفسه ، دوسيه ٢٧ ، دوسيه ٣٦ ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٢٨٨ .

(٥) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٦٥ في ٢٩ يوليو ، عدد ١٤٧١ في ١٣ أغسطس ، عدد ١٤٧٥ في ٢٧ أغسطس ١٨٨٢ .

(٦) محافظ الثورة العربية ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٢٨٨ ، محفظة ٣١ ، دوسيه ٢٥ ، الوقائع المصرية ، عدد ١٤٥٩ في ١٦ يوليو ، عدد ١٤٦٠ في ١٧ يوليو ، عدد ١٤٦٢ في ٢٢ يوليو ، عدد ١٤٦٨ في ٥ أغسطس ١٨٨٢ .

قائم مقام ٧ جى بيادة بالقشلاق الأبيض برشيد ، وأظهروا لحضرته حميتهم الوطنية وغيرتهم الدينية ، والتمسوا من حضرته أن يؤذن لهم بتعليمهم أصول العسكرية ، وكيفية حمل السلاح والبعض من الفنون العسكرية ، فأذن لهم حضرته ، وعين من يكفى ليعلمهم من الصف ضباط فى كل يوم ساعتين ونصف ^(١) .

وكثرت الطلبات للجهادية رغبة فى الانخراط فى سلكها ، وقد فاضت بالحماس إذ يسجل أصحابها « إن الإسلام ومحبة الأوطان والحرص على شرف البلاد مما يوجب علينا أن نكون عضد إخواننا بالجهادية أعز الله نصرهم ، نساعدهم على ما يوجب حماية حوزتنا ووقاية بلادنا من شرور الأعداء ، ولهذا فإننا جميع الموقعين على هذه العريضة مستعدون لما هو فى استطاعتنا من المساعدة ، ونحن رهناء إشارة نظارة الجهادية المنصورة ، نجيب دعوتها وقت ما تأمرنا معتقدين أن فى ذلك شرف لنا ، وأن كان أقل خدمة يجب أن يتقرب بها أمثالنا إلى الله جل جلاله فى هذه الأوقات جعلها الله أوقات ظفر وانتصار أمين ^(٢) . وتوافدت البرقيات على عرابى بكفر الدوار من تلك الفئة فى هذا الشأن .

وكان هناك من تركوا وظائفهم من أجل الالتحاق بالعسكرية ، فقد أرسل على فهمى إلى برنجى لواء بيادة بأن « شاب يدعى محمد أفندى سعيد ومعه كتاب إفادة من ديوان الجهادية يتضمن الأمر بإدخاله فى عداد عساكر الآلاى الذين تحت أمرتنا ، وقد كان هذا الشاب مستخدماً بضبطية الإسماعيلية بماهية شهرية خمسمائة قرش ، ولكن حبه فى خدمة بلاده حجب إليه ترك ذلك والدخول فى عداد العسكريين وإن كانت وظيفة العسكري ثلاثين قرشاً ^(٣) . ومن بين البرقيات التى كانت تصل إلى مركز القيادة من يريد ترك خدمته الوظيفية والعمل فى ميدان الحرب ، بل وصل الأمر إلى التوسل من أجل ذلك « أرجو إجابتي وعدم حرمانى من وجودى ضمن الجيش المنصور » . بينما فضل البعض الآخر التوجه رأساً بنفسه إلى كفر الدوار « ليقدم نفسه ضمن المتطوعين ^(٤) .

(١) القسطنطين ، عدد ١١ فى ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

(٢) المفيد ، عدد ٦٦ فى ٢٠ يوليو ١٨٨٢ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤١٧ فى ٤ مايو ١٨٨٢ .

(٤) محافظ الثورة الميرانية ، محنظة ١ ، دوسيه ٢١ ، محنظة ٢ ، دوسيه ٣١ ، محنظة ٧ ، دوسيه ٤٢ .

ولم يكن الموظفون الشباب وحدهم المتمتعين بتلك الروح المعنوية العالية والساعين بمختلف الطرق للمساهمة في الدفاع عن مصر ، فنرى الشاغلين لمناصب القضاة يتلقون تعليمات السلاح داخل المعسكرات ويواصلون التدريبات من أجل الإشتراك في الحرب ، كذلك قدم أصحاب المعاشات من الموظفين أنفسهم وتطوعوا ، فتعددت برقياتهم لعرابي لإعلان رغبتهم ، ثم جمعوا أنفسهم - بلغوا ٤٠٠ من الفيوم - وذهبوا للمشاركة وتلقوا التدريبات « وصار طلبهم إلى ديوان الجهادية لترتيبهم بالآلايات » (١) .

وبالإضافة إلى ذلك هناك المشاركة الروحية عن طريق قراءة عدية يس والبخاري والدعاء ، فقد أرسل قاضى القليوبية إلى من يتبعه بذلك ، وطالب بأن « تتم القراءة بدون لحن فى المساجد والأضرحة والأماكن الطاهرة صباحاً ومساءً بقصد نصره الإسلام وفك الكرب عن المسلمين » (٢) .

وحتى بعد النهاية ، استمر الموظفون على ثورتهم وولائهم لها ، فعندما أسر محمود فهمى ، كانوا يشيدون بقوة عرابي وأنه هدد « إذا مس محمود فهمى ضرر ، ففى نظير ذلك يصير معاقبة العائلة الخديوية الموجودة بمصر » وبعد دخول الإنجليز القاهرة ، كانت المندادة باسم عرابي ، فمأمور بندر كفر الزيات لم يكف عن ذلك ، فى الوقت الذى راح فيه موظف آخر يدعى هداية أفندى فى دمنهور « يشيع أخبار تتجمية مضادة للذات الخديوية » (٣) . وبذلك يتبين أن المثقفين كانوا مع الثورة بكل ما يمتلكون من نفس وروح وفكر ومادة ، ولم يتركوا باباً إلا وطرقوه من أجل انتصار الثورة .



(١) المصدر نفسه ، محفظة ٩ ، دوسيه ٧٢ ، محفظة ١ ، دوسيه ١٦ ، دوسيه ٢٢ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٠٥ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٧ ، محفظة ٥ ، دوسيه ٦٩ ، دوسيه ٧٣ .

ملاك الأراضي

✍ ... ملاك الأراضي واستمرار التأييد الثورى

يميل الكثيرون فى رأى إلى انسحاب كبار الملاك من الثورة نظراً لدخولهم فيها لأهواء معينة ومصالح خاصة ، وعندما انتهت مآربهم ووجدوا أن التيار الثورى جارف خرجوا جميعاً من الميدان الثورى . لكن هذا الرأى خطير للغاية لأنه لو كان ذلك حقيقة ينطبق على البعض فليس معناه أن يعمم على الكل ، فمعروف أن الأتراك الدستوريين قد تراجعوا وانضموا إلى الجبهة المعارضة للثورة ، وهو متوقع ، إذ كيف يستمرون فى ثورة شعارها مصر للمصريين ، كما كان هناك بعض من كبار الملاك أمثال سلطان ومن تبعه وقفوا سداً أمام تحقيق الإنتصار الثورى لأغراض معينة .

أما باقى الملاك فواصلوا مسيرتهم وقدموا للثورة المعاونة والتأييد، وكانت مصر جميعها بما فيها قوة هؤلاء الملاك تكون وحدة متكاملة ، لدرجة أن نينيه يذكر لنا أن «الحزب الوطنى أصبح مصر كله» (*) . وكان ذلك طبيعياً ما عدا بؤرة المعارضين .

وأوراق الثورة العربية الكثير منها قضايا تخص كبار الملاك المتهمين باشتراكهم الفعال فى الثورة ، كما نرى أن السجون عقب النهاية قد امتلأت بأصحاب الرتب العالية الذين يمتلكون آلاف الأفدنة، وراحوا يلتمسون العفو «حتى يوالوا زروعاتهم» ، ووصل الأمر إلى أن بعض الباشوات الذين كانوا ضد الثورة منذ البداية وأحباء لتوفيق ، أصبحوا فى معسكرها بناء على إحساسهم بخيانة حاكمهم ، بعد الأحداث الأخيرة والغزو الإنجليزى ، فيقول يعقوب باشا صبرى « إلى أن ضريت الإسكندرية كنت دائماً فى صف الخديو ضد عرابى ، ولكن الآن وبعد أن انضم إلى الإنجليز

تغيرت الأوضاع ، ، وقد أقر تقرير نمساوى بأن « الطبقات العليا في مصر تكن كل الود لعرايى » ، بينما صرح أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى « أنه من الحق والعدالة ، فإن المتاعب السارية الآن في مصر تحركها الطبقات العليا أكثر منها الدنيا »^(١) .

كان من الضروري أن يستمر التأييد للثورة ، فكبار الملاك منذ البداية يشعرون أنهم الطبقة المؤهلة لحكم مصر ، تلك التى قاست من « ظلم الأتراك ألواناً شتى وكظمت من الفيض ألواناً شتى ، واستقر في منطقة شعورها ومنطقة اللا شعور منها ، كذلك رواسب كثيرة من هذا الظلم والطغيان ، وكان لابد لهذه الرواسب النفسية من أن تؤثر في سلوكهم وعقولهم وميولهم وطباعهم »^(٢) ، لذلك كان لابد من المضى من أجل تحقيق الأغراض والتخلص من العناصر التركية ، ويجب أن نضع في الاعتبار أن للوطنية المكانة بينهم ، لكن ليس معنى ذلك أن جميعهم كانوا معتقدين لمبادئ الثورة اعتناقاً كاملاً ، حيث إنه في بعض الأحيان تتعارض مع تلك النظرة الطبقية ، لذا نجدهم في بعض المواقف معتدلين ولا ينجرّفون مع التيار الثورى القوى .

ومضى النشاط الثورى عن طريق اشتراكهم في الجمعيات التى هي بمثابة تنظيمات سياسية فدعموها بماديّاتهم ، ومنها خرجت صيحات التحرر ، وتذكر لنا صحيفة الوقائع المصرية أن جمعية مساعى الخير الديمقراطية التى أسسها حسن بك المرقبى وأعضاؤها نحو من ٣٠٠ عضو « كانت تقص بالذوات »^(٣) ، وفتح ملاك الأراضي بيوتهم لدعاة الثورة وتابعيها ، ففيها تعقد الاجتماعات ، وكان النديم الشعلة المتقددة لها ، وقد عد كل واحد منهم نفسه رئيس الحزب الوطنى في منطقته ، ومما لا شك فيه أن تفكيرهم قد تأثر بالثقفين ، هذا بالإضافة إلى أنه كان يبدو على الكثير منهم المؤثرات الثقافية الأوروبية^(٤) ، ومن هنا امتزجوا بالتيار الليبرالى المنتشر بالفكر الإقطاعى ، فهم كثيرون الحقد على الأجانب وتسلطهم وخضوع مصر لهم مما سلبهم الكثير ، فيها جمعون في اجتماعاتهم الصحف الأجنبية وخاصة الإجبشون جازيت تلك التى كانت تنطق بلسان ماليت ، وأساءت للثورة والثوار ، وخرجت منهم

(١) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 165 ، الأرشيف النمساوى ،

محفوظة ١٧ رقم ٥٩ ، ٢٦ أغسطس ١٨٨٢ .

Commons, Vol. CCLXXII, March 13, 1882, p. 764 .

(٢) عبد اللطيف حمزة ، أدب المقالة الصحفية في مصر ، ج ٣ ، ص ٢١ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٠٩ في ١٥ مايو ١٨٨٢ .

(٤) Ninet , The Origin of the National Party in Egypt, p. 126 .

(٤)

التصريحات التي تعبر عن أملهم في إبعاد السرقة والربا « هؤلاء الخواجات هم أغنياء البلاد وأصحاب البنوك والأموال الذين جاءوا مصر حفاة لكي يسرقونا ويستغلوا فقراءنا ، وذلك الخديو الذي يقف بجوارهم ضدنا » ، نادوا بالإتحاد والعروة الوثقى « من أجل اللحظة الآتية »^(١) .

ومن المحتمل أن هذا الهجوم هو لرغبتهم في التمتع بمزيد من الثروة والسلطان، ولكن كان واضحاً أن كثيراً منهم يحمل بين جوانبه القلب الطيب والعطف على الفقراء ، ففي اجتماع عقده أحمد بك أباطة « سروراً بأيام الثورة وزمان الحكومة القانونية » تكلم فيه النديم عن وجوب مساعدة الفلاح ومعاونته لشدة حاجاته ، ودعا الأثرياء للأخذ بيده وبذل المجهود من أجل استخلاصه من ديونه التي أثقلت كاهله ، وذكر أن عباس الزمر أدى عن أهل بلده خمسة آلاف جنيه لمداينتهم ، فلم يبق واحد منهم مديوناً لأجنبي^(٢) . وهذا يدعونا للتساؤل إلى أي حد ساهمت الرأسمالية المصرية أثناء هذه الفترة لخدمة الاقتصاد المصري ؟

كان من أهداف الثورة انتشار الاقتصاد المصري من أيدي الأجانب ، وبدأت الخطوات لتحقيق ذلك مع بداية أحداثها ، ففي أثناء انعقاد مجلس النظائر نوقش مسألة إنشاء بنك مصري يتولى المهام الاقتصادية^(٣) .

حقيقة أن كبار الملاك لم يقدموا بشجاعة على مثل هذا المشروع ، لكن كان التفكير جدياً في إنشاء البنك ، وجعل مقره الإسكندرية ، وأعلن أن من مهامه الأولى « مساعدة الفلاح ورفع فاحش الربا عنه »^(٤) .

وتذكر صحيفة مصر أن مشروع بنك وطني مصري واستغلال الرأسمالية المصرية فيه ، قد عرض على عدد كثير من أمراء البلاد وأعيانها ووجهائها ، فصادف لديهم تمام القبول ، وعرضت أوجه الفائدة والنفع الذي يعود على مصر والمصريين من المشروعات المالية ، وذلك حتى تحرك الهمم وتشجع الإقبال عليه « أن يجمع رأس ماله من سكانه المقيمين فيه ، وتسلم إدارته إلى تجار مشهود لهم بالخبرة والأمانة وعلو الهمة ، ويكون له مجلس إدارة منتخب من المساهمين مع إبقاء الغالبية فيه للموظفين ، وتكون محاسباته ومكاتبته باللغة العربية ، وتشر ميزانيته لإطلاع المساهمين والجمهور عليها ، ويجعل مركزه في الإسكندرية لأنها محط تجارة القطر،

Ninet , Arabi Pacha , pp. 111 - 113 .

(١)

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٤٩ في ٥ مارس ١٨٨٢ .

Archives d'Etat, Vienne, No. 20, 15 Janvier, 1882 .

(٣)

(٤) المفيد ، عدد ٢٧ في ٢٣ يناير ١٨٨٢ ، الإسكندرية ، عدد ١٦١ في ٢١ فبراير ١٨٨٢ .

ويكون له فروع في مصر والمديريات والأرياف لتسهيل المعاملة وتقريب المناولة للتجار وأهالي القطر ، ويكون كل فرع تحت مراقبة واحد من أعضاء مجلس إدارة البنك ، وفرعان في لوندرة وباريز ، وتكون أشغاله التسليف للفلاح على حاصلاته بأرباح معتدلة ، والتسليف للأعمال الصناعية أى يكون - فى الجملة - بنكاً جامعاً لفوائد البنوك الزراعية والعقارية والتجارية والصناعية معاً ، وتمضى فى عرض رأسماله وأسهمه وأرباحه وما سيعود على التجارة والصناعة من فوائد ، ولم تُقصره على أثرياء مصر « يكون أمن مستودع على أموال الوطنيين سواء كانوا من الملاك أو التجار أو أصحاب الرسمايل العظيم أو من أوساط الناس وصغارهم ، لأن ثمن أسهمه الزهيد يجعل شراءها مستطاعاً للجميع »^(١) .

وكان الهجوم على الرأسمالية الأجنبية واضحاً ، تلك التى أنشأت البنوك والشركات المالية وأثرت على حساب مصر وتمتعت بالفوائد الباهظة ، ويمضى الحث للرأسمالية المصرية على النهوض لمجازاة الأجانب وانتشال الفلاح وذلك «بتأليف جمعيات زراعية وصناعية وشركات مالية وتجارية تعيد قوى البلاد »^(٢) .

وبناء على ذلك بدأ التحرك من جانب كبار الملاك للمشاركة فى البنك المصرى الجديد ، لكن الإقبال كان فاتراً ، واهتم عرابى بهذه المسألة ، فهو دائماً يطالب بالوحدة بين كبار الملاك والعمد ومديرى المديريات من أجل العمل على نجاح مشروع البنك ، وكلف عبد السلام المويلح بدراسة هذا الموضوع ، واستبعد فكرة إشراك الشوام فيه ، ففى حديث له مع نينيه يبين « إن اتجاهنا لتأسيس مؤسسة قرض زراعية مصرية بحتة بموافقة المجلس النيابى لإنقاذ البلاد والفلاحين من المرايين ، حيث إن كل الاستثمارات مع منشأة وقطاوى والكونتات دى زغيب وإخوان عايدة ، هؤلاء الذين التهموا مصر مع إسماعيل »^(٣) ، ومن هنا يتضح أنه حتى المشروعات الخاصة باستثمار الرأسمالية المصرية والتى كان يريد المشاركة فيها غير المصريين كانت مرفوضة ، ورأت الثورة تطبيق شعارها على كل برامج عملها ، وأخيراً فلم تساعد طبيعة الرأسمالية المصرية الزراعية على المضى فى هذا الاتجاه الجديد ، وكانت الفترة التى عاشتها الثورة قصيرة فلم تتح لها العمل الاقتصاى والأكثر تنظيماً إذ أن الأحداث لاحقتها من كل جانب .

(١) مصر ، عدد ١٢ فى ١٥ مارس ١٨٨٢ ، الأهرام ، عدد ١٧ مارس ١٨٨٢ .

(٢) المصدر نفسه .

Ninet , Arabi Pacha , pp. 209, 210 .

(٣)

وإن لم يكن ملاك الأراضي قد صبوا إمكانياتهم في المجال السابق ، فإنهم قدموها من أجل الثورة ، وربما أنه لو نجحت لكان كل ما أعلنت عنه في برنامجها خرج إلى حيز التنفيذ بمساعدة الرأسمالية المصرية .

ومع الأحداث السياسية للثورة تكون الوقفة الموحدة من الملاك ، فعندما تقع الأزمة مع مذكرة مايو وتصل قطع الأسطولين إلى المياه يرفضون هذه الأوضاع ، ويؤيدون حكومة الثورة ، وقد وضع موقفهم من تلك الخطابات المؤيدة التي أرسلت لقادة الثورة من أثرياء مصر فيسجل أحدها « إن النظارة تكونت بموافقة مجلس النواب وتحت رئاسة محمود سامي حقاً نظارة عدالة أخضعت الحكام للنظام ، ولا نريد حكم الطفلة انذين لا هم لهم إلا تحطيم مصر وتسقيق الهزيمة ، لذا فالرغبة في العدالة تدعونا لطلب بقاء النظارة ، فنحن نؤيدها بكل ما نملك » ويتابع « إن وجود الأسطول البريطاني في مياهنا معروف أنه لتأييد المذكرة التي تعتبر خرقاً لقرمانات السلطان وكسراً لحقوق شعب مصر ، وإنها لتعنى أننا لا نمتلك شيئاً في بلادنا ، وقد علمنا أن الخديو قد قبلها لكننا رافضون لها ، فإن الموت أفضل لنا على أن نحيا في ظل الموافقة » . كان هذا التأييد وتلك المساندة قد توافدت من على أرض مصر كلها من الإسكندرية ورشيد والفيوم والغربية والمنصورة والداخلية ، ورغم اختلاف التعبيرات إلا أن الهدف واحد^(١) .

وقد تمت مشاركتهم في صورة واضحة برجوع عرابي إلى منصبه عقب استقالة النظارة ، وعند عودته « كان مكتبه محاطاً بتلك العناصر الأساسية لسكان القاهرة » ، والتي غالباً ما تكون من الذوات ، إذ تمكن عرابي بمقدرته من جمع قوى الشعب حوله .

وكانت الاجتماعات التي يقيمونها واللقاءات التي تتم على أيديهم ، ظاهرة من ظواهر التعاون الكامل مع الثورة ، فعلى مستوى مديريات مصر جميعها عقدت وسرت فيها الروح الحماسية « كلما كان يحضر عرابي لجهة الزقازيق ، فكان أحمد بك أباطة يتحد معه ، وكان يحضر معه في العزايم بطرف أمين بك الشمسي وخلافه ، وعبد الله النديم يقرأ لهم الخطب المهيجة لأفكار الأهالي ويدعو لعرابي : يعيش عرابي بطول البقاء والدوام وأن يكون والي البر »^(٢) ، وضمت هذه اللقاءات العسكريون والعلماء والتجار ، ولم يكن الأمر قاصراً على إقامة أفراد لتلك الولائم والحفلات ، بل كانت العائلة جميعاً لا يشذ أحد منها على التأييد « فعائلة أحمد

(١) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , pp. 173 - 175 .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٢ ، محفظة ٩ ، دوسيه ٦٥ .

مصطفى بك من أعيان مليج منوفية قد أكثروا منها » وامتألت بخطب التأيد الثوري^(١) ، وكثيراً ما أعد أعيان دمياط منازلهم لاجتماعات العسكريين » ويخطبون في الأهالي ويحثونهم على الاتحاد^(٢) .

وقام ملاك الأراضي عن هذا الطريق بعمل خلايا ثورية ، وكانوا دائمي النشاط والحركة ، ووسعوا الدوائر الثورية ، وجذبوا إليهم العمدة والتجار » وكان إبراهيم بك الشريعي كل كام يوم قلائل يحضر المنيا ويفضل خمسة أيام أو ستة ويحضر معه زميله محمد جلال ويتحدثوا مع إسماعيل بك رأفت ونجاتي بك ، ويعملوا التدبيرات اللازمة سرّاً بينهم على ما يقصدون فعله ، فضلاً عن أعمال جمعيات خصوصية ليلاً تارة بمنزل موسى على عمدة الفقاعي ، وكانوا يداً واحدة ضد الحضرة الخديوية^(٣) .

وتبلورت أولى سمات هذه النشاطات في العمل على إسقاط النظام القائم والتخلص منه ، فلم يخل اجتماع لهم إلا وسب فيه توفيق ، وكانت الصيحات تلو فيها « الخديو مخلوع » ، وأظهروه بصورة الخائن الذي باع مصر للإنجليز ، وازداد هجومهم على الأسرة المالكة ، وكان ذلك طبيعياً بعد أن تأصل فيهم مبدأ « مصر للمصريين » فيعدون مساوئ حكامها من أولهم لآخرهم ، ولم ينج أحد من ألسنتهم حتى محمد علي ، وتبع ذلك ظهور حقدهم على العناصر التركية « أما أولاد الترك جميعهم نصارى ، والإسلام ظهر الآن في أولاد العرب بوجود عرابي » ، هذا بعد أكدوا أن ٨٠٪ من أعيان القطر راغبين في خلع الخديو « والباقي الذين لا يرغبون ذلك هم رعاع الناس والجهلة »^(٤) .

هكذا كانت نظرتهم لمن امتنع عن تأييدهم وشعورهم تجاه المعارضين ، وترجموا قراراتهم بتوليهم مسألة تختيم الأهالي وجمع توقعاتهم ضد توفيق لإنزاله من على عرشه ، وقد برز في هذا الميدان أحمد بك أباطة وهو من أعيان الشرقية ، وكان عرابي يميل إليه حتى لقد عينه فيما بعد مأمور عريان الشرقية والقلوبية ، ففي محضر اتهامه « أنه متحد مع العصاة قولاً وفعلًا وبحضوره مع أحمد بك ناشد وأمين بك الشمسي بأى محل يجتمعون فيه يتفاوهون بذي الخديو ومدح عرابي ، وهم متحدون سوياً في تختيم الناس على محاضر بخلع الخديو »^(٥) .

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٩ ، دوسيه ٦٩ .

(٢) المصدر نفسه ، دوسيه ٨٥ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٧ .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٢٦ ، محفظة ٩ ، دوسيه ٦٩ .

(٥) المصدر نفسه ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٥ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٢٦ ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٢ .

ومع بداية نذور الحرب كانت وقفة ملاك الأراضي جريئة ، فمضوا فى الحث على استصلاح الطوابى والاستعداد للدفاع عن مصر ، وكانوا من بين المجتمعين الذين قرروا حالة الحرب ، ومنهم صدر قرار مقاومة المعتدين ، ففى خطاب من عرابى إلى الخديو ردًا على طلب الأخير بوقف الحرب يبين له « إن أعيان البلاد قرروا الدفاع عن الوطن » ، وفى كفر الدوار مقر القيادة العسكرية كانت وفود الأعيان لا تنقطع ، ويسجل نينيه قوله « يجتمعون منذ الصباح وحتى المساء ويحضرون بالقطارات من جميع مديريات مصر حتى البعيدة جداً وكلهم فرح وسعادة » ، جاءوا مع بقية الوفود التى تمثل قوى الشعب المختلفة ليرفعوا من معنوية الجيش المحارب ، ويفوضوا لعرابى أمر الدفاع عن مصر ، وكانوا يأخذون حفناً من التراب فى أيديهم ثم يرمون بها فوق الخنادق دلالة على اشتراكهم فى العمل ، وقد عبر مفتى القاهرة لعرابى « نحن ممثلى أكثر من خمسين ألف من الأعيان ومشايخ البلاد وأصحاب الأملاك نشكرك جميعاً لأنك توليت بيدك أمر الإسلام والأمة وإنك فى الحقيقة أكبر وطنى فى وادى النيل »^(١) .

إذن كان التردد على القواد مسألة مارستها الطبقة العليا ، وأوراق الثورة العرابية تحتوى على تلك اللقاءات التى تمت على أرض المعركة ، فأحمد بك أباطة وأمين بك الشمسى كانا مرابطين يحمسان ويشجعان حركة الجهاد ، كما أن أعضاء مجلس النواب شاركوا فى الأمر وعلى رأسهم « مهنى أبو عمر »^(٢) ، وكثرت المناقشات فى الأوضاع التى تتعرض لها مصر فى هذه اللقاءات التى دلت على الإتحاد التام والإنتماء الكلى للثورة .

وقام ملاك الأراضي بمجهودات فى محاولات المحافظة على الثورة ، وإبعاد كل ما يسيء إليها ، فقد قُدم للمحكمة شهادة من أجنب « خواجات وتجار بندر دمنهور » تتضمن المساعدات التى قدمها لهم إبراهيم الوكيل وقت الأزمة التى وقعت بين المصريين والأجانب ، كما كان للمنشاوى دور فى طنطا ، فقد أنقذ ٥٠٠ من الأوربيين اليهود والمسيحيين فى نفس الفترة ، واستمرت مجهوداتهم للوقوف أمام الحركات المضادة التى هدفت ضرب الثورة ، فكانوا ينبئون المسئولين عما يقوم به البعض من التصرفات كالامتناع عن تقديم الإمدادات للجيش^(٣) .

(١) المصدر نفسه، محفظة ٩، دوسيه ٨٠، محفظة ٨، دوسيه ٥٣/٥، Blunt, Secret History of the English Occupation of Egypt, pp. 579, 580., Ninet, Arabi Pacha, p. 241 .

(٢) المصدر نفسه، محفظة ٧، دوسيه ٢٢، محفظة ١٧، دوسيه ٤٠٣ .

(٣) المصدر نفسه، دوسيه ١٤، Blunt, Secret History of the English Occupation of Egypt, p. 577., Ninet, Arabi Pacha p. 216., Wallace, op. cit., p. 19 .

أما عن التبرعات ودورهم فيها ، فقد وصل إلى القمة ، فلم ييخلوا بمادياتهم على مصر ، فقد موهها بنفس راضية حتى أن ما تكلفته الحرب كان محصلاً من التبرعات الاختيارية ، وامتلات المعسكرات في كفر الدوار ورشيد والتل الكبير بالفلال والخيول والفواكه والحبوب والأرز والبصل والمواشى والخيام ، وتفيض صحيفة الوقائع المصرية بأسماء المتبرعين الذوات والمتبرعين من أصحاب الرتب العالية وأعضاء مجلس النواب ، حتى النسالة والأريطة تم التبرع بها ، والأقمشة وخاصة البفطة التي قدم منها كميات وافرة ، وقد سجلت تلك التبرعات في أوراق الثورة العرابية وخاصة البرقيات التي تشير إلى تبرعات ملاك الأراضي على طول أرض مصر وكانت بكميات كبيرة ونسب عالية إذا قيسست بتبرعات أفراد الشعب .

وكان لكبار الملاك من المديرين - عثمان باشا غالب ، وأنيس باشا ، وخليل بك عفت وأحمد بك ناشد وإبراهيم بك زكي - إسهامات فعالة في إرسال التبرعات لقيادة الجيش ، ودائماً ما كانت مصحوبة بالرجاء « يلتمسون الإذن بقبولها بشئون الجهادية »^(١) ، ومن هذا يتبين أنه لم تكن هناك أية ضغوط من جانب قواد الثورة وإنما عن طيب خاطر قدمت ، وكالعادة فيقوم عرابي بالرد على هؤلاء ليقدم الشكر على ذلك العمل الذي برهنت فيه الأمة على أنها يد واحدة . وهنا يجب أن نذكر أنه كان لأثرياء أقباط مصر مساهماتهم في هذه العملية ، لدرجة أن أحدهم قدم « ثلاثة آلاف قنطار من حطب السنط »^(٢) ، فقد عملت الثورة على جعل الارتباط متيناً بين المسلمين والأقباط ، إذ كثرت تصريحات رجالها بأن الدين للديان والوطن للجميع والدم واحد فالأب آدم والأم حواء ، وحملت الصحافة لواء التدعيم « يعلم أهل الوطن جميعاً أنه لا فرق بين مسلمين وأقباط » ، وأشادت صحيفة المفيد بوطنية أقباط مصر وأظهرت إتحادهم مع مسلميها^(٣) ، وقد صرح أحد الرؤساء الروحانيين أثناء الحرب « كلنا أبناء الوطن »^(٤) ، وبذلك تم التعاون المشترك .

وبالنسبة للأموال ، فقد كثر التبرع بها ، ووضع حسن باشا الشريعى كل همته من أجل تسليح الجيش وإمداده بمتطلباته « ففتح رصيذاً كبيراً من أموال

(١) المصدر نفسه ، دوسيه ٥ ، محفظة ١ ، دوسيهات ١٥ ، ١٨ ، ٢٣ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٢٤ ، محفظة ٣ ، دوسيه ٤ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١ ، دوسيه ٧ ، دوسيه ٢٣ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٣٩ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٨٣ في ٩ سبتمبر ١٨٨٢ ، المفيد ، عدد ٦٣ في ٦ يوليو ١٨٨٢ .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ١٩ ، دوسيه ١٤٠ .

الوقف لذلك»^(١) ، وفي نفس الوقت استطاع الملاك بحكم ثقلهم المادى والأدبى فى المجتمع أن يتولوا حث الأهالى على التبرعات ، فإبراهيم الشريمى « كان يتبرع بالخيول ويحرض الناس مع بعض أشخاص إتحدوا على مساعدة الجيش ، وأحدث توريد نقود للجيش مع الأهالى بدل الخيول » ، وشاركه أحمد أباطة فى تنظيم هذه المسألة « وكل من تقابل معهم يخبروه بأن يتبرع بما يملكه للدفاع عن وطنه » ، وكانت أغلب أوقات الشريمى مقيماً فى الزقازيق مكوناً قوة مع أمين الشيمى ومديرى المنطقة من أجل « تنجيز طلبات العسكرية » ، هذا وقد وجدت المعاونة والمآزرة الكاملة من الأمة « فالجميع يتسابقون بالتبرعات » ، وحتى عندما فرضت ضريبة عشرة قروش على كل فدان « على أن تحسب الأموال لمن يدفعها من ضرائب الأتليان التى تستحق عليهم فى المستقبل »^(٢) لى الجميع ذلك النداء عن طيب خاطر .

وكان للنساء الأرستقراطيات زوجات الباشوات نشاط متقد فى الميدان الحربى ، فشكلا الجمعيات لعمل النسالات للجرحى ، وأصبح دورهن كبيراً فى التمريض ، فشاركن فى إسعاف جرحى المعارك ورعايتهم ، وقدمن من لدنهن القطن والأريطة والفيارات على طول خطوط القتال ، كما تبرعن بحليهن لتكون ثمناً للعتاد الحربى ، هذا بالإضافة إلى تلك الأموال التى قدمنها^(٣) ، إذ استحوذ الغضب على الجميع ، وراح كل يساهم وفقاً لمقدرته وهو سعيد بتلك المشاركة « وتباهت الأمة المصرية ، وتفاخر سكان المدن والأقاليم فى جميع أنحاء القطر المصرى فى جمع الإعانات اللازمة للعساكر ، وكذا الستات والهوانم والبرنسات »^(٤) .

وبذلك لم يحدث فى تاريخ أمة أن غطت تكاليف حربها مما قُدم من أفرادها ، وحتى إيرادات الدولة التى تعتبر من حق الحالة الحربية كان يذهب بعضها للخديو ، ففى خطاب مرسل إلى عربى من لواء ٢ ، ٤ بزيادة يخبره « تأكد لنا أنه صار إرسال نحو الأربعة آلاف جنيه من إيراد فنار بورسعيد إلى توفيق باشا بالإسكندرية ، وذلك

(١) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٧ ، مجموعة ٢٧/٢١ ، ٢٣ سبتمبر ١٨٨٢ ، ص ٢ .

(٢) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٧ ، دوسيه ٢٢ ، محفظة ٩ ، دوسيه ٦٥ ، أحمد عربى ، مذكرات ، ج ٢ ، ص ٣٣٥ .

(٣) الوطن ، عدد ٢٤٦ فى ٢٦ أغسطس ١٨٨٢ ، Broadly , How We Defended Arabi And His

Friends , pp. 232 , 373 , 502 ، محافظ الثورة العربية ، محفظة ٢٢ ، دوسيه ٢٣ .

(٤) محمود فهمى ، المصدر المذكور ، ص ٢٢٧ .

بواسطة ليمان ريس البور بما أنه إنكليزي ، وحيث إن الوطن أحق بهذا فتؤمل صدور الأوامر بما يوافق نحو ذلك ورفع ليمان ريس الإنكليزي (١) .

ولم يبخل ملاك الأراضي على المهاجرين السيكيديين ، إذ فتحوا بيوتهم واستأجروا أخرى لاستقبالهم وقدموا لهم جميع المشاعدات « فنجل المرحوم راتب باشا فتح أبواب فضله لمائة وستين من المهاجرين وأسكنهم منازل وتكفل بالمثل والمشتري ، ومحمد بك السيوفي ومذكور التمرسي كل واحد أخذ ١٢٠ من المهاجرين وأنزلوهم في مخلات استأجروها لهم ، وعلى بك القرقي أخذ ٥٠ من المهاجرين إلى القصورة وأنزلهم منازل الثلثة ، وعلى أبو سلامة بك هو وجملة وجوه البندر قاموا بإزالة ما يزيد عن المائة (٢) .

أما عن مسألة تطوعهم في جيش مصر المحارب فلم يكن ذلك التياز جازفاً ببقية قوى مصر لكنه أثبت وجوده ، فكانت ترد على عرابي وحتى قبل أن تعلن الحرب طلبات من « الأفاضل والأعيان للرجبة في التطوع والدخول في تعليمات الأسلحة » ، واشترك أبناء الأعيان في الحرب كمتطوعين فتعلق صحيفة الوقائع المصرية على أحد المتقدمين « قد دلنا صنيع هذا الشاب خصوصاً وأنه ليس من الفقراء ولا من المحتاجين بل من الأغنياء المؤثرين ، على أن نفوس الوطنيين قد زال منها ما كان مرتكزاً فيها من خوف الدخول في العسكرية والتباعد عنها ، والآن أصبح المرحوب مرغوباً والمبغوض محبوباً ، وأقبلت أبناء الديار على الانتظام في سلك العسكرية طوعاً واختياراً » وتشر خبر جاءها من القيادة العسكرية « حضر إلينا حضرة أحمد بك نجل سعادة حسين باشا يكن نجل المرحوم إبراهيم باشا يكن طائعاً مختاراً بالديوان ، وكتب عريضة يلتزم بها انتظامه في سلك المتطوعين ، فالحق بالأي برنجي بيادة برنجي فرقة لتمرينه على التعليمات الحربية أسوة الأنصار (٣) .

واتسع نطاق هذه المسألة ، فأعيان مديرية جرجا يحضر منهم ٧٠٠ متطوع من أجل الجهاد في سبيل الله « هؤلاء المتطوعون من ذوى البيوت الرقيعة والأنساب الفخيمة والثروة العظيمة » ، كذلك فقد وفد على مقر القيادة أعيان من مديرية المنيا وبنى سويف وأسيوط « يصحبهم ألفان وستمائة بطل ومعهم الشيخ محمد

(١) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٢ ، ٩ أغسطس ١٨٨٢ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٥٨ في ١٥ يوليو ، عدد ١٤٦٠ في ١٧ يوليو ، عدد ١٤٦٥ في ٢٩ يوليو ١٨٨٢ .

(٣) محافظ الثورة العربية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٨ ، الوقائع المصرية عدد ١٣٤٢ في ٢٥ فبراير ، عدد ١٤٦٥ في ٢٩ يوليو ١٨٨٢ .

عبد الجواد وأحمد عبد الجواد أتوا متطوعين ومعهم عدد الحرب من أسلحة وذخيرة وخيام وجمال وزاد ، وبذلك غدا التطوع مقرراً بالتجهيز الحربي ، وتذكر أوراق الثورة العرابية أن أحد الأعيان «اشترك في الحرب، وأحضر مدفعاً تبرئاً»^(١). وطرق ملاك الأراضي ميداناً آخر للوقوف بجوار الثورة ، فخرجت منهم صيحات التحميس والحث على التطوع في مناطقهم ، وبذل البعض الجهد الكبير في جمع وتجنيد العريان ، فعندما أراد عرابي جمع خمسة عشر ألف عرابي خيالة ، وكل هذه المهمة إلى أحمد بك أباطة ، ومن بين الاتهامات التي وجهت للبعض منهم « كان يحث الناس على الجهاد وبالفعل أغرى كثيراً من الأهالي حتى أنهم ذهبوا إلى الحرب متسلحين ومعهم خيولهم »^(٢) ، وبذلك أمكنهم توثيق ربط القوى الاجتماعية للمشاركة الفعلية في الثورة .

كما أنهم أسهموا في المحافظة على الأمن ، فقد حدث في المنصورة أن « رتب على بك القريعي والأعيان والتجار أربعة رؤساء من الضباط وجعلوا مع كل واحد منهم أربعة من العمدة وجملة من العساكر وأهالي البلاد على هيئة عساكر الدورية لملاحظة الضبط ودوام المرور ليلاً ونهاراً »^(٣) ، ولم يكن ذلك يختلف عما رآه عرابي من تكوين حرس أهلي للمحافظة على أمن البلاد .

ونُصّب البعض منهم دعاة للثورة ، فكانوا جهازها الإعلامي الناجح ، فمن يكتب المقالات ويرسلها للصحافة وتشرها ، ومن ينظم قصائد تشجيعاً للثوار وتأييداً للثورة ، ومن يردد الأقوال والأخبار عن انتصارات القوات المصرية في المعارك ، وتلك الاستعدادات الحربية الهائلة للجانب المصري والهزائم المتكررة للقوات الإنجليزية ، فكان أحد أعيان المنوفية يجمع الأهالي حوله ويفهمهم بأن « عساكر الإنجليز هم في أعين العساكر المصرية كالناموس » ، ويردد إبراهيم الشريفي القول « إن دولة إيطاليا ستبعث مقاتلين مجاناً ، وإنها ستوسط الدول لدى السلطان بتصيب عرابي خديوياً على مصر » ، كما لم يترك ملاك الأراضي مناسبة تمضي ، إلا وتفيض برقيات التهاني التي يرسلونها إلى القادة العسكريين محمّلة بالتأييد والتشجيع^(٤) .

(١) المصدر نفسه ، عدد ١٤٧٥ في ٢٧ أغسطس ، عدد ١٤٨٠ في ٤ سبتمبر ١٨٨٢ ، محافظ انثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٤٧ ، محفظة ٩ ، دوسيه ٦٥ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيهات ١٤ ، ١٥ ، ٢٢ ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٤ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٢٦ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٦٥ في ٢٩ يوليو ١٨٨٢ .

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٩ ، دوسيهات ٦٥ ، دوسيه ٦٥ ، ٦٩ ، ٨٥ ، محفظة ٧ ، دوسيه ٧ ، محفظة ٣ ، دوسيه ٢٨ .

وكان لهذا الالتحام أثره على مجريات الأحداث ، فمن بين الهاجمين على منزل قنصل الإنجليز بدمياط أحد أعيانها ، وبدرية عبد العال حلمى ، إذ طغت الرغبة فى الانتقام على من اعتدى عليهم ، وحتى بعد الإنكسار كان الرفض بالتسليم ، فاحتفظ البعض بالسلاح رغم طلبه منهم ، وضغطوا على الأهالى المتطوعين فى التمسك بسلاحهم ، ويضبط منهم عقب الهزيمة من ينقل الأخبار للقواد ، ويوصل المحاضر الموقع عليها من الأهالى ضد الخديو ، وكانت منطقة عبد العال حلمى فى دمياط آخر موقع استسلم ، وعليه كان النشاط فيها مستمراً . وبفضل مجهودهم مضت بعض القرى ترفض الاستسلام ، كما حدث فى قرية مليج التى انقسمت إلى قسمين ، القسم الأول رفع الرايات البيضاء على المساجد ومنزل شيخهم ، والقسم الآخر لم يرفع ، مطيعاً لأعيانها^(١) .

ومن هنا أصبح واضحاً أن دور ملاك الأراضى كان إيجابياً للغاية ، وبذلك غدت جميع الأمة المصرية « ذوات وأعيان وتجار وعلماء روحانيين مسلمين وأقباط وغير مستخدمين ومتوظفين أصحاب رتب سامية ومديرين ووكلاء مديرين ونظار الأقاليم والأقسام وسائر الحكام منكبين أثناء الليل وأطراف النهار يساعدون الجيش »^(٢) ، ولم تكن المسألة مساعدة الجيش فقط ، بل تلك الثورة الجارفة والمتأججة فى الصدور التى فرضت نفسها على كل شئ حتى النهاية .

وإحقاقاً للحق يجب أن نذكر تلك الوقفة التى وقفها أمراء الأسرة الحاكمة كشريحة لكبار ملاك الأراضى مع الثورة ، رغم أنها ضدهم فإنهم أيدوها ، فمنذ بداية وقوع الأزمة بين نظارة الثورة الثانية والخديو كان موقف الأمراء - إبراهيم ، أحمد ، كامل - متعاطفاً مع عرابى وطالبوا بما أقره الثوار من مواصلة الحرب وبقاء قائد الثورة فى منصبه دون أى اعتبار لأوامر الخديو^(٣) ، ويجب أن نسجل لهم الدور الذى قاموا به أثناء اجتماعى المجلس الوطنى ، وإعلانهم خيانة توفيق الذى انضم لأعداء الأمة وإنكارهم عليه أى سلطة يمكن له أن يمارسها .

كان الأمير إبراهيم وطنياً حقاً ولم يكن يعيب على توفيق تصرفاته فحسب ، وإنما راح ينتقد تصرفات إسماعيل مراراً ، فيذكر بعض شهود العيان « أنه فى أحد

(١) المصدر نفسه ، محفظة ، ٩ ، دوسيه ٦٩ ، دوسيه ٨٥ ، محفظة ١٢ ، دوسيه ١/٢٠٢ ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٤ ، محفظة ٥ ، دوسيه ٦٩ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، دوسيه ٤٧ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٣/ب .

أيام رمضان ١٢٩٩ بينما كان الأمير إبراهيم باشا وسعادة محمد عاصم باشا جالسان بدكان حسن أغا الجزمجى بخان الخليلي ، قد حضرنا نحن وجلسنا ، وفي هذه الأثناء تفوه الأمير المشار إليه بعبارة أن إسماعيل باشا الخديو السابق وكذلك أفندينا الخديو قد كانا سبباً لخراب مصر بسوء إدارتهما « (١) .

وأثناء الحرب كانت خطاباته تصل إلى عرابي في كفر الدوار معتزاً فيها بهؤلاء القادة الرجال الذين يقدمون أنفسهم دفاعاً عن مصر ضد الأعداء ، وتقيد بالتمنيات بالنصر . ومساندة منه للثورة كان يقوم بتلك الزيارات للقوات العسكرية « زار ديوان الجهادية ، وأعلن تأييده بما حصل من الضباط والعساكر وزار استبالية العباسية لمواساة فرساننا المجروحين ومعه الهدايا وكان يحمسهم ويشجعهم » ، حتى لقد وصل الأمر أنه عقب نهاية الثورة اختبأ خادم عرابي « عثمان السودانى والذي له معلومات وإطلاع على أشغاله السرية داخل سراية دولتو البرنس إبراهيم باشا » (٢) .

وأسهم هؤلاء الأمراء أيضاً في مسألة التبرعات ، فقد كانت خيولهم التي أهدوها للقوات المحاربة هي من أجود أنواع السلالات ، وقدموا تلك الهبات التي لم تكن تنتهى أبداً ، وعقب التل الكبير صمموا على استمرار الدفاع عن مصر ، وكان للأميرات دورهن في تأييد الثورة وقائدها ، فكن يطلقن عليه المدافع عن مصر ، بينما يذكرن أن توفيقاً سيخلد اسمه في التاريخ بأنه هو الذي جلب الإنجليز لمصر ، حتى والدة توفيق وزوجته لم يخفيا شعورهما القوي بالميل تجاه عرابي ، فازدادت الهبات منهما للجيش ، وقدمت الخيول حتى من أم إسماعيل ، وأسهمت الأميرة جميلة والأميرة نازلي في هذا المضمار ، ويؤكد بلنت أن طريقة إعجابهن بعرابي ظهرت في تلك الهدايا التي قدمت له ، وفي حديث له مع الأميرة الأخيرة بينت « أن لو كان عرابي رجلاً عنيقاً مثل محمد على لأخذ توفيقاً مع جميع الأمراء إلى القلعة وقطع رؤوسهم ، وصار أميراً على البلاد » (٣) .

وأثناء محاكمة الثوار ، كان يصل برودلى ونابيير المحاميين عن القادة الخطابات التي هي في مصلحة عرابي من الأميرات ومعها الهدايا ، واعترفت الأميرة إنجي (١) بتقريرات وشهادات مقدمة من كبار الموظفين المصريين والأجانب إلى لجنة التحقيق ، تقرير ١ ، ص ١ .

(٢) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , PP.183, 184. الوقائع المصرية، عدد ١٤٨١ في ٦ سبتمبر ١٨٨٢ ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/ج .

(٣) Ibid, pp. 373, 379, 502 ، أحمد عرابي ، مذكرات ج ٢ ، ص ٣٣٥ ،

Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 394 .

أرملة سعيد لبرودلى « إن كل فرد منا كان مؤيداً لعرابى منذ البداية سراً ، لأننا نعلم أنه ينظر إلى مصلحة المصريين فقط ، وعندما رأينا توفيق يغدر بمصر بل ويخونها ويذهب للإسكندرية ليكون بجوار الإنجليز ، كرهناه من كل قلبنا ، وكنا نرسل لعرابى الخطابات والبرقيات لنهنته ونشجعه ونبين له أنه منقذ مصر ، وكل منا ساهمت فى النفقات بما تملك ، ونحن الأميرات كنا نحمل الخط الخلفى للقوات وكنا نخاف على عرابى من أن يقتله الإنجليز ، وعندما عاد إلى القاهرة سمعنا أنه أحضر معه رأسى ولسلى وسيمور ، ولكن لم تكن هذه حقيقة ، وكم تأسفنا لما حدث » (١) .

وكان ذلك الدور الإيجابى الذى قُدم للثورة بعد أن حركته النوازع الوطنية ، فأصبحت مصر جبهة موحدة من أعلى طبقاتها إلى عامتها باستثناء قلة خانت القضية الوطنية بعد أن وضعت مصلحتها فوق كل اعتبار .

العمد والمشايخ

قبل أن يعطى العمد والمشايخ للثورة ، كانت قد أغدقت عليهم وهيات لهم الظروف التى مكنتهم من الإفصاح عما فى داخلهم حتى مكنتهم من الانضمام لها ، وقد استطاعوا بحكم مركزهم المرموق فى الريف سواء من الناحية الإدارية أو القضائية أو الدينية أن يشكلوا درعاً واقياً للثورة ، ويؤثروا على الفلاحين ليسلكوا الطريق الثورى ، وبالتالي فالفلاحون كانوا يرون فيهم الممثلين الشرعيين لهم « والناس على دين آبائهم » ، هذا ويجب أن نذكر أنهم كانوا من ملاك الأراضى وكان لذلك أهمية فى النفوذ .

ومع بداية الثورة بدأ الإحساس يتبلور وينذر بأن عهد الاستبداد والفساد فى طريقه إلى الزوال ، إذ كانت السجون ممتلئة بمن كان قد تجرأ وتفوه بكلمة أو صدر منه أى تصرف لم يعجب المسئولين ، فنرى أن بعضاً من عمد ومشايخ بالشرقية كانوا قد أودعوا فى السجن بأمر مديرها لا لشيء سوى أنهم رفعوا أصواتهم بالشكوى من تصرفاته ، تلك التى ترمى بكل القيم عرض الحائط ، وعقب قصر النيل تقدم هؤلاء العمدة - محمد أبو عبد الله عمدة الصنافين وبركات ديب عمدة القرين ، واثنا عشر شخصاً من مشايخ وعمد نواحي مديرية الشرقية - بمذكرة إلى الحاقانية يلتمسون فيها العفو ومنع الضرر الذى لحقهم من حكم مجلس المنصورة المحلى القاضى بسجن الأول ثلاث سنوات والثانى سنتين والباقيين سنة (٢) ، ويتم العفو ليكونوا فى الصفوف الأولى التى شاركت بكل قواها فى الثورة .

(١) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , pp. 374 - 377 .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٠٣٩ فى ١٦ فبراير ١٨٨١ .

وكان للشهرة التي حصل عليها عرابى أثرها فى أهالى الريف ، فلم يكن إلا ابناً لأحد المشايخ ، فهو من دمهم ولحمهم ، ثم التدين العميق الذى كان من سماته - سواء صح نسبه إلى الإمام الحسين أو لم يصح - ذلك قد جعل له المركز الروحي الكبير وأوجد تلك العلاقة الوثيقة التى ربطت بينه وبين فلاحى مصر بما فيهم العمدة والمشايخ، كما أن إحساس الأخيرين بأصالته ووطنيته زادتهم حباً وتقديراً له، وكان للمبادئ التى أذاعتها الثورة وانتشرت على أرض مصر صداها فى القرى المصرية ، ومن هنا عُدَّ عرابى بالنسبة لهم منقذهم المنتظر من مستغليهم ، فكان معنى الإنضمام للثورة هو الخلاص بعينه ، ومن ثم ارتفع لواء العصيان على الأوضاع الموجودة والتى قاسى منها العمدة والمشايخ فى فترة ما قبل الثورة .

وكان للوعى الذى انتشر على الأرض المصرية الأثر فى الموقف الثورى ، فقد نزلت الصحافة إلى القرى عارضة المظالم والأمراض الاجتماعية المصاب بها المصريون طارحة الحلول لها ، وبينت أحوال الأمم الأخرى وعقدت المقارنة ، وكان على رأسها صحف يعقوب بن صنوع الذى حثهم على الثورة ورفض ما يخضعون له من استبداد وظلم وقسوة ، ثم كتابات النديم التى أنارت لهم طريق العدالة ، ونقدت الظروف التى يعيشونها ، وخاصة تحكم الأجانب فيهم وغطرسة الأتراك عليهم .

كذلك فقد كانت للجمعيات التى تعقد فى المديرىات أثرها على الريف المصرى، وخاصة على تلك الفئة التى نحن بصدددها ، فأعضاء تلك الجمعيات انتشروا فى داخل البلاد واستمالوا كبار العمدة وأثرياءهم « وأصبح لا يكاد بندر من بنادر القطر يخلو من عقد جمعية على نسق العهود والمواثيق »(*) . وعلى أثر ذلك استوعبوا المبادئ الثورية ، وراحوا بدورهم يلقونها للفلاحين يساعدهم مثقفو القرى من أنصاف المتعلمين .

وبعد أن اتجهت النية أن يتصدر العسكريون المطالبة بحقوق الأمة عقب قصر النيل ، كان للعمدة والمشايخ الدور الفعال من أجل ذلك ، وحتى التاسع من سبتمبر تزايد نشاطهم ، فاشتركوا فى تلك الاجتماعات التى كان يقيمها كبار ملاك الأراضي وعلى رأسهم سلطان ، وساهموا فى توقيع المحاضر التى دار بها النديم لتوكيل عرابى نائباً عن الأمة فى مطلبها للحياة النيابية ، وقد مثلت توقيعاتهم نيابتهم عن مناطقهم ، وعندما تمنع شريف عن قبول النظارة ، قدَّم له حوالى الألفين من العمدة الترجمات من أجل القبول ، وكانوا من بين الذين تعهدوا وضمنوا أن يطيع الجيش أوامر الحكومة .

(*) انجوى ، العدد الأول فى ٥ فبراير ١٨٨٢ .

وكانت ممارسة السلطة من خلال مجلس النواب الذي أوجدته الثورة قد أعطتهم الأهمية ، وخاصة بعد أن حصل على الحقوق الأكثر حرية من سابقه ، حتى لقد قال شريف للخديو « إن رأى عمد الأهالي هو بالنيابة عن عمومهم »^(١) ، ومن هنا برزت القوة التي ساهمت مع الثورة .

وتمشياً مع السياسة الثورية ، تسرد لنا صحيفة الوقائع المصرية أسماء العمد والمشايخ الذين أصدرت لهم نظارة الثورة أوامر العفو وعادوا من منفاهم وخرجوا من سجونهم^(٢) ، هذا بالإضافة إلى إحساس الأهالي بانتضاء عهد الظلم ، ومع العهد الجديد طلبوا الإفراج عن ذويهم من هذه الشريحة ، كما التمس العمد والمشايخ العفو عما أصاب ناسهم « فقد طلب شيوخ الكوم الأحمر بالمنوفية الإفراج عن ابن شيخ زميل لهم مسجون في سجن المديرية »^(٣) .

وأنصفتهم الثورة ، فكثرت شكاواهم لها ، حقيقة أنها سبق وأن عرضت قبيل الثورة ، لكنها كانت أصوات ترتفع في الهواء ، فلا يسمعها أحد ولا حتى ينظر فيها ، أما مع الثورة فكل شيء يخضع للتحقيق والعدالة بصرف النظر عن الأطراف المتنازعة ونوعياتها ، ومن هنا كان التجاؤم إلى مجلس النواب الذي لهم الباع فيه ، يتظلمون بشأن الأراضى التي استولت عليها الجفالك منهم ومن تكليف نواحيهم بتطهير بعض الترع بالرغم من أن إختصاص انتفاعها للجفالك التابعة للسنية ، ومن بعض المديرين بشأن إكراههم على إخراج أنفار نواحيهم للتعليمات^(٤) .

ومما هو معروف أنه بتولى الثورة الأمر ، أبعدت المديرين والمأمورين الذين كانوا يفسدون في الأرض قبل الثورة ، وولت العناصر الجديدة التي أعطت المزيد من القوة للعمد والمشايخ ، فيذكر روسل مدير الدومين أن سلطة المديرين تجاه مشايخ البلد قد انعدمت ، وعندما طلب من مدير طنطا استدعاء اثنين منهم وسجنهما لتحريضهما الفلاحين على الثورة رفض^(٥) .

ومضى العمد والمشايخ يعلنون ثورتهم ، ويطالبون بحقوقهم التي كانت قد سلبها رجال ما قبل الثورة ، فعلى سبيل المثال « حنفى شنب عمدة ناحية الخانكة يشكو من معاون أول المديرية سابقاً » وفي الحال يجري التحقيق ، ويرفع أربعة مشايخ من

(١) المحروسة ، عدد ٣٩٣ في ٦ أكتوبر ١٨٨١ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٥٢ في ٨ مارس ، عدد ١٣٦١ في ١٩ مارس ١٨٨٢ .

(٣) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٠ ، ٢٩ ديسمبر ١٨٨١ .

(٤) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٨٨ في ٢٠ أبريل ١٨٨٢ .

(٥) Egypt, No. 7 (1882), Inclosure 4 in No. 51, Feb. 15, 1882, pp. 42, 43 .

ناحية جزيرة الحجر شكواهم على ما جرى لهم على أيدي مأمور مركز منوف ، وكان حسم الأمر يتم في الحال ، وخاصة ما يتعلق بمشكلات الأرض « فقد حدث لعائلة الفقى المتوظفين مشايخ بتلا منوفية ، وكانت قد نزعت منهم أطيانهم وأعطيت لآخرين ، وضعوا اليد عليها وسددوا عليها من مقابلة وسهام وكافة أقلام التحصيلات وعاد المشايخ يطالبون بها » وبالتحقيق أمكن التوصل إلى « مناصفة ما كان متكلف على عائلة الفقى من الأطيان قبل نزاعها » ، هذا في الوقت الذي ضريت فيه حكومة الثورة على اليد الظالمة إنصافاً للحق « اشتكى مشايخ تاجة سماروته أنهم مسددون كامل الأموال الأميرية ، وأن مأمور المالية يجبرهم على تسديد الأموال على أطيان الذوات ، وأنه عندما أحضروا له وكلاء هذه الأطيان لم يقبل منهم » فاهتمت نظارة الداخلية بالأمر وفتح المحضر عند مدير المنوفية لإنزال العقاب بالإنصاف (١) .

وبذلك أعطتهم الثورة العدالة التي كانوا يفتقدونها ، وأصبح لهم المركز والقوة ، ومنحتهم المزيد من السلطات ، وألقت عليهم مهمة التنظيم الثوري في الريف ، فحملتهم مسئولية ضمان الأمن في مناطقهم ، وخصوصاً في تلك التي انتشرت وسرت فيها روح الثورة (٢) .

وشارك العمدة في الأحداث السياسية وشكلوا عنصراً أساسياً فيها ، فعقب استقالة نظارة الثورة الثانية ، يُظهر عرابي قوتهم التي اعتمد عليها منذ البداية ويعدهم النواب الحقيقيين عن الفلاحين ، فيرى أنه كان لهم الدور في إعادته لمنصبه « إن العمدة تراموا بأجمعهم على أعتاب الحضرة الخديوية لبقائهم في نظارة الداخلية حين انحلت نظارة محمود باشا سامى » وعندما أعيد إلى منصبه كانت الفرحة الكبرى ، وانهاالت برقيات التهئة إليه من عمدة ومشايخ مصر كلها (٣) ، لإحساسهم بأنه فرد منهم ، مهموم بشئون بلادهم ، فيجب أن يبقى ويستمر ليس فقط للعسكريين وإنما لقوى الأمة جميعها .

واستمر نشاطهم في المشاركة الفعلية مع الثورة وقائدها ، ومثلما وكلوه في المطالبة بحقوق الأمة في التاسع من سبتمبر ، أعطوه النيابة عنهم في الدفاع عن مصر ، وأضفوا عليه الصفة الشرعية ليتصرف وفق ما يراه صالحاً لها ، خاصة بعد مذكرة مايو التي أجمعوا على رفضها ورفض من قبلها ، ووردت على القاهرة

(١) محفوظات الداخلية ، محفظة ٣٩ ، ١١ ، ١٥ يناير ١٨٨٢ ، محفظة ٤١ في ٢١ مارس ١٨٨٢ .

(٢) Arch de maison, de Cour et d'etat, Vienne, Fasc XXXI/9, No. 37, 6 Mars, 1882, p. 2.

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/أ ، دوسيه ٥٣/د/٤ .

المحاضر المختومة من جميع مديريات مصر لتؤكد تلك الحقيقة « نحن عمد ومشايخ وأهالى مركز أشمون نقول بالأصالة عن أنفسنا وعن أهالى بلادنا أنه لما سمعنا باللائحة المتقدمة فى حق الوطن ، حصل لنا قلق واضطراب وضنك شديد ، فهى مجحفة بحقوق دولتنا العلية وحقوقنا الوطنية وموكلين فى ذلك أحمد عرابى للمدافعة عنا » (١) .

وأعقب ذلك التختيم على محاضر ضد توفيق ، فقد قاموا بذلك فى طول البلاد وعرضها « إذ أنه انضم إلى أعداء الدين وسيسلم البلد للإنجليز » (٢) . إذن فلا بد من عزله لأنه خائن ومستبد ، وجاءت اختام الفلاحين بجوار اختامهم لتعبير عن تلك الرغبة القوية ، ولما كان من العمد أعضاء فى مجلس النواب ولهم كلمتهم المسموعة ، فعند عودتهم إلى قراهم يصرحون بأن « الخديو خلع بأمر السلطان » ، وقد وضع موقفهم فى الاجتماع الذى أعلن فيه عرابى ضرورة عزل توفيق ، فكان ذلك يتفق مع هواهم ، ورأوا أن عرابياً خيراً من يحكم عقب إسقاط عرش توفيق « سيكون خديوياً على مصر لأنه محام عن العرض والدين والشرف » ، بل وقد ذهب البعض منهم بالاتحاد مع بعض العلماء الأزهرين لإعلان أن عرابياً من سلالة الرسول ﷺ ، وأنه بناء على نصوص وإرادة سينتصر ويتولى زمام الأمور فى مصر ، هذا فى الوقت الذى كانوا يداومون فيه التردد على قادة الثورة وخاصة الزعيم (٣) ، ليثبتوا تأييدهم الثورى ، وليستمدوا المعلومات التى شكلت دعاية منظمة عند عودتهم إلى بلادهم .

ومن منطلق هذا المنطق ، أصبح كل طريق وشارع وحارة وعطفة مزدهماً بالمهللين والداعين بالنصر لعرابى والإسلام ، بينما مُثِّل توفيق وأتباعه بالكلاب والخنازير التى شنقونها رمزاً لخيانتهم كما سبق ذكره ، وكان عرابى عند تنقلاته وفى حله وترحاله محاطاً بهذه الشريحة ، وخاصة فى الزقازيق المقر الدائم للاجتماعات التى يعقدها أمين الشمسى مع عمد المنطقة ، وتلقى فيها الخطب الحماسية ، ودائماً بعد إلقاء كل خطبة كانوا يعقبون عليها بالدعاء لعرابى ، ونبع ذلك من قلوبهم ، وقد بلغت ثقة عرابى بهم أنه ولاهم الإشراف على شئون الخلال الخاصة بالجيش أثناء الحرب (٤) .

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ١٠ . (٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ٩ ، دوسيه ٦٧ ، دوسيه ٨٤ ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٣٠٠ ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٤٢ ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٤ ، دوسيه ٢٣ .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ٩ ، دوسيه ٨٤ ، محفظة ١٠ ، دوسيه ٩٣ ، دوسيه ١٢٧ .

وكان المثقفون من العمدة والمشايخ يعملون على خلق وحدة متكاملة متعاونة تشكل حاكم القرية وهو العمدة ثم الشيخ والمهندس وناظر المحطة والتاجر والحكيم البيطري من أجل إشعال الحماس داخل النفوس إبان اللقاءات ، إذ تجرى فيها المناقشات والآراء المؤيدة للثورة ، بينما كان البعض منهم يجلس في الديوان وتتكون حوله الحلقة المعتادة من الفلاحين ليقرأ عليهم صحيفتى الطائف والوقائع المصرية وما شملتهما من أخبار وانتصارات للثورة^(١) .

وعن فكرهم في مجال التطبيق الثورى فوضح بين المشتركين منهم فى مجلس النواب أثناء ممارستهم للحياة النيابية ، كذلك وجدت أبعاد سياسية ظهرت فى عدم رغبتهم فى الحاكم ، وضرورة تبديله بمن هو من دمهم « وتغيير الحكومة بقطع دابر الأتراك وغيرهم وجعلها من الفلاحين الذين هم رؤساؤها ، كما أن يكون بعضهم مديرين والبعض وكلاء والبعض نظار أقسام »^(٢) ، وبذلك تصبح « مصر للمصريين » حقيقة واقعة بعد أن يجلو الأجانب عنها .

أما الأبعاد الاجتماعية فقد ظهرت كترجمة عملية على أرض مصر كلها ، لكنها أخذت طابعاً أكثر عنفاً فى صعيد مصر ، حيث بؤرة الإقطاعيات الكبيرة بما فيها أراضى الأسرة المالكة ، ومن هنا غمرت العمدة والمشايخ الرغبة الداخلية فى أن يصبحوا أصحاب أراض واسعة ليس فقط وإنما أصحاب سلطان ، فهم مصريون وأقرب إلى الفلاحين الذين سيكون من السهل رضاهم عنهم ، فطيلة ما مضى يعدون أنفسهم ملوكهم ، فلو تم لهم ما أرادوا لعادت الأرض إلى أصحابها وانتزعت من غير المصريين ، وأن هذا لن يتأتى إلا إذا انتصرت الثورة على يد قائدها ، ومن هنا راح بعضهم يؤكد للفلاحين - وهم أدوات عملهم - بأن النصر قريب والراحة آتية ، وذلك بعودة أطيان الجفالك إلى بلادها الأصلية ، وأن أطيان الذوات والباشوات ستصبح للفلاحين ، ومضى هذا الترديد طوال فترة الحرب ، وإذا تصادف ووجد من عارض تلك المبادئ كان جزاؤه « التهديد والترذيل » ، والنتيجة « حصول الهيجان فى المنيا »^(٣) .

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٧ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٤ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٢٤ .

ولم يكن الأمر إعلان مبادئ فقط فهناك التطبيق ، فقد أوقف المشايخ الفلاحين الذين يعملون في أراضي الباشوات ، وقاموا بتقسيمها وبزراعاتها لحسابهم ، وحدث هذا في أراضي حيدر باشا بالبحيرة عندما أعلنوا « أن الباشا حكم بفك زمام الجفالك وتقسيم الأتيان على الأهالي والمشايع »^(١) ، كذلك كانوا وراء ما أقدم عليه الفلاحون من الأعمال الثورية^(٢) ، كما عمد البعض منهم إلى تقسيم الأراضي التي تخص الملاك من العنصر التركي بالقول « فيقول بعضهم للآخر: هذه القطعة لك وهذه لى ، ثم يلتفتون إلى صاحب الأرض ويقولون له أخرج من البلاد كما جئتها ، فكان أصحاب الأراضي يزدادون خوفاً وحسباً لبلاء أعظم ، فانقطع كثيرون منهم عن التردد إلى أراضيهم ولزموا منازلهم » ، وهناك من عمد من أراد تطبيق العدالة الاجتماعية حتى على الفلاحين وذلك بأن توزع عليهم الأراضي بدون ثمن وأن ترفع الضرائب عنهم^(٣) ، وكان هذا تعاطفاً منهم على من غبنوهم قبل ذلك .

وتدور الدوائر ويطلب العمدة والمشايع محاسبة من ظلموهم وأثروا على حساب شعب مصر من أصحاب الحمایات الأوربية الذين استولوا على أراضيهم وقاموا بعمليات الاستغلال الواسعة النطاق ، فالיום أصبحوا يطالبون بحقوقهم المسلوبة ورد أطيانهم إليهم ، أيضاً طالب العمدة برد الأرباح التي استولى عليها التجار الأوربيين منهم وضرورة تسديدها والتهديد لمن يتأخر في دفعها^(٤) ، ثم كانت اعتداءات المشايخ على أراضي الأجانب وبخاصة اليونانيين زيانية الربا « مثلما حدث مع الخواجة مانولى وقيامهم بالهجوم على غيطانه ، وطردهم الأنفار الأجرية وإطلاق سراح الأهالي والمواشى »^(٥) ، وذلك بعد أن انتشر في الريف أن الثورة ستضع حداً لجبروت الأجانب ، وأن الديون ستكون لها نهاية ، ومما لا شك فيه أن عرابياً كان من الذكاء لتجميعه لتلك القوى حول الثورة عن هذا الطريق .

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٥ .

(٢) الفصل الحادى عشر ، عنصر التنفيذ الثورى .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٤ ، سليم النقاش ، المصدر المذكور ، ج ٤ ، ص ٤٩ .

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٢٥ .

(٥) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٠ ، أول مارس ١٨٨٢ .

وعندما أراد عرابى أن يفرض ضريبة دفاع على معدل قيمة الفدان ، عهد بذلك إلى المشايخ ، فكانوا خير من يقوم بهذا الأمر ، إذ ملكهم السلطة على من أذاقوهم العذاب فمضوا « يظلمون أصحاب الأبعاديات من الأتراك والشراكسة ، ويأخذون فى بعض البلاد اثنى عشر قرشاً عن كل فدان ، وفى بعض آخر ١١ وفى غيرها ١٠ ، وكانوا يأتون صاحب الأرض ويطلبون منه ما يريدون بقحة وسماجة لا مزيد عليهما ، فإذا طلب إليهم أن يمهلوه ساعة أووسعوه شتاً وسباً ، ثم أتوه بعد حين بواحد أو اثنين من الجند فيساقون جميعاً إلى المدير أو الضابط أو وكيل المديرية فينهاه عن التماهل فى أداء المطلوب ، فإذا اعتذر أودع فى السجن فلا يخرج منه ما لم يؤد مال الضريبة ، إما برهن ما لديه ، وإما باستدانة القيمة ممن تأخذه الشفقة عليه ، وإلا أخرجه الحاكم من السجن وأصحابه بائنين من الجند فيرفقانه إلى حيث يتحصل على القيمة ، فيدفعها إليهم وينصرف نافضاً عنه غبار الموت ، وكان بعض المشايخ يقولون للمعتذر أو طالب المهلة : هل أتيت من بلادك بأطيان فما هذه إلا أطيان القطر ، ونحن أبناء الوطن لا يحق لغيرنا أن ينتفع بها ، أتيتمونا فقراء لا تملكون أرضاً ولا فلساً ، فصرتم الآن أصحاب أراضى وأملاك وتحرموننا من خيرها » (١) . وبذلك يتضح لماذا أصبحت هذه الشريعة ثورية .

أما عن الدور المادى ، فقد كان ضرورياً للثورة والمعركة ، خاصة وقد تسلم عرابى خزينة الدولة خاوية ، فلا بد من ملئها بالمشاركة بين قوى مصر ، وغيّرت طبيعة الثورة من نفسيات العمد والمشايخ لدرجة أننا نجد أحد شيوخ « مصطهاى غربية » قد قام بتسديد ديون لكثير من الأهالى كانت عليهم لأذوريين (٢) ، وذلك لم نسمع عنه قبل الثورة ، وبهذه الروح أسهموا فى مسألة التبرعات ، فحثوا فلاحهم على التبرع ، وأفهموهم واجب الوطنية والتضحية من أجل مصر « لمنع الاستبداد الحاصل » وأثاروا الحمية الدينية والوطنية ، وأسرعوا فى تشهيل طلبات العسكرية ، فكانت تصل على الفور للشون والمخازن (٣) ، وقدموا الكثير من التبرعات وقد « سعت

(١) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، ج ٤ ، ص ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٣١٠ فى ١٧ يناير ١٨٨٢ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ ، دوسيه ٩٣ ، دوسيه ١٢٧ ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٢٤ ،

محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٤٢ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٣٤ ، محفظة ٧ ، دوسيه ١٩ ، محفظة ١ ،

دوسيه ١٧ ، محفظة ٩ ، دوسيه ٨٤ .

إمكاناتهم بذلك ، وصحافة الفترة تسجل صفحاتها وتزدحم بأسماء العمدة والمشايخ التي لا تحصى ، والذين أعطوا عن طيب خاطر ، وجاء النشر بناء على أوامر عرابي ، وذلك حتى يعطى الإحساس للجميع بأن الحرب يساهم فيها المصريون جميعاً ، ويعطى للمسألة نوعاً من التشجيع والتحميس للمزيد .

وشملت التبرعات آلاف الأرباب من الحبوب والخيول والأبقار والضأن والجمال والدواجن والمسلى والتبن والخضر والفواكه ، وزاد عليها البنادق والرصاص ، حتى الأسماك فقد تبرع بها عمدة المطرية ، وامتألت الخزائن بالأموال ويعلق نينيه على ذلك « تلك التبرعات كانت تأتي للمعسكرات من قمح وشعير وحبوب وخضر وزبدة وخيول وفاكهة وأموال من جميع عمد مصر ، فقد أظهروا كرمًا للغاية » (١) .

وكانت البرقيات التي تصاحب التبرعات ملؤها الرضا وطيب خاطر والنفس المطمئنة ، وتحمل بين طياتها معاني حب الوطن وإعلاء كلمة الدين وتأكيد النصر بعون الله ، ويرد القائد الذي أحبه شعبه بكلمات الامتنان للعمدة والمشايخ « متشكرين لحضراتكم حيث أخذتكم الغيرة الإسلامية والحمية الدينية لمساعدة المجاهدين في حفظ وصيانة الوطن » (٢) .

وحينما صدرت الأوامر لمديرى المديريات لجمع العمدة بشأن التشهيلات من مؤن وخلافه للقوات المحاربة ، والإتفاق على الأثمان والكميات ، يجيب العمدة بأنهم « رأوا موافقة توريد كافة الأصناف المطلوبة للجيش تبرعاً من طرفهم هم وأهالى بلادهم » ، وبذلك وصلت معرفة الواجب إلى أقصاها وتبلورت داخل شخصيات العمدة والمشايخ ، وقد أبان عرابي فى محضر التحقيق معه « أن المساعدات والتبرعات التي كانت ترد للجيش المدافع عن البلاد مدافعة شرعية ، ثم نكن بتهديدات بل من الناس من تبرع بنصف ماله ومنهم تبرع بماله ابتغاء مرضاة الله » (٣) .

وجاء بعد ذلك التضحية بالنفس وتقديمها فى الميدان الحرى بالتطوع مع القوات المقاتلة ، فتلاحقت الطلبات من العمدة والمشايخ للإنخراط فى السلك

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١ ، دوسيه ١٥ ، دوسيه ٢٢ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٢٥ ، دوسيه ٣٤ ،

محفظة ٩ ، دوسيه ٥٩ ، دوسيه ٨٤ ، محفظة ٣ ، دوسيه ٣٩ ، Ninet , Arabi Pacha , p. 216

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١ ، دوسيات ١٥ ، ١٩ ، ٢٣ .

(٣) المصدر نفسه ، دوسيه ١٩ ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/ب .

العسكري ، منها على سبيل المثال « بحسب ما تبالغ لنا من حصول الجهاد مع الإنجليز والجيش المصري ، واشتياقنا لاكتساب الثواب وهبنا أنفسنا نحن والخمسائة نفر من الناحية بلدنا في سبيل الله ، ابتغاء مرضاة الله ، متطوعين محامين عن الديانة الإسلامية وحفظاً لأنفسنا وأموالنا نسال الله أن ينصر الإسلام بمشيئة الله » ، وقد انتفع بنفوذ العمدة والمشايخ في اصطحاب الفلاحين لميدان المعركة ، وحثهم على الجهاد والحض على التطوع ، وذلك بالاستعداد والتدريب على جعل السلاح في الطوابى القريبة ، فكانت النتيجة تلك الوفود المحاربة التي وصلت إلى القيادة بخيولها وأسلحتها ، وبذات الوقت فقد بلغ الأمر أن هدّد العمدة والمشايخ بأن من لم يلب نداء الوطن « تسلب موجوداته ويخرب محله » (١) .

تم ذلك أمام إعلانهم لقادة الثورة وتعهدهم بمسئولية « تأدية كافة طلبات ما يلزم الجهادية » ، وكانت تقارير المديرين التي تصل مركز القيادة تؤكد ذلك النشاط المتزايد لتلك الشريحة « إن العساكر وازدة أفواجاً وأن عمد ومشايخ المديرية باذنين الهمة بتأدية طلبات العسكرية بكل سرعة وجميعهم يهتثوا سعادتك بالنصر » (٢) .

وشارك البعض في التجهيزات الحربية ، فقدم عمدة المطرية أربعين سفينة لتحمل ما يلزم العمال والعساكر لطايبتي الجميل والعربية دون أجر ، وبعث بخمسائة رجل من رجاله لمساعدة العاملين في الطوابى ، ويذكر مراسل صحيفة الوقائع المصرية عن أحمد الوكيل عمدة النخيلة بالبحيرة « أنى شاهدته غير مرة يحث عمد البلاد وبيعت فيهم الحماية على القيام بالتجهيزات الحربية ، وقد لباه عدد كثير ونجا نحوه حسنين حمزة عمدة كوم حمادة » . كذلك كان لهم دورهم في إقامة استحكامات وطوابى منطقة بحيرة المنزلة (٣) .

واعتمد رجال الثورة على العمدة والمشايخ في مسألة الخضر والأمن والدفاع ، وسلّمت إليهم الأسلحة من أجل ذلك ، فعندما أراد عرابى تعبئة قوى الفلاحين أعطى تنظيمهم لقيادة العمدة والمشايخ للدفاع عن شواطئ بحيرة المنزلة وحمايتها إذا اعتدى عليها من جانب الإنجليز ، فأرسل لمديرى الدقهلية والشرقية يطلب منهما

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١ ، دوسيه ١٩ ، محفظة ١٢ ، دوسيه ١٨٦ ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١ ، دوسيه ٥ ، دوسيه ٨ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٨١ في ٦ سبتمبر ١٨٨٢ ، عدد ١٤٧٠ في ١٠ أغسطس ١٨٨٢ ،

محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٣٠ .

استحضر العمد والمشايخ « وبأخذ عليهم التعهد القوى باستخراج أنفار بلادهم من الذين لهم إلمام باستعمال الأسلحة النارية وجعلهم في النقط المهمة من بحيرة المنزلة »^(١).

وقسمت شواطئ البحيرة إلى ثلاث مناطق ، وأنيطت كل منطقة بمسئولية عمدة أو شيخ يكون رئيساً على الفلاحين ، وخضع جميعهم لعمدة البصراط الذي كان تحت إشراف عبد العال حلمي قائد فرقة دمياط ، وأرسل إليهم ٢٠٠٠ بندقية وزعت عليهم . وبذلك تولى العمد والمشايخ في هذه المنطقة خفر السواحل والدفاع عنها ، ولوحظ نشاطهم المتزايد ، وترددت أسماؤهم ، فكان منهم محمد بن شداد عمدة ناحية الكردى دقهلية ، ورضوان إبراهيم عمدة ميت خضير ، ومحمود جلبى طوبار عمدة المنزلة ، وأبو المعاطى سعيد عمدة العصافرة ، وعقب الحرب وجدت لديهم الأسلحة ، فقد عثر في منزل عمدة المنزلة على ستين بندقية وثلاثة صناديق جبه خانة ، ووجدت طرف عمدة الكردى ومشايخ برمبال القديمة ومشايخ منية سليل بنادق فشك وكبسول وصناديق جبه خانة ، وآخرين من المشايخ والعمد وجدت لديهم الأسلحة^(٢) ، وبذلك وضع أن عرابياً قد طرق باب تسليح الشعب ، كما استعان بالعمد والمشايخ في معاينة الطرق بالقنطرة ، فيخطر محافظ العريش عرابى باستخدامهم من بين المرابطين على سواحل البحر الأحمر لنهاية الحدود المصرية من ناحية خان يونس لحفظ الحدود والدركات^(٣).

أما عن الدور الروحي الذى شاركوا به فقد كان ملموساً ، فكثرت تردددهم على المراكز الحربية للاطمئنان على الجيش وتشجيعه ورفع معنوياته ، كما كانت التنبؤات بالانتصار وإظهار قوة الجيش وتفوقه تتردد على ألسنتهم ، فمثلاً خير جهاز دعائى للثورة ، وكثرت الرؤى التى ظهرت لهم وتدور حول « أن عرابياً يحارب الخديو وينتصر عليه ، وأن أولياء الله متداركون إياه بنصرته ، وأنه سيكون الحاكم على مصر » . وأقاموا الصلوات وقرأوا القرآن ورددوا الأدعية من أجل انتصار القائد وقواته^(٤).

(١) محافظ الثورة العراقية ، محفظة ٩ ، دوسيه ٧١ ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٣٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٣٩٥ ، محفظة ٩ ، دوسيه ٧١ ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٠ .

دوسيه ٤٠ ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٢٣٠ ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٧٦ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ٩ ، دوسيه ٨٤ ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٢ .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ١ ، دوسيه ٨ ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٤٤ ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٤ .

دوسيه ٣٥ .

وعندما ظهرت خيانة سلطان وصدر أمر عرابى بأنه « حاضر ومعه مائتان عسكري إنجليزى من طريق البحر الأحمر لقصد الدخول من أحد الدروب بالوجه القبلى » على الفور تصدى للأمر سعداوى عبد الرحيم عمدة المطاهرة بمديرية المنيا، وجمع بقية العمدة والمشايخ لعمل الاحتياطات اللازمة ، وتوجه للجبل ومعه الخيالة والهجانة مسلحين للبحث عن سلطان وأتباعه^(١) ، وتمت الاستعدادات لملاقاة الأعداء ، لكنهم لم يأتوا من هذا الجانب .

ونظراً لهذا التأييد الثورى ، فقد تعرض بعض العمدة والمشايخ لضربات المعسكر المضاد الذى نجح فى جذب البعض القليل ، لكنه لم يستطع أن يحول المسار الثورى لتلك الشريحة رغم ما وجه إليهم ، فحاربهم بعض مفتشى الجفالك وطردوهم من الأراضى مثلما حدث مع عمدة ومشايخ « كفور نجم » حينما أمرهم چاهين بك الشركسى بقطع ما يرسلونه للجيش ، لكنهم لم يطيعوا أوامره واستمروا فى العطاء « ولما علم بذلك حرر تلغراف فى حقنا للدائرة الإلهامية بإخراجنا من أوطاننا بالتفتيش وحرماننا من التعيش ووزع أطيافنا بمعرفته مع أنها مؤجرة لنا من مدة جدودنا لحد تاريخه » هذا ما أبلغوه إلى منقذهم كما أبانوا له أن هذا المتسلط سجن أحد شيوخهم بطرفه ، وعلى الفور يحيل عرابى المسئول على مجلس عسكري^(٢) . واستمروا فى طريقهم الثورى حتى النهاية ، ففى البحيرة تمكنوا من الاستيلاء على المنتجات من أراضى حيدر باشا وورودها للجيش رغمًا عن أنف مفتش الزراعة^(٣) ، ومضت المقاومة لسلبية الحاقدين والرافضين جتى بعد دخول الإنجليز ، كانت الأصوات تردد بأنه لا يمكن أن يكون عرابى قد هزم .

البدو

عندما رأى مجلس النواب أن البدو أصبحوا يكونون طبقة من الملاك الزراعيين شأنهم فى ذلك شأن الفلاحين الملاك ، ومن ثم يجب أن يعاملوا بالمثل ، كان معنى ذلك سحب تلك الامتيازات التى تمتعوا بها طوال الفترة السابقة ، وهنا ظهر تمردهم ورفضهم لذلك ، وفى ١٨ أبريل ١٨٨٢ عقد مشايخ البدو للشرقية والغربية والبحيرة والفيوم والوجه القبلى اجتماعاً كبيراً فى طنطا وقرروا فيه أنهم لن يسمحوا بتدخل

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٩ ، دوسيه ٨١ ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٤٨ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٥ ، دوسيه ٦٧ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٥ .

مجلس النواب في شئونهم ، وأنهم متمسكون بالامتيازات التي منحهم إياها محمد علي، وقدموا مذكرة لمثلئ بريطانيا وفرنسا في مصر والباب العالي بنفس المعنى^(١).

وأحست الثورة بما في الموقف من خطورة عليها ، فأرسلت حكومتها الفين من الجنود ، نصفهم إلى الزقازيق والآخر إلى البحيرة للقضاء على هذه الحركة المناوئة، ولحماية مصر من تجمع مثل هؤلاء الذين تصفهم صحيفة التيمز بقولها « المفترسين الرحل الذين يعيشون على السلب والنهب ويصل عددهم إلى عشرة آلاف مقاتل مسلحين ، ويكمدون العداء الشديد لما يسمونها حكومة الفلاحين »^(٢).

ووجدت حكومة الثورة أنه من الأفضل لها - لتتفرغ لما هو أهم - أن تصفى الموضوع وتهادن البدو ، ودعت مشايخهم أصحاب النفوذ إلى القاهرة ، وتمت المصالحة ، وأقرت الحكومة امتيازاتهم « أن يعافوا من القرعة العسكرية ، ومن أشغال العونة ، وأن سكان العزب والكفور والبلاد من العريان يدفعون بدلية للعونة »^(٣).

ومن هنا بدأ طريق التعاون والصداقة مع الثورة والنقمة على التدخل الأجنبي ، فيسارع شيوخ البدو بتأييد عرابي ويطالبون بعودته عقب استقالة النظارة ويرفضون مذكرة مايو المشتركة ، وعندما حضر درويش ورأى استمالتهم لم يوافقهم الكثير منهم « وعقد جلسة مع المجلس الأكبر للعريان وحين وجد أن عدداً كبيراً من أعضاء المجلس يقفون ضده ، أخبرهم بأنه قد يتولى نظارة الجهادية »^(٤) ، معنى هذا أنهم كانوا مصرين على التمسك بعرابي .

ورأى قادة الثورة وعلى رأسهم عرابي إمكانية الاستفادة والاستعانة بالبدو عقب قيام الحرب ، حيث أصبح من الضروري تعبئة أكبر قوة حربية ممكنة للوقوف أمام الإنجليز - رغم معرفة طبيعتهم - فصدرت الأوامر للمدريات ، وخاصة عندما ارتبكت الأمور واحتل الإنجليز القناة بالتبعية على كافة العريان الذين في إمكانهم استعمال السلاح بأن يتوجهوا للخط الشرقي ، كما عين لهم مأمور لنفس الغرض .

(١) Egypt, No. 7 (1882), No. 122, April 15, 25, 1882, p. 98 .

(٢) The Times , April, 22, 1882 .

(٣) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٢ ، جمادى الآخرة ١٢٩٩ (١٨٨٢) ،

Egypt, op. cit., May 18, 1882, p. 140 .

(٤) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 175 . أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصر والمسألة المصرية ، ص ٢٢٢ .

وكان من الضروري تحصين شواطئ البحر الأحمر وحراستها ، فيرسل مدير قنا إلى عرابي ليبلفه « بحضورنا القصير حسب أمر الجهادية صار ترتيب الفجر اللازم من عريان العباددة والعزاية على ثمان وأربعين نقطة مهمة منها ثلاثين نقطة على ساحل البحر الأحمر من سفاجة لحد برنس والباقي في دروب الطوف من نقط البحر لحد اللقيطة ، ومقدار الفجر الذي جرى ترتيبه ألف وخمسمائة نفر من الهجن ، وأخذت التعهدات اللازمة على مشايخهم حسب اللزوم »^(١) .

وقد أيد المجلس العرفي هذا الموقف وساعد عليه وقدم التسهيلات ، إذ خصص قطار لنقل عرب السعداوى والجبالي وعبد القوى والحرابي بالفيوم لانتظامهم في سلك الجنود المحاربين وصرف السلاح لهم ، ويقدم عمد عريان فوايد قبلى ومشايخ عريان الرماح بالمنيا التعهدات لإحضار « الأنفار للمقاومة ضد العدو والمدافعة عن الوطن »^(٢) .

وجاءت طلبات شيوخ العريان تحمل الرغبة في الالتحاق بالقوات العسكرية من جميع مناطق البدو وتزخر بها بعض محافظ الثورة العرابية ، ومن بينهم شيخ عريان الكريمات ، وطحاوى بالواسطة ، وقبائل أولاد على والنجمة والبراعصة والفرجان والمعازة ، وكانوا متحمسين وهم في طريقهم إلى المعسكرات ، فيذكر مراسل صحيفة الوقائع المصرية في كوم حمادة « شاهدت كثيراً من العريان يمشون بقطار الوابور إلى مركز الجيش ، وهم في غاية الفرح والسرور ويدقون الطبول ويغنون »^(٣) .

حقيقة لقد كان منهم الصادقون ، فيذكر نبيه أنه اجتمع بشيوخهم المترددين على المعسكرات كبقية وفود قوى مصر التي كانت تتلاقى فيها ، ودار بينهم الحديث « فقالوا له : نحن نؤيد عرابي لا لأنه فلاح ، فإننا لا نحب هذا الجنس ، لكن بسبب أن الخديو الصغير الفاقد لعقله قد اتحد مع الإنجليز كما فعل باى تونس مع الفرنسيين »^(٤) .

أما عن لقاءاتهم الحربية مع الإنجليز على أرض المعركة فقد سجلت لهم الكفاءة ، فيظهرون كمجموعات « ليوقفوا الضربات » ، وكانت البلاغات تصل مقر القيادة لتسجل لهم النصر « فقد قاموا وتلاقوا مع العدو ، وأطلقت النيران حتى

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٢ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٢٢ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٢١ ، دوسيه ٥ ، محفظة ١ ، دوسيه ٦ ، دوسيه ١٤ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٧٠ في ١٠ أغسطس ١٨٨٢ .

Ninet , Arabi Pacha, p. 218 .

(٤)

أبعدوه عن نقطة المقدمة ، بعد أن قتلوا نحو المائة واغتنموا خمسة وأربعين ثوراً وخمسمائة متر من سلك التروويدو^(١) .

وقد نُشر ذلك وزيد عليه في صحيفة الطائف التي كان قادة الثورة يوزعونها عليهم ، حتى يرفعوا من روحهم المعنوية ويشجعوهم على المزيد من العمل ، ففي برقية من طلبة عصمت يستعجل إرسال أعداد منها « حيث إن النسخ لم تعد تكفى بعد أن تم توزيعها على قبائل العريان الموجودين بالطرق ونقط أبو قير ومريوط »^(٢) .

وفي الميدان الشرقي ، يقف البعض منهم أمام تقدم الإنجليز لدرجة أنهم لم يستطيعوا التفرقة بين الإنجليز وغيره من الأجانب ، ففي أثناء مرور بحار أحد رعايا النمسا والمجر بقاريه في منطقة طوسون جنوب بحيرة التماسح « أطلق عليه النيران من البدو المتحصنين وراء الشاطئ فأصابوه »^(٣) .

وكان لبدو سيناء دور فعال أثناء الحرب ، وقفوا فيه مع الثورة ، ففي المنطقة بين القنطرة والعريش ، وعندما ذهب أحد تجار الإسماعيلية لمشتري جمال « فبوصوله لجهة العريان ناحية قاطية أشيع هناك أن المذكور يشتري جمالاً للإنجليز ، فلذلك قصد العريان الفتك به ، فاحتفى بأسطى التلغراف بالجهة المذكورة » ، وبذات الوقت راحوا يهجمون على إمدادات الجيش الإنجليزي ، فقد وردت إفادة من مأمور القنطرة « أن عريان السماعنة والعقالية هجمت على جمال كانت محضرة للقنطرة على ذمة الجيش الإنجليزي » هذا بالإضافة إلى أنه لم يكن يخرج من تحت أيديهم من يشعرون أنه يحيك الدسائس « فأنثناء مرور ثلاثة شوام ما بين القنطرة وبورسعيد ، حضرت بعض العريان وضربت عليهم الرصاص » ، ومما لا شك فيه أن ثورية محافظ العريش كان لها الأثر في المنطقة ، فيذكر سلطان « أن محافظ العريش هو الذي يحث ويسلط هذه العريان على هذه الأفعال »^(٤) .

وأدرك الإنجليز عقب استيلائهم على بعض مدن القناة أنه لا بد من استغلال مبدئهم « قسم تحكم » وذلك لوضع نهاية للثورة ، فيقول تقرير نمساوي « إنه لم يكن

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٢ ، دوسيه ٢٢ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٧٦/ب .

(٣) الأرشيف النمساوي ، محفظة ١٥ ، مجموعة ٢٨/٢١ ، رقم ١٨٥ ، ١٥ أكتوبر ١٨٨٢ .

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٦٧ ، محفظة ٤١ ، دوسيه ٢ .

هناك بادرة أمل أمام الإنجليز في حروبهم البرية مع انوسائل العسكرية التي تضغط عليهم ، وما يبيده العرب (المصريين) من نشاط ومهارة في ميادينهم وهجماتهم العديدة وتنظيمها بما لم يكن معه أن يتبأ الإنسان بانهيائهم أو تخاذلهم « . ويمضى التقرير ليبين ما بذله الإنجليز من محاولات الرشوة وخاصة مع بدو سيناء لتأمين جانب المفاجأة التي ممكن أن تأتيهم من الشاطئ الآسيوى لقناة السويس بواسطة البدو القانطين بالبرزخ ، ورأوا أن يتصلوا بهم عن طريق الأوربيين المتوطنين ، وذلك بحجة شراء الجمال منهم ، وكانت النتيجة فشلاً ذريعاً ، وهجم البدو على الضياع والبيوت التي أشيع عن أصحابها بصادقتهم للإنجليز ، فنبهوها ودمروها من أساسها ، وكذلك فعلوا بالمبانى والنخيل الذى امتد حولها (١) .

وعاد الإنجليز مرة أخرى لإجراء محاولات عقد الصداقة مع البدو ، ووضعت الخطة في لندن لمحالفتهم ، واختير بالمر - مستشرق وله معرفة باللغة العربية - ليحنّ بخطة مرسومة ومعه أربعين ألفاً من الجنيهاات الإسترلينية لشراء خمسين ألف بدوى ، كما أسندت له مهمة أخرى يذكرها « أن أقنع أسلاك التلغراف وأحرق الأعمدة حتى تقطع المواصلات بين عرابى وتركيا » (٢) .

وصاحب بالمر في تلك المهمة « قبطان جيل والملازم شارنجتون » وكان توفيق على دراية بذلك ، إذ أصدر أوامره إلى محافظ الإسماعيلية ومشايخ البدو بتسهيل مهمة البعثة ومساعدتها وتقديم الاحترام لها « وأن القصد هو التفرج » (٣) ، أى السياحة .

وخرج الجواسيس الثلاثة مع خادم ومترجم ، وأعلنوا أن الرغبة « شراء الجمال » وأوغلوا داخل سيناء حتى وصلوا إلى قلعة نخل ، وهناك أمر ناظرها - وهو عربى ملتات - بالقبض عليهم ، وخيرهم بين الموت ذبحاً أو القفز من أعلى قمة جبل التيه إلى السفح ، فاختر بالمر وجيل الحل الأخير ، بينما ترك الباقون أنفسهم يذبحون ، وعثر على جثتى الأولين مهشمتين عند سفح الجبل . وأرسل الإنجليز بعثة مؤلفة من خمسين بحاراً التحق بها ياوران الخديوى والقنصل الإنجليزى والقنصل

(١) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٧ ، رقم ١٧٦ ، ١٨ سبتمبر ١٨٨٢ .

(٢) Ninet , Arabi Pacha, p. 144 , Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 405 .

(٣) محافظ الثورة المرابية ، محفظة ١١ ، دوسيه ٢ .

اليوناني للبحث عن المفقودين والمذنبين ، وتم القبض على ستة شر بدوياً ، وعين كولونيل ورن الإنجليزي للتحقيق معهم ، وتم سجنهم « ووجد مع ناظر القلعة زوج طبنجات وسيف من متعلقات الميرى » ، وثبت أن له علاقة بمحافظ العريش^(١) .

وفشلت الخطة الإنجليزية في تلك المنطقة ، إذ كان موقف البدو فيها مؤيداً للثورة ، ومن المحتمل أن تلك الإجراءات التي قاموا بها مع البعثة الإنجليزية هدفت أيضاً سلب أموالها ، ولكن إذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لم يلجأوا للحصول على الأموال بخيانة الثورة ، كما حدث مع بعض البدو داخل ميدان المعركة ؟ ويصفه عامة ، فإن هناك بدواً قد سجلوا المواقف الطيبة ، فإنه حتى بعد الهزيمة ، كان منهم من رفض الاستسلام مع بقية العسكريين الذين امتنعوا عن التسليم بالمنوفية مثل « حسن مطايرد البدوى من عريان البراعمة »^(٢) .

أضف إلى ذلك تلك التبرعات والهدايا التي قدموها للجيش المحارب ، فكان على قائمة المتبرعين « مشايخ قبائل البراعمة والجهمة والحرايى والعمائم وترحونة والفوائد » فأعطوا الخيل والأغنام والفاكهة والأسلحة ، تلك التي كانت تنقل تباعاً إلى كضر الدوار^(٣) .

وفي النهاية كان هناك الكثير من البدو الذين قدموا للمحاكمة وحوكموا ، وهذا دليل على مشاركتهم الفعالة في الثورة ، ويشاء القدر أن يكون أيضاً من البدو من أسهم في إجهاض الثورة ومثل ركيزة في هزيمتها^(٤) .



(١) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٥ ، المجموعة ٢٨/٣١ ، رقم ١٩١ ، ٢٩ أكتوبر ١٨٨٢ ، محفظة

١٧ ، رقم ١٧٦ ، ١٨ سبتمبر ١٨٨٢ ، محافظ الثورة العربية ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٦٧ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٢٧٥/أ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ١ ، دوسيه ١٥ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٢١ ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٦٨ .

(٤) الفصل السابع ، عنصر البدو وأصحاب الخيانة .

المشهد الأخير

لكن... تحطمت الثورة ، وامتألت سجون القاهرة والإسكندرية والأقاليم بقوى مصر الاجتماعية التي شاركت فى الثورة ، ونجحت يد البطش فى استرجاع حسن موسى العقاد وسليمان داود بعد لجوئهما إلى كريت ، وفشلت فى القبض على عبد الله النديم عقب هروبه .

ومثلت السجون قبوراً للثوار ، واتسعت دائرة الإنتقام ، فنرى توفيق يرسل « أعوانه وحواشييه ومماليكه الجراكسة يهددون المحبوسين ويزعجونهم ويسلبون ما عندهم من المصاحف والنقود ، ويدخلون على عرابى وعبد العال فى أود الحبس ويضربونهم » ، ويؤكد بلنت « أن أغوات الخديو كانوا يزورون المتهمين فى السجن ويضربونهم ضرباً مبرحاً » ويذكر عرابى فى محضر التحقيق الإهانة التى لحقته « ودخل على الأودة أغوات من القواصة الترك ثم تقدم أحدهم بصورة هائلة مزعجة، وقال لى قم فقممت فقلت له ماذا تريد فقال أريد أفتشك » ويمضى فى وصف السب واللغات التى نزلت عليه ، ويقول « وسمروا النوافذ ومنعوا عنا السراج ليلاً » ، هذا فى الوقت الذى قاست فيه عائلاتهم فلم تصرف لهم مرتبات مما اضطرهم « لبيع أدوات منازلهم »(*) .

وكان لرياض اليد الطولى فى هذا العذاب ، فالحقد يملأ قلبه وسيطر عليه ، إذ يقول « إن المصريين ذمابين والطريقة الوحيدة لمنع تفشى الشعبان هو سحقها

(*) . 447 p. , Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt, . محافظ الثورة

العربية ، محظية ٨ ، دوسيه ١/٥٣ ، دوسيه ٤٨ ، أحمد عرابى ، مذكرات ج ٢ ،

بالأقدام ، وسأسحق أنا المصريين «^(١) ، وهذا ما فعله فإنه لم ينس أبداً أن الثورة أطاحت به وسلبته سلطته .

وتشكلت لجان التحقيق بالقاهرة والإسكندرية وطنطا « للتحقيق وإقامة الدعوى على كل من ارتكب جريمة العصيان أو التعدى على السلطة الخديوية أو الإهانة للذات الخديوية » ، كذلك كونت محكمة عسكرية بالقاهرة وأخرى بالإسكندرية .

وكان هناك اتجاهان ، الأول مثله لندن والثاني انحصر في الخديو وأعوانه ، أما عن الاتجاه الأول ، فبعد أن حققت بريطانيا هدفها - الذي سعت إليه منذ سنوات وسنوات - واستقرت على الأرض المصرية أدارت الأمور وفقاً للسياسة الإنجليزية ، فنراها توافق على تسليم أسرى الحرب المصريين إلى الخديو وهى تعلم نيته لذا فتشترط « ألا يعدم أحد إلا بموافقة السلطات البريطانية »^(٢) ، وجاءت التعليمات من لندن بإعطاء قادة الثورة الحرية لاختيار محامين عنهم وأن تكون المحاكمة علنية ، ووكل بلنت محامين للثوار وحضر من لندن للدفاع ، وذلك بعد أن أوضح لجلادستون أن هذا الدفاع سيكون على حسابه الخاص ، ومما يذكر أن بعض الإنجليز اكتتب بمبالغ للغرض نفسه .

أما الاتجاه الثانى ، فقد إراد الخديو تقديم الثوار لمحاكمة عسكرية إنجليزية لكن بريطانيا رفضت ، وعارض شريف فى وجود محامين عنهم إذ قال « إن الشريعة المعمول بها فى بلاد مصر لا تبيح للمجرمين اختيار من يدافع عنهم ، ولا إجراء التحقيق معهم علانية » ، أما رياض فكان يردد « ما جدوى محاكمتهم إذا كنا نعرف جميعاً أنهم مذنبون »^(٣) .

وبطبيعة الحال لابد من انتصار الاتجاه الأول ، وتولى الدفاع عن الثوار محامون إنجليز « برودلى ، نابيير ، إيدى » ، ووضع رياض العراقيلى أمامهم ، فرفض أن يسمح لهم بالاقتراب واللقاء مع الثوار برغم أن هذا مناف للقانون المصرى ، وكان

Ibid , p. 459 .

(١)

Egypt, No. 18 (1882), No. 73, F.O., August 28, 1882 .

(٢)

(٣) فارمان ، المرجع المذكور ، ص ٢١٧ .

يعارض بشدة إتصال أى أحد بالمسجونين ، لكن كان من السهل الوقوف أمام تصرفاته . ولما كانت المحاكمة علنية ، فقد ظهر فيها لقاء الشعب مع زعيمه حتى بعد الهزيمة ، فيذكر تقرير نمساوى « أقبل الكثيرون في الاندفاع على طلب بطاقات الحضور بين الجمهور »^(١) ، وامتألت قاعة المحكمة بالحاضرين حتى النساء المحجبات كن من بين الصفوف ، وكان الشارع الذى تقع فيه المحكمة مكتظاً بالناس ، كذلك احتشد الطريق المؤدى إلى السجن بالذين يبكون ويصيحون « من أجل عرابي »^(٢) .

وضعت المحكمة العسكرية أمامها القانون العسكرى العثمانى وحكمت على سليمان داود بالإعدام بناء على تهمته فى حرق ونهب الإسكندرية ، وذلك فى ميدان القنصليات بها بعد أن رفض توفيق طلب العفو عنه الذى التمسه الدفاع ، كذلك نفذ حكم الإعدام فى يوسف أبو ديه بتهمة أنه المتسبب فى الشغب الذى حدث فى طنطا إبان الحرب ، هذا بخلاف أشخاص غير عسكريين تعرضوا لنفس المصير بسبب اشتراكهم فى حوادث الإسكندرية .

وجاء الحكم على باقى الثوريين ، واشتدت المعارضة فى البرلمان الإنجليزى ، وكثف حزب الأحرار نشاطه لإنقاذ عرابى من الإعدام الذى حكم به عليه ، وخفف بقرار من توفيق إلى النفى المؤبد ، وطبق ذلك على غير إرادة الخديوى ، إذ كان يصبر بقوة مع شريف ورياض على ضرورة تطبيق العقوبة القصوى على « زعماء المجرمين » . ويرفض أى بديل لحكم الإعدام ، لكن بعد أن وجه إنذار إنجليزى إلى الحكومة المصرية ، تغير الموقف ورضخ المعارضون ، ما عدا رياض الذى قدم استقالته ، احتجاجاً على تخفيف الحكم ، حيث آمن أنه طالما بقى القادة على الحياة، فستعيش معهم القصة القومية ، وقد تؤتيها لحظة تظهر فيها من جديد بشكل مضاعف .

وفى الواقع فإن الحكومة الإنجليزية كانت تضع أمامها عدة اعتبارات فى هذه المسألة ، فمنذ البداية كان جلادستون يرى مع جرانثيل السعى لإعدام عرابى

(١) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٦ ، الجمعة ٢٨/٣١ ، رقم ٧٠ ، ٤ نوفمبر ١٨٨٢ ، محفظة ١٥ ، رقم ١٨٥ ، ١٥ أكتوبر ١٨٨٢ ، رقم ١٨٩ فى ٢٣ أكتوبر ١٨٨٢ .

Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , pp. 122, 133, 340 .

(٢)

بمعرفة الخديوي^(١)، لكن مصير عرابي قرره الرأي العام في بريطانيا الذي كان يميل إلى إعطائه محاكمة عادلة، إذ أقر أن ما فعله هذا الزعيم لم يكن إلا أول نهضة للحرية في الشرق، كما كانت صحافة الأحرار تصف عرابي بصورة أنه مكافح ومن أبطال الحرية، وذلك ما جعل الحكومة الإنجليزية تعمل له حساباً على غير إرادتها، هذا بالإضافة إلى أن التقارير الواردة من الهند كانت تشير بذلك التفاعل الإسلامي العام تجاه المحاكمة مما حثم وضعه في الاعتبار وعدم إغفاله^(٢)، وأمام ذلك كله أصبح لا بد من تخفيف المحاكمة والحد من الانتقام الكلي. وصدر حكم النفي المؤبد إلى جزيرة سيلان ورحل قواد الثورة السبعة^(٣)، وأوصلهم للسويس «ضابطان وثلاثين من عساكر الإنجليز»^(٤).

ووقع النفي والتشريد والفصل من الوظائف ورقابة البوليس وتحديد الإقامة على الثوريين جميعهم وفق مشاركتهم في الثورة دون تفرقة بين قوة وأخرى، وبجرد العسكريون من الرتب والأوسمة وحجج الأملاك والأطيان الخاصة بهم، وبيعت الأراضي التي تمتلكها زوجات الثوار، وحتى أملاك الإرث حُجزت وصودرت، ولم تراع نصوص الحرمان، لدرجة نزع «أملاك الوقف الموقوفة»، أيضاً فإن الكتب التي وجدت لديهم صُودرت، وأعلن عن بيعها^(٥).

واعتُقد أنه بتلك الإجراءات التي اتخذت قد تم استئصال جميع الاتجاهات الثورية، لكن مضي الكفاح من أجل الانتقام ممن تسببوا فيما حاق بمصر وقادتها، وتكونت جمعية لأجل هذا الغرض «جمعية الانتقام» وكان شعارها «تحرير الوطن، المدنية، التقدم» وشهر كل عضو فيها سلاحه، ومضت في إصدار التهديدات سواء

(١) Blunt, Secret History of the English Occupation of Egypt, P. 450.

(٢) الأرشيف النمساوي، محفظة ١٤، رقم ١٢ ج، لندن ٢٣ فبراير ١٨٨٢، محفظة ١٥، رقم ١٨٥، ١٥ أكتوبر ١٨٨٢.

(٣) أحمد عرابي، محمود سامي البارودي، على فهمي، عبد العال حلمي، محمود فهمي، طلبة عصمت، يعقوب سامي، عن الحياة في المنفى، انظر الدراسة الوثائقية «عرابي ورفاقه في جنة آدم» ١٨٨٢ - ١٩٠١، لطيفة محمد سالم، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٧.

(٤) محافظ الثورة المرابية، محفظة ٨، دوسيه ٥٣/ج.

(٥) المصدر نفسه، محفظة ٢٤، دوسيه ١، محفظة ٢٦، دوسيه ٣٥، محفظة ٢٧، دوسيه ٤٦، محفظة ٢٨، دوسيه ٥٨، محفظة ٢، دوسيه ٨٢، محفظة ٣٣، دوسيهات ١١٥، ١١٦، ١١٩.

لتوفيق أم الباشوات أتباعه وعلى رأسهم شريف ، ومن أعضائها محمد فنى وله تاريخه فى العمل الثورى ، وحسين صقر الكاتب بالداخلية ، وسعد زغلول ، ومحمد توفيق ، ووكيل دائرة البارودى ، ومحمد بك طاهر ، وعبد الرحمن بك فوزى ، وعبد الرازق بك ، ومصطفى بك صدقى ، والشيخ أحمد نور ، وكان رئيسها « محمد سعيد وهو مغربى الأصل » لكن تم القبض عليهم ، ونفى بعض منهم وعثر فى منازلهم على أسلحة وأوراق تدين النظام القائم(*) ، وأجهز على تلك الحركة ، واعتقد أعداء مصر أنهم قضوا على الثورة ، لكنها بقيت كامنة فى النفوس حتى تفجرت مرة أخرى على يد سعد زغلول أحد المشتركين فى ثورة القوى الاجتماعية .

ولم تكن الثورة العربية ثورة « مشثومة » كما وصفها محمد فريد ومن تبعه ، ولكنها ثورة اعترف بها من قامت ضدهم من غلاة المستعمرين ، فيسجل جرانفيل فى خطاب له مؤرخ فى ٣ يناير ١٨٨٣ إلى الدول الأوربية بشأن قناة السويس قوله « إن الثورة المصرية قد ظفرت بنجاح » ، ولو أنه يصفه بأنه قصير المدى ، لكنه اعتراف بنجاح الثورة ، ثم يأتى كرومر ليقر ويعترف فى تقريره لعام ١٩٠٤ أى بعد مرور اثنين وعشرين عاماً على تحطيم الثورة ، وحين هدأت الأوضاع ، ووضحت الحقائق فيقول « حدثت ثورة عظيمة فى القطر المصرى عام ١٨٨٢ وإنما قلت ثورة عن عمد وقصد ، فقد كان الظن الغالب على كثير من الأذهان فى ذلك الزمان أن الحركة العربية كانت فتنة عسكرية لا غير ، وذلك خطأ مبين لأنها كانت فى جوهرها ثورة صحيحة على العنف وسوء الحكم كالثورات التى حدثت فى البلدان الأخرى ، وهى تستكر وتذم أو تجوز وتمدح حسب أدلة الذم والمدح التى تقام عادة على الذين يحاولون تغيير نظام الأحكام فى بلادهم تغييراً جوهرياً بوسائل العنف والإكراه » .

والواقع أنه كان من الأمور المستغربة أن تسمى فتنة عسكرية أو تمرد عسكري ، وهى الثورة التى اشتركت فيها قوى شعب مصر من أعلى الطبقات إلى عامتها ، قدمت من أجلها كل شيء للتخلص من كابوس التدخل الأجنبى ، والشفاء من حمى

(*) أنسدر نفسه ، محفظة ٣٣ ، دوسيهات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، محفظة ٤٠ ، دوسيه ١٩٢ .

السياسة الأوروبية ، والنجاة من شرك المطامع الاستعمارية ، وأيضاً من سيطرة الأتراك الاستبدادية والخديوية الأوتقراطية ، إذن فهي ثورة وطنية أصيلة ، وفي خطاب لعرابي وهي بسجن الدائرة السننية إلى شينري مدير صحيفة التيمز بلندن يذكر له ما جاء في مقال بالعدد ١١٠٥ من صحيفة الجوائب التركية تحت عنوان « القبض على المفسدين في مصر » والذي تناول القوى التي إنضمت إلى الثورة ليثبت أنه لم يعد على أرض مصر أحد لم يشترك فيها ، ويمضى عرابي في خطابه ليبين أن الأمة كلها كانت معه « على رأى واحد في أمر واحد هو تحرير البلاد والمندافعة عنها » ، وبذلك توحدت جهود المصريين من أجل تحقيق آمالهم فنزلوا جميعاً إلى الميدان الثوري للعمل الموحد ، وغدت ثورتهم ثورة شعبية صادقة تشهد لها ثورات شبيهة في أوروبا ، قامت مطالبة بالاستقلال نازعة للحرية ساعية إلى الدستور ، وهي بذلك تعد أولى الثورات الدستورية في المنطقة .

وأخيراً فإن لكل ثورة أنصارها وخصومها ، لكن بيان الحقائق ووضعها في مكائتها وعدم التحيز لاتجاه أو لآخر ، وقياس الأحداث بالفترة الزمنية التي عاشتها يجعل الحكم أقرب إلى الصواب ، وهذا ما حاولت تلك الصفحات أن تسطره ، ومن ثم فقد نقلت لنا صورة حية لثورة شعب جمعته ظروف ، وإن اختلفت في مضمونها ، لكنها دفعت المصريين إلى التعبير عما يجيش في صدورهم ، فالتقوا جميعاً في أحضان الثورة العربية التي كانت المخرج مما يعانون منه ، والأمل فيما يريدون تحقيقه . ولكن انتهى الأمر بالإحتلال الإنجليزي لمصر ، ولم تكن الثورة هي السبب كما يحلو للبعض أن يردد ذلك ، لأن بريطانيا كانت قد خططت منذ وقت بعيد ، ووضعت نصب عينيها الاستحواذ على مصر ، وسلكت كل الطرق المؤدية للوصول إلى هدفها حتى حان وقت التنفيذ ، بمعنى أنه لو لم تكن الثورة العربية قد قامت ، لكانت بريطانيا احتلت مصر ، وحققت الحلم الذي راودها والأمنيات التي صاحبها زمناً طويلاً .



البليوجرافيا

١... أولا - الوثائق غير المنشورة :

١ - الوثائق العربية ، محفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة ، وهى مرتبة حسب أهميتها .

* محافظ الثورة العربية ، المحافظ ١ ، ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٤١ ، ٤٣ .

* تقارير وشهادات مقدمة من كبار الموظفين المصريين والأجانب إلى لجنة التحقيق عن معلوماتهم عن الحوادث العربية
* محافظ الأبحاث ، المحافظ ٤٢ ، ١٠٢ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٣٠ .

* محفوظات مجلس الوزراء ، محاضر جلسات مجلس النظار (١٨٨٠ - ١٨٨٢) ، المحافظ ، ٥/ج ، ٥/ح ، ٥/ز ، ٥/و ، محافظ الداخلية ، عربى ، محفظة ٥٤ ، تركى ، المحفظتان ٦٤ ، ٦٧ .

* البرقيات الواردة من إستانبول والصادرة إليها أثناء الثورة العربية ، ترجمة الدفترين ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

* معية سنية ، عربى ، دفتر صادر التفرافات ، أعوام ١٨٧٩ ، ١٨٨١ ، ١٨٨٢ .

* مجموعة مجلس الوزراء ، المجموعة ١٠ حربية ، محفظة ٣٨ .

* محافظ الداخلية ، محفوظة بدار المحفوظات العمومية بالقلعة بالقاهرة ، المحافظ ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ .

* دفتر قيد محاضر مجلس شورى النواب ، محفوظ بمجلس الشعب .

٢ - الوثائق الأجنبية ، محفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة .

- الأرشيف النمساوي :

(أ) المحافظ المترجمة إلى اللغة العربية ، ١٥ ، ١٧ ، ٢٠

(ب) المحافظ المترجمة إلى اللغة الفرنسية :

* Correspond , Affairs Egypt, 1881, Politisches Archiv , Alex.
Fasz XXXVIII/195, Haus, Hol-u-Staat, Sarchiv Wien .* Archives de maison, de cour et d'etat , Vienne, Actes , Politico ,
Commerciaux , Finances, Fasz XXX/9 , Fasz XXXI/24 .

- الأرشيف الإنجليزي :

* F.O. 78, 2998 , 3000 , 3001 , 3011 .

- مجموعة برودلي :

* The Trial And Pardon of Arabi Pacha .

Sammarco , No , 241 , Le Coup d'etat , 1878 .

ثانياً - الوثائق المنشورة :

١ - الوثائق العربية

* تقرير أحمد عرابي باشا المصري المقدم إلى المحامين برودلي ونابيير في ٢٩
أكتوبر ١٨٨٢ ، مطبعة الجامعة بمصر ، د . ت .* تقرير عام مرفوع من اللورد دوفرين إلى اللورد جرانثل وزير خارجية إنجلترا
بشأن إصلاحات مصر ، مطبعة الأهرام ، الإسكندرية ١٨٨٣ .* لائحة مرفوعة إلى جلالة الأمير توفيق الأول خديو مصر ، خدمة من جمعية
إتحاد مصر الفتاة ، الإسكندرية ١٨٧٩ .

٢ - الوثائق الأجنبية

* Blue Books :

Egypt , 1880 , 1881 , 1882 .

* Hansard's Parliamentary Debates , 1882 .

* Ministere des Affaires Etrangères , Documents Diplomatique Fran-
caise , 1880 , 1881 , 1882 .* Affaires Etrangères , Documents Diplomatique Affaires d'Egypte ,
1878 , 1879 , 1880 , 1881 , 1882 .

ثالثاً - المذكرات :

- * إبراهيم الهلباوى ، مذكرات تاريخ حياة إبراهيم بك الهلباوى ، الجزء الأول ، وتم الاعتماد على الأصل المخطوط والمحفوظ بدار الوثائق القومية بالقاهرة .
- * أحمد شفيق ، مذكراتى فى نصف قرن ، الجزء الأول ، مطبعة مصر ، ١٩٣٤ .
- * أحمد عربى ، كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية ، جزآن ، وتم الاعتماد على الأصل المخطوط والمحفوظ بدار الكتب بالقاهرة .
- * عبد الله النديم ، مذكرات جمعها محمد أحمد خلف الله تحت عنوان « عبد الله النديم ومذكراته السياسية » ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ، ١٩٥٦ .
- * قلبنى فهمى ، مذكرات قلبنى فهمى باشا ، الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ، مطبعة صادق ، المنيا ، ١٩٤٧ .
- * محمد عبده ، مذكرات جمعها وقدمها طاهر الطناحى تحت عنوان « مذكرات الإمام محمد عبده » ، كتاب الهلال ، القاهرة ، ١٩٦١ .

رابعاً - المصادر :

- * سليم النقاش ، مصر للمصريين ، الجزء الرابع والخامس ، الإسكندرية ، ١٨٨٤ .
- * فؤاد كرم ، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، النظارات والوزارات المصرية ، الجزء الأول ، دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٩ .
- * محمود فهمى ، البحر الزاخر فى تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٨٩٤ .

خامساً - الدوريات :

١ - الدوريات العربية

- * أبو نظارة زرقاء ، أسبوعية ، باريس ، يعقوب بن صنوع .
- * أبو نظارة زرقاء لسان حال الأمة المصرية الحرة ، ١٨٨٢ ، أسبوعية ، باريس ، يعقوب بن صنوع .
- * الإسكندرية ، ١٨٧٨ ، ١٨٧٩ ، ١٨٨٠ ، ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، أسبوعية ، الإسكندرية ، سليم حموى .

- * الأهرام ، ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، يومية ، القاهرة ، سليم وبشارة تقلا .
- * التجارة ، ١٨٧٨ ، ١٨٧٩ ، يومية ، الإسكندرية ، أديب إسحق وسليم النقاش .
- * التكتيك والتبكيث ، ١٨٨١ ، أسبوعية ، الإسكندرية ، عبد الله النديم .
- * الجنة ، ١٨٨٢ ، نصف أسبوعية ، بيروت ، سليم البستاني .
- * الحاوي ، ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، أسبوعية ، باريس ، يعقوب بن صنوع .
- * السلام ، ١٨٧٩ ، أسبوعية ، الآستانة ، جبرائيل دلال .
- * الطائف ، ١٨٨٢ ، أسبوعية ، الإسكندرية ، عبد الله النديم .
- * العصر الجديد ، ١٨٨٠ ، أسبوعية ، القاهرة ، عبد الغنى مدنى وإبراهيم سراج .
- * الكوكب المصرى ، ١٨٧٩ ، ١٨٨٠ ، ١٨٨١ ، أسبوعية ، القاهرة ، موسى كاستلى والسيد وفا .
- * المحروسة ، ١٨٨٠ ، ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، أسبوعية ، القاهرة ، سليم النقاش وآخرون .
- * المفيد ، ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، نصف أسبوعية ، القاهرة ، مصطفى ثاقب وحسن الشمسى .
- * الوطن ، ١٨٧٧ ، ١٨٧٨ ، ١٨٧٩ ، ١٨٨٠ ، ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، يومية ، القاهرة ، جندى إبراهيم وميخائيل عبد السيد .
- * الوقائع المصرية ، ١٨٧٩ ، ١٨٨٠ ، ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، نصف أسبوعية ، القاهرة ، إدارة نشر المطبوعات بنظارة المالية .
- * الوقت ، ١٨٧٩ ، ١٨٨٠ ، ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، يومية ، الإسكندرية ، سليم تقلا .
- * صدى الأهرام ، ١٨٧٩ ، يومية ، الإسكندرية ، سليم تقلا .
- * مرآة الشرق ، ١٨٧٩ ، نصف أسبوعية ، القاهرة ، سليم عنجورى .
- * مصر ، ١٨٧٩ ، ١٨٨٠ ، ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، أسبوعية ، القاهرة ، أديب إسحق .

٢ - الدوريات الأجنبية

* The Times , 1879 , 1882 , London .

سادساً - المراجع :

١ - المراجع العربية

* إبراهيم عبده ، (أ) أبو نظارة ، إمام الصحافة الفكاهية المصورة وزعيم المسرح فى مصر ١٨٣٩ - ١٩١٢ ، الطبعة الأولى ، مكتب الآداب ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

(ب) تاريخ مصر فى خمس وسبعين سنة ، جريدة الأهرام ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥١ .

(ج) تطور الصحافة المصرية وأثرها فى النهضة الفكرية والاجتماعية ، الطبعة الثانية ، مطبعة المتوكل ، القاهرة ، ١٩٤٥ .

* إبراهيم فوزى : السودان بين يدى غوردون وكتشنر ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٣١٩هـ (١٩٠١ م) .

* أحمد أحمد الحنة ، تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ، الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

* أحمد تيمور ، تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ، القاهرة ، ١٩٤٠ .

* أحمد زكى بدوى ، تاريخ مصر الاجتماعى ، مطبعة صلاح الدين ، القاهرة ، ١٩٣٥ .

* أحمد عبد الرحيم مصطفى ، (أ) تطور الفكر السياسى فى مصر الحديثة ، قسم البحوث والدراسات التاريخية والجغرافية ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

(ب) الثورة العربية ، المكتبة الثقافية ، القاهرة ، ١٩٦١ .

(ج) مصر والمسألة المصرية ١٨٧٦ - ١٨٨٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

- * أحمد فتحى زغلول ، المحاماة ، مطبعة المعارف ، مصر ، ١٩٠٠ .
- * السيد محمد رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، الجزء الأول ، مطبعة المنار ، القاهرة ، ١٩٣١ .
- * إلياس زاخورة ، مرآة العصر فى تاريخ ورسوم أكابر الرجال بمصر ، المطبعة العمومية ، القاهرة ، ١٨٧٩ .
- * جرجس حنين ، الأقطان والضرائب فى القطر المصرى ، الطبعة الأولى ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٠٤ .
- * راشد البراوى ، محمد حمزة عيش ، التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، ١٩٤٤ .
- * رؤوف عباس حامد ، النظام الاجتماعى فى مصر فى ظل الملكيات الزراعية الكبيرة ١٨٣٧-١٩١٤ ، الطبعة الأولى ، دار الفكر الحديثة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٣ .
- * صلاح عيسى ، الثورة العربية ، الطبعة الأولى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
- * عبد الرحمن الرافعى ، (أ) الثورة العربية والإحتلال الإنجليزى ، الطبعة الأولى ، مطبعة النهضة ، القاهرة ، ١٩٣٧ .
- (ب) عصر إسماعيل ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ .
- (ج) مصر والسودان فى أوائل عهد الإحتلال ، الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٢ .
- * عبد العاطى أحمد ، الفكر السياسى للإمام محمد عبده ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٨ .
- * عبد العزيز الرفاعى ، فجر الحياة النيابية فى مصر ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
- * عبد الفتاح نديم ، سلافة النديم فى انتخابات السيد عبد الله النديم ، النجى الأول ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩١٤ .

* عبد اللطيف حمزة ، (١) أدب المقالة الصحفية فى مصر ، الجزء الأول ،
الطبعة الأولى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ،
١٩٥٠ .

(ب) العقدة الشركسية عند مدرسة الشيخ محمد
عبد، مطبعة جامعة القاهرة ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

* على الحيدى ، عبد الله النديم خطيب الوطنية ، المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، أعلام العرب ٩ ، القاهرة ، د . ت .

* على بركات ، تطور الملكية الزراعية فى مصر ١٨١٣ - ١٩١٤ وأثره على
الحركة السياسية ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

* محمد أنيس ، السيد رجب حراز ، التطور السياسى للمجتمع المصرى
الحديث، دار النهضة العربية ، القاهرة ، د . ت .

* محمد خليل صبحى ، تاريخ الحياة النيابية فى مصر من عهد ساكن الجنان
محمد على باشا ، الجزء الرابع ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٧ .

* محمد فهمى لهيطة ، تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة ، الطبعة
الثانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٤ .

* محمد كامل مرسى ، الملكية العقارية فى مصر وتطورها التاريخى من عهد
الفرعنة حتى الآن ، مصر ، ١٩٣٦ .

* محمود الخفيف ، أحمد عرابى الزعيم المفترى عليه ، الجزء الأول ، كتاب
الهلل ، القاهرة ، ١٩٧١ .

* محمود متولى ، الأصول التاريخية للرأسمالية المصرية وتطورها ، الهيئة
المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

* ميخائيل شاروبيم ، الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث ، الجزء الرابع ،

الطبعة الأولى ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٠٠ .

* نفوسة زكريا ، عبد الله النديم بين الفصحى والعامية ، الدار القومية للطباعة

والنشر ، الإسكندرية ، ١٩٦٦ .

* يوسف نحاس ، الفلاح ، حالته الاقتصادية والاجتماعية ، مطبعة المقتطف

والمقطم ، القاهرة ، ١٩٢٦ .

٢ - المراجع المترجمة

* بير ، ج ، دراسات في التاريخ الاجتماعي لمصر الحديثة ، ترجمة وتقديم

عبد الخالق لاشين ، عبد الحميد فهمي الجمال ، مكتبة الحرية الحديثة ،

جامعة عين شمس ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

* روثستين ، تيودور ، تاريخ المسألة المصرية ١٨٧٥ - ١٩١٠ ترجمة عبد الحميد

العبادي ، محمد بدران ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة ، ١٩٢٣ .

* فارمان ، ألبرت ، مصر وكيف غدر بها ، ترجمة عبد الفتاح عنایت ، المؤسسة

المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

* لاندز ، دافيد ، بنوك وباشوات ، ترجمة عبد العظيم أنيس ، دار المعارف ،

القاهرة ، ١٩٦٦ .

* مارلو ، جون ، تاريخ النهب الاستعماري لمصر ١٧٩٨ - ١٨٨٢ ، ترجمة

عبد العظيم رمضان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

* هنرى عيروط ، الفلاحون ، ترجمة محيى الدين اللبان ، وليم داود مرقص ،

مؤسسة الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

٢ - المراجع الأجنبية

- * Bear , G. , A History of Londownership in Modern Egypt 1880 - 1950 , Oxford University Press , London , 1962.
- * Bemlan , V. L'Egypte et L'Europe , London , 1881.
- * Biovès , A., Francais et Anglais en Egypte 1881 - 1882 , Paris , 1910.
- * Blunt , W . S . , A - My Diaries , 2 vols , First Published , London .
B - Secret History of the Englis Occupation of Egypt,
Second Edition, London , 1907 .
- * Bréhier , L. , L'Egypte, de 1798 - 1900 , Paris 1900 .
- * Broadly , A . M., How We Defended Arabi And His Friends , London , 1884 .
- * Chaillé - Long - Bey , Les Trois Prophètes : le Mahdi , Gordon , Arabi, Second Edition , London , 1906 .
- * Cromer , The Earl of , Modern Egypt , 2 Vols, London , 1908 .
- * Dicey , E . , The Story of the Khedivate , London , 1902.
- * Duse , M . , In the Land of the pharaohs , First Edition , London , 1911.
- * Malet , S . E . , Egypt 1879 - 1882 , London , 1909 .
- * Malortie , Baron de , Egypt , Native Rulers and Fareign Interference , Second Edition , London , 1883 .
- * Milner , Sir A. , England in Egypt , Seventh Edition , London , 1899.
- * Ninet , J . , A - Arabi Pacha , Paris , 1884 .
B - Origin of the National Party in Egypt , the Nineteenth
Century , Vol . XIII , London , 1883 .
- * Sabry , M. , La Genèse de L'Esprit National, 1863-1882 . Paris , 1924.
- * Scotides , N . , L'Egypte Contemparaine et Arabi Pacha , Paris , 1880.
- * Wallace , D . M . , Egypt and The Egyption Question , London , 1883 .



المحتويات

الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة
١١	التمهيد : مصر والتسلط الأجنبي (١٨٤٨ - ١٨٨١)
	• الباب الأول : القوى الاجتماعية في مرحلة التكوين الثوري
٢١	الفصل الأول : الفلاحون
٦١	الفصل الثاني : التجار والحرفيون
٧٥	الفصل الثالث : المثقفون
١٢٥	الفصل الرابع : ملاك الأراضي
	• الباب الثاني : العسكريون والتضامن الثوري ومجاهدة القوى المضادة
١٥٩	الفصل الخامس : انطلاق العسكريين والوحدة مع كبار الملاك
١٨٥	الفصل السادس : انتصار الثورة وممارسة العسكريين للسلطة
٢٢١	الفصل السابع : القوى المضادة
	• الباب الثالث : القوى الخارجية والموقف من الأحداث الثورية
٢٧٧	الفصل الثامن : تحركات الدولة العثمانية
٣٠١	الفصل التاسع : مساعي حليم وإسماعيل من أجل العرش
٣١٥	الفصل العاشر : التأييد العربي والإسلامي والأوربي
	• الباب الرابع : القوى الاجتماعية وتناغم التلاحم الثوري
٣٣٧	الفصل الحادي عشر : الفلاحون
٣٨٣	الفصل الثاني عشر : التجار والحرفيون
٤٠٥	الفصل الثالث عشر : الجناح المدني من المثقفين
٤٧٣	الفصل الرابع عشر : ملاك الأراضي
٥٠٣	المشهد الأخير
٥٠٩	البيانات الجغرافية

أ.د. لطيفة محمد سالم

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ورئيس قسم التاريخ بكلية آداب بنها

أهم المؤلفات :

- القوى الاجتماعية في الثورة العربية، الطبعة الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١.
- صحافة الثورة العربية، دراسة ضمن كتاب مصر للمصريين، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٨١.
- الحكم المصري في الشام (١٨٣١ - ١٨٤١)، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجامعي، ١٩٨٣، الطبعة الثانية، مكتبة مدبولي، ١٩٩٠.
- مصر في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤.
- المرأة المصرية والتغيير الاجتماعي (١٩١٩ - ١٩٤٥)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤.
- النظام القضائي المصري الحديث (١٨٧٥ - ١٩١٤)، الجزء الأول، الطبعة الأولى، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٨٤، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.
- النظام القضائي المصري الحديث (١٩١٤ - ١٩٥٢)، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٨٦، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.
- عرابي ورفاقه في جنة آدم (١٨٨٣ - ١٩٠١)، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٧.
- الصحافة والحركة الوطنية المصرية (١٩٤٥ - ١٩٥٢)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧.
- فاروق وسقوط الملكية في مصر (١٩٣٦ - ١٩٥٢)، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي، ١٩٨٩، الطبعة الثانية، مكتبة مدبولي، ١٩٩٦.
- تاريخ القضاء المصري الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١.
- أزمة السويس (١٩٥٤ - ١٩٥٧) جذور. أحداث. نتائج، مكتبة مدبولي، ١٩٩٧.
- المؤلفة حائزة على جائزة الدولة التشجيعية في العلوم الاجتماعية (تاريخ) لعام ١٩٨٤.
- المؤلفة حائزة على جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية لعام ٢٠٠٠.

القوى الاجتماعية فى الثورة العربية

الجزور والأحداث

كانت الثورة العربية ضرورة اجتماعية وأمرأ طبيعياً فرضتهما الظروف التى مربها المجتمع المصرى من تسلط الأوتقراطية والانحراف والظلم واستغلال الأقلية المحدودة للأكثرية الساحقة ، وتدخل الأجانب الذى طمس معانى القومية ، وقضى على القيم ، واحتكر الاقتصاد ، وتغلغل فى السياسة ، فكان لابد من دفع هذا الجور الذى لا حدود لسلطانه . ومن هنا فرضت الثورة على مصر لتكون حركة شاملة تسعى إلى تغيير جوهرى فى كيان المجتمع وتركيبه وإيديولوجيته ، إذن فالثورة عميقة وشاملة وعامة ، لا تحفل بالأشياء السطحية ، وإنما ركزت جهودها على أساسيات المجتمع ودعائمه . وقد اشتركت قوى مصر الاجتماعية فى الثورة ، ومن خلال ذلك كان الحكم على العمل الثورى الذى سعى لحياة تسودها العدالة التى لا تتحقق إلا بتحول جذرى يتضمن الشكل السياسى والبناء الاقتصادى والوضع الاجتماعى .